المركز القومي للترجمة

ج . ڤندريس

اللغة

ميراث الترجمة

ترجمة: عبد الحميد الدواخلى
محمد القصاص
تقديم: فاطمة خليل

1889

اللغـــــة

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر 2006 تحت إشراف: جابر عصفور

مدير المركز: رشا إسماعيل

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 1889
- اللغة
- ج. ڤندريس
- عبد الحميد الدواخلي
- محمد القصاص
- فاطمة خليل
- اللغة: الفرنسية
- الطبعة 2014

هذه ترجمة كتاب:

Le Langage, Introduction Linguistique à l'histoire

Par: Joseph Vendryes

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة
شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: 27354524 فاكس: 27354554
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

اللغة

تأليف: ج. فندريس

ترجمة: عبد الحميد الدواخلي

محمد القصاص

تقديم: فاطمة خليل

2014

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

قندريس؛ ج.
اللغـــة / تأليف: ج. قندريس، ترجمة: عبد الحميد الـدواخلي، ومحمد القصـاص، تقديم: فاطمة خليل؛
القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٤
٥٠٠ ص، ٢٤ سم
١ – اللغة – تاريخ ونقد
(أ) الدواخلي، عبد الحميد (مترجم)
(ب) القصاص، محمد (مترجم مشارك)
(ج) خليل، فاطمة (مقدمة)
(د) العنوان ٤٠٠,٩

رقم الإيداع: ٢٠١١/٥٣٢٢
الترقيم الدولي: I.S.B.N 978-977-704-510-0
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

تقديم

يقوم مشروع المركز القومي للترجمة بوزارة الثقافة المصرية ، من بين أنشطة أخرى، من خلال إعادة نشر وتقديم الإبداعات الفكرية والأدبية، على الرؤية الثاقبة للقائمين على هذه المؤسسة الواعدة في إطار إحياء الموروث الثقافي والإبداعي لصفوة الكتب المختارة بعناية فائقة تتجاوز حدود الزمن والرؤية المستقبلية لدراسات البحث العلمي.

والكتاب الذي بين أيدينا الآن بعنوان "**اللغة**" للباحث العلاّمة جوزيف فندريس، العميد الأسبق لكلية الآداب بجامعة باريس، وعضو المعهد الفرنسي ورئيس الجمعية اللغوية الأسبق بباريس، يمثل علامة فارقة في نقل المعارف الإنسانية من اللغات الأجنبية إلى لغتنا العربية، وهو بمثابة الدراسة المرجعية المتخصصة في البحث اللغوي. وقد قام بتعريبه كل من الدكتور عبد الحميد الدواخلي، بكلية دار العلوم، جامعة فؤاد الأول (القاهرة حاليًا) والدكتور محمد القصاص بكلية الآداب بنفس الجامعة، حيث كانا من أعضاء الجمعية اللغوية بباريس، ونشرته مكتبة الأنجلو المصرية عام ١٩٥٠.

اللغة نظام من العلامات المرتبطة بالتواصل بين البشر. وحسبما وصفها عالم اللغويات فرديناند دى سوسير فإن اللغة هي " كنز قائم يتم الاستفادة منه في مجتمع ما وهى نظام مبني على الأجرومية في عقول مجموعة من الأفراد، ومن ثم فإن اللغة ليست كاملة لدى شخص واحد، ولكنها مشتركة في عقل مجموعة من الأشخاص"(دراسات في علم اللغة العام، ١٩٤٥). وفيما يتعلق بالكلام فإن اللغة هي "نظام اجتماعي ومستقل

للفرد" وهى ضرورة حتى يكون الكلام ملموسًا وفعّالاً. ومع ذلك، فاللغة التي نـدركها باعتبارها نظاما أو مجموعة من القوانين والقواعد الصرفية والنحوية التي تحكـم أداءهـا ودورها الوظيفي لا يمكن أن تكون هدفًا للبحث التجريـبـي وإنما من خلال الكلام، أي من خلال الظواهر الملموسة للمتحدث الفرد في مجتمع ما محدد. وعند محاولة دراسة هذه الظواهر للإنجازات اللغوية الملموسة قال عالم اللغة الإسباني كوسيريو (دراسات في علوم اللغات الرومانية، ١٩٦٣) إن هناك لغة وسيطة بين اللغـة والكـلام إشـارة إلى مجموعة الاستخدامات الشائعة والدائمة التي تشكل إخراج اللغة المعيارية من لغة الكلام إلى اللغة داخل مجتمع ما. والقاعدة الأساسية هي التركيز على صحة وسـلامة أفعـال الكلام. ومن أمثلة ذلك تغير القاعدة الأساسية لكل لغة في مراحل تطورها التـاريخي أو وفقا لمناطقها الجغرافية.

وعند تناول تحليل بنية اللغة، فإن المفهوم الأساسي المطروح من جانب اللغويين قد قام على المستويات المختلفة للغة. والنموذج الأكثر شيوعا لتحليل بنية اللغة يركـز على المستويات التالية، وهى:

أ) مستوى الظواهر الفيزيائية المتعلقة بأجهزة النطق والنقل الـصوتي والاسـتماع إلى الأصوات، من الظوهر التي تشكل المجال المختص بعلم الأصوات؛ إلى الـشكل حول كيفية تنظيم اللغات المختلفة لهذه المكونات الصوتية، وهو ما نطلق عليـه علم توظيف الأصوات، الذي يعالج "الأصوات وتآلفاتها الممكنة مـع اسـتقلالية المعنى الذي تنقله" (ألاركوس يوراتش، (الأصوات في اللغة والدلالة، ١٩٩٤)؛

ب) مستوى تحليل الوحدات الصوتية العليا (الفـونيم) والوحـدات الـصوتية الصغرى (المونيم)، التي تنظم في تسلسل محدد للتعبير عن العلاقات المختـصة

بالمعنى وهو الجانب الذي يختص بعلم القواعد الذي ينقسم إلى فرعين للتحليل: الصرف الذي يتركز حول بناء المفردات، والنحو الذي يختص بترتيب المفردات في الجملة؛

ج) والمستوى الثالث للتحليل هو المختص بالوحدات اللغوية التي هدفها دراسة علم الدلالة من حيث الدال والمدلول وعلم المعاجم الذي يقوم على الدراسة التجريبية والعلمية للمفردة من حيث الأصل والشكل، ومعنى الكلمات، وعلم تأليف المعاجم الذي يختص بوضع قواميس اللغة وهدفه هو إحصاء وتعداد المفردات الوافدة على اللغة مع إضافة معلومات من حيث الاشتقاق والنوع والتماثل والدلالة والسياق، ...إلخ؛

د) والمستوى الرابع للتحليل هو ما يختص بالموقف الاتصالي أو السياق الذي تطرحه الجمل وهو الهدف الذي يقوم عليه علم اللغة التداولي (ج. ديوا، اللغة والنص، ١٩٧٩).

ومن بين التصنيفات المختلفة للغة التي قدمها الدارسون في هذا التخصص الحيوي في العلوم الإنسانية، من خلال النظام الاجتماعي، هناك العلاقات بين اللغة الأم واللهجة، إلى جانب اللغة المعيارية واللغة الرسمية والعلاقات الاستبدالية؛ حيث تدخل كل كلمة من الكلمات المختارة في علاقة استبدالية مع غيرها من الكلمات الممكنة التي تم استبدالها، وقد يكون استخدام الكلمة متوقفًا على خيار المتكلم، أو على متطلبات السياق مثل كلمة "حضر" بدلاً من "غاب"، ومن ثم كل كلمة من الكلمات التي كان من الممكن أن تحل محلها هي علاقة تغاير. وعلاقة التغاير هي إحدى علاقتين تندرجان تحت علاقة الاستبدال، والعلاقة الأخرى هي علاقة التشابه التي يمكن أن نوضحها من المثال السابق

حيث كان على المتكلم أن يقول "حضر"، وليس له أن يقول "حضرا"، أو "حضروا"، أو "حضرت"؛ لأن قواعد اللغة العربية تفرض هذا الشيء دون غيره في هذا السياق. أمـــا العلاقات الائتلافية ويسميها دي سوسير بالعلاقات الترابطية، وشبيه بهذا العلاقة النحوية بين الكلمات، ففي اللغة العربية – كما هو معلوم – تتأثر الكلمات المتواليـــة بعـــضها ببعض. هذا إلى جانب اللغة الاصطناعية، التي تحاكي الأنظمة اللغوية التي تطورت طبيعيًا خلال مدى زمني أطول؛ ولغة البرمجة، وهي أساليب معيارية لإيـــصال التعليمـــات إلى الحواسب الآلية، وغيرها. وكما يقول ج. ديبوا إن اللغة تتنوع من حيث كونهـــا لغـــة ثقافة، أو تقنية، أو شعبية، أو دارجة، أو اصطلاحية،...إلخ. سواء على المستوى الشفاهي أو المكتوب، فضلا عن اللغات الخاصة المتعلقة باللغة العلمية والفنية والقانونية والإداريـــة والأدبية. وقد أشار الباحث اللغوي ت. لوان دوفيسكي (اللغة الشفاهية واللغة المكتوبة، ١٩٨٢) إلى التمييز بين لغة الكلام واللغة المكتوبة، حيث إن الأولى سابقة على الثانيـــة، ليس فقط من حيث الترتيب الزمني وحسب، وإنما لكونها لغة ذات قـــدرات اتـــصالية، حيث إن اللغة المكتوبة لم تكن مؤهلة لإنتاج هذا الكم الكبير من تنويعات اتسمت بهـــا اللغة الشفاهية مثل نبرات الصوت ولهجة الكلام والوقفات الصوتية، ...إلخ. بمعـــنى أن المتكلمين بإمكانهم أن يجزئوا العلامات اللغوية، ويعيدوا تركيبها للتعبير عن معنى مغاير، مثلما يفعل الطفل بألعاب الفك والتركيب حين يرسم أشكالاً مختلفـــة بإعـــادة الفـــك والتركيب. وتسمى هذه الخصوصية اللغوية التجزئة المزدوجة، ويشير اللغويون عادة إلى نوعين من التجزئة: تجزئة التراكيب إلى مصرِّفات (مورفيمات)، وهي المسماة بالتجزئـــة الأولى، وتجزئة المصرَّفات إلى أصوات وهي ما تسمى بالتجزئة الثانيـــة . فمثـــال الأولى تجزئة جملة "الولد يبكي" إلى (ال) الذي هو مصرف قواعدي، و(ولد)، وهو مـــصرف

معجمي، والمصرَّف المعجمي المقيَّد (ب ك ى)، وصيغةى (يفعل)، وهو مصرَّف قواعدى مقيد. ومثال الثانية تجزئة كلمة ولد إلى (و + فتحة + ل + فتحة + دال). ومع ذلك، يجب أن نبرز الاهتمام باللغة المكتوبة، إلى جانب الشهرة التي اتسمت بها من حيث أصالتها وبداياتها من خلال جوانبها المهمة مثل نقل المعلومات المتخصصة (العلمية والفلسفية والعقائدية والسياسية والصحفية،...إلخ.) إلى جانب مصداقيتها للقواعد والنظام اللغوي والحفاظ على هويتها. وخير دليل على اللغات الخاصة ما يتعلق باللغة الأدبية، حيث استطاع رولان بارت (١٩٧١)، أن يشير إلى أن الخطاب الأدبي هو وسيلة الاتصال في النقد الأدبي المعاصر، وقد تبنى هذا المنهج عدد كبير من البنيويين وعلماء السيميوطيقا بتحليل النصوص الأدبية ووضع المفاهيم وآليات التحليل اللغوية انطلاقًا من بنية الرواية، حيث إن لغة الرواية أكثر حضورًا من اللغة ذاتها.

وقد أثارت نظرية رولان بارت عددًا من الباحثين الذين اتجهوا إلى دراسة نماذج داخل علوم الأدب، ومن بينهم .ج. شميت (دراسات في علم اللغة والبنيوية، ١٩٧٨) الذي ارتأى فشل التعريف البنيوي للبيوطيقا اللغوية. وعلى الرغم من ذلك، ظهرت دراسات لاحقة تتعلق بالسيميوطيقا والبراجماتية ونظرية التلقي (حامد أبو أحمد، نظرية التلقي ١٩٩٧) التي قامت على تحليل النصوص الأدبية من وجهة النظر الاتصالية مثل العلامات الفنية المركبة باعتبارها أفعال الكلام في موقف اتصالي معين مثل الرسائل الموجزة والمختصرة التي يدركها ذهن المتلقي داخل السياق والشفرات المتعارف عليها والقدرات الثقافية والمعرفية وجماليات اللغة (صلاح فضل،شفرات النص، ١٩٩٦). ومن ثم فإن النصوص الأدبية يمكن اعتبارها شكلا خاصا من أشكال الاتصال اللغوي وهي بمثابة العمل الفني للغة.

ونستمد من التقديم لهذا الكتاب ما ذكره المعربان المصريان بضرورة أن تتضافر الأفكار في المؤسسات العلمية المصرية والعربية، وأن تتعاون من أجل وضع بنيان قـوي للدراسات اللغوية لخلق "الوعي اللغوي" بين الناطقين بلغة الضاد، هذا إلى جانب إنشاء جمعيات لغوية من المتخصصين تعاون في الدراسات اللغوية مع الهيئات الرسمية وإصـدار مجلات تهتم بالدراسات المتخصصة في علوم اللغة لعرض الآراء والنظريات الجديدة مثلما يحدث في الغرب. وهذه الأمنيات طرحها الباحثان في عام ١٩٥٠، منذ أكثر من سـتين عامًا. ونقول إنه وإن كان قد تحقق منها الجزء اليسير إلا أننا نطمح إلى المزيد، حيـث الألفية الثالثة بتقنياتها وتطورها الكبير في مجال البحوث الإنسانية والاجتماعية والعلميـة على مختلف مستوياتها.

ويتضمن هذا الكتاب القيم التصدير الذي عرضه الباحث الفرنسي الفذ هنرى بر تحت عنوان "اللغة وأداة التفكير" تناول فيه مشكلة أصل اللغة وتطورها والحاجة إليهـا بالتعاون مع الآخر وارتباطها الوثيق بالظروف التاريخية، هذا إلى جانب سيكولوجية اللغة وعلاقتها بالفكر الذي يستمر بالحياة. وتلا ذلك مقدمة للباحث فندريس أثنى فيها على من سبقوه في هذا المجال من الدراسات المتعلقة باللغة ومقارنتها باللغات الأخرى بما يخدم الهدف الذي من أجله ألف هذا الكتاب. وفي التمهيد تناول أصل اللغة من حيث لغـة الكلام واللغة المكتوبة.

ويتناول الجزء الأول من الكتاب "الأصوات"، حيث أشار في الفصل الأول إلى المادة الصوتية وتصنيفاتها التي مازلنا نعتمد عليها حتى اليـوم، إلى جانـب الدراسـات الصوتية التي قام بها النحاة العرب في اللغة العربية. ويأتي الفصل الثاني ليعرض "النظـام الصوتي وتغييراته" حيث أشار إلى أنه في كل لغة ترتبط الأصوات بعضها ببعض ارتباطا

وثيقًا، فهي تكوِن نظامًا متجانسًا مغلقًا، تنسجم أجزاؤها كلها فيما بينها؛ وهـذه أول قاعدة من قواعد الصوتيات؛ وهي ذات أهمية قصوى، لأنها تثبت أن اللغة لا تتكون من أصوات منعزلة، بل هي نظام من الأصوات. ويقوم الفصل الثاني على عنوان "الكلمـة الصوتية والصورة اللفظية"، حيث أشار إلى أننا لا نعبر بأصوات عن كل ما في ذهننا من وحدات تصورية. فالتأمل مثلاً لا يقتضي تمرين الأعضاء المنتجة للصوت؛ ولكن التأمـل كلام داخلي فيه تتسلسل الجمل كما في الكلام المنطوق (ف. أجيجيه: الكلام الداخلي، باريس ١٨٨١). وانتهى لتألف الصورة اللفظية والجملة من عناصر واحدة تـسمى في النحو بالكلمات، وأن الكلمة الصوتية قد تشتمل على عدة كلمات بالمعنى المقـصود في النحو المعتاد، بل إن حدودها قد تكون جلية الوضوح تبعا للغات.

ويتناول الجزء الثاني من هذا الكتاب " النحو" عدة فصول، الأول منها بعنـوان "الكلمات والأصوات"، حيث بدأ بالإشارة إلى أن كل جملة تنتظم في نوعين من العناصر المتميزة: أولاً التعبير عن عدد ما من المعاني التي تمثل أفكارًا، وثانيًا الإشـارة إلى بعـض العلاقات التي بين هذه الأفكار. فإذا قلت: الحصان يجرى، ففي ذهني فكـرة الحـصان وفكرة الجري، وقد جمعت بين الاثـنين في هـذا الإثبـات الـذي هـو "الحـصان يجري".والفصل الثاني بعنوان " الفصائل النحوية" حيث يراد بهذا المصطلح المعاني الـتي يعبر عنها بواسطة دوال النسبة (ث. جوبلن: الفصائل النحويـة: رقـم ٣٢، ج ٥، ص ١٨٩ وما يليها. يارنجر ٣ فرع ١؛ فان جنيكن: رقم ٧٧ ، ص ٦ وما يليها). فـالنوع والعدد والشخص والزمن والحالة الفعلية والتبعية والغاية والآلة، ...إلخ، كلها فـصائل نحوية في اللغات تسمى دوال النسبة إلى التعبير عنها. وعنوان الفصل الثالث "الأنـواع المختلفة للكلمات" مثل الاسم والفعل والصفة،...إلخ. والفصل الرابع بعنـوان " اللغـة الانفعالية" باعتبار أن الإنسان لا يتكلم ليصوغ أفكارًا فحسب، بل يتكلم أيضًا ليؤثر في

أمثاله وليعبر عن مشاعـــره. وأشار الباحث إلى ضرورة أن نفرق بين اللغة المنطقية واللغة الفاعلة واللغة الانفعالية، بمعنى التفريق بين الذكاء والشعور، حيث إن اللغة الفاعلة لهـــا أهميتها التي تظهر لنا بجلاء حينما نحاول أن نتصور اللغة الإنسانية في مهدها. هـــذا إلى جانب أنها في مجرى التاريخ تسير على قوانين خاصة بها: فميدانها من الوجهة النحوية هو ميدان الأمر في الفعل وميدان المنادى في الاسم، وكل منـــهما لـــه في فـــصيلته صـــيغ واستعمالات خاصة. واللغة الفاعلة مع كونها تستمد غذاءها في أحيان كثيرة من اللغـــة المنطقية التي تستعير منها بعض العبارات النحوية الجامدة في صورها، تستحق رغم ذلك أن تميز عنها؛ لأنها تقوم بدور قد قصر عليها وحدها وتملك آلات خاصة بها. وأن الفرق الأساسي بين اللغة الانفعالية واللغة المنطقية في تكوين الجملة. وهذا الفرق ينبثق جليًـــا عندما نقارن اللغة المكتوبة باللغة المتكلمة. ويأتي الفصل الخامس تحت عنوان " التغيرات الصرفية" ويركز على أن النظام الصرفي لدى كل متكلم يحمل في نفسه من أسباب التغيير بقدر ما يحمله النظام الصوتي، حيث إن التغييرات الصرفية إنمـــا تـــصيب الكلمـــات لا العناصر الصرفية، وذلك على عكس التغيرات الصوتية التي قد تصيب الأصوات مستقلة عن الكلمات. ولا يرجع ذلك فحسب إلى أن العناصر الصرفية تكون في أغلب الأحيان جزءًا لا يتجزأ من الكلمة، بل يرجع ذلك على وجـــه الخـــصوص إلى أن الـــسبب في التغيرات الصرفية ليس في المهارات العقلية، بل في استعمال اللغة لهذه المهارات. أما الجزء الثالث في هذا الكتاب بعنوان "المفردات" فقد تناول فندريس في الفصل الأول منه "طبيعة المفردات ومداها"، حيث أشار إلى أن المفردات هي مجموع الكلمات في إحدى اللغات باعتبار قيمتها المعنوية، وأن الصرف مستقل عن قيمة الكلمات المعنوية وقيمتها الصوتية على السواء، وأن هذه النظم الثلاثة: نظام النطق، ونظام الصيغ النحوية، ونظام المفردات تستطيع أن تصوَّر منفصلة كل منها عن الآخرين، تحت تأثير أسباب مختلفـــة. وبعـــض

اللغات تجدد مفرداتها دون أن تغير شيئًا من صوتياتها أو من نظامها الصرفي. فنجد مثلاً في الأردية الأدبية (وهي فرع من الهندستانية) جملاً بأسرها ليس فيها من الهندية إلا النظام النحوي، أما الكلمات فكلها فارسية. والغجر الأرمنيون يستعملون لغة أرمينية نطقًا ونحوًا، وإن كانت مفرداتها غريبة عن أرمينية. وذلك أن القالب النحوي الواحد يمكن أن تصب فيه مفردات مختلفة. والفصل الثاني من هذا الجزء جاء تحت عنوان "كيف تغير المفردات معانيها؟" حيث أشار إلى استقرار النظام الصوتي منذ الطفولة واستمراره طول الحياة والنظام الصرفي ثابت أيضًا، إلا أن استقراره يتطلب وقتًا أطول. أما المفردات فعلى العكس من ذلك لا تستقر على حال، لأنها تتبع الظروف. فكل متكلم يكون مفرداته من أول حياته إلى آخرها بمداومته على الاستعارة ممن يحيطون به. والفصل الثالث "كيف تغير الأفكار أسماءها؟" حيث عرض فندريس مقارنة بين مجموعة من المفردات في عصرين متباعدين من تاريخها، ومقابلة بين المفردات الفرنسية والمفردات اللاتينية أو بين هذه الأخيرة والمفردات الهندية الأوروبية، إذ وجد أن بعض الكلمات التي تدل على أشياء واحدة قد استمر بقاؤها باضطراد تام، غير خاضعة إلا للتغيرات الناجمة عن التطور الصوتي؛ وأن البعض الآخر قد جدد مرة أخرى أو أكثر من مرة.

والجزء الرابع من الكتاب تحت عنوان "تكون اللغات"، تناول في الفصل الأول منه " اللغة واللغات" مبينًا الفرق بين اللغة واللغات، حيث إن اللغة هي مجموعة الإجراءات الفسيولوجية والإجرائية التي في حوزة الإنسان لتمكنه من الكلام. أما اللغات فهي استعمال هذه الإجراءات بصورة عملية. ثم عرج على فكرة الربط بين اللغة والجنس، والربط بين اللغة والمجتمع. أما الفصل الثاني "اللهجات واللغات الخاصة" فيشير إلى بعض الصعوبة في حال محاولة رسم الحدود بين الفرنسية والبروفنسالية، أو بين الألمانية العليا والألمانية السفلى، أو بين الصربية والبلغارية، لأننا هنا لم نعد أمام لغتين من

أصلين مختلفين وصلت بينهما مكانيًا مصادفات التاريخ، بل أمام لغات منبعثة من أصل واحد وقد فرقت بينهما ظروف تاريخية. فالانتقال بين إحداها والأخرى انتقال غير محسوس، وليس هناك معارضة جسيمة بين لغتين وضعت إحداهما في مواجهة الأخرى، وزودت كل منهما بوسائل للتعبير مشتركة. والصعوبة تعظم إذا أردنا أن نضع حدودًا بين اللهجات التي في داخل مجال لغوي واحد. ويؤكد الفصل الثالث " اللغات المشتركة" على أن تعبير توحيد اللغة ضرورة اجتماعية. ولولا تفكك المجتمع لأصبح العالم أمام حشد من صور التكلم التي لا تزيدها إلا تفرقًا. ولكن الذين يتكلمون إحدى اللغات يميلون دائمًا إلى المحافظة عليها كما هي؛ وكذلك التبادل الكلامي الذي يحدث باستمرار بين أعضاء مجموعة اجتماعية واحدة يؤدي إلى توحيد اللغة. ومن هنا تنشأ اللهجات، وكذلك اللغات المشتركة التي تسير مع اللهجات جنبا لجنب. وتناول الفصل الرابع "احتكاك اللغات واختلاطها" باعتبارها ضرورة تاريخية، وهذا بالتالي يؤدي حتمًا إلى تداخلها. وقال فندريس من الخطأ أن نتصور كون المنافسة بين لغتين متماستين تحدث دائمًا على وتيرة واحدة في كل الحالات؛ لأن قوة اللغات ليست واحدة، ومن ثمّ كانت تختلف قدرتها على المقاومة. وأشار إلى عامل آخر له قوته العظيمة في المحافظة على سلامة الكثير من اللغات وبقائها: هو عامل الهيبة. فما كان من اللاتيني أن يرضى بتعلم إحدى لغات البربر، وأن كثيرًا ما يكون لهيبة اللغة ما يبررها من قيمتها الذاتية. والفصل الخامس "القرابة اللغوية والمنهج المقارن" حيث أفاد بأنه لا يتأتى لإحدى اللغات أن تلد لغة أخرى؛ وليس في وسع أي عالم لغوي أن يحدد الساعة التي وقع فيها هذا الميلاد. فإذا قلنا إن اللغة الفرنسية قد خرجت من اللاتينية، فمعنى ذلك أن الفرنسية هي الصورة التي صارت إليها اللاتينية خلال العصور في إقليم من الأقاليم. إذن فليست الفرنسية في كثير من الوجوه إلا اللاتينية نفسها. وكلما أوغلنا في تاريخ اللغة الفرنسية، وجدنا حالات

متنوعة يتلو بعضها بعضًا وتقربنا شيئًا فشيئا من اللغة اللاتينية. ومع ذلك فمن المحال أن نعين الحد الذي تنتهي عنده اللاتينية وتبدأ الفرنسية. وتاريخ اللغة الفرنسية مشحون بالثغرات؛ فهناك فترات لا نعرف عنها إلا القليل، وكانت ذات أثر حاسم في تكوين هذه اللغة. ومن جهة أخرى لم تكن الحركة التي ابتعدت بالفرنسية عن اللاتينية متماثلة الأجزاء، ومع ذلك فبين اللاتينية والفرنسية، رغم تنوع الأحوال التي تقلبت على الفرنسية، استمرار تاريخي هو الذي يُكون القرابة بين اللغتين. وهذا هو الوجه الأول من وجهي المسألة، ويمكننا أن نسميه بالتتابع. وهناك وجه آخر يجب أن يحسب حسابه، وهو الوجه الوضعي وهو ما نسميه بالتزامن.

أما الجزء الخامس " الكتابة" فقد تناول فيه فندريس في الفصل الأول منه" أصل الكتابة وتطورها"، حيث أشار إلى أن فهم مسألة أصل الكتابة يقوم على التخلص من عوائدنا العقلية بوصفنا قومًا متحضرين. فالذي في ذهننا هو أن القيمة الرمزية للكتابة أمر طبيعي. إذا لا يلزم لأطفالنا إلا بعض المران وشيء التفكير ليفهموا ما يريدونه مكتوبا ليس إلا صورة الكلمات التي تسمعها آذانهم. ولا يمر بهم وقت طويل حتى يتعودوا هذه الرياضة النفسية التي تنحصر في التوفيق بين الرسم والصورة، وفي الجمع بين دائرة الإدراك، وبين التصورات البصرية والتصورات السمعية. والزمن الذي قضيناه في طفولتنا لإخضاع عقلنا لهذه الرياضة كان من القصر بحيث لم يبق منه شيء في ذاكرتنا. فالفكرة في أذهاننا عن اللغة المكتوبة، قد حصلناها دون مجهود، وبصورة قريبة من الطبيعة. وفي الفصل الثاني "اللغة المكتوبة والرسم" تناول فندريس اللغة المكتوبة باعتبارها هي الطابع المميز للغات المشتركة. واللغة المشتركة بطبعها في نزاع دائم مع اللغة المتكلمة؛ لأن هذه الأخيرة، في خضوعها للتأثيرات الفردية، تميل دائمًا إلى الابتعاد عن المثل الأعلى الذي تحتذيه اللغة المشتركة. واللغة المكتوبة معرضة بدورها للغة المتكلمة، لأن اللغة المشتركة

تعتمد في مقاومتها على الكتابة أولاً وقبل كل شيء. ومن جهة أخرى تستعمل الكتابة في التعبير عن كثير من اللغات الخاصة، بل لا وجود لبعض هذه اللغات الخاصة إلا في صورة مكتوبة. ولهذا الاعتبار أيضًا كان الخلاف بين الكلام والكتابة أمرًا مقررًا ثابتًا. ومع ذلك لا يوجد رسم واحد يمثل اللغة المتكلمة كما هي. فإننا إذا تصورنا رسمًا مما يُسمى بالرسم الصوتي، وقد زود بحروف متنوعة وعلامات للتشكيل، فإن هذا الرسم لا يتيح معرفة النطق الحقيقي معرفة تامة لشخص لم يسمع الكلام باللغة التي يقرؤها. ومن ثم كان المعتاد في كتب الأصوات أن تصور الأصوات اعتمادًا على لغة معروفة للقارئ لا على الجهاز الصوتي للإنسان.

وفي خاتمة هذا الكتاب المهم تناول "تقدم اللغة"، حيث أشار إلى أنه من المناسب أن نحدد ماذا نعني بكلمة "تقدم اللغة". فأولئك الذين يستعملونها لا يفعلون أكثر من إدخالهم في علم اللغة مصطلحًا من تاريخ الأدب. إذ إن العادة قد جرت وقتًا طويلًا على اعتبار معنى التقدم في الأدب نظاما مذهبيًا؛ فكان الناس لا يرون في تطور الأنواع الأدبية إلا صعودًا نحو الكمال أو انحدارًا إلى الانحلال. وهذا هو الرأي الكلاسيكي الذي يذهب إلى أن الفن والذوق بعد أن يصلا إلى درجة كمالهما ينتهي بهما الحال إلى الانحدار والفساد. وقد نقل علماء الفيلولوجيا الكلاسيكيون هذه الفكرة إلى الدراسة اللغوية متخيلين أنه يوجد في تاريخ الإغريقية واللاتينية نقطة كمال وصلت إليها هاتان اللغتان بعد مجهودات طويلة، ومن بعدها سارتا في طريق الاضمحلال.

وفي نهاية هذا الكتاب للعلاّمة جوزيف فندريس عرض ثلاثة ملاحق تناول فيها بعض الإضافات المهمة لهذا الكتاب الذي فرغ من تأليفه عام ١٩١٤، حيث استدعى عدة تصحيحات ليجاري علم الدراسات اللغوية عام ١٩٢٤، منها كتاب "دراسة في

اللغويات العامة" لسوسير، الذي نشر عام ١٩١٦ وطبعته الثانية عام ١٩٢٢. وكتاب "اللغة" للعالم والباحث اللغوي سابير، وآخر لجسبرسن، وكتاب "علم اللغة واللهجات الرومانية" للباحث ميارديه الذي نشر في مونبيليه وباريس عام ١٩٢٣، وغيرها من الكتب المهمة في مجال البحث اللغوي والتي صدرت تباعًا.

وجاء تصنيف المراجع والمصادر المتعددة من مختلف اللغات التي استند عليها، منها الفرنسية التي أفرد لها مكانًا كبيرًا نسبيًا لتبين الدور الذي اضطلعت به فرنسا في مجال تطور الدراسات اللغوية، إلى جانب اللغات الإنجليزية والألمانية والإيطالية والدانماركية.

ويأتي فهرس هذا الكتاب الموسوعي بشكل متماسك يعرض فيه أهم النقاط التي طرحها. وهذا الكتاب الذي نقدم له يعد من المراجع المهمة في الدرس اللغوي وفي تاريخ سابق على الدراسات اللغوية الحديثة، حيث إن إصداره في عام ١٩١٤ يؤكد على الرؤية المستقبلية لهذا الباحث، ومن ثم فهو كتاب جدير بالاقتناء والاطلاع لكل راغب في البحث اللغوي.

من الله نستمد الهداية وعلى الله قصد السبيل،،

فاطمة خليل

إلى الخالدين الذين يغارون على العربية ويعملون في صمت وهدوء .

إلى المصلحين الذين يجاهدون حقاً في أن يستردّ العرب طابعهم الثقافي وأثرهم القوي الملحوظ في الحضارة الحديثة ، نهدي هذا الكتاب .

المعربان

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

هذا كتاب فى اللغة نقدمه لقراء العربية ليروا منهجاً جديداً فى البحوث اللغوية نعتقد أنه لو طبق على اللغة العربية لأفادت منه كثيراً .

ومؤلفه الأستاذ جوزيف ڤندريس — عميد سابق لكلية الآداب بجامعة باريس وعضو المعهد الفرنسى ورئيس الجمعية اللغوية بباريس — لا يعالج لغة بعينها ، وإنما يؤيد آراءه بضرب أمثلة من لغات متعددة قديمة وحديثة .

وهذه البحوث لا تعد جديدة كلها على المتخصصين فى الدراسات اللغوية ، فقد أثار مسائل منها بعض حضرات أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية وحاولوا جاهدين تطبيقها على اللغة العربية ليخرجوا بها إلى مضمار اللغات الحية بعد أن وقف بها الزمن ووقف بها أبناؤها وقفة كان من الجائز أن تودى بها لو لم تكن لغة دين قويم ، وحضارة عريقة ، تستمد هيبتها من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة .

يرى اللغويون المحدثون أن « اللغة من أعجب المبتكرات التى أظهرها التطور البشرى ، فيجب الوقوف عندها ، بل وإطالة الوقوف لنرى الدور الذى تؤديه على وجه الدقة والنصيب الذى تقوم به فى التطور العقلى ، ثم ما هى صلات الفرد بالجماعة فيما يختص بإنتاج هذه الأداة القيمة وإكمال ما فيها من نقص على مر الأزمنة » . وليس السبيل إلى ذلك دراسة نحو اللغات وصرفها وبلاغتها فحسب لأن مثل هذه الدراسة تعدّ ناقصة ، طبقها اللغويون القدامى على اللغتين اللاتينية واليونانية فأفادتهما لكنها لم تحل دون ضعفهما أولا ثم القضاء عليهما بعد ذلك ، وطبقت على اللغة العربية لكنها لم تحل دون انقسامها إلى لهجات ، ولم تستطع مدارس

النحو العربى من بصرية وكوفية وبغدادية ومصرية أن تمنع انتشار اللحن لا فى البلاد العربية المفتوحة ولا فى جزيرة العرب نفسها .

لسنا بذلك ننكر فضل القدامى على اللغة العربية وإنما ندعو إلى مسايرة الطرق العلمية الحديثة فى البحوث اللغوية وأن ننظر إلى اللغة على أنها نظام اجتماعى « تتأثر بالمجتمع وتؤثر فيه » . ثم علينا أن ندرس العلاقات التى توجد بين اللغة وبين العقل البشرى على أسس علمية صحيحة ، لنطمئن إلى أن العربية ستظل بقواعدها ومفرداتها وأدبها لغة حديثة تساير كل نهضة علمية أو أدبية أو فنية .

يبذل مجمع فؤاد الأول للغة العربية جهداً مشكوراً فى تعريب المصطلحات العلمية وألفاظ الحضارة الحديثة والحياة العامة ؛ وهو حين ينتهى من هذه المهمة الشاقة ويذيع مصطلحاته على الناس ، يكون قد أدى للغة العربية أجل الخدمات لأنه سينتقل بها من العصور الوسطى حيث وقف بها أبناؤها إلى عصرنا الحديث الذى تخلفت فيه عن اللغات الحية ، وأصبحت تنافسها فى معاهدنا العلمية الشرقية والمصرية اللغتان الفرنسية والإنجليزية منافسة قوية . إن أبناء العربية جميعاً يتطلعون إلى اليوم الذى تصبح فيه لغتهم لغة علمية ؛ ولن يكون هذا اليوم قريباً إلا إذا اقتنع أبناؤها تماماً بضرورة الأخذ بالطرق الحديثة فى الدراسات اللغوية .

أما إذا ظلوا يدرسونها معتمدين على الكتب القديمة وحدها فلن تكون دراستهم مجدية ، لأن هذه المصادر ، مهما كانت مفيدة نافعة ومهما احتفظت بقيمتها التاريخية ، فستظل ناقصة إذا طبقت عليها مقاييس العلم الحديث .

نريد أن تصبح العربية لغة من يعيشون فى الشرق من الشرقيين والأجانب على السواء ، لأننا نكره كراهية شديدة أن تجرح اللغات الأجنبية آذاننا فى معاهدنا ومنازلنا وطرقنا . إنه لمظهر يسىء حقاً إلى قوميتنا وكرامتنا ويدعونا إلى التفكير الدائم والعمل المتواصل حتى يوجد « وعى لغوى » فى البلاد العربية كلها .

على أن الوصول إلى ذلك ليس أمراً يسيراً ؛ فاللغوى يجب أن يكون على معرفة بالعلوم التى تتصل باللغة اتصالا وثيقاً ، لأن اللغة كما يقول الأستاذ فندريس : « مركب معقد تمس فروعاً من المعرفة مختلفة وتعنى بها طوائف متفرقة من العلماء . فهى

فعل فسيولوجى من حيث أنها تدفع عدداً من أعضاء الجسم الإنسانى إلى العمل؛ وهى فعل نفسانى من حيث أنها تستلزم نشاطاً إرادياً للعقل، وهى فعل اجتماعى من حيث أنها استجابة لحاجة الاتصال بين بنى الإنسان. ثم هى فى النهاية حقيقة تاريخية لا مراء فيها نعثر عليها فى صور متباينة وفى عصور بعيدة الاختلاف على سطح المعمورة أجمع ».

هذا هو الاتجاه الحديث الذى نرجو مخلصين أن يطبق على اللغة العربية تطبيقاً صحيحاً، وأن يأخذ به اللغويون العرب أنفسهم لترقى لغتنا إلى المستوى الذى نرجوه لها. وأما الجزاء الذى نود أن نناله لما صادفنا من عنت شديد فى تعريب هذا الكتاب لكثرة ما فيه من مصطلحات لغوية لا عهد للعربية بها، هذا الجزاء يتمثل فى أمنيتين:

الأولى: أن تتضام الأفكار على اختلاف المعاهد والثقافات وتتعاون فى هذه السبيل ليكون للدراسات اللغوية طابع قومى يخلق « الوعى اللغوى » فى الشرق.

الثانية: أن تنشأ جمعيات لغوية من المتخصصين تعاون فى الدراسات اللغوية؛ وألا نعتمد على الهيئات الرسمية وحدها فى مثل هذه الدراسات العلمية. ثم نرجو أن تنشأ مجلة لغوية تكون مجالا لإثارة المشكلات المختلفة وعرض الآراء والنظريات الجديدة على نهج المجلات اللغوية فى أوربا وأمريكا.

ديسمبر سنة ١٩٥٠ عبد الحميد الدواخلى محمد القصاص

عضوا الجمعية اللغوية بباريس

تصدير

اللغة وأداة التفكير

قلنا في التصدير الذي قدمنا به لكتاب البشرية قبل التاريخ (L' Humanité Préhistorique) : « اليد واللغة : فيهما تنحصر البشرية : نعتقد أن أول ما ينبغي أن يزاح عنه الستار في هذا المؤلف شيئان ، وهما اللذان يفصلان بين نهاية التاريخ الحيواني وبداية التاريخ البشري . ونعني بهما اختراع اليد — إذا جاز لنا هذا التعبير — واختراع اللغة ؛ وهذا هو التقدم الحاسم للمنطق العملي والمنطق العقلي[1] . » وهنا يجب أن نذكر القارىء بأن الدعوى الأساسية التي نذهب إليها ، هي أن التاريخ منطق في جوهره ، وأن تفسيره العميق ينحصر في ميل الكائن الحي إلى التشبث بكيانه والمضي في ترقيته ؛ ولكننا لا نقدم دعوانا في هذا المؤلف إلا على أنها فرض يحتاج إلى التحقيق ، ولا يتم إلا بالاعتراف بالعوامل الأخرى ودراستها ، تلك العوامل التي تلعب دورها في التاريخ ، والتي تجعل التاريخ على ما هو عليه : أعني شبكة معقدة غير متجانسة قد لا يرى فيها الناظر السطحي أو العالم الغارق في التفاصيل إلا مجموعة من الأحداث العارضة .

أبان المجلد السابق أهمية المنطق العملي : اليد ، تلك الأداة التي لا تبارى والتي مكنت للانسان من استعمال العدة المادية التي تترجم عن التقدم النفسي وتسرع به على السواء ؛ والفرد هو الباعث الحقيقي لهذا التقدم الذي لا تستطيع البيئة إلا أن تدعو إليه وتثبته .

واللغة من ناحية أخرى تعد واحدة من أعجب المبتكرات التي أظهرها التطور الإنساني ، فيجب الوقوف عندها ، وإطالة الوقوف : ما هو الدور الذي

---

(١) البشرية قبل التاريخ ص ٦ من التصدير .

تلعبه على وجه الدقة ؟ ما هو النصيب الذى تقوم به فى التطور العقلى ؟ ما هى صلات الفرد بالجماعة فيما يختص بإنتاج هذه الأداة القيمة وإكمالها ؟ هذه هى الأسئلة التى يجيب عنها المجلد الذى بين أيدينا .

* * *

الغرض الذى قصدنا إليه كان ممكن التحقيق بصور شتى . فلو أن هذا الكتاب كان من وضع عالم سيكولوجى أو مؤرخ يهوى المباحث اللغوية ، لكان من الممكن إلحاقه بالدعاوى التى قدمها مشروع (L'Evolution de l'Humanité) « تطور البشرية » فى صورة أحكم وأظهر مما هو عليها . ولكنه عمل عالم لغوى ، وهذا العالم اللغوى يتعلق بالوقائع ويتحرز من النظريات : لقد أتيحت له الفرصة من قبل[1] ليعلن عن ذلك ، وها هو ذا يقول هنا أيضاً نفس القول . إنه إنما يقدم لنا ، ولا يريد أن يقدم لنا إلا دراسة فنية لتلك الآلة المعقدة المرنة ، ألا وهى اللغة فى تنوع أشكالها وتطوراتها التاريخية . وتتصل بالضرورة بهذه الدراسة المسائل التى تثيرها اللغة وتعنى التاريخ التأليفى ، ولو أنها لا تبحث فيها عمداً لذاتها . لأن الأستاذ ڤندريس Vendryes لا يريد أن يكون إلا عالماً لغوياً فحسب .

ونعتقد أن فى معاونة هذا الإخصائى لنا — وهو مع ذلك إخصائى واسع الأفق — خير ضمان لعلم التاريخ كما نفهمه . فتجربتنا فى الأجزاء السابقة من سلسلة « تطور البشرية » قد برهنت على ضمان النجاح فى مثل هذه الظروف بأكثر مما لو كنا قد اخترنا مفكراً آخر معتنقاً نفس الدعاوى التى نقدمها . ومع ذلك ينبغى لنا أن نناقش قليلاً الأفكار العامة التى يقدمها لنا كتاب الأستاذ ڤندريس القيم ، وذلك من وجهة النظر التأليفية .

* * *

---

(١) مجلة الجمعية الفلسفية الفرنسية عدد فبراير عام ١٩١٢ ص ٦٩ — ٧١ .

الأمر الذى اضطلع الأستاذ ڤندريس ببيانه ، والذى أبانه فى قوة وببراهين بـيّنة تدعو إلى الإعجاب ، هو كيف أن اللغة نشأت من الحياة ، وكيف أن الحياة راحت « تغذيها » بعد أن خلقتها .

إن الإدراك القديم ، الذى يقول بأن اللغة قد أنزلت على الناس عن طريق معجزة أو أنها شيء خلقه الإنسان خلقاً صناعياً ، قد ترك آثاراً فى ذلك النوع من علم اللغة الذى يعدها شيئاً سامياً مستقلاً ، ويضفى على قوانينها نوعاً من الحتمية الكامنة ، لا على القوانين الصوتية أو قوانين النطق التى ترتبط بالأعضاء فحسب ، بل على القوانين الصرفية أيضاً ، أى قوانين النحو ، وعلى القوانين المعنوية ، أى قوانين المفردات . ولكن « من الباطل أن تعتبر اللغة كائناً مثالياً يسير فى تطوره مستقلاً عن بنى الإنسان متجهاً نحو غاياته الخاصة (١) » . فالحقيقة أن اللغة على صلة وثيقة بالحياة النفسية ، وأنها منذ نشأتها سيكولوجية فعّالة .

يعلن الأستاذ ڤندريس أن مشكلة أصل اللغة لا تدخل فى اختصاص العالم اللغوى ، ولا يدلى فى هذا الموضوع إلا بإشارات يحوطها الحذر الشديد . والواقع أنها مسألة سيكولوجية ؛ وأن أصل اللغة كأصل اليد تعوزه تماماً الأدلة التاريخية . هذا فضلاً على أنه لم يكن هناك أصل بمعنى الكلمة لأنه لم يوجد هناك خلق من العدم ، بل تحوّر — فى اتجاه إنسانى — لظاهرة وجدت عند الحيوان . فاللغة بمعنى الكلمة الضيق ، اللغة السمعية — التى ليست إلا حالة من موهبة إنتاج العلامات — موجودة عنده . (٢) فالحيوان يعبر عن حالاته الانفعالية بأصوات ؛ وأغلب الظن أن اللغة خرجت من الصيحة التى تترجم عن الانفعالات بطريقة فجائية . ولعل الانطباعات الهادئة والعواطف المعتدلة هى

---

(١) ڤندريس : الصفحة الأخيرة من هذا الكتاب .
وكوتيرا « Couturat » : مجلة الجمعية الفلسفية الفرنسية عدد فبراير ١٩١٢ ؛ ص ٥٤ ، وعدد مايو ١٩١٣ ، ص ١٤٠ .

(٢) ريبو « Ribot » : تطور الآراء العامة ، ص ٦٦ .

التي — كما أشار البعض (١) — تنتج الأصوات الملفوظة ، أما الصياح فيقابل الانفعالات العنيفة . ولكن لابد أن اللغة كانت انفعالية في مبدأ الأمر ، وقد بقيت إلى حد كبير انفعالية مرتبطة بالفرد وبما هو من نصيب الفرد : وهذا كله يبينه الأستاذ ڤندريس بحجج لا تنازع في صفحات بارعة نفاذة ، فهو يشير إلى اللغة الانفعالية عند الطفل ويبين أنها نقطة البدء ، ويشير في لغة الكلام إلى الفجائية التي تكسو التعبير عن الفكر «وتلونه» وتجعل النحو غير مستقر . (٢)

ولا بد أن اللغة الفاعلية أخذت تختلط منذ زمن مبكر باللغة الانفعالية ، وذلك عند ما كفت الصيحة عن أن تكون ترجمة لحالة شعورية لتصبح وسيلة للعمل أو النداء أو الرجاء أو الأمر . (٣)

وهذه مرحلة هامة في تطور اللغة وقد لعبت الحاجة إلى الاحتفاظ بالوجود أو إلى توسيع نطاق هذا الوجود بالتعاون مع الآخرين أو باستخدام الآخرين دوراً جوهرياً في هذا السبيل . « الكائن الحي معنيّ دائماً بالاحتفاظ بحياته وبوقاية نفسه من التأثيرات الضارة وبمد سلطانه على ما يحيط به من كائنات » وبيير جانيه (Pierre Janet) الذي أوضح هذه الصفة من صفات الحدث ، التي يصح أن نسميها «العلّية الفاعلة» (L' Efficience) يعد اللغة صورة من صور النشاط مسببة فاعلة ، ويعتبر أن « سلوك الشخص الذي يتكلم وسلوك الشخص الذي يخاطب مستمدان من حدثي الأمر والطاعة الموجودين من قبل عند

(١) كرنيجو « Cornejo » : علم الاجتماع العام ، ج ١ ص ٢٤ — ٢٥ .

(٢) انظر الفصل الرابع من الجزء الثاني من هذا الكتاب ، وقد سجل أوجست كونت « Auguste Comte » ملاحظات قيمة عن تكون اللغة ودور العواطف قبل أن تصير اللغة عقلية . أنظر أوجست جورج : « بحث في النظام السيكولوجي عند أوجست كونت » : Auguste Georges : « Essai sur le système Psychologique d' Auguste Comte. » ؛ ٥٢ .

(٣) انظر كرنيجو المرجع السابق ، ٢٣ .

الحيوان » (١) فالـكلام والإشارة مرتبطان ارتباطاً وثيقـاً فى بادىء الأمر ولـكن اللغـة السمعية تنمو وتتطور بفضل تفوقها من الناحية العملية (٢) ؛ وإذا كان الـكلام الخارجى ينتج الحدث الخارجىّ فإن الـكلام الداخلى يتحقق فى الإرادة وبـكشف عن نفسه فى الاعتقاد والرغبة . فهو لا يزداد إلا لصوقاً بجميع النشاط الإنسانى .

وقد تمّت آخر خطوة من خطوات التقدم الذى حقق اللغة الإنسانية فى الواقع عند ما اعـتُرف للصوت بصفة العلامة ، وذلك حينما أتيح للفجائية التى خلقت العلامة المفيدة أن تُستـكمل بانضمام الإرادة إليهـا ؛ تلك الإرادة التى تستخدم العلامة . وهذا التقدم ، وهو تقـدم عملى من حيث أصله ويخدم غايات الحياة بطريق مباشر ، قد أفاد ثراء نفسانياً غير محدد (٣) . ولا شك أنه يجب أن تـكون الذاكرة قد وصلت إلى درجة من التطور لتتمـكن من فصل الصوت عن الخاطر الذى كانت تصحبه مبدئياً ، ولا بد من وجود شعور حاد اليقظة لتحقيق رابطة العلامة بالشىء الذى تشير إليـه (فالأشياء فى ذاتها لا تشير إلى شىء) : ولـكن الشعور يقوى ويمرن بدرجة عميقة إذا كانت لديه رموز تعمل على تثبيت صور الأشياء . فاستعمال الرمز يعين الإنسان على سهولة التصور لا سيما أنه عند ما ينقـله إلى ذهن آخر فإنما ينقله إليه مستقلا عن الانطباع المباشر . وهذا الذكاء الناشىء يجعل من اللغة شيئاً فشيئاً آلته الخاصة وأداة التفـكير ، وبذلك يسمح للتفـكير أن يعمل دونه صلة مباشرة بوظيفة ما هو

---

(١) أنظـر : P. Janet : « La Tension Psychologique, ses degrés et ses oscillations ». وهى محاضرات ألقيت فى لندن ونشرت فى : « The British Journal of Psychology » أكتوبر ١٩٢٠ ويناير ١٩٢١ .

(٢) انظر ريبو المرجع سالف الذكر ، ص ٦٢ .

(٣) عن ضيق حدود الإدراكات عند ارتباطها بحركة اليدين ، أنظر هنرى ولون Henri Wallon فى البحث : « La conscience et la conscience de moi » المنشور فى مجلة علم النفس ، عدد يناير ١٩٢١ ص ٦١ .

واقع[١] . فالكلمة بقيمتها التصورية وقدرتها على الإفهام ، لها نفس المزايا التى للورق النقدى ، ولكنها محفوفة مثله بالأخطار بمعنى أنها إن كانت خالية من الحقيقية صارت مجرد «أنفاس صوتية» (Flatus vocis) أى خيالاً باطلاً[٢] .

فاللغة وقد خلقتها الحياة والحاجة والرغبة ، تقوم فى بادىء أمرها على نظام التأليف « Synthèse » . ويبين لنا الأستاذ ڤندريس أن التفكير وهو غريب عن التصنيفات النحوية يبدأ وهو فى حالة توهجه بالانصباب فى قالب اللغة . فالصورة الكلامية أو الكلمة الصوتية لها نفس القيمة التى للجملة ، وذلك لأن اللغة فى أصلها حدث : ففيها تنشأ الأسماء التى تمثل الأشياء وصفاتها ، والأسماء التى تمثل الأحوال والأدوات النحوية التى تشير إلى الروابط . فالجملة قد سبقت الكلمة النحوية ، والكلمة قد سبقت المقطع .

واللغة تظل خاضعة للحياة « فى تطورها الذى لا ينتهى إلى حدّ » . ولا شىء أكثر إمتاعاً من أن نلاحظ مع الأستاذ ڤندريس تنوع الوسائل ، وأحياناً كثيرة خرق تلك الوسائل التى تترجم عن العلاقات التى تلتقط فى الحياة الواقعية ، وعدم ثبات المفردات الذى يصل إلى حد التطرف ، وتلك الخاصة التى تجعل اللغة تتفرق دون توقف وتنمو دون حد عند جميع أولئك الذين يتكلمونها فى تعبيرهم عن حياتهم الخاصة بكل ما فيها من شخصى بحت . واللغة المكتوبة — حتى لغات كبار الكتاب الذين يبدون كأنهم يثبتون هذه الأداة بما يخلعون عليها من كمال — لا تستطيع أن تقف الحياة ، « فقوة الحياة التى لا تُقهر ، تتغلب على القواعد وتحطم قيود التقاليد » . الكلمات لا تحيا برغم كل ما يقال : بل إن العقل هو الذى يحيا ويغير معناها ، كما أن حياة العقل هى التى تغير أسماء الأشياء وتجددها . « فليس من الباطل إذن أن يقال بأنه يوجد من اللغات

---

(١) العبارة لجانيه ؛ وانظر ملاحظة ل . ديبوى فى مجلة علم النفس ، عدد يناير ١٩٢١ :
« La memoire des noms propres et la fonction du réel »

(٢) أنظر ريبو ، المرجع سالف الذكر ، صفحة ١٢٥ . وانظر ما سيأتى فى هذا التصدير .

قدر ما يوجد من الأفراد » .

* * *

ومن ثم يعنى الأستاذ ڤندريس بلفت النظر إلى ما فى اللغة من صفة العرضية . ولكن كمال تمكنه من موضوعه وحسه الحاد بالحقيقة الواقعية يمنعانه من أن يحيد عن وجهة النظر الأخرى التى تلزم الباحث الناظر . « فهناك من اللغات قدر ما هناك من أفراد » : ومع ذلك فهناك اللغات ، اللغات المشتركة واللغات الخاصة ، وهناك اللغة « إذ يقوم اتجاه آخر يعمل على الدوام على مناهضة التفريق ، ألا وهو الاتجاه إلى التوحيد الذى يعيد التوازن » . فعلم اللغة يمكنه إذن من أن يجد أمامه حالات من الاطراد ، من العموم على درجات متفاوتة .

هذه الاطرادات يعتبرها الأستاذ ڤندريس من محض صنع المجتمع ، وإذا كان يرتاب فى النظريات ، وإذا كان نصيب التعميم فى كتابه يعمد إليه فى حذر ، فإننا نحس بعظيم ركونه إلى السيولوجيا ؛ إلى ذلك النوع من السيولوجيا الذى اعترفنا نحن أيضاً بجدواه وكشفنا عن مزاياه [١] — وأنه يميل إلى أن يشبع بالعنصر « الاجتماعى » تلك الحاجة إلى التفسير التى تبدو عنده فى كثير من المواضع ، وإن كان ذلك فى صورة مكبوتة نوعاً ما . وهو باهتمامه بهذا العنصر يتفق مع بعض علماء اللغة — ومنهم أستاذ كبير — أولئك الذين وإن لم ينضموا إيجابياً إلى مدرسة دركهيم « Durkheim » فإنهم قد تأثروا بجاذبية هذا العقل اللطيف الجبار [٢] . وإذا كان « من القول المعاد أن نؤكد أن الإنسان كائن اجتماعى قبل كل شىء » فإنه يجدر بنا تحديد ما يخلع عليه ذاتياً هذا الطابع ، ويجب أن يميز فيه ما هو اجتماعى خالص وما هو جماعى وما هو إنسانى . والأستاذ

---

(١) أنظر La synthèse dans l' Histoire ، ص ١٢٤ — ١٢٧ .

(٢) ظل الأستاذ ميه يقوم بتحرير الفصل الخاص باللغة فى مجلة : « L' année sociologique » ابتداء من المجلد الخامس (١٩٠٢) .

فندريس لا يعنى بتحرر هذه العناصر [١] . ولكن يمكننا مع ذلك أن نجد فى مؤلفه التصحيحات والتحفظات التى أملاها عليه ميله السيبولوجى : ذلك لأن الخبرة والمباشرة للحقائق اللغوية أقوى عنده من كل حماس نظرى .

* * *

وفى رأينا أنه يجب الالتفات إلى التفرقة الآتية أولاً وقبل كل شيء .

إن المجتمع ، من جهة كونه مجتمعاً ، له حياته الخاصة التى تشمل حياة الأفراد وتتجاوزها وتكسبها ثراء : فحاجاته المعينة تعلن عن نفسها بأوضاع ضرورية يتضامن فيها الأفراد وإن اختلفوا فيما بينهم . فالجماعة والأمة ، لها طابعها الخاص الذي يطبع الأفراد بوجوه مقررة من التشابه [٢] . طابع الأمة — ومن باب أولى السمات الخاصة بواحدة من تلك الجماعات الثانوية التى تتمتع بحظ ما من الدوام والتى توجد داخل الأمة — ينعكس على اللغة (سواء أكانت لغات مشتركة أم لهجات أم لغات خاصة) ؛ وذلك بأن تدخل فيها أعراضاً من أنواع شتى لا صلة بينها وبين « التكون الاجتماعى » أو « التفتت الاجتماعى » . ولقد استطعنا أن نقول بأن اللغة « موطن الفكر » والوطن شيء آخر غير المجتمع .

الأستاذ فندريس الذى ينتقد بحق إقحام فكرة الجنس فى علم اللغة ينتقد أيضاً فكرة العقلية الجنسية . ومع ذلك فإنه يعترف بوجود صلة بين عقلية الشعب ولغته . ويمكننا أن نتصور علماً لسيكولوجية الشعوب يقوم على اختبار التغيرات المعنوية المختلفة التى تشاهد فى اللغات التى يتكلمونها . وقد تكون هذه الدراسة شاقة ولكنها تستحق ما ينفق فيها من عناء .

---

(١) كذلك فى كتاب فرديناند دى سوسير « Cours de : F. de Saussure linguistique générale » الذى نشر بعد وفاته ، لا نجد المؤلف يفرق بوضوح بين عبارات « القوى الإجتماعية » و « السيكولوجية الجماعية » و « العوامل التاريخية » التى تقوم عليها اللغة . أنظر خاصة صفحات : ١٠٧ ، ١١٠ ، ١١٥ .

(٢) عن صورة هذه الأعراض ، أنظر « La Synthèse en Histoire » ص ٦٩ وما يليها .

الواقع أن هناك لغات تجريدية ولغات تشخيصية تقابل عقليات جنسية متعارضة. ومن أشد ما يسترعى النظر فى هذا الصدد ملاحظات الأستاذ م. جرانيه M. M. Granet عن « بعض خصائص اللغة والتفكير الصينيين » التى نشرتها المجلة الفلسفية[١] وفيها يبين « أن دراسة المفردات تكشف عن طابع التصورات الصينية المسرف فى التشخيص » . « الكلمات فى جملتها تدل على أفكار فردية وتعبر عن حالات منظور إليها من وجهة نظر خاصة كل الخصوص ، هذه المفردات لا تعبر عن حاجات تفكير من دأبه أن يصنّف ويجرّد ويعمّم ، تفكير يريد أن يعمل فى مادة واضحة متميزة ومعدة لتطبيق نظام منطق عليها ، بل على العكس من ذلك تعبر عن حاجة ملحّة إلى التفصيل والتخصيص ، وإلى ما هو معجب ... يبدو أن كلمات اللغة الصينية كما تلوح لنا وكما يشرحها الصينيون أنفسهم ، تقابل صوراً إدراكية Concepts images مرتبطة ، من جهة بالأصوات التى كأنها مزودة بالقدرة على إثارة التفاصيل المميزة للصورة ومن جهة أخرى بالكتابة الممثلة للاشارة التى تسجلها الذاكرة المحركة كأنها أمر جوهرى » .

هذا العامل السيكولوجى الجنسى ليس العامل الوحيد الذى له أثر عام فى تشكيل اللغة « التطور اللغوى يعتمد اعتماداً وثيقاً على الظروف التاريخية » . فهو يعتمد على السكن ، ويعتمد على نوع الحياة ، ويعتمد على تشابك حياة الشعوب[٢]. ولكن لا يتحتم كما رأينا أن نرجع السمات التى تميز مجموعة من المجموعات أو وطناً من الأوطان بأسره إلى أصل اجتماعى . فكلمة « تاريخية » هنا هى الكلمة الحقة .

ومن بين الآثار التى تتلقاها المفردات وتسجلها بوصفها جهازاً حساساً أثر المسائل الاجتماعية بمعناها الحقيق . وقد قدم لنا الأستاذ مييه أدلة بارعة فى هذه الناحية : « يرجع الجزء الأكبر من تغيرات المعنى إلى توزيع المتكلمين فى طبقات اجتماعية مختلفة وإلى انتقال الكلمات من مجموعة اجتماعية إلى أخرى »[٣]. ولكن

---

(١) يناير — فبراير ومارس — ابريل عام ١٩٢٠ .

(٢) ص ٤١٤ و ٣٣٠ وقارن كرنيجو Cornejo المرجع السالف الذكر ص ٦٦ .

(٣) L'année sociologique ، مجلد ١١ ص ٧٩١ ؛ وانظر فى هذه النقطة أيضا نفس المرجع ، مجلد ٥ ص ٦٠٠ ومجلد ٧ ص ٦٧٦ ومجلد ٨ ص ٦٤٣ ومجلد ٩ ص ١٥ وما يليها ومجلد ١٢ ص ٨٥٠ .

أيكفى هـذا القدر الذى تعكسه اللغة من « الظروف الاجتماعية » لحياة الشعوب — وكذلك الحال بالنسبة للظروف التاريخية — لنقول بأن اللغة اجتماعية ؟ نحن لا نظن ذلك .

لا تكون اللغة اجتماعية حقاً فى نظرنا إلا إذا كانت من خلق المجتمع ، وإلا إذا كانت نظاماً ملتصقاً بالمجتمع . يقول الأستاذ فندريس : « فى أحضان المجتمع تكونت اللغة ... فاللغة وهى الحقيقة الاجتماعية بأوفى المعانى ، تنتج من الاحتكاكات الاجتماعية ؛ هـذه هى أمّ المسائل : فما نصيب المجتمع ، بوصفه مجتمعا فى تكوين اللغة وتقدمها ؟

* * *

يعترف الأستاذ فندريس بأن فى تكوين اللغة عملية سيكولوجية «فى نقطة البدء» وأنه « لم يتأت لكائنين بشريين أن يخلقا لغة فيما بينهما إلا إذا كانا مهيأين مقدما لهـذا العمل » ، يقول إن اللغة تنشب جذورها فى أقصى أعماق الشعور الفردى ؛ ومن هنا تستمد قوتها لتتفتح على شفاه بنى الإنسان . وإذن فإن كان يريد بهـذا الاهتمام بأثر المجتمع الذى يبديه فى كثير من الفقرات ، أنه يبين فحسب مقدار المعونة التى لقيتها المنظمة الاجتماعية فى تلك الوسيلة للتفاهم بين البشر ، وكيف أدى التوفيق بين المواهب الإنسانية والحاجات الاجتماعية إلى تقدم المجتمع واللغـة على السواء ، إذا كان ذلك ما يرمى إليه ، فإنه لا يسعنا إلا أن نتفق معه .

الواقع أن المجتمع استعمل اللغة . وقد استعمل شيئا من الضغط — ولا نقول من القسر[1] — فى سبيل جعلها مناسبة من الوجهة العملية وفى سبيل استكمالها . بل لقد ساعد بشتى الطرق على جعلها من مؤسساته : إذ يجب علينا أن نميز بين المؤسسات الرئيسية والمؤسسات الثانوية[2] ولـكنا نرى أن اللغـة فى الأصل عامل

(١) أنظر مثلا ما يقول الأستاذ موس Mauss فى مجلة « L'Année . sociol. » مجلد ٤ ص ١٤١ من أن « اللغة إلزامية لجميع الأفراد الذين تـكون منهم جماعة ، فيمكن القول بأنها توجد خارج الأفراد » . وما يقوله الأستاذ ميه فى مجلد ٩ ص ٢ من أن خصائص الخروج عن الفرد والقدرة على الـكبت التى يحدد بها دركهيم الحقيقة الاجتماعية . . . تدل عليها اللغة أوضح دلالة » .

(٢) أنظر La synthèse en Histoire ص ١٣٣ .

من عوامل المجتمع وليست من منتجاته . فاللغة ومعها اليد قد مكنت للمجتمع التوسع الذى هو عليه الآن وأن ما فيه من الترابط يبلغ من درجات الإحكام قدر مايبلغ فيه التخالف من عظم ، وهذا التخالف نفسه تساعد عليه اللغة كما تساعد عليه اليد .

ولكن الأستاذ فندريس لا يجعل دور المجتمع مقصورا على الإثارة . فبعد أن يقول : « لا وجود للغة خارج من يفكرون ومن يتكلمون . فهى تنشب جذورها فى أقصى أعماق الشعور الفردى ، لا يلبث أن يقول : « ولكن الشعور الفردى ليس إلا عنصراً من عناصر الشعور الجماعى الذى يفرض قانونه على كل فرد » فيؤخذ من كثير من فقراته أن اللغة بوصفها أداة الفكر وآلة العقل من خلق المجتمع حقا . « يعزو إميل دركهيم وجود الكليات إلى نوع من الضرورة تعرف بالنسبة للحياة العقلية موقف الالتزام الأخلاقي من الإرادة : يعنى أن الكليات اجتماعية الأصل وتتوقف على المجتمع » فالأستاذ فندريس يقبل هذه الفكرة من أفكار المدرسة الدركهمية التى يوضحها الأستاذ ليفى بريل Lévy - Bruhl فى كتابه : (Les fonctions mentales dans les sociétés inférieures) « الوظائف العقلية فى الجماعات البدائية » . فها نحن أولاء فى صميم مسألة ذات أهمية جوهرية بالنسبة للتفسير التاريخى ، وهى دور المجتمع فى تكوين المنطق .

* * *

نحن نرى من جانبنا أن الفكر يستمر بالحياة ؛ وأن التفكير العملى وهو شعورى إلى حد ما ، يسبق التفكير النظرى ، وأن اللغة ، وهى التى تدعم التفكير العملى وتسمح وحدها بتقدم التفكير النظرى ، تعبر أساسا عن الطبيعة البشرية . فالإنسان بوصفه إنسانا هو خالق المنطق العقلى والمنطق العملى . فاللغة والتفكير ، وكلاهما مرتبط بالآخر تمام الارتباط ، إنما يترجمان عنه حين يصنف الأشياء ويقرر ما بينها من روابط . ولا يمكن أن يكون المجتمع هو الذى خلق الكليات المنطقية (Catégories logiques) : فالمجتمع له حاجاته ولكنه لا يفكر إذا كان فى اللغة اطرادات ذات أهمية مختلفة عن أهمية الاطرادات التى تنشأ عن الرواية وعن

الظروف المحيطة وعن المحاكاة ؛ فإنها ترجع إلى الوحدة الأساسية التى تتصف بها الحياة التصورية عند جميع البشر [١] .

تكلمنا فى التصدير الذى قدمنا به للمجلد الثانى عن نصيب اليد فى التطور النفسانى ، فالتقدم التدريجى فى استعمال اليد استعمالا ينطوى على الذكاء يقابل تقدما مثله فى التكوين النفسانى وفى درجة الوضوح الداخلى . لم تساعد اليد باختلاف عملها على تيسير التعاون بين أفراد البشر فحسب : بل ساهمت بقسط وافر فى معرفة العالم الخارجى . لأن المعرفة العملية المحضة المؤسسة على المنفعة والتى هى وليدة الميل معاصرة للحياة ، والتهيئة ما هى إلا المعرفة . وهناك معرفة الواقع المجسم فى كل تكوين عضوى ، وهناك ميكانيكا وفيزيقا بالفعل فى كل ممارسة للجهود العضلية « فقانون السببيّة قبل أن يدرك كان يحس به شيئا فشيئا ، وذلك باتساع نطاق النشاط الإنسانى فى عالم يحكمه هذا القانون ويكون الإنسان جزءا منه ، مكملا له » .

ولكن التفكير النفسانى وصوره العليا ، كل ذلك مرتبط باللغة وكلمة λόγος تطلق عند الإغريق ، كما لاحظ كورنو Cournot على اللغة وعلى العقل على السواء . فاللغة ابتكار مزدوج الأثر : إذ هى أداة للاتصال ، وأداة للتسجيل تعمل بواسطة التجريد والتعميم على تثبيت المعرفة فى الإدراكات وتسمح لها بتطور لاحد له .

وليس معنى ذلك أن موهبة التجريد والتعميم لاتستيقظ إلا مع اللغة ؛ فبدون اللغة يقوم الانتباه والذاكرة بدورهما تحت تأثير الميل . والإنسان الفطرى (الخام) Homo alalus كالحيوان يستخلص إدراكات شتى من الأحاسيس المختلطة التى لاتحصى . وهذه الإدراكات تنتج عن نوعها من الاختيار « فالذى يكون له أهمية عملية » من بين هذه الإحساسات « هو الذى يُخص بالعناية » [٢] وهو الذى يستثير الانتباه . هذا إلى أن الذاكرة تنمى الانطباعات التى تستقبلها بتلك

(١) أنظر الخواطر القيمة التى نشرها د . پارودى D. Parodi فى مجلة الجمعية الفلسفية الفرنسية فبراير ومارس عام ١٩١٤ صفحة ٩٠ — ٩١ .

(٢) ابنجهاوس Ebbinghaus : Précis de Psychologie ص ١٥٩ ؛ وقارن ريبو فى المرجع السالف الذكر ص ٩ .

التصورات التى تستقيها من الاختبارات السابقة . وبذلك تنفصل من الأشياء بعض السمات البارزة ، تلك السمات المشتركة بين مجموعة من الأشياء(١) . وفى هذه الحياة التصورية الأولى تلك الحياة الفردية الخاضعة للمصلحة ، تتكون بعض الصور النوعية وتصير آلات عملية كالآلات المادية تماماً ، آلات تعمل على جعل الأشياء ملكا للشعور ومسودة له — وهى النواة المتواضعة للمعرفة النظرية .

اللغة ، وهى فى مبدأ أمرها انفعالية وفاعلة ثم تأليفية ، كلما تنوعت لتقوى على تمييز الأشياء والصفات والحالات وكلما زادت مرونة بالتعبير عن علاقات العالم الواقعى المتنوعة أشد التنوع بكلمات قد جردت من معناها الحقيقى لتتخذ قيمة الأدوات النحوية ، تلك القيمة التجريدية العامة ، نقول كلما تقدمت اللغة فى هذا المضمار ، صارت قوة لاتبارى ؛ وأمكنها أن تدير الملكة التى تميز الشبيه من المخالف ، والتى من بعد ذلك تجرد وتعمم ، تلك الملكة اللاصقة بالحياة لصوق الحاسة التى نميز بها رائحة الطيب من الخبيث ، واللغة على هذا النحو تمكننا من « الاستيلاء على الأشياء استيلاء أنفذ وأشمل من ذى قبل » .

الإنسان لم يكن « الإنسان المفكر » (Homo sapiens) لأنه « الإنسان العامل » (Hoino faber) فحسب ، بل أكثر من ذلك لأنه « الإنسان الناطق » (Homo loquens) ويظهر أن تطور اللغة كان يقتفى عن كثب أثر تطورات الآلات المصنوعة . ويرى الأستاذ بول M. Boule أن « الإنسان الهيدلبرجى » (Homo heidelbergensis) كان الحلقة الوسطى بين الإنسان الذى يتكلم والحيوانات التى تصيح ، أما « الإنسان النيندرثالى » Homo neanderthalensis فيظهر أنه كان يملك مبادئ فكرية من اللغة الملفوظة(٢) .

ولكننا لسنا فى حاجة إلى القول بأن الانتقال من الصورة النوعية إلى الإدراك المحض كان متناهياً فى البطء فالكلمة فى بادئ الأمر كانت « ضئيلة الشأن » ثم

---

(١) أحدث ما أخرج فى سيكولوجية الانتباه يبرز دور الهياكل العامة أو الصور المخلخلة التى تتميز بخصائصها الفردية البحتة وبعدم قابليتها للتألف أصلا . أنظر ريفودلون Revault d' Allonnes فى بحثه « الصور العليا للانتباه » فى مجلة علم النفس ص ٢٣٢ .

(٢) بول ، Les Hommes Fossiles : Boule ص ١٥٤ و ٢٣٧ .

ارتفعت بالتجريد حتى صار ينطوى تحتها أعم الخصائص وأخفاها على المعرفة وهى التى ثبتت أكثر الأفكار عمرانا « بالمعرفة التى بالقوة » من العدد والمكان والزمان والسبب والقانون والنوع . « تنتقل الكلمة من العدم إلى السيادة المطلقة ، والمشخص يتقل من الكينونة الكاملة إلى العدم[1] » .

ومما لايحتاج إلى تقرير أيضاً أن دور المجتمع هنا كان حاسماً ، وإن لم يكن مباشراً . والكلام قد مكن للادراك من أن ينتقل من دماغ إلى آخر : والمجتمع يحبذ وينشط تعاون الأفهام ، أو (التمويل) العقلى . ولكن إذا كان هذا التعاون المنطقى مما ينتج فى المجتمع فإنه ليس ظاهرة اجتماعية . بل على العكس من ذلك يجب أن نقرر أن الكلام بتسخيره للذكاء الفردى فى خدمة المجتمع ، يزيد فى شعور المجتمع شعوراً واضحاً بحاجاته النوعية ، ويسمح له بأن يتطور تطوراً معقولا .

والقدرة على التجريد والتعميم التى هى من خصائص الإنسان والتى تتفتح فى العقل ، ليست عند جميع البشر على السواء . المخترعون « أولئك الذين يولدون بموهبة التجريد أو عبقرية التجريد » [2] والقدرة على التجريد التى كانت عند المخترعين عملية محضة فى بادىء أمرها تصبح نظرية على التدريج بمساعدة الذخيرة المتجمعة والمارسة الفجائية ولعب الملكات العقلية . وذلك دون أن تختفى الحاجة الأولى ، أى المصلحة . لا نريد بذلك أن نقول إن هناك نشاطاً عملياً يبقى ، ويصل أحياناً إلى درجة لا نظير لها من الأهمية والسطوع فحسب [3] بل إن أشد أنواع النشاط إيغالاً فى الناحية التأملية يتجه فى نهاية الأمر — بناء على المبدأ الذى بنينا عليه رأينا — فى أغراضه الخفية وفى غايته القصوى ، نحو التسلط على الأشياء ، ونحو تحرير العقل ، نحو قمة الإنسانية العليا . فالعلم « أداة حيوية » حتى فى أبعد صورة من الوجهة العملية من حيث المظهر ، ولا سيما فى هذه الصورة . « إذا كان الإنسان يسجل له فى كل يوم انتصاراً

---

(١) ريبو : المرجع السالف الذكر ، صفحات ١٠٠ و ١١٦ و ١٤٨ .

(٢) ريبو : المرجع السالف الذكر ص ٢٤٦ .

(٣) أنظر ل . فيبر Le rythme du Progrès : L. Weber .

جديداً على الطبيعة ، بينما يستأنف الحيوان فى كل يوم جهاده القاصر ضدها دون نتيجة حاسمة ، فذلك لأن الإنسان يعرف فى بعض الأحيان كيف ينظر إلى العالم منزهاً عن الغرض ؛ أما الحيوان ، ذو الروح المسرف فى الناحية العملية فإنه عبد إدراكه الذى يحمله دائماً على القيام تقريباً بعمل واحد آلى بعينه » . فالبحث عن الحقيقة المنزه عن الغرض هو آكد الوسائل للوصول إلى المنفعة(١) .

أما عن الدور الذى قامت به الكتابة والطباعة فى سبيل البحث عن الحقيقة — وهما كما هى الحال فى اللغة ، خليط من اختراعات عديدة قد حوكيت وتنوقلت وطبعت بالطابع الاجتماعى — فذلك ما ستكشف عنه المجلدات التالية . فالكتابة قد خلقت أشياء متكلمة ، والطباعة أكثرت من عددها إلى غير ما حدّ وخلدتها . وهكذا أمكن للفكر أن ينتصر على المكان والزمان والموت(٢) ولكن كثيراً ما ينتهى التفكير المجرد إلى سراب وإلى الابتعاد عن الجادة . فالفكر فى هذه الحال يجول فى « عالم غير مخلوق يرجع إلى عهد الإنسان البدائى » . عالم الأفكار ، الذى هو أيضاً عالم الألفاظ . واللفظ مع ماله من مزايا لا يخلو من أضرار . إذ لما كان مصدره من الأشياء — من حيث المبدأ — وكان يمثل الأشياء(٣) ظن الإنسان بطبيعة الحال أن كل كلمة تقابلها حقيقة واقعية : ومن هنا نشأ الاعتقاد فى الأصنام وفى جوهر الأشياء المحقق عملياً . ولما كانت بعض الألفاظ تحدث آثاراً معينة ، كان من الطبيعى أن يظن بأن كل كلمة لها هذه الصفة . « فالشخص الذى يدعو إليه صاحباً له موجوداً على بعد منه ، وراء يهرول ملبياً نداءه ، يسخر فى ذلك قوة تختلف اختلافاً واضحاً عن القوى المادية ، عن القوة

---

(١) أنظر د . رستان La science comme instrument : D. Roustan « vital » ، فى La Revue de Mét. et de Mor. سبتمبر ١٩١٤ صفحة ٦١٢ — ٦٤٣ .

(٢) انظر كورنو : Essai sur les fondements de nos connaissances ص ٣١٧ ولا كمب La combe : L' Histoire considérée comme Science ، صفحة ١٩٧ وما يليها ؛ و د . ماجوسكى D. Majewski: La science et la civilisation ، ص ٢٤٢ .

(٣) بل يبدو أنه يحتفظ ببعض من حقيقة هذا الشىء : ومن ثم نشأت حوله بعض الأعمال السحرية — أنظر فيير فى المرجع السالف الذكر ص ٩٢ ، وفى مجلة الجمعية الفلسفية الفرنسية ص ٧٤ — ٧٥ ، ريبو المرجع السالف الذكر ص ١٠٨ .

الناجمة عن سلاح الطعن أو سلاح الرمى » لا شك أن هناك نصيباً من الحقيقة فى هذه الفكرة التى يقول بها الأستاذ ل . فيبر من أن ممارسة اللغة قد ساهمت فى استخراج معنى للسبب الفاعل يختلف عن ذلك الذى ينتج عن ممارسة الفنون المادية .

هذه العقلية التى تستخدم الكلمات استخداماً تحكميا أطلق عليها اسم العقلية « قبل المنطقية » وقيل إنها من أصل اجتماعى خالص(١) . ويبدو لنا أنها آتية فى الواقع من حياة الفرد الانفعالية ، ولكن الذى يستبقيها ويساعدها على التطور إنما هى الحياة الاجتماعية التى هى حياة انفعالية فى أصلها إلى حد كبير والتى تخلق ، بتقويتها لحالات الفرد الانفعالية ، نوعاً من الوسط الغيبى لايتطرق إليه الاختبار ، إن قليلاً وإن كثيراً . فنى المجتمع تنمو التصنيفات وتزداد قوة ، وليست التصنيفات قبل المنطقية هى التى نعنيها هنا ، بل التصنيفات الغريبة على المنطق التى يوجدها « الفن الكلامى » إلى جانب الفنون المادية . والسلطة الاجتماعية التى تقوم مقام رقابة الواقع الخارجى بتأسيسها للتفكير تشل العقل إن قليلاً وإن كثيراً ، وبعد أن يتحرر العقل ويشتد فى وقت ما يظل زمناً طويلاً يحتفظ بدرجة مسرفة من الثقة فى بعض الأسس الخداعة وفى سراب الألفاظ (٢) .

يجب أن تظل الإدراكات منطوية على الحقيقة الواقعة حتى يستطيع العقل أن يشتغل بالكلمات بطريقة مجدية . فالمثل الأعلى فى كل صورة يتولد من اللغة ، ولكن هناك من المثل العليا ما هو فارغ أجوف . وبمضى الزمن يصل العقل فى كفاحه المنطقى ، إلى تشبيه الأشياء بالعقول وبالتالى إلى تشبيه العقول بعضها ببعض . ولعل المجتمع النهائى سيقوم على وحدة العقول ، ويمكننا أن نقول بأن العلم لم يؤد من خدمات اجتماعية بقدر ما أدى منذ أن تحرر من كل سلطة اجتماعية بل من كل نظام اجتماعى ليصير موضوعياً محضاً ، أى ليصير فى نفس الوقت

---

(١) أنظر لوسيان ليفى بريل L. Lévy - Bruhl. المرجع السالف الذكر . جرانيه : المقالات سالفة الذكر ، مارس ، ابريل ١٩٢٠ ، ١٨٧ ، La synthèse en Histoire ص ١٩٥ وما يليها .

(٢) نفس المرجع ص ١٨٨ — ٢٦٣ ؛ فيبر وريبو وجانيه فى المراجع السالفة الذكر .

فردياً وعاماً لا اجتماعياً ، لأن هذين أمران يختلفان كل الاختلاف .

قامت حول المنطق ، وحول تقدم اللغة ، مناقشات حارة فى سنتى ١٩١٢ ، ١٩١٣ فى الجمعية الفلسفية الفرنسية ، وقد ساهم فيها الأستاذ ڤندريس .. وكان الباعث عليها وأساسها تلك الأعمال الممتعة المثيرة التى قام بها الأسوف على حياته لويس كوتيرا فى اقتناع يقوم على التفكير العميق . عمل كوتيرا على أن يخرج للوجود لغة دولية تفرض نفسها على جميع الشعوب وجميع العقول بعملها على تحقيق الاتجاهات العميقة التى يتجهها التطور اللغوى . والواقع أنه كان يعتقد أن التفكير الإنسانى واللغة يرتبطان أحدهما بالآخر بعرى وثيقة ، وقد كان يجمع إلى تبحره العظيم فى مسائل المنطق اطلاعاً دقيقاً على المسائل اللغوية ، فراح يبين أن بعض « الحدود أو الفصائل » الأساسية يمكن استخلاصها من الدراسة المقارنة لجميع اللغات الإنسانية ، معتمداً فى ذلك على دراسات الأستاذ مييه Meillet أكثر اللغويين اصطباغاً بالفلسفة . تلك الدراسات البارعة فى سعة المعرفة وخطورة النتائج . فعنده أن هناك نحواً عاماً (grammaire générale) لأن هناك عقلاً إنسانياً « الإنسان ليس له عقل لأنه حيوان اجتماعى أو « سياسى » كما يقول أرسطو ، بل إنه حيوان اجتماعى لأن له عقلاً [١] » .

* * *

فلنحدد موقف الأستاذ ڤندريس فى المناقشات الدائرة حول الفصائل لنرى كيف تستقيم ، فى هذه النقطة سسيولوجيته البادية ، وتتقلص بسبب الحقائق المكتشفة — كما وقع لدركهيم Durkheim نفسه فى كتبه الممعنة فى التقرير ، ولليفى بريل[٢] . « فتصور عقل إنسانى ذى قوانين ثابتة لا تتغير ومتماثل تمام التماثل

(١) أنظر كوتيرا : La logique et La philosophie contemporaine فى La Revue de Mét. et de. Mor., مايو ١٩٠٩ ، وعن البنية المنطقية أنظر نفس المرجع يناير ١٩١٢ . وقارن ما فى مجلة الجمعية الفلسفية الفرنسية ، فبراير ١٩١٢ ، ومايو ١٩١٣ . وانظر لالاند L'oeuvre de Louis Couturat : Lalande فى المجلة السابقة ، عدد سبتمبر سنة ١٩١٤ .

(٢) أنظر La synthèse en histoire ص ١٧٤ ومجلة الجمعية الفلسفية الفرنسية ، عدد فبراير ١٩١٢ ص ٦٤ .

فى كل الأرجاء » يبدو له — وهو على حق — موضع نظر : ولـكنه يعلن بأنه لا ينـكر إنسان وجود بعض سمات أساسية مشتركة مهما اختلفت العوائد العقلية بين شـعوب الأرض » ؛ ويفوض الأمر إلى المناطقة ليقرروا « ما إذا كان وراء الفصائل النحوية المختلفة الألوان فصائل منطقية تجرى على كل اللغة وتفرض عليها جميعا بحكم تركيب المخ الإنسانى(١) » .

أما عن الأصول فإنه يجمع الاعتراضات تلو الاعتراضات ضد الجهود التى عملت لإرجاع اللغات إلى الوحدة ويبـدى تحفظا شديداً أمام نتائج الطريقة المقارنة : ويعترف مع ذلك « بأن العلماء قد نجحوا فى تـكوين عائلات لغوية كبيرة » ؛ ويضيف قائلا : « وليس من شـك فى أن تقدم الفيلولوجية المقارنة سيؤدى إلى ازدياد عدد الأسر اللغوية الصحيحة التـكوين »(٢) .

وأما عن التطور فيقول : « فنحن نجنى ثمار التحسسات العقلية التى قام بها أسلافنا الغابرون ؛ فهم الذين سهلوا مهمتنا بتحضيرهم لعقليتنا فما أكثر ما بذلوا من وقت ومن مجهود فى تمرين الدماغ الذى ورثونا إياه ، تمرينا جعلنا لا نشعر حتى بوقوع هذا التمرين !(٣) » .

ويعترف الأستاذ فندريس على رغم الغيبية التى « تحيط بالعقلية البدائية من كل جانب » بأن هناك « عنصراً عقلياً » يتدرج شيئاً فشيئاً حتى ينتهى بالغلبة(٤) . ويبين بقوة عظيمة فى أى اتجاه تسير اللغة : فهى تسير من المشخص إلى المجرد ، ومن الغيبى إلى العقلى . ولغات المتوحشين مفعمة بفصائل التشخيص والتخصيص ، أما لغات المتحضرين فلا يكاد يوجد فيها إلا الفصائل التجريدية ، وإن وجدت غيرها فهى فى سـبيل الانقراض . وفـكرة الزمن ، ودرجتها من حيث التجريد

---

(١) أنظر آخر الفصل الثانى من القسم الثانى والصفحات الأخيرة من الفصل الثانى من القسم الثالث .

(٢) أنظر آخر الفصل الخامس من القسم الرابع .

(٣) أنظر أول الفصل الأول من القسم الخامس .

(٤) أنظر الصفحات الأولى من الفصل الأول بالقسم الخامس ، وانظر La synthèse en histoire من ص ١٩١ — ١٩٥ .

أعلى من درجة الفكرة المكانية ، تلعب فى لغات التمدينين دوراً أهم من الدور الذى تلعبه فى لغات البدائيين[١] .

وعندما تتحلل ذاكرة الفرد نرى « المجرد أثبت عنده من المشخص . ولعله يمكن تفسير ذلك بأن التجريد ينفذ إلى الدماغ ؛ مجهود عقلى ويتطلب من الذهن تركزاً ، أما المشخص فليس إلا انعكاس الأشياء فى مرآة الوجدان[٢] » .

القول بأن التطور اللغوى مرتبط بالمدنية بصلات وثيقة ليس معناه إنكار المجهود المنطقى ، أو دور العامل الإنسانى ؛ وإنما معناه الحد من دور العامل الاجتماعى . فالمدنية شىء والمجتمع شىء آخر .

ولكن ما هى المدنية على وجه التحقيق ؟ هل يترتب على المدنية وجود ترتيب تصاعدى للغات ، أو تقدم لغوى ؟ يقابل الأستاذ ڤندريس هذا السؤال بريب شديد ، ريب يجب أن نقابله بدورنا بالاحترام التام ، لأنه يقوم على إحساس حاد بتفاصيل الواقع اللغوى المتفرقة المتحركة ، وعلى الحذر من الأفكار السائرة التى تعرض على أنها معرفة نقية خالصة . ووجهة نظره فى ذلك هى وجهة نظر العالم اللغوى المرتبط بواقع الأشياء ، فنراه يطيل القول عن الفصائل النحوية فى اللغات المختلفة وعن العقبات التى يلاقيها المنطق وعن سراب اللغة الصناعية الخداع . ويذهب إلى حد القول « بأننا لا حق لنا فى اعتبار لغة معقولة تجريدية تفوق لغة أخرى مشخصة غيبية ، لمجرد أن تلك الأولى هى لغتنا . إنهما فى الواقع عقليتان مختلفتان يمكن لكل منهما أن يكون لها ناحيتها من الفضل إذ لا شىء أمام شخص من أهالى سريوس (Sirius) يستطيع أن يبرهن له على أن عقلية التمدين عقلية منحلة[٣] . »

ولنقرر مرة أخرى أنه يروقنا فى كتاب الأستاذ ڤندريس هذا النصيب المبالغ فيه من الشك العلمى ؛ لأنه فى رأينا لا يرفع من قدر كتابه فحسب ، بل يرفع جميع

---

(١) انظر الصفحات الأخيرة من هذا الكتاب .
(٢) انظر آخر الفصل الثالث من القسم الثانى .
(٣) انظر الصفحتين الأخيرتين من الكتاب .

أجزاء المؤلف الذى يتشرف باشتراكه فيه . وهكذا تجد منه الدعاوى التى نقترحها ولا نفرضها ممحصاً ثاقباً . ونعتقد أنها ستخرج من بين يديه وقد زادت قوة لا ضعفاً ، وذلك رغم بعض المظاهر ، ودون أن يعمد الأستاذ ڤندريس إلى الوصول إلى هذه النتيجة ، (وتلك هى عين الخبرة) .

مسألة التقدم مسألة معقدة ، ومن العسير تحديد « القيم » التى تتحق بها المدنية : إن تطور البشرية بأسرها هو الذى يقدم لنا حلا لهذه المشكلة .

* * *

رأينا مقدار المسائل العامة التى يثيرها كتاب الأستاذ ڤندريس ومقدار العناصر القيمة التى حشدها لحلها . أما المسائل الخاصة فقد أبرزها جميعاً وعالجها فى فصول رزينة مشبعة ، بطريقة تظهر النتائج التى وصل إليها وتشير إلى البحوث التى ينبغى أن تعمل . ولم يخصص فصل لهذه الناحية ، لأن الكتاب كله ، كما تصوره مؤلفه ، إحصاء لما عمل فى هذا الميدان ولما يجب أن يعمل .

كانت الجمعية الفلسفية قد رغبت فى المناقشات التى أشرنا إليها إلى لويس كوتيرا أن يلخص مسائل علم اللغة فى مجلد يكون « فى متناول الجمهور » . ولكنا نقرأ فى آخر العدد الصادر من المجلة فى مايو سنة ١٩١٣ مايلى :

« عدل الأستاذ كوتيرا ، مؤقتاً على الأقل ، عن مشروع وضع المتن الذى كان قد اعتزم إخراجه فى المنطق اللغوى ... لأنه علم أن الأستاذ ڤندريس يعمل على إخراج مؤلف فى علم اللغة ، يبدو أنه يجيب رغبات أساتذة الفلسفة ويسد حاجاتهم ... » .

ها هو ذا الكتاب : سيكون مفيداً للغويين ولكل من يهتمون بعلم اللغة على اختلاف مشاربهم ، ولكن لعل فائدته الأساسية ، وهو على النظام الذى هو عليه ، تقوم على بيان أن علم اللغة ليس علماً قائماً بذاته ، وأنه يندمج فى التاريخ . فالحياة والفكر ينصبان فى اللغة . واللغات الميتة مثلها مثل الحفريات التى تحتفظ بطابع الكائن الحى . واللغات الحية تعبر فى قوالب متغيرة ولكن النصوص

تسجلها ، عن جميع العمل الداخلى ، وعن جميع الآثار الخارجية للحياة الفردية والجماعية . فإذا كان العالم اللغوى فى حاجة إلى التاريخ ، فإن المؤرخ فى حاجة إلى علم اللغة : إذا كان يتصور التاريخ على أنه تفسير عميق لتلك الحياة الموغلة فى التعقيد ، لا على أنه مجرد حكاية أمينة لما كان[1] .

هنرى بر

ملاحظة :

لاستكمال مراجع هذا الكتاب من ناحية السيكولوجيا ، نعتقد من المفيد أن نشير إلى المرجعين الآتيين (Traité de Psychologie) ذلك المؤلف الذى تخرجه طائفة من علماء النفس تحت إرشاد ج . دِما G. Dumas ، ففيه مقالان عن اللغة فى الجزء الأول (Le langage, association sensitivo-motrice) بقلم بارا Barat وشالان Chaslin. وفى الجزء الثانى (Le langage, opération intellectuelle) بقلم دلكروا Delacroix . هذا إلى أن الـ (Journal de Psychologie) الذى يصدره ب . جانيه و ج . دما ، سيصدر قريباً عدداً خاصاً باللغة .

(١) خير من أدرك هذه الفكرة وعبر عنها من المؤرخين هو لوسيان فيفر Lucien Febvre أنظر ذلك فى : Revue de synthèse historique مجلد ٢٣ ، أكتوبر ١٩١١ و Histoire et linguistique ؛ ومجلد ٢٧ ، أغسطس ـ أكتوبر ١٩١٣ و Le développement des langues et l' Histoire.

اللغـــــة

مقدمة لغوية للتاريخ

« إنّ لغة البشر لمرنة : ألفاظها كثيرة ومختلفة ؛
إنهـا بمثابة مرعى فسيح ، تتناثر الـكلمات فى جميع أرجائه » .

الإلياذة : النشيد العشرون
البيتان ٢٤٨ ، ٢٤٩

كنت قد اعتزمت إهداء هذا الكتاب إلى
أستاذى وصديقى أنطوان مييه Antoine Meillet
واليوم أقدمه بالاتفاق معه تحية لذكرى علماء
اللغة الفرنسيين الذين ماتوا فى سبيل فرنسا ، وخاصة
لذكرى زميلى روبير جوتيو Robert Gauthiot .

ج . ف

مقدمة

لسنا فى حاجة إلى تقديم طويل لتبرير المكان الذى يخصص للغة فى مؤلف يكرس لتاريخ البشرية . فالأجزاء السابقة قد عرفت القارىء بالمسرح الذى مُثلت عليه درامة هـــذا التاريخ الكبري ، وقدمت له ممثلها الرئيسى وهو الإنسان والوسائل المادية التى كان مزوداً بها . ولكن الإنسان ، رغم هذه الوسائل المادية ، كان يظل عاجزاً عن تمثيل الدور الذى قدر له أن يلعبه لولا تملكه لناصية اللغة . فاللغة وهى أداة الفكر ومساعدته ، هى التى مكنت للانسان من الشعور بذاته ومن الاتصال بأمثاله ، وجعلت من اليسور تكوين الجماعات . ومن العسير أن نتصور حالة أولية للانسان كان فيها محروماً من مثل هذه الوسيلة الناجعة للعمل . فتاريخ البشرية منذ بدايته يفترض وجود لغة منظمة ، وما كان فى وسعه أن يسير فى طريق التطور دون اللغة .

إذا كانت دراسة تحتل مكانها المرموق الذى لا ينازعها فيه منازع فى قمة كل تاريخ عام ، فإن الآراء قد تختلف حول الصورة التى تتصور عليها هـذه الدراسة . لأن اللغة مركب معقد تمس فروعاً من المعرفة مختلفة وتعنى بها طوائف متفرقة من العلماء . فهى فعل فسيولوجى من حيث إنهـا تدفع إلى العمل عدداً من أعضاء الجسم الإنسانى . وهى فعل نفسانى من حيث إنها تستلزم نشاطاً إرادياً للعقل . وهى فعل اجتماعى من حيث إنها استجابة لحاجة الاتصال بين بنى الإنسان . ثم هى فى النهاية حقيقة تاريخية لامراء فيها نعثر عليها ، فى صور متباينة وفى عصور بعيدة الاختلاف ، على سطح المعمورة قاطبة . ومن ثمّ كان لنا أن نتصور دراسة للغة يقوم بها عالم من علماء وظائف الأعضاء . فيصنف الطرائق التى تؤدى بها أعضاء الكلام وظيفتها ، أو عالم من علماء النفس فيحلل حركة التفكير مهتدياً بنتائج علم الأمراض العقلية ، أو عالم من علماء الاجتماع

فيظهر لنا أثر التنظيم الاجتماعى فى تطور اللغات ، أو مؤرخ فيصنف اللغات فى أسر ويحدد توزيعها الجغرافى . كل واحد من هؤلاء العلماء يستطيع أن يكتب كتاباً يدخل فى علم اللغة ولو أن نقطة البدء التى صدر عنها توجد خارج هذا العلم والنتائج التى يصل إليها تمتد حتى تخرج من حدوده .

وأما مؤلف هذا الكتاب ، وهو عالم لغوى بحكم مهنته ، فقد أراد أن يحصر مجهوده فى ميدان العلم اللغوى وحده دون سـواه ؛ فاتخذ من الواقع اللغوى كما تمدنا به الخبرة نقطة الارتكاز التى صدر عنها . فمن تحليل الواقع اللغوى استخرج خطة كتابه . وعلماء اللغة يعزون فيها ثلاثة عناصر مختلفة : الأصوات والنحو والمفردات . ومن هنا قصر الأجزاء الثلاثة الأولى من الكتاب على دراسة هذه العناصر الثلاثة على التوالى ، وهى دراسة تعنى فى نفس الوقت بحالة اللغة الراهنة كما هى من جهة ، كما تعنى بحالتها التطورية من جهة أخرى . وقد قصد بهـا استخلاص أسباب التغير من الوقائع اللغوية التى تنطوى عليها ، والتمهيـد للجزء الرابع الذى يتناول موضوعه دراسة اللغات . فهـو يعالج على الترتيب تعريف اللغات وأنواع اللغات المختلفة وطرق تكوّن اللغات وتطورها وانشعابها بعضها من بعض وتداخل اللغـات والأثر الذى تحدثه بعضها فى بعض ، وأخيراً القرابة اللغوية . فتسلسل الكتاب يقوم إذن على الانتقال من البسيط إلى المعقد . فالواقع أن الأصوات أبسط من الكلمات ومن الجمل التى منها تتكون اللغات . وينجم عن هـذا الترتيب أن كانت الفصول الأولى ، وهى أكثر فصول الكتاب إيغالاً فى الفنّية ، أشد الفصول جفافاً . وعلى العكس من ذلك فإن الفصول الأخيرة تقـدم للقارئ الذى لم تثبط الفصول الأولى همته آفاقا أكثر تنوعا واتساعاً . أما الجزء الخامس ، وهو أشبه مايكون بالملحق ، فخاص بالكتابة . وأخيراً يحيط بالكتاب فصلان : فصل تمهيدى وفيه تعرض مسألة أصل اللغة ، وفصل ختامى وفيه تناقش ١
مسألة تقدم اللغة .

وهكذا تتراص جميع التفرعات التى يتكون منها هذا الكتاب حول الواقع اللغوى باعتباره مركزاً لها . ومع أن مادة هذا الكتاب شديدة التنوع وكثيراً

ما تمتد إلى فروع مجاورة من فروع المعرفة ، فإنه يمكن للناظر فيه أن يعترف بما له من وحدة جاءت بها وجهة النظر التى وضعها المؤلف نصب عينيه . وقد بدا من المفيد للمؤلف ، فى بعض مناسبات نادرة ، أن يكمل النتائج المستخرجة من علم اللغة بالإغارة على حرمة أحد العلوم المتصلة بعلم اللغة ؛ وهو يرجو ألاّ تكون مخالفته للقاعدة خالية مما يبررها . فهو ، على وجه العموم ، قد اقتصر على عرض الوقائع عرض عالم لغوى ، معتبراً أن تلك خير الوسائل لإفادة أصحاب العلوم الأخرى الذين لا يستطيع أن يأتيهم بشىء ذى بال فى ميدانهم الخاص .

هذا وأن المبدأ الذى اتخذناه كان من شأنه أن يجعل مهمتنا على جانب من الصعوبة . لأن من يدرس اللغة بوصفه عالماً لغوياً يجد نفسه مسوقاً بكل بساطة إلى وضع رسالة فى اللغويات العامة . ولكن كل من له اتصال بالنواحى اللغوية يعلم أنه لايكاد يوجد مشروع أكثر خطورة من هذا المشروع . إذ لابد لنجاحه من إنسان قدير على الإحاطة بكل صيغ الكلام المعروفة ، منقطع لممارسة جميع اللغات المتكلمة على وجه الكرة الأرضية؛ فهل يمكن العثور على هذا الإنسان المثالى ؟ إن هذا ليدعو إلى الشك . أمّا لو كان الأمر يدور حول تعيين واحد من بين الأحياء يكون قريباً من هذا المثل أكثر من جميع من عداه ، فربما لم يتعذر الاختيار كثيراً على العارفين . لكن الواقع أنه لم يظهر حتى الآن كتاب واحد حقق منهاجاً كاملاً لعلم اللغويات العامة[1] .

لا حاجة إلى القول بأن هذا الكتاب لم يبلغ فى تحقيق هذا الحلم أكثر من غيره . فالمكان المحدود الذى منح للمؤلف يفسر تفسيراً كافياً ، دون حاجة لذكر أسباب أخرى ، لماذا لم يحاول المؤلف الإقدام على هذه المغامرة . فقد تظاهر بأن اعتبر كل واحدة من الوقائع التى يدرسها قطعة منفصلة من تاريخ شاسع لم يدون بعد . ومع أنه قد استعرض مسائل علم اللغة الأساسية دون أن يهمل منها واحدة ،

(١) لم يصبح ذلك كله حقا منذ أن نشر فى سنة ١٩١٦ كتاب فرديناند دى ساسور رقم ١٢١ ؛ ولكن هذا الكتاب ، الذى لم ينشر إلا بعد موت المؤلف ، رغم وفرة الآراء التى يقدمها ليس عرضاً منهجياً كاملا لعلم اللغويات العامة (أنظر مييه رقم٤مجلد ٢٠ ، ص٣٢).

إلا ما قد يكون من خطأ أو نسيان ، فإنه لم ير لزاماً عليه أن يبسط منها إلا بضعة أمثلة لها طابعها الخاص . كان يمكن لهذه الطريقة التفريقية أن تجر إلى عيب تمزيق المادة بقطع العرى التى تربط مواضع الاستيعاب والبسط بعضها ببعضها ؛ ولكن المؤلف تجنب هذا العيب بطريق التحايل . لأن اللغة ، ككل ما يمت إلى التاريخ والحياة بسبب ، تكون ميداناً متصلا بمعنى أن ظواهرها لا تفصل بينها حدود متميزة . وأن الإنسان يتدرج بين القمم التى فيها يتجلى كل واقع على أتمه فى سلسلة من المراتب غير المحسوسة . ومن ثم كان يكفى أن يشغل ما بين مواضع البسط والاستيعاب بمراحل انتقال طبيعية ، بمعنى أنها مستعارة من طبيعة الحقائق المدروسة نفسها . فلو أن هذا الكتاب قد ادعى أنه يحوى الحقيقة الواقعة كاملة فى قوالب قد تكون تجريدية محكمة التسلسل ، فربما كان قد بدا عليه مآخذ من الجهل الفاضح ؛ لكنه سترها باختياره لنظام مرن يطبقه على حقائق اختيرت مقدماً ، ويتتبع معالمها عن كثب بدلا من أن يتبع نظاماً صارماً كاملاً واضح المعالم متميز الخطوط .

يستطيع المؤلف ، وقد سلك هذا المسلك ، أن يغتبط بأن جعل مهمته ممكنة دون أن يقلل ذلك من فائدتها . فهو لا يقدم للقارىء متنافى علم اللغويات العامة ، بل أراد فقط أن يعطيه فكرة عن هذا العلم وعن المسائل التى يعالجها والنتائج الأساسية التى وصل إليها .

لكن المشروع رغم تحديده بهذا المنهاج قد يبدو على جانب كبير من الجرأة . أما ما حفز المؤلف على المضى فيه فهو العون القيم الذى لقيه من طائفة من الأصدقاء تفضلوا بالاهتمام بمؤلفه ، فيسره هنا أن يقدم لهم شكره . فالأستاذ ا . مييه ، وهو الذى أوحى إلى المؤلف بعمل هذا الكتاب ، قد أخذ على عاتقه عبء قراءة المخطوط وناقش المؤلف فى أكثر من مسألة من بين المسائل التى عالجها ؛ فلعل القارىء يلمس معالم تأثيره ! كذلك راجع المخطوط كاملا زميل وصديق آخر هو الأستاذ جيل بلوك Jules Bloch، وأفاد المؤلف بملاحظات عديدة . وأخيراً لا يسع المؤلف إلاّ أن ينوه بما فى عنقه من دين

لزملائه الأعزاء من أعضاء الجمعية اللغوية ، وهم الأساتذة ديلافس ودينى وجود فروا ديمنبين وإزيدورليفى وليفى بريل وبيليوه ؛ فبفضلهم زاد عدد من فصول الكتاب ثراء بوثائق جديدة متصلة بموضوعاتها اتصالاً مباشراً ، وفى النقط التى ساهموا فيها متفضلين أفاد الكتاب دقة ترجع إليهم وحدهم . وإذا لم يكن الكتاب فى جملته قد تحسنت حاله ، فليس مرد ذلك لهم .

ج . ڤندريس — ميلان فى يولية ١٩٢٤

ملاحظة — انتهى هذا المؤلف فى سنة ١٩١٤ ، ولم تقدم مخطوطاته للطبع إلا فى سنة ١٩٢٠ ، وإن الحوادث تكفى لتفسير هذا التأخر لدرجة تسمح بغفرانه . لكن المؤلف يصر على إخطار القارىء بأنه يقدم له مؤلفاً مضى عليه سبع سنوات ، والواقع أنه لم يمس شيئاً من نظام الكتاب العام ، بل اكتفى بإدخال إصلاحات فى التفاصيل على بعض النقط ساعده فيها الأساتذة موريس مارتان Maurice Martin ، وأرنست ماركس Ernest Marx ، وهنرى جربان Henri Grappin ، فإليهم جميعاً يعبر المؤلف عن عرفانه بالجميل .

تمهيد

أصل اللغة(١)

يثير الإنسان دائماً دهشة السامع كلما قال بأن مسألة أصل الكلام ليست من مسائل علم اللغة . ومع ذلك فليس هذا القول إلا الحقيقة بعينها . فغالبية أولئك الذين كتبوا عن أصل الكلام منذ مائة عام يهيمون فى تيه من الضلال ، لأنهم لم يتنبهوا إلى هذه الحقيقة : وغلطتهم الأساسية أنهم يواجهون هذه المسألة من الناحية اللغوية ، كما لو كان أصل الكلام يختلط بأصل اللغات .

إن اللغويين يدرسون اللغات التى تُتكلم والتى تكتب ، ويتتبعون تاريخها بمساعدة أقدم الوثائق التى كشف عنها ؛ ولكنهم مهما أوغلوا فى هذا التاريخ ، فإنهم لا يصلون إلا إلى لغات قد تطورت وتركت خلفها تاريخاً ضخماً لا نعرف عنه شيئاً . أما فكرة الوصول إلى إعادة بناء رطانة بدائية بمقارنة لغات موجودة بالفعل فسراب خداع . ولكن هذا السراب ، الذى ربما كان مؤسسو علم النحو المقارن يتطلعون إليه قديماً ، قد هجر منذ زمن طويل .

هناك لغات تنتسب إلى تواريخ منها القديم ومنها الأقدم . ونحن نعرف بعض لغاتنا الحديثة فى صور قديمة ترجع إلى أكثر من عشرين قرناً ولكن أقدم اللغات المعروفة « اللغات الأمهات » ، كما تسمى أحيانا ، لا شىء فيها من

---

(١) تاريخ طيب لهذه المسألة فى بورنسكى Borinski رقم ١٤٦ ، ص ٣ — ٢٠ وانظر أيضا جسبرسن Jespersen رقم ١٣٤ ، ص ٣٢٨ — ٣٦٥ . وقد كتبت عن هذه المسألة مؤلفات كثيرة . والأسماء الرئيسية التى تقرن بالاتجاهات أو الخطى الرئيسية فى الماضى هى :

J. J .Rousseau, Essai sur l'origine des langues (ouvrage Posthume) Herder, Geburt der Sprasche mit der ganzen Entwicklung der menschlichen Kräfte, 1770, J. Grimm, Uber den Ursprung der Sprache, 1851, Steinthal, Ursprung der Sprache in Zusammenhang mit der letzten Fragen alles Wissens, 1851 (الطبعة الرابعة ١٨٨٨) ، Renan رقم ١١٠

البدائية . ومهما اختلفت عن لغاتنا الحديثة ، فإنها لاتفيدنا علماً إلا بالتغيرات التى طرأت على الكلام ؛ ولا تدلنا على شيء من كيفية نشوئها .

كذلك لا يمكن استخلاص شيء فى هذا الصدد من لغات المتوحشين . فالمتوحشون ليسوا بدائيين ، رغم الإسراف فى تسميتهم بهذا الاسم فى غالب الأحيان . فهم يتكلمون أحياناً لغات على درجة من التعقيد لاتقل عما فى أكثر لغاتنا تعقيداً ؛ ولكن منهم من يتكلم لغات على درجة من البساطة تحسدهم عليها أكثر لغاتنا بساطة . فهذه وتلك ليست إلا نتيجة تغيرات تغيب عنا نقطة البدء التى صدرت عنها . وإذا كان هنالك من فرق بين لغات الشعوب التى تسمى متحضرة ولغات المتوحشين ، فهو فى الأفكار التى تعبر عنها أكثر مما هو فى العبارة نفسها . فلغات المتوحشين فى وسعها أن تفيدنا فى معرفة ما بين الكلام والفكر من روابط[1] وليس فى معرفة ما كانت عليه الصورة البدائية للكلام .

وقد يجنح الإنسان فى البحث عن هذا الطلب فى كلام الأطفال[2] ، وهذه المحاولة أيضاً سيكون نصيبها الفشل . لأن الأطفال لايعلموننا إلا كيف تحصل لغة منظمة ، ولا يعطوننا أية فكرة عما كان عليه الكلام عند أصل نشوئه . فحينما نلاحظ المجهودات التى ينفقها أحد الأطفال ليعيد مايسمعه مما يقال للمدركين ، فإننا نلحظ أكثر من علامة دالة على أسباب التغيرات التى يتعرض لها الكلام . ولكن الطفل لا يؤدى إلا ما قيل أمامه ، فهو يشتغل بالعناصر التى يمده بها من حوله ، ومنها يركب كلماته وجمله . إنه يقوم بعمل المحاكاة لا الخلق ، عمل يخلو من

---

(١) ليفى بريل ، رقم ٨٨ ، ص ٧٦ وما يليها .

(٢) عن الكلام عن الأطفال ، أنظر خاصة :

Clar und william Stern' Die Kindersprache leipziq (1907). : وقارن أيضاً consuletr Meumann: Die Sprache des Kindes, Zurich (1903) (Abhandlungen herausgegeben Von der Oesellachaft für deutsche Sprache in Zürich); Ch. Roussey, Notes sur L'apprentissage de la parole chez un enfant, رقم ٧ (١٨٩٩ و ١٩٠٠) ؛ M. Grammont, Observations sur le langage des enfants, رقم ٩٩ ، ص ٦١ — ٨٢ ؛ O. Bloch : Notes sur le langage d'un enfant, رقم ٦ ص ١٨ من المقدمة و ص ٣٧ J. Ronjat, le dévelop. Pement du langage observé chez un enfant bilingue, باريس ١٩١٣

الارتجال خلواً تاماً . أما هـذا النصيب من التجديد الذى يدخـله فى الـكلام فغير شعورى ؛ ناتج عن كـل طبيعى يقنع بما يكون على وجه التقريب ، وليس ناشئاً عن إرادة تحت سلطانها قدرة خالقة .

فالعالم اللغوى سـواء ألجـأ إلى أقدم اللغات المعروفة أم إلى لغات المتوحشين أم إلى اللغات التى يتعلم الأطفال بها الـكلام ، فلن يجد أمامه فى كل حال إلا بنياناً شيد منذ زمن طويل وتعاقبت على العمل فيـه أجيال عديدة خلال قرون طويلة . فتبقى مسألة أصل الـكلام خارجة عن نطاق خبرته . والواقع أن هذه المسألة تختلط بمسألة أصل الإنسان وأصل الجماعات البشرية ؛ فهى من اختصاص تاريخ البشرية البدائى . لقد نشأ الـكلام بالتدريج مسايراً لتطور دماغ الإنسان ولتكوّن الجماعة ، فمن المستحيل أن نقول فى أى صـورة بدأ الـكائن الإنسانى يتكلم ، لـكن من الممكن أن نحاول تحديد الظروف التى سمحت للانسان بأن يتكلم : وهى ظروف نفسية واجتماعية فى نفس الوقت .

* * *

أعمّ تعريف يمكن أن يعرف به الـكلام أنه نظام من العلامات[1]. فدراسة أصل الـكلام ترجع إذن إلى البحث عن أىّ أنواع من العلامات كانت بطبيعتها فى متناول الإنسان ثم كيف حُمل على استخدامها .

ويجب أن يُعنى بالعلامة أى رمز قابل لأن يستخدم للتفاهم بين البشر... ولما أمكن للعلامات أن تكون متنوعة الطبيعة ، أصبح هناك عدة أنواع من اللغات . فـكل أعضاء الحواس يمكن استخدامها فى خلق لغة . فهناك لغة الشم ولغة اللمس ولغة البصر ولغة السمع ، وهناك لغة كلما قام شخصان فأضافا معنى من المعانى إلى فعل من الأفعال بطريق الاتفاق وأحدثا هـذا الحدث بقصد التفاهم بينهما . فعطر ينشر على ثوب ، أو منديل أحمر أو أخضر يطل من جيب سترة أو ضغطة على اليد يطول أمدها قليلا أو كثيراً ، كل هذه تكون عناصر من لغة ما دام هناك شخصان قد اتفقا على استعمال هذه العلامات فى تبادل أمر أو رأى .

(١) ب . لروا رقم ٨٧ .

ومع ذلك فهناك لغة من بين مختلف اللغات الممكنة تطغى على جميع ما عداها بتنوع وسائل التعبير التى فى طوقها : وهى اللغة السمعية التى تسمى أيضاً لغة الكلام أو اللغة الملفوظة ؛ تلك وحدها هى التى سنتحدث عنها فى هذا المؤلف . وقد تصحبها بعض الأحيان اللغة البصرية ، وغالباً ما تكون مكملة لها . والإشارة عند جميع الشعوب تقطع الكلام ، وهيئة الوجه تترجم فى آن واحد مع الصوت عن الانفعالات والأفكار . والتعبير بالحركات لغة بصرية ؛ ولكن الكتابة بدورها لغة بصرية أيضاً وكذلك على العموم كل نظام من نظم الإشارات .

ولعل اللغة البصرية توازى اللغة السمعية فى قدم العهد . فليس لدينا ما يحملنا على الاعتقاد بأن إحداهما متقدمة عن الأخرى وأكثر من هذا ليس لدينا أية وسيلة للبرهان على ذلك .

وغالبية اللغات البصرية المستعملة اليوم مشتقة من اللغة السمعية ، وهذا ينطبق على الكتابة كما سنرى فى الجزء الخامس ، وينطبق على قانون الإشارات . وقانون الإشارات البحرية مثلا قد جعل ليزودنا بمعادلات بصرية بدلا من الكلمات والجمل فى جميع اللغات القائمة . وهو لا يمدنا بمعلومات عن أصل العلامات باعتبارها تصويراً للأفكار . فإن اختيار هذه العلامة دون تلك بطريق الأفضلية مبنى على الاتفاق ، على الاتفاق التحكمى . وإن كان قد قيد منذ البداية ببعض الشروط . مثل هذه اللغات بنص حدها لغات صناعية .

إننا نعرف حالة من الاستعمال الطبيعى للغة البصرية ألا وهو لغة الحركات المستعملة إلى جانب اللغة السمعية(١) عند بعض الشعوب المتوحشة . وهنا لا يتوقف الأمر على أن يكون الكلام مصحوباً بالإشارة كما هو الحال لدى الشعوب المتحضرة ، بل يدور الأمر حول نظام من الحركات لا تستطيع وحدها التعبير عن الآراء التى يراد توضيحها ، مثلها فى هذا مثل الكلمات تماماً . وتلك لغة فطرية إلا أن لها مزاياها : إذ يمكن استعمالها على بعد بين مكانين لا يقدر الصوت على أن يصل بينهما وإن استطاعت العين التقاط الحركات ، ثم تمكن على وجه الخصوص من عدم إثارة

(١) Wundt رقم ٢٢٣، ١ ، ١ ص ١٢٨ .

انتباه الحاضرين بضوضاء الأصوات . وتلاميذ المدارس يستعملون هذه الوسيلة الصامتة لتفاهمهم داخل غرف الدراسة . فاللغة بالحركة يمكن إذن أن يكون لها أصل نفعيّ . ومع ذلك فكون استعمالها عند الشعوب المتوحشة من شأن النساء على وجه الخصوص يوحى بتفسير آخر . ذلك أن السبب الذى يدعو عادة إلى التفريق فى اللغة بين الجنسين يكون سبباً دينيا[1] فلما كانت الكلمات التى يستعملها الرجال محظورة على النساء ، فقد وجب على هؤلاء أن يستعملن مفردات خاصة ، وجب عليهن أن يخلقنها بأنفسهن حتى ولو اضطررن عند الحاجة إلى إحلال الحركة محل الصوت . وهكذا يمكن أن يفسر استبقاء لغة الإشارات بالإلزام الناشىء عن النواهى ولكنها ليست ، مهما كان أصلها ، إلا عوضاً عن اللغة السمعية التى يجب أن تسير لغة الإشارة على نهجها .

ولغة الإشارات التى يستعملها الصم البكم هى الأخرى منسوخة عن اللغة السمعية . فبالحركة يعلم هؤلاء العجزة إجراءات اللغة عند الآخرين : حيث يوضعون فى حال تمكنهم من التحادث فيما بينهم ومن قراءة ما يكتبه من يتكلمون ويسمعون . فإنما يُجرى لهم استبدال حاسة مكان حاسة لوضعهم فى حال يتفهامون فيها بالعلامات .

حالة الصم البكم تدعو إلى التفكير فى أصل الاستعمال اللغوى للعلامات ، ويستطيع المرء بمناسبتهم أن يتساءل عما إذا كانت اللغة عند الإنسان شيئاً مكتسباً ناتجا من التعليم ، أم على العكس من ذلك شيئاً فطرياً تلقائياً . الأطفال العاديون لا يعلموننا شيئاً عن هذا السؤال ، فإنهم منذ ميلادهم متيقظون أمام العالم الخارجى ؛ وهم قبل أن يصدروا أصواتاً ، على صلة بمن يحيطون بهم بواسطة حاسة السمع ؛ ويجدون أنفسهم فى اللحظة التى يتكلمون فيها ، منغمسين فى تيار التبادل الاجتماعى. أما الصم البكم فهم فى حاجة إلى أن يوقظ عندهم الشعور بالعلامة . فهم لعجزهم عن تعلم اللغة السمعية من جراء عاهتهم فى منجى من كل تأثير يقع على الأطفال الذين يسمعون من الأشخاص الذين يتكلمون. ولكنهم يرون ، ويدركون عندما .

(١) Van Gennep رقم ٧٤، ص ٢٦٥ وما يليها .

يفتحون أعينهم ما يمكن أن تكون عليه المعاملة التى تشترك فيها اللغة بنصيب . فللاجابة على السؤال المتقدم ، يجب أن يستطاع النفاذ فى شعور كائن إنسانى قد بقى بفضل عاهات موروثة مغلقاً أمام العالم الخارجى ، أو قد أقصى منذ ولادته إقصاء تاماً عن تأثير بنى جنسه . الفرض الثانى لا يمكن ذكره دون الإحساس بسخفه ؛ وإلا فكيف يمكن الحكم على كائنات بشرية بالعزلة عن غيرهم من بنى الإنسان ويحرم عليهم على طريقة ما استعمال حواسهم إلى درجة أن يصير مخهم وكأنه يدور فى غرفة مظلمة دون أى اتصال بالخارج .

نحن نعرف الاختبار الشاذ الذى قام به إبسمتيك ملك مصر كما رواه هيرودوت (حـ ٢ رقم ٢) أراد الملك أن يعرف ما إذا كان الفريجيون أسبق فى العالم من المصريين ، فأمر بتربية طفلين حدثين فى عزلة منذ ميلادهما وحرم أن يسمعا أى كلام . وعند اختبارهما بعد بضعة أشهر وجد أن الطفلين يطلبان الطعام بقولهما « Βεχος » ومعناها « خبز » بالفريجية . فاستنتج إبسمتيك من ذلك أن اللغة الفريجية أقدم من المصرية . وكان يمكن أن يستخلص من ذلك أيضاً أن ملكة اللغة فطرية فى الإنسان. لولا أن تجربة إبسمتيك تعوزها سيما الصدق وروح الجدّ .

هناك اختباران تبدو عليهما منذ الوهلة الأولى صفة الإقناع . وهما التجربتان اللتان أجريتا على طفلين ولدا أصمين كفيفين ، وكانا بذلك محرومين من الاتصال بالعالم الخارجى . فكلنا يعرف مثلا حالة الفرنسية مارى هيرتان[1] Marie Heurtin أو الأمريكية هيلين كلر[2] Helen Keller . حالة هذه الأخيرة لها أهمية خاصة ، فقد استطاعت الحصول على درجة كافية من التعليم ، مكنتها من قراءة وكتابة عدد من المؤلفات فى الأدب والفلسفة بعدة لغات . وإن كتاباتها بقدر ما تكون خالية من روح المبالغة التى أسبغها عليها الأشخاص المحيطون بها لتسمح لنا باستخلاص دلائل غريبة .

---

(١) Ames en prison : Louis Arnould باريس ، الطبعة العاشرة ١٩١٩ .

(٢) Die Entwicklung und Erziehung : Helen Keller ، W. Stern einer Taubstummblinden برلين ١٩٠٥ .

كانت اللغة عند هيلين كلر نتيجة للتربية . يصف لنا فى شيء من التأثر كتاب نشر عنها[1] ذلك المنظر الذى توصل فيه بعد عدد من المحاولات الفاشلة إلى إفهامها قيمة العلامة . فى ذلك اليوم تمزق الحجاب الذى كان يحول بينها وبين الكون ، وتجلى الكون أمام عقلها بتلك الشبكة من العرى المعقدة التى تربط الأشياء بالكلمات . لكن فائدة هذا المنظر فردية قبل كل شيء . فهيلين كلر وجدت نفسها خارج الظروف العادية للحياة ، فظلت حالتها متسمة بسما الاستثناء . أما الأولون الذين تكلموا من البشر فلم تتفتح نفوسهم لإدراك العلامة كما وقع لتلك البائسة . فنشوء اللغة عند من حرمته عاهاته حتى ذلك الحين من الاتصال بالعالم ، لا يستطيع أن يعطينا فكرة عن التطور الذى حدث فى مجتمع من الكائنات العادية.

فى أحضان المجتمع تكونت اللغة . وجدت اللغة يوم أحس الناس بالحاجة إلى التفاهم فيما بينهم . وتنشأ من احتكاك بعض الأشخاص الذين يملكون أعضاء الحواس ويستعملون فى علاقاتهم الوسائل التى وضعتها الطبيعة تحت تصرفهم : الإشارة إذا أعوزتهم الكلمة والنظرة إذا لم تكف الإشارة . فالاختبار الذى يمكن إجراؤه ، إذا ما أريد استلهام إبستميتيك ، هو أن يوضع طفلان أو عدة أطفال بعضهم مع بعض يجهلون جهلا تاماً كل شيء عن اللغة بعد إقصائهم أقصاء تاماً عن كل مؤثر تعليمى . عندئذ إذا غضضنا النظر عما قد يكون عندهم من استعدادات موروثة ، فليس من شك مهما كانت جنسيتهم ، فى أن يخلقوا بفطرتهم لغة لحسابهم الخاص ؛ وهذه اللغة لن تكون الفريجية . ذلك بأن الحاجة توجه العضو حتماً إلى العمل . ولا بد أن الأشياء عند البدء وقعت على هذا النحو . فاللغة وهى الواقع الاجتماعى بمعناه الأوفى ، تنتج من الاحتكاك الاجتماعى . وصارت واحدة من أقوى العرى التى تربط الجماعات وقد دانت بنشوئها إلى وجود احتشاد اجتماعى .

* * *

لم تولد اللغة كحدث اجتماعى إلا يوم أن وصل المخ الإنسانى إلى درجة من النمو

---

(١) Les miracles des hommes : Gerard Harry باريس ، لاروس .

تسمح له باستعمالها . فلم يتأت لكائنين بشريين أن يخلقا لغة فيما بينهما إلا لأنهما كانا ممهدين لهذا العمل . فحال اللغة حال جميع المخترعات البشرية . كثيراً ما احتدم الجدل حول معرفة ما إذا كانت اللغة الإنسانية واحدة الأصل أم متعددة وهذه مسألة لا طائل من ورائها . ففي اليوم الذي يضيف تقدم الذكاء الإنساني درجة جديدة من الكمال ، يحدث الكشف الجديد من ذاته وفي بقاع متعددة في نفس الوقت . فهو منتشر في الهواء كما يقول العلماء ويشعر الإنسان بمجيئه ، كما يتوقع وقد أقبل الخريف، سقوط الفواكه الناضجة في أحد البساتين .

من الوجهة النفسية ، ينحصر الفعل اللغوي الأساسي في إعطاء قيمة رمزية للعلاقة . هذه العملية النفسية تميز لغة الإنسان من لغة الحيوان [١] فمن الزيف أن يقال في المقارنة بين تلك وهذه بأن الثانية لغة طبيعية في حين أن الأولى لغة صناعية توافقية . لغة الإنسان ليست أقل طبيعية من لغة الحيوان ، ولكنها من درجة أعلى من حيث إن الإنسان ، وقد أعطى للعلامات قيمة موضوعية ، جعل هذه القيمة تتنوع بالموافقة إلى مالا نهاية . الفرق بين لغة الإنسان ولغة الحيوان مستقر في تقويم طبيعة العلامة [٢]. والكلب والقرد والطائر تتفاهم مع بنات جنسها ؛ فإن لها صيحات وحركات وأغاني تقابل حالات نفسانية خاصة من الفرح والرعب والرغبة والشهية ؛ بعض هذه الصيحات تلتئم مع بعض حاجات خاصة إلتئاماً يكاد يمكن من ترجمتها في جملة من لغة الإنسان ؛ ومع ذلك فإن فصائل الحيوان لا تصدر جملاً [٣] ؛ لأنها عاجزة عن تنويع عناصر صيحاتها ، مهما بلغت هذه الصيحات

---

(١) Steinthal ، رقم ٢٠٧ ؛ ص ٣٢٤ — ٣٥٨ ؛ R. M. Heyer رقم ٣٠ مجلد ١٢ ص ٣٠٧ .

(٢) هـذا الرأى قد أوضحه بوسويه إيضاحا تاماً ، إذ يقول : « يمكن أن تتأثر لغات الحيوان بالصوت باعتباره هواء مدفوعا مثاراً ، لا باعتبار أنه دال بنظامه على ذلك الذى يسمى كلما وسماعا بمعنى الكلمة » . (المنطق ج ١ ، ٢٤) . وقارن Traité de la Connaissance de Dieu et de soi-même فصل ٥ الفقرة ٥ : « أما أن يقرع الصوت أو الكلم الأذن ثم المخ من حيث إنه يثير الهواء ، فهذا شيء ، وشيء آخر هو أن ينظر إليه على أنه علامة اتفق الناس عليها ، وأن يتذكر بواسطته الأشياء التى يدل عليها . هذه الناحية الأخيرة هى التى تسمى سماع اللغة ؛ وليس منها أى أثر عند الحيوان » .

(٣) L. Boutan : Pseudo-langage بوردو ١٩١٣ ، (Actes de la société linnéenne de Bordeaux) ؛ وقارن مييه رقم ٤ مجلد ١٨ ص ١٧٧ .

من التعقيد ، على نحو ما ننوع نحن كلماتنا التى تكون فى الجملة عناصر استعاضة. أما بالنسبة لها فإن الجملة لا تتميز عن الكلمة ولكن هناك ما هو أهم من ذلك : فهذه الكلمة نفسها ، صيحة أكانت أم إشارة ، كما يحاولنا أن نسميها ، ليست لها قيمة موضوعية . ومن ثم لم تكن موضوعاً للموافقة ، وينتج عن ذلك أن لغة الحيوان ليست قابلة للانقلاب ولا للتقدم ؛ وليس هناك ما يدل على أن صرخة الحيوان كانت فى الماضى تختلف عما هى عليه اليوم . فالطائر الذى يدفع بصيحة ينادى بها اليد التى تحمل له ورقة من الخس ، لا يشعر بصيحته على أنها علامة.(١) ولغة الحيوان تستتبع نوعاً من التلازم بين العلامة والشىء المدلول عليه بها . وينبغى للتخلص من هذا التلازم وحتى تأخذ العلامة قيمة مستقلة عن الشىء أن تكون هناك عملية نفسية ، هذه العملية النفسية هى نقطة البدء فى لغة الإنسان.

كان على مسائل الانتروبولوجيا أن تنير لنا بعض ما غمض علينا من لغز التطور النفسى فى الإنسان . فهذا العلم يقرر أن جماجم سكان الكهوف من البشر تشبه جماجم القرود العليا: فى الجمجمة التى عثر عليها فى «La Chapelle aux-Saints»، نرى أن المكان المخصص للتلافيف التى يقرر أنها مركز الكلام ضئيل غاية الضآلة . وإذن يجوز أن يفترض أن نشوء الكلام قام على تطور طبيعى للمخ الإنسانى . مثل هذا الفرض لا يلزمنا أن نسلم دون تحفظ بنظرية بروكا Broca المشهورة فى تحديد المراكز المخية(٢) . فمن المعروف أن هذه النظرية قد فقدت الكثير من سلطانها القديم ؛ بل أن بعض الحوادث الحديثة قد رأت أن تطعنها فى الصميم . ولكن الذى يمكن أن يؤخذ عليها بوجه خاص أنها تبالغ فى تبسيط مسألة فى غاية من التعقيد . فبروكا ، عند ما يعين مركز الكلام فى التلفيف الثالث من ناحية الجبهة

---

(١) فى لغة الطير ، أنظر الملاحظات القيمة التى كتبها الأستاذ بريال فى « Revue des revues » مجلد ٣٣ عام ١٩٠٠ ص ٦٢٩ — ٦٣٢ (وأعيد نشرها فى رقم ٤ مجلد ١١ ص ٢١٠ — ١١٥ .

(٢) عن هذه المسألة ، أنظر العرض الإجمالى الممتع الذى نشره Dagnan - Bouveret رقم ١٠ مجلد ١٦ عام ١٩٠٨ ص ٤٦٦ وما يليها . وراجع أيضاً أعمال الدكتور ب. مارى P. Marie وكتاب الدكتور L'aphasie de Broca : F. Moutier باريس ١٩٠٨

اليسارية لا يقرر إلا شيئاً تقريبياً بعيداً كل البعد عن الدقة ، وبوجه خاص عندما يقول بأن المخ يحتوى على مناطق كبرى متميزة تقابل مناطق العقل الكبرى، يخدع نفسه فيما يخص الروابط التي بين اللغة والتفكير. من الزيف أن نتصور أن المخ قد بنى على مثال النحو وأنه قد قسم إلى أقسام لكل جزء من أجزاء الكلام قسم منها. فجملة الحقائق اللغوية موزعة فى المخ ، على طريقة أكثر حرية ، وأكثر اتساعاً مما افترض بروكا. أغلب الظن أن حوادث تعطل الكلام من ناحية الحركة، تلك الحوادث التي ترتكز عليها نظرية بروكا، ترجع عادة إلى خلل موضعى؛ أما تعطل الكلام من ناحية الحس كما عرفه فرنكه Wernicke يفترض غالباً نقصاً عقلياً عاماً ؛ ومن جهة أخرى غالباً ما يحصل فى مثل تلك الحال ظواهر تعويضية حيث تقوم مراكز مجاورة بوظيفة المراكز التي أصيبت بالخلل . وأخيراً فإن الطبقات الغلافية مرتبة على نحو ما يؤدى إلى أن أى خلل يمكن أن يحدث اضطرابات مختلفة حتى ولو كان فى تلفيفة الجبهة اليسري ، وذلك على حسب النقطة التى يصيبها الخلل من التلفيفة .[(١)] وبالاختصار ، إذا كانت محلّية الكلام لا ينازع فيها من حيث المبدأ فإن تفاصيل التحديد فى حاجة إلى إعادة النظر فيها من جديد .

إذن يجب الحذر فى تفسير المسائل التى تقدمها لنا أنثروبولوجية ما قبل التاريخ. فإننا إذا أخذناها على شكل ضيق وأخذنا نقيس جمجمة إنسان المغاور على نحو ما نقيس جمجمة واحد من المعاصرين ، تعرضنا لاستنتاج أن صاحب الجمجمة الأولى كان فاقداً للكلام . ومن اليقين أن ذلك يتقهقر بمبدأ تطور اللغة والإنسانية إلى أمد بعيد . ولكن الذى لا شك فيه أن مخ رجل المغاور كان أقل استعداداً للنشاط اللغوى من مخنا .

عند هذا السلف البعيد الذى لم يكن مخه صالحاً للتفكير بدأت اللغة بصفة انفعالية محضة . ولعلها كانت فى الأصل مجرد غناء ينظم بوزنه حركة المشى أو العمل اليدوى[(٢)] أو صيحة كصيحة الحيوان تعبر عن الألم أو الفرح وتكشف عن

---

(١) Wundt رقم ٢٢٣ مجلد ١ ص ٤٩٤ .

(٢) K. Bücher : Arbeit und Rhythmus الطبعة الثالثة ليبزج ١٩١٢ .

خوف أو رغبة فى الغذاء . بعد ذلك ، لعل الصيحة اعتبرت بعد أن زودت بقيمة رمزية ، كأنها إشارة قابلة لأن يكررها آخرون ؛ ولعل الإنسان قد وجد فى متناول يده هذا السلك المريح ، قد استعمله للاتصال ببنى جنسه أو لإثارتهم إلى عمل ما أو لمنعهم منه . ولا بد أن اللغة ، قبل أن تكون وسيلة للتفكير ، كانت فى الواقع وسيلة للفعل وواحدة من أنجع الوسائل التى مُكن منها للانسان . وما أن استيقظ فى ذهن الإنسان شعوره بالعلامة حتى راح يوسع من شأن هذا الاختراع العجيب؛ وكان تقدم الجهاز الصوتى يسير بنفس الخطى مع تقدم المخ . وكان تثبيت اللغة فى داخل الحشود الإنسانية الأولى يسير على نفس القوانين التى تحكم كل مجتمع. وبوجه خاص كان أعضاء كل جماعة يلتزمون فى احتفالاتهم الجماعية نفس الظاهرات الصوتية أو الغنائية.[1] وهكذا كانت عناصر الصياح أو الغناء تصبح مزودة بقيمة رمزية يستبقيها كل فرد فى نفسه لاستعماله الشخصى . ثم قليلا قليلا، وبفضل الاتساع المتزايد فى التبادل الاجتماعى تكوّن أخيراً هذا الجهاز المعقد الذى لا يُجارى فى ثرائه ليكون وسيلة للتعبير عن العواطف والأفكار، عن كل العواطف والأفكار .

هذا الفرض تبدو عليه مخايل الصدق وإن لم يكن مما يمكن البرهان عليه. ومن مزاياه أنه يفهمنا كيف كانت اللغة نتاجاً طبيعياً للنشاط الإنسانى نتيجة لتطابق ملكات الإنسان على حاجاته الاجتماعية .[2] غير أنه يجب البدء من الشعور بالعلامة. وإذا ماحصل على هذه الحقيقة تتابعت اللغة كلها بطريق التنويعات المتتابعة.

* * *

إنه لمن المجازفة بعد الذى قيل فى الصفحات السابقة أن نعمد إلى تحديد أدق وأن نسعى إلى معرفة الكيفية التى جرى عليها التخالف (Différenciation) والمراحل التى مر بها منذ صيحة الإشارة حتى وسائل التعبير الكثيرة التنوع التى تقوم عليها ثروة لغة كاللغة الفرنسية. ومما يطلب إلى العالم اللغوى ، اعتماداً على

---

(١) بورنسكى رقم ١٤٦ ص ٣٨ .

(٢) « لما كان الكلام هو النظام الاجتماعى الأول فإنه لا يدين بصورته تلك إلا لأسباب طبيعية » . ج . ج . روسو : « بحث فى أصل اللغات » .

الفكرة القائلة بأن كل لغة فيها أجزاء أساسية تتميز عن الإضافات اللاحقة ، أن يحدد هذا العالم طبقات اللغة المختلفة وأن يميز منها الأجزاء التى كانت لها الأولية فى التكوين . وقد يجازف العالم فيلقى بالجواب فى بعض الأحيان . ولكن يجب أن نعترف فى شجاعة بأن كل هذه الأجوبة لاقيمة لها . فالطريقة التى تقوم على الانتقال من المعلوم إلى المجهول عاجزة هنا ، لأن المبادىء التى يبنى عليها تطور اللغات التى نعرفها لانتطبق ضرورة على لغات كان يتكلمها أفراد تتجه عقليتهم اتجاهاً يخالف اتجاهنا . ودراسة اللغات تعلمنا أن نشوء اللغات ونموها لايتم فى تتابع منطق ملتزماً فى سيره طريقاً مستقيما . فمن الخطأ أن نتصور أن الخطة التى بنيت عليها دراسة « البور رويال » النحوية قد فرضت نفسها منذ البداية على العقل الإنسانى ليتخذ منها إطاراً يملؤه بالتدريج وعن طريق التتابع المنظم .

هذا وإنه ليوجد بين العلامة والشىء المدلول عليه بها ، بين الصيغة اللغوية ومادة التصور أى رباط مستمد من الطبيعة ، ولكنه رباط مأخوذ من الظروف فحسب . ولقد ساد زمناً طويلا الاعتقاد بأن الحقيقة الأولى للغة كانت تقوم على إعطاء أسماء للأشياء ، أى على خلق مفردات . وتلك هى الفكرة التى عبر عنها لكريس Lucrèce فى بيته الذى كثيراً ماينشد وهو :

Utilitas expressit nomina rerum,

« إن الضرورة هى التى تخلق المسميات » ،

الذى يعزو فيه بحق اللغة إلى سد الحاجات . وفى القرن الثامن عشر فى فرنسا حاول الرئيس دي برس De Brosses[1] أن يفسر الصورة الخارجية للكلمات بالمعانى التى تعبر عنها هذه الكلمات . وكان غرضه أن يكتشف للأصوات نوعاً من الرمزية ، رغم أن الأولين من البشر استخدموها فى خلق كلماتهم . هذا المشروع لايثير فى أيامنا هذه إلا الابتسام . فإن ماهو مهم ليست تسمية الأشياء بهذه الكلمة أو تلك ، وإنما هو إعطاء الكلمات بنوع من الاتفاق الضمنى بين المتكلمين قيمة اسمية ، إنما هو اتخاذها وسائل للتبادل ، كما استعيض عن مقايضة الأشياء بعضها ببعض بالنقود أو بالأوراق النقدية .

---

(١) Traité de la formation mécanique des langues باريس ١٧٦٥ ، وقارن R. M. Meyer رقم ٣٠ مجلد ١٢ ص ٢٤٣ .

بعض علماء اللغة ممن هم أقرب إلينا قد تخيلوا نظريات ذهبوا بمقتضاها إلى أن كل المفردات قد خرجت من صيحة تشبه نباح الكلب أو من سلسلة من الأصوات توحى بتمثيل الأشياء عن طريق المحاكاة [١] . وكان فى هذا الوقت نفسه أن راح العلماء المشتغلون بالفيدا يفسرون كل الأساطير بنار البرق أو مسير الشمس. وكلا الفريقين من علماء اللغة وعلماء الأساطير كانوا فى ذلك الحين يمنون بإدراك الأشياء على نحو ساذج . وكانوا يتناقشون لمعرفة ما إذا كانت اللغة قد بدأت بالاسم أم بالفعل : الفعل الذى يعبر عن الحدث والاسم الذى يميز عن ماهية الأشياء وصفاتها . ولكن مما بدا لنا من الاختلاف بين الاسم والفعل ، فإن التعارض بين « قطبي » نحونا هذين ليس أمراً ضرورياً ؛ وإلا فماذا يعنى نباح الكلب : أيعنى « أنا جوعان » أو « أعطنى ما آكل » أو « هذا حسن » أو « انتهيت من الأكل » ؟ لا هذا ولا ذاك أو كل هذا معاً ؛ ويمكننا أن نفسره على السواء بفعل أو باسم ، بالأمر أو بالماضى . وقد بقى ، رغم كل ما بذل من جهود بين النباح البدائى وأقدم ما عرف من لغاتنا ، فراغ يتعذر سده .

وما أغرى العقول بالبحث عن الصور البدائية للغة إلا المقارنة التى كانت تقام بين علم اللغة والعلوم الطبيعية ، من جغرافية ونبات وحيوان . وقد جرت هذه المقارنة غير الصحيحة إلى أخطاء مرذولة ؛ فإذا أريد إيجاد نوع معادل للغة وجب البحث عنه على الأصح فى التاريخ الاجتماعى . وكان ميشيل بريال Michel Bréal مأخوذاً بمقارنة تصريف الفعل فى اللغة الهندية الأوربية « بتلك النظم السياسية والقانونية الكبيرة — البرلمانات أو مجلس الملك — التى رأت نفسها بعد أن ولدت من حاجة أساسية تتنوع وتمد من سلطان اختصاصاتها حتى حل زمن جديد فوجد هذا الدولاب تمثيلاً فى مجموعه ، فشطر منه جزءاً ومزق وظيفته بين عدد متباين من هيئات حرة ومستقلة ، وإن كانت لا تزال تشترك فى الخطة التى

---

(١) أنظر التفاصيل فى جيبرسن Jespersen ، رقم ١٣٤ الطبعة الثانية ، ص ٣٣٠ وما يليها ، وبوزنسكى ، رقم ١٤٦ ، ص ١١ وما يليها ثم ص ٣٩ .

بنيت عليها منذ المبدأ إلى حد ما وبشكل يدلّ بوضوح على تضامنها القديم .[١] »

هذه المقارنه يمكن أن تطبق على اللغة فى عمومها لأن اللغة إحدى هذه النظم ومع ذلك ففى اللغة عناصر أكثر ثباتاً وأقل خضوعاً للتحكم الإنسانى مما فى النظم السياسية. وهذه العناصر هى فى الواقع الأصوات التى سنبدأ بها هذه الدراسة .

---

(١) رقم ٦ مجلد ١١ ص ٢٨٤ .

الجزء الاول

الأصـــــوات

الفصل الأول

المادة الصـــوتية (١)

إن ما يسمى صوتا هو الأثر الواقع على الإذن من بعض حركات ذبذبية للهواء . والذبذبات فى اللغة يحدثها الجهاز الصوتى للمتكلم. والعلم الذى يبحث فى الأصوات، أو بعبارة أخرى علم الصوتيات ، يجب أن يشتمل على ثلاثة أجزاء : الجزء الخاص بإنتاج الصوت والجزء الخاص بانتقاله، والجزء الخاص باستقباله. فالإنتاج والاستقبال ظاهرتان متساويتا الأهمية فى اللغة إذ أنه يجب لتكون هناك لغة ، أن يوجد متحادثان على الأقل وأن يوجد الكلام مقصوداً به أن يسمع . هذا إلى أن استقبال الصوت ، أو بعبارة أخرى السماع يلعب دوراً هاماً فى انقلابات اللغة ؛ فمن طريق الأذن يحصل كل متكلم نظامه الصوتى ويثبته . فمن الوجهة النظرية لا يمكن أن يستكثر على السماع أى مكان ، مهما كبر ، يخصص له فى دراسة اللغة .

ومع ذلك فالواقع أن علم الصوتيات قد حصر مجهوده زمناً طويلا فى دراسة إنتاج الصوت .

علماء اللغة لا يكادون يشتغلون بالسماع ؛ بل يتركون دراسته إلى علماء وظائف الأعضاء . وهذا التحديد له ما يبرره ففيما يخص اللغة لا يكون للصور السمعية لسامع قيمة إلا إذا كان هذا الأخير جديراً بتحويلها إلى صور محركة ليصير بدوره

---

(١) راجع بصفة عامة مؤلفات رسلو Rousselot ورودیه Roudet وبوارو Poirot وپاسيه Passy وسويت Sweet وجسبرسن و ا . هيلر سكريتير E. Wheeler Scripture وفيتور Vietor وجوتزمان Gutzmann وسيفرز Sievers وتروتمان Trautmann .

متكلما . وبعبارة أخرى يجب أن يكون السامع حائزاً بالقوة على ما يحققه المتكلم بالفعل . على هذا الشرط يتوقف وجود الكلام . ويترتب على ذلك أنه يمكن إسقاط الجزء السمعي من اللغة في دراسة الصوتيات مادام السماع يفترض وجود قوة مساوية من إحداث الصوت عند ما يتكلم شخصان لغة واحدة فيما بينهما . فليس هناك في الواقع إلا وجهان من وظيفة واحدة ؛ وحدودهما واحدة . نعم أغلب الظن أن تحليل المراكز العصبية يسمح بالتمييز بينهما ؛ ولكن هذا التحليل ليس من اختصاص علم الصوتيات .

يظهر أن انتقال الصوت يكوّن في أيامنا هذه الموضوع الأساسي من دراسة علماء الصوتيات(١) ؛ فالواقع أنهم أميل إلى الاشتغال بالتموجات ؛ ذلك الميدان الشاسع من البحوث الذي يجنح نحو علم الطبيعة البحتة ولا يمكن الاقتراب منه دون تحضير رياضي متين . ومن هنا اكتسب علم الصوتيات دقة غريبة ؛ فقد أصبحت لديه الوسيلة لتحديد الأصوات بعدد الذبذبات التي تحددها صورها ؛ أما نحن فسنقف هنا عند عادات المدرسة القديمة فنقتصر على دراسة إنتاج الصوت ، أعني التصويت phonation ، وعلى وصف نتائج التصويت ، يعني « الأصوات » .

* * *

يشتمل جهاز الإنسان الصوتي على الأجزاء الرئيسية الآتية : منفاخ ، هو الرئتان ، وقناة صوتية هي القصبة الهوائية ، وهي مغلقة من طرفها الأعلى بواسطة تضخم مزدوج ، وهو ما يسمى بالأوتار الصوتية ، أو فتحة الحنجرة Glotte بالاختصار ؛ فهو آلة هوائية ، آلة ذات مبسم مزدوج . ويبدو من نظام الحنجرة سمو الجهاز الإنساني على جميع الآلات الأخرى . والأوتار الصوتية على جانب من المرونة لا يصل إليها مبسم الزمار الموسيقي الذي هو صلب بالضرورة . وتستطيع هذه الأوتار ، بفضل نظام للحركة لطيف التدبير يدير عدة أزواج من العضلات ، أن تأخذ أوضاعاً مختلفة . فيمكن إبقاؤها مغلقة أو فتحها فتحاً تاماً أو شبه تام

---

(١) أنظر خاصة رسلو رقم ١١٥ وپوارو رقم ١٩١ .

وجعلها تتذبذب كلا أو جزءاً والتعـديل من مقدار توترها . ومن هنا تنتج تنوعات المصادر التى يغترف منها التـكلم .

ومع ذلك فإن هذا الجهاز الصوتى يكون ناقصاً لو أنه كان مكونا من الحنجرة وحدها ؛ وما كان يستطيع فى هذه الحال أن يسمع إلا الحركات ويسمعها على درجة من التخالف أقل بكثير مما ننطقها به عادة .

الواقع أن التيار الهوائى الذى تدفعه الرئتان يحدث الصوت بذبذبة للأوتار الصوتية . ولما كانت الذبذبات تستطيع الاسـتمرار بقدر ماتسمح به كمية الهواء المختزنة (١) وكان يمكـنها من جهة أخرى تغيير الصـوت من حيث الإشباع amplitude والقوة force ، كان للصوت إذن ثلاث صفات مميزة وهى : الطول durée والحدة الموسـيقية hauteur musicale والشـدة intensité كما أنه يختلف هو نفسه تبعاً للحركات ، من حيث أن حركة العضلات تسمح بارتفاع فتحة الحنجرة وانخفاضها بحيث تطيل القناة الصوتية أو تقصرها .

ولـكن التـكملة اللازمة للجهاز الصوتى تأتيه من التجاويف التى تفتح عليها الحنجرة ، أعنى تجاويف الحلق pharynx والحفر الأنفية وخاصة تجويف الفم . وجوانب هـذه التجاويف جميعها ، وهى مطاطة إلى حد كبير ، تقوم للصوت مقام فراغ رنينى فتخلع على كل صوت طابعه الخاص . ويوجد فى هذا التجويف الرنان أعضاء مرنة قابلة للسحب تستطيع أن تعدل أبعاده وتغير من طاقته ؛ فعندنا أولا غشاء سـقف الحلق ويستطيع أن يغلق الطريق المؤدى إلى الحفر الأنفية فيمنع حدوث أى رنين من هذه الناحية ؛ ولـكن اللسان بوجه خاص هو الذى يلعب مع الحنجرة الدور الرئيسى فى التصويت . فعند إصدار الحركة (a) أى الفتحة يكون اللسان على وجه التقريب مسجى فى الفم فى وضع مسطح؛ ولـكن عندما يدور الأمر من حول حركات أخرى ، يغير اللسان من وضعه ليكون الرنين المناسب لـكل منها . فتارة يتقدم إلى الأمام ويرتفع ليقلل من سعة الجزء الخلفى من الفم ،

(١) Roudet : De la dépense d'air dans la parole et de ses Conséquences phonétiques رقم ٧ المجلد ٢ عام ١٩٠٠ ص ٢٠١ — ٢٣٠ .

وتارة يرجع إلى الخلف مقللا من سعة الجزء الأمامى . فى الحالة الأولى يصير اللسان عامل الرنين للحركات المسماة بالحركات الخلفية أو حركات أقصى الحنك وهى ، ابتداء من a ، è مفتوحة و é مقفولة و i مفتوحة و i مقفولة . وفى الحالة الثانية تنتج الحركات المسماة بالحركات الأمامية أو حركات مقدم الحنك . أعنى ، ابتداء من a أيضاً o المفتوحة و ó المقفولة و u المفتوحة و u المقفولة .[1] فى كل واحدة من السلسلتين، الخلفية والأمامية ، نرى أن ال i وال u هما أكثر الحركات انفتاحاً ، وهما الحركتان اللتان فيهما يصل وضع اللسان إلى أقصى حد فى الارتفاع، أى إلى أقرب وضع من غشاء الحنك . أما ال a فهى أكثر الحركات انفتاحاً . هذا إلى أنه يوجد لكل حركة أنواع مختلفة الطابع تقابل عوامل الرنين المتباينة وتتبع أوضاع اللسان المتنوعة . فال a فى فرنسية باريس تنطق على صور ثلاث من اليسير على الأذن أن تفرق بينها : فنحن ننطق a مقفولة فى pâte و a مفتوحة فى patte ومتوسطة فى carotte .

ليس اللسان وحده هو الذى يلعب دور تكوين عامل الرنين الخاص بكل حركة إذ لا ينبغى أن ننسى الشفتين اللتين يختلف وضعها مع كل حركة . وهناك منظر مشهور من مناظر مسرحية موليير « النبيل البر جوازى » « Bourgeois Gentilhomme » يعلمنا فى شيء كثير من الدقة أوضاع الشفتين عند إصدار الحركات. وفقرة لدينى داليكر ناس Denys d'Halicarnasse، ترينا كيف كان الإغريق يعرفون فى هذا الصدد بقدر ما عرف معاصرو موليير ، وإن لم يكن الإغريق من البرزين فى الصوتيات . والواقع أنه يلاحظ أن الشفتين ، عند ما تنطق بال u تمتدان إلى الأمام وتستديران كما فى حالة (التبويز) ؛ وعند نطق أل i تنفرج زاويتا الشفتين لترجعا بهما إلى الوراء . هذان هما الوضعان المتطرفان ، وبينهما أوضاع تقابل نطق أل o (مفتوحة أو مقفولة) وال e (مفتوحة أو مقفولة) . وقد استفادت اللغة من وجود الأوضاع الشفوية

---

(١) يرسم هنا « U » على حسب المتبع فى الصوتيات ، ما يكتب بالفرنسية « OU » أى الضمة الصريحة .

والأوضاع اللسانية معاً لحلق سلسلة مركبة منهما ، هى سلسلة أل eu . فتركيب الوضع الذى يتخذه اللسان فى نطق الحركات الخلفية (i, é , è) ، و الوضع الذى تتخذه الشفتان فى الحركات الأمامية (u, ó ,ò) ، يمكن إلى حد يكاد يكون مضبوطاً من النطق بالأصوات الفرنسية الثلاثة eu مفتوحة فى (beurre) و eu مقفولة فى (queue) و u فى (flûte) ، وهذه الأخيرة ترسم فى الكتابة الصوتية على العموم ü .

وتختلف أنواع الحركات من لغة إلى أخرى اختلافاً كبيراً ، فالإنجليزية مثلا لا يكاد يكون فيها حركة واحدة تشترك فيها مع الفرنسية .

* * *

تقسم الأصوات عادة إلى سواكن وحركات . هذا التفريق يمكن تبريره من الوجهة العملية بتعريف المقطع (أنظر الصفحة الرابعة من الفصل الثالث) ؛ ومع ذلك فإن نفس الأصوات يمكن أن تلعب فى المقطع دور الساكن أو دور الحركة على السواء . وإذا كان بين الاثنين فرق فى الوظيفة ، فليس بينهما فى الواقع أى فرق فى الطبيعة ، والحدّ الذى يفرق بينهما ليس حداً فاصلاً . فالسواكن والحركات تكوّن جزءاً « من سلسلة طبيعية ولا يتضح الفرق بين عراها بجلاء فى طرفيها » .

فى أحد طرفى السلسلة توجد الحركات a أو e أو o على نحو ما عرفناها ، وفى الطرف الآخر توجد السواكن الانفجارية p و t و k . هذه السواكن ليست إلا نوعاً من الضوضاء ؛ وتقوم على أن الهواء يتوقف مؤقتاً بفعل عقبة تصادفه لدى عبوره . والعقبة توجد فى الفم على وجه العموم ؛ وتكوّنها الشفتان أحياناً وطرف اللسان تارة وظهر اللسان تارة أخرى . فى الحالة الأولى يكون الانفجار شفوياً وفى الثانية أسنانياً وفى الثالثة حلقياً . ولكن هناك من الانفجارات أيضاً ما تكون نقطة نطقه فى أقصى الفم : وهى أصوات من وسط الحلق أو من أدناه أو من أقصاه .

ولما كان إغلاق الفم يقع فى نقطة انطباق واحدة لا تتغير ، لم يكن هناك

انغلاق شفوى إلا واحد فقط صامت ؛ ومن ثم كانت الباء P من حيث نقطة الإغلاق واحدة فى كل اللغات إذا استثنينا الاختلافات فى القوة . أما طرف اللسان فتحرك على العكس من ذلك ، وظهر اللسان يستطيع أن يتنقل على طول امتداد الحنك الصلب والحنك الرخو . فهناك إذاً مواضع تماس متنوعة ، ويمكن أن نتصور ، تبعاً لنقطة الإغلاق ، عدة أنواع من الأسنانية والحلقية . وفى غالب الأحيان ينطبق طرف اللسان على الأسنان العليا ، ولذلك يسمى الساكن الذى ينتج على هذا النحو أسنانياً ، كما هى حال التاء العربية و « t » الفرنسية . ولكنه يستطيع أن يرتكز أيضاً على أصول الأسنان ، كما هى الحال بالنسبة للأسنانى الإنجليزى « t » take وفى tire الذى هو من أصول الأسنان . وأخيراً يمكنه بشىء من التقلص أن يمس سقف الحنك ، فنحصل على ما يسميه بعض علماء اللغة بالقمّية Cacumiales أو المخية Cérébrales وما هى إلاّ فروع من الأسنانية كتلك التى تخرج من أصول الأسنان .

أما ما نسميها بالحلقية فإنها تتضمن فروعاً أكثر من تلك عدداً ؛ إذ يكفى أن تمس أى نقطة من ظهر اللسان أى نقطة من سقف الحنك حتى نحصل على صوت حلق . فإذا حصل الانفجار على جزء الحنك الصلب ، حصلنا على واحد من أدنى الحنك (الكاف k فى الكلمة الفرنسية qui) ؛ وإذا وقع على الحنك الرخو فى اتجاه الغشاء الحنكى حصلنا على واحد من أقصى الحنك كالكاف k الألمانية فى kuh . وأصوات أقصى الحنك وأدنى الحنك تشمل عدة فروع ؛ فيمكننا أن نميز مثلا بين الأصوات الحنكية الأمامية والحنكية الخلفية ، بحسب ما إذا كانت نقطة التماس متقدمة قليلا أو كثيراً بالنسبة للحنك الصلب . .

بعد أن عرفنا نقطة التماس على هذا النحو ، لنبحث الآن آلية الانفجار . يطرد الهواء من الرئتين ؛ فيعبر الحنجرة وهى مفتوحة ساكنة ؛ وينفذ إلى التجويف الحنكى حيث يوقف فجأة عند الشفتين أو عند الأسنان أو فى الحنك على النحو الذى وصفناه . ثم فجأة يكف التماس ، ويستطيع الهواء أن يستمر فى مسيره نحو الخروج . ففى كل ساكن انفجارى إذن ثلاث خطوات متميزة :

الإغلاق أو الحبس ، والإمساك الذى قد يكون طويل المدى أو قصيره والفتح أو الانفجار[١] عند إصدار ساكن بسيط مثل التاء t ، فإن الانفجار يتبع الحبس مباشرة ؛ والإمساك يضؤل إلى مدى لا يكاد يحس . وعلى العكس من ذلك ؛ تظهر الخطوات الثلاث بوضوح فيما يسمى بالسواكن المضعّفة ، وهى ليست إلا سواكن طويلة ، كما أنها تنطق بقوة أشد مما فى حالة القصيرة . فإذا تركنا مسألة الشّدة جانباً وجدنا أن مجموعة مثل (atta أتا) تتميز عن المجموعة (ata أتا) بوجود مسافة بين الحبس والانفجار يمكن للأذن أن تقدرها . ومن الخطأ أن يقال بأنه يوجد ساكنان فى أتا âtta وساكن واحد ata أتا ، فالعناصر المحصورة بين الحركتين فى كلتا المجموعتين واحدة : عنصر انحباسى يتبعه عنصر انفجارى . ولكن بينما نجد العنصر الانحباسى فى ata يتبعه العنصر الانفجارى مباشرة ، نجده فى atta ينفصل عنه بإمساك يطيل مدى الإغلاق .

الفرق بين عنصرى الانحباس والانفجار يكون محسوساً عند مايكون هناك انتقال فى نقطة التماس . لنتصور أن طرف اللسان أعتمد على الأسنان فى لحظة مرور الهواء ، ولكن ظهر اللسان انطبق فجأة — بعد أن تم الإغلاق — على الحنك ليحصل الفتح وهو فى هذا الوضع ؛ فى هذه الحال نحصل على تاء t انحباسية وكاف k انفجارية أى على المجموعة tk تك ، فى atka مثلا . وبالعكس إذا حصل تماس أولا بظهر اللسان واعتمد طرف اللسان على الأسنان فى أثناء الانفجار ، فإننا نحصل على كاف k انحباسية تتبعها t انفجارية كما فى المجموعة أكتا akta .

ويمكننا مما سبق ، أن نحكم على الفرق الذى يفصل بين حركة مثل الفتحة a وبين ساكن مثل التاء t . من جهة وظائف الأعضاء ، لايوجد اشتراك بين هذين الصوتين إلا فى كونهما ناتجين من هواء مدفوع من الرئتين . غير أنه يوجد بين هذين الطرفين من سلسلة الأصوات مكان لكثير من الأصوات الوسطى .

---

(١) روزابلى Valeur relative de l'implosion et de l'explosion : Rosapelly dans les consonnes occlusives رقم ٦ مجلد ١٠ ، ص ٣٤٧ — ٣٦٣ .

لنتصور أولا أن الإغلاق غير محكم وأنه يسمح للهواء بمنفذ مهما كان ضيقاً ، فبدلا من أن نحصل على انفجارى أى مؤقت فإننا نحصل على رخو أو احتكاكى spirante ، التى يسمى أيضاً احتكاكياً fricative لأنه يتميز بضوضاء احتكاك . لم يعد الأمر هنا يدور حول الباب المغلق الذى يفتح فجأة ليسمح للهواء المختزن بالمرور ؛ بل هو الباب الذى يظل على معارضته ويسمح للهواء بالصفير .

وبالطبع تسمح الاحتكاكيات بجميع نقط النطق التى للانفجارية ؛ فنى كل نقطة من نقط التماس التى تنتج فيها هذه الأخيرة يمكننا أن نتصور انغلاقياً مقابلا طالما تدع الشفتان أو طرف اللسان أو ظهره منفذاً لتسرب الهواء . وهناك انغلاقية أسنانية شفوية (الفاء f الفرنسية) وأسنانية (السين s الفرنسية) ومن أصول الأسنان (الثاء الإنجليزية th فى thick و thank) وحنكية مثل (ch الألمانية فى ich) ومن وسط الحنك médio-palatale (الشين ch الفرنسية فى cheval) ومن أقصى الحنك Vélaire (مثل الخاء ch الألمانية Buch) ، مع كل الفروع التى تحتملها الاختلافات فى الوضع . وهناك أيضاً فى أقصى التجويف الحنكى إحتكاكيات أو حلقية أو من أدنى الحلق أو من الحنجرة مثل العين العربية .

وتوجد سلسلة من الأصوات اللغوية المتوسطة بين الانفجارية والاحتكاكية ؛ وهى ما تسمى شبه الانفجارية Semi-occlusives أو بعبارة أوضح الانفجارية الاحتكاكية affriquées وتتميز بالإغلاق الذى لا يستمر إحكامه . وفيها كما فى الانفجارية حبس ؛ ولكن هذا الحبس تتبعه حركة خفيفة من الفتح ، بحال يجعل الانفجارى ينتهى بالاحتكاكى . فالانفجارى الاحتكاكى affriquée انفجارى فاشل . بعض اللغات يكثر من استعمال الانفجارية الاحتكاكية ، ويمكن رسمها صوتياً هكذا پف pf ، و ت ts ك ^{k}ch وقد بقى هذان الأخيران فى لهجات ألمانيا الجنوبية زمناً طويلا ؛ ويمكن حتى الآن أن نسمع بوضوح الـ ك ^{k}ch فى الألمانية المتكلمة فى بقاريا وسويسرا .

وإننا مع الانفجارية الاحتكاكية ، بل حتى مع الاحتكاكية ، مازلنا بعيدين

جداً عن الحركات . ومع ذلك فإنه لما كانت الاحتكاكية والحركات تشتركان فى المدة ، كانت المسافة بينهما أقرب من المسافة التى بين الحركات وبين الانفجارية ، إذ يمكننا إطالة الفاء f والسين s والشين ch كما نشاء على قدر ما تسمح به الرئتان . ولكن هناك وسيلة لتقريب ما بين الحركات وبين الانفجاريات أو الاحتكاكيات أو الاحتكاكيات الانفجاريات : وذلك بأن نمدها بالرنين .

لقد افترضنا حتى هنا بقاء الشفتين والحنجرة فى حالة سكون عند إصدار الساكن . لذلك لم نحصل إلا على سواكن صامتة يعنى مجردة من الصوت «Voix» (stimmlos, unvoiced كما يقول الإنجليز والألمان) . ولكن لندع الأوتار الصوتية تتذبذب كما تفعل فى الواقع ، لكى نزود الحركات بالصوت فعندئذ نحصل على سواكن مجهورة (stimmhaft, voiced) . فالفرق الذي يميز المجهورة من المهموسة أنه عند إصدار الأولى تكون الأوتار فى حالة ذبذبة ، مع التساوي فى غير ذلك من الأشياء . ونحس هذا الفرق بكل يسر عند ما ننطق على التتالى الانفجاريات p (پ) و b (ب) أو t (ت) و d (د) أو k (ك) g (ج) أو — وذلك أحسن دلالة — الاحتكاكيات (ف) f و V (ڤ) أو (س) s و (ز) z أو ش ch و (ج) J . وإذا راعى الإنسان أن يسد أذنيه ، عند النطق ، فإنه عند ما يصل إلى المجهورة يسمع الرنين الذى تنشره الذبذبات الحنجرية فى تجاويف الرأس . بالطبع كل السواكن التى عددناها حتى الآن من انفجارية وانفجارية احتكاكية واحتكاكية ، تقبل الجهر . فإذا ما حسبنا حساب السواكن الممكنة ، وجب أن نضاعف عدد تلك التى ذكرناها فى القائمة بإضافة المجهورة إلا المهموسة .

* * *

نصل الآن إلى سلسلة من الأصوات اللغوية وسط بين السواكن والحركات تسمى عادة أشباه الحركات (حروف اللين) لهذا السبب . ويمكن أن نسميها بالعبارة المعكوسة شبه السواكن ، لأن المسألة مسألة حركات مشوبة بعناصر سكونية أكثر منها مسألة سواكن مزودة بالجهر . فى قائمة الحركات المذكورة

فى الفصل الخاص بالفصائل النحوية ، اعتبرت الحركات U (الضمة) و i (الكسرة) و ü (الضمة المشمومة الكسر) حركات مقفولة تتميز بأن اللسان عند نطقها يرتفع فى الفم (إلى الخلف أو إلى الأمام على حسب الأحوال) مقللا من المسافة التى تفصله عن الحنك ، وذلك ليكون عامل الرنين الخاص بها . وينتج من ذلك أن إصدار الضمة (u) والكسرة (i) والضمة المشمة الكسرة (ü) تصحبه ضوضاء احتكاك ناتجة من مرور الهواء بين اللسان والحنك ، وضوضاء الاحتكاك تلك عنصر سكونى . وهى على وجه التأكيد أقل ظهوراً عند إصدار هذه الحركات الثلاث منها عند إصدار أحد الاحتكاكيات المجهورة ؛ ولكنه مع ذلك يصير محسوساً إذا قورنت الحركات u أو ü, i بالحركة a (الفتحة) . وعلى كل حال ، هناك وسيلة لسماعها وذلك بأن تنطق على التوالى الحركات المختلفة موشوشة . فى الكلام الموشوش الذى ليس فيه رنين وبالتالى يخلو من الجهر (الصوت voix) ، يصير كل شىء إلى هذه الضوضاء البسيطة[1] ولذلك تكون الفتحة (a) فى مثل هذه الحال أقل الحركات سماعا ، بينما نرى الضمة (u) والكسرة (i) والضمة المشمّة (ü) تسمع بيسر بفضل العنصر السكونى الذى تشتمل عليه . وكثيراً ما تستخدم اللغة هذا العنصر السكونى لتجعل من الضمة (u) والكسرة (i) والضمة المشمة (ü) سواكن . والصوت هو هو دائماً ولكن فى استعمالين مختلفتين . والساكن الذى يقابل الكسرة (i) والضمة (u) يرمز له عادة بالياء (y) والواو (w) ونجده فى الفرنسية فى yeux (عيون) و meilleur (أحسن) و oui (نعم) و ouate (قطن) . أما الساكن من الضمة المشمة (ü) ، وهو نادر ، فليست له علامة خاصة : ويوجد فى الفرنسية فى Cuire (ينضج أو جلد) lui (إليه و tuer صيغة المصدر من قتل) و Puiser (استقى) .

ويعدّ فى طائفة شبه الحركات أيضاً اللام والراء l, r المائعتين ، والأخيرة منهما

---

(١) أنظر ، عن الصوت الموشوش ، پول ألفيه Paul Olivier ، رقم ٧ سنة ١٧٩٩ ، ص ٢٠ وما يليها .

تدعى أحياناً بالمتذبذبة ، وهى تسمية أكثر دقة من الأولى . فهما ساكنان لهما نقطة نطق محدودة فى الفم وتعتمد على وضع ما للسان ويمكن أن تُصحب أو لا تصحب بذبذبات حنجرية تنتج الجهر . وهما مجهوران أغلب الأحيان ؛ غير أنه يوجد فى بعض اللغات لامات وراءات مهموسة (صامتة) اللام المائعة حرف جانبي (حافّى) وتتميز بأن طرف اللسان يرتفع فى النطق بها حتى يعتمد على الحنك وتنخفض حواف اللسان الجانبية بطريقة تسمح للهواء أن يمر من جوانبه . فيرى من هذا أن بينهما وبين الأسنانيات نقطة اشتراك . والواقع أن الحركه التي يقوم بها طرف اللسان واحدة بالنسبة للام وللدال فى الفرنسية . وهناك نوعان آخران من اللام المُبلّلة mouillée ، وتتميز باستعلاء الجزء الأمامى من اللسان نحو الحنك الصلب ؛ والأخرى من أقصى الحنك وفيها يتحدب الجزء الأوسط الخلفى من اللسان فى شكل ملعقة من جهة الحنك الرخو . واللام التى فى أقصى الحنك كانت توجد فى اللاتينية ؛ وهى مستعملة فى اللغات السلافية حتى الآن .

والراء المائعة ترجع إلى ذبذبة فى الأجزاء المطاطة التى يشتمل عليها التجويف الحنكى وإلى ذبذبة اللسان أولا وقبل كل شىء . وهناك الراء الأسنانية الناتجة من ذبذبة طرف اللسان ، والراء الحلقية التى فيها ظهر اللسان هو الذى يقوم بالذبذبة . وهذه الراءات لها بالطبع نفس التفرعات التى للأصوات الانفجارية الأسنانية والحلقية . وأخيراً هناك الراء التى من اللهاة ، الناتجة من تذبذب اللهاة ، وهى الراء المسماة بالدسمة (grasseyée) ، وأحد الأصوات التى يصعب إنتاجها على من لم يستحوذ عليها بالطبيعة . والراء الأسنانية هى الراء التى فى الإنجليزية الحديثة : ونقطة نطقها ، كما هى الحال فى كل الأسنانية الإنجليزية ، فى أصل الأسنان .

بعد ما تقدم من وصف ، يمكن الحكم بأن الحرفين المائعين لهما كل صفات السواكن ؛ والواقع أن المائع فى الكلمات loquet, crapaud, claquer, tarin, milan, article, rateau يلعب نفس الدور الذى يلعبه الانفجارى فى الكلمات : taquin, mitan, tact, aptitude, bateau, coquet . ولكن وضع الفم فى إصدار اللام والراء يقتضى إيجاد عامل رنين كما فى حالة الحركات ؛ هذا إلى أن الموائع ليست من الأصوات التى يمكن إطالتها وعند ما تحتوى على الجهر ،

وهى الحالة العادية ، يمكن استعمالها استعمال الحركات لتكوين المقطع . فى الكلمتين الألمانيتين Löffel, Acker لا يكاد المقطع الأخير يحتوى غير اللام والراء اللذين يلعبان فيه دور الحركة . وبعض اللغات التى تستعمل الراء على أنها حركة مثل التشيكية إنما ترمها بعلامة الراء الساكنة مثل krk « رقبة » و pst « أصبع » و vrch « قمة » .

الأصوات التى تكلمنا عنها حركات كانت أم سواكن ، قابلة لاستعمال آخر هو استعمال العنصر الثانى من حرف اللين المستعمل استعمال الساكن أو ما يسمى diphtongue (الحركة المركبة) . وما يسمى بالحركة المركبة هو الجمع بين حركتين فى مقطع واحد ، ولكن الحركتين لا يستويان قيمة فى هذا المركب ؛ إذ يحتوى حرف اللين هذا diphtongue على عنصر قوى وعنصر ضعيف هو الثانى عادة . والحركتان القفولتان الكسرة i والضمة u أصلح من غيرهما للقيام بدور العنصر الضعيف ، أى العنصر الثانى . وهكذا فإن ما يلى الحركة فى اَى(١) ey و اُى oy و آى ay و اَو ew و أو ow و آو aw ليس من الحركات ولا من السواكن بمعنى الكلمة ؛ بل عنصر من المركب diphtongue وبعض اللغات الهندية الأوربية تدل على أن دور العنصر الثانى من هذا المركب يتميز عن دور الحركة أو دور الحرف الساكن . وهذه اللغات نفسها قد أتاحت فى نفس الوقت للام والراء المائعتين أن يستعملا كعنصر ثان للمركب : فاللتوانية حتى أيامنا هذه قد احتفظت لـ اَر وا اَل (er, el) بنفس المعاملة الخاصة بال diphtongue وهى نفس المعاملة التى على المركبين اَى ey و اَو ew بالضبط(٢) .

وأخيراً هناك فصيلة هامة من الأصوات اللغوية لم نقل عنها شيئاً حتى الآن ، وهى الأصوات الأنفية nasales (أو أصوات الغنّة) ، إذ أنه قد افترض فى كل الأوصاف المتقدمة أن يبقى حجاب الحنك لاصقاً بقمة القبو ، أى أنه بالتالى يمنع تسرب الهواء إلى الحفر الأنفية . غير أن حجاب الحنك يمكن له أن يسقط نحو

---

(١) المقصود بالفتحة والكسرة الدلالة على الإمالة .

(٢) مييه رقم ٩٤ ص ٨٩ .

قاعدة اللسان ؛ وحينئذ ينفذ الهواء المدفوع من الرئتين إلى الحفر الأنفية ، فينصرف من الأنف كما ينصرف من بين الشفتين . والواقع أن الإغلاق التام نادر التحقق ؛ بل حتى انتاج الحركات التى تكلمنا عنها حتى الآن ينطوى على السماح لكمية ضئيلة من الهواء بالنفاذ إلى الحفر الأنفية . غير أن اللغة تستخدم الفتح الكامل لإنتاج ما يسمى بالحركات الأنفية . كل الأصوات اللغوية التى ذكرت سابقاً سواء أكانت حركات أم سواكن ، ما عدا بعض المستثنيات الناجمة من طبيعة الأعضاء ، لها فروع أنفية . وعند ما يبقى حجاب الحنك هابطاً أثناء إصدار الصوت اللغوى ، دون أن يعترى عملية النطق أى تغيير أو أن يعدل اللسان عن وضعه ، فإننا نحصل على صوت أنفى ساكناً أكان أم حركة . وكل فرنسى على معرفة كافية بالحركات الأنفية ، بفضل لغته القومية التى تملك عدداً عظيما منها . فالأشياء التى نرسمها an, on, in, un إنما تمثل أصواتاً مفردة وقد أضيف إلى الطابع الخاص بكل حركة منها أنواع من الرنين الأنفى . فمعنى كون الحركة أنفية أن حجاب الحنك يبقى عند الإصدار هابطاً وأن جزءاً من الهواء الخارج من الحنجرة يتخذ طريق الحفر الأنفية . ومن الخير أن نلاحظ أن الحركات الأنفية an, in, un رغم الكتابة ، لا تقابل بالضبط الحركات a (فتحة) و i (الكسرة) و ü (الضمة الشمة الكسرة) بل تقابل ò و è وeu على التوالى .

هذه الآلية نفسها تستخدم لإنتاج السواكن الأنفية . وكل السواكن يمكن أن تصير أنفية : فنحن نعرف فى بعض اللغات قاءات (٧) ولامات l وراءات r أنفية ولكن يحتفظ عادة بمصطلح الأنفية للانفجاريات المجهورة المصحوبة بأنواع من الرنين الأنفى : فعند مايبقى حجاب الحنك هابطا فى أثناء انفجار الباء b أو الدال d أو g نرانا نحصل على الأنفيات م (m) ون (n) والنون المغنة نَ ñ (وتكتب gn فى الفرنسية) ؛ هذه الأصوات اللغوية يمكن إطالتها ولكن الهواء فى هذه الحالة لا يخرج إلا من الأنف بالطبع لما كان الانفجار الحنكى يمنع من مرور الهواء . يوجد من الأنفيات بقدر مايوجد من الإنفجاريات المجهورة . أما تلك الأنفيات التى تقابل الانفجارية المهموسة والتى تعد ممكنة الوقوع من الوجهة النظرية فلا تستعمل فى الواقع إلا نادراً .

رأينا أن الأنفيات ، وهى قابلة للمدة ومزودة بالصوت voix (مجهورة) ، تستدعى رنين الحفر الأنفية : أى أنها مستمدة لأن تقوم بدون الحركات أو المائعات على السواء . والواقع أن هناك عدداً من اللغات التى تملك حركات أنفية ، ونحن نعرف أنها كانت موجودة فى اللغة الهندية الأوربية . واليوم نستطيع أن نسمعها بوضوح تام فى المقطع الثانى من الكلمات الألمانية Atem, bieten . ومن جهة أخرى ، كانت الهندية الأوربية تستعمل النون n والميم m الأنفيتين استعمال العنصر الثانى فى المركب ، فكانت تعامل مثلا on om و en em كما كانت تعامل oi ou و eu ei ، واحتفظت الأغريقية القديمة فى نبرها بآثار من هذا الاستعمال ، وتستطيع اللتوانية حتى يومنا هذا أن تمدنا ببعض الأمثلة[١].

***

الأنفيات تزيد زيادة محسوسة فى قائمة الأصوات التى يصدرها الجهاز البشرى . ومع ذلك فإننا لم نصل بعد إلى خاتمة الحساب . ومما يجعل قائمة الأصوات الممكنة لاتكاد تحد أن العناصر التى تكونها عناصر تغيير إلى حد كبير ، وهى مزودة بكثير من أوجه الخلاف .

فالحركة تنطق على نغمة معينة بشدة معينة وتستمر مدة معينة : فهناك الحدة والشدة والكمية وهى تسمح بمضاعفة وجوه الاختلاف فى حركة . وكما يمكن أن يوجد عدد من الكميات فى كل لغة ، وبما أن الدرجة والشدة تسمحان بتنويع التنغيم والجرس ، فإن هذه التشكيلات المختلفة تحمل فى نفسها مبادىء تنويع أخرى يتضاعف عددها .[٢]

لعبت الكمية فى اللغات الكلاسيكية دوراً يستطيع النظم «Versification» أن يعطينا فكرة عنه ؛ ونقول مثل ذلك فى السنسكريتية أيضاً . أما عن الحدة

---

(١) مييه رقم ٩٤ ص ٨٠٩ .

(٢) فيما يختص بالكمية والحدة والشدة وعلاقة بعضها ببعض فى اللغات السلافية والبلطية : أنظر خاصة الدراسات المفيدة فرديناندى سوسير ، رقم ٦ ، مجلد ٨ ص ٤٢٥ ؛ ورقم ٣٠ أنز ، مجلد ٦ ص ١٥٧ ؛ وجوتيو رقم ٦ مجلد ١١ ص ٣٣٦ ؛ وأنظر أيضاً فورتيناتوف رقم ٢٧ مجلد ٢٢ ص ١٥٣ .

الموسيقية فلدينا منها أمثلة بيّنة فى لغات الشرق الأقصى ، حيث يكفى الجرس وحده فى تميز المعانى والقيم التى تؤديها بعض الكلمات مع اتفاقها فى الأصوات . فحين نرى أحد القاطع مثلا فى الصينية يُنطق بست نغمات مختلفة أو بستة وجوه مختلفة الجرس ، فمعنى هذا أن القطع يدلّ على ستة مسميات مختلفة . أما فى اللغة الأنامية[1] فالتنوع أوسع من ذلك : فقد أمكن أن يعدّ للمقطع (كو Co) خمسة عشر وجها من النطق مختلفة ، تقابل دلالات يباين بعضها بعضاً كل التباين .[2]

هنالك أيضاً تنوعات أخرى ممكنة حتى فى تكوين عامل الرنين الخاص بكل حركة . فهناك البدء الشديد «attaque dure» الذى يسميه الألمان fester Einsaltz والبدء اللطيف المسمى attaque douce وعند الألمان leiser Einsaltz والفرق بينهما ينحصر فى الطريقة التى يجرى عليها انفتاح الحنجرة عند إصدار الحركة البدئية . ففى حالة البدء الشديد تفتح الحنجرة فجأة وتعزل الحركة عن كل ماتقدمها ؛ وهذا هو المسلك المعتاد عند ألمانى الشمال . وهو ذو طابع مميز حتى أنه يكفى لتمييز نطق الألمانى من نطق الفرنسى والإنجليزى اللذين يمارسان البدء اللطيف . ويستعمل أحد علماء الصوت الإنجليز وهو Ellis تشبيهاً جميلا للإشعار بهذا الفرق : وصول النور فى غسق الصباح يكون تدريجياً غير محسوس حتى ليستحيل تعيين النقطة التى عندها ينتهى الليل ويبدأ النهار ؛ هذا هو البدء اللطيف فى الحركات . أما إذا فتحت أبواب النافذة فجأة عند الظهيرة ، فإن ضوءاً قوياً يندلع فى الغرفة حتى يغمرها فى لحظة واحدة ، ذلك هو البدء الشديد . بل إن هذا المسلك ليس مقصوراً على انفتاح الحنجرة . فبعض اللغات مثل الدنمركية يستعمله أيضاً عند الإغلاق . هنالك لايحصل الارتخاء أو الصدمة «Choc» كما تسمى Stoss بالألمانية و Stod بالدنمركية إلا فى نهاية الحركات بعد أن يتمّ الإصدار . وقد نعثر فى الدنمركية على كلتين مثل anden (ذكر البط) و anden (الآخر) ، لايختلفان فيما بينهما إلا بوجود الصدمة stod أوعدم وجودها . وبعض اللهجات الإنجليزية ، ولا سيما اللهجة المتكلمة فى اسكتلنده ، تقدم لنا

---

(١) كادير Cadière رقم ٥٨ ص ٧٩ وما بعدها .

(٢) جرامون رقم ٦ مجلد ١٦ ص ٧٥ .

كذلك أمثلة حسنة على مايسمونه «glottal stop» أى التوقف الحنجرى[1] .

نطق السواكن أيضاً يحتمل اختلافات هامة جداً غير تلك الناشئة من الاختلاف فى حركات الجهاز الصوتى التى تكلمنا عنها فيما سبق . ونوعان منها على الأقل يستحقان الذكر هنا : تلك التى تنتج من المجهود العضلى وتلك التى تتوقف على درجة انفتاح الحنجرة .

يجب أن ينفق الكثير من الجهد للوصول لإنتاج الحركات التصويتية فى كل اللغات بقوة عضلية واحدة . فى بعضها يقلّ المجهود إلى حدّ ضئيل ، فيتسلسل الكلام مستمراً هادئاً فى تعادل متصل . وفى بعضها على العكس من ذلك ، يوجد احتجاز عضلى يعطى للسماع طابع العنف وتتخلله أنواع من الاسترخاء المفاجىء ومواقع الوزن والاصطدام .

وفى داخل كل لغة ، تتطلّب بعض الأصوات اللغوية توتراً عضلياً أشد من غيرها . هذه الحقيقة قد لفتت نظر الإغريق القدماء ، فجعلتهم يميزون فى سواكنهم بين اللطيفة والقوية . وعلى العموم ، فالفرق فى الشدة مرتبط بالتضاد الذى بين المجهورات والمهموسات . كانت تلك الحال موجودة فى الإغريقية القديمة ، وتلك هى الحال فى الفرنسية حيث نجد السواكن الثلاثة پ p و ت t و ك مهموسة وقوية فى آن واحد ، والسواكن الثلاثة ب b ود d و g ج على العكس منها مجهورة وضعيفة . ولكن من اللغات ما يجهل هذا التوزيع أو ينظمه على نحو آخر . فأحد الفروق التى تميز الانفجاريات الفرنسية من الانفجاريات الألمانية ، ولا سيما ألمانية الجنوب ، أن الانفجاريات المجهورة ب b ود d و ج g قوية فى الألمانية مما يخيل لأذن الفرنسى أنها أصوات وسط بين المهموسة والمجهورة ، بل وفى بعض الأحيان أنها أقرب إلى المهموسة منها إلى المجهورة . وعلى العكس من ذلك الانفجاريات المهموسة پ p و ت t و ك k لطيفة غالباً فى ألمانية الجنوب ، إذا لم تكن منفّسة كما سنرى .

هناك مبدأ آخر لإحداث وجوه الاختلاف فى نطق السواكن يحدث من

---

(١) جسپرسن ، رقم ١٧٣ ، ص ٧٩ .

درجة انفتاح الحنجرة . فتوجد انفجاريات من حنجرة مفتوحة وأخرى من حنجرة مغلقة .

فى النطق مع انغلاق الحنجرة ، كما هى الحال فى الفرنسية وفى اللغات السلافية والإغريقية القديمة ، تقترب شفتا الحنجرة أو الأوتار الصوتية أثناء إصدار الانفجاريات . فهى إذن مستعدة تماماً للدخول فى الذبذبة من أجل الحركة التى تتلوها إذا كان الانفجارى مهموساً ، ومنذ بدء الانحباس لإحداث الرنين من أجل الانفجارى ، إذا كان الانفجارى مجهوراً على العكس من ذلك . فى النطق مع انفتاح الحنجرة الذى تتميز به اللغات الجرمانية على العموم[1] ، يلزم للأوتار الصوتية بعض الزمن لتتمكن من اتخاذ الوضع الذى يسمح بالذبذبة ، سواء أكان ذلك فى أثناء الحبس لإجهار الساكن أو بعد الانفجار مباشرة لإنتاج الحركة . وفى أغلب الأحيان يحدث تأخر طفيف ، نقص فى التنسيق بين الانفجار وبين وضع الذبذبات الحنجرية فى حالة المسير . الفرق الأساسى بين الانفجاريات الألمانية والفرنسية يقوم على أن الذبذبات الحنجرية فى الألمانية تنتج فى وقت متأخر عنه فى الفرنسية . وهذا سبب آخر يجعل الفرنسيين عند ما يسمعون ألمانياً ينطق با، دا ، جا .ba, da, ga يفسرونها على أنها پا ، تا ، كا pa, ta, ka ؛ لأن الساكن مجهور فى الفرنسية منذ بدء الانحباس ؛ وفى الألمانية الجزء الأول من الساكن مهموس ، لأن الجهر لا يبدأ إلا بعد الانحباس بوقت محسوس .

النطق مع فتح الحنجرة يجر إلى نتيجة أخرى . فطوال مدة الانفجار لا يكف الهواء المدفوع من الرئتين عن التراكم فى الفم ، إذ لا شىء يعترض طريقه عند طرف القصبة ، بينما فى حالة النطق مع انغلاق الحنجرة تعترض شفتا الحنجرة خروج الهواء ولو جزئياً . وينتج عن ذلك أن الهواء يخرج من الفم عند الانفجار بعنف فى حالة النطق مع انفتاح الحنجرة ؛ لأنه فى حالة النطق مع انغلاق الحنجرة تقوم الحنجرة فى صورة ما بدور الملطف لتيار الهواء . ويكون عنف الهواء من القوة بحيث نسمع عادة عند الانفجار تلك الضوضاء المميزة لخروج الهواء والتى

---

(١) مييه : رقم ٩٥ ، س ٣٦ ، ورقم ٤ مجلد ١٦ س ١٥٣ ؛ وجرامون رقم ٧٨ ص ٨٤ .

تسمى بالشهيق «aspiration» وما هى إلا تسمية خاطئة . هذا ولما كان وضع الذبذبات الحنجرية فى حالة السير على نحو ما رأينا يقع متأخراً قليلاً بالنسبة للحركة التالية ، فإنه تنقضى مسافة زمنية طويلة أو قصيرة لا تكون الحركة خلالها قد وجدت بعد ، بينما يكون الساكن قد انتهى . هذه المسافة يشغلها الشهيق بطبيعة الحال ، فنحصل فى نهاية الأمر على ساكن يسمى بالنفّس ؛ فبدل الباء p والتاء t والكاف k تنطق به ph وبه th وبه kh . من السهل أن يسمع هذا التخالف من فم ألماني من الجنوب إذا طلب منه أن ينطق العبارات التالية : le pavé de paris, une tasse de thé, un Carreau de Cassé .

نحن بعيدون فى هذا السرد عن استيفاء جميع الاحتمالات التى للأصوات اللغوية فإننا لم نعن حتى الآن إلا بالأصوات اللغوية الناتجة من زفر النفَس . ولكن هناك أيضاً الأصوات اللغوية المسماة بالشهيقية . يمكننا من الوجهه النظرية أن نأخذ جميع أصوات القاعة السابقة ونتصور أنها أنتجت بواسطة الشهيق ؛ وعندئذ يتضاعف عددها . هذا وإن عبارة التشهيق أو الشهّقة عبارة غير صالحة ؛ لأنه ليس فى إنتاج الأصوات اللغوية التى نحن بصددها إدخالٌ للهواء فى القناة التنفسية ، فهذه الأصوات تقوم على حركة من المصّ ؛ وتسمى لذلك أصوات الصمصمة « clics » (١) .

الأصوات اللغوية المشهّقة أو أصوات الصمصمة نادرة الاستعمال . ويؤكد بعضهم أن بعض لغات إفريقية تستعملها بصورة عادية ؛ ولكنها غير موجودة فى النظام الصوتى للغات الهندية الأوربية . وإنما تُقابل هنا وهناك من باب المصادفة المحضة . ومما ثبت أن نشوء الباء P فى آخر الأفعال المسندة لجمع التكلم فى لغة أهل بريتانيا الفرنسية جاء من حدوث مصمصة clic (مثل karomp « نحب » ، من karom (٢) . وهذه حالة استثنائية في لغات أوربا الحديثة .

وعلى العكس من ذلك تستخدم المصمصات فى كل اللغات لإحداث حالات

---

(١) ل . هافيه : رقم ٦ مجلد ٢ ص ٢٢١ ؛ ساكلو Sacleaux : رقم ١١٨ ص ٤٤ .

(٢) رسلو : رقم ١١٥ ، ١ ص ٤٩٢ ؛ وانظر أيضاً لوث Loth رقم ٨ مجلد ١٦ ص ٢٠١ .

التعجب . فالفرنسية تستخدم تاء t مشهقة للتعبير عن الشك أو لإثارة الانتباه ؛ وتشهق تاء « t » من أصل الأسنان للدلالة على الإعجاب أو الدهشة ؛ وتشهيق الفاء يعبّر أحياناً عن رضا النهم وأحياناً أخرى عن الإحساس بجهــد أو ألم حاد قصير ؛ وكلمة oui « نعم » تنطق بالتنفيس إذا كانت تعبر عن الشك أو المجاملة ، وكذلك الحال فى كلمة « لا » non إذا نطق بها بصوت منخفض وفى غير اكتراث .

الفصل الثانى

النظام الصوتى وتغيراته

عدد الأصوات اللغوية الممكنة يكاد يمتد إلى ما لا نهاية . وليس هناك من آلة موسيقية تساوى الجهاز الإنسانى فى تنوع الأصوات التى يصدرها . ولكن اللغات بعيدة عن أن تستعمل فى وقت واحد جميع المصادر التى فى حوزة الكلام . وعلى العكس من ذلك فإن الأصوات المستعملة فى كل لغة محدودة العدد .

لسنا فى حاجة إلى المقول بأننا لا نستطيع إحصاء الأصوات المستعملة فى لغة ما بعدد الحروف الوجودة فى أبجديتها . فكل لغة فيها من الأصوات أكثر مما فى كتابتها من العلامات . تلك حال الفرنسية والإيطالية والإنجليزية والألمانية . ومع ذلك فإن عدد الأصوات فى أية لغة لا يكاد يتعدى الستين عادة ؛ بل يمكن أن ينزل عن ذلك نزولا محسوساً .

هذا الرقم ليس مما يثير الدهشة ؛ فإنه يُفسَّر بداهة بتنوع الأصوات فى الجهاز الإنسانى ، تلك الأصوات التى لا يمكن استعمال عدد كبير منها فى لغة واحدة دون أن تسبب مشقة لمن يتكلمها . هذا إلى أن من بين الأصوات الممكنة ما يستبعد بعضه بعضاً بسبب تكوين أعضاء النطق .

فى كل لغة ترتبط الأصوات بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً ، فهى تكوّن نظاماً متجانساً مغلقاً ، تنسجم أجزاؤها كلها فيما بينها ؛ هذه هى أول قاعدة من قواعد الصوتيات ؛ وهى ذات أهمية قصوى ، لأنها تثبت أن اللغة لا تتكون من أصوات منعزلة ، بل من نظام من الأصوات .

أولئك الذين يمارسون لغات أجنبية يشعرون جيداً بوجود نظام لغوى خاص بكل لغة . وعند ما ينتقلون من إحداها إلى الأخرى لا يشغلون أنفسهم ، لحظة النطق بكل كلمة ، بوضع أعضائهم الوضع الذى يناسب الأصوات المكوّنة لهذه

الكلمة ، وإلا لتعذر عليهم الكلام بسلاسة تعذراً تاماً : بل يكف فى اللحظة التى ينتقلون فيها من لغة إلى أخرى أن يزودوا أعضاءهم بنوع من التوجيه العام مرة واحدة . وإذا كانت اللغة التى يتكلمونها أليفة لهم ، حصل فى أعضائهم بصورة غير شعورية ، نوع من التحول يجعل جميع الأصوات الصادرة تصدر على طريقة اللغة الجديدة . فمثل المتكلم بعدة لغات مثل لاعب الهرمونيوم الذى يستطيع بنقله للمشط أن يخلع على جميع الأصوات التى يخرجها قيمة خاصة . ويُحَس هذا الانتقال من التعب الذى يعانيه الإنسان بعد أن يتكلم شطراً من الزمن لغة لمّا يعتد التكلم بها تماماً . لأن الأعضاء تكون قد قُسرت على أوضاع جديدة تستلزم جهوداً عضلية جديدة أيضاً . وإذا طالت هذه الممارسة التى تفرض عليها فإنها تعجل بإتعاب هذه الأعضاء . وأولئك الذين يودون محاكاة نطق أجنبى فى كلامهم بلغتهم هم ، يعرفون كذلك أنه يكفيهم الحصول على الأثر المطلوب بما يمكن أن يسمّى بالتحوّل الصوتى ؛ فما دام هذا التحول قد وقع فعلا أمكن قراءة صفحة من الفرنسية وقد بدا عليها طابع النطق الإنجليزى أو الألمانى . وجود النظام الصوتى نتيجة لقانون من التوازن ، إذ ينشأ بين جميع الأعضاء التى تتعاون على التصويت نوع من الاتفاق الذى بمقتضاه يميل كل واحد منها بالوضع الذى يتخذه إلى أن ينسجم مع أوضاع الأعضاء الأخرى . بل إنّ الاتفاق لا يقتصر على وضع الأعضاء ، وإنما يتعدّاه إلى الاتفاق العضلى ؛ فبعض الأصوات مثلا يلزم لنطقها نفسٌ أكثر مما يلزم للأخرى ، أو يتطلب مجهوداً أعظم من حركات الأعضاء الصوتية . هذا إلى أن فروق الكمية ترتبط بها عادة فروق طابعيّة .

فى الفرنسية تختلف الفتحة (a) والضمة التى ترسم (o) فى الطابع بوجه عام حسب إختلافهما فى الطول والقصر : فلنلاحظ مثلا اختلاف النطق بين patte و pâte وبين côte و cotte ؛ وبين saute و sotte الخ ... ويوجد فى الألمانية فرق مشابه بين الـ e القصيرة والـ e الطويلة ، وبين الـ O القصيرة والـ O الطويلة : هكذا فى Reh, stehen فى مقابلة retten, Stelle أو فى Sohn Boden فى مقابلة Kommen و Gott ، الخ . ويجرى الحال على هذا المنوال فى كثير من اللغات .

النظام الصوتى بعيد كلّ البعد من أن يكون ثابتاً طوال تطور لغة من اللغات . ويستطيع الإنسان أن يفهم ذلك بسهولة إذا فكر فى الصورة التى ينتقل بها وفى الشروط التى تمسك عليه توازنه .

يستقرّ النظام اللغوى فى السنين الأولى من العمر . ويظل سليما طول الحياة ، إذا صرفنا النظر عن الحوادث العرضية التى قد تصيب الأعضاء . ولكن تحصيل اللغة لايقع دفعة واحدة . فى أثناء هذه السنين الأولى التى لها أهمية عظمى فى نشوء الكلام يختزن الطفل يوماً بيوم وبشكل مستمر الكلمات التى يجتهد فى إبرازها كما حفظها . فليست الأصوات هى التى يتعلم النطق بها ، بل يتعلمه بالكلمات أو بمجموعات من الكلمات . وإذن يجب على أعضائه أن تخضع للنطق بتراكيب من الأصوات قد تكون فى بعض الأحيان على درجة كبيرة من التعقيد . وقلما يصل إلى الصواب من أول خطوة ، بل عليه أن يراجع الكرّة مراراً مصححاً نطقه على نطق الأشخاص الذين يكلمونه حتى يعتقد أنه قد وصل تماماً إلى محاكاة ماسمع . والصورة التى يتخذها نهائياً فى ختام تعلمه هى التى تكوّن نظامه الصوتى ، وهو يقيمه على تحسسات متتابعة واستبعاد للأصوات التى التقطها فى صورة خاطئة وبما يكسب أعضاءه من مرونة قصد الوصول إلى نطق كامل(١) . بعد ذلك يتم له تنفيذ الحركات فى صورة آلية . فهناك ذاكرة للأعضاء يمكن أن تقارن بذاكرة أصابع لاعب البيانو التى تنتقل بين الأزرة بصورة آلية كلما وقعت عينه على النغمات المسجلة فوق الصحيفة .

انتقال النطق من جيل إلى جيل غير متصل ، بمعنى أن الطفل مضطر إلى حفظ كل شىء . وأغلب الظن أن استعدادات الطفل الموروثة تلعب دورها فى هذا التعلم . ولكن يمكننا أن نقدر دون عناء العوارض التى يمكن أن تعرض لسلامة النطق فى كل جيل . فمن النادر جداً أن يكون نظام الطفل الصوتى بعد أن تنتهى مرحلة التعليم مماثلا تماماً لنظام والديه . بل إن من علماء الصوت من يذهب إلى أن ذلك لايقع مطلقا .

---

(١) أنظر المؤلفات التى ذكرناها فى نهاية الفصل السابق ومعها ا . ميه رقم ٩ ج ١ ص ٣١٢ و ج ٢ ص ٨٦٠ .

فى هذا اللعب بالحركات المعقدة الذى يكوّن النظام الصوتى ، قد يحدث لأحد الأعضاء أن يبالغ أو أن يقصر فى أداء عمله ولو بقدر ضئيل ، أو قد يعرض لعضلة شىء من التراخى أو الإبطاء فى إخراج إحدى الحركات ، أو قد يعرض لها على العكس من ذلك زيادة فى القوة أو السرعة . ومن ثم يجىء الاختلاف فى النظام الصوتى بين جيلين متتابعين . هذا الاختلاف قد يضؤل وقد لا يثير لدى السماع أى تغير محسوس ؛ ومع ذلك فهو خطير النتائج لأنه لا يبشر بشىء أقل من انقطاع التوازن فى النظام : هذا إلى أن الاختلاف قد يلحظ بوضوح فى بعض الأحيان : الطفل ينطق مختلفاً عن أبويه ، فيحلّ سلسلة جديدة من الأصوات محل السلسلة التى كان يملكها أبواه . وهكذا نرى الطفل الذى يضغط بطرف لسانه على قمة أصول الأسنان بدلا من الضغط على الأسنان نفسها يصدر سلسلة الأسنانيات الإنجليزية ت ا و د له بدلا من السلسلة الفرنسية .

هذا النوع من التغير الصوتى يقدّم لنا عدة صفات على جانب من الأهمية . فهو أولاً غير شعورى . فالطفل الذى يتقدم لسانه إلى مدى بعيد أو إلى حدّ غير كاف لا يلتفت إلى ما يقع فيه من إسراف أو نقص . يعتقد أنه يقوم بنفس الحركات التى يقوم بها أبواه مع أنه يخالفهما . فعدم شعورية التغيير هو الذى يفسر لنا استمرار لأن الطفل قد يسعى إلى تصحيح خطئه لو أنه شعر به .

زيد على هذا أن التغيّر مطلق ، ومعنى ذلك أنه يتحقق فى صورة تامة لا مردّ منها ، فليست المسألة خلقاً اختياريا يضيف إلى النظام عنصراً جديداً ؛ بل إنها مسألة تحول فى عنصر موجود . هذا التحول يفترض أن الطفل قد عجز عن تكرار الصوت المسموع تكراراً مضبوطاً . بل إنه لما يلفت النظر أن الصوت الذى استبدل به غيره يصير أشق الأصوات الغريبة على النظام وأعسرها على من يريد النطق به . وليس أصعب على فرنسى اليوم من نطق اللام المائعة بعد أن فقدوا هذا النطق .

وأخيراً فالتغير مطرد ، بمعنى أنه يتمّ فى اتجاه محدّد بالتغيرات السابقة . هذا الطابع يفسّر بطبيعة العناصر التى يقوم عليها توازن النظام . يوجد فى كل نظام

صوتى عناصر غالبة تسود غيرها . فيمكن دائماً ، إذا أريد وصف نظام للهجة ما ، إرجاع كل تفاصيل هذه اللهجة إلى بضع قواعد عامة من وضع اللسان وشدة النفس والمجهود العضلى . . . الخ . هذه القواعد العامة ذات قيمة مؤقتة مادام النظام الصوتى يتغير إن قليلا وإن كثيراً من سنّ إلى أخرى ؛ ولكنها مادامت موجودة فإنها تكوّن أساس اللغة وكأنها بمثابة هيكلها العظمى . فإذا ما نظرنا إليها باعتبار توالى العصور رأينا أنها تنبئ عن اتجاهات اللغة . ومن هنا نلاحظ ، إذا فهمنا حالات اللغة التاريخية المتتابعة ، أن التغيرات التى تبدو فى حالات اللغة المتأخرة كانت توجد أجنّة فى حالاتها السابقة .

* * *

المثال الكلاسيكى الذى يذكر عادة لاطراد التغيرات الصوتية هو « الاستبدال المباشر للسواكن » فى الجرمانية ، ذلك الذى يسميه الألمان Lautverschiebung[١] وتلاحظ هذه الظاهرة فى لغات أخرى غير الجرمانية مثل الأرمينية والأوسيّة[٢] . وتنحصر نقطة البدء فى هذا الحذف فى الفرق بين النطق مع إغلاق الحنجرة والنطق مع فتحها (أنظر ص ٥٨) .

إذا اعتاد شعب على النطق مع فتح الحنجرة كما يفعل الجرمانيون ، تعرضت الانفجاريات المجهورة والمهموسة لسلسلة من التغيرات ناجمة عن التأخر فى وضع الذبذبات الحنجرية فى حالة الحركة (أنظر ص٥٩) . فمن جهة لما كان تذبذب الأوتار الصوتية لا يبدأ بعد الحبس مباشرة فى مجموعه مثل با ba أو دا da ، صار جزء من الساكن مهموساً ، سواء أكان هذا الجزء صغيراً أم كبيراً . وأخيراً ينتهى هذا الميل بتحويل المجهور كله إلى مهموس . ومن جهة أخرى فى مجموعة مثل تا ta با pa ، يوجد بين انفجار الانفجارى وإنتاج الفتحة التى تليه وقت طويلا أكان

(١) التفسير الذى نثبته هنا هو الذى يقول به عامة علماء اللغة الفرنسيين لهذه الظاهرة (ميه : رقم٩٥ ص٢٧ ؛ جوتيو : رقم ٦ مجلد ١١ ص ١٩٢ ؛ فندريس : رقم٩٩ ص ١٣٠) . ولكنه ليس رأى الجميع ؛ ف . فونت : رقم ٢٢٣ ج ١و٢ ص ٤٠٥ ؛ هـ . مير : رقم ٣٥ ج ٥ ؛ ص ١٠٧ وما يليها ؛ هيرت : رقم ١٦٧ ص ٦١٦ ؛ س . فيست : رقم ٢٦ مجلد ٣٦ ص ٣٠٧ ومجلد ٣٧ ص ١١٢ .

(١) لغة أهل بلاد القوقاز الوسطى ، ويبدو أنهم من ذرية الإيرانية الأقدمين .

أم قصيراً . ولكنّ الانفجار يترك للهواء حرية المرور . ومن هنا يجىء الميل الطبيعى نحو تحوّل الانفجارى إلى تنفّسى أو حتى إلى احتكاكى انفجارى إذا كان الانفجار على درجة شديدة من الحدّة ولم تستطع الأعضاء أن ترجع مباشرة إلى وضعها فى حالة الاستراحة رغم اندفاع الهواء الفاجىء باحثاً عن سبيل للخروج . وعندئذ يتحول النطق إلى تها tha ، بها pha أو إلى تسا tsa وپفا pfa ؛ والمآل الطبيعى للتنفسية والانفجارية الاحتكاكية أن تصير الاحتكاكية (فا و ثا) إذا كان دفع الهواء يجعل الانفجار غير تام .

كلتا العمليتين اللتين عرضناهما الآن تلعبان دوراً كبيراً فى تاريخ اللغات الجرمانية . فبهما يجب أن نفسر كون الانفجاريات المجهورة فى الهندية الأوربية يقابلها دائماً مهموسات فى الجرمانى المشترك (فى القوطية skapjan « يُشكّل » itan « يأكل » ، وفى الألمانية العليا القديمة melkan « يحلب » وذلك فى مقابلة الكلمات اللاتينية scabo, edo, mulgeo) ، والانفجارية المهموسة تقابلها دائماً احتكاكية ، (فى القوطية hilfan « يسرق » ، thahan « يسكت » فى مقابلة الإغريقية Χγέπω واللاتينية taceo) . هذان وحدهما هما النوعان من أنواع الإبدال المباشر المميزان للجرمانية[1] . لكن الاحتكاكىّ الناتج من الانفجارى المهموس لا يكون مهموساً دائماً ، فهناك حالات يكون فيها مجهوراً . وقد بيّن العالم اللغوى الدنمركى فرنر Verner[2] ، أنه لا يكون مجهوراً إلا فى الكلمات التى لا يكون فيها المقطع التالى منبوراً فى الهندية الأوربية .

الواقع أن عدداً من الاتجاهات الأخرى قد وجدت فاختلطت بأثر الإبدال المباشر . منها مثلاً ذلك الاتجاه الذى يظهر فى بعض اللغات الأخرى ويعمل على أن تصير الاحتكاكية المهموسة مجهورة إذا وقعت بين حركتين (اكتشاف فرنر لا يضيف إلى ذلك إلا بعض التصحيح) . ومنها ذلك الذى ينحصر فى أن

---

(١) اعتاد الألمان ، وتبعهم علماء اللغة فى البلاد الأخرى فى غالب الأحيان ، أن يسموا قوانين الإبدال المباشر فى الجرمانية قوانين جريم مع أن راسك Rask الدنمركى قد اكتشفها قبل جاكوب جريم ؛ أنظر پدرسن Pedersen : رقم ٢٣٠ ص ٥٢ وما يليها .

(٢) فى مقال مشهور رقم ٣٧ ج ٢٣ ص ٩٧ .

الاحتكاكيات المجهورة تقاوم الضعف الذى يصيبها ، وذلك بفضل استدراك المتكلم، فتصير انفجارية مجهورة . والحالة الثانية قد وقعت فى الألمانية، فالكلمات الانجليزية thin (رفيع) و thumb (إبهام) أو thorn (شوكة) يقابلها فى الألمانية الكلمات dünn و Daumen و Dorn التى كانت تبدأ باحتكاكى قبل أن يصير انفجارياً . ولكن هذا التطور يظهر فى أوضح صورة فى حالة الأصوات الأسنانية ؛ بل إنه يمتد فى شكل مبعثر خارج الميدان الألمانى (فى الإنجليزية gold « ذهب » wild « متوحش » فى مقابلة gulth و wiltheis فى القوطية) . فى هذا الميدان يلاحظ أن نفس التطور موجود بالنسبة لبعض الاحتكاكيات الأخرى (١) : فنى بعض اللهجات نرى الفاء w تصير باء b إذا كانت فى أول الكلمة (bas بدلا من was أو beil بدلا من weil) أو الـ J تصير g إذا وقعت بعد الراء r (Ferge « قائد طيارة ، دليل » ، Scherge « جاويش » ، وهما مشتقتان من الكلمتين القديمتين verjo و scerjo) .

هذه الأمثلة ترينا أنه لا ينبغى أن نعزو إلى مبدأ واحد جميع التغيرات التى طرأت على السواكن الألمانية . ولكن مما تجدر ملاحظته أن الاتجاه العام الذى يظهر فى حالات الإبدال منذ ما قبل التاريخ يظل خلال جميع التقلبات الناتجة من ظروف خاصة ، محسوس الأثر فى تاريخ اللغات الجرمانية بأسره : فمثلا بعد أن أتمت الألمانية العليا القديمة حوالى القرن السادس بعد الميلاد إبدالا مباشرا فى السواكن المرة الثانية ، نرى الألمانية الحديثة — فى الأقاليم الجنوبية على الأقل — تمهد لإبدال ثالث ؛ وهناك إبدال جديد فى سبيل التحقق فى مكان آخر من هذا الميدان ، أعنى اللغة الدنمركية (٢) .

ظاهرة مثل ظاهرة الإبدال المباشر فى السواكن ، وهى من خير الأمثلة على الاطراد والاستمرار، ترينا فى عين الوقت أن التغير الصوتى يمكن أن يمتد على مجموعة من السكان هامة فى غالب الأحيان . فلا يكفى إذن لتقويم طبيعة تغير من التغيرات

(١) بهاجل Behaghel : رقم ١٤٤ ص ٢٠١ و ٢٠٤ .
(٢) براونه Braune : رقم ٢٦ ج ٣٦ ص ٥٦٤ .

أن نقارن نطق طفل بنطق أبويه ، يعني أن نعتبر فرداً واحداً منعزلا فى كل جيل. لأن التغير الوحيد الذى يعتبر فى عين العالم اللغوى هو التغير الذى يظهر فى كلام مجموعة من الأفراد .

التغيرات اللغوية تنتج على وجه الخصوص فى الانتقال من جيل إلى جيل آخر . ولكن لا بدّ من التفرقة بين التغيرات الفردية والتغيرات المشتركة بين جميع الأطفال فى نفس الجيل . فقد يحدث أن أحد الأطفال لا يستطيع النطق ببعض الأصوات نتيجةً لاستعداد خبيث موروث ، أى أن يكون عنده بعبارة أخرى نقص فى النطق . هذه الحالات من النقص الفردى ، فى غالب الأحيان ، لا تعنى غير الطبيب . وغاية ما يعنى العالم اللغوى من أمرها أنه قد يستدل بها على اتجاهات اللغة. فأحياناً لا تكون هذه الأنواع من النقص فى الواقع إلا مبالغة فى ميل طبيعى. وفى هذه الحال يكون شأنها شأن الأعراض من حيث إنها تعلن عن نقط الضعف فى النظام ؛ فهى ترينا فى أى مكان تنهار المقاومة وفى أى اتجاه تهدد بعض الاتجاهات الجديدة أن تجرّ إليها اللغة . ولكن هذه الحال تتطلب من العالم اللغوى أشد الحذر ويمكن بوجه عام أن تتركه خارج دائرة البحث ، فللتعرف على وجود أى اتجاه يجب أن تشمل الدراسة أكثر من فرد .

ساد شطراً طويلا من الزمن الاعتقاد بأن كل تغير صوتى إنما يصدر عن الفرد وأنه لم يكن إلا تغيراً فردياً ثم عُمِّم . وهذا إدراك للاشياء غير صحيح . فليس فى وسع أن فرد أن يفرض على جيرانه نطقاً تنبو عنه فطرتهم ؛ وليس هناك من قسر جدير بتعميم تغير صوتى . فلأجل أن يصير تغيّر ما قاعدة لمجموعة اجتماعية، يجب أن يكون لدى كل أفراد هذه المجموعة ميل طبيعى لتحقيقه من تلقاء أنفسهم [1]. بل إن سلطان المحاكاة نفسه لا يقدر هنا على شىء . فإن النطق الشاذ لا يجلب أتباعاً لصاحبه ، بل لا يجلب له بوجه عام إلا السخرية منه .

قد يعترض معترض بتأثير الجدّة ذلك التأثير الذى لا يمكن إنكاره فى بعض الحالات . فكلنا نعرف أن المجتمع الراق فى عهد حكومة الدركتوار كان يعمد

---

(١) مييه ، رقم ٩ ج ١ ص ٣١١ ، و ج ٢ ص ٨٦٠ ؛ ورقم ٢ ج ٩ ص ٥٩٥ .

إلى عدم النطق بالراء محاكاة لآل بوهارنيه الذين كانوا لا ينطقون بهذا الحرف لعادة المولّدين Créoles : وقـــد أدّى ذلك إلى « بدعة الأنـكوبايل » Les incroyables التى لم تستمر إلاّ وقتاً قصيراً ، ولم يبق منها إلا بعض الأساطير فى الرسومات وكتب الأقاصيص . وقد عرف العالم القديم بدعاً مماثلة . فألسبياد كان من عادته أن ينطق الراء لاماً (أرسطوفان ، الزنابير ، ص ٤٤ و ٤٦) ، فظن ابنــه من الخير أن يحاكيه (أرشيبوس Archippos ونقل عنــه بلوتارك Plutarque فى حيـــاة ألسبياد ، ص ٤١) . ويتهكم كاتول Catulle على رومانى معاصر له ، اسمه Arrius كان ينفّس حرف C فى اللغة اللاتينية ، محاكاة للاغريق ، فيقول chommoda بالشـــين بدلاً من commoda بالـكاف .

هذه حالات استثنائية ، إذا فسّرت تفسيراً لائقاً أثبتت صحة القاعدة . إذ يلاحظ أن هذه التغيرات الصوتية لم تنته إلى نتيجة . فقد استمر الرومان على نطق الحرف C انفجارياً ؛ وتاريخ حرف C فى اللغات الرومانية لا يبدو فيه أى اضطراب من جراء البدعة التى مثلها أريوس . بل ظلّ النطق الشاذّ لهذا المتحذلق غريبا على النظام الصوتى عند اللاتينيّين نعم لقد كان من الممكن أن يستمرّ فى بعض الـكلمات المنعزلة وقتاً طويلا أو قصيراً . ولـكن المسألة فى هذه الحال لا تـكون مسألة صوتيات بل مسألة مفردات . هذا إلى أنه يجوز لنا أن نتساءل إذا لم تكن الهواية التى يسخر منها كاتول إنما هى فى الواقع مسألة مفردات لا أكثر من ذلك . إذ يبعد عن الاحتمال أن يكون أريوس قد غـيّر جميع الـ C (ك) فى لسانه إلى ch (ش) ، أى أن يكون قد أبدل نطقاً من نطق بطريقة منظمة : بل لعله أحلّ الشين ch مكان الـكاف C فى بضع كلمات ليخلع عليها طابعاً إغريقياً .

تختلف عن ذلك حالة الأنـكوبايل الذين أدخلوا فى الفرنسية العادية ، فرنسية باريس ، عادة نطقية من لهجة فرنسية أخرى ، هى لهجة المولّدين فى جزيرة المرتنيك . وإذن فإبعاد الراء من الفرنسية يبدو حينئذ مطابقاً لاتجاه عام فى اللغة ،

على الأقل فيما يخصّ الراء الحلقية التى تتميز بها فرنسية باريس . واليوم نرى هذه الراء لا تحس إلا بقدر ضئيل فى بعض الأوضاع ، إذا جاءت بعد ساكن فى نهاية الكلمة أو وقعت بين حركتين . ولعلها كانت قد اختفت من اللغة الفرنسية لولا تأثير المدرسة والكتابة التقليدية . والراء الإنجليزية التى من أصول الأسنان فى طريق الاختفاء أيضاً وإن كانت من مخرج آخر . فكثير من الإنجليز لا ينطقونها اليوم ، وإن كانوا لا يعرفون ذلك .

* * *

جرت العادة فى علم اللغة على أن يطلق على التغيرات الصوتية اسم القوانين [١] ، مثل تلك التى تسمى قوانين « جريم Grimm » التعلقة بالإبدال المباشر فى السواكن الجرمانية . ومن ذلك يستطيع المرء أن يكوّن فكرة عن القيمة التى يجب أن تعطى لكلمة « قانون » هنا .

وهناك جملة ظلت شهيرة ، تعلن أن « القوانين الصوتية تسير فى صورة عمياء ، وبحتميّة عمياء (die Lautgesetze wirkenblind , mitblinder Notwendigkeit [٢]) .

هذه الجملة التى أثارت فى حينها مناقشات حادة لا تثير اليوم سوى الا بتسام . وأقل ما يقال فيها أنها جريئة ، إذ تضفى على القانون الصوتى سلطة لا مبرر لها . فالقانون الصوتى لا يمارس حدثاً وليس « ضرورياً » بالمعنى العلمى للمصطلح . وكلمة « قانون » ، وقد استعملت هنا على ضلال ، هى التى جرت إلى الخطأ . يُسَنّ القانون ليهيمن على أعمال الإنسان ، ومن ثمّ كان فعله متجها نحو

---

(١) أنظر مراجع Van Ginneken رقم ٧٧ س ٦٢ ؛ ، وخاصة ميه : القوانين الصوتية رقم ٩ ج ١ س ٣١١ ؛ Wechessler : Gibt es Lautgeretze ? (هل توجد قوانين صوتية ؟) B. Delbrück : Das Wesen der Lautgesetze (ماهية القوانين الصوتية) رقم ٢٤ ج ١ س ٢٧٧ — ٣٠٨ عام ١٩٠٢ ؛ ج . قندريس : تأملات فى القوانين الصوتية ، رقم ٩٩ س ١١٥ — ١٣٠ عام ١٩٠٢ ، Baudouin de Courtenay رقم ١٤٢ .

(٢) هى للعالم اللغوى الألمانى هرمن ستوف Hermann Stoff (١٨٩٠) . وكان البدء فى إقامة القوانين الصوتية بين سنتى ١٨٧٠ و ١٨٨٠ بوجه عام . أنظر شوخارت ، رقم ٢٠٤ .

المستقبل : فقانون العقوبات يصفى حســـاب الجناة ، والقانون المدنى يملى على المواطنين مسلكهم . لذلك كان من الاتساع المسىء أن أطلقت كلمة قانون على الحقائق الطبيعية الناتجة من الاختبار ؛ كما فى الطبيعة أو فى الكيمياء . والذى ساعد على هـذا الاتساع أن العلاقات التى يكشف عنها الاختبار فى هذه العلوم بين الظواهر المختلفة هى علاقات دائمة ، حتى ليبدو كأن القانون ، وهو تعبير مجرد عن هذه العلاقات ، سابق على الاختبار وإن كان فى الواقع متأخراً عنه . ولـكن من إساءة الإستعمال فى اللغة على كل حال أن تضفى على القانون صفة الإلزام .

إن القوانين الصوتية لاتشبه حتى قوانين الطبيعة والـكيمياء . فالذى يجمع بين حالين متتابعين فى لغة واحدة إنما هو رباط تخلقه وليس رباطاً طبيعياً ؛ لذلك لايمكن أن نعرف مقدماً كيف يتطور هـذا الصوت أو ذاك ، لأنه يوجد دائماً فى تطور الأصوات عـدد يكثر أو يقل من العوامل غير المنظورة التى تنتج أثرها . ومع ذلك فالقونون الصوتى ، بوصفه تعبيراً عن تغير وقع فى المـاضى ، له صفة الإطلاق . هـذه الصفة نتيجة لانسجام النظام الصوتى واطراد التغيرات (أنظر ص ٦٥) . ولما كان التغير لاينحصر فى كلمة منعزلة ، بل فى آلية النطق نفسها ، فإن جميع الـكلمات التى تتبع آلية واحدة فى النطق تتغير بنفس الصورة . هنا مبدأ القوانين اللغوية بأسره ؛ وهذه القوانين ليست إلاّ عبارات تلخص هذه العمليات ، وإلا قواعد من الارتباطات .

بواسطة القوانين الصوتية يمكننا أن نصوغ فى بضع عبارات تاريخ الأصوات فى لغة من اللغات أو أن نكشف عن سر التغيرات التى أصابتها . وإذا عرفت من اللغة كلمة يبرر القانون صيغتها ، عرفت مقدماً صيغة جميع الـكلمات الأخرى التى تقع تحت طائلة هذا القانون . وإذا كان هناك لهجتان صادرتان عن لغة واحدة تبعاً لقوانين خاصة ، فإن مظهرهما الصوتى يستبين بمعرفة هـذه القوانين . وإذا عُرف أن الألمانية قد أبدلت الـ z « تس » من الـ t « ت » القديمة الواقعـة فى أول الـكلمة والتى احتفظت الإنجليزية بها ، أمكن تفسير Zähre فى مقابلة tear « دمعة » ولـكنا نفهم أيضاً المقابلة التى بين Zehn و ten « عشرة » وبين Zwingen « بقسر »

و twinge « يضغط » ، وبين Zunge و tongue « لسان » الخ . فالواحدة من هذه الـكلمات تنبئ عن الأخرى . وقد حدث لبعض علماء اللغة أحياناً أن يبنوا بادئ ذى بدء صيغة لـكلمة غير موجودة ، ثم وجدوا لها فيما بعـد مايبررها باكتشاف نص جديد . فالقـوانين اللغوية أساس كل عمل يمس الاشتقاق . والاشتقاق الذى يسقطها من حسابه يضيع وقته عبثاً .

من السهل أيضاً إثبات ما يمكن أن تُقدم هذه القوانين من خدمات فى دراسة اللغات الأجنبية . إذ يمكن فى تعلم لغة جديدة ، أن نحصـل على مساعدة قيمة من معرفة قواعد الصـلات التى بين هذه اللغة الجديدة واللغات التى نعرفها من قبل . وهكذا إذا عرفت أن الاسپانية تبدل من الفاء f اللاتينية هاء (h) عند ما تكون فى أول الـكلمة ، فإنى أعرف مقدماً أن hacer هى فى الفرنسية faire « يعمل » و harina هى farine « دقيق » و heno هى foin « دريس » hierro هى fer « حديد و hijo هى fils « ابن » و hoja هى feuille « ورقة » و humo هى fumée « دخان » ، الخ . وهناك فى مثل هذه الأحوال نوع من الحس يقود الذاكرة بل يستعاض به عنها عند الحاجة فى العثور على صيغة الـكلمة مع شىء من ضمان صحتها . ومع ذلك فمجال الخطأ موجود . بل هنالك من أخطاء الـكلام ما هو ناجم من تطبيق القوانين الصوتية تطبيقاً خاطئاً أو مبالغاً فيه (من ذلك حالات المبالغة اللهجية أو المبالغة المدنية التى سنتكلم عنها فى أواخر هذا الفصل) . فى الحالة السالفة الذكر يخطىء الإنسان إذا أراد أن يبنى بادىء ذى بدء اسم النار « feu »بالإسپانية اعتماداً على الصيغ المقابلة لها فى اللاتينية focus والإيطالية fuoco والفرنسية feu . لأن الصيغة الحقيقية هى fuego وليست huego ذلك بأن انتقال الفاء f المبدئية إلى هاء h لا يقع فى الأسپانية قبل حرف u إذا تلته حركة . واللهجات الفسقونية تذهب فى هذا الصـدد إلى أبعد مما تذهب إليه الأسـپانية فتقول فى feu « نار » huek محققة انتقال الفاء f المبدئية إلى هاء h فى جميع الأوضاع[1] .

---

(١) أنظر ميه : علم اللغة التاريخى وعلم اللغة العام ، رقم ٢٢ ، (١٩٠٨) ، ص ٥ .

أول ما تجب العناية به على العالم اللغوى أن يحدّد بالضبط شروط تطبيق القانون ومدى انتشاره فى المكان والزمان .

الواقع أن التغيرات الصوتية محدودة بالزمان : فما دام التغير قد أصاب جميع الكلمات التى تقع تحت طائلته ، يصبح القانون الذى يفسره وكأنه قد نسخ . ويمكن للغة أن تخلق مركبات صوتية جديدة مشابهة كل الشبه للمركبات التى كان التغير يعمل فيها سابقاً . هذه المركبات تبقى دون تغير ؛ فيقال إنها لم تعد واقعة تحت سلطة القانون . وهكذا يوجد فى كل اللغات مزدوجات ، تمثل كلمات من منبع واحد دخلت اللغة فى حقب مختلفة ؛ وتعرف أقدمها بكونها أكثر تشويها ، فهى قد عانت فعل التغيرات الصوتية التى توقفت عن العمل فى التاريخ الذى دخلت فيه الأخرى . فعندنا فى الفرنسية avoué [1] و avocat (محام) وكذلك loyal (وفىّ) و légale (مشروعٌ قانونا) ويرجع كل زوج منهما إلى أصل لاتينى واحد . وعندما دخلت الكلمة الثانية من كل زوج منهما فى اللغة الفرنسية ، وكان دخولها بطريق يخالف دخول الأولى ، كانت التغيرات الصوتية التى أثرت فى الأولى قد كفّت عن العمل منذ زمن طويل .

وقد يحدث لبعض القوانين الخاصة بالعلاقات المقررة بين بعض اللغات أن تصير فى حالة نقص بسبب استعارات محدثة . ففى الألمانية تقابل السين المضعّفة ss التاء البسيطة أو المضعّفة فى الإنجليزية إذا كانت داخل الكلمة : فكلمة besser « أحسن » تقابل better (أحسن) ، كما تقابل كلمة wasser (ماء) كلمة water . ولكنا نجد اللغتين تعبّران عن كلمة زبد بلفظ واحد هو butter كما نجد فى الألمانية Messe وفى الإنجليزية mass « عيد » فى الكلمتين (Lammas و Christmas) وكل حالة من الحالتين تناقض القانون الصوتى السالف الذكر فى اتجاه مخالف . ذلك أنّ butter و mass (Messe) مستعارتان من اللاتينية .

---

(١) المراد بهذا المصطلح رجل القانون الذى يعهد إليه الموكلون بمباشرة القضايا ، وهو نظام متبع فى القضاء الفرنسى . المعربان .

وحتى لو أننا حاولنا أن نعمل حساب الشروط التى تحرر طاقة القوانين الصوتية ومدى انتشارها وتسمح بتفسير الحالات التى ظاهرها الشذوذ على أنها أحداث طبيعيـة ، فإننا لا ننجح دائماً فى تجنب جميع الصعاب ؛ لأن منها ما هو لاصق بالطريقة نفسها . ولأن القانون الصوتي من جهـة أخرى لا يعطينا إلا معلومات ناقصة عن طبيعة التغير الذى يسجل نتيجته ، وليس هو بعد كل هذا إلا حلاً وسطاً يلخص عمليات مختلفة معقدة .

يجب فى التغيرات الصوتية أن تميز تلك التى تحـدث بالاستبدال من تلك التى تحدث بالتطور . فهناك تطور عند ما يتحول صوت إلى صوت من تلقاء نفسـه بطريق التجدد الطبيعى . فى فرنسية الإيل دى فرانس[1] ، نرى أل « e » اللاتينية (فتحة ممالة) وهى الطويلة المقفولة قد صارت على التوالى wè « وَى » ثم wa (تكتب اليوم oi وفقا لرسم قديم أصبح منذ القرن الثـالث عشر لا يمثل النطق تمثيلا صحيحـا) . فنحن نـنطق lwa « لوا » و rwa وروَا و pwar « پوار » و lwar « لوار » الـكلمات التى تكتب loi «قانون» و roi «ملك» و Poire «كمثرى» و loir «حيوان قارض» . هذا هو النطق الطبيعى فى باريس . فإذا سمع هذا النطق فى لهجات بعض الأقاليم النائية ، فذلك ناشىء فى غالب الأحيان استعارة من كلام باريس وليس تجديداً طبيعياً فى هـذه اللهجات . وبرهان تلك الحقيقـة موجود فى ذاك الـكلام نفسه الذى لا يزال يحتفظ بنطقه الطبيعى فى صورة أقدم عهدا أو فى كلمات خاصـة متفرقة : فمثلا قد نـسمع فى إحدى لهجات الريف . un lèr « لَير » بدلاً من loir (لوار) إلى جانب كلمة une poire (پوار) . فنطقه « پوار » على هذا النحو من عمل المحاكاة ، يعنى الإستعارة[2] .

أهمية الاستعارة فيما يتعلق بالتغيرات الصوتية تتجلى فى تكوين جميـع اللغات الأدبية . فمن عمل الإستعارة ما نراه فى لهجة ألمانيا الشمالية من استبدال اى ai

---

(١) الإيل دى فرانس : مقاطعة فرنسية قديمة كانت تشمل باريس والمقاطعات المحيطة بها المربان .

(٢) عن طابع الاستعارات فى اللهجات أنظر جرامون ، رقم ٧ ، مجلد ١٠ ، ص ٢٩٣ وتراشيه Terracher ، رقم ١٢٤ ، المقدمة .

و au او مكان الكسرة i والضمة u البسيطتين ؛ فالتغير لم يقع من تلقاء نفسه . كذلك الحال عند ما يعتنق السكسونى النطق الألمانى العادى فيقول müssen (بالضمة الممالة إلى الكسرة) و schon بدلاً من أن يقول missen (بالكسرة) و schên (بالكسرة الممالة للفتحة) ، فهذا تغير بالاستبدال لا بالتطور[١].

ولكن نص القانون الصوتى لا يكشف عن طبيعة التغير ؛ فلا بد إذن من دلائل إضافية وتحقيق خاص لمعرفة إلى أية بقعة من الإقليم يكون التغير طبيعياً ناتجاً من تلقاء نفسه ، وابتداء من أى حدّ يكون ناتجاً من الاستبدال بالمحاكاة . ولعله مما يحدث غالباً فى تاريخ اللغات القديمة أنه عندما يصاغ قانون صوتى يشمل جميع الإقليم فانه يُدخل تحت هذا القانون أشياء مختلفة وذلك يؤدى إلى خلط الاستبدال بالتطور عن غير قصد .

وهناك أسباب أخرى كثيرة تخفى على القانون الصوتى . فعندما نقول بأن الهاء المتنفسة h أو الفاء w (digamma) قد اختفت من اليونانية فإننا نلخص فى بضع كلمات تطوراً فى غاية التعقيد لا يعنى الصوتيات وحدها . فيجب أن نرجع إلى العرض المجمل الذى عمله مييه[٢] لنرى التقلبات التى مر بها نطق هذين الصوتين . وكيف ساعدت ظروف سياسية أو اجتماعية على الاحتفاظ به أو إحيائه من جديد فى بعض اللهجات ، وعلى استبعاده فى البعض الآخر . والواقع أنه إذا كانت الهاء h المبدئية قد اختفت من لهجات اليونان الحديثة فإن تاريخ اختفائها يمتد على حقبة طويلة من الزمن ؛ لقد اختفى النطق بهذه الهاء فى يونية آسيا وإيولية لسبوس فى زمن مبكر ، ولكنا نجد آثارا أكيدة من وجودها بعد الميلاد . وأطول من ذلك الوقت الذى لزم لإختفاء الفاء w ؛ فقد فقدتها اليونية والأتيكية فى فترة ما قبل التاريخ ، أما فى لاكونيا فقد ظلت تنطق حتى العهد الذى جمع فيه القاموس الذى نقل عنه هيزخيوس Hésychius ولعلها تختفى اختفاء تاماً من هذا الإقليم فى يوم من الأيام ، إذ يبدو أن التساكونية الحديثة ما زالت محتفظة

---

(١) يوارو : رقم ٢ ، مجلد ٩ ، ص ٦١٣ ؛ وانظر بريجمن ، رقم ١٤٧ ، ص ١١ ؛ وعن اللغة الإنجليزية أنظر ستورم ، رقم ٢٠٩ ، ص ٨٢٠ .

(٢) رقم ٩٣ ، صفحات ٢٤ ، ٢٧ ، ١٦٧ .

بها إذ أننا نراها تنطق Vanne ڤان « تمَل » (وهى الاغريقية القديمة (Φαρνιον) ومع ذلك فمن الحق أن اتجاه الإغريقية العام فى كل لهجاتها كان يذهب إلى إسقاط هذه الهاء h وهذه الفاء معاً ؛ ولذلك حق للعالم اللغوى أن يذهب إلى أن إسقاطها قانون من قوانين اللغة الإغريقية ، رغم شذوذ التساكونية عنه حتى يومنا هذا . فصيغة القانون على هذا النحو تعبر عن اتجاه اللغة وتلخص التطور الصوتى الذى مر فى الواقع بعدد من العمليات والمظاهر اختلفت باختلاف العصور والأماكن .

لعل اختبار الجزء الأعظم من القوانين الصوتية الكبيرة التى تتميز بها اللغات يقودنا إلى تقرير هذه النتيجة .

فالقوانين اللغوية التى يصوغها علماء اللغة لا تعبر إلا عن حالات وسطى ، سواء أكان ذلك فى الزمان أم فى المكان . إذ لا يتم التحول الصوتى دفعة واحدة على رقعة من الأرض مترامية الأطراف كتلك التى تتكلم فيها الفرنسية أو الألمانية ، الإغريقية أو اللاتينية . ومع ذلك ففى وسعنا أن نقرر بأن الفرنسية قد غيرت الفتحة الممالة المقفولة (e) — التى كانت فى اللاتينية — إلى (وَا) oi وأن الألمانية تستعمل فى داخل الكلمات السين المضعفة مكان التاء t فى الإنجليزية سواء أكانت بسيطة أم مضعفة . لأننا إذا رجعنا إلى القاموس واستعرضنا جميع الأمثلة واحدا واحدا بعد أن نستبعد منها بالطبع المستثنيات الناتجة من الإستعارة ، لم نجد فيها واحداً فقط ينقض هذه القاعدة .

فالقانون يكاد يكون مطلقا بالنسبة لمؤرخ اللغة الذى لا يختبر إلا النتائج ولا يشمل بنظرته إلا تطور اللغة فى جملته . أما من يلاحظ اللغة المتكلمة ويجوب فى إقليم على درجة ما من الاتساع ، إقليم يشهد تحولا صوتيا ، فإنه يرى الأشياء بعين مختلفة : فإذا ما أراد أن يثبت تاريخ ذلك التطور الصوتى من حيث المكان والزمان رأى محتوما عليه أن يكتفى باعتبار فرد واحد مع مقارنته بأسلافه وأولاده المباشرين .

إذا جمعنا النتائج التى تقدمها لنا لهجات لغة واحدة فى أطوار تاريخها المختلفة ،

حصلنا على خط بيانى مطرد لتطور كل صوت لغوى (ص ٦٥) . بل حتى لو اعتبرنا المسألة من وجهة نظر جغرافية محضة وراقبنا تغيراً صوتياً ، على رقعة معينة من الأرض لوجدنا خطوات هذا التطور تتدرج من قرية إلى قرية .

فهناك ميل فى البريتانية الحديثة نحو تغيير الصوت اللغوى المعقد الذى يرسم c'hw إلى f . وهذا الصوت يشتمل على احتكاكى حلقى مهموس متبوع بشبه حركة w « و » ينطق كما فى الإنجليزية . ففى شمال المنطقة البريتانية ، فى ليونار ، يمكننا حتى الآن أن نسمع هذا الصوت بوضوح : c'hwech « ستة » و c'hwero « مر » ؛ وفى الجنوب الغربى من هذه المنطقة ، بين دوارنينز Douarnenez ورأس الراز Pointe du Raz ، نسمع نفس الكلمتين تنطقان fec'h و fero بالفاء الاحتكاكية كما نراها فى fève « فول » و faire « يعمل[1] » .

يمكننا من الوجهة النظرية أن نتمثل خطوات التطور دون مشقة فلا بد أن الـ c'h قد مرت أولا بخطوة التنفيس البسيط ، على نحو الصوت اليونانى القابل المسمى بالفرنسية : « esprit rude » والهاء الألمانية h . ونحن نعرف هذا الانتقال فى لغات أخرى ، وفى الألمانية نفسها بوجه خاص . وفى الوقت نفسه اتجه ميل الواو w إلى أن تصير احتكاكية أسنانية شفوية لتنتهى إلى الفاء V البسيطة ؛ وهو تغير معروف أيضا خير معرفة نستطيع أن نسميه تغيرا تقليديا ، لأنه وقع فى كثير من اللغات ابتداء من اللاتينية الدارجة والألمانية . ومن ثم تحولت المجموعة القديمة c'hw إلى hv . ثم عانت المجموعة الأخيرة بدورها تحولا كان منتظرا . إذ أخذ النفس المدفوع للنطق بالهاء h يوقف الذبذبات الحنجرية ويطغى على الفاء v فجعل منها فاء مهموسة f . وهذا ما وقع فى الإرلندية القديمة حيث نجد المجموعة hv (الصادرة من sw س و لا من c'hw كما فى البريتانية) تتمخض عن فاء F . فتطور المجموعة البريتانية c'hw يفترض إذن عددا من الخطوات الانتقالية ، ولكنها جميعا مشروعة ومتفقة مع وقائع شوهدت فى غيرها .

---

(١) ج . لوث ، رقم ٨ مجلد ١٨ ، س ٢٣٨ وفندريس رقم ١ مجلد ١٦ ص ٣٩٠ .

فإذا تركنا إقليم الليونار متجهين نحو دوارنينيز Douarnenez مارين بشاتولان Châteaulin ولكرونان Lacronan قابلتنا عمليا ، مبعثرة فى أماكن متباعدة ، هذه الخطوات التى وصلنا إلى استنباطها من اعتبارات نظرية . على هذا النحو يستعيد الإنسان تاريخ اللغة فى نفس المكان الذى حدثت فيه التغيرات : فينتقل إذن من c'hw إلى hw ، ثم إلى hu ، ثم إلى ف f ؛ والمناطق الجغرافية للأصوات تهبط إذن فى درجات متتابعة . ومن العدل أن نقول بأن انتقال الـ c'hw إلى الفاء f ناتج من أحد اتجاهات اللغة البريتانية الحديثة ، ولكن هذا الانتقال لا يتحقق تحققاً تاماً إلا فى جزء واحد من الإقليم ؛ ويفترض حدوث سلسلة من العمليات المعقدة التى لا يشير إليها علم الصوتيات .

وحالات الاستثناء من التغيرات الصوتية أمر لا يستطاع تجنبه . ونحن نعرف منها عدة أمثلة كان سببها فى غالب الأحيان أن كلمات دخلت اللغة بعد ما توقف تأثير القوانين التى كانت تستلزم تعديلها . فتلك مسألة استعارة ولها تاريخها فى ميدان الألفاظ المستعارة . فيوجد فى تاريخ جميع اللغات عدد كبير من المستثنيات ناتجة من الاستعارة ، أى أنها ترجع إلى تأثيرات خارجية .

كثير منها أيضاً يرجع إلى تلك التأثيرات الداخلية التى تتلخص فيما يسمونه القياس analogie . وينحصر القياس فى أن التغير الذى يفرضه القانون الصوتى على كلمة من الكلمات قد يتوقف أو يعدل تحت تأثير كلمات أخرى من اللغة . فمثلا يفرض قانون فرنسى مطرد أن تصير الكاف اللاتينية c شيناً ch فى الفرنسية إذا كانت واقعة قبل فتحة قديمة (a) فتقول chien « كلب » و chèvre « عنزة » و cheval « حصان » و chantre « مغن » من canem و capram و caballum و cantor . ومن كلمة capsa اللاتينية جاءتنا كلمة châsse « صندوق معد لحفظ مخلفات الصالحين » . وقد جاءنا منها ، بطريق الاستعارة عن إحدى اللهجات الجنوبية ، كلمة caisse « صندوق » التى دخلت الفرنسية فى تاريخ كان فيه القانون الذى نحن بصدده قد توقف عمله : هذه حالة تدخل تحت ما سميناه سابقاً بالتأثير الخارجى . ولكن من vincat اللاتينية (صيغة النصب من

« لأن يُهزم » qu'il vainche كان يمكن أن يقال فى الفرنسية (ومعناه يهزم) vinco بالشين : فإذا كنا نقول qu'il vainque بالكاف فذلك لأننا أثبتنا الانفجارى فى هذا الفعل المنصوب قياساً على صيغ أخرى كاسم المفعول vaincu « مهزوم » الذى أبقى فيه على الانفجارى اطراد لأنه واقع قبل U . القياس لا يكف عن أن يصحح أثر القوانين الصوتية أو أن يعوقها . فكثيراً ما يعرقل تطور الأصوات فى سيره المطرد ؛ مما جعل عالماً اشتقاقياً لامعاً محباً للنظام والوضوح يقول بأنه فى بعض الأحيان « تعتريه نوبات من الغضب من جراء تخريبات القياس[١] . » والواقع أنه لا تكاد تمر عملية صوتية دون أن يصيبها منه بعض الاضطراب إن قليلا وإن كثيراً . وغالباً ما يكون معنى الكلمات هو الذى يحدث أثره : ومن هنا تولد أحداث من الاشتقاق الدارج الذى هو أيضاً من « آفات » الصوتيات . وسنعاود الكلام فى هذا فى الفصل الأول من الباب الثالث .

يجب أن نلحق بهذا الباب حالات الإسراف فى المدنية والإسراف فى اللهجية[٢]. ومايسمى الإسراف فى المدنية هو المبالغة التى يؤدى إليها ولع صحة الكلام عند من يفخر بجمال العبارة . كالذى حدث أن فلاحا إيطاليا أراد أن يتكلم لاتينية روما ، وكان يعرف أن حركة o الطويلة فى لهجته يقابلها غالباً ال au diphtongue فى لغة العاصمة فراح يقول plaustrum (بلوسترم) بدلا من plostrum و (كودا) cauda بدلا من coda (كودا) و plaudere (بلوديرِ) بدلا من plodere (پلوديره) ذلك هو الإسراف فى المدنية لحركة أل o هنا أقدم من الناحية الاشتقاقية . ولكن المدنيّ أيضاً كان ميالا بطبعه إلى المبالغة فى المدنية حتى لا يتهم بالكلام على طريقة الفلاحين ؛ فكان يستعمل عن طيب خاطر الكلمات التى ذكرناها بالنطق الذى أشرنا إليه . إذ الواقع أننا نعرف أن مثل هذه الطرائق من النطق كانت تستعمل فى رومانفسها ، وربما كان الناطقون بها من قدماء الرومان . فيروى أن السناتور فلوروس Florus كان قد أخذ يوماً

---

(١) ا . توما : رقم ١٢٥ ، مجلد ٣ ص ٣٢ .

(٢) هـ . أورتل H. Oertel : رقم ١٣٧ ، ص ١٤٨ وما يليها .

على فسبسيان Vespasien أنه يقول plaustrum فأجاب الأخير النناتور مازحاً وهو يستجوبه : « تحيـة يافلورى Salue, Flaure » . والحق فى جانب فسبسيان لأن plostrum هى الصيغة الصحيحة ؛ أما بلَـوْسترم plaustrum فهى من إسراف فى المـدنية كما يمكن أن تـكون فلَـوْرس Flaurus كذلك .

وإذا تكلم الإنسـان لهجة أجنبية تعرض للأخطاء بسبب التردد فى صـيغة الـكلمات ؛ فمن الأخطاء الشائعة الغلو فى مراعاة الصـحة ؛ أو خطأ التطرف فى الحنبلية . هذا الخطأ كان كثيراً ما يقع من الإغريق عندما يحـاولون الـكتابة بلغة غير لغتهم . ففى دورية المؤلفين الفيثاغورثيين يوجـد الـكثير من الإسراف فى اللهجية : إذ لما كان هؤلاء المؤلفون (أو ناسخوهم ؟) يعرفون أن η فى الأتيكية يقابل غالب الأحيان ᾱ فى الدورية ، فقد غيروا الا η إلى α فى أحوال كثيرة يبقى فيها الحرف η فى الدورية على ماهو عليه . ويمكننا من ذلك أن نتصور وقوع أخطاء كثيرة من هذا القبيل فى الفترة التى فيها أخذت اللهجات اليونانية تندمج بعضها فى بعض لتـكوّن اللغة المشتركة كلما أريد الـكتابة بإحـدى اللهجات الخالصة . ومن الأسباب التى كانت توقع فى الخطأ اختلاف الألوان فى داخل اللهجة وامتلاؤها بصيغ مشتركة ، فيصعب عند الـكتابة التميز بين ما هو من صميم اللهجة مما ليس منها . بل حتى الأشخاص الذين يتكلمون اللهجـة منذ ميلادهم يتعرضون لأخطاء الإسراف فى اللهجية .

* * *

رأينا فى العرض المتقدم حالات كثيرة تصطدم فيها النزعات الصـوتية المطردة مع نزعات من طبيعة مختلفة . ولا بد أن مثل هـذه الحالات قد مرّت كثيراً فى تاريخ اللغات ؛ وإليها يجب أن تعزى الشواذ التى تقابلها فى التاريخ الصوتى قاطبة . وقد كان يحدث ، على وجه الخصوص ، أن يغير شعب لغته وبالتالى كانت اللغة الواحدة تتكلمها شعوب مختلفة . فتارة يفرض فاتح لغته على مهزوم . وتارة تحمل الظروف السياسية والاجتماعية شـعباً من الشعوب على اتخاذ لغة جارة . ومن هنا

كانت الانقلابات السريعة الغريبة فى تطور بعض اللغات . لأن الشعب الذى يتخذ لغة جديدة يطبق عليها أحياناً عوائد النطق فى اللغة التى تركها . وعلى هذا الأساس اضطر الدارسون إلى البحث عن تأثير لغة الجول[١] فى اللغة اللاتينية الدارجة التى كانت تتكلم فى بلاد الجول ؛ ولكن يجب الاعتراف بأن علماء اللغات الرومانية غير متفقين فى هذه النقطة[٢] . غير أنه من المحقق ، من جهة أخرى ، أننا نلاحظ وجود تطورات صوتية مشابهة فى لغات شعوب مختلفة الجنس ولكنها متجاورة جغرافياً كما فى الليفونية (وهى لغة فينية) والليتونية[٣] (وهى لغة هندية — أوربية) ، وكما فى الأرمينية (لغة هندية أوربية) والجورجية .

كان بعض علماء اللغات يميلون إلى المبالغة فى تأثير تغيير اللغة فيجعلونه أصلا للتغيرات الصوتية الرئيسية[٤] . والواقع أن هناك تغيرات صوتية ذاتية تنتج من انحدار طبيعى فى النظام ويدعو إليها استعمال اللغة نفسه ويبررها كذلك .

دراسة تطورات اللغات تسمح لنا بأن نميز فى سلسلة من التحولات الصوتية ما يرجع فيها إلى ظروف أجنبية . والعالم اللغوى الذى دأب بادىء ذى بدء على معرفة النظام الصوتي للغة من اللغات فى فترة من فترات تطورها معرفة عميقة ، يستطيع دون مشقة أن يتعرف فى التاريخ اللاحق لهذه اللغة آثار الاتجاهات الطبيعية التى كانت تحتويها اللغة بذوراً فى عهد سابق . هذه الدراسة تبشر بدراسة ذات قيمة عامة . فإن من ينجح فى استخراج التعليمات التى تقدمها له جميع اللغات التى يعرف تاريخها ، وفى تنسيقها ، يستطيع أن يحرر العمليات المطردة للتغير الصوتى . ولكن هذا العمل لم يعمل حتى الآن . ومع ذلك فأى عالم لغوى على علم بالصوتيات التاريخية لعدد من اللغات لا يكاد منذ الآن يتردد إذا ما رأى أمامه حالتين صوتيتين واردتين ، فى أن يقرر أيهما أسبق وفى أى اتجاه قد وقع التغير .

(١) المراد بالجول هنا فرنسا القديمة قبل الفتح الروماني . المعربان .

(٢) ماير لوبكه Meyer - Lübke رقم ١٨١ ص ١٧٠ . عن تأثير اللغة السلافية على لغة رومانيا أنظر دنسيانو Dansusianu رقم ٦٦ ، مجلد ١ صفحة ٢٠٤١ .

(٣) جسبرسن : رقم ١٧٣ ، صفحة ٧٩ .

(٤) أنظر خاصة Jamillscheg : عن تبادل الأصوات (المسائل الأساسية لعلم اللغات الرومانية صفحة ١٦٢ — ١٩١) عام ١٩١١ ؛ وقارن دلبروك : رقم ١٥٣ صفحة ١٠٥٢ .

الفصل الثالث

الكلمة الصوتية والصورة اللفظية

التغيرات الصوتية التى تكلمنا عنها حتى الآن تنتج من التحول فى النظام الصوتى للغة . وسبب التحور الواقع فى الأصوات اللغوية كان يبحث عنه فى الصلة بين هذه الأصوات وبين النظام الصوتى . ولكن هذا النوع من التغير ليس الوحيد الذى ينبغى للعالم اللغوى أن يحسب حسابه .

لا توجد فى اللغات أصوات لغوية منعزلة . وهذا لا يعنى فقط أن الأصوات اللغوية لاتوجد مستقلة وأنها لاتحلل على انفراد إلا بنوع من التجريد إذ أنها فى كل لغة تكون نظاماً مترابطاً . ولكن معنى ذلك أيضاً أنها لاتستعمل على انفراد : فلا يتكلم إلا بمركبات من الأصوات اللغوية . فأقل جملة ، وأقل كلمة تفترض سلسلة من الحركات النطقية المعقدة وقد تركبت فيما بينها . ومن هذه المركبات تنتج أفعال متبادلة تؤدى إلى أنواع مختلفة من التحوير . والتغيرات التى تصيب الأصوات من جهة الصلات التى تربط هذه الأصوات بعضها ببعض فى كلمة واحدة هى ما يمكن أن نسميها بالتغيرات التركيبية . وأهميتها فى تاريخ اللغة لاتقل عن أهمية التغيرات السابقة(١) . ولكن يجدر بنا قبل أن نبدأ فى درسها أن نبين حدود المجموعة الصوتية التى فى داخلها تحدث التغيرات التركيبية ، أو بعبارة أخرى ، أن نحدد الكلمة الصوتية .

* * *

السؤال الذى يتطلب الإجابة سؤال مزدوج . وينحصر فى أن نبحث أولاً عما إذا كانت الجملة فى لغة من اللغات ، إذا ما اعتبرت من جهة الأصوات اللغوية التى

---

(١) سيفرس : رقم ٢٠٥ ص ٣٧٧ . والعرض القيم للحقائق السلافية لبروخ ، رقم ١٤٩ ص ١٨٥ .

تتركب منها فحسب ، تتضمن أقساماً يحسها المتكلم أم لا ؛ ثم عما إذا كانت هذه الأقسام تطابق أقساماً نفسانية أم نحوية .

أما عن النقطة الأولى فيمكننا أن نجيب بالإيجاب دون تردد . فليس مما يشك فيه أنه توجد فى كل جملة أيًا كانت أقسام صوتية طبيعية . بل إن هذه الأقسام عديدة الأنواع .

التقسيم إلى مقاطع يعد واحداً من أظهر هذه الأقسام . كل متكلم يشعر به كما يبرهن عن ذلك علم الأمراض العقلية[١] . فقد لوحظت حالات من فقدان الذاكرة ظل فيها الإحساس بالمقاطع حيًا بعد نسيان الكلمة نسياناً تاماً . مثل هذا المريض لا يستطيع تعيين الأشياء إلا بعدّ المقاطع التى تكوّن الكلمة الدالة عليها ؛ فمع عجزه عن التعبير بكلمة غطاء أو مقعد ، فإنه يعرف مع الإشارة بأصبع يده أن كل واحدة من الكلمتين تتكون من مقطعين . فقد ضاعت من ذاكرته الحركات النطقية التى يجب القيام بها للنطق بالكلمة ولكنه مازال يعرف كم عددها. نعم قد يمكن أن ترد شهادة هذا الاختبار بحجة اختلاطه بعادات محصلة لدى تعلم القراءة وأنه من المستحيل التمييز بين مايرجع إلى اللغة المكتوبة وما يرجع إلى اللغة المتكلمة ؛ فقد يمكن لعوائد اليد التى تخط الحروف وعوائد العين التى تدركها أن تختلط هنا فتفسد نقاء الصلات التى تربط الحقائق بعضها ببعض .

يستخرج من النظم نتائج أخرى أكثر قوة من سابقتها . فى عدد كبير من اللغات يقوم الوزن على عدد المقاطع ، وذلك فى لغات كانت تجهل الكتابة وحياة الشعر فيها كانت قائمة على تقاليد شفوية . ففى الهند وفى اليونان ، أول مابدأت الآداب ، كانت تنظم قصائد طويلة يحسب فيها عدد المقاطع بشدة صارمة . وهذا على الأقل إذا جاز لنا أن نبنى حكمنا على ورثة كتاب الفيدا المباشرين أو على مؤسسى الشعر الغنائى اللسبى[٢] . وبدايات الكتابة تزكى هذه الشهادة ، ففى الكتابة الصوتية بدئ فى تسجيل اللغة بتسجيل المقاطع . فالتقسيم إلى مقاطع سبق التقسيم

---

(١) أنظر روسلو ، رقم ١١٥ ، ج ٢ ، ص ٩٦٩ .
(٢) ل . هاڤية : رقم ٨٠ ص ١٦٦

إلى حروف ، بل عاقه مدى طويلا أو قصيراً (أنظر الجزء الخامس) . وكان لا بد من تحليل طويل دقيق لتميز عناصر القطع . أما الأبجديات الأولى فسابقة على هذا العمل : فهى مقطعية .

ثم إن التقسيم إلى مقاطع قد سبق التقسيم إلى كلمات . ففى أقدم النصوص لكثير من اللغات لا يفصل بين الكلمات . ففيها آخر كل كلة مركب مع مبدأ الكلمة التالية تبعا لقواعد الكتابة القطعية ؛ تلك هى الحال فى كتابات الهند القديمة ، وكذلك فى الكتابة القبرصية ، وهى بدورها كتابة مقطعية .

يبدو أن التقسيم إلى مقاطع هو أول ما يحتل ذهن القارىء الذى يود أن يقيد بالكتابة جملة سمعها أو نطقها : ونحن نعرف مقدار الشقة التى يعانيها أشخاص غير مثقفين لفصل الكلمات فصلا صحيحا ، وعلى العكس من ذلك مقدار دقة حسهم فى التقسيم إلى مقاطع : فيظهر أن هذا الأخير أقرب إلى الطبيعة وأن الأول فيه قسط من التوافق الذى يحتاج إلى دراسة ومران .

ومع ذلك فإن تعريف المقطع أمر عسير[1] .

فلنأخذ أبسط الحالات : الحالة التى تحتوى على سلسلة من السواكن والحركات مرتبة ترتيبا تبادليا ، ولتكن مجموعة مثـــل المجموعة الفرنسية L'Académie des Beaux-arts ، منطوقة هكذا Lekadémidébozar « لاكاديمى ديبوزار » . يمكننا من التحديد الذى حددناه فيما سبق للسواكن والحركات أن تستخلص قاعدة تنظم هنا التقسيم إلى مقاطع . فالحركات تقتضى فتح الفم : وهذا الفتح مهما اختلفت سعته ، فهو دائما أكبر من ذلك الذى يصحب السواكن . بل إن بعض السواكن ، وهى الإنفجارية ، لا يصحبها فتح قط ؛ والأخرى التى يصحبها فتح فى التجويف الحلق تتميز بضوضاء احتكاكية ، مما يفترض ضيق فتح الفم نسبيا : تقدم إذن مجموعة الأصوات التى افترضناها سلسلة متتابعة من الفتح والتضييق الذى يذهب أحيانا إلى حد الإغلاق . فحالات الفتح تقابل

---

(١) هذه السطور كانت قد كتبت عندما نشر كتاب فردينا ندى سوسير ، رقم ١٢١ حيث تعرض فى ص٦٤ وما يليها (ولاسيما ص ٨٩) نظرية عن المقطع تعد جد غريبة.

الحركات وحالات الإغلاق تقابل السواكن . هذه الحقيقة تتجلى بشكل مقنع في الصورة التي ترسمها الإسطوانة المسجلة . فإذا تتبعنا حركات الريشة ، أمكننا قراءة التقسيم إلى مقاطع . فالحركات ترسم منحنيات تختلف فيما بينها في درجة الانحناء ويدل مكان النزول منها على أوقات الإغلاق التي تكون السواكن .

أما موضع الدقة فينحصر في تحديد النقطة التي تبدأ وتنتهي عندها المقاطع . يرى الأستاذ روديه M. Roudet أن التقطيع يظهر في ثلاثة وجوه تبعا لوجهة النظر التي يرى منها . يقول : « يوجد عند الانتقال من مقطع إلى مقطع تغير مفاجيء يصيب كلا من الجهاز التنفسي والحركة النطقية والإدراك السمعي معا(١) . » هذا التغير الثلاثي يسمح ، في بعض الأحوال ، بتمييز حدود المقاطع ؛ ويكون التقسيم تحكميا في أحوال كثيرة أخرى . لذلك يكون من العبث أن نسعى إلى تحديده كما لو أردنا أن نحدد النقطة التي يوجد عندها قاع واد يقع بين جبلين .

أما تعريف الكلمة الصوتية فالتحكم الذي يعتريه لا يقل عن سالفه ، بمعنى أن كثيرا من المقاطع بل ومن مجاميع المقاطع لا نعرف ما إذا كنا نعدها كلمات مستقلة أو أن نصلها بالكلمات المجاورة لها . فالتقسيم يكون قاطعا أو غير قاطع تبعا للغات المختلفة .

كان يجب أن نجد في النبر وسيلة لحل المسألة . لقد رأينا أن إصدار النفس ، عند خروجه من القصبة ، لا يحدث بصورة مطردة متساوية . فتصريف كمية الهواء غير متصل لأن العضلات التي تهيمن على المنفاخ الصوتي تعجل حركته تارة وتبطيء فيها تارة أخرى .

وإذن فهناك حالات من الإسراع ومن التقطيع الوزني ومن تخفيف السرعة ومن أوقات التوقف ، يقع كل هذا بعدد يقل أو يكثر تبعاً للغات وتبعاً للمتكلمين . وبعبارة أخرى ينطوي الكلام في حد ذاته على مبدأ من الوزن مع فترات من القوة وأخرى من الضعف . كما نستطيع تقسيم الجملة الموسيقية ، باستثناء الميلودية Mélodie ، إلى تفاعيل (وحدات) Mesures ، كذلك يمكننا أن نجد في كل

(١) رقم ١١٣ ، ص ١٨٢ .

جملة أيا كانت ، إذا استثنينا المعنى ، عدداً من التقسيمات لعلها أقل اطرادا وطولها أشد اختلافا منها فى الموسيقى ، ولكنها كذلك قائمة على التكرار المنتظم لفترات القوة . فاللغة فيها قمم وأغوار .

ولكن هذه القمم لها فى الغالب قيمة سيكلوجية . حتى ليجد الإنسان نفسه مسوقا فى بعض الأحيان إلى القول بأن الحركات العضلية التى تنتج الشدة والعلو تسيرها أسباب سيكلوجية . فكأن النبر ينفث الحياة فى هيكل الأصوات العظمىّ أو على حد تعبير مجازى لقدامى النحاة ، النبر « روح » الكلمة . فهو الذى يعطى للكلمة طابعها وشخصيتها ، سواء أكان نبر علو أم نبر شدة . ولكن النبر مع كل هذا لا يكفى لتحديد الكلمة [١] .

أولا لأنه لا يعيّن حدودها إلا بصورة ناقصة : نعم إن النبر فى بعض اللغات يتوقف على آخر الكلمة ، وفى البعض الآخر مبدأ الكلمة هو المنبور . ولكن هذه الحالات لا تستغرق جميع الإمكانيات . فمن اللغات ما لا يشير نبرها المتغير إلى نهاية الكلمة . هذا إلى أنه قد لا يوجد فى مجموعة من الكلمات إلا نبر واحد ، وعلى العكس من ذلك قد يوجد نبران فى كلمة واحدة . فقد كان فى الهندية الأربية ، كما تبرهن عليه الإغريقية والسنسكريتية ، ما يسمى بالكلمات الملحقة ، وهى كلمات قصيرة لا توجد مستقلة بل توصل بما قبلها . وفى لغاتنا الحديثة التى تستخدم نبر الشدة تنطق بعض مجاميع الكلمات بدفع صوتى واحد يرتفع فيه النفس على مقطع واحد من المجموعة كلها . ومن جهة أخرى فإننا نعرف فى السنسكريتية كلمات مزودة بنبرين ، وإنه كثيراً ما ينشأ فى اللغات التى تستخدم نبر الشدة ، نبر ثانوى إلى جانب النبر الأساسى .

فمن المتعذر أن نجد رباطاً نهائياً دائماً بين النبر والكلمة ، إذ نجد فى بعض اللغات التى تستخدم نبر العلوّ كلمات أساسية تخلو من النبر ، كالفعل السنسكريتى فى كثير من استعمالاته : فمهما كانت أهمية الفعل فى الجملة السنسكريتية ، فإنه لا ينبر فى الجملة الرئيسية . فينبغى إذن ألا نخلط بين استقلالية الكلمة وتعبيريتها وتنبيرها . فهناك أمثلة من الروسية يوصل فيها الاسم بالحرف ، مثل ù morja « قريب من

(١) عن النبر فى الفرنسية انظر الملاحظات التى كتبها الأستاذ جرامون رقم ٧٨ ، ص ١٢١ .

البحر » ، « nà zemlju » على الأرض » ، « pò gorodu » فى المدينـة » (١) .

وسنرى من جهة أن النبر لا يقع بالضرورة على أهم مقطع فى الـكلمة : فعندنا النبر فى الفرنسية على المقطع الأخير فى أغلب الأحيان ، يعنى على عناصر تكوينية أى لواحق بينما يبقى الجزء الأصلى من الكلمة غير منبور (٢) .

كل ذلك يحملنا على تحديد الكلمة الصوتية مستقلة عن النبر .

فى كثير من اللغات تنفرد « القطعة » النهائية من الكلمة — على حد تعبير علماء الأصوات — بمعاملات خاصـــة لا تعرفها القطعة المبدئيـة ، ولا القطع الداخلية (٣) . ذلك على وجه التأكيد أمثل حجة للبرهان على وجود الكلمة الصوتية . والقطعة النهائية من الكلمة خائرة القوى من حيث هى نهائية ، بصرف النظر عن قيمة الكلمة الصـوتية وأبعادها ونبرها ، وذلك ما بيّنه جوتيو . هذا المبدأ العام لخور النهايات يستتبع مظاهر مختلفة ؛ والخور قد يكون خطيراً وقد يكون ضئيلا . ولـكن يمكننا أن نجد فى الظروف التى يخضع لهـا هذا المبدأ ما يقوى المبدأ نفسه ؛ لأن نتائج الخور تزيد جلاء بقدر استقلال الكلمـة وقيامها بنفسها . فنطق النهايات بطريقة خاصة ناجم عن وجود الكلمة ويعين حدودها .

* * *

ما دمنا قد سلمنا بوجود الكلمة الصوتية ، فقد أمكننا أن ندرس التعديلات التى تحدث فيها بسبب ما للعناصر التى تكونها من فعل متبادل .

والواقع أن الحقيقة الأخيرة التى لفتنا النظر إليها هى إحدى الحقائق العـامة التى تنتج من وجود الـكلمة الصوتية ؛ وتصلح مثالا على مايسمى التغيرات التركيبية . فالنهاية تتطور فى اللغات الهندية الأوربية بوصفها نهاية ، أى بسبب المـكان الذى تحتله بصرف النظر عن أى اعتبار آخر ؛ وإذا وجد فى بعض اللغات حالات مخففة من مبدأ الضعف العام ، بل وحالات من الاستثناء أتاحت لهذه النهاية أو تلك أن

---

(١) بوييه Boyer وسبيرنسكى Spéranski ، رقم ٥٣ ، ص ٣١ هامش ٢ وص ٩١ هامش ٢ .

(٢) جسبرسن ، رقم ١٣٣ ، ص ٢٦ وما يليها .

(٣) جوتيو ، رقم ٧٣ ، ص ٣٤ — ٣٥ .

تبقى سليمة ، فذلك لأن جميع اللغات ليست سواء فى الاحتفاظ التام لنهاية الكلمة بطابعها من جهة ؛ ومن جهة أخرى لأن آثارا خاصة عارضت الأثر العام الذى يضعف النهايات .

وهكذا سقطت الميم m النهائية من النطق فى اللغة اللاتينية منذ عهد مبكر ؛ ولكن كلمة rem احتفظت بأنفيتها التى بقى منها آثار فى الكلمة الفرنسية rien « لا شىء » . وذلك لأنها كلمة قصيرة ، وحيدة المقطع ؛ والكلمات القصيرة كثيراً ما تقاوم الانحرافات التى تصيب الكلمات الطويلة باطراد . أما الكلمات الطويلة فعلى العكس من ذلك ، تقدم لنا فى بعض الأحيان انحرافات خاصة ناجمة من طولها[1] . هذه بوجه خاص هى الحال بالنسبة لكلمات كثيرة الاستعمال ، ومن ثم يمكن فهمها قبل النطق بها إلى حد أن المتكلم يستطيع أن يعفى نفسه من توضيح النطق بها ، مكتفياً بنطقها فى صورة مختصرة . فالبلى الصوتى واضح فيها بدرجة خاصة . هذه الألفاظ فى عمومها إما آلات مساعدة فى اللغة وإما عبارات محفوظة متداولة ولذلك ليست فى حاجة إلى وضوح النطق الذى تقتضيه الرغبة فى الإفهام . ويوجد فى كل اللغات أدوات وحروف جر وحروف وصل أصلها فى غالب الأمر كلمات قائمة بنفسها تحولت إلى آلات نحوية (أنظر الفصل الخامس من الجزء الثانى) . ففى الإغريقية الحديثة مثلا الأداتان Θά ἄς الأولى علامة لاستقبال الفعل والثانية علامة لنصبه[2] مثل : Χάνω « أفقد » و Θάχάνω « سأفقد » و εἶμαι « أكون» و ἄς εἶμαι « لأكون». الأولى تنحدر من Θὲ νὰ التى بدأت تظهر فى القرن الثالث عشر وليست إلا مركبة من Θέλω ἵνα « أريد أن » ؛ والثانية من ἄφες بعد أن تقلصت ، وهى فى الإغريقية القديمة فعل أمر معناه « دع » (قارن العبارة الإنجليزية let us go « لنذهب » let him write «دعه يكتب») ، فالتقلص فى الحالتين يتجاوز ، ويتجاوز بكثير القواعد العادية للغة ؛ ويمكن تفسيره بالطابع النحوى للكلمات التى تقع فى حوزته .

---

(١) ميه : رقم ٦ ، مجلد ١٣ ، ص ٢٦ .

(٢) برنو : رقم ١٠٩ ، ص ١٢٥ ، ٢٣٦ ، ملاحظة رقم ١ .

ومن الشائع فى الفرنسية أن يقال وِمْسييه « wimsyoe » و « wimmzel » وِمْزِلْ بدلا من « oui, monsieur » «نعم سيدى» و oui, mademoiselle «نعم آنستى» وفى الأسبانية يقال «أُسْتَد» usted بدلاً من vestra merced ؛ وفى الألمانية moen gmoen بدلاً من Guten Morgen (جُوتن مورجن) (صباح الخير) و phyatdigot ، « حفظك الله » بدلا من behüte dich Gott .

وقد جرت محاولات لتفسيرها بنظرية حركة الكلام Sprech tempo . وعند أصحاب هذه النظرية الصيغتان gmoen, wimsyoe ، من صيغ السرعة « الأللجرو allegro » أما الصيغتان oui, Monsieur و guten Morgen من صيغ البطء « اللنتو lento » . ولكن هـذا التفسير لا يقنع أحداً . نعم إن سرعة إرسال الكلام تختلف من لغة إلى أخرى : فالفرنسيون أو الإنجليز أسرع من الألمان في الكلام ، وألمانيو الشمال أسرع من ألمانيي الجنوب . ولكن من غير الصواب أنه توجد فى داخل اللغة نفسها صيغتان فى آن واحد وأنه يمكن استعمال هذه أو تلك تبعاً لسرعة المحادثة . والواقع أن هناك كلمة morgen أو كلمة monsieur وكلتاها موجودة فى الفكر ، وكلمة moen أو msyoe وهما اللتان تنطق بهما الأعضاء . وقد نشأت الصيغتان الأخيرتان من اتجاه فى اللغة طُبِّق إلى أبعد الحدود ؛ وهما تبينان إلى أى حد يصل تأثير الاتجاه الصوتى فى اللغة إذا لم يعقه عائق : فهما فى الواقع من الصيغ المتطرفة فى اللغة (١) .

من العسير أن تكون عناصر الكلمة الصوتية متساوية القيمة فى داخلها . فنها القوىّ ومنها الضعيف ؛ منها مايسود ومنها ما يُساد ؛ ومنها ما يقاوم آثار العوامل الهدّامة ومنها مايستسلم لها بسرعة (٢) . السيادة والغلبة ، هاتان هما الصفتان الجوهريتان اللتان على مؤرخ اللغة قبل كل شىء أن يعين حدودهما وأسبابهما فى فى داخل النظام الصوتى للغة التى يدرسها : والواقع أن التكوين الصوتى لكل لغة يقضى بوجود أنواع من السيادة ومن المقاومة الخاصتين . ولا يمكن أن تختلف اللغات بعضها عن بعض فى التطور الصوتى إلا بصراع ينشأ بين الأصوات من

---

(١) انظر قندريس : خواطر عن القوانين الصوتية ، رقم ٩٩ ص ١٢٢ .
(٢) انظر چوريه Juret رقم ٨٦ .

جراء التوازن . غير أنه فيما عدا التأثيرات الصوتية الخاصة بكل لغة ، توجد تأثيرات عامة تتجلى فى كل اللغات وهى نتيجة لاتجاهات طبيعية فسيولوجية ونفسية معاً .

ففى الأصوات الإنفجارية يوجد فرق بين العنصر الانحباسى والعنصر الانفجارى ، فالأول أقل حساسية للسمع لأن انطلاقه أقل صلابة من الثانى . هذا الفرق يعرض الانحباس لعوارض مختلفة . فمجموعة مثل « أكتا » akta فيها الكاف k وهى انحباسية أقل مقاومة من التاء t الإنفجارية (أنظر ص ٤٩) . ويمكن لاتجاهين متعارضين أن يؤثرا معاً ، وتكون النتيجة تعديلا فى المجموعة . فإما أن يتخلى المتكلم كسلا عن تحقيق الحركات النطقية للكاف k فينتقل طرف لسانه توّا منذ الاحتباس إلى موضع التاء t فنحصل فى النهاية على atta (أتّا) بتاء طويلة . هذه العملية قد وقعت فى اللغة الإيطالية حيث نجد الكلمات اللاتينية actus (اكْتُس) و Strictus (سْترِكْتُس) قد صارت atta (أتّا) و stretta (سْترِتّا) . وإما أن تدفع المتكلم الرغبةُ فى توضيح نطق الكاف k إلى أن يُتبع الكاف الانحباسية بانفجار طفيف يقوم به فى نفس النقطة قبل الانتقال إلى انفجار التاء t ؛ وهذا النطق نسمعه فى الفرنسية غالباً عند أولئك الذين يغالون فى صحة الأداء ، ويمكن رسمه بكتابة faqueteur (فكتير) بدلا من facteur (فكْتير) « ساعى البريد » . فانفجار الكاف k فى الواقع مهما بلغ من القصر ، يقع حتما على شبه حركة ، هى الحركة الضامرة المخنوقة التى يشار إليها بال e الصامتة . فى الحالة الحالة الأولى حدث توافق[١] وفى الثانية انفصال .

هنالك مسلك ثالث : وذلك بألّا يتجه الصوتان المتماسان إلى التوافق بين عناصرهما بزيادة المشابهة التى بينهما ، تلك المشابهة التى تصل أحياناً إلى التماثل التام ، ولا أن يتحصن كل منهما ضد الآخر بوضع نوع من العازل يكون عقبة فى سبيل التأثير المتبادل بينهما ، بل على العكس من ذلك ، بأن يستغلا ما بينهما من فروق فيعمّقاها إلى حدّ ألا يبقى بينهما شىء مشترك ، ثم يزيلا كل نقطة للتشابه . وتلك هى عملية المفارقة[٢] التى هى ضد التوافق . وهكذا ، فى مثل المجموعة السابقة kt (كت)

---

(١) فندريس ، رقم ٦ ، مجلد ١٦ ، ص ٥٣ (١٩٠٩) .

(٢) مييه : رقم ٤٥ مجلد ١٢ ، ص ١٤ وما يليها (١٩٠١) .

نجد بعض اللغات كالإيرانية والكلتية تقلب الانفجاري الأول إلى احتكاكي فنحصل فى نهاية الأمر على cht — (شت) . وطبيعة التغير فى حالة التوفيق أو الفصل أو التخالف تتوقف على الشروط العامة لنظام اللغة الصوتى . هذه العمليات الثلاث كثيراً ما تتدخل لإزالة المجاميع الصوتية التى يصعب نطقها .

وتعمل اللغات على إبعاد الأصوات أو مجاميعها التي من هذا القبيل لأسباب عضوية على وجه العموم . وعسر النطق كعكسه ، وهو اليسر ، من المسائل النسبية المحضة التى يحسها المتكلم بوضوح على ما يبدو ، ولكنها تختلف فى كل لغة عنها فى الأخري . ولا يمكن تقويمها دون معرفة اللغة معرفة دقيقة . والواقع أن أصلها يرجع إلى العادات المكتسبة من الحركات النطقية . لذلك كانت هذه المجموعة أو تلك التى يعسر نطقها على شعب من الشعوب ، ينطق بها جاره دون صعوبة .

بيد أن هناك مجاميع عسيرة النطق بصفة عامة ، وبسبب الاستعداد الطبيعى للأعضاء . ويمكن أن تطلق عليها اسم المجاميع غير الثابتة . فكلما أدت الظروف إلى نشوئها فى اللغة ، أمكننا أن نتنبأ بأن اللغة ستدبّر الأمر للتخلص منها ولكن خطة التخلص منها تختلف .

فالمجموعة tn — (تن) مجموعة غير ثابتة . فلمّا كانت نقطة الحركة النطقية للتاء هى عين نقطة النون فى تركيب مثل أتنا atna ، كان على اللسان ألاّ يتحرك بين الفتحتين : وتكفى حركة بسيطة من غشاء الحنك مع وضع الذبذبات الحنجرية فى حالة حركة للتفريق بين التاء والصوت الأنفى .. وهذه آلية على جانب من اللطف تتطلب كثيراً من الدقة . ويستطيع الإنسان أن يستمدّ لها عندما يدور الأمر حول كلمة علمية ، مثل إسم العلم إتنا Etna ، والحقيقة أن أسماء الأعلام تقاوم أكثر من غيرها الانحرافات الصوتية التى تنشأ من التغيرات التركيبية . ولكن الإنسان فى الكلمات الكثيرة الدوران فى الكلام على العموم يدبر أمره للتخلص من المجموعة غير الثابتة nt (نت) . فطوراً يحصل توافق ؛ ينخفض حجاب منذ بدء المجموعة — وتستمر الأوتار الصوتية فى الذبذبة دون توقف بين الفتحتين فتكون النتيجة — anna (أنّا) ، (هذه هى الحال فى الكلمة اللاتينية annus

« آتْـنُس » إذا قورنت بالقوطية athnus « أثنس » وكلتاهما مأخوذتان من atnos « أتنس » التي تمدّ أقدم منهما) . وطوراً يحصل تخالف يتجه على حسب الأحوال إمّا نحو الانفجاري وإمّا نحو الأنفي ، فيـوسع اللسان من شقة الخلاف بين الصوتين ليتجنب البقاء في وضع من التوازن يصعب عليه الإحتفاظ به : فنحصل مثلا في بعض الأحيان على akna (كما في الأمبرية[1] حيث نجد فيها كلمة aknus (أَكْنُس) تقابـل annus (أنُس) في اللاتينية) ، وفي بعض الأحيان atra (أتْرَا) ، كما وقع في عدد من اللغات الـكلتية ، وعلى الخصوص في اللهجة البريتانية ، حيث تنحدر كلمة traon (تراوْن) « قاع ، واد » من الـكلمة الأقدم منهـا tnaou (تناؤو) . وهناك مسلك ثالث للتخلص ينحصر في الفصل . إذ لما كان تلامس التاء والنون هو مصدر الصعوبة في النطق ، أمكن حذف هـذه الصعوبة بإدخال حركة بينهما مثل :tyno (تِنو) في الغالية (تنطق بالفرنسـية teno بـ e صامتة) التي تقابل traon في اللهجة البريتانية .

* * *

في الأحوال السابقة كان الأمر يتعلق بأصوات متلامسة ؛ ولـكن حالات التوازن وتبادل التأثير تصيب أيضاً أصواتاً يفصل بينها عدة عناصر ، بل أصواتاً أيضاً تنتسب لمقطعين مختلفين وتوجد في أماكن يبعد بعضها عن بعض في الـكلمة الصوتية : والعمليات التي تنتج هنا هي عمليات التشابه والانتقال والتخالف[2] .

يقال إن هناك تشابهاً عنـدما يستمير واحد من صوتين منفصلين عنصراً أو أكثر من عناصر الآخر إلى حدّ الاختلاط به . والصوت المشبه يسبق في أغلب الأحيان الصوت المشبه به . أي أن هناك في الواقع حالة تعجل : فالعقل باشتغاله بنطق صوت ما في داخل مجموعة صوتية يجعله يصدره قبـل أوانه ، وينتج مرتين

---

(١) الأمبرية ombr'en : لهجة إيطالية قديمة عرفت من بعض نصوص منقوشة على الآثار . المعربان .

(٢) انظر خاصة جرامون ، رقم ٧٩ . والمقالات العديدة التي نشرها عن الانتقال المـكاني في كثير من اللغات ولا سيما في رقم ٦ مجلد ١٣ ، ص ٧٣ وما يليها ، رقم ١٠١ ص ١٧٩ . وانظر أيضا برنو Pernot رقم ١٠٨ ، ص ٥٤٠ .

متتابعتين الحركات الصوتية التى يقتضيها هذا الصوت . ويكون الصوت المشبَّه عادة قريباً من الآخر إلى حدّ ما لتبرير الخطأ . وهكذا كان أسلاف اللاتينيين يقولون quequo كوكوا بدلا من pequo ومن ثم جاءت coquo (كُوكْوو) « أُنضِجُ » فى النصوص التاريخية . ولكن التشابه يستطيع أن يسير فى طريق عكسى ؛ فنجد فى الفرنسية الدارجة juchque (جُشْك) بدلا من jusgue (جُسك) « حتّى » ؛ على أن التشابه هنا ينحصر فقط فى إحلال موشوس محل صفيري دون تأثير على صفة الجهر .

والانتقال المكانى يصدر عن نفس الأصل الذى صدر عنه التشابه . إذ أن مردّ الأمر فى كليهما إلى الخطأ ونقص الالتفات . ولكن النتيجة مختلفة كل الاختلاف فبدلا من تكرار الحركة النطقية مرتين ، يُقتصر على تغيير مكان حركتين ، وأخيراً يبدو الانتقال المكانى كما لو أن جزأين فى كلمة واحدة قد تبادلا أحد العناصر . فبدلا من « فِنْسْترا » festra « نافذة » يقال فى البرتغالية fresta (فِرْستا) ؛ ويقال فى بعض اللهجات البريتانية drebi بدلا من debri (دِبْرى) « يأكل » .

وأخيراً ينحصر التخالف ، وهو المسلك المضاد للتشابه ، فى أن يعمل المتكلم حركة نطقية مرة واحدة وكان من حقها أن تعمل مرتين[1] :— فمن الكلمة اللاتينية arborem (أَرْبُورِم) « شجرة » نشأت الكلمتان الأسانية arbol (أَرْبُلْ) والپروفنسية albre (أَلْبرْ) فالذى حدث فى كلتا الحالتين ، مع اختلاف الترتيب ، هو أن المتكلم اقتصر على القيام بحركة واحدة فقط من الحركات التى يتطلبها انتاج الراء r بدلا من أن يقوم بحركتين ، واستعاض عن الأخرى بحركة من الحركات التى تنتج اللام المائعة . بل كثيرا ما يحدث أن تكون نتيجة التخالف اختفاء الصوت لا أكثر ولا أقل : كما فى الإغريقية القديمة « δρύφρακτος » « سور من الخشب » جاءت من δρύφρακτος .

---

(١) فضلا عن كتاب جرامون ذلك الكتاب الأساسى ، انظر ك . برجمان : « معنى التشابه الصوتى » . ليبزج ١٩٠٩ .

والنظام الذى تتم به العمليات الثلاث المتقدمة يتوقف على أسباب خاصة على العالم اللغوى أن يحررها فى كل حالة على حدة : فضغط الشدة أحد الأسباب التى تتحكم فى آلية الانتقال المكانى والتخالف . كما يجب ألاّ نسقط من حسابنا طبيعة الأصوات ولا مكان كل منها فى داخل الكلمة .

التغيرات التركيبية لا تنتج منها أصوات لغوية جديدة . فالتخالف مثلا لا يخلق أبداً أصواتاً جديدة غير معروفة فى اللغة التى يحدث فيها ؛ « عند ما يكون على فعل التخالف الطبيعى أن ينتهى بإنتاج صوت جديد ، يحدث أحد أمرين : إما أن يستعاض فى الحال عن هذا الصوت المريب بأقرب صوت إليه تعرفه اللغة ، وإما أن يبقى الصوت أو مجموعة الأصوات التى كانت عرضة للتخالف على حالها دون تغير ، وذلك عندما تتعذر الاستعاضة ، أى عندما يكون أقرب الأصوات إليه فى اللغة لا زال يبعد عنه بعداً شاسعاً » . (م . جرامون) فى هذه الحال لا يحدث التخالف ؛ أو إذا حدث ، حدث فى اتجاه عكسى . وإحساس الإنسان اللاشعورى بأنه سيُحمل على نطق ما لا يُنطق ، يمسكه عن المضى فى طريق التخالف ، ويقلب كيان القوى التى فى الكلمة ويخلع على الحرف الذى كان يجب أن يختفى فضلا من القوة يميل بكفة الميزان فى مصلحته : ويقال حينئذ إن التخالف قد انعكس .

وكذلك لا ينتج التخالف لباعث نفسانى ، إذا كان اشتقاق الكلمة جليا بالنسبة للمتكلم . وإذا كان هذا الأخير يعرف اشتقاق جزء الكلمة الذى يجب أن يقع عليه التخالف فحسب ، حصل التخالف عادة فى طريق عكسى : أما إذا كانت أجزاء الكلمة كلها واضحة الاشتقاق بالنسبة إليه ، لم يحصل تخالف قط . وتكون القوة أحياناً فى جانب الجزء اللاحق باللفظ وأحياناً فى جانب جزئه الأصلىّ . فكلمة pruneraie « برُنيريه » كان يجب أن تكون عند التخالف pluneraie (پلنريه) فى الفرنسية ولكنها صارت prunelaie (پرُنيليه) « مزرعة برقوق » لكون الجزء الأصلى أقوى الجزأين ؛ هذا إلى أن وجود كلمة prunelle (پروينل) « نوع من البرقوق الوحشى صغير الحبة » قد ساعد على حدوث التخالف . أما

فى حالة الـكلمة الأسبانية sombrero « سُمْبريرو » « قبعة » فلم يحدث تخالف لأن العناصر القطعية التى فيها الراء r ذات دلالة بالنسبة لمن يتكلم . وقد استطاع الأستاذ جرامون أن يجمع كل أحوال التخالف تحت قانون واحد هو : الصوت اللغوي القوى يقتضى بالتخالف على الضعيف . وإذا كان الصوتان فى قوة واحدة بقى كل منهما .

فنحن أمام صراع من السيطرة والمقاومة . ولـكن هذا الصراع لا يمس الأعضاء وحدها . نعم يوجَد فى بنية كل لغة عناصر تفوق غيرها قوة (أنظر الفصل السابق) ولـكن القوة الخاصة بكل عنصر مقرها المخ على وجه الخصوص. فالتغيرات التركيبية تأتى من نقص فى التناسق بين الفكر والأعضاء ، وتنتج من خطأ فى الالتفات . فأحياناً يصل الالتفات إلى درجة كبيرة ويتركز بإسراف فى نقطة واحدة على حساب غيرها أو يوزع نفسه بصورة غير متساوية على العناصر المختلفة التى تـكوّن الـكلمة ؛ وأحياناً على العكس من ذلك يفر تاركا العضو لـكسله الطبيعى .

لتقدير قيمة هذه التغيرات على حقيقتها ، يجب أن تـكون لدينا معرفة دقيقة بعلم الصوتيات العام وكذلك بالنظام الصوتي الخاص بكل لغة ؛ ولـكن يتبقى لنا فضلا عن ذلك أن نستطيع إرجاع التغير إلى عملية نفسانية . لأن عقل المتكلم هو المسئول عن ذلك فى نهاية الأمر .

* * *

تسوقنا هذه الخاتمة إلى أن نقول كلمة عن الصلة بين الـكلام وبين الفكر : إذ أن هــذه المسألة وإن كانت مسألة سيكلوجية قبل كل شىء فلا يسوغ للعالم اللغوى أن يهملها بأية حال[1] . عندما نسمع لغة أجنبية لانعرفها لاتدرك أذننا منها إلا مجاميع من الأصوات على شىء من الطول يقل أو يكثر ، ويفصل بينها

---

(١) انظر خاصة ب . إردمان B. Erdmann : « الأسس السيكلوجية بين الـكلام والفـكر » فى (Archiv . f . system . philosophie) مجلد ٢ ، عام ١٨٩٦ ، ص ٣٥٥ — ٤١٦ . وموتنر Mauthner رقم ١٧٨ مجلد ١ ، ص ١٦٤ . ويوجد فى ڤان جينيكن van Ginneken رقم ٧٨ ، مراجع عديدة عن هذه المسألة فى أماكن متفرقة .

فترات من الصمت . فإذا كنا نفهم اللغة التى يُتكلم بها أيقظت فى ذهننا هذه المجاميع من الأصوات مجاميع تصورية مرتبطة كل منها بالأخرى وتكوّن مايسمى جملة فى الاصطلاح النحوى . أصوات وجمل، هاتان هما الحقيقتان اللتان يميزهما للوهلة الأولى تحليل الكلام تحليلا سريعاً مبنياً على الفرق بين الأثر الذى يحدثه فينا سماع لغة نجهلها وبين الذى يحدثه سماع لغة نفهمها .

من الحق أننا لا نعبر بأصوات عن كل ما فى ذهننا من وحدات تصورية . فالتأمل مثلا لا يقتضى تمرين الأعضاء المنتجة للصوت ؛ ولكن التأمل كلام داخلى فيه تتسلسل الجمل كما فى الكلام المنطوق[1] . وكل واحدة من جمل التأمل تنطوى بالقوة على جميع الحركات النطقية للكلام . فالتفكير يسير معتمداً على الأصوات ، حتى عند ما تكون الأصوات غير منطوقة . لذلك نرى أنفسنا فى بعض لحظات التأمل مسوقين بطريقة غير شعورية إلى نطق بعض الكلمات التى تقابل تفكيرنا . فكأن الفكرة ، وقد ثقلت وطأتها على العضو، قد وضعت الآلية فى حالة حركة على غير إرادة منها ؛ على نحو ما يفعل أخرق أو أهوج وقد أراد أن يجرب جهازاً ما فلم يكتف بالتمثيل التوضيحى ، بل راح ينفذ العمل على حقيقته .

يجب أن نترك لعلماء النفس أن يبينوا إلى أى حدّ تكون الإمكانيات الصوتية ضرورية للكلام الداخلى . هذه الضرورة ناجمة من العادة على وجه التأكيد ، وليس إلزاماً من الطبيعة . ولكن يمكن الجزم بأن تأمل الأصم الأبكم يختلف عن تأمل الإنسان السليم الذى وهب الكلام . فالصورة التى نعبر بها تسجن التفكير بشكل يجرده من الوجود المستقل ولا يسمح له بالانفصال عن الأصوات التى تحقق ماديته ، ولا بالانفصال عن إمكانيات الأصوات عندما لا يحدث فى الواقع التحقق المادى . والحالة التى فيها تدور الأعضاء فى الفراغ ، دون عمل التفكير ، لا تناقض هذا المذهب . فإذا أردنا أن نسمع سلسلة من أصوات متنوعة مجردة من المعنى ، فإن تنوعها لا يساوى أبداً ذلك التنوع الذى يستلزم التعبير المنطوق عن فكرة من الأفكار . وأغلب الأمر ، أن يقتصر الإنسان على إنتاج

---

(١) ف . إجيه (V. Egger) : الكلام الداخلى ، باريس ١٨٨١ .

مجاميع من الأصوات موجودة فى اللغة ، أى مما اعتادت الأعضاء على النطق بها ويجرى استعمالها مزودة بمعنى من المعانى .

يمكننا أن نسمى الوحدة النفسانية السابقة على الكلام بالصورة اللفظية ، وهى تصور أعدّه الفكر قصد التعبير الكلامى ، وهى فى الوقت نفسه مجموعة من الإمكانيات الصوتية على استعداد للتحقق الفعلى . فالصورة اللفظية صورة مزدوجة الوجه تنظر بإحدى ناحيتيها فى أعماق الفكرة وتنعكس بالأخرى فى الآلية المنتجة للصوت . إذا اعتبرت من وجهة تحققها المادىّ ترجمت بالأصوات ؛ ولكنها بأصولها النفسانية من نتاج عمل العقل . ففيها يتّحد طرفا الثنائية التى كنا فى سبيل الكلام عنها فيما سبق ؛ وفيها يلتقى ميدان العالم اللغوى بميدان العالم النفسى .

علماء النفس[1] يعتبرون الصورة اللفظية نتاجاً معقداً ناشئاً من انطباق صور أربع بعضها فوق بعض أو من اشتراكها ، وهى صورة شفوية وصورة سمعية وصورة بصرية وصورة يدوية . وهذا التمييز بين الصور الأربع قديم جداً ؛ قال به منذ سنة ١٧٤٠ داڤيد هارتلى David Hartley فى ملاحظاته عن الإنسان Observations on man . ونحن نعرف المكان الذى احتله هذا التمييز فى أعمال مدرسة Charcot . فهذا الأخير كان يعلم أن كل كلمة تتكون من عناصر أربعة تجتمع مثنى مثنى فى صور حسية (سمعية وبصرية) ومحركة (شفوية ويدوية) أو — وذلك بنوع من التوزيع الذى يتلاقى مع السابق — فى صور صوتية (سمعية وشفوية) وكتابية (بصرية ويدوية) . هذا التحديد يمكنه أن يدافع عن نفسه إذا طبق على الصورة اللفظية لا على « الكلمة » (قارن الصفحة الأخيرة فى هذا الفصل) . ومع ذلك فإن تحليل الصورة اللفظية تافه الأهمية بالنسبة للعالم اللغوى . لأن أحوال النشاط المخى التى هى شغل العالم النفسى الشاغل تخرج عن دائرة اختصاص العالم اللغوى .

نستطيع هنا أن نعتبر الصورة اللفظية كلاً يغيب عنا تكوينه . فعنصران على الأقل من العناصر التى يعرفها لها علماء النفس (أعنى البصرى واليدوى)

(١) أنظر دنيان بوثريه ، رقم ١٠ ، مجلد ١٦ ، ص ٤٦٦ وما يليها .

لايدخلان فى حسابنا لأنهما لا يعنيان غير الكلام المكتوب . ولا يدخل فى الحساب بالنسبة للشخص الذى لا يعرف القراءة ولا الكتابة إلا الصورتان الشفوية والسمعية ؛ ولكننا ، حتى منذ ابتداء الفصل الأول ، قد ذكرنا من البواعث ما يدفعنا على جعلهما صورة واحدة (أنظر ص ٤٤) .

ومن جهة أخرى ليس علينا أن نعمل حساباً للاختلافات التى تنتج فى نشأة تكوين الصور اللفظية . فنحن نعتبرها مكونة نهائياً فى مخ المراهق الذى يتكلم لغته القومية . ونحن نأخذ كلام المراهق كما يسير سيره العادى ، بناء على التحصيل الذى تلقاه منذ طفولته الأولى .

على كل طفل أن يخلق هو نفسه ومن كل وجه كلامه ؛ وإذن فالصور اللفظية التى ليست إلا بعض وقائع الاختبار تحولت فى المخ إلى إمكانيات لغوية ، وعلى الطفل أن يحصلها شيئاً فشيئاً وأن يربيها . وإنه ليتعذر علينا أن نتمثل أطوار هذا التحصيل بناء على الصورة التى بها نتعلم لغة أجنبية فى سن المراهقة . لأن تعلم لغة أجنبية يقوم دائماً على أساس اللغة القومية . فإن الإنسان يسير بطريقة الاستبدال ، ويسعى إلى تكوين معادلات بأن يرص فى ذاكرته كلمات وجملا من اللغة التى يتعلمها إلى جانب كلمات لغته القومية وجملها . كما يعتمد هذا التحصيل فى غالب أحيانه على الكتب ؛ فيعتمد على الكلمات المكتوبة ويتخذ أساساً له نوعاً من البنية النحوية المصطنعة إن قليلا وإن كثيراً .

أما العمل الذى يتم فى دماغ الطفل فيختلف عن هذا اختلافاً كلياً . فإن الطفل يتلقى عمن يحيطون به جملا جاهزة تفيد التعبير عن بعض الأوامر أو بعض الحاجات ، أو عن بعض الوقائع فحسب : « انصرف » ، « أنا جوعان » ؛ « الجو صحو » . . . الخ . كل هذه تختزن فى الدماغ وتكون بعددها صوراً لفظية ، صوراً تصقل وتتحدد كلما تكاثرت : لأن هذه الصور تصير — بواسطة الاستبدال الذى يعتاد عليه عقل الطفل بسرعة — جديرة بالتعبير عما فى الأشياء والأفكار والعواطف من تنوعات جمة ، وتتلون بجميع ألوان التفكير على اختلافها . فإذا ما انتهت مرحلة التحصيل ، كان فى حوزة الطفل مجموعة من الصور اللفظية التى تظهر من تلقاء نفسها فى الدماغ كاملة التكوين ، وعلى استعداد تام لتحقيقها عملياً

فى الـكلام ، كلما عنّ له أن يلقى أمراً أو أن يعبر عن حاجة أو أن يصوغ واقعـة من الوقائع . ولا يلبث المجهود العقلى الذى تتمخض عنه الصورة اللفظية أن يصير من البساطة والألفة بحيث لا يشعر به الإنسان وبحيث يتبع مباشرة إنتاج الصورة اللفظية الإحساس بالحاجة أو استيقاظ الإرادة ، ثم تتلى الصورة نفسها على التوّ بالتحقق العملى فى اللغة .

يستسلم الطفل فى مرحلة التحصيل التى تفرض عليه إلى رياضات معقـدة . فيعوّد أعضاءه على إنتاج الأصوات التى يسمعها . ولـكنه لا يسمع إطلاقاً أصواتاً منعزلة ، بل تقدم إليه الأصوات فى كلٍّ ذى معنى ، فيتعلم فى نفس الوقت كيف يخضع أعضاءه إلى أوضاع متنوعة تقابل الأصوات المختلفة وكيف يربط مجاميع الأصوات التى تصدر على هذا النحو بمعنى من المعانى . والأصوات ليست جميعاً على درجة واحدة من الأهمية ؛ بل منها مايـود غيرها كما رأينا فى دراسة التغيرات الصوتية . ولـكن العناصر العقلية التى تـكوّن تلك المادة التى تصاغ فى الأصوات تحمل بدورها درجات مختلفة من السيطرة ؛ فنها ما تطفو وتفرض نفسها على الانتباه بدرجة من الوضوح أعلى مما لغيرها . ويترتب على ذلك أن الصور اللفظية ، من وجهة نظر العناصر التى تؤلفها نفسها ، تتكون شيئاً فشيئاً بواسطة تحسينات متتابعة تضاف إلى التجربة الأولى التى تعدّ بطبيعة الحال غير كاملة ولا تظهر فى تلك التجربة البدئيـة إلا بعض الملامح المميزة ، وهى تلك الملامح التى تقابل قم السيطرة سواء فى الصوتيات أو فى العقليات ثم تُمثّل فى الصورة شيئاً فشيئا الملامح الثانوية فى أدق تفاصيلها .

ومهما كان الوقت الذى يستغرقه التحصيل حتى يصل إلى التكوين النهائى للصورة اللفظية ، بل مهما كانت الفترة التى تقـدر لاستكمالها ، فإن الذى يميزها فى عين العالم اللغوى إنما هى وحدتها . فـكل العناصر المـكوّنة لها تندمج فى عمل واحد هو العمل اللغوى الجوهرى ، الذى لا يملك العالم اللغوى أية وسيلة يستطيع بها أن يتعداه . فعندما يقول الطفل « pas poupe » يقصد أن يقول بأنه لا يحب الحساء الذي يقـدم إليه ، أو أنه يرفض شربه ، فإن الصورة اللفظية التى فى ذهنه والتى

تهيمن على التعبير بجملته تعدّ كلاًّ محكم التناسق وإن كان بدائياً . بعد ذلك فى سن المراهقة ، يستطيع أن يقول على حسب الأحوال : « لا آخذ حساء » أو « أحب ألاّ آخذ حساء » أو « أفضل ألا تعطونى حساء » . الصوررة اللفظية التى تقوم على أساسها كل واحدة من هذه الجمل أغنى وأعمر بالألوان المتنوعة من جملة الطفل . وهذه وتلك تنطوى على نفس الوحدة .

يمكن تعريف الجملة بالصيغة التى يعبر بها عن الصورة اللفظية والتى تدرك بواسطة الأصوات . والجملة ، كالصورة اللفظية ، عنصر الكلام الأساسى . فبالجمل يتبادل المتكلمان الحديث بينهما . وبالجمل حصلنا لغتنا ؛ وبالجمل نتكلم ، وبالجمل نفكر أيضاً . الصورة اللفظية يمكن أن تكون فى غاية التعقيد ؛ والجملة تقبل بمرونتها أداء أكثر العبارات تنوعاً ؛ فهى عنصر مطاط . وبعض الجمل يتكون من كلمة واحدة : « تعال » و « لا » و « وأسفاه » و « صه ! » ؛ كل واحدة من هذه الكلمات تؤدى معنى كاملاً يكتفى بنفسه .

غير أن الجملة لها امتداد الصورة اللفظية بالضبط ؛ بل إنها غير محدودة بالطاقات الصوتية ، إذ أنه فى غالب الأحيان لا يكفى نفس واحد لنطق جملة بتمامها ، وقد يحدث أن تشمل جملة واحدة بعينها مجموعتين تنفسيتين أو أكثر . وعمل العقل يسيطر على عمل الأعضاء ، ولا يمكن أن تكون عدم كفايتها سبباً فى وقوفه ، كما لا ينبغى أن يكون فى ضرورة أخذ الشهيق عائق لنافخ الناى أو « للسلامية » . والجملة تنتظم جميع الدرجات ، من الحركات النطقية البدائية التى يصوغ بها الطفل حاجة من حاجاته إلى الصورة المستكملة المؤتلفة ألطف ائتلاف تلك التى تكو فكرة فنان من نوع ديموستين أو شيشرون أو بوسويه .

يرى من كيفية تعريفنا للجملة أنها تشمل الصورة اللفظية ؛ فكلتاهما لا حد لها إلا فى موهبة التأليف التى للعقل . فيجب بناء على ذلك أن يعطى للصورة اللفظية امتداد أوسع مما يعطى لها عادة وألا تقصر على الكلمة . ولا خلاف بين الصورة اللفظية والجملة إلا فى أنه لما كانت الجملة حقيقة واقعية مشخصة ، كانت معرضة لكل العوارض التى يستتبعها التحقق الواقعى . فالخزاف الذى يضع فى فرنه فنجاناً ،

من الخزف لايمكنه أن يقطع بالنتيجة التي سيحصل عليها بعد الحريق؛ لأنه يخشى دائماً من نار عادية تحيل الطينة فحماً أو من نار ضعيفة لا تقوى على إبراز اللون . كذلك الصورة اللفظية ، وقد حضرت فى المراكز العصبية ، لا تستطيع المرور بالأعضاء دون التعرض للأحداث .

ويمكننا أن نضرب مثلا نوضح به ما تقدم : أتخيل أن جاراً لى وخزنى غير عامد ، فأصيح قائلا : « آه ! لقد وخزتنى ! » .

من اليسير أن نستعيد تتابع الأفعال التى تمت . فهناك إحساس بالوخزة ، نقل إلى المراكز العصبية ، واستدعاء مفاجئ لصورة لفظية ، ترجمت على الفور فى اللغة بالجملة الآنفة الذكر . وكان التتابع من السرعة بحيث تبعت الصيحة الوخزة مباشرة . فما نسميه صورة لفظية إنما هى الصورة التى أعطاها الفكر ، وفقاً للعوائد المكتسبة ، إلى الصيحة التى صحتها . وتختلف الصورة اللفظية فى لغة ليس فيها أفعال متعدية أو تعبر عن الحدث فى صيغة المبنى للمجهول : « أنا ملدوغ منك » . واختلاف الصورة اللفظية كثيراً مايكون الاختلاف الوحيد الموجود بين اللغات . وهكذا يقال فى الألمانية « أنا هو » على حين يقال فى الفرنسية : « إنه أنا » . فالصورة اللفظية مختلفة التركيب . جملة « آه ! لقد وخزتنى ! » تقابل الصورة اللفظية للفرنسية السليمة . فلنفترض الآن أن لسانى قد انحرف فقلت : « آه ! لقد خزوتنى ! » مرتكباً « قلباً صوتياً » (بالألمانية Schüttelform[1]) . ومع ذلك فالصورة اللفظية لم تتغير . وإذا كانت لم تتحقق إلا تحققاً ناقصاً ، فرجع ذلك إلى خطأ قد عرض فى التنفيذ . فالجملة التى نطقت بها لا تتفق مع الصورة ؛ وقد وقع الخطأ فى الانتقال من إحداهما إلى الأخرى .

لسنا فى حاجة إلى القول بأنه توجد حالات تكون فيها الصورة اللفظية مسئولة عن الخطأ المرتكب . فرغم معرفتى التامة لاسم صديقى ديران ، أرانى أدعوه فى المحادثة باسم لبران ، وهو اسم شخص آخر من أصدقائى . فمثل هذا ليس عارضاً مادياً يمكن أن يعزى إلى الأعضاء . وإذا اتفق مثل ذلك لفرد

---

(١) قارن ميرنجف Merxingef وماير Mayer ، رقم ١٨٠ .

من أفراد الشعب لسمعناه يقول : « لا أدرى لماذا كان لبران فى ذهنى » . والواقع أن انزلاق اسم مكان آخر قد حدث فى نفس الصورة اللفظية التى يؤلفها العقل . وهذا هو وجه الاختلاف .

إذن تتألف الصورة اللفظية والجملة من عناصر واحدة . هذه العناصر هى التى تسمى فى النحو المعتاد بالكلمات . وقد درسنا فى هذا الفصل الكلمة الصوتية ؛ ولكن الكلمة الصوتية قد تشتمل على عدة كلمات بالمعنى الذى يقصد فى النحو المعتاد ؛ بل إن حدودها قد تكون جلية الوضوح تبعاً للغات . فلأجل أن نحددها تحديداً كاملا يجب أن نحلل عناصرها من وجهة نظر نحوية . وذلك هو موضوع الفصل التالى .

الجزء الثانى

النحـــو

الفصل الأول

الـكلمات والأصوات

تنتظم كل جملة نوعين من العناصر المتميزة : أولاً التعبير عن عدد ما من المعانى التى تمثل أفـكاراً ، وثانياً الإشارة إلى بعض العلاقات التى بين هـذه الأفـكار . فإذا قلت : الحصان يجرى ، فى ذهنى فـكرة الحصان وفـكرة الجرى ، وقد جمعت بين الاثنين فى هذا الإثبات الذى هو « الحصان يجرى » . وإذا قلت منزل بطرس كبير ، فإن الأفـكار البيت وبطرس والـكبر تتركب كذلك فى الإثبات الذى يـكوّن جملتى . ويحسن أن نذكر أننا نأخذ الأحداث كما يقدمها لنا الـكلام ، أى أننا ننظر إلى الصور اللفظية فى نفس الصورة التى تظهر عليها فى الـكلام . هذا هو المعنى الذى يجب أن نفهمه من الفـكرة التى عبرنا عنها فيما تقدم بقولنا « نحن نفـكر بجمل » . فنحن نفترض أن الفعل العقلى الذى يضيف اسماً إلى أحد الأشياء (هنا الحصان) ويجعل هذا الشىء متعلقاً بحدث من الأحداث ، ويحصر هـذا الحدث فى حدود من الزمن ليقول : الحصان يجرى ، فإنما نفترض أن هذا الفعل العقلى يتم فى الدماغ تبعاً لعوائد لايشعر بها المتكلم نفسه .

هذا الفعل العقلى الذى تفترضه اللغة ينتظم عمليتين متتابعتين : عملية تحليـل عندما عيز العقل فى التصور ، وقد أعطى ، عدداً ما من العناصر التى تقوم بينهـا

علاقة (هى هنا الحصان والجرى) ثم عملية تأليف — عندما يروح العقل وقد انتهى من تعرف هذه العناصر المختلفة وتحليلها — يؤلف بينها من جديد ليكوّن الصورة اللفظية . والتأليف وحده هو الذى يهم علم اللغة ، ويهمه بدرجة قصوى : لأن الاختلافات فى البنية بين اللغات تنتج من الكيفيات المتنوعة التى تتوقف عليها عملية التأليف[١] .

لنفترض أن جميع الأدمغة الإنسانية تتلقى كلها على السواء عين الطابع البصرى للحصان الذى يجرى ولنسلم — وذلك مما لا نزاع فيه — بأنها تحلل هذا التصور بطريقة واحدة بعينها ، وأنها تقيم بين الحصان وبين الجرى نفس العلاقة بالضبط ، فإن التعبير عن هذه العلاقة يحصل فى كل لغة بطريقة خاصة : الصورة اللفظية تؤلف تأليفاً مختلفاً . فالتفريق المشار إليه فى أول هذا الفصل ليس إذاً نظرياً بحتاً وهو يقابل ما يصح أن نسميه دوالّ النسبة Morphèmes ودوالّ الماهية sémantèmes . ويجب أن نفهم من دوال الماهية تلك العناصر اللغوية التى تعبر عن ماهيات التصورات : فهنا ماهية الحصان أو ماهية الجرى ؛ ونفهم من دوال النسبة العناصر التى تعبر عن النسب بين الماهيات : هنا كون الجرى المسند إلى الحصان عن العموم محمولاً على الشخص الثالث المفرد الإخبارى . وعلى ذلك تعبر دوال النسبة عن النسب التى يقيمها العقل بين دوال الماهية . هذه الأخيرة ليست إلا عناصر التصور الموضوعية ؛ وستدرس على حدة فى الجزء المخصص للمفردات من هذا الكتاب .

***

دالّ النسبة فى غالب الأحيان عنصر صوتى (صوت أو مقطع أو عدة مقاطع أحياناً) يشير إلى النسب النحوية التى تربط الأفكار الموجودة فى الجملة بعضها ببعض .

فى جملة من اللغة الإغريقية القديمة مثل : « سيمونيد أقام تمثالاً جميلا » ، من السهل علينا أن نعرف أنه يوجد إلى جانب المقاطع التى تعبر عن الأفكار الأساسية

---

(١) فنك Finck ، رقم ١٦١ ، ص ٤ .

فى الجملة وهى : سيمونيد والإقامة والمحراب والجميل ، مقاطع أخرى ينحصر دورها فى الإشارة إلى أن صفة جميل تنسب إلى المحراب وأن سيمونيد هوالذى فعل فى الماضى حدث إقامة المحراب المذكور . فأول هذه المقاطع من دوال الماهية والثانية من دوال النسبة. لنأخذ أيضاً من العربية مجموعة من الكلمات مثل مجموعة أن يعطى، أُعطِىَ، الإعطاء ، مُعطُون ، إلى المُعطَى : فالتحليل يجد فيها دون عناء عنصراً دائماً هو « ع ط ى » الذى يصل كل هذه الكلمات بفكرة الإعطاء . ولكنه يجد فيها فضلا على ذلك عدداً من العناصر الصوتية التى تستخدم للاشارة إلى أن الكلمة فعل أو اسم، ومن أى نوع هى ، أو للدلالة على الفصيلة النحوية (النوع والعدد والشخص) التى تنتمى إليها الكلمات ، وكذلك على العلاقة التى تربطها بكلمات الجملة الأخرى فهذه العناصر دوالّ للنسبة .

وبعض هذه الدوال ليس له وجود مستقل ، فيجب تحليل الكلمة لاكتشافها وهذه تسمى لواحق أو زوائد ، والبعض الآخر كالضمائر والأدوات (فى الفرنسية مثلا) منفصلة عن الكلمة فى الكتابة . ولكن هذا الفرق عديم الأهمية هنا .

وإذا أدخلنا على الجملة الإغريقية المتقدمة كلمة « لكان » لتغير المعنى فى الحال . فهذه الكلمة « لكان » دالة نسبة تلون الجملة بلون فرضىّ من طابع خاص ؛ فباضافة هذه الكلمة التى تستعمل للتعبير على ما لم يقعْ ، تصير الجملة : « لكان أقام محراباً جميلا » . كذلك لو أضفنا إلى أية جملة فى السنسكريتية المقطعين iti (إيتى) لدلّت هذه الزيادة على أن الجملة حكاية مباشرة لكلام قائل : فإيتى iti من دوال النسبة . والفرنسية العامية فيها دالة من هذا القبيل فى صورة « كيدى » quidi (للمذكر) أو quèdi كيدى (للمؤنث) : قارن العبارتين « tu as tort » أنت مخطئٌ و« tu as tort, quidi » أنت مخطئٌ ، قيل . » فتحس على الفور أن الجملة الأولى خطاب مباشر والثانية جزء من اقتباس ، وعليها طابع الحكاية .

ولا يهمنا هنا النظام الذى بمقتضاه تستعمل دوال النسبة فى الجملة ، ولا المكان الذى تحتله فيها ، ولا المدى أو الأهمية اللذان تخلعهما اللغة عليها . فنحن نعد من

هذه الفصيلة الزائدة — ἐ واللاحقة σ- واللاصقة εν- من الإغريقية ἐποίησεν « هو عمل » (بالفرنسية Il a fait) ، كذلك نعدّ منهما القطعين الأولين فى Il a fait . وهذه العناصر مهما اختلف أصلها فإنها تلعب دوراً بعينه كلٌّ منها فى لغته .

ولا نهتم كذلك بأن تكون دالة النسبة مما يعرب أو مما لا يعرب . فنى العربية الفصيحة « كان زيد يقتل » معناها فقط « Zaïd tuait » . ذلك أن المضارع فى العربية يُسبق بفعل الكون ليدل على الاستمرار فى الماضى ؛ ويتصرف الفعلان كلٌّ منهما على حدته[1] :

الشخص الأول	كنت أقتل
الشخص الثانى المفرد المذكر	كنتَ تَقتُل
الشخص الثانى المفرد المؤنث	كنتِ تقتلين
الشخص الثالث المفرد المذكر	كان يقتل
الشخص الثالث المفرد المؤنث	كانت تقتل

فالعقل يحس الفعلين وكأنهما وحدة رغم أنه يمكن وضع كلمة بينهما ؛ فالفعل الأول من دوال النسبة .

وأخيراً لا يهمنا أن تكون دالة النسبة تشتمل على عنصر واحد أو على عنصرين صوتيين منفصلين . فهناك دوال نسبة تنتج من كلمتين منعزلتين يجمع بينهما العقل وتكون لها رغم انفصالها وحدة لا تقبل التمزيق . فى الفرنسية يعبر عن النفى بعنصرين لا يكادان يتجاوران مطلقاً فى الجملة : ومع ذلك فإن « je ne mange pas » « لا آكل » فى الفرنسية لها من الوحدة ما لـ « nitoimlim » فى الأيرلندية .

كل دوال النسبة هذه ، سواء أكانت مفردات أم مجموعات ، تعدّ من الفصيلة الأولى لدوال النسبة ، تلك التى يعبر عنها بعناصر صوتية تدخل فى الجملة وتوصل بدوال الماهية .

هناك فصيلة ثانية ، دوال النسبة فيها تتكون من طبيعة العناصر الصوتية الدالة

---

(١) أنظر بركلمان Brockelmann رقم ١٤٨ ، جزء ٢ ص ٥٠٩ .

على الماهية أو من ترتيبها . وهذه الفصيلة تعدّ أكثر خفاء من السابقة وإن كانت لاتقل عنها أهمية فى اللغة .

ونجد فى تبادل الحركات فى اللغات الهندية الأوربية أو فى السامية خير الأمثلة لتوضيح هذه الفصيلة . لسنا هنا نضيف عنصراً صوتياً إلى دالة الماهية ليخلع عليها قيمة صرفية . بل يكتفى فى الإشارة إلى دور دالة الماهية العرفى بالعناصر الصوتية لهذه الأخيرة نفسها . فالإنجليزية تقابل بالجمعين men و feet المفردين man « رجل » و foot « قدم » ، و تقابل اسمى المفعول held و struck بالمصدرين hold « يمسك » و strike « يضرب » — فالاختلاف الذى بين هذه الصيغ اختلاف فى جرس الحركة الذى يلعب على هذا الوضع دور دالة النسبة ، إذ أنه وحده يشير إلى قيمة الكلمة الصرفية . ونجد نفس الشىء فى اللغة الألمانية حيث نرى wir gaben « كنا نعطى » تقابل wir geben « نعطى » و gib « أعطْ » . وكذلك فى الغالية الوسطى حيث نرى الجموع brein و myr و wyn تقابل المفردات bran « غراب » و mor (بحر) و oen (خروف) . فالتبادل الصوتى عنصر صرفى ضرورى فى أقدم اللغات الهندية الأوربية كالإغريقية والسنسكريتية . ويمكننا أن نقول بأن القيمة الصرفية لكل كلمة فى الهندية الأوربية كانت محددة تحديداً تاماً أو مايقرب من التام بجرس حركة الأصل . وكذلك الحال فى السامية ، كما تعطينا عنها العربية هذه الفكرة حتى يومنا هذا : حمار جمعها حمير[1] . وهذا على درجة من الحياة فى العربية جعلتها تطبقه على كلمات مستعارة منذ تاريخ حديث من الأسبانية أو الفرنسية : رسيبو resibo « إيصال » والجمع رواسيب ؛ بابور والجمع بوابير ؛ شمبيت « حارس ريفى » ، والجمع شوَمْبيت .. الخ . وهذا ما يسمى بجمع « التكسير » أو الجمع « الداخلى » .

ويشير المصطلح « إعراب داخلى » بوضوح إلى أن تبادل الحركة يلعب نفس الدور الذى يلعبه العنصر الإعرابى الذى يمكن أن يضاف للكلمة . والواقع أن علامة الجمع فى الأسماء تكون فى الإنجليزية والغالية على وجه العموم بإضافة لاصقة

(١) بركلمان ، رقم ١٤٨ ، مجلد ١ ، ص ٤٣١ .

خاصة : فى الانجليزية boot « حذاء » وجمعها boots ؛ loss « خسارة » وجمعها losses ؛ وفى الغالية penn « رأس » وجمعها « pennau » وcoed « خشب » والجمع coedydd ، الخ . وفى العربية تجمع الكلمات المؤنثة كلها بإضافة زائدة . كذلك فى الألمانية يختلف الماضى غير التام عن الحاضر باستعمال لاحقة ، هى « ت » . Ich rede « أتكلم » والماضى غير التام Ich redte (كنت أتكلم) Ich lebe « أحيا » والماضى غيرالتام ، ich lebte (كنت أحيا) الخ. بمقارنة هذه الأمثلة بالأمثلة السابقة نرى أن تبادل الحركات واللواحق نوعان متساويان من دوال النسبة .

النبر أيضاً من دوال النسبة الهامة جداً ، فهو يشترك فى بعض اللغات فى تحديد القيمة الصرفية للكلمات . ونقصد بالنبر هنا نبر الارتفاع أى التنغمة . فالنغمة فى الإغريقية والسنسكريتية عنصر يميز الكلمة بقدر ما تميزها اللاحقة أو اللاصقة . وشهادة هاتين اللغتين تزكيها لغات أخرى من نفس الأسرة كالسلافية واللتوانية . فبعض الصيغ المتماثلة كل التماثل لا تتميز بعضها عن بعض فى الغالب إلا بالنغمة : إذ أن النغمة هى التى تعطى γράφειν « أن يكتب » قيمة الحاضر ؛ والنغمة هى التى تميز ταμεῖν « قَطْع » من τόμος « قاطِعٌ » ؛ وهى وحدها أيضاً التى تكون الفرق بين المبنى للمعلوم والمبنى للمجهول فى الأفعال الإغريقية المركبة. د.ر النغمة هذا يلفت نظرنا إلى أن اللغات الهندية الأوربية كانت ، لثرائها بنظامها الصرفى ، تملك وسائل شتى للتعبير عن الروابط التى بين الكلمات وعن دور الكلمات فى الجملة .

نفهم أن النغمة تلعب دوراً أخطر فى لغات الشرق الأقصى حيث العناصر النحوية قليلة العدد . فهذه اللغات استغلت مرونة النغمات التى تحتملها أصواتها ، واتساعها وتنوعها للغايات الصرفية خير استغلال[1] . وتوجد هذه الظاهرة نفسها فى بعض اللغات الإفريقية[2] ففى اللغة الفهلية يعبر التنغيم عن النفى[3] : مجموعة

---

(١) انظر عن الألمانية جراموت ، رقم ٦ مجلد ١٦ ، ص ٧٥ .

(٢) الدكتور وسترمان Westermann ، رقم ٢٢١ ، ص ٣٧ وما يليها.

(٣) اللغة الفهلية هى لغة قوم من البربر اختلطوا بالعرب والزنوج ، ويقيمون الآن فى إفريقية الغربية الفرنسية . المعربان

مثل : مِىْ وَرَتَ mi warata معناها « سأقتل » (أو «أقتل» فى الحاضر الدال على العادة) إذا نطقت الفتحة النهائية بنفس النغمة التى لباقى الجملة ؛ ويصير معناها « لن أقتــل » إذا نطقت الفتحة النهائية بنغمة أعلى . فارتفاع الصوت له إذن من القيمة ما لدالّة النسبة .

من النغمات المختلفة ذات القيمة الصرفية ، نغمة لها أهمية فى بعض اللغات ، وهى نغمة الصفر ، أى عدم وجود النغمة . فى السنسكريتية مثلا يكون الفعـل منغّما أو غير منغم تبعاً لبعض شروط الاستعمال فى الجملة . ولـكنه بالطبـع فى استعمالاته المختلفة يتميز تميزاً واضحاً بغياب النغمة كما يتميز بوجودها .

وهذا يؤدى بنا إلى أن نضيف إلى دوالّ النســبة المشار إليها فيما سبق نوعاً من هذه الدوال أكثر من غيرها دقة ولـكنها ليست أقل منها تعبيرا ، ونعنى تلك التى يصح أن نطلق عليها دوال النسبة الصفرية . فى الميـدان الصرفى تلعب درجة الصفر دوراً هاماً . والقيمة التى تملـكها هى قيمة تقابل على وجه الخصوص ؛ ولـكن ذلك لا ينقص من خطرها . فـكثيراً ما يكون للصمت فى الموسيقى من التعبير ما للميلودية التى يعترض طريقها ويقطع تدرجها ؛ وفى الحديث لحظات من الصمت البليغ . فى اللغة تعتبر دالّة النسبة الصفرية دالة نسبة كغيرها من دوال النسبة . فقد كان فى الهنــدية الأوربية بعض الأسماء التى لا يحمل مرفوعها أية لاصقة مميزة ؛ أى أنها كانت تحمل فى هذه الحالة لاصقة الصفر . فعدم وجود اللاصقة يكفى ، فى مقابلة اللواصق المتنوعة التى تتمتع بها الحالات الأخرى ، لتمييز المرفوعات التى نحن بصــددها . بل إن هناك حالة من حالات الإعراب فى الهندية الأوربية تتميز دائماً بتلك الصورة فى الفترة القــديمة على الأقل : ألا وهى حالة المنادى . وتقابلنا هذه الخاصة أيضاً فى صيغة فعلية قريبة من المنادى ، وهى صيغة الشخص الثانى المفرد فى حالة الأمر . فدرجة الصفر تلعب دوراً لا يقلّ عن دور غيرها فى تبادل الحركات فى اللغات الهندية الأوربية والسامية .

وأخيراً نصل إلى فصيلة أخرى من دوال النسبة أقل تشخصاً أيضاً من السابقة وتتكون فقط من المكان الذى تحتله فى الجملة كل واحدة من دوالّ الماهية .

إذا قلنا باللاتينية regis domus « بيت الملك » . كانت علاقة الإضافة التى تجمع بين هاتين الكلمتين معبّراً عنها بالصيغة الإعرابية ؛ فاللواحق تشير إلى الدور الذى تلعبه كل كلمة من هاتين الكلمتين بالنسبة للأخرى . أما فى العبارة الفرنسية la maison du roi « البيت [بتاع] الملك » ، فإن المنصرين الصغيرين la «أل» و du « بتاع أل » يقومان بنفس الوظيفة التى تقوم بها اللواصق فى اللاتينيــة . وفضلا على هذا الاختلاف يوجد اختلاف آخر بين اللاتينية والفرنسية ينحصر فى أن ترتيب الكلمات فى الأولى أكثر حرية منه فى الثانية : فيمكننا أن نقول دون تفريق regis domus «الملكِ بيتُ» أو domus regis « بيتُ الملكِ » . أما فى الفرنسية فلا يكاد يسمح بالقلب على هذا النحو ، du roi la maison « [بتاع] الملك البيت » إلا فى الشعر . ومع ذلك فإن ظهر هذا القلب غريباً بعض الشىء ، فإنه لا يصدم الحس وتبقى العلاقة بين الكلمتين مفهومة . على العكس من ذلك توجد لغات لا يعبّر فيها عن هذه العلاقة إلا بمكان كل من الكلمتين بالنسبة للأخرى ؛ فيقال فى الغالية مثلا ti brenhin (من ti ، تى « منزل » و brenhin برنهين « ملك ») مع وضع المالك دائماً بعد الشىء المملوك ، ويقال فى الصينية wang tien (من wang وَنج « ملك » و tien « بيت » مع وضع الشىء المملوك قبل المالك على عكس المثل السابق . وفى كلتا هاتين اللغتين لا يعبّر عن علاقة التبعية بأية علامة خارجية ؛ ولا يشار إليها إلا بترتيب وضع الكلمات الذى يجب لذلك بالطبع أن يكون ثابتا لا يعتريه تغيير . فاللغات التى فقدت إعراب الحالات على وجه عام ؛ استعاضت فى تأدية العلاقات التى كان يعبر عنها بالإعراب إما بكلمات مساعدة (حروف جر ، أدوات .. الخ) وإما بوضع كل كلمة بالنسبة للكلمات الأخرى (١) .

إذا قلنا فى الفرنسية Pierre frappe Paul « پيير يضرب پول » كانت دالة النسبة الوحيدة المعبر عنها صوتياً هنا هى الصفر : فالصيغة الفعلية frappe فْراپ « يضرب » تنفرد فى الواقع بعدم وجود اللاصقة ، وبذا تتميز عن الصيغ

(١) عن الإيرانية أنظر جوتيو Gauthiot رقم ١٠٠ ، ص ١١٣ — ١١٤ .

الفعلية الأخرى مثل frappons فرْپُن « لنضرب » و frappez فرّپيه « اضربوا أو تضربون » و frappera فرّپرا « سيضرب » و frappant فرّپن « ضارب » الخ . فعدم وجود اللاصقة هو الذى يبيّن هنا أن لدينا فعلا إخباريا حاضراً مسنداً إلى الشخص الثالث المفرد . ولكن نسبة الفاعل إلى الفعل والفعل إلى المفعول لا تدل عليها علامة خارجية : وذلك ما يميز الفرنسية عن اللاتينية حيث نرى اللاصقتين us « أُس » « علامة الرفع » وum « أُم » « علامة النصب » فى جملة Petros caedit Paulum تكشفان عن الدور الذى يلعبه الاسمان فى الجملة ، دالتين على أيهما الفاعل وأيهما المفعول . أما القرينة الوحيدة التى تقدمها الفرنسية فهى فى ترتيب الكلمات : فترتيب الكلمات هنا دالة من دوال النسبة . لذلك يمكننا أن نغير فى اللاتينية وضع كل كلمة من الكلمات الثلاث كما نشاء دون أن نمس وضوح الكلمة بأدنى ضرر ، أما فى الفرنسية فيستحيل أن نمس نظام الكلمات دون أن نغيّر المعنى ؛ فلو قلنا فى الفرنسية Paul frappe Peirre « پول يضرب پيير » بدلا من Peirre frappe Paul « پيير يضرب پول » لارتكبنا نفس الغلطة التى نرتكبها فى اللاتينية لو أخطأنا فى استعمال الإعراب فقلنا : Paulus caedit Petrom « پولصُ يضرب بطرسَ » بدلا من Paulum caedit Petrus « پولصَ يضرب بطرسُ » .

* * *

بعد أن عرفنا الفصائل الثلاث الأساسية من دوال النسبة ، يجدر بنا أن نبحث مسلك هذه الدوال بالنسبة لدوال الماهية .

يتركب العنصران فى بعض اللغات بشكل يجعل كل كلمة تتضمن التعبير عن قيمتها المعنوية ، وعن دورها الصرفى فى آن واحد . وكانت السامية والهندية الأوربية لغات من هذا القبيل . فكلمة مثلا كالكلمة الإغريقية ἔδωκε فيها شىء يعد كاملا ونهائيا : دالة الماهية ممثلة فيما يسمى الأرومة ، وهى هنا -δω- التى تعبر عن فكرة الإعطاء ؛ وعناصر الكلمة الأخرى تدلنا على أن هذه الفكرة ترجع إلى الماضى وأن لها فاعلا مفرداً : « أعطى » . وكل واحد من عناصر

الـكلمة ليس له وجود مستقل : لا الأصل الذى سبق ولا اللاحقة ٪ ولا اللاصقة ٤ ولا الزائدة ٤ كلها لا توجد خارج ذلك التركيب أو التراكيب المماثلة له . فهى قطع تغيير لا أكثر ، إذ أننا نستطيع تنويع الأصل واللاحقة والزائدة على السواء . ولـكن الذى يعطى للـكلمة وحدتها وتآلفها رغم تعقد عناصرها ، إنما هو كون كل واحد من هذه العناصر له ترتيب ثابت لا يقبل التغيير : فهى تمسك بعضها بعضا وتقوى بعضها بعضا ، وتظهر للعقل فى طابع تصوّر واحد ، هو الطابع الذى نراه فى الفرنسية فى « Il a donné » « هو أعطى » بما فى ذلك من تعبير عن الزمن والعدد .

وتصريف الفعل فى السامية يقدم لنا أمثلة مشابهة . فما دمنا قد تحققنا من السواكن الثلاثة الأصلية فى كل الصيغ المشتقة من أصل واحد ، لم يبق علينا إلا النظر فى اختلاف الحركات واللواصق والعلامات . فالصيغة العربية قتل صيغة واحدة كما رأينا فى الإغريقية تماما ؛ إذ أنها تشتمل على دالة ماهية ، هى الأصل ق ت ل ، ودوال نسبة تميز صيغة قَتَل عن جميع الصيغ المأخوذة من نفس الأصل : قاتل وتقاتلا ومقتول واقتل ويقتل وقاتل الخ . يزيد على ذلك أن تصريف الفعل فى السامية يعبر عن الجنس أيضاً : فقاتلتَ للمذكر فى مقابلة قاتلتِ للمؤنثة ؛ وفى الشخص الثالث أيضاً مثل قتل فى مقابلة قَتَلَت .

تركّب اللغات الهندية الأوربية والسامية نوعين من دوال النسبة كما رأينا : تبادل الحركة والالصاق ، ولـكن بدرجات مختلفة . فتبادل الحركة يلعب فى السامية دوراً أوسع مما فى الهندية الأوربية . « فخاصة هذه اللغات فى تمييزها بالسواكن عن أساس الفـكرة وعن تفرعاتها الثانوية بالحركات يجعلنا فى حل من القول بأن التصريف فى هذه اللغة يقع داخل الـكلمات [1] » . « الأصل فى العربية لا يتميز إلا بسواكنه ؛ أما عن الحركات فـكل ساكن من سواكن الأصل يمكن أن يتبع بالفتحة القصيرة أو الطويلة أو بالـكسرة القصيرة أو الطويلة أو بالضمة القصيرة أو الطويلة أو بالصفر ، فعندنا سبع صور . وكل واحدة من هـذه الصور السبع تستخـدم للدلالة على الوظيفة النحوية [2] » . وذلك يسمح للغات السامية بصياغة

(١) رينان : رقم ١١١ . (٢) مييه : رقم ٩٤ ، الطبعة الرابعة ، ص ٢٣٣ .

عدد من الكلمات المشتقة دون حاجة إلى لواصق : ففي العربيـة كَتَب وكاتب وكتاب . . . الخ .

توليد الكلمات على هذا النحو فى الهندية الأوربيـة لا يقع دون التجاء إلى لواحق . ولكن من أثر تبادل الحركات فى الهندية الأوربية والسامية كلتيهما ، أن تعطى قيمة خاصة لما يسمّى الأصل بتخليصه من شبكة اللواصق إذا أردنا أن نركز عليه أعلى درجة من التعبيرية ، إن صح لنا هذا التعبير . الأصل حقيقـة حساسة بالنسبة للمتكلم من جهة أنه ينتظم حالات مختلفة من الحركات ، كل حالة منها تقابل استعمالا مختلفاً . وحقيقه الأصل ترجع إلى قبوله للتنوع ، ومبدأ التبادل يجعل هذه العناصر تلعب دور التمارض . وهو لعب فى غاية اللطف والدقة اعتادته عقـول الساميين والهنديين الأوربيين .

ينبغى ألا نخلط بين الأرومة « racine » والأصل radical . فى الفرنسية نستطيع بعـد التحليل أن نعثر على العناصر Part, aim, recev فى المصادر recevoir, partir, aimer ؛ ولـكن هذه العناصر ليست إلا كائنات نحوية وليس لها وجود حقيقى فى شعورالمتكلم . ويسميها النحويون الفرنسيون«أصولا». وفى الألمانية تُدخل قاعدة تبادل الحركات فى الأصول قيمة أوضح : فالتقابل الذى بين geben « أن يعطى » و gab « أعطى » أو بين nehmen « أن يأخذ » و nahm « أخذ » وgenommen « مأخوذ » يمكن إلى حد ما أن يعطينا فكرة عن عنصر بعينه يتميز بالساكنين g . b « ج . ب » أو n . m « ن . م » وفى داخله تتبادل بعض الحركات تبعاً للمعنى الذى يراد التعبير عنه . أما عن الأرومة فيجب فى اللغات الهندية الأوربية الصعود حتى الإغريقية القديمة وحتى السنسكريتية على وجه خاص لنكون على بيّنة منها .

ومع ذلك فالهندية الأوربية بل والسامية تضيف عادة إلى التبادل فى الحركات استعمال لواصق (لواحق أو علامات) . ومن النادر جداً فى الهندية الأوربية أن يكون تبادل الحركات وحده هو المميز للكلمة . وإذا وقع ذلك فإن على العالم اللغوى أن يسلم بأن الكلمة مزودة باللاحقة الصفرية . فالأرومة فى الهندية

الأوربية إذن ، رغم مالها من أهمية صرفية عظيمة ، ليس لها وجود مستقل ؛ فلا شيء غير الموافقة ، الموافقة القائمة على نوع من التحليل للحقائق الذى كثيراً ما يكون تحكمياً ، هذه الموافقة هى التى عودت النحويين الهنود تحليل كلماتهم ليكتشفوا فيها أرومات حتى لنرى القواميس السنسكريتية ترجع الصيغ الفعلية إلى صورة مثالية تسمى الأرومة وتفترض أن جميع الصيغ قد خرجت منها بواسطة اللواحق .

واللاحقة أيضاً ليس لها وجود مستقل ، وإنما تستمد كيانها جميعه كالأرومة من تبادل الحركات ومن المعنى الذى يسند إليها ، وهو معنى محدّد فى غالب الأحيان . نرى تبادل الأصوات فى كلمة عربية مثل كاتبٌ وكاتبون يحدد معنى اللاحقة (ـُـ و ن فى كاتبون) فى جميع الحالات التى يُمَثَّل فيها .

أما العلامات فيمكن مقارنتها باللواحق من كل وجه ؛ فهى أيضاً عناصر تُضم إلى الأرومة . ولا يمكن تمييزها عن اللواحق إلا بالاستعمال ، فاللاحقة تشير إلى النوع العام الذى تنتسب إليه الكلمة (اسم فاعل ، مصدر ، اسم آلة ، مكبّر ، مصغر . . . الخ) بينما تشير العلامة إلى مجرد الدور الذى تلعبه الكلمة فى الجملة . فالعلامات تقوم بدور مخالف لدور اللواحق ؛ ولكنها جميعاً ، من جهة بناء الكلمة ، دوالّ نسبة من طبيعة واحدة فى الهندية الأوربية والسامية على السواء .

اللواحق والعلامات تضاف إلى الأرومة ، ذلك هو المسلك المعتاد فى تركيب الكلمات فى الهندية الأوربية ؛ ولكنه ليس المسلك الوحيد . فالزائدة التى توضع قبل الأصل يمكن أن تعتبر استثناء من ذلك : فى الفعل λύω، ἔλυσα ، تشير الزائدة ε إلى الماضى كما تشير λύσω إلى المستقبل تماماً .

ولا ينبغى لنا أن ندهش إذا قابلنا لغات أخرى يجرى فيها التغيير من الأمام على على عكس الهندية الأوربية . فالفرنسية مثلا تعطينا فكرة ما بجمعها الذى يعبر عنه ، فى الكلمات التى تبدأ بحركة ، بصوت صفيرى يضاف من الأمام : (آربر) arbre « شجرة » ، والجمع ز ــ آربر z - arbres « شجر » ؛ homme (أمّ) «رجل» ، z - hommes (ز ــ مّ) «رجال» ، oie (وَا) « وزّة» z - oies « ز ــ وَا » « وَزّ » . واللغة الدارجة تقدم لنا مثالا غريباً للتوسع فى هذا

الاتجاه وذلك فى الفعل zyeuter (يلتهم بعينه) « زيـيتيه» المأخوذ من z-yeux « عيون» جمع œil (أى) « عين ».. ويقال فى بعض لهجات اللورين zous et zelles (زوس إى زل) بدلا من eux et elles « هم وهن » و zout « زوت » (إليهم) (قياساً على no vout)[1] .

ولـكنها فى الفرنسية حالة استثنائية معدومة الأثر . وهناك على العكس من ذلك لغات سامية كاللغة العربية تملك نظاماً حقيقياً من التغيـير الذى يضاف إلى أول الـكلمة . وهكذا نرى الأشخاص فى أحد الزمنين اللذين يصرف إليهما الفعل فى العربية ، وهو المضارع ، يشار إليهم بلاصقة تضاف إلى أول الـكلمة :

الشخص الأول المفرد	أقتـل	الجمع	نقتـل		
الشخص الثانى المذكر المفرد	تقتل	«	تقتلون	المثنى	تقتلان
الشخص الثانى المؤنث المفرد	تقتلين	«	تقتلن		
الشخص الثالث المذكر المفرد	يقتل	«	يقتلون	المثنى	يقتلان
الشخص الثالث المؤنث المفرد	تقتل	«	يقتـلن	المثنى	تقتلان

ونجد كذلك فى الجرجية ، وهى من عائلة غير العائلة السامية ، أمثلة لافتـة للنظر للتغيير الواقع فى أول الـكلمة . نستنبط من هذا أن مسلك الإلصاق ينحصر فى إضافة عناصر صرفية إلى الأصل توضع تارة فى رأس الـكلمة وتارة فى ذيلها دون تفريق .

* * *

وفى مقابلة اللغات التى من قبيل الهندية الأوربية والسامية التى فيها تقدم لنا الـكلمة المـكونة من الأصل واللواصق كلاً كاملا قائماً بذاته ، نجد سلسلة أخرى من اللغات فيها دوال النسبة مستقلة عن دوال الماهية استقلالا قد يكون كبيراً وقد يكون ضئيلا . وأوضح أمثلة هذا النوع تلك اللغات التى تميز بين طائفتين من الـكلمات ، طائفة الـكلمات الفارغة وطائفة الـكلمات المليئة — على حد تعبير

---

(١) ا. رولان E.Rolland ، رقم ٨ ، مجلد ٥ ، ص ١٠٥ .

المصطلحات الصينية . فالكلمات المليئة هى دوالّ الماهية والكلمات الفارغة دوال النسبة . والكلمات الفارغة لا تنبر إطلاقا . فكلمة ti تى التى تشير إلى الإضافة كلمة فارغة : wo tieul — tseu وَوُ تى أُول تْسِى « ابنى » وكلمة وو « أنا » أوعلى الأصح ياء المتكلم، وأول — تسي « ابن » . و« تى » تلعب نفس الدور الذى يلعبه فى الفرنسية الحرف de أو s' فى الإنجليزية ؛ بل إنها تستخدم أيضاً فى الإشارة إلى تعلق جملة بجملة ، وفى هــذه الحال تكون مساوية لحرف الوصل . وليست الكلمات الفارغة فى غالب الأحيان إلا صيغاً متخصصة (وغير منغّمة) من الكلمات المليئة . فالكلمتان المليئتان تسى و أول ، ومعناهما معاً « ابن » تضمان بوصفهما كلتين فارغتين وتفقدان معناهما فقداناً تاماً : فكلمة men مَن « باب » وكلمة tao تاوو « سكين » تصيران بعد إضافة اللاصقة الاسمية : أول أو تسو ، men - eul (وتنطق mòl مُول) أو tao - tseu (وتنطق تاوَوزَه taoze) . والفعل leao « يتمّ » لياوُ يستعمل بوصفه كلمة فارغة (فى صورة la لا) للتعبير عن الماضى : فعبارة lai la ومعناها الحرفىّ « مجىء إتمام » « مصدر » تعبر عن « جىء » ؛ ويمكن تركيب صيغتين من كلمة واحدة ، مرة تكون مليئة ومرة أخرى تكون فارغة : leao la لياوُ لا « أُتِمّ » .

وليس معنى هذا أننا لا نقابل فى اللغات الهندية الأوربية أمثلة ممتازة للكلمات الفارغة . فالكلمة السنسكريتية iti إِتِى التى تشير إلى اقتباس كلمات متكلم بنصها ليست إلا كلمة فارغة . كذلك كلمة ἄν فى الإغريقية القديمة وكلمة θά أو ἄς فى الإغريقية الحديثة (انظر ص ٦٩) . ومن المستحيل ترجمة هذه الكلمات فى قاموس ؛ إذ ليس لها معنى مشخص ، بل هى عوامل تقويم أو أسس أو قيم خبرية أكثر منها كلمات . ومن ثمّ لم تكن توجد منعزلة ؛ أو تأخذ معناها إلا إذا وُصلت بعنصر لغوى آخر فتكوّن منه كلاً يظهر للعقل كأنه وحدة ؛ و ἄν الإغريقية لا معنى لها إذا كانت وحدها ؛ ولكن ἀνέποιεί, ἄνποιῇ لها فى الإغريقية معناها المحدد . والفرنسية مثلا فيها كلمات فارغة هى حروف الجر . فن المستحيل أن تترجم الحرف الفرنسى à آ بحرف واحد بعينه من الألمانية ؛ à peid

« على القَدم » (فى الألمانية zu Fuss) ، ! à Berlin « إلى برلين » (فى الألمانية nach Berlin !) ، à la côte « على الشاطئ » (فى الألمانية an der Küste)، à l' étroit « فى ضيق » (فى الألمانية in der Enge) ، à regret « أو بالأسف » (فى الألمانية mit Bedauern) ، à mes frais « على نفقتى » (فى الألمانية auf meine Kasten) ، à part « إلى جانب » (فى الألمانية bei Seite) ، à six heures « فى الساعة السادسة » (فى الألمانية umsechs Uhr) ، الخ . وأفعالنا المساعدة être « فعل الكون » و avoir « فعل الملك » ليست إلا كلمات فارغة ، مثلها فى ذلك مثل الأفعال المساعدة الإنجليزية to do « فعل الفعل المطلق » و to will, to chall ؛ كذلك فى الدنمركية المساعد mon (مُن) الذى بعد أن كان فى وقت ما يعبر عن فكرة الاستقبال فى شىء من الغموض ، صار يصحب الفعل مجرد صحبة ، ولا سيما فى حالة الاستفهام حتى قيل بأن mon أصبح الآن أداة استفهام أكثر منه فعلا : ? mon han kommer ، مُن هَن كومر ؟ « هل سيأتى ؟ » بمعنى « لو يعرف أنه سيأتى ! » .

مع أن اللغات الهندية الأوربية قد خلقت لها على هذا النحو كلمات فارغة ، فإن الذى يميز الكلمة الهندية الأوربية بوجه عام وكذلك الكلمة السامية إنما هى وحدتها : ففيهما دوال النسبة ودوال الماهية متصلة بعضها ببعض بصورة لا تقبل الانفصام . وعلى العكس من ذلك توجد لغات فيها العروة التى تجمع بين دالّة النسبة ودالّة الماهية مخلخلة إن قليلا وإن كثيراً .

ومع أن مكان الكلمة الفارغة فى الصينية محدد بصورة مطلقة وأنه لا يستطاع نقل الكلمة الفارغة فيها من مكانها بأكثر مما يستطاع ذلك فى الفرنسية أو الانجليزية ، فإن للكلمة الفارغة فيها مع ذلك شيئا من الاستقلال ، أولا من قبل أنه يمكننا إسقاطها ، إذ يمكن أن نقول على السواء مَن men أو men - cul مول « باب » ، وثانيا من قبل أنه يمكننا — على عكس الحالة السابقة — تكرارها فى بعض الأحيان لإبراز الفكرة التى تعبر عنها وذلك بفصلها عن الكلمة التى تتصل بها : leao la che la ، لِيَاو لا تشه لا « قد انتهى الشىء » .

ولعل اتصال دوال النسبة بدوال الماهية على أقل ما يكون إحكاما فى اللغات الفنلندية الأوجرية واللغات التركية التترية . فنى بعض الحالات فى اللغة المجرية إذا كان هناك سلسلة متتابعة من الكلمات المتفقة فيما بينها والتى تلعب دورا واحداً فى الجملة ، لا يوضع دال النسبة إلا مرة واحدة فى نهاية الكلمة الأخيرة فيقال (a jò ember nek آ يو آمبر نك) للرجل الطيب ، بدلا من az - nak jo - nak ember - nek) « آز — نك — يو — نك إمبرنك » و a nagy varos - ban آ نجى قارس بن » فى المدينة الكبيرة [١] ، وفى التركية تحشر علامة الجمع - lar - لر فى داخل كلة مثل Kizlari (بناته) ، حيث توضع بين دال الماهية kiz كز » ابنة » ولاحقة الملكية i = ى) kizi » ابنته » بالمفرد [٢]) .

وفى التركية أيضاً نجد ارتباط العنصرين مخلخلا إلى حد يجعل نظام دوال النسبة غير ثابت . فمثلا لا نستطيع أن نقول فى الفرنسية nous avons le vu » نحن رأى ه نا » بدلا من nous l'avons vu » نحن رأيناه » ولا j'aime te ne pas » أحب لك لا » بدلا من Je ne t'aime pas « لا أحبك » . بينما يقال فى التركية دون تفريق : sevmishlerdir « أحبوا » أو ؛ sevez ek lerdir » كانوا sevezekdirler ; seviyorlar idi أو «سيحبون» sevmishdirler, يحبون » أو seviyor idiler ؛ و sevdim idi « كنت قد أحببت » أو sevsem idi : sevdi shdim « لو أحببت » أو « sevse idim ».

يمكن لكل واحدة من هذه المجموعات أن تحلل وتفرق عناصرها ؛ فالأرومة لها مكانها الثابت فى رأس الكلمة ، أما باقى العناصر التى تعبر عن الزمان والشخص والعدد فعلى جانب من الاستقلال بالنسبة للأصل وبالنسبة للعناصر المجاورة ، لذلك يمكن أن توزع داخل الكلمة فى شىء من الحرية . وليس لها على وجه العموم أى

---

(١) شليشر Schleicher و ف . تمسن V. Thomsen فى اقتباس عنهما لجسبرسن رقم ١٣٤ ، ص ٣٧ .

(٢) جوتيو : رقم ٧٣ ، ص ٣١ — ٣٢ .

وجود مستقل ؛ فالعنصر لار (lar (ler لا يستعمل منفرداً كما لا تستعمل العلامات الإغريقية واللاتينية منفردة . ولكن ارتباطه بدالة الماهية أكثر تخلخلا من من ارتباط العلامة الإغريقية بالعنصر المقابل . فالعنصر dir هو الشخص الثانى المفرد من فعل الكينونة ؛ وإذا ما أريد بناء الجمع المقابل منه أضيف إليه ler . ولكن قبول هذين العنصرين لتبادل الوضع كان بيّنا فى العثمانية الفصيحة القديمة حتى عند استعمالها فى دورها الأصيل ، يعنى فى التعبير عن جمع الشخص الثالث من فعل الكينونة .

* * *

يكثر عدد استعمال دوال النسبة أو يقلّ باختلاف اللغات . فالتركية كما رأينا تنقل هذه الدالة أو تلك من مكان إلى مكان دون ضرر ، ولكنها لا تكررها أكثر من مرة : فهى تقول دو تفريق seviyor - idiler أو seviyorlar idi ولكنها لا تركب العبارتين قط لتقول seviyorlar idiler. وعلى العكس من ذلك فإن مسلك التكرار ، هذا الذى ذكرنا سابقاً أنه موجود فى الصينية ، مسلك محبب فى بعض اللغات كما فى مجموعة لغات البنتو « Bantou » التى فيها كل فصيلة نحوية يقابلها مَعْلَم يذكر مع كل كلمة مهما كان عدد الكلمات . فجملة مثل « البنات يمشين » تقال فى السوبية با — كازانا — با إندا ba - kazana ba - enda أو b - o ba-kazana ba enda با — أ با — كازانا با — إندا ، وبا ba هى معلم الشخص فى حالة الجمع ؛ « والرجل الجميل » يقال mu - ntu - mu - lotu مؤ نتو مو لتو ، mu معلم الأشخاص فى حالة الإفراد . ويوجد فى البنتو من هذا القبيل سبعة عشر معلما ؛ ويصل عددها إلى ثلاثة وعشرين فى بعض اللهجات .

والسوابق فى البنتية يقابلها : لواحق فى الفهلية وفى مجموعة اللغات الغربية فى إفريقية ، التى تسمى مجموعة اللغات الثلثية . ويوجد من ذلك فى الفهلية إحدى وعشرون فصيلة منها أربع للجمع . فمن الأرومة لام lam التى تعبر عن فكرة الرئاسة يمكن أن يشتق ما يلى : لام دو lam do (فصيلة الضمير أُ o) « رئيس » ولام — أو lam-u (فصيلة الضمير نجو ngu) « مُلك ، لام

— دِ ه lam-de (فصيلة الضمير نْده) « nde » « رياسة أو قيادة » ولام — بِهَ lam-be (فصيلة الضمير بـ) « ملوك ، رؤساء » الخ . ولا توجد الأرومات منعزلة فى هذه المجموعة من اللغات ، بل تكون دائماً مصحوبة بما يدل على الفصيلة . وهذا الدال على الفصيلة يتكرر فى كل عنصر من عناصر الجملة : debb-o-dan-e - dyo e دِبّ — أو دن — إِى دْيَو إِه « هذه المرأة البيضاء » rew - be ran -é ·· be be رِوْ — بِهَ رن — اِى — بِهَ بِهَ « هؤلاء النساء البيض » الخ.

قواعد الصرف فى هذا النوع من اللغات مختلطة اختلاطاً دقيقاً ؛ ولا يمكن تمييز دوالّ النسبة فيها إلا بنوع من التحليل فى غاية الدقة فيه يُشرَّح الجملة تشريحاً تاماً ويفتتها حتى تفقد معالمها فى نهاية الأمر .

يضادّ ذلك على خط مستقيم بعض اللغات الأمريكية التى تدرك دوال النسبة على انفصال وتذكرها منفصلة . فهناك تجمع مقدماً ، وفى مبدأ الجملة ، جميع الدلائل الصرفية فكأنهم يبدأون على نحو ما بملخص جبرى للفكرة ، فيه كل شىء ما عدا التصورات التى لا تأتى إلا تالية . فلأجل أن يقال : الرجل قتل المرأة بسكين ، تصير الجملة على هذا النحو : هو هى هذا بـ || قتل رجل امرأة سكين (لغة الشنوك [(١)]) .

فكل ما تقدم الخطين الرأسيين إنما يشتمل على دلائل نحوية ، أى دوال نسبة ؛ أما دوال الماهية فلا تذكر إلا بعد .

لا ينبغى أن ندهش من بنية على هذا النحو من الغرابة . فلغة الكلام فى الفرنسية فيها حالات من التركيب تقرب من تلك الحالات كل القرب . فنحن نسمع من الشعب : Elle n'ya encore pas || voyagé , la cousine , en Afrique « هى لم فيها بعد || تسافر قريبتك إلى إفريقية » أو Il l'a - ti jamais || attrapé le gendarme , son voleur ? « هو ألَمْ إطلاقا || يمسك الشرطى سارقه ؟ » فكل ما هو سابق على الخطين الرأسيين لا يشتمل أيضاً إلا على دوال نسبة : إشارات إلى الفاعل أو إلى المفعول (مباشراً كان أو غير مباشر)

---

(١) عن بواس Boas : رقم ١٣٠ ، المقدمة ، ص ٣٨ .

أو إلى النوع أو إلى العدد أو إلى الزمن أو إلى صفة الجملة أهى استفهام ، أم نفى : فلدينا هنا ، وقبل أن نعرف عمن وعماذا يدور الأمر ، جميع العناصر النحوية للجملة . فلا يبقى إلا تعيين الأشخاص والحدث الذى ساهموا فيه ، وبالاختصار الوقائع والفاعلين ؛ وهكذا توضع المعانى التجريدية فى رأس الجملة والمشخصات فى ذيلها .

* * *

تنوع الإجراءات الصرفية يجعل تعريف الكلمة يتنوع على حسب اللغات .

وإذا كانت هناك لغات يسهل فيها تحديد الكلمة كوحدة لا تتجزأ فهناك لغات أخرى تذوب فيها الكلمة على نحو ما فى جسم الجملة ولا يمكن تحديدها حقاً إلا بشرط أن تدمج فيها كتلة من العناصر المتنوعة . ففى الجملة الفرنسية je ne l'ai pas vu ، يوجد بالتحليل سبع كلمات مختلفة على رأى النحو الجارى ؛ والحقيقة أن ليس هناك إلا كلمة واحدة ولكنها كلمة معقدة مكونة من عدد من دوال النسبة وقد اشتبك بعضها ببعض ، وليس لها وجود مستقل ؛ وإنما قيمتها فى أنها لدى العقل قابلة للتبادل ولأن يحل بعضها محل البعض على حسب الحاجة مادام فى الإمكان أن يقال Je ne t' ai pas vu « لم أرك » ، tu ne m' avais pas vu « كنت لم ترنى » nous ne vous aurons pas vu « سنكون لم نركم بعد » الخ ، مع تنويع عناصر الإبدال فى الكلمة على حسب الإرادة . مما لا ريب فيه أنه لا ينبغى لنا أن نسقط من حسابنا ما بين هذه العناصر من فروق نسبية : فالضمائر je « ضمير الشخص الأول فى حالة الدفع » و me « الشخص الأول فى حالة النصب » و tu « الشخص الثانى فى حالة الرفع » ، و te « الثانى فى حالة النصب » و le « الثالث المذكر فى حالة النصب ما هى إلا مجرد دوال نسبة محرومة من كل وجود ذاتى ؛ ولا تستعمل منفصلة إطلاقاً . فال je لا توجد إلا فى تراكيب من مثل je parle « أتكلم » ، حيث je تقابل الهمزة » و je cours « أجرى » ولا تستعمل me إلا فى مثل Je me dis « حرفياً : أقول لى » tu me frappes « تضربنى » فلو لم يكن فى الإمكان وضع بعض العناصر بين الضمير والفعل

(Je dis «أقول» ، Je le dis «أقوله» ، Je ne le dis pas «لا أقوله» لأمكاننا اعتبار Je فى je dis كالنهاية اللاتينيـة O « أُ » فى قوله dic - o « أقول » وتصورنا أن الفرنسية فيها تصريف فى مبدأ الـكلمة: Je dis «أقول» tu dis « تقول » ، il dit (وتنطق idi إيدى) « يقول » ولـكننا لم نصل إلى هذا الحد ، وإن كنا نلاحظ أن ضمير الفاعل لا يزداد منذ عدة قرون إلا ميلا إلى اللصوق بفعله . فلن نستطيع اليـوم أن نقول كما قال رَبليه Rabelais : قال پكروشول « Je dit Picrochole, je les prendrai à merci » : سأضعهم تحت رحمتى (مع وضع عبارة قال پـكروشول بين الفاعل وفعله) . على العكس من ذلك اللغة العامية فـكثيراً ماتستعمل ضمير الشخص الثالث حتى عندما يكون الفاعل اسماً صريحاً : « الوالد ، هو يقول ما يريد » ، « البرجوازيون هم لهم حظ سعيد » ، الخ . من جهة أخرى دوال النسبة التى مثـل nous « نحن ، نا مفعولا أو مجروراً » و vous « أنتم ، كم ـ (مفعولا أو مجروراً » قريبـة من الـكلمة إلى حد ما إذ أنها تستعمل بصورة واحدة للتوكيد ، وتقابل فى نفس الوقت je و me من جهة و moi « أنا »أو tu , te , toi « أنت » أو lui il , le . وذلك يعقد من تحديد الـكلمات ، على نحو ما يعقـده وجود ظروف تتأرجح بين دوال النسبة وبين الـكلمات وسط صيغة فعلية . فيمكننا القول بأن الـكلمة فى اللغة الفرنسية لا تخلو من سوء فى التحديد .

ذلك صحيح أيضاً بالنسبة للغات من قبيل اللغة التركية حيث تتذبذب العناصر الصرفية بين دالة وأخرى من دوال الماهية ، أو تتعلق بعضها ببعض فى صورة واضحة من الحرية . والذى يجعل للـكلمة التركية وحدتها إنما هى ظاهرة صوتيـة ، هى ائتلاف الحركات ، تلك الظاهرة التى تنسق تحريك المقاطع المختلفة وفقاً لمقطـع مسيطر . أما وحدة الـكلمة فى لغات البنتو فتتعلق بسبب آخر ، هو استعمال المعالم التى تتبـع فى كل فصيلة صرفية الدّور الذى تلعبـه الـكلمة فى الجملة . ولـكننا مضطرون إلى أن نجمع تحت مصطلح الـكلمة فى البنتو أو الفرنسية أو التركية ، عناصر استبدالية متنوعة ، هى عناصر يحسها بصفتها هذه ، ولذلك لم ترتبط بدوال

الماهية إلا رباط مخلخل[1] . كذلك الحال فى بعض اللغات الأمريكية كالجرينلندية حيث يعجز الإنسان عن تقسيم الجملة فيها إلى أقسام وحيث يغلب الاتجاه فيها إلى عد كلمات بقدر الجمل وجمل بقدر الكلمات[2] .

أما اللغات السامية واللغات الهندية الأوربية القديمة كالسنسكريتية أو الڤيدية أو الإغريقية القديمة فللكلمة فيها استقلال مطلق يظهر فى كثير من المعاملات الصوتية التى تميزها ، مثل معاملتها من جهة الأجزاء الأخيرة ، أو مثل ذلك التوازن الدقيق الذى للنبر . فالكلمة تحمل فى نفسها علامة استعمالها والتعبير عن قيمتها الصرفية ؛ فهى على درجة من الامتلاء لا تحتاج معها إلى مزيد . والكلمة الصينية يمكن تحديدها دون عناء أيضاً لأسباب أخرى غير السابقة ؛ ولكنها إذا نزعت من النص التى هى فيه فقدت كل قيمتها التعبيرية ولم يبق فيها إلا معنى غامض مجرد لا يمكن إرجاعه إلى أى استعمال .

ليس للكلمة إذن حد عام يمكن تطبيقه على كل اللغات ، اللهم إلا إذا كان هذا الذى يقترحه الأستاذ مييه ، وهو يترك الصورة التى يعبر بها عن الاستعمال النحوى للكلمة : « تنتج الكلمة من ارتباط معنى ما بمجموع ما من الأصوات قابل لأن يستعمل استعمالا نحوياً ما[3] . » .

---

(١) جوتيو ، رقم ٧٣ ، ص ٣٤ و ٣٥ .
(٢) فنك Finck رقم ١٦١ ، ص ٣١ .
(٣) رقم ١٠ ، ١٩١٣ ، ص ١١ .

الفصل الثانى

الفصائل النحوية

يراد بمصطلح الفصائل النحوية المعانى التى يعبر عنها بواسطة دوال النسبة[1].

فالنوع والعدد والشخص والزمن والحالة الفعلية والتبعية والغاية والآلة... الخ، كلها فصائل نحوية فى اللغات تسمى دوال النسبة إلى التعبير عنها. ويستطيع كل منا أن يتصور ضخامة عددها وتنوع مذاهبها بالرجوع إلى معارفه اللغوية. وكما يختلف عدد دوال النسبة تبعاً للغات، كذلك يختلف بطبيعة الحال عدد الفصائل. وكلما ضؤل نحو اللغة، بالمعنى المشار إليه فى الفصل السابق، قلت الفصائل النحوية فى هذه اللغة. ولكن بعض اللغات فيها عدد كبير منها.

مهما كانت اللغة التى ننظر فيها إلى الفصائل النحوية، لا يمكن تحديدها إلا بالصيغة التى تعبر عنها. ففى الإغريقية حالة فعلية تسمى حالة التخيير، وهى تقابل فى بعض استعمالاتها حالة الشرط فى الفرنسية، وتستعمل على وجه العموم للتعبير عن الرغبة. وليس من حقنا أن نتكلم عن حالة التخيير فى لغة لا تملك صيغة خاصة للتعبير عن هذه الحالة؛ وفى اللغات التى اختلطت فيها حالة النصب subjonctif بحالة التخيير — كما هى الحال فى أغلب اللغات الهندية الأوربية — لا يميز أولئك الذين يتكلمونها فى الصيغة الوحيدة بين الاستعمالين اللذين كانا يقتضيان صيغتين متميزتين فى زمان سابق. بل لم تبق إلا حالة واحدة يمكن تسميتها، دون تفريق، حالة التخيير أو حالة النصب إذا شئنا. هذا الإحساس يرجع إلى وحدة الصيغة مهما اختلفت الاستعمالات. وهذا لا يمنع من خلق صيغ جديدة فيما بعد تقابل استعمالات لم تكن لها عبارات خاصة فى اللغة من قبل. وهكذا أدى اختلاط الأورست

---

(١) ف. جوبل: الفصائل النحوية (رقم ٣٢، ج ٥، س ١٨٩ وما يليها. بارزنخر ٣ فرع ١)؛ فان جنيكن: رقم ٧٧ ص ٦ وما يليها.

(من أزمان الفعل) بالتام أو بالأحرى تحول التام القديم إلى زمن تاريخى قد أدى إلى حذف وسيلة التعبير عن التام فى كثير من اللغات . وبعض اللغات استسلمت إلى عدم وجود التام فيها وعاشت دونه ؛ وبعض آخر خلق لنفسه تاماً جديداً ، بطرق جديدة ، تبعاً لخطة تختلف عن التام القديم الذى قد نسخ .

الفصائل النحوية إذن شيء نسبي تبعاً للغة التى تتصل بها ووفقاً لفترة ما من تاريخ هذه اللغة . فلم يكن هناك حالة اختيار فعلية فى الإغريقية القديمة إلا فى فترة من الزمن يمكن تحديدها على وجه الدقة . ونحن نعرف فى أى فترة خلقت الجرمانية ، إلى جانب صيغة الماضي الوحيدة ، صيغة جديدة تقابل التام القديم من جهة المعنى . فتاريخ الفصائل النحوية يمكن تحقيقه بالضبط فى غالب الأحيان فى كل لغة . ولكن نظام الفصائل يظهر فى أشكال مختلفة تبعاً للغات . وقد قام بناء النحو عندنا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر على مثال كتب النحو فى الإغريقية القديمة أو اللاتينية ؛ وقد خرج من ذلك زائفاً وبقى زائفاً . فنحن لا نزال نعضده بتسميات لا تتفق مع الحقائق وتعطى عن بنية لغتنا فكرة غير صحيحة . فلو أن المبادئ التى نتخذها مقياساً لنا كانت قد وضعها قوم من غير أتباع أرسطو ، إذن لتغيرت معالم النحو الفرنسى على وجه التأكيد .

* * *

تصنيف الفصائل النحوية عمل من أعمال الصرف العام الذى لا يزال حتى الآن ينشد من يقوم بعمله . وإذا سلمنا بأن هناك من الفصائل النحوية بقدر ما يوجد من دوال النسبة فى كل اللغات ، اضطررنا إلى توسيع عدد الفصائل إلى أقصى حد . فسنقصر عملنا هنا ، اتباعاً لطريقة أملتها علينا ظروف البحث ، على دراسة عدد من الفصائل اخترت من بين أعمها ، الجنس والعدد والزمن والبناء للمعلوم أو للمجهول . وسنخرج من هذه الدراسة ببعض معلومات سنعمل على تلخيصها .

فصيلة الجنس كما توجد فى الهندية الأوربية والسامية منذ أقدم عهدها(١)

---

(١) عن الجنس ، أنظر آدم Adam ، رقم ٤٣ ؛ هـ. فنكلر H.Winkler ، رقم ٢٢٢ ، ك. درجمان K. Drugmann ، رقم ٣١ ، مجلد ٤ (١٨٨٩) ص ١٠٠ — ١٠٩ ؛ بارون Barone ، رقم ٢٢٤ .

تفرض نفسها بدرجة من الصرامة تجعل العقل لا يكاد يستحضر اسما حتى يبدو الاسم أمامه مزودا دائما بنوع يميزه بجلاء، بل كثيرا ما يكون النوع هو المميز الوحيد الذى يملكه هذا الاسم. فبالجنس وحده نستطيع أن نميز فى الفرنسية « le poids » « الوزن » من La poix « القار » و le père « الأب » من La paire « الزوج » التى لا تختلف كل منها عن قرينتها إلا بالرسم، ومن باب أولى le livre « الكتاب و la livre « الرطل أو الجنيه » أو le poêle « بساط الرحمة » و la poèle « موقد أو مقلاة » التى يرسم كل زوج منها بصورة واحدة، كما فى الألمانية die Kiefer « البلوط » و der Keifer « الفلك ».

وليس هناك من غلطة تصدم السامع من فم أحد الأجانب أكثر من الخلط فى الجنس. فإذا ما تجاوز تكرارها تعذر فهم الكلام. ومع ذلك فالتمييز بين الأجناس النحوية لا يقوم على شىء من العقل: إذ لا يمكن لإنسان كائنا من كان أن يقول لماذا كانت table « مائدة » و chaise « مقعد » و salière « إناء الملح » مؤنثة، فى حين كانت tabouret « مقعد مطبخ » و fauteuil « مقعد بجوانب » و sucrier « إناء السكر » مذكرة. وكثيراً ما تختلف الآية فى لغة مجاورة فيقال فى الألمانية der Sessel « المقعد ذو الجوانب » و der stuhl « المقعد »، وتقدم لنا الكلمتان der Löffel « ملعقة » der kegel « وتد » جنساً مضاداً لما يقابلهما فى الفرنسية على خط مستقيم: la quille, la cuiller .

هذا ونحن نعرف مقدار السهولة التى يتغير بها الجنس خلال العصور. فقد كانت تغيرات الجنس عديدة فى تاريخ اللغات الرومانية والجرمانية والكلتية؛ وفى الفرنسية كثيراً ما جرّت نهاية التذكير أو التأنيث معها الجنس المقابل لها؛ يقع ذلك إلى درجة أن عدداً كبيراً من الكلمات المنتهية بنهاية مؤنثة والتى تعتبرها اللغة الصحيحة مذكرة حتى يومنا هذا، استعملت أو ما زالت تستعمل فى اللغة الدارجة على أنها مؤنثة ولا سيما إذا كانت مبدوءة بحركة تمنع اصطحابها بالأداة المؤنثة، مثل الكلمات: exercice « تمرين » و orage « عاصفة » و ouvrage « عمل »، الخ. بل إن الكلمتين prophète « نبى » و pape « بابا » استعملتا

مؤنثتين فى العصور الوسطى بسبب النهاية المؤنثة فى آخرها . وهذا يرينا مقدار اختلاف الجنس الطبيعى عن الجنس النحوى . وما زلنا نستعمل ordonnance « جندى مراسلة » و sentinelle « حارس » بالتأنيث مع أن الكلمتين تعينان أفراداً من الجنس القوى ، وذلك جريا على عادة اللاتين إذ يقولون : auxilia و uigiliœ .

الجنس النحوى عندنا قليل الصلاحية للتعبير عن الجنس الطبيعى حتى أننا لا نجد فى أغلب الوقت أية وسيلة فى الفرنسية للتعبير بواسطة الجنس النحوى عن الفرق بين الجنسين الحقيقيين . فالكلمتان médecin « طبيب » و professeur « أستاذ » ، لامؤنث لها ، ونجدنا فى غاية الارتباك لتطبيقهما على المؤنث . إذ لا نستطيع أن نقول médecine و professeuse (بنهاية المؤنث) . ولعلنا لا نستطيع تفسير ذلك فى حالة الكلمة الأولى فقط لوجودها بعينها مستعملة فى معنى مختلف هو الطبّ ، ولكننا لانستطيع أيضاً استعمالها على حالتهما مصحوبتين بالأداة المؤنثة مع أداة التأنيث كما كان اللاتينيون يقولون illum senium (Terence) فكان ذلك يزيل الإشكال: ذلك بأن la professeur, la médecin (مع أداة التأنيث) تصدم آذاننا . فيضطر الفرنسى المهذب إلى أن يقول la femme médcin « المرأة الطبيب » و la femme professeur « المرأة الأستاذ » معتبراً كلمة femme « امرأة » دالة نسبة تشير إلى الجنس . فشأننا فى ذلك شأن لغة لا تميز مطلقاً بين الجنسين : فى هذه الحال تستعمل اللغة الإنجليزية الضميرين he « هو » و she « هى » استعمال دوال النسبة فتقول he-goat « حرفياً هو عنز أى جدى » و she-goat (حرفياً هى عنز أى معزة) وتستعمل الإرلندية السابقة ban بَنْ (مأخوذة من ben بِنْ « إمرأة ») : ban-dia « إلهة » و ban-file « شاعرة » ban-tuath « ساحرة » ، الخ . ونحن نقول cocher « حوذى » femme cochère « امرأة حوذية » متمسكين إلى هذا الحد بدالة النسبة : امرأة ؛ وإذا قلنا cochère « حوذية » دون femme « امرأة » بدا ذلك لنا مستهجناً .

حالة الفرنسية الراهنة كانت هى الحال فى الهندية الأوربية ، حيث لم يكن يعبر عن الجنس الحقيقى فيها بوسيلة صرفية [١] . وأكثر من هذا أنه لم تكن فى الهندية الأوربية كلة واحدة تتميز من ناحية الجنس بصيغتها الخارجية : toga « ثوب أشراف الرومان » و scriba « كاتب » أو aesculus « سنديان » و famulus « خادم » أو arbor « شجرة » و dolor « ألم » ، تتصرف فى اللاتينية على صورة واحدة ؛ مع أن كل مجموعة منها فيها الكلمة الأولى مؤنثة والثانية مذكرة . وإذا كانت هناك لغات اختص فيها كل من الجنسين بنوع من من اللواحق كالقوطية مثلا التى تعتبر كل الكلمات القابلة للتصريف اللاتينى الأول (نوع toga) مؤنثة وكل الكلمات القابلة للتصريف الثانى (نوع famulus) مذكرة ، فإن ذلك يعدّ ضربا من التجديد . إذ أن الكلمات الإغريقية πατήρ « أب » و μήτηρ « أم » أو ὑιός « ابن » و νυός « كنة » كانت تتصرف فى الهندية الأوربية على صورة واحدة .

نعم ، يجب أن ندع المبهم neutre جانباً . فهذا الجنس هو الوحيد الذى تحدده صيغته : ففى الإغريقية τέκνον « طفل » و σίναπι « مستردة » و μέθυ « شراب من العسل » ، وفى اللاتينية templum « معبد » و corpos (فى حالة الإضافة corporis) « جسم » و mare « بحر » و cornu « قرن » ، كل هذه الكلمات تعلن عن أنها من جنس مبهم . والمبهم فى الهندية الأوربية جنس على حدته ، فهو يقابل الجنسين الشخصيين معاً ، ولكنه أقل انتشاراً منهما : فليست له صيغة خاصة به إلا فى حالة واحدة ، ويظهر أن هذا يشير إلى كونه من فصيلة فى سبيل الانقراض ، وليس لها فى هيكل النظام استقلال تام . ويلعب فى مقابلة الجنسين الآخرين دوراً تكميلياً من حيث أنه يعبر عن بعض المعانى المستقلة فى التقابل بين المذكر والمؤنث ، فهو مثلا يدل فى غالب الأمر على أشياء تعتبر غير فاعلة ولا قابلة لأن تزود بقدرة شخصية ؛ ويظهر أنه فى بعض الأحيان يعبر عن معنى جمعى .

(١) إرنو Ernout ، رقم ٩٨ ، ص ٢١١ .

فما معنى الجنس فى الهندية الأوربية إذن ؟ إنه ينحصر فى مسألة الاتفاق . فالذى يجعل πατήρ مذكراً فى الإغريقية أننا نقول ὁ πατὴρ ἀγαθός و μήτηρ مؤنثاً أننا نقول ἡ μήτηρ ἀγαθή فالأداة والصفة اللتان تصحبان الأسم تختلفان فى الصيغة تبعاً لاختلاف الجنس . هذه الحقيقة كان لها فى تاريخ الجنس نتيجة هامة . لأن الجنس قد تبع تقلبات العبارة الصوتية الناشئة عن المطابقة : فحيث كفت المطابقة عن الظهور أو عن الظهور الكامل بسبب عوارض صوتية مات الجنس أو بَلِىَ . ولا يبقى على الجنس فى الفرنسية إلا الأداة والصفة ، كما كانت الحال فى الإغريقية القديمة ، غير أن صورة الأداة واحدة أمام الكلمات التى تبدأ بحركة مثل : l'aurore لُورُور « نور الفجر » و l'abîme ، لَبِيم « الهاوية » . فالجنس فى هذه الكلمات ليس له وضوحه فى غيرها ؛ لذلك كانت الكلمات التى تبدأ بحركة على وجه العموم هى التى تعرضت لتغير الجنس فى تاريخ اللغة الفرنسية . وإذا كانت الصفة التى تصفه غامضة الجنس ، لم يبق شىء يعبر عن الجنس مثل : l'aurore est splendide « ضوء الفجر بديع » . ولا يكون لهاتين الكلمتين aurore ، abîme جنس إلا عندما تقول L'aurore est belle « ضوء الفجر جميل » l'abîme est profond, « الهوة عميقة » [حيث الصفة تختلف نطقاً فى حالة التذكير عنها فى حالة التأنيث] .

وكانت الإنجليزية فى ذلك أوغل من الفرنسية . فقد كانت الإنجليزية القديمة تميز فى الأداة ثلاث صيغ مختلفة للأجناس الثلاثة المختلفة : sé و séo و thaet ؛ بل كانت تحتوى على تصريف كامل للأداة ، فيه أربع حالات مختلفة لكل فرع من فروع العدد . ولكنها ما لبثت أن بسّطت هذا التصريف . إذ أنها قالت أولا فى حالة الرفع بتأثير القياس : thó ، théo ، thaet ؛ ثم جمعت بين المذكر والمؤنث فى صيغة واحدة thó ؛ وأخيراً أسقطت المبهم ، فلم يبق لها فى المفرد إلا صيغة واحدة ، وفضلا على ذلك كانت هذه الصيغة هى صيغة الجمع . ولما فقدت الأداة تصرفها حرمت اللغة من التعبير عن الجنس لأن الصفة من جهتها صارت مجردة من التصريف . أما المرحلة التى وصلت إليها الدنمركية فأقل تقدماً من تلك ؛ فهى

تقول den دِن للمذكر — المؤنث ، و det دِت للمبهم ؛ وللجمع بأجناسه الثلاثة دِه de . فقد سمح لها تطورها الصوتى بالاحتفاظ بجنسين ولكنها ، من حيث أصلها ، لا تقابل المذكر والمؤنث كما فى الفرنسية .

ليس هنا مكان البحث عن أصل الجنس النحوى فى الهندية الأوربية[١] . وقد حاول ذلك بعض اللغويين دون أن يصلوا إلى نتيجة مرضية . ذلك بأن المسألة تتعدى نطاق النحو الهندى الأوربى ؛ إذ أنها مسألة من مسائل علم اللغة العام وتتطلب البحث فى مجموعات أخرى من اللغات . ومن علماء الأنتروبولوجيا من زعم ، مثل فرزر بأنه حل المسألة بتصوره أن الخلاف بين الجنسين يتصل بلغة النساء الخاصة ؛ فعند هؤلاء العلماء أن الاسم كان على صيغتين : صيغة تتكلمها المرأة وصيغة يتكلمها الرجل[٢] . وهذا تبسيط ساذج للمسألة : فالأجناس لا تنحصر فى المقابلة بين المذكر والمؤنث فحسب ، إذ أن الهندية الأوربية فيها جنس ثالث ، هو المبهم .

يبدو الجنس فى مظهر خاص فى بعض لغات إفريقية أو أمريكا . فلغة الألجونكين algonquin تميز بين جنس حىّ وجنس غير حىّ[٣] . ولا يهمها بعد ذلك مايدخل تحت كل واحد من الجنسين من أشياء : فقد تضع الألجونكين بين الأشياء المدلول عليها بالجنس الحى إلى جانب الحيوان : الأشجار والأحجار والشمس والقمر والنجوم والرعد والثلج والجليد والقمح والخبز والطباق والزحافة والولاعة . . الخ . والحقيقة « أن هذا التمييز فى الجنس مطلق وأساسى ، لأنه يطبق

---

(١) أنظر خاصة المؤلفات المذكورة فى (هـ . فنكلر H. Winkler و ك . برجمان K. Brugmann ، وماريو بارونه Mario Barone ، وأنظر أيضا ب . ا . هويلر B. I. Whealer: The origin of grammatical gender ، رقم ٢٣ ، مجلد ٢ ، ص ٥٢٨ — ٥٤٥ (١٨٩٩) .

(٢) فان جنب Van Gennep ، رقم ٧٤ ص ٢٦٥ .

(٣) ج . ب . ب دى جسلان دى جنج J. P. B. de Josselin de Jong : DeWaardeeringsonderscheiding van (levend) en (levenloos) in het Indoeuropeesch vergeleken met hetzelfde verschijnsel in enkele Algonkiintalen رسالة فى ليون (١٩١٢) .

على الأسماء والتعبير عن الملكية وضمائر الإشارة والأفعال والصفات [١] » . أما فى توزيع الأشياء بين الجنسين فقد حدثت أحداث قياسية خاصة . ويوجد فى السلافية جنس للأحياء أيضاً يمكن تفسير نشوئه وخاصة شيوعه بتطور صرفى مطرد توجد آثاره فى الهندية الأوربية [٢] . وهناك اتجاه لمقابلة المادة الحية بالمادة غير الحية فى الأرمينية [٣] والأسبانية بعد الفعل ، بل فى الفرنسية القديمة أيضاً بعد الاسم : (le bourg le roi, les maisons du bourg) « البلد الملك ، منازل البلد » . وعلى العكس من ذلك توجد فى غير هذه اللغات مقابلات أخرى : فى لغة الماساى Masai ، من شعوب شرق إفريقية ، يوجد جنس لما هو كبير وقوى وجنس آخر لما هو صغير وضعيف [٤] ؛ وهذا ما يترجمه بعضهم تحكما بالمقابلة بين المذكر والمؤنث : ol tungani أُل تُنجانى « الرجل الكبير » en dungani ، إن دُنجانى « الرجل الصغير » ؛ ولعل من الأوفق أن يقال بكل بساطة : جنس قوى وجنس ضعيف . والفصيلة هنا تجاور ما نسميه فى غير هذا المكان بالمصغرات .

فى الميدان الإفريقى يطلق على الجنس اسم « الطبقة » . فاللغات البنطية يسيطر عليها وجود « الطبقات » ، التى تمتاز كل منها بلاصقة خاصة ، وعليها توزع جميع الكلمات الموجودة فى اللغة . وقد رأينا أمثلة من ذلك فيما سبق (ص ١٢١) . والإشارة إلى الطبقة ، لها أهمية الإشارة إلى الجنس فى كلمة إفريقية أو لاتينية . إنها ضرورة فرضها الفعل على نفسه . ومَعْلَم كل كلمة (هكذا نسمى العنصر الصوتى الذى يشير إلى الطبقة) من الأهمية بحيث نراه يتكرر فى أثناء الجملة مع جميع الكلمات التى تتعلق بهذه الكلمة : فكأن الكلمة الأساسية تفرض لون زيها على جميع الكلمات التى تتعلق بها .

---

(١) ل. آدم L. Adam ، رقم ٤٣ .

(٢) مييه : رقم ٩٦ .

(٣) أدجاريان Adjarian : Classification des dialectes arméniens ، باريس ، ص ١٨ و ٤٧ .

(٤) مركر Merker ، Die Masai ، يقتبس عنه فايست Feist ، فى رقم ٣٦٠ ، ٣٧ ، ص ١١٨ .

الجنس فى لغاتنا الأوربية ليس إلا طبقة على طريقة البنطو . فهو محاولة قام بها العقل لتصنيف المعانى المتنوعة التى يعبر عنها بواسطة الأسماء . وأغلب الظن أن هذا التصنيف يقوم على التصور الذى كان فى ذهن أسلافنا الغابرين عن العالم ، وقد ساعدت عليه بواعث غيبيّة ودينية ، وقد احتفظ بهذا التقليد حتى بعد أن عجز من يستعملونه عن فهم علّته .

هناك فصائل نحوية بينها وبين الواقع علاقة أحكم مما فى حالة النوع ، ولها مايبررها عقلياً فى تصورنا الحالى للعالم : من ذلك فصيلة العدد وفصيلة الزمن . فعلى حسب ما أقول : الجواد يأكل أو الجياد ستأكل ، أرانى أعبر عن فكرتين فيهما الوحدة [المفرد] تقابل الجمع والزمن الحاضر يقابل الزمن المستقبل . وذلك يقوم على حقائق الاختبار . ولكن إذا ناقشنا كيف يعبر فى اللغات المختلفة عن هاتين الفصيلتين ، وهما من أعم الفصائل ، أدركنا أولا أنهما يظهران فيها على صور تحدّ من عموميتهما وثانياً أنه من النادر أن نجد لها فى الاستعمال العبارة الدقيقة التى كنا ننتظرها .

عندنا فى الفرنسية مفرد وجمع . ولكن التمييز بين الوحدة والجماعة ، وهو ما يكوّن العدد عندنا ، ليس مظهر هذه الفصيلة الوحيد . فمن اللغات ما كان فيها أو ما يزال فيها مثنّى . والهندية الأوربية كان فيها مثنّى أُبقى عليه فى الزمن التاريخى فترة طويلة أو قصيرة على حسب اللغات ، ثم أُبعد منها جميعاً تقريباً شيئاً فشيئاً[1] . فنى الهند نجد المثنّى فى السنسكريتية ، فيديّة كانت أم كلاسيكية ، وذلك على عكس البراكريتيّة Prâkrits والبياليه Pâli اللتين فقدتاه . وكانت الفارسية القديمة والزندية تستعملانه فى صرامة ، ولا يوجد منه أثر فى اللغة الفهلوية . ولا يوجد المثنّى فى الأرمينية ولا فى اللاتينية منذ أقدم تاريخ نعرفه لها . أما فى السلافية القديمة فهو يتمتع بالحياة ، بكل الحياة ، ولازالت بعض لهجاتها تستعمله حتى يومنا هذا مثل السلوفينية [من لهجات يوغسلافيا] وصورابيّة اللوزاس [إقليم مشترك بين تشيكوسلوفاكيا وألمانيا] . وهو فى بعض اللهجات اللتوانية فى سبيل الانقراض . وكانت القوطية

---

(١) بروجمان : رقم ١٥٠ ، مجلد ٢ الجزء الثانى .

تعبر عنه فى الضمير والفعل فحسب ؛ ولم يبق منه فى الألمانية العالية القديمة إلا آثار فى الضمير وحده ، ولكن هذه الآثار بطيئة الاختفاء : إذ أننا لا زلنا نقابل فى بعض لهجات بفاريا الحالية الضميرين المثنيين ös أو enk ، بعد أن اختفيا من لغة الكتابة منذ آخر القرن الثالث عشر . ولم يحتفظ بالمثنى من اللغات الكلتية إلا الأرلندية فى أقدم عصورها ، وذلك فى تصريف الأسماء ؛ ولكن هذا العدد لايشغل فيها إلا مكانا ضئيلا ، لأن الاسم المثنى يجب أن يكون مصحوبا باسم العدد « اثنين » . وتقدم لنا الإغريقية القديمة مجموعة فى غاية التنوع تفيدنا علماً من نواح شتى ، ولكنها انتهت مع ذلك بإقصاء المثنى[1] . وذلك هو الميل العام فى اللغات الهنديه الأوربية . فإذا كان هذا الاستبعاد قد تمّ فى أزمان مختلفة اختلافا محسوساً تبعاً للغات ، فردّ ذلك إلى أسباب تاريخية .

يجب أن نعتقد أن استعمال المثنى كان يسد حاجة أخرى غير الحاجات التى يمكن أن توحى بها عوائد تفكيرنا الحديثة . فنحن لا نرى اليوم أية علة لمقابلة التثنية بالجمع . ولكن هناك فى فصيلة العدد معانى أخرى متميزة لانعبر عنها وإن كانت تستحق أن يكون لها صيغة نحوية . من ذلك معنى الجمعية ومعنى الإفرادية . فليس لدينا فى الفرنسية وسيلة للتعبير عن هذين المعنيين ؛ وذلك نقص كثيراً مانعانى آثاره . فكل المناقشات التى تثار بين بعض النحاة عما إذا كان يجب أن نكتب gelée de groseille « مربى عنبة الذئب » أم gelée de groseilles « مربى عنبات الذئب » و confiture de pomme « مربى التفاحة » أم confiture de pommes « مربى التفاح » ترجع هذه المناقشات كلها إلى الخلط بين الجمع والجمى ، وسببها عدم وجود فصيلة نحوية للجمعى . كذلك نشعر بشىء من الضيق حينما لا نستطيع أن نعرف على وجه التخصيص من قولنا le cheval court « الحصان يعدو » إذا كان يراد حصان ما مأخوذ على انفراد أو يراد الخيل فى مجموعها بوجه عام . فنحن لا نميز الفرد من الجنس ولا الخاص من العام .

(١) كونى Cuny رقم ٦١ ، وانظر الصفحات الأخيرة من هذا الكتاب .

واللغات الهندية الأوربية كلها تقريباً[١] على نفس الحال التى عليها اللغة الفرنسية ، ليس فيها عبارة مطردة لبعض المعانى الهامة من فصيلة العدد .

* * *

فصيلة الزمن أيضاً فيها نواح من النقص[٢] . والذى يعبر عنه الفعل أساساً فى لغة كالفرنسية أو الألمانية إنما هو الزمن . ويسمى الفعل فى الألمانية Zeitwort (كلمة الزمن) فعندنا فى الفرنسية سلم من الأزمان المتنوعة ، لاتعبر فقط عن أقسام الزمن الثلاثة من ماض وحاضر ومستقبل بل أيضاً عن الفروق النسبية للزمن : إذ لدينا الوسيلة للتعبير عن المستقبل فى الماضى والماضى فى المستقبل . ولا توجد إلا لغات قليلة لها ثروة اللغة الفرنسية فى هذا الصدد . فلا يكاد يوجد فى الألمانية إلا زمن ماض واحد ؛ إذ أنها تخلط فى صيغة واحدة غير التام imparfait[٣] والماضى المحدد défini ؛ هذه الصيغة هى : ich liebte « أحببت أو كنت أحب » وهذه الصيغة الوحيدة تميل إلى أن تحل محل الماضى التحليلى من نوع Ich habe geliebt « أحببت » فى بعض أجزاء ألمانيا بينما يسمى الماضى التحليلى لاحتكار التعبير عن الماضى بأسره فى بعض الأجزاء الأخرى . وثروة اللغة الفرنسية تلك قد أتت من اللغة اللاتينية التى كانت من جهة الأزمان مزودة بسلسلة زاخرة من الصيغ .

غير أن التعبير عن الزمن تجديد من اللاتينية . لأن النحو المقارن يعرفنا أن الهندية الأوربية كانت لا تهتم خاصة إلا بالتعبير عن صفة الحدث aspect[٤] .

يطلق اسم صفة الحدث على فصيلة الاستمرار[٥] . والأزمان الفرنسية تعبر

---

(١) أوجدت اللغات السكاتية لنفسها اسما إفرادياً ؛ أنظر بدرسن ؛ رقم ١٨٩ ، مجلد ٢ ، ص ٥٨ .

(٢) أنظر هربغ Herbig ، رقم ٣٠ ، مجلد ٤ ، ص ١٧٠ وما يليها .

(٣) غير التام يشبه فى العربية « كان يكتب » والماضى المحدد هو الماضى التام المحدد بزمن صراحة أوضمناً ويسمى أيضاً الماضى البسيط أوالماضى التاريخى . وهوأحد المعاني العديدة التى تعبر عنها العربية بصيغة الفعل الماضى .

(٤) بروجان : رقم ١٥٠ ، ج ٢ ، مجلد ٣ ، ص ٦٨ .

(٥) بربلنيه : رقم ٤٧ ؛ وبارونه : رقم ٢٢٥ .

عن اللحظة التى فيها تمّ أو يتمّ أو سيتم أحد الأحداث ؛ ولا تدخل فى حسابها المدة التى يستغرقها وقوع الحدث . ومع ذلك فهو أمر هام ، بل أمر يطغى فى بعض الأفعال على كل اعتبار آخر للمعنى . فالهندية الأوربية كان اهتمامها بالدلالة على الزمن أقل بكثير من اهتمامها بالدلالة على صفة الحدث من الوجهة الاستغراقية . فهى لا يعنيها أن تبين فى أى لحظة يتحقق الحدث (فى الماضى أو الحاضر أو المستقبل) بل أن تشير إلى ما إذا كان هذا الحدث يُواجه من ناحية استمراره أم فى نقطة فقط من سيره ، وهل هذه هى نقطة الابتداء أو نقطة الانتهاء ، وإذا كان الحدث يقع مرة واحدة أو يتكرر ، وإذا كان ذا نهاية ونتيجة أو لا ، ومن ثم جاءت هذه الفارقات التى راعيها النحو القارن فى تقسيمه للأفعال إلى استمرارية أو وقتية غائية أو غير غائية وإلى تدرجية وتكرارية وانتهائية ... الخ . ومن المستحيل أن نفهم شيئاً من نظام الفعل فى السنسكريتية أو فى الإغريقية القديمة إذا لم ندخل فى حسابنا هذه الفروق الدقيقة أو إذا رحنا نبحث فيها عن التعبير عن الأزمنة المختلفة ، بهذه الفكرة التى تعد طبيعية فى لغاتنا . والفروق التى نجدها فى الإغريقية بين الحاضر والأوورست والتام ليست إلا فروقاً فى صفة الحدث الذى يؤديه الفعل . وقد احتفظت اللغات السلافية بغلبة الصفة على الزمن فى الحدث مدة طويلة وما زالت تحتفظ بشىء منها حتى يومنا هذا . فكل فعل فيها ينتمى إلى فصيلة من « صفة الحدث » تميّزه وتحدده كما يتميز الماضى والمستقبل فى لغتنا[١] . وهذا فرق أساسىّ بين الروسية والفرنسية وعقبة من أشد العقبات التى تقابل الفرنسى فى دراسته للغة الروسية .

وتشبه اللغات السامية ، من جهة التعبير عن الأزمان ، اللغات الهندية الأوربية فى نظامها العتيق شبهاً كبيراً . فليس فى السامية المشتركة أية وسيلة للتمييز بين أزمنة الفعل المختلفة ، ولكنا ندهش عندما نرى فيها هذه المجموعة الكبيرة من الوسائل للتعبير عما بين الفعل والفاعل من صلات ، للتعبير مثلا عن السببيّة causatif والكثرة conatif والشدّة intensif ، والتمنى désiratif والرجاء putatif والأمر jussif ، والمفاعلة réciproque والمطاوعة réfléchi . كل هذه

(١) مازون : رقم ٩٢ .

المصطلحات الفنية لا تزال تشير إلى فصائل فى الفعل السامى ، ولا تزال محتفظاً بها على درجات متفاوتة فى اللهجات المختلفة للغة السامية . أما الزمن بمعناه الحقيقى فلا يوجد منه فى السامية إلا إثنان : غير التام والتام ، وهما مشتقان من أصلين مختلفين ولكن لا ينبغى ألا نفهم من هذين الاسمين ، تام وغير تام ، أى شىء مما يشبه الأزمنة المستعملة فى الفرنسية ، بل يجب أن يؤخذا على معناها اللغوى ؛ فهما يدلان على انتهاء الحدث أو عدم انتهائه ، أى أن السامية مثل الهندية الأوربية يسيطر فيها التعبير عن الاستغراق durée لا التعبير عن الزمن . فالأشورية مثلا تستعمل التام (الماضى) فى معنى الحاضر والمستقبل . وفى العربية يعبّر غير التام (المضارع) عن الحاضر وعن المستقبـــل . « وفى العبرية نرى الصيغة المسماة خطأً بصيغة الاستقبال تستعمل فى القصص للتعبير عن الماضى ، ومن جهة أخرى يمكننا كلما شئنا أن نستخدم الصيغة المساة بصيغة الماضى للتعبير عن المستقبل . ونحن نعرف مقدار ما أصاب تفسير النصوص النبوية من صعوبات لهذا السبب . جاءت هذه الفوضى من أن فكرة الزمن قد أدخلت فى صورة عرجاء ، وبعد أن لم تكن موجودة ، على تصريف فعلى لم يكن قد هيئ لاستقبالها[١] » .

فصيلة الزمن النحوية تحتوى ، مثل فصيلة العدد ، على نواح من النقص ؛ بل بل إنها حتى فى داخل الحدود التى تجول فيها لاتنجح دائماً فى استعمال صيغة تنطبق حقاً على المعنى الذى يراد التعبير عنه . فكثير من اللغات الهندية الأوربية تستعمل أحياناً للتعبير عن المستقبل أو الماضى صيغة ليست للمستقبل ولا للماضى . فمع أن اللاتينية فيها صيغة للاستقبال نرى پلوت Plaute يستعمل الحاضر للتعبير عن حدث واضح فيه أنه للاستقبال ، وذلك حين يقول (Captifs 749) : « peristis nisi iam hunc abducitis » ، « أنت تهلك [إنك لهالك] إن لم تأت به فوراً » . والقارىء لا يتردد لحظة فى الزمن الذى ترجع إليه هذه الجملة . يقع ذلك أيضاً فى الفرنسية ، فنقول فى كلامنا الجارى : « j' y vois » ، « أنا رائح هناك » بدلا من « je vais y aller » « أنا رائح أروح هناك » أو « je m'apprête à y aller » ، « أستعد للذهاب إلى هناك » أو « j'irai » « سأذهب » .

(١) م بريال : رقم ٦ ، مجلد ١١ ، ص ٢٧١ .

ومن ذلك ما كتب راسين فى بيرينيس Bérénice :

Peut - être avant la nuit l'heureuse Bérénice
Change le nom de reine au nom d'impératrice .

« لعل بيرنيس السعيدة تستبدل قبل أن يقبل الليل لقب امبراطورة بلقب ملكة » . وتستعمل الألمانية الحاضر مكان المستقبل بصورة مطردة ؛ فهذه العبارة الثقيلة « Ich werde kommen » ، « سآتى » لا توجد إلا فى كتب النحو وعلى ألسنة الأجانب الذين يتكلمون الألمانية . أما الألمانيون فيقولون بكل بساطة فى محادثاتهم : « Ich komme » « آتى » . واستعمال الحاضر فى وظيفة المستقبل يقوم على اتجاه عام فى الكلام : فالروسية تستعمل للمستقبل حاضراً قديماً وكذلك القوطية والغالية وكلتية اسكتلندة وغيرها أيضاً : .

وفى الفرنسية يستطيع المستقبل البسيط التعبير عن الحاضر (Il sera à Paris à l'heure qu'il est) « سيكون فى باريس فى الساعة التى نحن فيها » ، كما يمكن أن يكون للماضى السابق futur antérieur قيمة الماضى (« La Bruyère : Nul ne se ressouvient d'un mot qu'il aura dit.») لابرويير : « لا يستطيع أحد أن يتذكر كلمة سيكون قد قالها . » أغلب الظن أن المستقبل فى كلتا الحالتين يدخل على الجملة معنى خاصاً (الإمكان ، الاحتمال) ، ولكن الحقيقة الواقعة هى أن المستقبل هنا مستعمل مكان حاضر أو ماض .

الماضى أيضاً يمكن أن يعبر عنه بالحاضر . وهو استعمال شائع فى الحكاية حيث يسمى بالحاضر التاريخى . وفيه يجد المثقفون سحراً خاصاً ؛ يقولون بأن الحاضر أكثر تعبيراً أو أبلغ وصفاً حتى ليجعل المنظر يحيا من جديد أمام عينى القارىء ويرجع بفكرنا إلى اللحظة التى دار فيها الحدث . وهذا حق . ولكن هذا التعليل الذى قد يمكن أن ينطبق أيضاً على استعمال الحاضر مكان للمستقبل ، لا قيمة له فى نظر النحوى . فهو ملزم بأن يتمسك بوجهة النظر التالية : ليستطيع الكاتب أن يستعمل عبارة رآها أبلغ تعبيراً أو أكثر أناقة من غيرها ، فعلى اللغة أن تمده بهذه العبارة ؛ وفى هذه الحال يجب أن يكون ميدان الحاضر وميدان الماضى غير مغلقين أحدهما بالنسبة للآخر فى اعتبار النحو ، حتى يمكن الانتقال من

أحدهما إلى الآخر بسهولة ودون خطر على الوضوح .

والواقع أن الماضى بدوره يمكن استعماله للدلالة على الحاضر ؛ فالإغريقية القديمة تستعمل الزمن الذى يدل به على الماضى فى التعبير عن الحاضر ، الذى يقال له حاضر العادة ، وذلك فى الجمل ذات المرمى العام ، فى الأحكام والحكم ؛ فكان لهومير أن يقول مثلا :

ὅς κε θεοῖς ἐπιπείθηται μάλα τ᾽ ἔκλυον αὐτοῦ

مستعملا آورست يترجم بالطبع فى الفرنسية بفعل حاضر فنقول : « من يطيع الآلهة ، تستجيب له الآلهة » . وذلك هو آورست الوعظ الذى يستعمل فى التعبير عن حدث لاينتمى فى الواقع إلى أى زمن ، ويمكنه ككل حقيقة من حقائق التجربة أن يصدق فى المستقبل وفى الحاضر وفى الماضى . والحاضر هو الذى يبدو لنا فى الفرنسية وفى معظم اللغات صالحاً لهذا الاستعمال العام . ولكن الفرنسية تستطيع أن تستعمل فيه المستقبل أيضاً ، وكذلك اللاتينية : « pulcra mulier nuda erit quam purpurata pulcrior . » (پلوت Plaute ، Mostellaria ، بيت ٢٨٩ ؛ وقارن بيت ١٠٤١) : « المرأة الجميلة العارية أجمل منها ولو ارتدت أفخر الثياب . »

مانسميه الحاضر فى الفرنسية زمن مطاط يصلح كما رأينا للتعبير عن المستقبل والماضي ، وينطبق دون تفريق على الحدث المحدد بالحاضر الحالى تحديداً محكما (ها هو الترام يمر) أو على الحدث الدال على العادة (أمرُ به كل أحد) أو الحدث الذى لا يستند إلى أى زمن محدد (الترام يمر فى هذا الشارع) .

يطول بنا الحال إذا أردنا أن نعدد كل وجوه النقص التى يعرضها علينا فى كل لغة استعمال الأزمنة . أليس مما يدعو إلى الدهش أن نرى الفرنسية تستعمل فى الماضى الشرطى ، أو على الأقل مايطلق عليه هذا الاسم وهى تتكلم عن المستقبل ؟ وذلك كأن يقال « لو أسندت إلىّ هذا المسألة لانتهيت منها سريعاً » لا أظننا نلاقى أى عناء فى أن نكتشف أصل هذا الاستعمال : فهو أثر من آثار القياس . جواب الشرط عندنا مستقبل غير تام imparfait du futur؛ وقد صدر القياس أولا عن الجمل التى فيها فعل الشرط حاضر وجواب الشرط مستقبل مثل : « إذ أسندت إلىّ هذه المسألة فسأنتهى منها سريعاً » وذلك يرينا إلى أى حدّ من المرونة تستعمل

اللغة ما لديها من الوسائل ، ولكنه يطلعنا فى نفس الوقت على مقدار الصعوبة التى نلاقيها فى محاولة تنظيم فصيلة الوقت ؛ إذ أنها دائما سيئة التحديد .

* * *

أما فصيلة المبنى للمعلوم والمبنى للمجهول فأسوأ تحديدا [١] . ونعنى بعبارة البناء للمعلوم والبناء للمجهول صورة من صفة الحدث الفعلى فى علاقاته مع المسند إليه حسبما يعتبر الحدث واقعاً من المسند إليه أو واقعاً عليه ؛ واقعا فى مصلحته أو باشتراكه فيه . والطابع الكلاسيكى من ذلك يوجد فى المقابلة الإغريقية بين المبنى للمعلوم والمبني للوسط والمبنى للمجهول : νἴζω, νἴζομαι « أغسل » أو « أغتسل » (حرفياً : أغسل نفسى) ، أو « أُغسل » (بواسطة آخر) . ولكن تميز الأبنية الثلاث فى الإغريقية قليل الوضوح . فالجار والمجرور هو الذى يكون المبنى للمجهول أكثر من الصيغة الفعلية نفسها . ففى الإغريقية عبارة : ὑφ' Ἕκτορος δαμείς « مذلل بواسطة هكتور » تعتبر مبنية للمجهول ولكن ὑφ' Ἕκτορος πεσων « مستهدف لضربات هكتور » ليست مبنية للمعلوم إلا فى الاصطلاح النحوى : وكلتا العبارتين تعبران عن فكرة واحدة ، بل لعلهما فى الأصل متساويتان فى درجة البناء للمجهول . وفى اللاتينية بعض المبنى للمجهول مثل uapulo « أُضرب » له صيغة المبنى للمعلوم . فلعل ما يسمى بالمبنى للمجهول فى لغاتنا الكلاسيكية يعرف بصفة عامة بلاحقة أو بزائدة ، وليس المعنى هو الذى يحدده : فإذا قلت « أُعطى » je donne أو je frappe « أَقْرَعُ » كان ذلك من المبنى للمعلوم ، وكيف يمكن أن يكون منه مثل je dors « أنام » و je meurs « أموت » و je souffre « أتألم » ؟

تمييز الأفعال المبنية للمعلوم من الأفعال المبنية للمجهول فى معظم اللغات الهندية الأوربية عمل خداع ، لأن المبنى للمجهول فى كل حالاته تقريبا لا يمكن أن يعتبر عكس المبنى للمعلوم . إذ يدخل فى المبنى للمعلوم عادة معنى خاص يعدل من صفته . فالمبنى

---

(١) عن مقابلة المبنى للمعلوم بالمبنى للمجهول ، أنظر : أهلنبك Uhlenbeck رقم ٣٠ ، مجلد ١٢ ص ١٧٠ ؛ وشوخارت Schuchardt : رقم ٣٠ ، مجلد ١٨ ص ٥٢٨ — ٥٣١ ؛ وفينك : رقم ٣٧ ، مجلد ٤١ ، ص ٢٠٩ — ٢٣٢ .

للمجهول يعبر فى الغالب عن حدث محقق ، وانتهى تماما ؛ ومن ثم كان الكثير من الأفعال الفرنسية يعبر عن الماضى بواسطة فعل الكون . وكانت هذه هى الحال فى اللاتينية . يزيد على ذلك أن المبنى للمجهول فى هذه اللغة له استعمال خاص يقال له خطأ المبنى للمجهول غير الشخصى le passif impersonnel وكان يجب أن يسمى غير الشخصى فقط ، إذ لا شىء فيه من المبنى للمجهول ؛ وذلك مثل : curritur « on court » (يجرى) (على أن الفاعل هنا غير شخصى لا يعود على شىء ، وإنما جىء به لأسناد الحدث فقط) ، luditur «on joue» (يلعب) itum est (ذهب) . فنحن فى هذه الحال نستعمل فى الفرنسية الضمير غير المحدد « on » أو المطاوع le réfléchi فنقول مثلا : « ينكسر كوب كبير » و « ينصدع بناء شامخ »(١) .

إذ أن المطاوع فى الفرنسية كما فى كثير غيرها من اللغات يعد وسيلة من وسائل التعبير عن المجهول « Cela se dit, cette robe se porte » (ده يتقال ، الفستان ده يتلبس) ، وصفة هذه العبارات المميزة هى أن فاعل الحدث غير معبر عنه ؛ ولكن لا يمكن اعتبارها مبنية للمجهول ، اللهم إلا إذا أضفينا على المبنى للمجهول معنى خاصاً لا يحمله عكس المبنى للمعلوم .

هذا الخلط الذى نشكو منه فى لغاتنا يرجع إلى معان ثانوية أدخلت فى التعبير عن المبنى للمعلوم والمبنى للمجهول فأضعفت بينهما درجة التقابل الأساسية . ولكن هل هناك ما يبرر هذا التقابل الأساسى ؟ لو كان الفرق بين الفعلين أقرع je frappe وأقرع je suis frappé ينحصر فى العلاقة النحوية بين الشخصين فحسب ، لم يكن هناك محل للوقوف عنده ، ولصارت المسألة مسألة اصطلاح بحت نتج من العادة أو من مراعاة التيسير : فيقال بطرس ضرب پول أو پول ضرب من بطرس دون تفريق ؛ وكانت بعض اللغات تفضل استعمال العبارة الأولى ، وبعضها

---

(١) الأمثلة التى ذكرها المؤلف هى : « Il se joue un grand jeu » و (Il se fait une grande course) ، وقد استبدلنا المثلين بغيرهما لعدم وجود صيغة المطاوعة فى العربية للفعلين الواردين فى النص . وترجمنا المثالين الآخرين بالعامية مراعاة لغرض المؤلف وحرصاً على الدقة . المعربان

يفضل استعمال الثانية؛ وفريق ثالث منها يسمح باستعمال الاثنتين ، وفى تلك الحال كنا لانرى فى كل هذا إلا نتيجة لعملية تاريخية . وفى الواقع أنه إذا كان يوجد فى الفرنسية مبنى للمعلوم ومبنى للمجهول (وهذا الأخير فى حدود ضيقة) فإن الهندية الأوروبية لم تعرف إلا المبنى للمعلوم ؛ وهناك لغات أخرى تميل إلى جعل الصيغتين صيغة واحدة ، هى صيغة المبنى للمجهول .

الواقع أن هناك طريقتين لمواجهة صلة المسند إليه بالعالم الخارجى ؛ فتارة يكون المسند إليه فاعلا ، أى أنه يحدث أثراً ما على مايحيط به بواسطة عمل إرادى (بطرس يضرب بولص) وتارة يكون قابلا ، أى أنه يستقبل من المحيط الذى حوله أثراً يصيب حساسيته (بولص ضُرب من بطرس) . والتقابل واضح فى هذين المثالين : أحدهما يعطى الضربات والثانى يتلقاها ؛ لذلك لم يكن هناك محل للتردد . ولكن هناك حالات تتوازن فيها الفاعلية والاستقبالية وتختلطان ، وهناك حالات أخرى تطغى فيها الأولى على الثانية . فإذا قلت بطرس يرى بولص أو بطرس يحب بولص ، فإن الشخصين يوقعان كل منهما على الآخر أثرا يمكن أن يعتبر من جهة الفاعلية أو من جهة الاستقبالية على السواء . ذلك بأن الرؤية ظاهرة استقبالية : إذ أن شبكة بطرس تتأثر بصورة ما . كذلك الحال فى الحب أو فى الصداقة : فى كل منهما بطرس يعانى عاطفة ما . وليس فى ذلك شىء من الفاعليـة . فيرى الإنسان الأقرب إلى المنطق أن نسمى الأفعال فاعلة actifs فى حالة ما إذا كان الحدث مؤثراً effectifs وأن نستعمل طرازاً آخر من الأفعال نسميها أفعالا سلبية passifs أو انفعالية affectif حسبما يراد ، وذلك فى حالة ما إذا كان الفاعل يعانى تغيراً فى استعداداته الانفعالية .

تلك هى نقطة البدء التي عنها تصدر فصيلتان عظيمتان من فصائل الفعل فى بعض اللغات مثل اللغة الجرجية[1] . فنى الجرجية طرازان من التصريف . visurverb « أرغب » و msurs « رغبة لى » و vikvareb « أحبّ »

(١) أنظر أمثلة منقولة عن فنك : رقم ١٦١ ، ص ١٣٣ ؛ وانظر أيضاً شوخارت : رقم ٣٩ ، مجلد ١٣٣ (١٨٩٥) ، ص ١ — ٩١ .

و mikʌars « حبٌّ لى » ... الخ . وقد نشأ عن هذين الطرازين تصريفان للفعل منفصلان ، الفاعل والانفعالى ، وتستعملهما اللغة الجورجية جنباً إلى جنب فى نفس الفعل (وحينئـذ تدخل فيهما عادة اختلافاً زمنياً) أو توزعهما على الأفعال تبعاً لدلالتها : فمثلا نراها تقول على وجه العمـوم mesmis « سمعٌ لى » « أسمع » انفعالياً ، ولـكنها تقول vxédav « أرى » فاعلا ، وتقول mdzéra « اعتقادٌ لى » (أعتقد) mgonia « تفكير لى » (أفـكر) انفعالياً ، ولـكنها تقول : vaseneb « أبنى » و vtser « أكتب » فاعلا . . . الخ . ولا تعرف اللغات الهندية الأوربية هذه التفرقة .

ومع ذلك فمندنا فى الفرنسية فـكرة عنها فى المقابلة js crois « أعتقـد » و m'est avis « رتأى لى » وفى je vois « أرى » Il m'apparait « يظهر لى » ، فذلك يمثل الفرق بين الفاعلى والانفعالى تمثيلا جيداً . ونحن نفضل الفاعل عادة حتى أننا نقلنا إلى الفاعلية عبارة مثل Il me souvient « يأتى فى ذاكرتى » فأصبحنا نقول مخالفين فى ذلك كل منطق Je m'en souviens « آتيـة فى ذاكرتى » وهى عبارة منافية للعقـل والذوق على السواء ؛ ومع ذلك فإن ڤوچيلا Vaugelas يقرر أنها كانت فى زمنه أكثر دوراناً على الألسنة « فى البلاط » أكثر من عبارة : il m'en souvient « يطفو فى ذاكرتي » . وقد وقـع نفس اللاشيء بالنسبة للفعل regretter « يأسف » ، فعبارة (je regrette « آسف » جاءت من il me regrette « أسفٌ لى» ؛ وقارن العبارة الإيطالية mi rincresce « أنا آسف ») . ونرى فى الألمانية أيضاً نفس الشيء فى أفعال مثل ahnen, gräuen « اشتباه وارتعاد » فعبارة ich ahne etwas « أشتبه فى شيء ما » أصلها es ahnt mir أو (mich) etwas « اشـــتباه لى فى شيء ما » ويقال ich graue mich vor etwas « أرتعد أمام شيء ما » بدلا من (es graut mir vor etwas « ارتعاد لى أمام شيء ما ») ؛ والفعل اللاتينى pœniteo « أتوب » أصله من me pœnitet « توبة لى » .

انتقال الانفعالى إلى الفاعلى هو فى نفس الوقت انتقال من غير الشخصى إلى

الشخصى : والواقع أن من اللغات مايفضل التركيب الشخصى بوجه عام . هذا الاتجاه واضح فى اللاتينية حيث نجد المبنى للمجهول الشخصى قد جاء من المبنى للمجهول غير الشخصى فعبارة : inuidetur mihi « حسد لى » قد سبقت inuideor « أحد يحسدنى » ، كذلك عبارة uitam uiuitur يحيا [الإنسان] حياته (إنيوس المآسى ، بيت ١٩٠) قد سبقت uita uiuitur « عيشت الحياة » ؛ كذلك يقال فى الدنمركية jeg blev budt to beroner « قدم أحد لى تاجين » بدلا من mig blev dudt to kroner , jeg blev forbu dt Adgang til ... « حرّم أحد على دخول ... » بدلا من : .. mig blev forbudt Adgang til وهما العبارتان اللتان تعدّان منطقياً صحيحتين دون سواها . فنرى أن التميز بين فصيلتى الفاعل (المبنى للمعلوم) والسالب (المبنى للمجهول) يقوم على أساس واهٍ .

أما التميز بين المتعدى واللازم الذى يلعب دوراً هاما فى النحو الكلاسيكى فأساسه ليس أمتن من سالفه . والنحاة يسيرون دون انقطاع على هذا التميز ؛ وبلغوا فى تسليمهم به حدا جعلهم يعفون أنفسهم من عناء تحديده كأنه إحدى البديهيات . والواقع أنه لاشىء أبعد منه عن التحديد . يسمى الفعل متعدياً فى اللاتينية إذا قبل أن يكون له معمول مباشر منصوب (Amo patrem « أحب والدى ») وفى الفرنسية إذا تلاه معمول مباشرة دون وساطة حرف الجر à « لِ أو إلى » (j'aime mon père) « أحبّ والدى » . وعلى العكس من ذلك يعتبر الفعل لازماً إذا كان معموله مجروراً فى اللاتينية مثل noceo patri « أسىء إلى والدى » أو مسبوقاً بحرف الجر à فى الفرنسية مثل je nuis a mon père « أسىء إلى والدى » . ولكن العلاقة الموجودة بين « أحب » و « والدى » بالنصب هى نفس العلاقة التى بين « أسىء » و « والدى » بالجر . ونحن نعلم أن الخلاف بين البناءين خلاف عرضى محض . بل من الجائز أن تكون عبارة norcere alicui مقيسة على : obesse, officere alicui ؛ فأحد التركيبين قد استتبع الآخر . وفى مجرى التطور الذى تسلكه لغة بعينها نجد الأبنية تتبادل

بعضها مع بعض ونرى الأفعال اللازمة تصير متعدية والمتعدية تصبح لازمة[١] . إذ نرى الفعل اللاتيني mederi « يعنى » كان ينصب مفعوله فى بادئ الأمر ثم صار يتعدى بحرف الجر mederi oculos « يعنى عينه » ، mederi oculis « يعنى بعينه ». وأخيراً نجد التعبير عن إحدى الأفكار يختلف فى لغة عنه فى غيرها ، فهذه تعبر عنها بفعل لازم وتلك بفعل متعد . فالفرنسية تقول j'aide ma mère « أساعد أمى » ، و je suis mon pere « أتبع أبى » ؛ على حين تقول الألمانية : ich helfe de Mutter « أساعد [ل] أمى » و ich folge dem Vater « أتبع [ل] أبى » ؛ وتقول الروسية blagodarjù vas' كما تقول الفرنسية je vous remercie « أشكرك » ، أما الألمانيـة فتقول ich danke Ihnen « أشكر لك » ، واللاتينية تستعمل الجر بعـد الأفعال nubere و « يتزوج » parcere « يقتصد » و benedicere « يبارك » .

قد يكون لهذا التميز ما يبرره فى نظر النحوى الذى يعلم اللغة إذ يرى أمام تراكيب مختلفة ويعرف أن المتكلم إذا قال nocco patrem « أسىء والدى » أو ich helfe die Mutter « أساعـد أمى » بالنصب كان مخطئاً . غير أنه اختلاف شكلى محض : إذا علله التاريخ وفسره لم يستطع العقل أن يبرره .

قد يتصور الإنسان المقابلة بين الأفعال المتعدية والأفعال اللازمة تصوراً أفضل على النحو الآتى . لما كانت فكرة التعدية تستلزم معمولا ، كان لنا أن ننعت بالتعدية كل فعل صُرح فى الجملة بما يقع عليه حدثه وباللزوم كل فعل لا معمول له فى الجملة . وعندئذ يجب أن نفرق بين عبارات مثل j'aime Rose «أحب روز» و la mison ou j'aime « البيت الذى فيه أحب » ، ومثل « هذا الرجل يشرب نبيذاً » و « من شرب سيشرب » . فالفعل إذا استعمل دون معمول كان لازماً ؛ والحدث الذى يعبر عنه لا يقع إذن على شىء . ولـكن هذه المقابلة ، وإن كانت منطقية حقاً ، لا يستطاع الأخذ بها زمناً طويلا دون إضرار بالمنطق نفسه .

(١) عن الفرنسية فى القرن السادس عشر أنظر برينو Brunot ، رقم ٥٧ ، مجلد ٢ ، ص ٤٣٩ .

ذلك أننا مثلا نجدها فى عبارات أخرى مثل ils prennent ces allumettes « يأخذون هذه الأعواد من الثقاب » و Ces allumettes prennent « هذه الأعواد من الثقاب تأخذ (يعنى تشتعل) » ومثل le chien a crevé la toile « الكلب فجر الخرقة » و le chien a crevé « الكلب فجر » (يقال ذلك فى الفرنسية عن الحيوان ويراد به أنه نفق) . ولكن هذه الحالة تختلف عن الحالة السالفة كل الاختلاف . ففى الجملة الثانية من هذين الزوجين يستعمل كل من الفعل (أخذ وفجر) فى معناه المطلق والحدث يرجع إلى المسند إليه . أما فى الجمل السابقة فإن كلا من الفعلين (أحب وشرب) يعبر فى الجمل التى لا مفعول لها عن حدث غير محدد . ومن جهة أخرى نستطيع فى هذه الحال أن نعتبر فعلا مثل « أرحل إلى باريس » متعدياً إذ أن الجملة تحتوى على معمول يعتبر غاية الحدث وأن هذا المعمول يعبر عنه بالمنصوب فى كثير من اللغات (اللاتينية والإرلندية والإغريقية والسنسكريتية و..الخ.) ، فيقال فى اللاتينية : peto urbem « أرحل المدينة » . ولكن هل ينبغى أن نعتبر من اللازم الفعل partir « يرحل ، ينطلق » فى عبارة مثل : je pars dimanche ، حيث نرى الجملة تحتوى على ظرف زمان بدلا من ظرف المكان ؟ هذه مسألة تحتاج إلى بحث . وكيف نفرق بين « انتظر بطرس » و« انتظر إلى الغد ». كذلك كيف نبين الفرق بين: «أدر الحجر» و « دُرْ إلى اليمين » ؟ وإذا اعتبرنا هذين الفعلين من الأفعال المتعدية (وكيف لا تعتبرها كذلك إذا « قربنا «دُرْ [حول] الزاوية »بعبارة « دُرْ إلى اليمين»؟) أمكننا أن نقول بأن الكلمة الواحدة تستخدم لأداء وظيفتين مختلفتين كل الاختلاف ، لأن الفعل سببى فى « أدر الحجر » أى (« اجعل الحجر يدر ») وفى « در إلى اليمين » انعكاس بمعنى أن المسند إليه هو فى الوقت نفسه غاية الحدث (اجعل نفسك تدر إلى اليمين) . وكذلك الحال فى اللاتينية فى saepe stylum uertas «در (بمعنى أدر) أسلوبك غالبا » وفى uerte hac « در من هنا »[1] .

* * *

(١) انظر ارنو : رقم ٦ ، مجلد ١٥ ، ص ٣٢٥ .

كلما توغلنا فى تحليل الفصائل النحوية للغة من اللغات زدنا إدراكا لاستحالة إرجاعها إلى نظام منطقى . وذلك مما يمكن تفسيره من جانب النحو بعلل فى غاية الوضوح : ذلك بأن النحو فى أية لغة وفى أية فترة من فترات تاريخ هذه اللغة ليس إلا نتيجة لأنواع مختلفة من النشاط يصيب نواحى النظام النحوى المختلفة ويصيبها مستقلة بعضها عن بعض . فإذا كانت نقطة البدء فى التغيرات الصرفية تنحصر فيما يسمى بالقياس ، فإن نتيجة هذا القياس ليس من شأنها أن تجمل المنطق يسود النظام النحوى من جهة كونه كلاً .

من جهة أخرى لا شىء يبرر الفرض القائل بأن الفصائل النحوية كانت فى فترة بدائية من تاريخ اللغة منطبقة تماما على الكليات المنطقية للعقل وأنها بمرور القرون بعدت عنها شيئاً فشيئا تبعاً للتغيرات الناجمة من الاستعمال ، إذ أننا مهما تعمقنا فى التقصى فى تاريخ اللغة لا نصل إلا إلى حالة لغوية على درجة كبيرة من التطور . فأقدم صورة نعرفها للغات المتكلمة فى زماننا هذا ليست أكثر منطقية ولا أقل منطقية من هذه اللغات نفسها .

مما لايخلو أبداً من المخاطرة أن يراد الحكم على عقلية أمة بالفصائل النحوية الموجودة فى لغتها . فهناك لغات تحتفظ زمنا طويلا بفصائل لم يبق لوجودها مبرر وتستمر على اعتبارها وسائل نحوية . وعندنا مثل من ذلك فى فصيلة النوع : فلو أن شخصاً قدم لنا جملة فرنسية فيها كلمة مائدة تضاد كلمة مقعد وقال لنا بأنها مأخوذة من لغة المتوحشين لاتجه ذهننا فوراً إلى لغة البنطو . وقد أعطانا الأستاذ بلى Bally أمثلة عديدة بينة على المشابهة التى نقيمها بين لغة المتحضرين ولغة المتوحشين باستعمال بعض الفصائل النحوية والاحتفاظ بها[1] .

قد يحصل أن تهجر بعض الفصائل اللغوية أو أن تتغير كما يقع لأخرى أن تنشأ ؛ وقد أراد البعض أن يستنتج من هذه الحقيقة أن العقل الإنسانى يتقدم فى طريق التجريد . هذا الاستنتاج له مايبرره فى بعض الأحيان (أنظر فصل الخاتمة). ولكن لاينبغى اللجوء إلى التعميم بأية حال . فالهندية الأوربية لم يكن فيها مصدر ؛

(١) رقم ٤٤ ص ١٠٧ .

فما كانت تستطيع أن تقول « حَمَلَ » أو « فِعلَ » وإنما كانت تقول « أحمل » أو « أفعل » فحسب . فخلق المصدر ، الذى وقع فى كل واحدة من اللغات الهندية الأوربية على انفراد ، كان خطوة واسعة فى سبيل التجريد . ومع ذلك فبعض هذه اللغات قد فقد المصدر كالإغريقية الحديثة والبلغارية مثلا . وهذا لا يحتم أن يكون الإغريقى أو البلغارى قد فقد ملكة إدراك الحدث الفعلى إدراكا تجريديا .

كون بعض الشعوب المتوحشة يملك مثلثاً إلى جانب المثنى لا يحتم كون هذه الشعوب لاتستطيع العدد إلا إلى ثلاثة[1] . ذلك لأن فصيلة العدد النحوية مستقلة عن معنى العدد . وكذلك قد أبان الأستاذ بلانرت Planert أنه يجب التمييز بين فكرة السببية وبين الفصائل النحوية التى تستخدم للتعبير عنها ؛ فإذا كان سكان الملايو لايعبرون عنها ، فإن ذلك يمنعهم من أن يفكروا تفكيراً سببياً[2] . فهنالك وسائل مختلفة من التنغيم أو الإشارة يستعاض بها عن الفصائل غير الموجودة .

وإذا كانت اللغات تحتفظ فى بعض الأحيان بفصائل نحوية لافائدة منها فإنها لا تعجز يوما عن خلق فصائل جديدة عند الحاجة . لقد قابلنا فيما سبق بين اللغات التى تعبر عن الزمن واللغات التى تعبر عن صفة الفعل . فإذا نظرنا إلى الوقائع على نحو مايقدمها لنا تاريخ اللغات الهندية الأوربية ، اظننا أن فكرة الزمن أحدث من فكرة الصفة وأنها حلّت محلها . ومع ذلك ففكرة الصفة ليست مجهولة فى لغاتنا الحديثة التى تعبر عن فكرة الزمن على خير ما يكون التعبير عنها .

استعملت اللغات الجرمانية مثلا للتعبير عن الزمن الاستمرارى الذى لم يكن فيها إسم الفاعل مصحوبا بفعل الكون . فإننا نجد فى الألمانية العليا المتوسطة تراكيب مثل : all die mich sehende sint « كل أولئك الذين يروننى » (der arme Heinrich ، البيت ٦٧٣) أو der riter ... mit tem der lewe varend ist « الفارس ... الذى معه يسافر الأسد» (Iwein بيت ٢٩٨٦). هذه الحاجة نفسها هى التى بعثت على نشوء التركيب الإنجليزى I am going ،

---

(١) ليفى برول : رقم ٨٨ ، ص ١٥٧ .

(٢) بلانرت : الفصائل النحوية فى علاقتها بالسببية . بحث فى لغة مدغشقر (رقم ٣٤ ، مجلد ٩ (١٩٠٦) ص ٧٥٩ — ٧٦٨) .

I was reading الذى شاع شيوعا هائلا . ويلاحظ فى فرنسية القرن السادس عشر وجود محاولة لخلق استمرارى من هـذا القبيل بواسطة الفعل être « كان » أو aller « ذهب » : ولـكنه اندثر بعد أن حـكم عليه مالرب Malherbe وميناج Ménage بالإعـدام . ومع ذلك فإننا نرى ڤواتير Voiture يقول : « cette prison qui va vous renfermant. » « هذا السجن الذى يطبق عليك » ويقول لافونتن : « Je me vais désalterant » (أطفىء ظمئى) .

الفرنسية التى تمتاز من بين جميع اللغات بثرائها فى وسائل التعبير عن الزمن قد وجدت وسيلتين للتعبير عن الصفة وهى تستخدمهما مجتمعتين منذ بضعة قرون(١) .

إحـدى هاتين الوسيلتين تنحصر فى استعمال السابقة الفعلية re للدلالة على الحدث الوقتى فى مقابلة الحدث الاستمرارى . فكلمتا rabattre ، rabaisser « يخفض » لا تعنيان أن نخفض من جديد أو أن نزيد فى الخفض بل تعنيان فحسب اتباع الرفع بالخفض دون اعتبار للزمن الذى يلزم لذلك . فإذا تمثـل الحدث أمام الذهن فى المـدة التى يستغرقها ، وحتى نهاية تنفيذه ، استعملت الصيغة البسيطة abattre أو abaisser « خفض » كذلك: réveiller quelqu' un « إيقاظ أحد الناس » معناه جعله يكف عن النوم أو أن يصحو؛ و remarquer une chose « علّم شيئاً » معناه أن يضع علامة لهذا الشىء وأن تبقى هذه العلامة . وفى اللغة الشعبية يميل الفعل المركب مع re فى كل مكان إلى أن يحلّ محل الفعـل البسـيط عنـدما لا يراد إلا نتيجة الحـدث : فالفعل unir فى unir deux personnes « يجمع بين شخصين» لم يعد يستعمل إلا فى الاحتفال بالزواج ، وفى غير ذلك يقال réunir « يجمع » ؛ و remercier « يشكر » حلّ محل mercier « يشكر » الذى كان لا يزال يستعمل فى القرن السادس عشر ؛ و ralentir « يبطىء أو يبطّىء» معناه تقليل السرعة ، كذلك الأفعال ramasser « يجمع بالالتقاط » و recueillir « يلتقط أو يجنى » و regarder « ينظر إلى » أخذت معانى جديدة تخالف معانى garder, cueillir, amasser و rattraper quelqu'un (يقبض على أحـد

(١) بربلنيه (Barbelenet) : رقم ٩٩ ، ص ٨ وما يليها .

الناس) يستعمل الآن فى المعنى الحقيقى ولم يعد attraper (يلوم) يستعمل إلا فى المعنى المجازى . ويقال remportez-moi ça أو rapportez (حرفيا كان يجب أن يكون المعنى : أحضر إلىّ هذا من جديد) فى معنى apportez أو remportez (أحضر إلىّ هــذا) ، renfermez le chat (أحبس القط ، أصلا أعد حبس القط) refermez la porte (أغلق الباب ؛ أصــــلا أعد إغلاق الباب) و rentrez donc (ادخُلْ)(أصلا أدخل من جديد) بدلا من entrez donc (ادخل) يقال لك ذلك فى بيت لم تدخله من قبل اطــلاقا prends garde de répandre (un liquide) « إحذر أن تريق (سائلا) » أصــلا أن تريق ثانية . . .) الخ . مثل هذه الأمثلة موجودة فى الفرنسية القديمة ، إذ نقرأ عنــد إيمري دى نربون Aimeri de Narbone : «ralez vos en» (انصرف) (أصلا انصرف ثانية) بدلا من allez-vous-en : فاللاصقة تزيد من درجــة التعبير بشكل واضح . هذه العملية ، وقد ظلت منتعشة بالحياة فى الفرنسية ، توجــد فى اللاتينية أيضا ، بل إن أصلها سابق على اللاتينية نفسها ، إذ أننا نعثر عليها أيضا فى الجرمانية وفى البلطية السلافية .

ولــكن الفرنسية لا تقتصر على هــذه الطريقة ، بل إن لديها طريقة أخرى للتعبير عن فــكرة صفة الفعل : وهى استعمال الفعل الانعكاسى (يقابل المطاوع فى العربية من بعض الوجــوه) . قارن défiler « يمرون فى صف » و trotter « ركض » بالفعلين se défiler « حرفياً : يمرر نفسه فى صف » se trotter حرفيــاً : « ركض نفسه أى ركض » : فترى أن الفرنسية تستخدم الفعل الانعكاسى وتضيف له لاصقة فعلية ، واللاصقة فى هذه المرة إما — é أو — en : s'en aller « ينصرف » (بالدقة يضع نفسه فى حالة انصراف) و s'enfuir « يهرب (يضع نفسه فى حالة هرب) » و s'envoler « يطير (يضع نفســه فى حالة طيران) » و s'écrier « يصيح (يضع نفسه فى حالة صياح) » و s'éc-rouler « ينهار (يضع نفسه فى حالة انهيار) » الخ . فهذه الأفعال ، إذا قورنت بمقابلاتها البسيطة ، تقدم لنا خير المثل على هذه الحقيقة . فالفرنسية إذن لا يعجزها

التعبير عن الصفة ما دامت تجد الوسيلة إليه بمجرد أن تشعر بالحاجة إلى ذلك . غير أن الصفة ليس لها فى الفرنسية فصيلة نحوية مطردة . إذ لو عُرض علينا فعل فرنسى لم نستطع أن نتبين منه ما إذا كان يدل على الاستمرار أو على الشروع على نحو ماتتبين منه ما إذا كان يدل على المستقبل أو على غير التام . وإذا كانت هناك لغات كالروسية تغلب فيها فكرة الصفة إلى حدّ تصير معه قاعدة للنظام الفعلى ، فإنّ هذه الفكرة ليست فى الفرنسية واللاتينية إلا بقايا متناثرة أو أنها لا تسدّ إلا حاجة عارضة .

إذن تختلف الفصائل النحوية فى الأهمية تبعاً للغات . فالنظام الصرفى لا يمكن أن يحتوى إلا على عدد محصور من الفصائل التى تفرض نفسها والتى تعم وتظهر . وإنما توجد فى كل لغة ، إلى حد كبير أو صغير ، نظم أخرى تتداخل وتتقاطع وراها تمثّل ، إلى جانب الفصائل النحوية التامة الازدهار ، فصائل أخرى فى طريق الفناء أو — على العكس من ذلك — فى طريق التكوين .

من جهة أخرى يمكننا أن نقيم بين الفصائل النحوية نوعاً من الترتيب التدريجى : فبعضها ليست إلّا صوراً خاصة من فصائل أعم منها . فقد أمكننا مثلا أن نتكلم عن المبنى للمعلوم والمبنى للمجهول على أنهما فصيلتان نحويتان ، ولكننا نستطيع أن نرجعهما إلى فصيلة واحدة دون عناء . نعم ، نحن لا ننكر أن لغة تخلو من المبنى للمعلوم لا تستطيع مثلا أن تترجم جملة مثل je vous aime « أحبك » ؛ ونعنى بذلك أنه يستحيل ترجمتها من الفرنسية ترجمة حرفية ؛ لأن النسبة التى نعبر عنها بالفعل المسمى المبنى للمعلوم يمكن التعبير عنها فى تلك اللغة المفترضة ولكن فى صورة مخالفة .

كذلك ما نعنيه بمصطلح المضاف إليه فى الإغريقية أو اللاتينية ليس له نظير فى الصينية ، وكذلك الفرنسية والغالية تخلوان من مثيل له . فإنا نقول فى الفرنسية Le livre de Peirre « الكتاب [بتاع] بيير » بدلا من liber Petri « كتاب بطرس » . والصينية تعبر عن هذه النسبة بين الاسمين بواسطة ترتيب الكلمات ، فتضع المضاف إليه قبل المضاف فتقول Hantchaou ، هَنْ تشَاوُ

« دولة الهون » (حرفياً الهون دولة) ؛ والغالية تستخدم عكس هذا الترتيب فتقول Aber yr afon « مصب النهر (حرفياً المصب النهر) » (أنظر ص ١١٢) . فمن الخطل أن نتكلم عن مضاف إليه فى الغالية أو فى الصينية ، أو فى الفرنسية أيضاً . ولكنا نعرف أن المضاف إليه الاسمى فى اللاتينية يمكن الاستعاضة عنه بصفة : فنستطيع أن نقول uirtus Caesarea « الفضائل القيصرية » بدلا من uirtus Caesaris « فضائل قيصر » . وقد صار ذلك قاعدة فى اللغة الروسية . بل إن التركيب le livre de Peirre « الكتاب [بتاع] بيير » ليس التركيب الوحيد المستعمل فى الفرنسية ؛ فإننا نقول أيضاً : palais royal «القصر الملكى » أو livres Sibyllins « الكتب السبيلية » و La maison à Peirre « البيت [بتاع] بيير » l'hôtel - Dieu « بيت الله (حرفياً البيت — الله » la rue Gambetta « شارع غمبتا (حرفياً) : الشارع غمبتا » ، فهنا أيضاً لا توجد فصيلة نحوية للتعبير عن فصيلة عقلية واحدة . فالألمانية فيها مضاف إليه فى Vater's Haus أو das Haus des Vaters « بيت الوالد » ولكنها تستطيع كذلك أن تقول meinem Vater sein Haus « [ل] والدى بيته (بمعنى بيت والدى) » ، وهذا تركيب يختلف كل الاختلاف . فإذا ما راعينا هذه الاختلافات التى ترجع إلى الطريقة التى بها تتكون الصورة الكلامية ، جاز لنا أن نقرر وجود فصيلة عامة واحدة فى كل اللغات التى تكلمنا عنها ، هى فصيلة التبعية . ونضم المضاف إليه الإغريقى واللاتينى وترتيب الكلمات الصينى والغالى واستعمال الحرف «de» فى الفرنسية .

وفصيلة التبعية التى تبدو لنا واحدة ينضوى تحتها فروع يبررها النطق . فنحن نقول فى الفرنسية sa beauté est éclatante « جمالها وضاء » أو la beauté en est éclatante « الجمال فيها (أو فى ذلك) وضاء » تبعاً لما إذا كان الكلام مثلا عن امرأة أو عن صورة زيتية ، أو بعبارة عامة ، عن شخص أو عن كائن غير حى . على حين أننا نقول من غير تفريق le pere de Pierre « الوالد [بتاع] بيير » la culotte de Pierre « السراويل [بتاع] بيير »

دون أن نتخيل وجود خلاف فى النسبة التى تجمع بين الكلمتين فى كل من العبارتين . وعلى العكس من ذلك تميز اللغة المندنجية le mandingue ، إحدى لغات إفريقية الغربية ، بين afa (آفا)«أبوه»و' a-ta kursi (آ — تا — كرسى) « سراويله » : فضمير الملك يختلف فى كلتا الحالتين ، لأن الأب لا يتبع ابنه على نحو مايتبع السراويل مالكه[١] . ففصيلة التبعية فى هذه اللغة تزيد تعقيداً بتمييزها بين تبعية الملكية وتبعية غير الملكية . أما الفرنسية فلا تشير إلى هذا الفرق وإن كان يبدو مسلماً به عند التفكير .

* * *

يرجع الخلاف بين النحو والمنطق إلى أن الفصائل النحوية والفصائل المنطقية لاتلتقى إلا نادراً ؛ فإن عدد الثانية لايتفق مطلقاً مع عدد الأولى : فإذا حاولنا أن ندخل فى مسائل النحو شيئاً من النظام بتصنيفها وفقاً للمنطق ، رأينا أنفسنا منساقين إلى توزيعها توزيعاً تحكمياً : فطوراً نرانا نفرق بين مسائل ذات صفة نحوية واحدة فى فصيلتين متميزتين من فصائل المنطق (وفى ذلك إكراه للغة) ؛ وطوراً نرانا نجمع فى فصيلة نحوية واحدة مسائل لايربط بينها شئ من المنطق (وفى ذلك إكراه للعقل) . فالأيسر إذن أن نختار طريقة وسطا بين هاتين الطريقتين من طرق التصنيف . وفى ذلك تبرير لمسلك النحاة الذين لا نعدم أن نجد قيمة نحوية فى مصطلحاتهم وإن كانت تحكمية وخالية من المنطق فى غالب الأحيان . والشيء الوحيد الذى نطالبهم به هو أن تكون تصنيفاتهم ، وقد ضحوا فيها بالمنطق ، متفقة مع الأوضاع النحوية للغة التى يدرسونها ؛ إذ أن الفصائل ، وإن اختلفت من لغة إلى أخرى ، لها فى الواقع سلطان يطغى على نشاط العقل فى اللغة التى توجد فيها .

من اختصاص الناطقة أن يحددوا الكليات المنطقية وأن يقرروا ما إذا كان وراء الفصائل النحوية المختلفة الألوان فصائل منطقية تجرى على كل اللغات وتفرض نفسها عليها جميعاً بحكم تركيب المخ البشرى . ولنفترض أننا قد وجهنا هذا السؤال

---

(١) م . دلافس M. Delafosse رقم ٤ ، مجلد ١٨ (١٩١٣) ص ٣٥٣ .

إلى رجل من رجال القرن السابع عشر مشبع بالفلسفة الديكارتية ومنطق البورروايال ، فإنه يجيب عنها بالإثبات دون أدنى تردد . قال ديكارت : « صدق الحس هو الشيء الذى قد وزع على الناس خير توزيع . . . وهو الشيء الوحيد الذى يجعلنا آدميين ويميزنا من الحيوان ؛ وإنى لأميل إلى القول بأنه يوجد كاملا فى كل فرد . » وقال لبروير la Bruyère مبالغا فى فكرة الفيلسوف : « العقل فى كل الأقطار موطنه . وإن التفكير ليستقيم فى كل مكان يوجد فيه الناس . » هذا التصور لعقل إنسانى ذى قوانين ثابتة لاتتحرك ، متماثل تام التماثل فى كل الأرجاء ، كان محل تسليم الجميع فى ذلك الحين . ولكنه فى يومنا هذا يبدو محلا للنظر[١] .

ومع ذلك فلا ينكر إنسان وجود بعض سمات أساسية مشتركة مهما اختلفت العادات العقلية بين شعوب الأرض المختلفة . فهناك منطق إنسانى وتوجد كليات منطقية كبرى عند جميع البشر الذين يفكرون . وهى بطبيعة الحال أساس الفصائل النحوية . فمن أين تستمد هذه وتلك قيمتها ؟

يعزو إميل دركهايم[٢] وجود الفصائل إلى نوع من الضرورة تقف بالنسبة للحياة العقلية موقف الالتزام الأخلاقى بالنسبة للارادة : يعنى أن الفصائل ذات أصل اجتماعى وتتوقف على المجتمع . هنا نجد أثر العامل الاجتماعى الذى ظهر لنا بوضوح فيما سبق أنه أصل التغيرات الصوتية . فهو وحده القادر على تفسير القانون الصوتى : فنوع الضرورة الذى يفرض على مجتمع بعينه أن يحركوا جهازهم الصوتى بصورة واحدة ليس له أصل فيزيقى أو ميتافيزيقى ؛ كذلك لا يمكن أن يفسر على أنه عارض فردى ثم عمم : فليس هنالك من سلطة تكفى لأن تفرض محاكاة خاصة فردية . والقسر الذى تفرضه الصوتيات له من القوة ما لا يستطيع معه فرد أن يتخلص من نيرها . وكذلك الحال بالنسبة لسلطان الفصائل وكلاهما يستمد قوته من قوة الرباط الاجتماعى . . .

---

(١) ليفى بريل : رقم ٨٨ ص ٧ .
(٢) رقم ١٠ ، عام ١٩٠٩ ص ٧٤٧ .

الفصل الثالث

الأنواع المختلفة للكلمات (١)

تبلغ الصعوبة فى تصنيف أجزاء الكلم حدّا يعوقنا حتى الآن عن الوصول إلى تصنيف مرضٍ . وما زال نحونا التقليدى يعلمنا أن نقسمها إلى عشرة أقسام تبعاً لتقليد قديم يرجع إلى مناطقة الإغريق . ولكن هذا التصنيف لا يثبت أمام الامتحان : فإن تبرير تطبيقه على اللغة التى خلق من أجلها لا يخلو من عناء ؛ فمن باب أولى أن توجد لغات كثيرة لا ينسجم معها هذا التقسيم إطلاقا . وبمناقشته عن كثب نرى أنفسنا مضطرين إلى تصحيحه .

من المناسب قبل كل شيء أن نبعد من هذا التصنيف حرف التعجب interjection فإن فى حرف التعجب مهما كانت أهميته فى الاستعمال ، شيئا يضعه بمعزل عن بقيه أجزاء الكلم الأخري ، ولا يمكن أن يدرج معها فى تصنيف واحد . فهو لا يخضع دائماً للقوانين الصوتية ، وكثيراً ما يشتمل على أصوات خاصة به ، مثل المصمصات فى كثير من اللغات الحديثة أو الانفجارىّ الاحتكاكى pff « پف » فى الفرنسية وليس له على العموم أى صلة بالصرف . بل يمثل شكلا خاصا من اللغة ، اللغة التأثرية affectif وأحياناً الفاعلة actif ؛ فهو على كل حال لا يدخل فى بنية اللغة العقلية . وسنلتقى به فى الفصل التالى .

بعد ذلك يجب أن نبعد الأصوات . فإن عدداً كبيرا من « أجزاء الكلم » فى نحونا ليس شيئا آخر . كذلك هذه الأدوات التى تسمى بحروف الجر وحروف الوصل ؛ فإن الدور الذي تلعبه يمكن أن تقوم به فى لغات أخرى عملية صرفية تختلف عنها كل الاختلاف . فالفرنسية تقول Le livre de Pierre « الكتاب

---

(١) أنظر رزفادوفسكى (Rozwadowski) : رقم ١٩٣ وجسبرسن : رقم ٢٢٩ .

[بتاع] بيير » ترجمة للعبارة اللاتينية liber Petri « كتاب بطرس » ، وتقول الفرنسية أيضاً on desait que le comte était mort « قيل إن الكنت قد مات » بينما تقول الألمانية (man sagte der Graf sei gestorben) مكتفية بنصب الفعل (استعمال صيغة ال subjonctif عن حرف الوصل dass ، أن بالعربية ، que بالفرنسية) فى الإشارة إلى تبعية الجملة التابعة ؛ ونرى أن دوال النسبة تتنوع فى اللغة الواحدة : فالألمانية تستطيع أن تقول أيضاً man sagte dass der Graf gestorben ist « قيل إن الكنت قد مات (باستعمال حرف الوصل dass) كما تستطيع أيضا أن تقول : « man sagte der Graf sei gestorben » (باستعمال الفعل فى صيغة التبعية . واللاتينية تستعمل أيضاً العبارتين : rogo venias (أرجو تعفو) أو rogo ut venias (أرجو أن تعفو) . وقد ظلت الفرنسية وقتاً طويلا تقول le bois le roi « الغابة الملك [يعنى غابة الملك] » و le bois la dame « الغابة السيدة (غابة السيدة) » وذلك إلى جانب قولها : le chemin du bois « الطريق [بتاع] الغابة » l'arbre de la forêt « الشجرة [بتاعة] الغابة » . فالكلمات de « بتاع » و que « أن » و dass « أن » و ut « أن » عبارة عن دوال نسبة تستعمل لبيان الصلات التى بين كلمة وكلمة أو جملة وجملة . حروف الجر تختلف فى صفتها عن حروف الوصل بوجه عام . ولكنا نعرف مع ذلك لغات تعبر بصورة واحدة عن بعض العلاقات بين كلمة وكلمة أو جملة وجملة على السواء . فالصينية تستعمل العنصر ti « تى » للدلالة على تبعية الأسماء كما تستعمله للدلالة على تبعية الجمل (أنظر ص ١٠٨) .

وأداة التعريف فى اللغات التى فيها أداة للتعريف ليست إلا دالة من دوال النسبة ، وليست الأداة على وجه العموم إلا اسم إشارة ضعف معناه ؛ وتستعمل كوسيلة للتصنيف ، فهى فى الأسماء تبين النوع والعدد وفى أغلب الأحيان تدل على التعريف أيضاً (أنظر أواخر هذا الفصل) أى أنها تحتوى على كل الخصائص التى تجعل منها آلة نحوية .

وكذلك حالة الضمائر الشخصية : je lis أنا أقرأ تساوى lego « أقرأُ » وكذلك tu lis « أنت تقرأ » و il lit « هو يقرأ » تساويان فى اللاتينية legis « تقرأ » legit « يقرأ » . فالفرنسية تعبر ب : je « أنا » و tu « أنت » و il « هو » عما يعبر عنه فى اللاتينية بواسطة التصريف . فإذا كان الضمير قائما بذاته أو مؤكداً كما يسمونه ، فإنه يلعب دور الاسم بالضبط ، ولذلك وجب أن نسلكه فى فصيلة الأسماء : ويمكننا للتحقق من ذلك أن نقارن الجملتين : — Viens tu, toi? « أأنت تأتى ، أنت ؟ » وViens - tu, Peirre? « أأنت تأتى ، [يا] بيير ؟ » أو « Moi , je suis grand et Peirre, il est petit » [أما] أنا فأنا كبير و [أما] بيير ، فهو صغير . » فالضميران toi « أنت (الثانية) » و moi « أنا (الأولى) » لها القيمة التى لبيير بالضبط . كما أن الضمير الشخصى يقترب من الفعل فى بعض الوجوه . إذ أنه لما كان يقوم فى كثير من الأحيان بدور الدالة على النسبة فى الفعل ، كان إلى حد كبير مرتبطاً فى الفعل بفصيلة الأفعال ومعرضاً لأن تتأثر صيغته بصيغة الفعل .[1] فالضميران الإيطاليان : eglino و elleno « هم و هن » قد أخذا نهاية فعل الغائب الجمع القابلة لها ؛ وكذلك الحال فى الغالية حيث يقال hwynt « هم » بدلا من hwy وذلك تحت تأثير النهاية الفعلية ynt — . ونحن نعرف من جهة أخرى أن اللغات التى احتفظت بالمثنى فى الفعل احتفظت به أيضاً فى الضمير حتى ولو هجرته فى الاسم ؛ وعلى العكس من ذلك اللغات التى فقدت المثنى فى الفعل هجرته أيضا فى الضمير حتى ولو استبقته فى الاسم (أنظر صفحة ١٢٤) . فالضمير ، وإن كان اسمىّ الاستعمال ، يصيبه تأثير الفعل أحيانا ولكنه لا يكوّن قسما مستقلا من أقسام الكلم .

والصفة من جهتها لا يمكن تمييزها من الاسم تمييزاً واضحا . إذ يبدو أنهما فى اللغات الهندية الأوربية صادران عن أصل مشترك وأنهما فى كثير من الحالات يحتفظان بصيغة واحدة . إذ لا شىء يدلنا على كون كلمة bonus « حسن » فى

---

(١) يوهان شمت : رقم ٣٧ ، ص ٣٦ من المقدمة وص ٤٠٣ .

اللاتينية صفة ولا على أن كلمة equus « حصان » اسم ؛ إذ أن علامة الإعراب واحدة فيهما . ولعله لا يستطاع التمييز بينهما الا بالاستعمال (أنظر أواخر هذا الفصل) . ولكن يجب أن نضيف إلى ما تقدم أن من الاستعمالات ما هو مشترك بينهما على التساوى . فيمكن أن يقال : « أنا قوىّ » كما يقال « أنا ملك » و « الرجل عظيم » و « العظيم رجل » ، فالاسم والصفة يتبادلان الدور فى كل اللغات ؛ ولذلك لم يكن بينهما حدّ فاصل من الوجهة النحوية . فيمكن الجمع بينهما فى فصيلة واحدة هى فصيلة الاسم .

إذا تابعنا السير فى عملية الاستبعاد هذه ، لم يبق لدينا من أقسام الكلم إلا قسمان : الفعل والاسم . وكل ما عداهما من أقسام ينضوى تحت لواء هذه الثنائية . وينبغى أن نعرف ما إذا كان الاسم والفعل يمثلان وظيفتين مختلفتين اختلافا جوهريا .

إذا حصرنا نظرنا فى مجموعة خاصة من اللغات كاللغات الهندية الأوربية ، لم نتردد فى الاعتراف بأن الاسم والفعل بينهما فرق أساسي . بل أن مجرد فكرة الخلط بينهما تعتبر من الحماقات . فالواقع أن الصرف فى اللغات الهندية الأوربية يخص كل منهما بسلاسل من اللواحق وعلامات الإعراب تختلف فى أحدهما عنها فى الآخر . وذلك إلى حد أننا فى السنسكريتية والإغريقية نعرف ، تسع مرات من عشر ومن النظرة الأولى ، ما إذا كانت الصيغة التى أمامنا اسما أو فعلا . وفى كل منهما يعبر عن الفصيلة الواحدة بطريقة تختلف عنها فى الآخر ؛ ومن ذلك الشخص والعدد . تقول الإغريقية λέγω بمعنى « أتكلم » و ὁ λόγος μου بمعنى « كلامى » ؛ فالرمز الذى يرمز به للشخص الأول مختلف فى كلتا الحالتين . وعلامة الجمع فى الاسم لا تمت بصلة إليها فى الفعل . فالواقع أن لدينا نظامين من التصريف متوازيين ، وكل منهما مستقل عن الآخر .

غير أننا إذا انتقلنا من اللغات الهندية الأوربية إلى اللغات السامية لم نجد هذا التمييز الفاصل. فالعربية ملأى بالعلامات المشتركة بين التصريفين الاسمى والفعلى . إذ نرى النهاية « ـــُون» التى تستخدم فى المضارع المسند إلى الشخصين الثانى والثالث

المذكرين فى حالة الجمع تستخدم أيضاً علامة للجمع فى كثير من كلمات اللغة المذكورة . وفى حالة المثنى تستخدم لنفس الشخصين المتقدم ذكرهما العلامة « — آن » التى هى علامة الاسم المثنى الوحيدة . ولا تقتصر العلامة بين التصريف الاسمى والتصريف الفعلى فى العربية على بعض وجوه الشبه فى العلامات ؛ بل إنها تمس جوهر الأشياء فى ذاته . فهناك توافق غريب بين الحالات الإعرابية الثلاث (حالة المسند إليه وحالة المفعول المباشر وحالة المفعول غير المباشر) وبين حالات المضارع الإعرابية الثلاث (المرفوع والمنصوب والشرطى أو [المجزوم كما يسميه بعضهم]) . وقد فطن نحاة العرب أنفسهم إلى هذا التشابه فنرى أثره فى المصطلحات التى ابتكروها .

مواطن الشبه بين الاسم والفعل فى اللغات الفينية الأجرية بلغت من الكثرة حداً جعل بعضهم يقرر — وإن كان على خطأ — أن لا خلاف بينهما . والحقيقة أن الفعل فيها من أصل اسمى فى غالب الأحيان ، ولا يزال يقع تحت سلطان العناصر الصرفية الاسمية فى بعض الأحوال[1] . فى القجولية يقال : mini مينى « يذهب » ali (أَلى) « يقتل » يجيئان بنفس الصيغة التى تجىء عليها puyi (يوبى) « آخذ » uri « ماسك » ؛ وفى الفنلندية antaa « يعطى » معناها الحرفى « معط » . وليس ذلك إلا نتيجة لاستعمال الجملة الاسمية البحتة (انظر الصفحات التالية) . ولكن هناك حقيقة أخرى أكثر أهمية ونعنى بها الاشتراك فى العلامات . فى التشيريعية وفى المردفية تستعمل التاء فى بناء الجمع من الأسماء وفى إسناد الفعل إلى ضمير الجمع للغائبين على السواء ، ونجد ذلك حتى فى الفنلندية فى بعض لهجاتها حيث يقال menit « ذهبوا » menisit « قد يذهبون » فى مقابلة meni « ذهب » و menisi « قد يذهب » وذلك يشبه تمام الشبه kalat « السمكات » فى مقابلة kala « السمكة » و puut « الشجرات » فى مقابلة puu « الشجرة » . وفى المجرية حالات من هـذا النوع عينه : ففيها vàrtak « انتظروا » kértak « طلبوا » جمعاً لـ vart « انتظر » و kért « طلب » ، كما أن

---

(١) انظر J.Szinnyei : رقم ٢٨ ، مجلد ٥ (١٩٠٦) ، ص ٦٢ .

« harsak » أشجار الزيزفون» و neveks « الأسماء » جمعا لـ hàrs و név. ولكنا لا نجد فى اللغات الهندية الأوربية حالات من هذا القبيل .

وهناك لغات أخرى كلغات الشرق الأقصى يعتبر عدم تميز الفعل من الاسم إحدى خصائص نحوها الجوهرية . ففى الصينية القديمة مثلا يمكن استعمال الكلمة اسماً أو فعلاً على السواء ؛ وموضع الكلمة وحده هو الذى ينبىء عن أى الاستعمالين أريد .

ونجد مثالا تقليدياً من هذه الحالة فى الجلة : lao lao yeou yeou (لاؤُو لاؤُو يَيئو يَيئو) « عامل الشيوخ على أنهم شيوخ والأطفال على أنهم أطفال » حيث نجد الكلمة التى تستعمل للدلالة على شيخ والكلمة التى تستعمل للدلالة على طفل هما نفس الكلمتين اللتين تستعملان للدلالة على « عامل الشيوخ » و« عامل الأطفال » . ولكن الأمثلة التى لها هذه القوة فى الطابع نادرة . فاستعمال الكلمة على أنها فعل يصحبه على العموم تغير فى النغمة وبالتالى يحصل فى الكلمة بتر فى الحرف الأول إذا اقتضى الأمر ذلك ، وهذا البتر هو الذى أنتج ما نراه اليوم من فرق بين المنفس وغير المنفس . فيقال hao « حسن » haò « يحب » و tsàng « كنز » و ts'áng « يخفى » ، tschouàn « تعليق » tch'ouàn « ينقل » .

وأخيراً يوجد فى الاستعمال الحديث وسائل أخرى لتمييز الاستعمال الفعلى من الاستعمال الاسمى لأول وهلة . وإذا غضضنا النظر عن ترتيب الكلمات وعن أهمية تتابع الجلة على هذا النحو : المسند إليه فالفعل فالمعمول ، فإننا نجد من اللواصق ما يرشدنا إلى طبيعة الكلمات : فالأسماء تتميز باللاصقة eul أو باللاصقة tseu (انظر ص ١١٧) ؛ والأفعال تتميز باللاصقة tcho (مأخوذة من tchao « يطبق ، يضع ») ، وذلك فى مثل tso tcho « يجلس » و tchao tcho « يضع (ثوباً) » كما يتميز الفعل خيراً من ذلك باللواصق الزمنية leao أو kouo للماضى و yao للمستقبل .

وإذا حدث أن استعملت الكلمة بذاتها فعلاً أو اسماً فى الصينية ، فإن المتكلم يفرق بجلاء بين هذين القسمين من أقسام الكلم . فالنحويون المحليون يميزون

بين الكلمات المليئة (انظر ص ٩٨) و « والكلمات الحسية » (houo tseu) و « الكلمات الميتة » (ssen tseu) ؛ ويقولون بأن الأولى ذات معنى فاعلى والثانيــة ذات معنى انفعالى . فالأسماء والصفات تعتبر من الكلمات الميتة وعلى العكس من ذلك تعد الأفعال ، وهى تستلزم الحدث ، من الكلمات الحية . ومن نتيجة هذا المبدأ أن الفعل إذا استعمل مبيناً للمجهول يمكن أن يعطى نفس التنغيم الذى للاسم ، وبتغيير نغمتة يصير كلمة ميتة . فعدم التمييز بين الاسم والفعل الذى يعزى إلى الصينية عادة ، ظاهرى أكثر منه حقيقياً . إذ لا يوجد إطلاقاً تردد فى معرفه القيمة الاسمية أو الفعلية فى الكلمات التى تستعمل .

هناك لغة تقرب من الصينية إلى حــد كبير من هذه الوجهة ، وهى اللغة الإنجليزية . فمعظم الأسماء فى هذه اللغة يمكن استعمالها أفعالاً أيضاً ، فهى تميل إلى التسليم باستعمال كل اسم أيا كان استعمالاً فعلياً . فيمكن لكلمة مثل fire « نار » أن تــكون اسماً أو فعلاً دون تفريق ؛ بل يمكنها أيضاً بوصفها اسماً أن تقوم بدور الصفة أو الاسم على السواء ، وبوصفها فعلا لا تعنى بالتمييز بين المبنى للمعلوم والمبنى للمجهول . فهى فى الحقيقــــة فكرة تجريدية تصلح لكل التطبيقات المشخصة التى تراد منها . تشهد بذلك الجمل الآتية التى لا تتغير فيهــا الصيغة الخارجية للكلمة بتغير قيمتها : put a fire in my room « ضع ناراً فى غرفتى » ؛ I fire my room « أوقد غرفتى » ؛ a fire fly « ذبابة نارية » O people , so easy to fire « أيها الشعب السريع إلهابه » . وقليــل من الكلمات فى الإنجليزية لا يمكن إخضاعها لهذه الخطة ! فمن كلمة frown « حاجب » يمكن أن يؤخذ to frown « يعبس الحاجب » ومن book « كتاب » يمكن أن يؤخذ to book « يسجل فى مذكرة » ومن bomb « قنبلة » يمكن أن يؤخذ to bomb « يقذف بالقنابل » ، الخ .

ومع ذلك فيجدر بنا هنا ألا نترك أنفسنا فريسة للانخداع . نعم إن كلمة fire « نار » تصلح من حيث المبدأ أن تــكون اسماً أو فعلاً دون تفريق . ولكن ذلك لا يطعن فى حقيقة كون فكرة النار التى تحرق تتميز عن فكرة عمل نار للاحراق

فإذا قلت « توجد نار » أو « أشعل ناراً » ، كان فى ذهنى فكرتان متميزتان تثيران فى ذهن سامعى أثرين مختلفين . لأني فى الحالة الأولى أعبّر عن حقيقة وفى الثانية أصدر أمراً . فليس يوجد إذن فى الإنجليزية ، كما رأينا أنه لا يوجد فى الصينية ، أىّ تردد حول تعيين قيمة كلمة مثل fire عندما يكون هناك محل لإظهار الفرق بين الحالتين . فالسامع يحّس على الفور ما إذا كانت الكلمة اسماً أو فعلا تبعاً لاستعمالها فى الجملة وعلى الخصوص تبعاً لدوالّ النسبة التى تصحبها .

ذلك أنى حسبما أقول a, (the) fire (أى بأداة التعريف أو أداة التنكير) أو to fire (مع سبق الكلمة بالحرف أنْ) أو my fire (مع إضافتها لضمير المتكلم) أو I fire (مع إسنادها لضمير المتكلم) أعين أى القيمتين أريد بالكلمة قيمة الاسم أو قيمة الفعل ، فمجرد الفرق بين دوالّ النسبة يكفى لإظهار الفرق بين قيمتى الكلمة ، وذلك دون أى تردد ممكن . فدوال النسبة (a, the) و (I) تقوم هنا بدور علامات الإعراب والتصريف فى لغة كالإغريقية القديمة : فعبارة I fire « أشعل » هى العبارة αἴθω كما أن a, (the) fire « النار أو نار » هى بعينها αἶθος .

* * *

تمييز الفعل من الاسم الذى يظهر دائماً فى الكلمة الإنجليزية أو الصينية إذا إذا أخذت على انفراد ، يتجلى على الفور إذا وضعت هذه الكلمة فى جملة ؛ فالمسألة ليست مسألة صيغة بل مسألة استعمال . وبعبارة أخرى يجب أن نواصل المسير حتى نصل إلى تكوين الصورة الكلامية حيث تتألف عناصر الكلم لكى نبرز التمييز بين الفعل والاسم . فإذا كانت هناك لغات لا تحتوى على صيغة متميزة لكل من الاسم والفعل ، فإن جميع اللغات تتفق فى التمييز بين الجملة الاسمية والجملة الفعلية[1] .

بالجملة الفعلية يعبر عن الحدث مسنداً إلى زمن منظوراً إليه باعتبار مدة استغراقه منسوباً إلى فاعل موجهاً إلى مفعول ، إذا لزم الأمر : اسمعْ الموسيقى ، بيير كان يشرب نبيذاً ، سيجر الحصان العربة ، الخ . فموضوع الجملة الفعلية أن

(١) أنظر على الأخص ميه : رقم ٦ ، مجلد ١٤ ، ص ١ وما يليها .

تأمر بحدث أو أن تقرر حدثاً أو أن تتخيل حدثاً : والأمر والإخباري والتبعى ، تلك التي يجب أن نضيف إليها المستقبل والشرطى ، كلها تمثل بدرجة كافية من الوضوح هذه الصفات الثلاث للجملة الفعلية . ويمكن أن تكون هذه الجملة من كلمة واحدة : مثل الكلمة الفرنسية prends « خُذْ » واللاتينية Ueniam « سآتى » والعربية قالوا . بل من المستطاع أن تكون هذه الكلمة الواحدة اسماً : فعندما نقول « نار ! » أو « سكوت ! » أو « وقوف ! » أو « التفات ! » ترانا نأمر بتنفيذ حدث بالضبط كما لو كنا نقول : « خذ » أو « تعالوا » أو « توقفوا » . ولا يعبر عن الحدث فى اللغة المنطقية غير الفعل . غير أن الأمر لا يدخل فى اللغة المنطقية إلا جزئياً . فهو صورة اللغة الفاعلة (انظر الصفحة الأولى من الفصل الرابع) . ويمكن التعبير عنه بصيحة . إذا أننا نتطلب السكون بقولنا « هس ! » أو « صه ! » ؛ ونحن نسير الحصان بقولنا « شيه ! » فتلك صيغ أمرية لا تدخل فى النظام النحوى للفعل .

تحليل الجملة الفعلية يقدم لنا نوعاً من الترتيب التنازلى لصيغ الفعل : فأولها الأمر الذى يظل من بعض الوجوه خارجاً عن الفعل المنظم إلى حد أنه يمكن التعبير عنه بالاسم وبصورة أوسع بالمصدر ؛ ثم الإخباري (حاضراً كان أو ماضياً) الذى يقرر وجود واقعة ؛ وأخيراً صيغ الاحتمال أو الحدس .

تختلف الجملة الاسمية كل الاختلاف عن الجملة الفعلية ، فهى تعبر بها عن نسبة صفة إلى شيء : البيت جديد ، الغداء حاضر ، الدخول على اليمين ، قمبيز ملك ، زيد حكيم ، والجملة الاسمية تتضمن طرفين : المسند إليه والمسند ، وكلاهما من فصيلة الاسم . وقد أحس المناطقة من أتباع أرسطو بالفرق بين هذين النوعين من الجملة ، ولكنهم أرجعوها إلى نوع واحد بأن حللوا الجملة الفعلية على نحو يدخل فيها فعل الكون : « فجملة الحصان يجرى » = الحصان (يكون) جاريا . وذلك خطأ لم يجاره فى طول العمر إلا القليل من الأخطاء ؛ وقد شد من أزره الأفكار الميتافيزيقية التى اتصلت بها . فبعض الفلاسفة ، وقد خدعوا باسم فعل « الكون » ، أخذوا يضمون الكون المطلق الذى يمثله فعل الكينونة فى مواجهة العوارض التى تعبر

عنها المسندات . وقد بنى منطق بأسره على وجود فعل الكينونة وجودا حتمياً بوصفه رباطاً ضروريا بين طرفى الجملة أيا كانت ، وبوصفه تعبيراً عن كل إثبات وأساساً لكل قضية . ولكن علم اللغة لم يعضد هذا التركيب الدرسى Scolas-tique ، بل نقضه من أساسه . فغالبية اللغات تشهد بأن الجملة الفعلية لا شأن لها بفعل الكون وبأن هذا الفعل نفسه لم يتخذ مكان الرباط فى الجملة الاسمية إلا فى زمن متأخر .

الصورة المعتادة للجملة الاسمية فى الهندية الأوربية لا رباط فيها ، وهى ما يسمى بالجملة الاسمية البحتة . ففيها يوضع المسند إلى جانب المسند إليه لا أكثر ولا أقل ، وقد يحدد موضع كل منهما بالنسبة لصاحبه بواسطة قوانين خاصة بكل لغة على حدتها . فالإغريقية تقول باطراد : « لأن الملك أكثر قوة » (الإلياذة ، ١ بيت ٨٠) ، و « آخرون قريبون منى » (الإلياذة : القسم الأول ، بيت ١٧٤) دون ذكر فعل الكينونة ، ومثلها الفارسية القديمة إذ تقول : manā pitā Vishtāspa منا پتا ڤشتاسپ « أبى ڤشتاسپا » والسنكريتية تقول : tvám varunas Varuna « أنت ڤارونا . » وقد احتفظت الروسية بالجملة الأسمية البحتة فتقول zavtrak' gotov' « الغداء حاضر » أو dom' nov' « البيت جديد » . وصيغة الصفة هى عين صيغة المسند ؛ ولكن عبارة « البيت الجديد » يمكن أن تقال أيضاً هكذا dom' novy . وهذه المغايرة يدل عليها فى الإرلندية القديمة بوضع الطرفين فيقال infer maith « الرجل الطيب » maith infer « الرجل طيب » ؛ وتعطينا الفرنسية فكرة عن ذلك إذا قارنا عبارة les marrons chauds « القسطل الساخن » بعبارة chauds, les marrons « ساخن القسطل » . وهذه المغايرة مطردة فى الصينية فعبارة ta kouk (تا كووك) معناها « الدولة العظيمة » ولكن kuok ta كووك تا معناها « الدولة عظيمة » .

معظم اللغات يعرف الجملة الاسمية البحتة ، فهى فى اللغات السامية والفينية الأجرية مطردة الاستعمال . فتقول العربية : « زيد عاقل » ، كما تقول المجرية az ég kék

« السماء زرقاء »[١] . وانتشار الجملة الاسمية البحتة فى الفينية الأجرية من الكثرة بدرجة جعلت من المستطاع أن يفسر بلغات هذه العائلة بقاء هذا النوع من الجملة فى الروسية[٢] . والجملة الاسمية البحتة هى القاعدة فى لغات الأسرة البنتية كذلك[٣] ، فيقال فى اللغة السواحلية مثلا simba mui (سمبا موى) « الأسد مؤذٍ » ، والذى يشير إلى الخبر هنا هو نبر الشدة الذى يقع على القطع mu مو . وفى بعض الأحيان يوضع ضمير بين الطرفين (المسند إليه والمسند) زيادة فى بيان العلاقة بينهما مثل : mti u mkulu مْـتِى أو مْـكولو « الشجرة هى كبيرة » ، وهذا هو السبب فى أن الأهالى إذا تكلموا الفرنسية قالوا l'homme lui fort « الرجل هو قوى » بدلا من أن يقولوا l'homme est fort « الرجل يكون قوياً » . وهـذا الضمير كثيراً ما يحل محله الضمير الثابت غير المحدد « i » الذى ينتهى بتركبه مع بعض العناصر الإشارية المختلفة إلى أن يصير فعلا رابطاً فى اللغة السواحلية حيث يقال : mti mi mkulu مْـتِى مِى مْـكُولُو « الشجرة تكون كبيرة » .

هنا نجدنا أمام طريقة لتكوين الفعل الرابط . وهذا الرابط فى اللغات الهندية الأوربية على العموم عبارة عن فعل قديم قائم بذاته وأفرغ من معناه الحقيقى (راجع حوالى منتصف الفصل الخامس) . أما إدخال الرابط فى الجملة الاسمية فيمكن تفسيره بسهولة ، إذ أن هناك فكرة فى الواقع لا يمكن التعبير عنها بمجرد وضع المسند والمسند إليه أحدهما بجانب الآخر ، وهى فكرة الزمن . عندئذ صار استعمال الفعل ، وهو رمز الزمن ، أمراً ضرورياً . فالمجرية إذا أرادت أن تترجم le ciel était bleu « السماء كانت زرقاء » تضطر إلى أن تقول az ég kék vala فتستعمل الماضى غير التام من فعل الكون الذى يدل على معناه ويؤدى عمل الرابط فى الوقت نفسه . ويستعمل هومير الفعل المستقبل ἔσται « سيكون »

(١) Szimonyei : رقم ٢١١ ، ص ٤٠٣ .

(٢) جوتيو ، رقم ٦ ، مجلد ١٥ ، ص ٢٢٥ .

(٣) ساكلو Sacleux ، رقم ٦ ، مجلد ١٥ ، ص ١٥٢ وما يليها .

فى قوله : τὸ δέ τοι ξεινήιον ἔσται « تلك ستكون هدية الضيافة إليك » ، لأن الإشارة إلى الزمن أمر ضرورى هنا . وصفة الفعل كذلك تعد من المعانى التى يعبر عنها بنية الفعل الصرفية ؛ ومن ثم كان من الضرورى أن يذكر الرابط فى الجملة إذا ما أريد الإشارة إلى صفة الفعل .

فإذا ما أدخل الرابط فى الجملة الاسمية عندما تدعو الحاجة إلى إدخاله للتعبير عن الصفة أو عن الزمن ، أمكن إدخاله فيها أيضاً فى بعض الأحيان حتى عندما لا يحتاج المعنى إليه . فالجملة الاسمية البحتة فى اللاتينية مثلا تعتبر من المستثنيات ، إذ أنها لا تخلو من الرابط Deus bonus est auarus est homo «الله يكون كريماً والإنسان يكون شرهاً » وكذلك الحال فى الفرنسية : les marrons sont chauds « القسطل [يكون] ساخناً » وفى الإنجليزية life is short « الحياة [تكون] قصيرة » وكذلك فى الأرمينية وبعض اللغات السلافية غير الروسية ... الخ . ومن ثم ظن بعض النحاة أن الرابط عنصر أساسى فى الجملة . ولكن تاريخ الكلمات نفسه يبرهن على فساد هذا الزعم . فالرابط فى كل اللغات الهندية الأوربية مأخوذ من أرومات فعلية بعد ما ضعف معناها شيئاً فشيئاً . فالأرومة — es التى زودت الجملة الأسمية بالرابط منذ زمن قديم جداً تدل بمعناها الحقيقى على الوجود ، على الحياة ؛ واسم فاعلها sat يدل فى السنسكريتية على كائن حقيق وكلمة satyas المشتقة منه معناها « حق » ويمكننا أن نتتبع هذا العمل الانحلالى الذى أدى بفعل الوجود إلى أن يلعب دور الرابط .

هذا إلى أن هناك لغات كثيرة لم تكتف بالأرومة — es للقيام بهذا الدور[1]. فلدينا عدد لا بأس به من الإبدال التى يستعاض بها عن فعل الوجود فى القيام بدور الرابط . ومن أكثر هذا الإبدال شيوعاً فعل معناه الحقيق « ينبت ، ينمو » وقد احتفظ بهذا المعنى فى الإغريقية ، فى φύειν ، ولكنه فى السنسكريتية bhávati اتخذ معنى « يصير » ثم معنى « يكون » لا أكثر من ذلك ؛

(١) انظر ماروزو Marouzeau ، رقم ١٠٠ ، ص ١٥١ ، وكذلك المراجع المذكورة فيه .

وفى الإنجليزية القديمة léo معناه « أكون » مثل biu فى الأرلندية ، ومن هذه الأرومة اشتقت اللاتينية إحدى صيغ الماضى المسمى prétérit : fuit « كنت» ، كما اشتقت السلافية سلسلة من صيغ فعل الكون (byti « أن يكون » bychŭ « كنت » ، الخ وكذلك استغلت أرومات أخرى غير هذه الأرومة : ففى الإغريقية γίγνομαι قريب جداً من فعل الكون ، مثل Uersor « يوجد عادة » فى اللاتينية ؛ وكذلك stare « يستقرّ » فى اللاتينية زودت الفرنسية بالماضى غير التام j'étais « كنت » ؛ واشتقت الجرمانية من أصل معناه يقطن (فى السنسكريتية vásati « يقطن ») جزءاً من صيغ فعل الكون فيها (ich war « كنت » gewesen « اسم المفعول من كان ») . ولعل الأفعال التى يستعاض بها عن فعل الكون فى الروسية أكثر تنوعاً ، فيقال فيها تبعاً للمعنى الذى يراد إبرازه sidjêt' « أن يكون جالساً » ležet' « أن يكون راقداً » ، stojàt' « أن يكون واقفاً » sostojàt' « أن يكون مركباً » predstávljàt'soboiu « يبدو كأن » ... الخ[١]. ومع ذلك فليست الجمل التى تستعمل فيها هذه الأفعال إلا جملا شبه اسمية ؛ لأن قيمة الرابط التى هى أساس استعماله فى الواقع تمتزج بالمعانى الأصلية لهذه الأفعال . ولذلك كانت شديدة القرب من تلك الجمل الشائعة الاستعمال فى اللغات القديمة والتى نرى فيها الصفة المسندة مصحوبة بفعل ما ، مثال ذلك فى اللاتينية ibant obscuri « هم يسيرون فى الظلام » ، وفى السلافية القديمة : pade nici « سقط على الأرض . »

مثل هذه الجمل يمكن تسميتها بالجمل الاسمية الفعلية ، لأنها تجمع بين خصائص هذين النوعين من الجمل اللذين قابلنا بينهما فيما سبق . فهى فى الواقع جمل اسمية ولكن ، أدخل فيها فعل . ويوجد ، على العكس من تلك ، جمل فعلية إسمية . وهى الجمل التى يستعاض فيها عن الفعل بعبارة اسمية ، مثل الأمثلة التى تقدم ذكرها فى الفصل السابق « إنه يكون لى رأى » بدلا من « أرى » ؛

(١) بوييه سبرنسكى Boyer—Spéranski ، رقم٥٣ ، ص ٢٤٩ وما يليها . مثل هذه الأبدالات شائعة أيضاً فى البولونية .

وفى اللاتينية opus est mihi « إنه تكون لى حاجة » بدلا من egeo « أحتاج » ؛ وبعض اللغات لها ميل خاص إلى استعمال الجمل الفعلية الاسمية . فنجد فى طرف الميدان الهندى الأوربى مجموعتين من اللغات يشيع فيهما استعمال الجمل الفعلية الاسمية : وهى مجموعة اللغات الهندية من جهة ومجموعة اللغات الكلتية فى إرلندة وبريطانيا العظمى من جهة أخرى .

نجد فى السنسكريتية الكلاسيكية ، بل ومن قبلها فى اللغة المهابهاراتية Mahâbhârata ميلا إلى الاستعاضة عن صيغ الفعل الشخصية باسم المفعول مصحوبا بصيغة من الرابط إذا اقتضى الحال . ويعتبر ذلك طغياناً من الجملة الاسمية على الجملة الفعلية أكثر مما يعدّ استعاضة بإحداها عن الأخرى . لأن الفكرة التى يعبر عنها تظل هنا من الأفكار الخاصة بالفعل : إما حدث أو حالة ، ولا تكون صفة . هذه هى الحال عندما يقال kva yūyam ushitās (بتنجالى) « أين قطنتم ؟ » باستعمال اسم الفاعل ushitās مرفوعاً مجموعاً بدلا من ūsha الذى هو الفعل مسنداً إلى جمع المخاطب . وتزيد نسبة الجمل التى من هذا القبيل يوما بعد يوم ؛ وتبلغ درجة كبيرة فى السنسكريتية الكلاسيكية التى من أبرز صفات الاستعمال فيها استعمال اسمى الفاعل والمفعول . وقد ساعد الاتساع فى استعمال هذه الجملة على الاستعاضة بالمبنى للمجهول عن المبنى للمعلوم فى حالات كثيرة (أنظر صفحة ١٤١). فنجد فى القطع النثرية من المهابهارتية جملا مثل : maya vrta upādhyāyas « اخترت سيداً » والترجمة الحرفية « بى مختار سيد » tvāya parāddham « ارتكبتَ خطأً » (حرفياً : بك مرتكب خطأً) ، avābhyām apūpo , dattas « نحن الاثنان أعطينا فطيرة » (حرفياً : بنا الاثنين فطيرة معطاة) .

أما فى الكلتية فالمصدر هو الذى توسع فيه على حساب الصيغ الشخصية . إذ تفضّل الصيغة الاسمية على الصيغة الفعلية فى تقديم الكلمات التى تعبر عن الحدث فى الجملة ؛ كما نرى فى الجملة الآتية المأخوذة من غالية الماينوجيون :

gobeith yw gennyf, y neges yd eloch ymdanei, ychaffel

« أؤمل أنك سترع الصفقة التى ستذهب للمفاوضة فيها » (حرفياً : أمل لى ،

الصفقة التي سـتذهب بصددها ، ربحها) . كذلك نرى فى الإرلندية الحديثة فى قصـةرمويد ياد Diarmuid وجرين Grainne الشهيرة : creud adhbhar na moicheírghe sin ort « لماذا استيقظت فى هذه الساعة المبكرة ؟ » (حرفياً : ما سبب هذا التبـكير منك ؟) وكذلك : na biodh fios ar d- turais ag aon duine go teacht tar ats duinn aris « لا يعرفن أحد أننا فى رحلة حتى نرجع » (حرفياً : لا تـكونن معرفة عن رحلتنا لأحد حتى رجوع لنا من جديد .) والأسماء الفعلية فى اللغة الـكلتية تقترب من الأفعال إلى حد يجعلها تقبل اللواصق الفعلية التي تستعمل فى التصريف للدلالة على الزمن ؛ فمثلا لما كانت اللاصقة الفعلية ry تشير إلى الماضى ، أمكن أن يقال فى الغالية الوسـطى : gwedy clybot yn Rufein ry oresgyn O Carawn ynys Brydein « عندما عُلم فى روما أن كارون قد فتح الجزيرة البريطـانية » (حرفياً : بعد معرفة فى روما فتح كارون الجزيرة البريطانية) .

* * *

يوجد من بين استعمالات الاسم والفعل استعمالات متقابلة تعبر عن صورتين مختلفتين من صور التفكير ، ولـكن منها أيضاً استعمالات تسير جنباً لجنب وتنتهى بأن يختلط بعضها ببعض . هذه النزلة بين المنزلتين تحتلها الجمل الاسمية الفعليـة والفعلية الاسمية التي تكلمنا عنها . والعنصر الأسـاسى فى هذه الجمل كلة تشترك بين الفعلية والاسمية . فأحياناً تكون فعلا من فصـيلة ما يسمى بالمبنى للمجهول فى الصينية (أنظر الصفحة الخامسة من هذا الفصل) ، وأحياناً تكون اسماً ذا صفة فعلية ، اسماً أو صفة تدل على الحدث ، يعنى مصـدراً أو اسم فاعل أو مفعول . ويرينا التقليد الجارى فى السنسكريتية والـكلتية ، أنه يستطاع التعبير فى بعض الحالات عن فكرة فعلية بواسـطة الاسم ، وذلك بفضل استعمال الأسماء الفعلية المشار إليها . هذا الاحتمال يعرفه كل من تصدى لترجمة نص إغريقى أو لاتينى . ونرى مدارسنا تعلم تلامذة البلاغة الفن الذى به يستطاع فى بعض الأحيان الاستعاضة باسم عن فعل أو العكس ، وذلك إما ابتغاء احترام ترتيب الـكلمات فى

النص القديم وإما لباعث من الجمال أو التناسق: لذلك يجدر بنا أن نختبر عن كثب قيم الأسماء الفعلية .

المصادر أسماء أحداث بمعنى الكلمة ، ولكن أسماء الأحداث ليست كلها مصادر ، إذ يوجد فى معظم اللغات الهندية والأوربية أسماء أحداث تبنى بواسطة لواحق تدل على أنها أسماء أحداث . وهى على العموم تتصل مباشرة بأصل فعلى وتعتبر إلى حد ما جزءاً من النظام الفعلى . وقد جعلتها صلتها الوثيقة بالفعل تحتفظ منه بأكثر من أثر . فنحن نعرف بماذا يتميز الاسم عن الفعل نحويا ، وهو أن هذا يقبل معمولا منصوبا وذلك يقبل معمولا مجرورا . غير أن بعض اللغات تنصب معمول اسم الحدث . وقد احتفظت اللاتينية ببعض بقايا هذا الاستعمال إذ أننا نجد عند بلوت Plaute جملا مثل : quid tibi nos tactio 'st ? « ما مساسنا بك ؟ » أو : quid tibi hanc rem curatio? « ما عناؤك من هذا ؟ » .

كذلك ينتسب المشتق إلى فصيلة الأسماء بأعم معانيها فى دلالته على الشخص المقصود بالحدث ، أى الشخص الذى يوجد الحدث أو يقع الحدث منه أو عليه ، حسبما يكون مبنياً للمعلوم أو مبنياً للمجهول . وتسمى هذه الأسماء بأسماء الفاعلين ، ولكن اسم الفاعل على العموم كالمصدر لا يشير بصيغته إلى الفرق بين المبنى للمعلوم والمبنى للمجهول (أنظر الصفحة السابقة) . فاسم الفاعل يعمل أحياناً عمل الفعل فى نصب المعمول . ففى اللاتينية : imitatus est eum « الحاكى إياه » مثله مثل : imitor eum « يقلده » . وهذا العمل يمتد إلى مشتقات أخرى غير اسم الفاعل ، فنقرأ لبلوت : orator iusta « الطالب مطالب عادلة » . ولا بد أن ذلك كان تركيباً شعبياً شائعاً لأنه قد ظهر من جديد فى عصور متأخرة : peccatorum ueniam promittor « الذى يعد بالغفران للمذنبين » . ولكننا نجده فى لغات أخرى أيضاً ، ففى السنسكريتية : dāta vāsūni « المعطى الطيبات » أو فى الفارسية القديمة : ahuramazdā thuvām daushtā biyā « فليحبك

أهورامزدا (حرفياً : ليكن محباً إياك) ؛ وفى لغة الزند : puthrem varshta « المنجب الولد » ؛ وفى الإغريقية πολλά συνίστωρ αὐτοφόνα κακά (أخيل ، أجامنون : بيت ١٠٩٠) « الشريك فى عدد كبير من حوادث الانتحار الإجرامية » .

أسماء الأحداث وأسماء الفاعلين التى تتميز عادة بدوال نسبة خاصة (أنظر ص ١١٧) لا تختلط إطلاقا . فهما فى وسط فصيلة الأسماء العامة يكونان فصيلتين خاصتين تتميز إحداهما عن الأخرى تمام التميز . ويمكن أن يضاف إليها أسماء الآلة والأسماء التى تعبر عن نتيجة الحدث . فأسماء الآلة أيضاً تحتوى على لواحق خاصة ، مثل : τρον — فى الإغريقية و trum — أو clum — فى اللاتينية ؛ وهذه اللواحق تضاف إلى أرومات الأفعال . فكلمة : ἄροτρον ، aratrum تدل على الآلة التى تستخدم فى الحرث « المحراث » و poclum تدل على الآلة التى تستخدم للشراب ، « القدح » فهذه كلمة قريبة من أسماء الفاعل بمعناها وبصيغتها معاً ، كما يستبين لنا من مقارنة لاحقة اسم الآلة ‎-tro-‎ بلاحقة اسم الفاعل ‎-ter-‎ أو ‎-tor-‎ .

أما الاسم الذى يعبر به عن نتيجة الحدث أو موضوعه ، فإنه يخرج من اسم الحدث نفسه فى غالب الأحيان . فالقطع Coupure هو ما فعل القطع couper كما أن الرعى pâture هو فعل الرعى paître والحجاز bordure ما حدث من فعل الحجز ولكن كلة coupure تستعمل أيضاً للجرح الذى يحدثه الطفل فى إصبعه بمبراته ، أو بمعنى قطعة قصت من صحيفة ؛ ويطلق لفظ pâture على العلف أو الغذاء و bordure على حافة الجزء الخارجى للثوب أو على رقعة أرض فيها خضرة . فمعظم أسماء الحدث فى الفرنسية يمكن استعمالها أسماء أشياء . وهذه حقيقة نجد لها أمثلة فى كل اللغات الهندية الأوربية .

تشتمل الفصائل التى استعرضناها على عدد كبير من الأسماء المشتركة . والواقع أن كثيراً من أسماء الأشياء المتداولة ، بل ومن أسماء الحيوانات أصلها أسماء أحداث أو أسماء فاعل أو أسماء آلة ثم خصصت . فاسم الفاعل أو الصفة المشتقة من الفعل التى ليست إلا صورة أعم من اسم الفاعل قد قدمت عدداً كبيراً

من الأسماء المشتركة : فكلمة serpens « ثعبان » معناها « الزاحف ، الذى يزحف » ؛ والكلمة الإغريقية ὀδούς وكذلك اللاتينية dens « السن » معناها الآكل ، كما أن السنسكريتية radanas « السن » معناها « الذى يقرض » (radati : يقرض) . كل هذه الأسماء التى ترجع إلى أصول فعلية يمكن تفسيرها بسهولة على أساس الجملة الفعلية .

نجد فى الجملة الاسمية المقابل الصحيح لما يكون عليه اسم الحدث فى الجملة الفعلية : أعنى اسم الصفة المجرد . ولنأخذ الجملتين : أعبد الله والله رحيم ، فالرحمة صفة أن يكون (الموصوف) رحيما ، والعبادة هى فعل أن نعبد . وإذن فالاسم المجرد يخرج بطبيعة الحال من الجملة الاسمية . وهناك حالات يقترب فيها الاسم المجرد من اسم الحدث أشد الاقتراب . وذلك مثلا عندما يتصل اسم الحدث بفعل يكون معناه أوغل فى الانفعالية منه فى الفاعلية . فالجمل الفعلية التى تشتمل على فعل من هذا القبيل تقترب من الجمل الفعلية الاسمية التى تكلمنا عنها فى صفحة ١٦٨ أو تستطيع أن تستبدل بها . ففى الدنمركية مثلا نجد أن اسم الحدث الذى يلحق الفعل elske « يحب » هو kjoerlighed « حنان » (صفة أن يكون الإنسان kjoerlig « حنوناً ») . وفى الفرنسية نرى كلمة endurance « التحمل » اسم حدث واسما مجرداً فى نفس الوقت : فمن الجملة الفعلية : « بيير يتحمل الجوع » ، ويمكننا أن نأخذ : تحمل الجوع (= حدث التحمل) ؛ فى حين يمكننا أن نأخذ من الجملة الاسمية بيير متحمل : تحمل بيير . فالتحمل إذن صفة أن يكون الإنسان متحملا ، كما أن الرحمة clémence أو الصبر patience صفتا أن يكون الإنسان رحيما أو صبوراً .

يخرج الإنسان من فصيلة الأسماء المجردة (أسماء المعنى) إلى فصيلة الأسماء المشخصة (أسماء الذات) . لأن الاسم المجرد كثيراً مايستعمل بقيمة مشخصة . ذلك أن مايعبر عنه اسم المعنى بقوة يظهر للعقل يسيراً عند تحققه فى الواقع . لذلك كانت اللواحق التى تتميز بها الأسماء المجردة مثل — tut — أو — tat — فى اللاتينية و té — فى الفرنسية و ung — فى الألمانية توجد أيضاً فى بعض الأسماء المشخصة .

فليس الانتقال من المجرد إلى المشخص فى مثل هذه الحال غالباً إلا الاستعاضة بالصورة عن الفكرة . وتتيسر تلك الاستعاضة عملياً باستعمال الجمع أحياناً وباستعمال الكلمة صفة أحياناً أخرى . فجمع virtus « الفضيلة » مثلا يستعمل فى الدلالة على الأعمال الفاضلة (بل تطلق الكلمة باستمرار فى لغة الكنيسة على « المعجزات ») ؛ وجمع كلمة laus « مجد » يستعمل للدلالة على « المدائح ، الأفعال أو الأقوال الرضية ، المجيدة (laudes) » . وكلمة مثل « السمة » largesse أو « التفضل » complaisance تثيران فى الذهن أفكاراً مجردة . ولكن جمعهما largesses « سمات » و complaisances « تفضلات » يدل على معان ذاتية ، على وقائع يتحقق بها التجريد فى الواقع . واستعمال الجمع هو الذى يغير قيمة الكلمة هذا التغيير . أما استعمال الكلمة استعمال الصفة فليس أقل من ذلك تأثيراً ؛ فالعذوبة «douceur» عبارة عن صفة ما هو عذب ، ولكنها الشىء العذب أيضاً عند ما تقول : ce remède est une douceur « هذا الدواء عذوبة » . وكذلك الكلمات الألمانية Bescherung « حدث الإهداء ، هدية » Schande « عار » تطلق على أشياء فى الجمل التى من هذا القبيل : das ist eine schöne Bescherung « هذه هدية جميلة » و dies Verfahren ist eine Schande für eine Familie « هذا المسلك عار من أسرة (أى أنه عمل يجلب العار) » ... الخ

والنتيجة الأخيرة لتطور كلمة مجردة نحو الذاتية هى أن يعمل منها صفة . فنى جمل من قبيل : هذا الرجل طيبة خالصة ، وهذه المرأة هى الفضيلة بعينها ، نرى كلمة bonté « طيبة » وكلمة vertu « فضيلة » تلعبان دور الصفة . ومن ثم نرى أن من الصفات أحياناً ما كان أصلها أسماء فيما سبق . فكلمة uber « خصب » فى اللاتينية ليست إلا الاسم uber « الثدى » قد حول إلى صفة . هذا الاستعمال خرج من تراكيب مثل ager uber « حقل هو ثدى » أى أنه ينتج بغزارة ويغذى . وهنا ينحصر التجديد فى أن الاسم يصرف التصريف المتعدد للصفة . فبدلا من أن يقال : agri ubera حيث الاسم الثانى وضع بدلا من الأول ،

قيل : agri uberes . وذلك لأن الاتحاد الخادع فى مثل : arua ubera قد مهد السبيل إلى هذا التجديد . بل قد تقابل أسماء مستعملة استعمال صفة التفضيل من الدرجة الأولى comparatif . أو من الدرجة الثانية superlatif ، مع أن درجات التفضيل من اختصاص الصفات : فى الألمانية الوسطى كلمة scheder « أخسر » تفضيل من schade « خسارة » . والواقع أننا عندما نقول بالألمانية es ist Schade أو بالإنجليزية : it is a pity أو بالفرنسية : C'est dommage « هى خسارة » نحس أن الاسم وقد قام بدور الصفة يجب أن يكون فى قدرته التعبير عن درجات التفضيل .

كون الاسم يستطيع أن يصير صفة بتلك السهولة يرينا أنه لا يوجد فرق جوهرى بين هاتين الكلمتين . مما لا ريب فيه أنه يوجد بين « بيير طيب » و « الطيبة فضيلة » ذلك الفرق الذى ينحصر فى أن « طيب » تعبر عن الصفة بعد أن صارت فردية وشخصت فى كائن ما هو بيير ، وأن « الطيبة » عبارة عن الصفة نفسها تصورت تصوراً تجريدياً . ومع ذلك فإنى عندما أقول « طيبة بيير كثيرة » فإنى بإضافتى لكلمة طيبة قد حددت الفرد الذى يتصف بها ويصير معنى الجملة نفس المعنى فى قولنا « بيير طيب بكثرة » . فالفرق بينهما ينحصر فى بنية الصورة الكلامية لا أكثر من ذلك .

لعلنا نفهم تعارض الاسم والصفة فهماً أدق إذا قارنا جملتين تستعمل فيهما كلمة واحدة بعينها فى وظيفتين مختلفتين (١) . فلنأخذ مثلا « الجرحى الألمان » و « الألمان الجرحى » أو « علماء صم » و « صم علماء » . فليس من شك فى أن الكلمات الأولى من هذه العبارات هى أسماء والكلمات التالية صفات . ذلك أننى إذا اعتبرت مجموع الجرحى فإنى أميز من بينهم طوائف من جنسيات مختلفة فأقول الجرحى الألمان ، الجرحى الفرنسيين ، الجرحى الروس . . . الخ . وإذا نظرت إلى مجموع الجنود الألمان ، فإنى أميز من بينهم طوائف من الموتى وطوائف من الجرحى وطوائف من المختفين وطوائف من السالمين الخ ، فأقول الألمان الجرحى ،

(١) جسبرسن : رقم ٢٢٩ ، ص ١٩ .

الألمان الموتى ، الألمان السالمون الخ ، وكثيراً مايقال فى التعبير عن هذا الفرق بأن الصفة أشمل مضموناً من الاسم . وهـذا حق ولـكن على شرط أن تضاف إليه العبارة التالية : فى نظر المتكلم . إذ لايعنينا فى الحقيقة أن نعرف ما إذا كان عدد العلماء أكثر من عدد الصم أو أن عدد الصم أكثر من عدد العلماء ؛ إذا كان عدد الجرحى أكثر من عدد الألمان أو عدد الألمان أكثر من عدد الجرحى ، بل ما إذا كان المتكلم ينظر إلى فصيلة العلماء أم إلى فصيلة الصم ، إلى مجموع الجرحى (فى مستشفى مثلا) أم إلى مجموع الألمان (فى كتيبة مثلا) .

هذا الفرق فى الشمول قد يوجد أيضاً بين اسمين : فيقال من باب المعارضة : « الطفل الملك » أو « الملك الطفل » ؛ فالـكلمة الثانية فى كل عبارة تقوم بدور الصفة بالنسبة للأولى . إذ أن المتكلم ينظر فى الحالة الأولى إلى فصيلة الأطفال أولاً وقبل كل شىء وفى الثانية إلى فصيلة الملوك . فهما وجهتا نظر مختلفتان .

وتستطيع الصفة بدورها أن تصير اسما . وهذا يحدث كلما أضيف الوصيف العام الذى يعبر عنه بالصفة إلى فرد خاص ، أى كلـما صارت الصفة — وهى شائعة بطبيعتها — معرفة . وهـذا الفرق على درجة من الأهمية جعلت معظم اللغات تدل عليه صرفياً . ففى السنسكريتية وفى الإغريقية القديمة يكتفى بالنبر للدلالة عليه : λευκός « أبيض » وهى من λεῦκος « سمكة بيضاء » . ويدل على التعريف عادة بلاحقة خاصة تضاف إلى الصفة . ففى الإغريقية واللاتينيـة هى اللاحقة الأنفية . فـكلمة στραβός معناها « أحول » ولـكن Στράβων معناها « من عنـده حول ، الأحول » ؛ و catus معناها « ماكر » ولـكن cato (فى حالة الإضافة catonis) معناها « الماكر » و rufus « أصهب » ، ولـكن rufo (فى حالة الإضافة rufonis) معناها « الأصهب » ؛ ومن ثم جاء استعمال هذه الصفات المعرفة فى أسماء الأعلام . وفى الفرنسية يدل على التعريف بواسطة الأداة . فقارن : Vous êtes impertinent « أنت وقح » بجملة Vous êtes un impertinent (نفس العبارة مع استعمال أداة المفرد النكر مع الصفة) أو بعبارة . l'impertinent « الوقح ! » . فعنـدما تلحق الأداة

بالصفة لا يكون المعنى فقط أن هذا الشخص موصوف بالوقاحة ولـكن سر هذه الصفة تتركز فيه ، وهى التى تصنفه وتعينه . وذلك هو السبب فى أن أسماء الأعلام التى أصلها صفات تستعمل بالتعريف . والمناديات من هذا القبيل أيضاً ؛ إذ ليس الذى يعنينا عندما ننادى أحداً أن نشير إلى أنه يملك هـذه الصفة أو تلك بل أن نعينـه فردياً بواسطة الصفة التى يمتلـكها . وللصفة فى الجرمانية كما فى السلافية نوعان من التصريف وفقاً لما إذا كانت منكرة أو معرفة ؛ والصورة المعرّفة هى التى تـكون عليها الصّفة ، والقوطية مثلا فى حالة المنادى مثـــل : atta weiha « أيهـا الأب المقدس » ، brothrjus meinai liubans « يا إخوانى الأعزاء » . أما الفرنسية فتدل على التعريف بواسطة الأداة كما رأينا فى الأمثـلة السابقة وكما نرى فى تعريف : un monsieur impertinent « سيد وقح » إذ يقال monseiur l'impertinent « سيّدُ الوقح » ولذلك يقال فيها أيضاً : ! hé le gros « هيه » السمين ! (يعنى أيهـا الضخم) أو ! le poilu أيها المُشعر ! (يقال عادة للجندى) ! l'enflé « المتورم » ! (أيها المتورم) . ومن ثم جاء استعمال الأداة فى أسماء الأعلام من مثـل : Lebeau « الجيل » Legrand « الـكبير » و Leroux « الأصهب » .

ولما كانت الأداة فى الفرنسية تعبر عن التعريف ، فإن فى استطاعتها أن تعطى القيمة الاسمية لأية عبارة لغوية ، فيقال : un porquoi « لماذا واحدة » des si « بضعة إذاً » و des mais « بضعة لـكن » . بل قد يمكن لجملة أن تصير اسما . إذ أنه لو أعطيت صفة العمومية إلى الجملة الفعلية وتُصورت تصوراً مجرداً ، لأصبحت رمزاً اسمياً . فالطفل الذى يحضر قيام قطـار يسمع القاطرة تصفر ويرى العربات تتحرك ؛ فيلخص ما انطبع فى ذهنه بقوله « وُو وُو ينطلق » جامعـاً بين هذا الانطباع المزدوج وبين التحرك . وتلك جملة فعلية . ولـكن الطفل يعمم ويطلق على القطار اسم « وُو — وُو ينطلق » ؛ فالقطار عنده شىء ينطلق محدثاً وُو وُو ، وقد يقول بعد ذلك الا وُو — وُو ينطلق غادر مـكانه ، أو الا وُو — وُو ينطلق كان مزدحماً أو طويلا أو محملا بالبضـائع ، الخ . فيمكن عمل اسم من الجملة الفعلية

بوضع الأداة أمامها . وهذا أصل لكثير من الكلمات الفرنسية : un m'as tu vu? - « هل رأيتنى واحدة » و : le qu' en dira -t- on « الا ماذا يقول الناس عن ذلك » و : au decrochz - moi ça « إلى [أل] اخلعْ لى هذا » . و le Marie couche - toi là « أل مريم اضجعى هنالك » . (١) ، واللغات المعربة تضع كلمات من هذا القبيل بواسطة علامة من العلامات . فأُلپيان Ulpien خطيب تير ، كان يلقب ب « Κειτούχειτος » بسبب العبارة التى كان لا يفتأ يرددها χεῖται ἢ οὐ χεῖται « أيوجد ذلك أم لا ؟ » ، وعدد كبير من الأسماء المركبة فى السنسكريتية تتكون من جمل مختزلة فنرى Ahampûrvas (ومعناها حرفياً « أنا الأول ») ترد فى رج ڤيدا Rig-Veda (١ و ١٨١ و ٣) وصفا لعربة (يريد أن تحمله إلى السباق) . ومما كان يوقع فى التردد أحياناً الأطراف الأولى من الكلمات الإغريقية التى من قبيل ἑλχεσίπεπλος « جرّر الثوب (بمعنى ذيل الثوب) » و ιτάνυσίπτερος « ينشر — الجناحين » أو δαχέθυμος « يأكل — القلب ؟ » أهى أفعال أم أسماء(٢) . والواقع أنه لايوجد مجال للتردد : فهى أفعال بلا ريب كما هى الحال فى الكلمات الفرنسية : prie-Dieu « يدعو الله » (اسم لمقعد يجلسُ عليه المصلى أحياناً) traine-misère « يجر البؤس » (اسم للشخص الغارق فى البؤس) meurt-de-faim « يموت — من — الجوع » (اسم يطلق على المترب) و vide-gousset « يفرغ — الجيب (لصّ) » . . . الخ . وعندنا فى لغة الأطفال نوع من العطر يسمى sent-bon « يطيب رائحة » ولكن كلّ واحد من هذه المركبات فى مجموعه اسم لاشك فيه .

* * *

هكذا يبرز أمامنا تصنيف للأسماء تدخل فيه جميع الأسماء والصفات (بما فى ذلك بطبيعة الحال الصيغ التى تستعمل أحوالاً adverbes de manière) . فعندنا

(١) فى مثل هذه التراكيب فى اللغة الهنغارية انظر Szimonnei : رقم ٢١١ ، ص ٢٤٤ ؛

(٢) استوف : رقم ١٨٧ ؛ ف : مونييه : les composés suntactiques ، باريس عام ١٨٧٢ ؛

من جهة أسماء الأحداث وأسمـاء الفاعلين (والمفعولين) التى تحددها الجملة الفعلية والتى تشتق منها أسماء الآلة وأسماء الأشياء . ومن جهة أخرى عنـدنا فى وضع موازٍ لهـذه الأسماء المتقدمة أسماء الصفة مجردة كانت أو مشخصة (أسماء وصفات) كما تحددها الجملة الأسمية ، وهى أيضاً تمدنا بعدد كبير من أسماء الأشياء. كذلك قد أشرنا إلى وسيلة لتصنيف الأفعال أيضاً وفقاً لصفة الفعل المدلول عليها بالصيغة (إشارية أو أمرية أو تبعية [استقبالية أو شرطية]) . والأسماء والصفات تمثـل عناصر اللغة الحية وذلك فى مقابلة الأدوات النحوية (من حروف جر وحروف وصل وأدوات وضمائر) . فنرى أنه لا يستحيل تصنيف الـكلمات تصنيفاً عاماً يقوم على خطة يبررها المنطق ولا يناقضها نحو اللغات الهامة . فأنواع الـكلمة المختلفة التى تـكلمنا عنها تتميز غالباً فى كل لغة بدوالّ نسبة خاصة .

ولـكن هذا التصنيف المنطقى ليس التصنيف الوحيد الذى تسمح به كلمات لغـة من اللغات . فيمكننا أيضاً أن نتصور تصنيفاً سيكولوجياً لا يقوم فقط على طبيعة الدلالات المشتملة عليها الـكلمات بل أيضاً على مقدار الأهمية التى يعلقها العقل على هذه الدلالات[1] . والجانب السيكولوجى يعادل فى غالب الأحيان الجانب المنطقى ، وبانطباقهما على هـذا النحو يوضح كلٌّ منهما الآخر . ولـكن الأول أكثر تنوعاً من الثانى فى بعض الأحيان ويشتمل على فصائل لا يعنى بها المنطق . هذا إلى أنه يمتاز بقبوله للاثبات التجريبى . إذ الواقع أن علماء النفس بدراستهم لظواهر الذاكرة يستطيعون أن يقيسوا كيفية « ارتباط » الـكلمات بالمخ . ويمكن أن يستخلص من نتائج هذه الدراسة تصنيف للـكلمات على حسب السرعة التى بها تمحى الألفاظ من الذاكرة .

توجد وسيلة يسيرة لمعرفة الأهمية النسبية لعناصر جملة من الجمل . وذلك أن تقرأ هذه الجملة على عدة أشخاص مختلفين وأن تطلب إليهم أى الـكلمات قرعت أذهانهم أكثر من غيرها وقبل غيرها . فنجد الأجوبة على العموم واحدة لا تتغير ؛

(١) أنظر فان جنيكن : رقم ٧٧ ، ص ٦٢ وما يليها ، مع ما يذكره اقتباساً عن بيميه Bymet .

وذلك أن الكلمات الحقيقية تقرع الذهن أكثر من دوال النسبة ، والأسماء أكثر من الأفعال ، والأسماء المشخصة أكثر من الأسماء المجردة . فالكلمات التى تقرع الذهن أكثر من غيرها هى التى توقظ على الفور صورة بصرية ولا سيما أسماء الأعلام التى تطلق على أشخاص أو أماكن (على شرط أن يكون السامع عارفاً لها) . قُل لإنسان مثلا : « أنا ذاهب إلى فلان » أو « لم أستطع أن أذهب إلى فلان » أو « ربما ذهبت إلى فلان » ؛ فأول صورة تمثل أمام الذهن وبشكل طبيعى فى هذه الأحوال الثلاث ، هى صورة تلك المدينة الصغيرة فى عشها السندسى ، تتدرج سقوفها الشهباء على سفوح التل ؛ ورى عقود الجسر الحجرى تحلق على السين ، وعلى ضفتيه يرى ستاراً من أشجار الحور العالية أو يلمح المنارة الشاهقة التى تسيطر على المدينة أو ذلك المنزل الذى يألفه فى أحد أحيائها العتيقة . والرؤيا هنا فورية تلقائية . وبعد ذلك كله تمثل فى الذهن فكرة الرحلة والتفكير فيما إذا كانت تتم أو لا تتم . فالنفى ككل ما يدل على النسبة مجرد من كل قيمة شعرية .

هذه الحقيقة لها نتائجها عند استعمال اللغة استعمالاً جمالياً . ومن الكتّاب من لم يتنبهوا لها فوقعوا فى أخطاء حقيقية فيما يختص بموسيقى الكلام . إذ لا يكفى لجعل القارىء يحس بأثر عكسى لانطباع ما ، أن نلصق النفى بالكلمات التى تعبّر عن هـذا الانطباع . لأننا بذلك لا نقضى على الانطباع الذى نريد تجنبه ؛ بل نثير الصورةَ التى نظن أننا قد أبعدناها . أراد أحد شعرائنا المعاصرين أن يصف حديقة تثقلها وطأة الشمس فى ظهيرة يوم قائظ من أيام الصيف فقال :

D'entre les rameaux que meut nul essor
d'ailes et que pas une brise ne balance,
dardent de grands rayons comme des glaives d'or .

« من بين الغصون التى لا تحرك خفقة واحدة من جناح » ؛
« ولا تميل بها نفحة واحدة من رياح » .
« تنبعث أشعة كبيرة كأنها سهام من ذهب » .

فهذه الأبيات جديرة بأن تعطينا صورة صادقة لخفقان أجنحة الطائر

أو لسريان النسيم ، وليس فى مقدور النفى الذى يستعمله الشاعر أن يقصى هذه الصورة من ذهن القارىء .

وكان دى هيرديا de Hérédia أكثر توفيقاً حين قال فى بيت واحد :

Tout dort sous les grands bois accablés de soleil .

« كل شىء نائم فى هذه الغابات الشاسعة التى ناءت تحت الشمس . »

والدالة النحوية شىء آخر غير تلك التى يصح أن نسميها دالة التعبير .

يمكننا أن نتصور دون عناء إقامة نوع من الترتيب التدريجى للكلمات وفقاً لقيمتها الشعرية ، يكون طرفه الأول اسم العلم الذى يستحضر فى الذهن شخصاً أو مكاناً وطرفه الثانى دال النسبة الذى هو أداة نحوية بسيطة كحرف الجر أو أداة التعريف أو النفى . وبينهما يوجد كل هذا البعد الذى يفصل بين المشخص والتجريدى ، وهذه المسافة تتضمن جميع المفردات . ونحن نعلم أن اختفاء الكلمات من الذاكرة يحدث فى أثناء الانتقال من المشخص إلى المجرد وكان ت . ريبو Th. Ribot قد رتب اختفاء الكلمات من الذاكرة على هذا النحو : أولا أسماء الأعلام ، ثم الأسماء المشتركة ، ثم الصفات ، ثم الأفعال . ولعل هذا الترتيب يحتاج إلى تعديل ، لأن من خطئه أنه يقوم على التصنيف النحوى المعتاد . فبعض الأسماء المشتركة ، بل وبعض الصفات ، تبلغ درجة من التشخيص تساوى درجة أسماء الأعلام . والقيمة التجريدية أو التشخيصية للأسماء يمكن أن تختلف باختلاف الأفراد ، وتختلف كذلك باختلاف اللغات . فالفعل فى اللغات القديمة بل وفى الفرنسية بصورتها الحاضرة يمثل دائماً محملا بدوال النسبة التى تسلكه ، إن قليلا وإن كثيراً ، فى فصيلة الكلمات المجردة . ومع ذلك فمن الأفعال ما يرسم صورة على نحو ما تفعله الأسماء تماماً ، وإن كان منها ما يخلو من كل قيمه مرئية .

مما لا جدال فيه أن أسماء الأعلام بوجه عام هى أول ما ننساه ؛ ونفقد الأسماء المشخصة (التى ليست فى الغالب إلا أسماء أعلام) بأسرع مما نفقد الأسماء التجريدية أو الصفات . والمصدر فى الأفعال يبقى حياً بعد موت الفعل الإخبارى . أما أكثر العناصر ثبوتاً فى الذهن فهى الأدوات النحوية . وبالاختصار نرى

التجريدى أكثر بقاء من الشخص . ولعله يمكن تفسير ذلك بأن التجريدى ينفذ إلى المخ بعد مجهود عقلى ويتطلب من الذهن تركزاً ، أما الشخص فليس إلا انعكاس الأشياء فى مرآة الشعور . وهكذا نرانا ننسي الكلمات الشخصة بأسرع من غيرها ، مع أن الكلمات الشخصة فى جملة من الجمل توقظ صوراً أسرع مبادرة إلى ذهننا مما تفعل الكلمات المجردة . ولعل دقة تحدد الصورة يحمل الإنسان على ألا يتعلق بالاسم الذى يعبر عنها إلا قليلا .

توزيع أقسام الكلم الذى قد يقام على هذه القاعدة يختلف اختلافاً كلياً عن التوزيع المعتاد . إذ فيه تجمع الأفعال والصفات والأسماء بل وحروف الجر والظروف معاً وفقاً لنهج جديد . فيجب أن نعتبر كلمة plein « ملء » حرف جر فى مثل : plein la rue « ملء الشارع » و plein les cheveux « ملء الشعر » ؛ ولكن حرف الجر هذا أقل تجريدية من à (« إلى أوب ») فى مثل : aller) à la rue « (الذهاب) إلى الشارع » أو (prendre) aux cheveux « (الإمساك) بالشعر » . ويظهر أننا حتى الآن لم نتجه جديا إلى فكرة التصنيف على هذا النحو : فنكتفى هنا بالإشارة إلى إمكانها ووجاهتها . لأن فى الوقوف عندها أكثر مما فعلنا اعتداء على ميدان المفردات الذى خصص له جزء على حدته من هذا الكتاب ، وكذلك على ميدان اللغة الانفعالية الذى أفردنا له الفصل التالى .

الفصل الرابع

اللغة الانفعالية

لم ندخل في اعتبارنا حتى الآن إلا الصورة التى تصاغ فيها الأفكار صياغة منطقية ، أعنى أننا لم ندرس اللغة إلا بوصفها أداة عقلية . ولكن الإنسان لا يتكلم ليصوغ أفكاراً فحسب ، بل يتكلم أيضاً ليؤثر فى أمثاله وليعبر عن حساسيته . أى أننا إذا اتخذنا قاعدة ما كان يدرس لنا فى المدرسة من التفريق الثلث النواحى بين الذكاء والإرادة والحساسية ، أمكننا أيضاً أن نفرق بين اللغة المنطقية واللغة الفاعلة واللغة الانفعالية .

فاللغة الفاعلة لم تدرس أو لم تكد تدرس حتى الآن . ومع ذلك فلها أهميتها التى تظهر لنا بجلاء حينما نحاول أن نتصور اللغة الإنسانية فى مهدها (أنظر ماتقدم فى ص ٣٩) . هذا إلى أنها فى مجرى التاريخ تسير على قوانين خاصة بها : فميدانها من الوجهة النحوية هو ميدان الأمر فى الفعل وميدان المنادى فى الإسم ، وكل منهما له فى فصيلته صيغ واستعمالات خاصة . وإذا كنا فيما سبق قد جمعنا فى صعيد واحد فعلا مثل : tais-toi « اسكُتْ » ! واسما مثل ! Silence « سكون ! » واسم فعل مثل : chut « صه ! » فإن هذا الخلط لم يتأت لنا إلا لأن الأمر فيها جميعاً يتعلق باللغة الفاعلة التى عندها تزول الحدود بين الفعل والاسم . واللغة الفاعلة مع كونها تستمد غذاءها فى أحيان كثيرة من اللغة المنطقية التى تستعير منها بعض العبارات النحوية الجامدة فى صورتها ، تستحق رغم ذلك أن نميز عنها ؛ لأنها تقوم بدور قد قصر عليها وحدها وتملك آلات خاصة بها . ولكن لم يشرع فى دراستها حتى الآن .

أما اللغة الانفعالية فإنها ستشغلنا أكثر من هذا . فإنها أصبحت ، وخاصة منذ بداية هذا القرن، موضوع بحوث عميقة حددت معالم ميدانها وأوضحت طرائقها[١].

* * *

ومنذ زمن غير قصير كان ج . فن درجبلنتس G.von der_Gabelentz يقول : « الإنسان لا يستخدم اللغة لحسب للتعبير عن شيء ، بل للتعبير عن نفسه أيضاً » . ومن ثمّ لا ينبغي أن ندخل في اعتبارنا فقط الصورة التي تصاغ عليها الأفكار ، بل أيضاً العلاقات التي توجد بين هذه الأفكار وبين حساسية المتكلم . وبعبارة أخرى يجب أن نميز في كل لغة بين ما يعدنا به تحليل التصورات وبين ما يضيف إليه المتكلم من عنده : بين العنصر المنطقي والعنصر الانفعالي[٢] .

ولا ينفك كلا العنصرين عن الاختلاط في كل لغة . وإذا استثنينا اللغات الاصطلاحية ، واللغة العلمية منها بوجه خاص — تلك التي تعدّ خارج الحياة بطبعها — أمكننا أن نقول بأن التعبير عن أية فكرة لا يخلو مطلقاً من لون عاطفي . والسلّم الانفعالي نفسه لا يحوي نغمة واحدة تخلو من العاطفة ؛ إذ ليس هناك إلا عواطف يختلف بعضها عن بعض .

فمن النادر جداً — عندما تتسابق في ذهننا ، ونحن في صدد التعبير عن فكرة ما ، عدة عبارات مختلفة — أن تكون إحدى هذه العبارات عقلية محضة وأن تعبر عن استدلال منطقي بحت أو أن تصور حقيقة أو حادثاً ما في بساطته العارية من كل لباس . أرى حادثاً يقع أمامي فأصيح رائياً لحال صاحبه : « آه ! المسكين ! » وأصادف صديقاً لم أكن أتوقع لقاءه فأقول له : « أنت ! هنا ! » .

---

(١) راجع خاصة مؤلفات الأستاذين بلي Belly وسيشيه Sechehaye التي أوحت إلينا بهذا الفصل إلى حد كبير . شارل بلي : (الدراسة المنهجية لوسائل التعبير) في مجلة « اللغات الحديثة » (Neuere Sprachen) مجلد ١٩ ؛ « علم الأسلوب وعلم اللغة العام » رقم ٢٥ ، مجلد ١٢٨ (١٩١٢) ، ص ٨٧ — ١٢٦ ؛ ورقم ٤٥ ورقم ٤٦ ؛ وسيشيه رقم ١٢٢ . وانظر كذلك فسلر Vossler : رقم ٢١٨ . ونجد تطبيقاً عملياً لقواعد الأسلوب في مؤلفات الأستاذ لنسون Lanson : « توجيهات في فن الكتابة وفن النثر » .

(٢) سيشيه : رقم ٩٨ ، ص ١٨٤ وما يليها .

فهذه الجمل ذات قيمة انفعالية واضحة كل الوضوح . فإذا صيغت فى لغــة المنطق الجدلية صارت : « أرثى لهذا المسكين » أو « يدهشنى أن أراك هنا . » تخيّل أنى استعملت فى الواقع هاتين الصورتين من صور الجملة ، أفتظن أنهما أيضاً يخلوان من كل قيمة انفعالية ، قيمة تختلف بلا ريب عما فى جملتى التعجب اللتين قيلتا فى تلهف وإن كانت لا تقلّ عنها قرعاً للذهن ؟ بل قد يحس الإنسان فيهما إما رغبة فى استخراج المغزى الأدبى من الحادثة وإما تقريعاً للدهشة الناجمة من مقابلة صديق وإما كبتا لحركة من الحساسية شديدة العنف تحاول أن تنطلق من عقالها . ولـكن محاولة التخلص من إظهار العاطفة فى هـذه الحال ليست إلا إظهاراً للعاطفة .

لا تكاد توجد جملة ، مهما كان حظها من الابتذال ، لا تخالطها عناصر انفعالية. فإذا قلت : « بيير يضرب بول » بدا علىّ أنى أعبر بـكل بساطة عن علاقة بين شخصين يجمع بينهما حدث الضرب . وهذا على الأقل كل مازودنى به التحليل المنطقى المزعوم . ولـكن الواقع أن مثل هذه الجملة لا يمكن مطلقاً أن تكون عبارة منطقية عن علاقة ما ؛ إذ أنى أضيف إليها دائماً ألواناً انفعالية . فضرب بيير لبول لايمكن أن يكون عديم الأثر بالنسبة إلىّ ، إذ لو لم يكن له مساس بنفسى لما قلته . إذن فالجملة التى أنطق بها ذات قيمة تختلف عن القيمة التى تـكون لها لو كنت قد قرأتها فى كتاب من كتب التاريخ يدور فيه الـكلام عن ملك ما اسمه بيـير وملك آخر اسمه بول لايعنينى من أمرها شىء . ذلك أن القصص التاريخى موضوعىّ دائماً . وهـذا ما يجعل التلميذ الصغير ، الذى يحفظ دروسه فى التاريخ عن ظهر قلب ، يُقبل دون تقزز على تعداد الفظائع التى ارتـكبها بنـو البشر فى تناحرهم بعضهم مع بعض ؛ فهى لا تحركه لأنه يراها تقـع فى ماض سحيق تباعده عنه سنون طوال ؛ وإذن فهو يتسلّى بها . وعلى العكس من ذلك لا نستطيع أن نقرأ دون قشعريرة تسري فى أجسامنا خبراً لجريمة عادية وقعت أمام منزلنا . فإنى فى المثال المتقدم أرانى لدى نطق بالجملة أحسّ فى نفسى بعواطف مختلفة من الحنق أو العقاب أو التهديد أو الغضب أو الرضا أو التشجيع أو القبـول أو

الدهشة ، وذلك تبعاً لما إذا كان پيير وپول ابنىّ أوطفلين غريبين عنى وتبعاً لسنهما وقوتهما وتبعاً لميولى واتجاهاتى وتبعاً لظروف أخرى كثيرة يمكن تصورها بسهولة. هذه العواطف يمكن بطبيعة الحال التعبير عنها بواسطة التنغيم أو تغير الصوت أو سرعة الحديث أو الشدة التى يركزها المتكلم على هذه الكلمة أو تلك أو بالإشارة التى تصحب الكلام(١). فالجملة الواحدة تحتمل عند النطق مئات ومئات من وجوه الاختلاف التى تقابل أشد ألوان العاطفة خفاء . والفنان الدرامىّ الذى يقوم بدوره فى المسرح عليه أن يجد لكل جملة التعبير اللائق بها والنغمة الحقة التى تناسبها ، وذلك أوضح مايلاحظ على مواهبه . فالجملة التى يقرؤها فى صحيفة تعدّ ميتة ؛ خالية من التعبير . ولكنه ينعشها بنطقه وينفث فيها الحياة . وإذن فمعرفة كلمات الجملة وتحليل عناصرها النحوية ليس معناه استخراج كل مكنوناتها . بل يبقى بعد ذلك تقدير قيمتها الانفعالية .

إنه لواجب يفرض نفسه على العالم النفسى الذى يدرس طبيعة العواطف ؛ وبدرجة مساوية على الفنان الذى يسمى إلى إبرازها على المسرح ؛ وعلى العالم اللغوى ولكن بدرجة أقل . فهذه العواطف لا تعنى هذا الأخير إلا عندما يُعبَّر عنها بوسائل لغوية . ولكنها على العموم تظل خارج اللغة ؛ فهى بمثابة ضباب خفيف يطفو فوق عبارة الفكر دون أن يغير من صيغتها النحوية . نعم من الحق أن يقال إن جملة « پيير يضرب پول » لا ينطق بها فى اللغة دون نوع من التنغيم يحدّد من لونها . ولكن الجسم الإنسانى أيضاً يشغل دائماً فى الواقع وضعاً ما : فلا يمكن تصوره على خلاف ذلك . والوضع الذى يسمى وضع الراحة ليس إلا وضعاً من الأوضاع ؛ فيجب على النحات أن يعرف الصورة التى تتخذها العضلات فى جميع الأوضاع ؛ ويترتب على ذلك أنه لا يمكن أن يوصف بالمغالاة مهما أنفق فى دراسة تشريح الجسم الإنسانى . ولكن الجرّاح الذى يشرّح أجزاء الجسم يستطيع أن يستغنى عن أوضاع الحركة فى هذا الجسم . فليس فى كل الحركات التى يمكن تخيلها إلا جسم واحد يتحرك . كذلك يستطيع العالم اللغوى أن يسقط من حسابه

(١) أنظر بوردون Bourdon : رقم ٥٢ .

اختلافات التنغيم والإشـــارة التي تحتملها إحدى الجمل مهما كانت ، ما دامت لا تغيّر من بناء الجملة النحوى .

غير أن هناك حالات تختلط فيها العبارة الانفعالية بالعبارة النحوية إلى حدّ أن تغيرها ، بدلا من أن تبقى ملتصقة بها مجرد التصاق .

والانفعالية فى اللغة تعبر عن نفسها على وجه العموم بصورتين : باختيار الكلمات وبالمكان الذى يخصص لها فى الجملة يعنى أن معيني اللغة الانفعالية الأساسيين هما المفردات والتنظيم . أما المفردات فستدرس على حدتها وسنرى الدور الرئيسى الذى تقوم بلعبه الانفعالية فى تغيير معانى الكلمات . ولا يعنينا أن نذكر هنا إلا الحالات التى فيها جزء الكلمة الانفعالى يكون فى اللاحقة ، يعنى فى عنصر صرفى . وهذه حالة كثيرة الورود . فإذا وجدت كلمة على درجة عاليـة من قوة التعبير واشتملت هذه الكلمة على لاحقة ما ، فالذى يحصل أن اللاحقة تتشرب هذه التعبيرية إلى حد أن تمتصها كلها ، لتصير عنصر الكلمة المعبر . فاللاحقة aille — « آى » فى الأصل لا توقظ أية فكرة : ولذا ظلت خالية من التعبير فى كلمة مثل Bataille (بَتَـى « موقعة ») . ولكن لما كانت قد وجدت فى كلمات التحقير مثل canaille) كَنَى « طغام ») و marmaille (مَرْمَى «عصابة أطفال ») ... الخ ، فقد أخذت هى نفسها هذه القيمة التحقيرية ، وليس منا من لا يحسّ معنى الاحتقار الذى ينبعث من Prêtraille (پْرِيتْرَى « قسس » عندما يقصد تحقيرهم) و radicaille (رَادِيكَى) « أصحاب الحزب الراديكالى » (عند إرادة التحقير) . وكذلك اللاحقتان ard — (آرْ) و asse — (آس) لها هذه القيمة فى عدد من الكلمات غير قليل . ولواحق التصغير — لأنها توحى بفكرة الكلمة التى تلصق بها فى صورة مختزلة — تضم عادة إلى هذه القيمة عاطفة اللطف أو النفاســـة أو عاطفة الحنان أو الانعطاف أو الإشفاق . فكلمة maisonette « دُوَيْرَة » وكلمة jardinet « بُسيْتين » لا يعنيان فقط منزلا صغيراً أو بستاناً صغيراً ، بل إن اللاحقتين et- ، ette- تقومان فيهما حقيقة بدور دوالّ

العاطفة . فالصرف يساعد هنا على التعبيرية فيفعل ما تفعله المفردات باستعمالها للصفة في مثل : « دارى الصغيرة أو بستانى الصغير المسكين » .

طريقة ترتيب الكلمات تمس النحو عن قرب أيضاً [1] . وتختلف اللغات اختلافا ملحوظا من جهة حريتها في ترتيب الكلمات . من هذه الوجهة يفرق غالباً بين نوعين من اللغات : اللغات ذات الترتيب الحر واللغات ذات الترتيب الثابت . وهو تفريق لا تبرره الوقائع . فالحقيقة أنه لا توجد لغة واحدة تسير في ترتيب الكلمات على حرية مطلقة كما لا توجد لغة واحدة ترتيب الكلمات فيها جامد لا يتحرك . فالإغريقية القديمة كالهندية الأوربية تعتبر من اللغات ذات الترتيب الحر . ومع ذلك فإذا أخذنا جملة لأفلاطون لم نستطع أن نجيل الكلمات فيها تبعاً لهوانا كما نجيل القداح في الجعبة . كذلك مهما كان ثبات ترتيب الكلمات في الفرنسية أو الألمانية ، في الصينية أو في التركية ، فإن هذه اللغات تسمح بشيء من المرونة ، ولا يحتم أن تصير غير مفهومة إذا غيرنا ترتيب الكلمات فيها . فالأمر في كلتا الحالين يتوقف على نوع التغيير الذى نجريه .

والحقيقة أنه توجد لغات يلعب فيها ترتيب الكلمات دوراً نحوياً ، والحرية في ترتيب الكلمات محدودة طبعاً بقيمة النظام الصرفية (أنظر ص ١١١) . وهناك لغات أخرى لا يفرض فيها النحو أى نظام إجبارى ، ولا تتأثر العلاقة المنطقية التى بين كلمات الجملة في شيء إذا غيرنا وضعها . تقول اللاتينية : Petrus caedit Paulum كما تقول العربية « يضرب زيدٌ عمراً » أو Petrus Paulum caedit أو « يضرب عمراً زيدٌ » أو Paulum caedit Petrus أو « عمرا يضربُ زيدٌ » دون أن يؤدى ذلك إلى تردد في معرفة الفاعل والفعل والمفعول ؛ لأن التحليل المنطقى لا يرى في ذلك أى اختلاف . ولكن هذه الأوضاع الثلاثة ليست على درجة واحدة من الجودة . والمتكلم اللاتينى ما كان ليخطىء في اختيار خيرها . فالواقع أن دراسة الجملة عند المجلّين من كتاب اللاتين يرينا أن نظام الكلمات فيها يسير تبعاً لقوانين صارمة وإن كان من العسير استخراجها من خضم

---

(١) أنظر هـ. فيل H. Weil : رقم ١٢٨ بالرغم من تقادم عهده .

تنوعها المحيّر : فالمسألة فى كل حالة من الحالات مسألة حس أكثر منهـا مسألة مذهب نحوى . إذ أن هنـاك ترتيباً معتاداً مبتذلا يطرق الذهن لأول وهلة [١] . وهذا الترتيب يمكن مخالفته ، ولكن مجرد المخالفة ينبىء عن غرض ما ، ذلك الغرض هو إبراز كلة من الكلمات لتوجيه التفات السامع إليها . وتلك مسألة أسلوبية يمكن تتبعها إلى أقصى وقائعها ؛ ومن ثم كانت دراسة التنظيم كثيراً ما تجور على دراسة الأسلوب .

هذا النوع من الدراسة فى غاية الدقة ؛ ويتطلب حساً لغوياً مدرباً ، ولطفاً عاليا فى الذوق الأدبى ، يضاف إليها معرفة نادرة بالظروف الفيولوجية للغة المدروسة . لذلك لم يمارس حتى الآن إلا فى حيز ضيق . فى ميدان الفيولوجية الكلاسيكية — وهو من أغنى الميادين بالبحوث — لم يقبل الباحثون على عمل تحقيقات منهجية حول موضع الكلمات فى الجملة إلا منذ عهد قريب . بل إن المنهج الذى يناسب هذه المباحث لم يزل فى بدء تحدده [٢] .

مما استقرت عليه الآراء فى أيامنا هذه ، أنه ينبغى للنحوى الذى يريد دراسة التنظيم فى لغة ما ألا يأخذ الجمل فى مجموعها ليعرف النظام الذى يسير عليه فى ترتيب الكلمات . بل عليه أولا وقبل كل شىء أن يميز أنواع الجمل المختلفة ثم يعيّن فى كل نوع منها بعض المجاميع التى تسير على نظام ثابت . لأن الاستعمال لا ينحصر فى الواقع فى ترتيب كلمات الجملة كلمة كلمة ، بل فى تهيئة المكان لمجاميع من الكلمات . ففى الجملة الاسمية مثلا يؤول الأمر إلى طرفين : المسند إليه sujet والمسند prédicat . والفعل ، إذا كان مصرحاً به (أنظر ص ١٦٦) ، ينتسب إلى المسند ؛ وموضع الفعل بالنسبة إلى المسند أمر ثانوى مستقل عن الأول . فالترتيب الطبيعى فى اللاتينية هو homo avarus est « الإنسان بخيلا يكون » أو avarus est homo « بخيلا يكون الإنسان » تبعا لما إذا كان يراد إبراز فكرة الإنسان أو فكرة البخل ؛

---

(١) ل. هافيه L. Havet ، Mélanges Nicole ، ص ٢٢٥ — ٢٣٢ .

(٢) أنظر خاصة ماروزو : رقم ٩١ و ١١ (١٩٠٦) ص ٢٠٩ وما يليها ؛ وكيركس Kieckers : « موضع الفعل فى الإغريقية وفى اللغات القريبة منها » . ستربسبورج (١٩١١) ورقم ٣٠ ، مجلد ٣٠ ، ص ١٤٥ ومجلد ٣٢ ص ٧ .

والفرق على كل حال غير محسوس فى غالب الأحوال : فالأمر يدور حول التعريف المجرد لبخل الإنسان لا أكثر ولا أقل . هذان الترتيبان يمثلان الطابع المعتاد للجملة الاسمية ، ولا يحاد عنه إلا لأسباب قوية . فالتغيير المكانى التالى : homo est avarus « الإنسان يكون بخيلا » يغير من قيمة الرابط ، إذ تصير الجملة اسمية فعلية من نوع الجملة الفرنسية il se trouve bein « إنه يجده (يعنى يجد نفسه) حسنا » il parait grand « إنه يبدو كبيراً » فالرابط هنا يأخذ قيمة أقل تفاهة من قيمته فى الجملة الاسمية دون أن يصل إلى حد الاستقلال . ويمكننا أن نترجم الجملة السابقة على هذا النحو : il l'est avare « إنه يكونه بخيلا » أو il lui arrive d'être avare « يقع له أن يكون بخيلا » أو il se trouve être avare « وجد نفسه يكون بخيلا » ... الخ . فالفصل بين جزأى المسند يبرز البخل على هذا النحو : avarus homo est « بخيلا الإنسان يكون » أو « بخيلاوجد الإنسان » أو إنه الذى يكون عيب الإنسان » ، الخ . وقصارى القول أن ترتيب الكلمات فى الجملة الاسمية المشتملة على فعل الكون تبين على الترتيب أهمية المسند إليه أو المسند وقيمتى فعل الكون : كونه مجرد رباط أو فعلا معبراً عن الوجود .

المجموعات الرئيسية فى الجملة الفعلية هو المسند إليه والفعل والمفاعيل (مباشرة أو غير مباشرة) ، وكل مجموعة منها تشتمل على كلمة واحدة أو على عدة كلمات حسبما يكون المسند إليه مثلا مصحوبا بصفات أو بمخصصات أخرى وحسبما يكون الفعل مقيداً بظروف عديدة أو غير عديدة . فأول ما يعنينا أن نعرف ما إذا كان الفاعل يسبق الفعل أو ما إذا كان الفعل يسبق الفاعل ثم بعد ذلك كيف تقحم المفاعيل فى الترتيب الذى يتقرر . وعندئذ نرى بعد أن نستثنى الحالات التى يكون فيها لترتيب الكلمات قيمة صرفية (أنظر صفحة ١١١) . إن مكان المسند إليه ومكان الفعل يتوقف فى كل لغة على تغلب بعض أنواع من الجملة تنتهى بأن تفرض نفسها على الاستعمال . ويتضح أن ترتيب الكلمات حتى فى لغات كالإغريقية أو اللاتينية أكثر ثباتاً مما يظن لأول وهلة . وهكذا قد سلم الباحثون بأن بعض العبارات فى الإغريقية تتبع ترتيباً

لا يتغير . وكانت العادة فى التوقيع على الأعمال الفنية أو فى إهداء القرابين أن يوضع الفعل فى وسط الجملة محوطا بالمسند إليه وتوابعه . فنى هذه الأحوال لا يوضع الفعل فى نهاية الجملة إلا نادراً . وليس من شك فى أنه يمكننا بمتابعة البحث أن نصل إلى معرفة الترتيب المعتاد فى عدد كبير من أنواع الجمل فى الإغريقية القديمة ؛ وذلك لا يمنع من وجود ترتيبات عرضية تترك لتقدير الكاتب .

أما فى اللغات التى تسير على نظام ثابت فى ترتيب الكلمات ، دون أن يكون لذاك النظام قيمة صرفية ، فإنه يمكننا بوجه عام أن نكشف عن البواعث التى أدت إلى هذا الثبات بواسطة الامتحان الدقيق لظروف اللغة نفسها . وفى العادة ، لا بد أن يكون قد لزم لها وقت طويل حتى استقرت نهائياً على نظام معين . فالنظام الذى تسير عليه اللغة الكلتية تشهد به أقدم النصوص الإرلندية[1] ، وهو الفعل : يوجد فى صدر الجملة لا تتقدمه إلا السوابق الفعلية التى تستعملها الكلتية بكثرة ؛ بعد ذلك يجىء المسند إليه ثم المفاعيل . ويظهر أن وضع الفعل أمام المسند إليه على هذا النحو يرجع من جهة إلى أن الكلتية تقحم دائماً ضمائر النصب التى تكثر كذلك من استعمالها بين سابقة الفعل والفاعل ، ومن جهة أخرى إلى أن العادة فى الهندية الأوربية كانت قد جرت على وضع الضمائر الإلصاقية فى المكان الثانى من الجملة (بعد أول كلمة منبورة) وذلك يطبع بطابع ثابت لا يتغير بداية الجمل التى تشتمل على لاصقة فعلية وفعل وضمير نصب وهى أكثر الجمل عدداً ؛ فهى إذن مقضى عليها أن تبدأ بالسابقة الفعلية فضمير النصب فالفعل ؛ أما المسند إليه فلا يأتى إلا لاحقاً لها . وما خلق هذا النظام المعتاد فى ترتيب الكلمات فى الجملة إلا الإبقاء على تقليد عتيق . ولكن يجب أن ننبه إلى أن هذا الترتيب تصيبه بعض القيود عند الاستعمال وأنه قد خرج عن صرامته بمضى الزمن .

يختلف الأمر فى الجرمانية بعض الاختلاف . فالألمانية تستعمل ترتيبين متساويين فى الصرامة كلاهما ، وفقاً لطبيعة الجملة . فالفعل فى الجملة الرئيسية يشغل المحل الثانى دائماً . أما المسند إليه والمفعول (أو الخبر) فيمكن

---

(١) ڤندريس : رقم ٦ ، مجلد ١٧ ، ص ٣٣٧ .

وضعهما قبله أو بعده وفقاً لرغبة المتكلم . وفى الجملة التابعة يقذف بالفعل دائماً إلى آخر الجملة ، بعد الفاعل والمفاعيل . فيقال إذن فى الجملة الأصلية : der Wolf lebt im Walde « الذئب يعيش فى الغابة » أو im Walde lebt der wolf « فى الغابة يعيش الذئب » der könig ist blind « الملك يكون أعمى» أو blind ist der König « أعمى يكون الملك » . ولكن يقال فى الجملة التابعة: (man weiss dass) der Wolf im Walde lebt , der König blind ist « (يعرف أن) الذئب فى الغابة يعيش » ، الملك أعمى يكون » .

وقد تم ثبات هذين الترتيبين شيئاً فشيئاً فى غضون التاريخ . إذ نرى التعارض بين النظام المعتاد والنظم العرضية أكثر تعقيداً تبعاً للأنواع المختلفة للجملة ؛ فقد حصل تبسيط فى ظروف لا نحسن معرفتها[1] . ولكن إذا كانت الألمانية قد عينت للفعل مكاناً ما ، فإنها قد احتفظت لنفسها بحرية التصرف كاملة بالنسبة للكلمات الأخرى ، وكل نظام من النظامين له فيها قيمته الخاصة . وفيها إلى جانب النظام المعتاد الذى يبادر بطبيعة الحال إلى ذهن كل إنسان ، إمكانيات لنظم متنوعة يختار المتكلم من بينها وفقاً لإلهامه .

* * *

ينحصر الفرق الأساسى بين اللغة الانفعالية واللغة المنطقية فى تكوين الجملة . وهذا الفرق ينبثق جلياً عندما نقارن اللغة المكتوبة باللغة المتكلمة . فاللغة المكتوبة واللغة المتكلمة تبتعدان فى الفرنسية إحداهما عن الأخرى إلى حدّ أنه لا يتكلم إطلاقاً كما يكتب ولا يكتب كما يتكلم إلا نادراً . وفى كل حالة يوجد اختلاف فى ترتيب الكلمات إلى جانب الاختلاف فى المفردات . وذلك لأن الترتيب المنطقى الذى تسلك فيه الكلمات فى الجملة المكتوبة ينفصم دائماً فى الجملة المتكلمة ، إن قليلا وإن كثيراً . فمن اللغة المكتوبة مثل هذه الجملة : « يجب المجىء سريعاً » و« أما أنا فلا وقت عندى للتفكير فى هذه المسألة » و« هذه الأم تكره طفلها »؛

(١) دلبروك : رقم ١٥٤ .

ولـكنها فى اللغة المتكلمة تتخذ صيغة مختلفة كل الاختلاف تسعة أعشار الوقت ، فيقال مثلا : « تعالى بالعجل ! » ... و « الوقت ، إيه دا يا أخى ! هو أنا عندى وقت ، أنا علشان أفكر فى المسألة دى ! » و « ابنها ! دهى بتكرهه ، الأم دى ! » [١].

ماذا يمكن أن يقال فى جمل اللغة المكتوبة ، تلك الجمل المنسقة بما فيها من جمل تابعة وحروف وصل وأسماء موصولة وكل ما تحتوى عليه من أدوات وأقسام ! إننا لا نقول إطلاقاً فى اللغة المتكلمة : « بعد أن نخترق الغابة ونصل إلى بيت الحارس الذى تعرفه ، بجداره الذى تكسوه أغصان اللبلاب سندور إلى اليسار ونسير حتى نجد مكاناً مناسباً فنتغدى فيه فوق الأعشاب » . بل يقال : « حنخترق الغابة ؛ وبعدين نمشى لحد البيت ، إنت عارفه ، بيت الحارس ، إنت واخد بالك منه كويس ، البيت ده اللى جداره فارش عليه اللبلاب ، وبعدين نحود عشمال ، ونشوف مكان لطيف . وبعدين نتغدى هناك علحشيش . » فالعناصر التى تسعى اللغة المكتوبة فى أن تسلكها فى كل متماسك تبدو فى اللغة المتكلمة منفصلة منفصمة مقطعة الأوصال : بل إن الترتيب نفسه يختلف فيها عنه فى الأولى كل الاختلاف .. إذ ليس هنا ذلك الترتيب المنطقى الذى يعليه النحو الجارى ، بل ترتيب له منطقه أيضاً ولـكنه منطق انفعالى قبل كل شىء ، فيه ترص الأفكار لا وفقاً للقواعد الموضوعية التى يفرضها التفكير المتصل بل وفقاً للأهمية الذاتية التى يخلعها عليها المتكلم أو التى يريد أن يوحى بها إلى سامعه .

فكرة الجملة بالمعنى النحوى تتلاشى فى لغة الكلام . فإنى عندما أقول : «الرجل الذى تراه هنالك جالساً على الرمال هو ذلك الذى قابلته بالأمس عند المحطة » . أرانى أستخدم طرائق اللغة المكتوبة فلا أصوغ غير جملة واحدة ، ولـكننى لو تكلمت لقلت : « شايف كويس الراجل ده — عندك هناك — قاعد قدامك على الرمل — أهوده ! — أنا شفته امبارح — كان ع المحطة » . فكم يوجد من الجمل هنا ؟ من العسير أن نجيب عن هذا السؤال : فلو أنى وقفت قليلا على كل موضع علم بشرطة لكانت

(١) الجمل الفرنسية المقابلة لهذه الأمثلة مستعارة من شارل بلى .

الكلمات « عندك هناك » وحدها تكوّن جملة تماما كما لو كنت أجيب على سؤال يقول : « أين هذا الرجل ؟ » . « عندك هناك » وجملة « قاعد قدامك ع الرمل » نفسها تصير مجموعة تتكوّن من جملتين لو أنى توقفت قليلا بين الجزأين اللذين تتكون منهما : « قاعد قدامك » و « [هو] ع الرمل » أو [إنه] جالس أمامك [وذلك] ع الرمل » . فحدود الجمل النحوية هنا غير ثابتة حتى ليحسن أن نريح أنفسنا من تعدادها . ولكن إذا راعينا اعتبارا آخر ، لم نجد عندنا إلا جملة واحدة . فالصورة الكلامية واحدة وإن كانت تحتمل المط والتوسع فى الحركة إذا جاز لنا هذا التعبير . ولكن بينما تبرز هذه الصورة فى اللغة المكتوبة كتلة واحدة ، نراها فى لغة الكلام تقطع أجزاء متتابعة تتناسب فى العدد والشدة مع الانطباعات التى يحملها المتكلم نفسه أو مع الحاجات التى تحمله على التأثير على السامع .

بقدر ما تستخدم اللغة المكتوبة نظام التبعية ، تمارس لغة الكلام نظام الإلصاق . فالمتكلم لا يستعمل الروابط النحوية التى تحصر الفكرة وتطبع الجملة بطابع القضية المنطقية الضيق . ولغة الكلام مرنة خفيفة الحركة ؛ تدل على صلة الجمل بعضها ببعض بإشارات مختصرة بسيطة ؛ فالفرنسية تكتفى على وجه العموم لأداء هذه الوظيفة بحروف الوصل التى من قبيل et « و » و mais « لكن » ؛ ذلك أن اللغات تميل فى الدلالة على التبعية إلى استعمال عبارة وحيدة تطبق على كل الحالات دون تفريق . وهكذا نرى أن الهندية الأوربية فى خلال التاريخ تخلق لها أدوات وصل وأن نظام الوصل يتكون ويستكمل . إذ لا بد أن التنغيم فى البداية كان يلعب دوره ؛ وكان يشار إلى الصلة بين جملتين بأن تعارض إحداها بالأخرى وذلك بواسطة نغمة الفعل أو بواسطة بعض الأدوات التى كانت تكرر فى كل واحدة منهما . وقد احتفظت بعض اللغات بمجاميع من الصيغ التى تختلف تبعاً لما إذا كانت الجملة أساسية أو تابعة . ولكنه اكتفى بوجه عام بإعطاء الأداة (اسم موصول أو حرف وصل) وظيفة ربط الجملة التابعة وبالتالى جعلت الاداة الطابع المميز لهذه الجملة . ويكفينا للتحقق من ذلك أن ننظر إلى النجاح التام الذى صادفه حرف الوصل الفرنسي que « أن » . وإن اللغة المكتوبة ، التى

تبحث عن الدقة ولديها من الفراغ ماتنفقه فى التحضير والتروى ، تعقد مختارة طريقة التعبير عن صلة الجمل بعضها ببعض وفقاً لألوان الفكر المختلفة الدقيقة . ولكن لغة الكلام تميل إلى اتخاذ رمز واحد تاركة لذهن السامع أن يعرف بالحدس نوع الصلة التى يقصدها المتكلم . لذلك قد ترى الحرف الواحد يعنى فى اللغة الواحدة « لأن » و « مع أن » و « لأجل أن » و « عندما » . فالشعب الفرنسي يتجنب فى لغة الكلام الصيغ dont « whose » « الإنجليزية » و auquel اسم الموصول بمعنى الذى له » و pour lequel « اسم الموصول بمعنى الذى من أجله » لأنه يراها ثقيلة مقلقة . ويقنع فى الدلالة على الوصل بالموصول que مع الإشارة فى جملة الصلة نفسها إلى نوع الصلة التى يريدها . فبدلا من أن يقول l'homme « dont je connais la fille » أو « le patron pour lequel je travaille » أو « le pauvre à qui je fais l'aumône » يفضل أن يقول « l'homme que je connais sa fille » « الرجل الذى أعرف ابنته » و « le patron que je travaille pour lui » « المالك الذى اشتغل له أو من أجله » و « le pauvre que je lui fais l'aumône » « المسكين الذى أقدم إليه الإحسان » . هذه التراكيب وهى راسخة القدم فى الفرنسية المتكلمة اليوم — كانت مستعملة فى اللغات الكتابية فى العصور الوسطى[1] وهى تبين جيداً استقلال لغة الكلام عن لغة الكتابة .

تتميز لغة الكلام بأنها تقتصر على الاهتمام بإبراز رؤوس الفكرة ؛ فهى وحدها التى تطفو وتسود الجملة ؛ أما الروابط المنطقية التى تربط الكلمات بعضها ببعض وأجزاء الجملة بعضها ببعض فإما ألا يُدل عليها إلا دلالة جزئية بالاستعانة بالتنغيم والإشارة إذا اقتضى الحال ، وإما ألا يُدل عليها مطلقا ويترك للذهن عناء استنتاجها . هذه اللغة المتكلمة تقترب من اللغة التلقائية : ويُطلق هذا الإسم على اللغة التى تنفجر تلقائياً من النفس تحت تأثير انفعال شديد . فى هذه الحالة يضع

(١) وتقابلها كذلك فى الألمانية فى الأقاليم المجاورة لإقليم ياقه lave ؛ أنظرها جل Behaghel رقم ١٤٤ ، ص ٣٠ .

التكلم الألفاظ الهامة فى القمة إذ لا يتيسر له لا الوقت ولا الفراغ اللذان يجعلانه يطابق فكرته على تلك القواعد الصارمة ، قواعد اللغة التروية المنظمة ، وعلى هذا النحو تتعارض اللغة الفجائية مع اللغة النحوية .

من المسائل التى تستحق النظر معرفة ما إذا كانت إحداهما سابقة بالضرورة على الأخرى ، وإذا ما كانت اللغة التلقائية تختلط باللغة الانفعالية . فإذا صاح إنسان مشدوهاً من مقابلة غير منتظرة فقال : « أنت ، هنا ! » أمكننا أن نقرر بشىء من التمحل أن هذه العبارة تقوم على أساس عبارة نحوية هى : « أنت (تكون) هنا ! » أو « يدهشنى أنك هنا » . ولن يعدم النحويون على الأقل أن يفسروها على هذا النحو محتجين باستعارة نحوية أو بحذف أو تقدير .

ولكن ينبغى لذلك أن نلجأ إلى لغة الطفل أولاً وقبل كل شىء . فالطفل الذى يقول « بابا هنا » ليُفهم أن أباه قد حضر أو أنه يوجد هنا ، إنما يعبر فقط عن تقرير واقع . بعد ذلك عندما يأتيه التروى مع تلك الموهبة التى يحلل بها إدراكاته ويعبر عنها فى اللغة تعبيراً كاملا ، يقول : « بابا (يكون) هنا » أو « بابا وصل هنا » ؛ أيمكن أن يستنتج من ذلك أنه يمكن الانتقال من لغة فجائية غير نحوية إلى لغة نحوية منظمة دون نقطة ارتكاز انفعالية ؟ يخشى أن يكون فى ذلك نوع من المغامرة . لأن الطفل لم يبدأ بعدُ بأن يخلع على جملته الفجّة « بابا هنا » طابعاً انفعالياً . بل إن الصيحات الأولى التى صدرت عنه كانت للتعبير عن رغبة أو إرادة أو حاجة . وأول ما قال « بابا هنا » كان ذلك للتعبير عن ابتهاجه برؤية أبيه أو عن رغبته فى مجيئه . وإذن فقد نشأت العبارة الموضوعية « بابا هنا » فى خلال تدرج الطفل بإقصائه للعنصر الذاتى ثم استطاعت بدورها أن تصير جديرة بالعبارة النحوية حين ضُمّ فعل إليها ؛ ولكن الطفل قد بدأ بصيغة انفعالية .

يميل بعض علماء اللغة الذين هم علماء نفس فى الوقت عينه إلى الاعتقاد بأن اللغة الانفعالية تسبق اللغة العقلية دائماً عند الطفل[1] . وعندهم أن الذكاء

(١) أنظر خاصة سيشيه : رقم ١٢٢ ، ص٦٧ وما يليها ، وقارن ليفى بريل : رقم ٨٨ ص ٢٧ وما يليها .

لايستطيع تحويل الإحساسات والانفعالات إلى أفكار إلا تدريجاً ، وأن الفكرة تخرج من العناصر الانفعالية دون أن تقصيها إقصاء تاماً . وأنه يتكون فى داخل اللغة الفجائية التى هى انفعالية محضة نواة صلبة تنمو شيئاً فشيئا كلما ازدادت الأجزاء المحيطة بها صلابة ؛ وهذه هى اللغة المصطلح عليها أو النحوية ، وتبقى هذه متداخلة فى الأخرى ، تستمد منها غذاءها باستمرار دون أن تصل إلى إنضابها بأية حال . هذه النظرية نشوئية دينامية قبل كل شىء . تزعم أنها تفسر أصل النحو، يعنى اللغة المنظمة ، باستقرار العناصر البدائية غير الثابتة التى تكون ما قبل اللغة النحوية . وعندها أن هذه اللغة الأخيرة تستمر بقدر يزيد أو ينقص عند كل إنسان طول حياته ؛ وإليها يجب أن ترجع ظواهر اللغة الانفعالية جميعها . ولكنها تستطيع هى الأخرى بطريق مضاد أن تنهل من منابع اللغة النحوية ، وذلك مثلا عندما نرى أن جملة مكونة تكويناً منطقياً تصير ، بفعل عكسى محض ، صيحة صادرة عن غير شعور تحت تأثير ألم حاد أو رعب مفاجئ .

***

والواقع أن اللغة النحوية المنظمة تنظيما منطقياً لاتستقل عن اللغة الانفعالية ، فبين اللغتين تأثير متبادل . وقد رأينا أن ترتيب الكلمات فى كل اللغات يتجه نحو الاستقرار ؛ إما بأن يفرض النحو عليها ترتيباً لايتغير ، وإما بأن تكون العادة قد جرت باتخاذ ترتيب بعينه فى جميع الجمل التى من نوع واحد . وهذا لا يمنع من أن يكون للانفعالية وسائل عدة للظهور فى تكوين الجملة . فتارة نرانا نقذف قبل الجملة بكلمة أو بقسم من جملة ، مع استئنافه بعد ذلك بواسطة عنصر صرفى ، أداة كانت أو ضميراً ، وتارة ندفع به إلى نهاية الجملة منعزلا عن السياق مع الإعلان عنه مقدماً فى بنية الجملة ؛ وأخيراً قد يكون ذلك بفصم ارتباط الجملة بغتة وجعل نصفها التالى يسير على خطة جديدة لا صلة بينها وبين النصف الأول منها . هذه الطرق المختلفة الشائعة فى لغة الكلام كثيراً ما استعارتها لغة الكتابة وذلك كلما اقتضى الأمر إحداث تأثير .

فإذا نظرنا إلى قول لا برويير la Bruyère مثلا : « رجلُ موهبةٍ وشهرة ، إذ كان محزوناً أو صارما ، أخافَ الشبان » أو « أحد النبلاء ، إذا عاش عيشته فى مقاطعته ، عاش حراً ، ولكن دون سند . » رأينا أن جملته مما يستطاع تسميته بالكتابة الفنية ، ولكن واضح فيها أنها تتخذ طريقة بناء شائعة فى لغة المحادثة[1] ، وأيضاً : « هذا السيد المسكين ، لقد كان على جانب كبير من الطيبة » أو : « طفل عاقل ، يعطيه الإنسان كل ما يريد » . وتمارس لغات كثيرة هذا التركيب نفسه . فنراه فى الألمانية فى مثل : « der Kirchhof, er liegt wie am Tage » « فناء الكنيسة ، لقد كان يمتد كأنه فى وضح النهار . » و « Die Glocke » « sie donnert ein mächtiges Eins » الجرس ، لقد قصف قصفة قوية » . وفى الإنجليزية منه أمثلة كثيرة . ووجوده فى الفارسية القديمة أمر معروف[2] . ويوجد باطراد فى اللغات الملايوية البولينيزية . وأخيراً فى الصينية : فبدلا من أن يقال wo me kien kouo t'a ti fang tseu (وُو مِ كِيين كوُاوَ تَاتِى فَنْج تسَوُ) « لم أر منزله » (حرفياً « أنا لا رؤية له منزل ») يمكن أن يقال : t'a fang tseu wo me yeou kouo « منزله ، إننى لا أره » .

وواضح أن بين التركيبين فى الأصل فرقاً دقيقاً كما يتبادر من الترجمة العربية نفسها ، فالأولى مبتذلة ولا تعبير فيها ، والثانية على العكس ، تعبر عن لون من العاطفة إن قليلا وإن كثيرا . ولكن قد يحدث أن تفرض الثانية نفسها على الاستعمال إلى حد أن يستعاض بها عن الأولى ، فتصير نحوية بعد أن كانت انفعالية . وهكذا يمكن أن يقال فى الفرنسية : « cet homme là , sa maison est belle » « هذا الرجل ، بيته جميل » . بدلا من « la maison de cette homme est belle » « بيت هذا الرجل جميل » . ومن المعتاد فى لغة كاللغة الأيرلندية أن يتعجل فيقال : « بيته [بتاع] هذا الرجل » بدلا من « بيت هذا الرجل » . وفى الألمانيـــة يمكن أن يقال بالاختيار : «das hans meines »

(١) برينو Brunot : رقم ٥٣ ، مجلد ٣ ، ص ٤٨٥ .

(٢) مييه : قواعد الفارسية القديمة ، ص ١١ .

« Vater ist schön » البيت [بتاع] والدى جيل » أو meines Vater's Haus ist schön » والدى بيته جيل » ؛ وبعض اللهجات قد بنت لها تركيباً آخر إذ تقول : meinem Vater sein Haus ist schön «لوالدى بيته جيل»، ذلك التركيب الذى يجمع بين عملية التعجل « باستعمال ضمير الملك » وبين استعمال حالة الجر بدلا من حالة الإضافة فى الدلالة على الملكية . بل إن بعض اللهجات الألمانية المعاصرة لا تستعمل غير هذا التركيب ؛ ففى كوبورج Cobourg مثلا[1] عبارة mein Vaters Haus « بيت والدى » غير معروفة ، ويقال فقط : maen fader soe haos (حيث maen صيغة الجر والنصب ؛ وصيغة الرفع mae) . وهذا التركيب الشعبي اللهجي غير مجهول فى اللغة الأدبية ؛ إذ يقدم لنا جوته Goethe بعض أمثلة منه . فتلك سنة من سنن اللغة الانفعالية دخلت فى اللغة النحوية ، بل إن الفصائل النحوية نفسها يعبر عنها أحياناً بوسائل اللغة الانفعالية ، وإن كانت بعض هذه الوسائل تستجيب لذلك بصفة خاصة . فقد رأينا عند دراستنا لفصيلة الزمن أن فيها مكاناهاما للتعبير عن الاستغراق durée . ولكنا نعلم أن ما ندعوه الاستغراق ليس إلا المظهر aspect الذى يأخذه فى اعتبارنا حدث من الأحداث أى الزاوية التى يظهر لنا هذا الحدث من خلالها . فالمسألة هنا مسألة وجهة نظر أولا وقبل كل شيء ، ولما كان اختيار وجهة النظر مسألة ذاتية ، كان فيها نصيب من الانفعالية . ويوجد بين الأزمان التى يعددها نحويونا زمن ذاتى بأجلى معانى الكلمة : ونعنى به الزمن المستقبل . فإننا عندما نعبر عن فكرة وقوع حدث فى لحظة ما من المستقبل ، لا نقف بتفكيرنا عادة عند التحقق الوضوعى للحدث ، بل نكاد نشير دائماً فى نفس الوقت إلى الأحوال التى نجد فيها أنفسنا حالياً بالنسبة إلى ذلك الحدث المستقبل .

على هذا النحو يوجد فرق بين المستقبل والماضى . فهذا الأخير زمن موضوعى ، لأن الماضى أصبح لا يتعلق بنا وليس لنا أثر عليه ؛ فهو كما يقال زمن تاريخى .

---

[1] إدوارد هرمن Ed. Hermann ، بحوث إغريقية ، ج ١ ، ليبسك ، توبنر (١٩١٢) ص ٢٠٨ .

والمستقبل على عكس ذلك يحمل معه جميع ألغـاز غير المتوقَّع ؛ ويترك مجالا لمئات ومئات من عواطف الانتظار والرغبة والخوف والأمل . فإذا قلت « سأفعل ذلك غـداً » فإنى ، برغم تأكيدى بأن هذا الحدث سيقع غداً على يدى ، أحيط جملتى بجوّ ذاتى يلونها فى عينى أنا بألوان متنوعة إلى حد أن الجملة تئول فى غالب الأحيان إلى عبـارة « أرغب أن » أو « أرضى أن » أو « أخشى أن » أو فقط إلى عبارة « أعتزم أن (أفعل ذلك) » الخ .

وتاريخ المستقبل فى اللغـات المختلفة يثبت صحة هذه الملاحظات [١] . فالزمن المستقبل كثيراً ما يعبر عنه بالإرادة أو الرغبة ، يعنى أن بعض عباراته من أصل انفعالى . فالصينية تصوغ المستقبل بأن تلصق إلى الفعـل المنصر yao « ياوُ » (فعل « الإرادة ») مثل wo yao lai « وُو ياوُ لَىْ » « سأحضر » (حرفياً : « أنا إرادة حضور ») . وتقـــول الإنجليزية I shall do أو I will do « سأفعل » (وأصلها أريد أن أفعل) . والإغريقية الحديثة استعاضت عن المستقبل القديم بتركيب تحليلى يرجع إلى الفعل الدال على الإرادة (أنظر ص ١٠٨) . والبلغارية تعبر عن المستقبل ، منذ القرن الثالث عشر ، بواسطة الفعل choteti « الإرادة » حيث تستعمله فعلا مساعدا [٢] . وتقول بعض اللهجات الفرنسية : « Il ne veut pas pleuvoir » « لا تريد أن تمطر » بدلا من il ne pleuvra pas « لن تمطر » . ومستقبلنا نفسه ، من نوع aimera «سأحب» مشتق — كما هو معروف — من المركب amare habeo (حرفياً « حباً أملك ») وفيه يشير الفعل habeo « أملك » إلى النصب الذاتى الذى يعتزم المتكلم الاضطلاع به من الحدث . فكون المستقبل يعبر عنه بصيغ لهـا هذه الدرجة من التنوع ، وهذه الـكثرة من التجدد ، برهان سـاطع على أن هذا الزمن يحتوى على نصيب كبير من الانفعالية (أنظر الصفحات الأولى من الفصل الثالث من الجزء الثالث) .

التـكرار أيضاً من تلك الوسائل التى نشأت فى اللغة الانفعالية ثم صار ،

---

(١) منيان Magnien ، رقم ٩٠ وريبّزو Rebezzo رقم ٢٢٧ .
(٢) فندراك Vondrak ، رقم ٢١٧ ، مجلد ١ ، ص ١٧٨ .

بعد استعماله فى اللغة المنطقية ، مجرد سياسة نحوية ، أما أصله فيجب البحث عنه فى الانفعال الذى يصحب التعبير عن عاطفة قد دفعت إلى أقصاها . وفى كثير من اللغات ينحصر التفضيل الكلى فى تكرار الصيغة . فواضح هنا أن الاستعمال النحوى قد تطور من الاستعمال الانفعالى . والتكرار لم يكن فى الأصل إلا وسيلة لإعطاء العبارة زيادة فى القوة . « هذا جميل ، جميل » . ولكن هذه الوسيلة قد أفرغت شيئاً فشيئاً من قيمتها الانفعالية ، وبدا من السائغ استعمالها للدلالة على الوفرة والتجاوز ، مستقلين عن التعبير عن أية عاطفة مثل « إنه سمين سمين » بدلا من « إنه سمين جداً » . وهذا هو التفضيل الكلى بحذافيره ، وهو لما يزل شائع الاستعمال حتى يومنا هذا فى الحبشية مثلا ، وفى الإغريقية الحديثة [١].

ومع ذلك فهذه الوسيلة لم تصر فى اللغات التى مثل اللغة الفرنسية مجرد وسيلة نحوية (إذ أن نحو الفرنسية يحتوى على وسائل أخرى للتعبير عن التفضيل الكلى) بل قد بقيت للتكرار فيها قيمته الانفعالية . فعبارة Il est gros gros « إنه سمين سمين » لا تؤدى بالضبط نفس المعنى الذى تؤديه عبارة il est très gros « إنه سمين جداً ». ويمكننا أن نحس الفرق بصورة أوضح من تلك إذا قارنا عبارتين مثل il n'est pas très joli « إنه ليس وسيما جداً » و il n'est pas joli joli « إنه ليس وسيما وسيما » (كأن يريد أن يقول إنه ليس وسيما تلك الوسامة التى نسميها وسامة) ، فلو فرضنا أن هاتين الجملتين قيلتا بقصد التهكم لكان الإحساس بالتهكم فى الحالة الثانية أشد منه فى الأولى .

التكرار الذى نقابله فى النظام الفعلى للغات الهندية الأوربية أو السامية ذو أصل انفعالى لا شك فيه . وهو يستعمل فى هذه اللغات استعمالات عديدة . فمن أوضح استعمالاته فى الهندية الأوربية الدلالة على تحقق الحدث تحققاً تاماً . وقد نشأ المسمى بالتام المكرر parfait redoublé فى الإغريقية القديمة حاملا لهذه القيمة [٢] ، فكان يدل بتكرار المقطع الأول من الأصل على تأكيد يقابل

---

(١) برنو Pernot ، رقم ١٠٩ ، ص ٩٠ ، ١٦٠ .

(٢) ى . فكرناجل J . Wackernagel . رقم ٢٢٠ .

التأكيد الذى تدل عليه صيغة الفعل من الناحية المعنوية . وتضعيف الفعل فى السامية ينحصر فى إطالة الساكن ، أو فى الاستعاضة عن الساكن البسيط بساكن مضعّف (انظر ص ٤٨) . والقيمة الانفعالية فيه واضحة جداً أيضاً . ويقصد به الدلالة على الشدة [1] : فمن « خبط » فى العربية يؤخذ خبّط « خبط بقوة » ومن كسر « كسّر » « أحال إلى شظايا » الخ . كما يوجد فى الأسماء آثار لصيغة جمعية موغلة فى القوم تقوم صياغتها على التضعيف ، وأصلها الانفعالى واضح.

هـذه حالات سلك فيها التعبير عن العاطفة مسلكا نحوياً حيث نرى المنطق يستعير لغة الانفعال . وعكس ذلك شائع أيضاً . فيوجد فى كل لغة متكلّمة عدد من الكلمات الصغيرة التى لم تبق لها إلا القيمة العاطفية ، وحظّ المنطق فيها من الضآلة بحيث قد تستعمل أحياناً ضد معناها الحقيقى بل كثيراً ما نجد إلى جانب الكلمات عبارت كاملة من هذا القبيل فيها فعل ومسند إليه ومفعول ، جمل صغيرة يستطيع المتكلم ، بشىء من التحليل الأولى ، أن يتعرف على الكلمات التى تكونها . وهى كلٌّ يقدم للذهن انطباعاً عاطفياً لا أكثر ولا أقل . ومثل ذلك فى الفرنسية عبارة « par exemple » « مثلا » التى يُدل بها على الدهشة و « vous savez » « أنت عارف » التى يشار بها إلى الموافقة . والقيمة التعبيرية لهذه العبارات تزداد قوة بقدر ما تتلاشى فيها القيمة المنطقية . ذلك أن الانتقال من المنطق إلى الانفعالى يحصل بيلى الأول منهما . فى بادىء الأمر كان الإنسان يرى نفسه أمام فكرة تقال له فتدهشه فيجيب : « Ah ! par exemple ! » « أه ! مثلا ؟ » مشيراً بذلك إلى أنه ينتظر من محدثه مثلا توضيحياً . ثم جرت العادة بعد ذلك أن يجيب بقوله « par exemple ! » « مثلا » كلما سمع خبراً غير منتظر لا يستطاع تفسيره بذاته ، ولو لم يكن فى الإمكان تقديم مثل لتعضيده ؛ وأخيراً حل التعجب محل الاستفهام فصار القائل يقول : « par exemple » كما لو كان يصدر دهشة أو شكا أو تحدّيا أو غضباً أو رعباً .

لم تقف اللغة عند هذا الحد . إذ أن من طبيعة صيغ اللغة الانفعالية أن تبلى

---

(١) بركلمان Brockelmann ، رقم ١٤٨ ، مجلد ١ ، ص ٥٠٨ .

بسرعة عجيبة ، فلاتلبث أن يمحى منها الجزء الانفعالى ولا يبقى إلا عبارة عديمة اللون . ولغة الكلام ميالة إلى تزويد جملها بعدد كبير من الكلمات termes الخالية من التعبير والتى كأنها حشو بين الكلمات المعبّرة ، مثال ذلك فى الفرنسية : « allez y tiens, n'est - ce pas, voyez - vous, penses - tu » هيا إليه ، خذ ، أليس كذلك ؟ أرى — أتظن — » وكل منا يستطيع أن يفاجىء نفسه فى محادثاته اليومية وهو يخلط كلامه بعبارات formules من هذا القبيل . هذه العبارات كانت منطقية فصارت انفعالية ، وهى تنتهى عادة بأن تصير من الآليات . وآخر أطوارها هو الطور الذى تتجرد فيه مما كانت تحتوى من العنصر العقلى ومن العنصر العاطفى على السواء .

فاللغة الانفعالية تنفذ فى اللغة النحوية وتسطو عليها وتفككها . لذلك يمكن أن يفسر عدم استقرار النحو بفعل الانفعالية إلى حد كبير . فالمثل المنطقى الأعلى للنحو هو أن يوجد لكل وظيفة عبارة ، وعبارة واحدة لكل وظيفة . ولتحقيق هذا المثل يجب أن تكون اللغة ثابتة ثبوت الجبر حيث يبقى الرمز ، منذ أن يصاغ لأول مرة ، ثابتاً لا يتغير فى جميع العمليات التى يستعمل فيها .

ولكن الجمل ليست رموزاً جبرية . فالانفعالية لا تنفك تكسو عبارة الفكر المنطقية وتلونها . إذ لا يكرر المرء مطلقا جملة واحدة بعينها مرتين ؛ ولا يستعمل كلمة بعينها مرتين بنفس القيمة ؛ لأنه لا يوجد مطلقاً واقعتان لغويتان تتماثلان تماثلا تاما . ويرجع السبب فى ذلك إلى ظروف دائبة على التعديل من أحوال انفعاليتنا .

الفصل الخامس

التغيرات الصرفية [1]

النظام الصرفى فى كل لغة حيّة لا يثبت على حال . ويمكننا أن نكوّن فكرة عن ذلك من الحقائق المذكورة فى الفصول السابقة . بل إننا حتى إذا كنا ندرس لغة ميتة وحاولنا أن نقيم نظامها النحوى بعض الشىء رأينا فيها عدداً من الشواذ ومن المتناقضات، وذلك رغم استقرارها على يد النحاة . لسنا نتكلم عن « الأخطاء » الفردية التى تندّ أحياناً عن أقلام الكتاب مهما بلغ حرصهم ، ولكن كل نظام صرفى فيه مواضع نقص لا تخلو منها أية لغة ولو كانت من أشد اللغات تثقيفاً . ففى كل قاعدة من قواعدها شواذ لا يبررها منطق . وقصارى القول إن النظام الصرفى لدى كل متكلم يحمل فى نفسه من أسباب التغيير بقدر ما يحمله النظام الصوتى .

ولكن الطريقة التى يتم بها التغير فى أحد النظامين تختلف عنها فى الآخر . فالتغيرات الصرفية إنما تصيب الكلمات لا العناصر الصرفية ، وذلك على عكس التغيرات الصوتية التى قد تصيب الأصوات مستقلة عن الكلمات (أنظر ص ٦٤) . ولا يرجع ذلك فحسب إلى أن العناصر الصرفية تكوّن فى أغلب الأحيان جزءاً لا يتجزأ من الكلمة ، بل يرجع ذلك على وجه الخصوص إلى أن السبب فى التغيرات الصرفية ليس فى الكليات العقلية ، بل فى استعمال اللغة لهذه الكليات .

تنبعث التغيرات الصرفية دائماً عن استعمال قد وقع ، ومن ثمّ كانت محدودة الامتداد . فليس النظام إذن هو الذى يتغير ، كما هى الحال فى بعض التغيرات

---

(١) أنظر ميه : تطور الصيغ النحوية (رقم ٤٢ (سنة ١٩١٢) ، ص ٣٨٤) .

الصوتية ، وإنما الذى يتغير هو عنصر من عناصر النظام فحسب ، وفى استعمال واحد من الاستعمالات .

الفرق بين المسلكين يظهر فى نتائجهما . فالتطور الصوتى عام شامل لا يترك وراءه بقايا ؛ إذ أنه يستبدل حالاً جديدة مكان حال قديمة (أنظر ص ٦٦) . أما التطور الصوتى فيندر أن يشمل جميع الحالات التى يؤثر فيها ؛ فهو يدع إلى جانب الصيغ الجديدة التى يستحدثها عدداً كبيرا من الصيغ القديمة التى تستمر فى الاستعمال . وهكذا تترك كل حلقة من حلقات التطور الصرفى بقايا لها . فبالرغم من أننا قد استعضنا فى الفرنسية بالمصدر courir « الجرى » عن الصيغة القديمة courre ، لازلنا نقول chasse à courre « صيد بالجرى » كما لا نزال نستعمل مصادر من أمثال rompre « يكسر » أو moudre « يطحن » . وجمع chacal « ابن آوى» على chacals لم يمنع من جمع cheval « حصان » على chevaux . وقد بقينا نقول فى مضارع dire « القول » المسند إلى جمع المخاطب vous dites « أنتم تقولون » ولكننا نقول vous prédisez « أنتم تتنبؤون » و vous contredisez « أنتم تتناقضون » ، فى حين أن vous cotrefaites « أنتم تزيفون » قد بقيت متفقة مع vous faites « أنتم تعملون » . ونقول أيضاً l' Hôtel Dieu « المأوى — الله » (بمعنى مأوى الله) و le monument Victor Hugo « المؤسسة فكتور هيجو (أى مؤسسة فكتور هيجو) » و la rue Gambetta « الشارع غمبتا (أى شارع غمبتا) » على حين نستعمل حرف الإضافة فى غير ذلك فنقول la maison de Dieu « البيت [بتاع] الله » و Les poésies de Victor Hugo « الأشعار [بتاعة] فكتور هيجو » و La politique de Gambetta « السياسة [بتاعة] غمبتا » ، الخ . فاللغة لاتكاد تشعر بنفسها ، وهى على كل حال لا تشكو من هذه التناقضات .

***

يسود التغيرات الصرفية اتجاهان عامان : الأول مبعثه الحاجة إلى التوحيد

ويميل إلى إقصاء العناصر الصرفية التي أصبحت شاذة ، والآخر مبعثه الحاجة إلى التعبير ويميل إلى خلق عناصر صرفية جديدة .

إقصاء العناصر الصرفية الشاذة يكون ردها إلى القاعدة ؛ أى أن الحاجة إلى التوحيد تمنع بطريقة القياس [١] . ويطلق القياس على العملية التى بها يخلق الذهن صيغة أو كلمة أو تركيباً تبعاً لأنموذج معروف . فالطفل الذى يقول j'ai li «قرأت» على مثال j' ai ri « ضحكت » بدلا من j' ai lu أو يطلب إقصاءه من المائدة بقوله : déproche - moi « أقصونى » بناء من approcher « يقرب » يخلق صيغتين قياسيتين [١] . والقياس هو الذى يقود الجاهل الذى يريد أن يظهر بمظهر من يحسن الكلام إلى أن يقول : فلان يبنى من فلانة قياساً على : فلان يتزوج من فلانة .

الحقيقة أن القياس أساس لكل صرف . فالإنسان يتبع القياس دائما فى كلامه : وما جداول التصريف والإعراب التى تذكر فى كتب النحو إلا نماذج يطلب إلى التلميذ محاكاتها . فأنا أعرف أن المستقبل من finir « إنهاء » Je finirai « سأنتهى » ، وإذن فاليوم الذى يقابلنى فيه مصدر ينتهى بـ ir مثل crépir « التجميد » و polir « الصقل » وأحتاج إلى استعمال المستقبل منه لا أتردد فى أن أقول je crépirai « سأجمد » و je polirai « سأصقل » ولكنى لو واصلت السير فى هذا الطريق وبنيت المستقبل من venir « المجىء » على je venirai ، لكنت قد خلقت خلقاً قياسياً يأباه الاستعمال . ومع ذلك فالتاريخ يخبرنا أن بعض المبتكرات التى من هذا القبيل انتهت بالانتصار . فقد ظل الناس زمنا طويلا يقولون : je tressaudrai «سأرتعد» و je défaudrai « سأخور » من المصدرين tressaillir « الارتعاد » و défaillir « الخور » ؛ واليوم يبنى

(١) أنظر هنرى Henry ، رقم ٨٢ ، وجيل Giles رقم ١٣٢ ، ص ٥٨ ؛ وه. أورتل H . Oertel رقم ١٢٧ ، ص ١٥٠ و ه. پول H. Paul ، رقم ١٨٨ ، ص ٩٦ ؛ وقارن مييه رقم ٩ ، مجلد ، ٢ ، ص ٨٦٠ .

(٢) وهذه الأمثلة تقابل ما نسمعه من بعض الأطفال فى القاهرة حيث يقولون كرة أحمرة أو أصفرة بدلا من حمراء وصفراء طرداً للقاعدة القياسية . المعربان

المستقبل منهما على الصيغة المطردة : je tressaillirai ، je défaillirai . فقد قضى أثر التصريف المطرد بوجودها .

استمر علماء اللغة زمناً طويلا يعبرون عن القياس بنسب ومعادلات جبرية من قبيل : ا بالنسبة إلى ب = ح بالنسبة إلى س ؛ فيقال finir « الانتهاء » بالنسبة إلى finirai سأنتهى = tressaillir « الارتعاد » بالنسبة إلى tressaillirai « سأرتعد » . وبهذه الوسيلة نحصل رياضياً على المستقبل الجديد . ولكن يجب أن نحذر من تطبيق التعليل الرياضى على مواد يأباه طبعها أو تعقدها . فالجبر لا يمكنه هنا أن يعطى فكرة صائبة عن الأشياء . إذ أنه يوهم بأن التغير إرادى وشعورى مع أنه عكس ذلك على خط مستقيم . هذا إلى أنه يندر أن يكون عمل القانون منحصراً بين أربعة جدود فحسب . فالصيغة التى تجر القياس ليست فى العادة عنصراً منعزلا بل هى رمز يمثل عدة عناصر مختلفة . فإذا أردنا ألا نخرج عن الميدان الجبرى وجب على الأقل إصلاح الصيغة حتى تصير ب بالنسبة إلى ب' = ا إلى س ، على فرض أن ب و ب' تمثلان كيتين غير محدودتين ، إذ الواقع أن المصدر finir « الانتهاء » ليس وحده الذى عمل بمقارنته بـ finirai على إخراج tressaillirai « سأرتعد » من tressaillir « الارتعاد » وإنما يرجع ذلك إلى مجموعة الصيغ المشتركة بين الفعلين . ومن جهه أخرى ينضم إلى تأثير فعل finir تأثير جميع الأفعال التى تنتهى بـ ir- ويبنى المستقبل منها على iraі- غير أن أهم عيوب استعمال الجبر هنا أنه لا يدخل فى حسابه القيمة الخاصة لكل صيغة . فهناك سبب هام لنجاح القياس فى بناء المستقبل من tressaillir و défaillir : فردهما إلى القاعدة يرجع إلى ندرتهما فى الاستعمال . لذلك استمررنا نقول فى الحاضر الإشارى nous tressaillons « نرتعد » و vous tressaillez « ترتعدون » على رغم من أننا نقول nous finissons « ننتهى » vous finissez « تنتهون » ؛ فهنا قصرت قوة القياس لأن الحاضر أشيع استعمالا من المستقبل . وإذن فكل شىء يرجع إلى ما فى ذهن المتكلم من تناحر بين الصيغ للسيطرة والمقاومة . والقياس يتوقف إلى حد على قانون الاقتصاد فى المجهود الذى يتجنب إثقال الذاكرة بمتاع

غير مفيد . والصيغ التى يُقصيها القياس صيغ عليلة ، بمعنى أنها غير مضمونة من الذاكرة لندرة استعمالها . والقياس لا يستطيع التغلب إلا عند ضعف الذاكرة . فالصيغة الشاذة النادرة الاستعمال تنسى وتصاغ من جديد تبعا للقاعدة المطردة .

يخلق الأطفال فى مرحلة تعلمهم للغة عدداً كبيراً من الصيغ الجديدة ، وذلك باستجابتهم لداعى القياس . ولكن الجزء الأكبر من هذه المبتكرات يُصلح فيما بعد ، لأنها فى غالب الأحيان ليست إلا عوارض فردية ، ناتجة عن حس غير صائب ، أو عن معرفة ناقصة باللغة . ولكن بعضها ينطبق مع الحس اللغوى العام انطباقاً يجعلها تنتهى بالاستقرار . وقد يحصل أن يتجه فجاءة جميع الأفراد من جيل واحد إلى الوقوع فى غلطة بعينها تفرض نفسها عليها كأنها قانون وتصير قاعدة . وعندئذ يصبح كل مجهود يقوم به المدرس فى المدرسة عبثاً . وهناك تراكيب بادية الخطأ شائعة الاستعمال حتى بين المثقفين ؛ ويكاد الإنسان يدهش حين يعلم أن النحو قد سلم بها .

النحو كثيراً ما يكون فى صراع مع الحس الطبيعى للغة . ففى الأقطار التى يطغى فيها أثر النحاة لا تستسلم اللغة لفعل القياس إلا بصعوبة ؛ إذ تخنق المبتكرات القياسية فى مهدها ولا تستطيع الحياة . فهذه يجب لتغلبها أن تكرر غالباً وبصورة مطردة . وتقابل عندنا فى الاستعمال اللغوى فى القرن السادس عشر حيث لم يكن عمل النحاة قد بلغ من الاتساع والفاعلية ما بلغه منذ ذلك الحين عدداً كبيراً من الأخطاء التى لم تستطع أن يكون لها قوة القانون[(١)]. فكان رابليه Rabelais يقول : je finois بدلا من je finissais « كنت أتم » ، ولكننا لم نحتفظ إلا بهذه الصيغة الأخيرة . وعلى العكس من ذلك استطاعت لغتنا الحاضرة رغم النحاة أن تفرض استعمال بعض التراكيب التى ظلت مردودة حتى هذا الحين . فكل الناس يقولون : Je m'en rappelle « أتذكره » (حرفياً « استحضر منه إلىّ ») بدلا من je me le rappelle « أتذكره » (حرفياً « استحضره إلىّ ») ؛ وأصبح ذلك التركيب المتبرر : à de façon

(١) برينو Brunot ، ٥٧ مجلد ٢ .

« ce que بصورة أن » (حرفيا « بصورة إلى أن ») تقال بل وتكتب بدلا من « de façon que بصورة أن » . ويجب علينا أن نقرر ، رغم أنفنا أن هذه الأخطاء تسير مع اتجاه اللغة الطبيعى .

ومع ذلك فهناك صيغ تثبت أمام القياس ، ومن أجل ذلك تسمى بالشاذة . إذ يحتوى نحو كل لغة من اللغات على قدر يزيد أو ينقص من الأسماء والأفعال الشاذة . وتسمى أيضاً بالصيغ القوية فى مقابلة الصيغ الضعيفة أو العليلة التى تستسلم للتنظيم الذى يفرضه القياس . هذه الصيغ القوية تبقى خارج القاعدة . وتدين بمقاومتها إلى شيوع استعمالها الذى يبقى عليها حية فى الذهن ولا يطيق لها تغييراً . وهى تفرض نفسها بخصائصها الفردية ، وإن كانت هى نفسها فى أغلب الأحيان غير جديرة بأن تصير مثلا وأن تتخذ أساساً لعمل قياس . وهكذا كانت أشيع الأفعال استعمالا من الأفعال القوية بوجه عام فى جميع اللغات ؛ أى من الأفعال الشاذة . وفعل الكينونة أكثرها شذوذاً لأنه أوسعها استعمالا ؛ فالمقابلة بين il est « يكون» و ils sont « يكونون » موغلة فى القدم ، وتذكرنا فى الصورة التى تعطيها إياها الكتابة على الأقل بمسلك للتصريف الهندى الأوربى لم تحتفظ به الفرنسية إلا هنا . وكان فى اللاتينية بقايا من هذا النوع فى أفعالها الكثيرة الإستعمال ؛ أما الفرنسية فلم يبق فيها إلا فعل الكون « être » الذى لا يبدو أن هناك ما يهدد شذوذه .

ليس معنى ذلك أن الصيغ القوية لا تستسلم للوهن مع الزمن . ففعل الكون فى كثير من اللغات تبدو عليه آثار من عمل القياس عدلت من تصريفه ؛ فصيغة الشخص الأول jestem « أكون » فى البولونية قد عدلت على غرار الشخص الثالث jest « يكون » ؛ ولكن هذا العمل محدود على وجه العموم ولا يعوقه فعل الكون عن الاحتفاظ بمظهره الشاذ فى مجموعه . واللغات الغنية بالتصريف القوى كالألمانية ، أمامها مجال واسع للاحتفاظ به زمناً طويلا : لأن الصيغ الشاذة يسند بعضها بعضا . أغلب الظن أن اللغة تقضى على بعض هذه الصيغ شيئاً فشيئاً لتردها إلى القاعدة . إذ يمكننا أن نقيد قائمة كاملة بأفعال قوية صارت

ضعيفة فى القرون الأخيرة . وعددها فى زيادة دائمة ؛ لأن الصيغة الضعيفة التى تدخل فى الاستعمال بجانب صيغة قوية تنتهى بالتغلب عليها . فبعض اللهجات تقول : ich verlierte [هكذا بالتصريف الضعيف] « فقدت » بدلا من ich verlor [بالتصريف القوى] ، ich springte « وثبت » بدلا من ich sprang « وثبت » و ich fangte « أخذت » بدلا من ich fing و gefangt « مأخوذ » بدلا من gefangen . أما الحاضر الإخبارىّ والأمر فقد انتهيا من تسوية تصريفهما فى كثير من الأفعال ؛ فالآن لم نعد نقول من : fliegen « السرقة » du fleugst « تسرق » er fleugt « يسرق » ولا من lügen « الكذب » du leugst « تكذب » er leugt « يكذب » ، ويقال فى بعض اللهجات nām « خذ » و hālf « ساعد » بدلا من nimm و hilf . وفى منهيم Mannhiem يقال ich geb « أعطى » و du gebsch « تعطى » و er gebt « يعطى » بدلا من ich gebe و du gibst و er gibt [1] . وفى الإنجليزية حيث أثر القياس كان أشد عملا لا يوجد إلا عدد محدود من الأفعال القوية ؛ هذا إلى أن ذلك العدد فى تناقص مستمر ؛ إذ نقرأ فى Pickwick Papers نقرأ على لسان مزخرف نزل هوايت هارت White Hart: « he know'd nothing about parishes » (بدل knew) « إنه لا يعرف شيئاً عن الدوائر القسسية » ، وكذلك the ghost ven he seed (when he saw بدل) « عندما رأى الشبح » ، الخ . ومع ذلك فهذه الأفعال من أكثرها دوراناً على الألسن .

وأحياناً يعمل القياس عمله داخل تصريف بعينه . ففى الألمانية يقال فى المفرد wurde « صار » بدلا من ward ، قياساً على الجمع wurden « صاروا » . وقد تمّ توحيد التصريف فى الماضى غير التام الألمانى فى وقت مبكر ، وكانت الغلبة فيه لحركة الماضى بوجـــه عام . إذ يقال wir warfen « كنا نرمى » قياساً على ich warf « كنت أرمى » (فى الألمانية العليا القديمة warf , wurfum) ، و wir zogen « كنا نجذب » قياساً على ich zog « كنت أجـــذب »

(١) بهاجل Behaghel ، رقم ١٤٤ ، ص ٢٤٧ .

(فى الألمانية العليا القديمة : zöh , zu gum) . وإذا كان الزوج : ward و wurden قد بقى إلى يومنا إلى هذا فرجع ذلك إلى أهمية الفعل werden « يصير » وإلى كثرة استعماله ، وإذا كان الزوج : wurde , wurden قد خلق على هذا النحو مشتملا على نهاية الأفعال الضعيفة فى حالة المفرد ، فذلك تحت تأثير الأزواج : hatte, hatten « كان يملك ، كانوا يملكون » و wollte, wollten « كان يريد ، كانوا يريدون » و musste, mussten « كان يلزمه ، كان يلزمهم » الخ ، وهى أفعال تستعمل فى بعض الأحيان أفعالا مساعدة . وليس معنى ذلك أننا لا نجد فى تاريخ اللغات الجرمانية صيغاً قياسية من نوع wurde . ففى الألمانية العليا القديمة ، عندنا من الفعل beginnan « يبتدىء » الماضى غير التام bigonda أو bigunda « كان يبتدىء » وذلك إلى جانب bigan الأقل منهما استعمالا . ومن fundan « يجد » ، تستعمل السكسونية القديمة الصيغة funda « كان يجد » فى الماضى غير التام إلى جانب fand ؛ كذلك تستعمل الإنجليزية القديمة funde فى المفرد قياساً على الجمع fundun . ومع ذلك فخلق wurde جاء مستقلا عن هذه كلها . فكل حالة من الحالات الناشئة من أثر القياس تستدعى علاجاً مستقلا ؛ وإذا أردنا أن نفهم معنى القياس وجب أن نبحث عن النقطة التى يبدأ منها صدوره .

نقطة البدء هذه تنحصر دائماً فى شكل من الصيغ موجود فى اللغة . وليس مدار الأمر هنا حول تنفيذ خطة كاملة يسعى العقل إلى تحقيقها على خطوات متتابعة . نعم ، قد يكون من نتيجة العمل القياسى فى بعض الأحيان التقليل من عدد الصيغ الشاذة ، أى إضعاف النوع القوى . ولكن ذلك ليس قاعدة مطردة . فقد يحدث أن بعض الأفعال القوية تفرض نفسها إلى حد أن تتخذ نماذج وتجذب إليها بعض الأفعال الضعيفة . وفى أغلب الأحيان توجد بواعث خاصة لتبرير القياس وقد وقع ذلك أكثر من مرة فى الألمانية حيث يشتمل التصريف القوى على فصائل عديدة واضحة الحدود ؛ فالصيغة : ich frug « سألت » من fragen ابتكار قياسى قديم ، وإن كان فى سبيل الفناء ، غير أننا نجد فى لهجات عدة

ich jug « صِدْت » من jagen ، و ich kuf « اشتريت » من Kaufen ، الخ . فهذه الأفعال دخلت فى الفصائل المطردة للأفعال القوية . وعلى العكس من ذلك فى الإنجليزية كما فى الفرنسية ليست الأفعال القوية فى الحقيقة إلا شواذ ، وإلا مستثنيات منعزلة لا تكوّن نظاماً يستطيع أن يؤثر على المتكلم . غير أنه قد يحصل أن تدخل هذه الأفعال الشاذة فى مجاميع تتكون كل منها من فعلين أو من ثلاثة . فتقوى وتتساند بذلك ؛ ومثال ذلك فى الفرنسية الفعلان pondre « يبيض » و tonre « يجزّ » اللذان لم يكن بينهما أية صلة فى الأصل (أصلاهما اللاتينيان ponere ، tondere ينتسبان إلى نوعين مختلفين من التصريف) ولكنهما أصبحا يتبعان طريقة واحدة فى التصريف . وكل ذلك ليس له من المنطق إلا حظ يسير . « فالعقل ، وطبعه عدم الثبات ، لا يتابع سيره فى خط مستقيم . لماذا ؟ لأنه يسعى لاقتناص الأقيسة ، لأنه — وهو الذى لا يأبه للصلات الحقيقية بين الأشياء — يجرى وراء علاقات خارجية . وهو فى مسيره هذا لا يعرف داعماً أين يذهب » . هذه الفكرة لجان پول Jean Paul (فى Tagebuch ، ٩ أغسطس ١٧٨٢) يمكن تطبيقها على العملية التى ندرسها هنا . وأغلب الظن أن مرجع ذلك فى الأصل الاتجاه إلى جعل الصيغ المختلفة صيغة واحدة ، وهذا الميل نفسه يرجع إلى كسل طبيعى فى العقل . ولكن هذا الميل إلى التوحيد لا يعدّ ميلا إلى التخصيص كما قيل فى بعض الأحيان . إذ أن التخصيص قاعدة منطقية تقضى بأن يعبر بعلامة واحدة عن كل وظيفة نحوية وأن تعبر كل علامة عن وظيفة نحوية واحدة . وهو نوع من التطبيق المثالى للنحو على المنطق . ولقد رأينا فيما تقدم ما يمنع من تحقيق هذا المثل الأعلى . فالعقل لا يغير مطلقاً نظامه الصرفى تغييراً كاملا ؛ ولا يوجه مجهوده فى الوقت الواحد إلا إلى جزء من النظام يعدّ جدّ ضئيل . ولما كان الأثر الواقع منه على الأجزاء المختلفة لا تقوده مطلقا إرادة منفذة لخطة منهجية ، بل كان تابعاً لوحى المصادفة والظروف المختلفة ، كانت النتيجة فى مجموعها خالية على وجه العموم من الترابط والتجانس .

وتاريخ الزائدة er- فى الألمانية من أقوى الأدلة على ذلك [(١)] . فهذه الزائدة التى يتميز بها عدد كبير من جموع الكلمات المحايدة ليست فى حقيقة أمرها إلا لاحقة عممها القياس . ذلك أن بعض الفصائل المحايدة فى الهندية الأوربية كانت تتميز باللاحقة -es- التى نعثر عليها فى اللاتينية (فى صورة -er-) فى إعراب الكلمات من فصيلة genus (جنس) وجمعها gen - er - a ، الخ . فى الألمانية التى فيها يتغير حرف الصفير أيضاً فى مثل هذه الحالة إلى r ، وُجدت الكلمات المحايدة التى من هذا القبيل مزودة بنهاية جديدة er- وذلك بعد سقوط النهايات القديمة . وهذه النهاية الجديدة قد استطاعت أن تجعل الجمع مختلفاً عن المفرد ، ومن ثم صارت علامة مميزة للجمع . فهى إذن كانت زائدة قوية التعبير تحرص اللغة على ألا تفقدها ؛ فمدّتها بطريق القياس على عدد كبير من الكلمات المحايدة التى لم تكن فى الأصل من الفصائل المحتوية على -es- ؛ فقياسا على Kalb « عجل » التى تجمع على Kälber والتى تنتمى إلى فصيلة -es- أمكن أن يجمع Haus « بيت » على Haüser و Buch « كتاب » على Bücher و Fass « برميل » على Fässer و Glas « كوب على Gläser و Geld « نقد » على Gelder و Wort « كلمة » على Wörter . ومع ذلك فقد بقى عدد لا بأس به من الكلمات المحايدة التى تجمع على غير ذلك مثل Mass « مقياس » وجمعها Masse ، و Ross « حصان » وجمعها Rosse ، و Auge « عين » وجمعها Augen ، الخ . ومن جهة أخرى نعثر على الزائدة er- فى بعض الكلمات المذكرة مثل : Rand « حافة » وجمعها Ränder و Gott « إله » وجمعها Götter ، و Wurm « دودة » وجمعها Würmer ، الخ . ومعنى ذلك أن القياس لم ينجح فى إعطاء الزائدة التى خلقها وظيفة واحدة .

وما الرأى فى اللغات الصناعية المبنية على خطة منطقية قد وضعت مقدماً ؟ هذه اللغات غير ممكنة الوقوع إلا إذا كانت لغات خاصة : لغات فنية أو لوائح علامات . فى هذه الحال يكفى الاتفاق بين الأشخاص المعدودين الذين يستعملونها

(١) شتريتبرج Streitberg ، رقم ٢١٠ ، ص ١٠٣ .

للاحتفاظ بها كما خلقت دون تغيير . ولكن لا ينبغى لها أن تصير لغات حية ؛ لأنها حينئذ لا تلبث أن يعتريها التغيير ، فتنشأ بين الصيغ خلافات فى القيمة ؛ وتتغلب بعض الصيغ على بعضها الآخر ؛ ويعمل قانون القياس عمله ، وتحل الفوضى محل النظام الجميل . فالصيغ ذات الغلبة تصير مراكز إشعاع قياسى ؛ وتجذب إليها غيرها من كل جانب لأسباب متنوعة ؛ بعد ذلك توجد خطط قياسية متضاربة متقاطعة ، لا يستطيع عقلنا القاصر أن يوفق بينها . ذلك أن اللغة المثالية حلم من الأحلام . تذكرنا ببستانى بذر فى بقعة منظمة الأرجاء بذورا متماثلة كل التماثل وأخذ يولى كلاً منها قدراً متماثلاً من عنايته أملا منه فى أن تنبت حديقته أشجارا متساوية الحجم تجرى على نظام واحد وتثمر عدداً متساوياً من الأزهار والأثمار . بل إن هناك كثيراً من الأسباب التى تجعل الظروف البيولوجية تحيد عن سمتها ، ومن هذه الأسباب ما يعلو على قدرة الإنسان : وكذلك الحال فى اللغويات التى يقف فيها القياس فى غالب الأحوال موقفاً مغايراً للمنطق ، على الرغم من أنه ينبعث من الحاجة إلى التوحيد ويستخدم التعليل العقلى بطريقة ترضى العقل(١) .

* * *

الحاجة إلى التعبيرية كالحاجة إلى التوحيد من الحاجات التى لا تسد ؛ ولكن العقل بسعيه إلى سدها يصلح من البلى الذى يلحق بالصيغ ، وبالتالى يغير الصرف . فى أثناء التطور الصوتى للغة من اللغات ، تتآكل بعض العناصر الصرفية حتى تصبح غير صالحة للاستعمال ؛ بل قد تبتر فى بعض الأحيان بتراً تاماً . وعندئذ يجب ترميمها أو إحلال غيرها محلها . فإذا كانت اللغة من اللغات المعربة كاللاتينية وكانت الإصابة فيها واقعة على نهاياتها (انظر ص ٨٨) ، وجب أن يتناول الترميم الإعراب بأسره . فالبقايا الصرفية التى يبقى عليها فعل القوانين الصوتية يندر أن

---

(١) راجع عن اللغات الصناعية كوتورا وليو Couturat et Leau ، رقم ٦٠ ورقم ١٠ سنة ١٩٠٨ ، ص ٧٦١ ؛ سنة ١٩١١ ص ٥٠٩ ؛ وسنة ١٩١٢ ، ص ١ . أنظر أيضا مجلة الجمعية الفلسفية الفرنسية ، سنة ١٩١٢ ، ص ٤٧ — ٨٤ . وانظر مناقشات Boudouin de Courtenay للاعتراضات التى أثارها برجمان ولسكين Brugmann et Leskien ، فى Zur Kritik der Künstlichen Weltsprachen ستراسبرج (١٩٠٧) وتجدها فى رقم ٢٤ ، مجلد ٤ ، ص ٣٨٥ ؛ وقارن رقم ٢٢ ، ص ٣٦٥ .

تـكون على درجة من التعبيرية تجعلها صالحة للبقاء على ما هى عليه . لذلك نرى إعراب الاسم يختفى شيئاً فشيئا فى اللاتينية العامية فى القرون الأولى من التاريخ المسيحى . ولم يبق منها من كل أنواع الإعراب إلا المخالفة بين الفاعل والمفعول التى بعثت بعد ذلك بفضل عملية القياس . كذلك تصريف الفعل فى اللاتينية الحديثة يدين بمقدار كبير إلى القياس . والعلامتان الفرنسيتان ons - ez - اللتان تميزان جمع المتـكلم والمخاطب نتيجة لامتداد قياسى . كذلك الزائدة - iss - فى التصريف finissons « ننتهى » و finissez « تنتهون » و finissais « كنت أنتهى » ليست إلا اللاحقة اللاتينية - isc - الدالة على الابتداء والاستمرار ، قد أخذت من بعض الأفعال وطبقت على هذه الفصيلة من التصريف وصارت رمزاً لها . والزائدة u - فى أسماء المفاعيل eu « مملوك » (قديما ëvu) و vu « مرئى » (قديما véu) و lu « مقروء » و tenu « ممسوك » و rompu « مفصوم » ، الخ قد جاءت من نهاية اسم المفعول اللاتينية utus- ، وهى صيغة نادرة الأمثلة فى اللاتينية . ولـكن كان من اللازم فى كل هذا إصلاح ما فقد بفعل البلى الصوتى ؛ فأسماء المفاعيل القديمة habitus و uisus و lectus و tentus و ruptus الخ ، لم تظهر أو ما كان يمكن أن تظهر فى الفرنسية فى صورة خالية من التعبير الصرفى . ومن ثم كانت الحاجة ماسة إلى الامتداد القياسى لنهاية معبرة .

ولـكن كل ذلك لم يـكن كافيا ؛ ولقد كان من العسير محاولة مد جميع الفصائل النحوية بالتعبير بمجرد إنعاش التصريف اللاتينى بتطعيم قياسى . لذلك تدخلت عملية أخرى تنحصر فى زيادة أهمية الحروف وفى التوسع فى الأداة وفى استعمال الضمائر ، وبالاختصار فى خلق نظام بأسره من الـكلمات المساعدة تستعمل استعمال العناصر الصرفية . لذلك نرانا اليوم نقول la sœur « الأخت » و de la sœur « (بتاع) الأخت » و à la sœur « للأخت (أو) إلى الأخت » أو je lis « أقرأ » و tu lis « تقرأ » و il lit « يقرأ » بينما كان اللاتينيون يقولون : soror و sororis و sorori أو lego و legis و legit.[1]

(١) ومعنى هذا أن اللغة الفرنسية تستعمل أدوات فى حالات تستعمل فيها اللاتينية علامات الإعراب . المعربان

وأصل التركيب الفرنسى موجود فى اللاتينية على وجه التأكيد حيث تختص الحروف مثلا باستعمالات عديدة ، بل وكثيرا ما تستخدم لشـــدّ أزر علامات الإعراب ؛ غير أن à « إلى — ل » و de « من أو [بتاع] » فى الفرنسية رمزان نحويان يخلوان من كل قيمة ذاتية على عـكس ad « إلى — ل » و de « من » فى اللاتينية فقد احتفظتا بقيمة ظرفية واضحة . ومع ذلك فإن ad و de كانتا فى اللاتينية عنصرين صرفيين منذ زمن طويل .

لم تـكتف الفرنسية بالحروف اللاتينية ، فاضطرت إلى خلق حروف جديدة . ففضلا عن التراكيب الظرفية أو الحرفية اللاتيينية من مثل dans « فى » وaprès « بعد » و sous « تحت » و avec « ب » الخ استعملت كلمات أخرى موجودة فى اللغة ، فأُخذت chez « عند » من الاسم اللاتينى casa « بيت » : وما زلنا نجد فى بعض الأقاليم الفرنسية أسماء أماكن من مثـل chez, chez Rolland, Pierre « بيت بيير وبيت رولاند » . كما أن بعض أسماء الفاعلين والمفعولين والصفات قد صارت حروفاً حقيقية ، مثل : pendant la nuit « أثناء الليل ، أو فى الليل » و vu les circonstances « نظراً للظروف (حرفيا منظورة الظروف) » nonobstant la défense « رغم الدفاع (حرفياً : الدفاع غير مانع) » excepté le dimanche « عدا الأحد (حرفياً : الأحد مستثنى) » و malgré la pluie « رغم المطر (حرفياً : مرغم المطر) ، sauf erreur « عدا الخطأ » و plein la rue « ملء الشارع (حرفياً ملىء الشارع) » . ونجد حالات مماثلة فى عدد كبير من اللغات . فالتعبير عن حالة الإضافة يُدلّ عليه فى بعض لغات الهند الحديثة (كالسنغالية مثلا) بواسطة العنصر ge (جِ) وهو العبارة المكانية السنسكريتية القديمة grhe « فى البيت » وذلك كما لو قلنا فى الفرنسية le livre chez Pierre « الكتاب عند بيير » بدلا من le livre de Pierre « الكتاب (بتاع) بيير » . والزائدة الإعرابية الجرية vle- التى يعبر بها عن الآلة والتى يمكن ترجمتها بالحرف الدال على الآلة (ب) مشتقة من

كلمة مستقلة قديمة فى حالة مفعول الآليـة ، وهى -vāyl أو -vāyd « بقوة ، بواسطة » . وفى الإنجليزية تعتبر الـكلمات التالية حروفاً حقيقية : concerning « خاصاً بـ » و past « بعد (حرفياً : ماض) » (half past two) « الساعة اثنتان ونصف . (حرفياً : نصف بعد اثنتين) » وفى الألمانيـة الـكلمتان trotz « برغم » و betreffend « خاص بـ » وفى الدنمركية الـكلمة undtagen « ماعدا » الخ .

كل هـذه الـكلمات صارت « كلمات فارغة » بالمعنى المعروف فى الصينية (أنظر ص ١١٦) . ذلك أننا إذا تركنا عملية القياس جانباً نجد الصرف يستعيض فى الواقع عن خسارته بتحويل الـكلمات المليئـة إلى كلمات فارغة . فالأدوات النحوية التى تستعملها اللغات ليست إلا بقايا من كلمات مستقلة قديمة ، أفرغت من معناها الحقيق واستعملت مجرد موضحات أى مجرد رموز .

نستطيع أن نتتبع فى كثير من اللغات تطور عناصر مختلفة من قبيل حروف الجر ، وحروف الوصل وآلات التعريف ؛ وهو لايخرج فى عمومه عما رأيناه فى الأمثـلة المتقدمة . فالـكلمتان الإغريقيتان μετά « بـ » و μέσφι, μέχοι « حتى (للغاية) » تتصلان بكلمة معناها « وسط » كما تتصل πεδά « بعد » باسم الـقدَم (قارن حرف الجر yet « بعد » فى الأرمينية) . ونجد فى كثير من اللغات أدوات وصل من قبيـل lorsque « حالا (أصلها : فى ساعة أن) » و du moment que « عندما (حرفيا : فى لحظة أن) » والـكلمة اللاتينيـة mages « بأكثر » صارت فى الفرنسية mais « لـكن » أى أداة استدراك ؛ كما انتقلت كلمة μᾶλλον فى إغريقية العصور المتأخرة من فـكرة : « ليس هذا ، بالأحرى ذلك » إلى فـكرة : « ليس هذا ، لـكن ذلك » . وأدوات التعريف فى كل اللغات إشارات قديمة ؛ كما أخذ من اسم العـدد أداة تنكير تعبر عن الوحدة فى اللغات الجرمانية والـكلتية والإغريقية الحديثة وجميـع اللغات الرومانية . واسم الإنسان صار فى الفرنسية والجرمانية والـكلتية والأرمينية أداة نحوية تعبر عن الشائع (فى الفرنسية . on dit « يقالَ [حرفيا : يقول إنسان] »

وفى الألمانية : man sagt (كما فى الفرنسية تماما) ؛ وفى البريتانية : neuz ket den « لا يوجد أحد » ، وفى الأرمينية marth egav « هل جاء أحد ؟ » وقد تعبّر عن المعرّف : « فى التالية : y gwr (هذا الذى ، الذى) » .

الأفعال التى تسمى بالأفعال المساعدة كلمات مفرغة أيضاً . فى الإنجليزية فعل to do « يفعل » تستعمل أداة نحوية للاستفهام مثل: do you see? «هل ترى؟» وللنفى مثل I do'nt see « لا أرى » . وتستعمل الألمانية الفعل thun «يفعل» استعمالا مشابها ، فى بعض اللهجات على الأقل مثل : er tat schiessen « أطلق (عياراً نارياً) » er tut sich wenden « استدار » . والأفعال التى تستعمل أفعالا مســـاعدة هى غير الأفعال فى كل اللغات بوجه عام . ففكرة « vouloir » « يريد » أو devoir « يجب » تميل دائما إلى التعبير عن العرضية ، عن الاستقبال (انظر ص ١٩٩) ؛ وفكرة « tenir » « يشغل » و « accouper » « يحتل » تستعمل للدلالة على الحدث المنتهى ، ومن ثم التام . ومن هنا جاء فى الإنجليزية I will go « سأذهب » و « I shall find » « سأجد » وفى الأرمينية الحديثة : bidi anem « سأفعل» وفى الفرنسية : j ' ai conquis « افتتحت » و ich habe gedacht « فكرت » فى الألمانية ... الخ . وإذا كنا فى الكتابة نفصل الكلمة الفارغة عن الكلمة المليئة التى تصحبها ، فتلك عادة كتابية محضة .

يوجد فى الفرنسية حالات تم فيها التحام الكلمتين ، فصارت الكلمة الفارغة لاحقة من اللواحق . ففيها المستقبل والشرطى j'aimerai «سأحب» و je lisais « ... (ل) قرأت » وهما مأخوذان من تراكيب لاتينية متأخرة مثل : legere habebam و amare habeo . وظروف الحال عندنا تتكون بواسطة اللاحقة ment — مضافة إلى الصفة ؛ وهذه اللاحقة ليست شيئاً آخر غير صيغة مفعول الآلية mente من كلمة mens « عقل » . ونجد فى اللاتينية منذ القرن الأول قبل الميلاد استعمالات لكلمة mente تعلن عن هذه الوظيفة ، وظيفة التعبير عن الحال مثل : constanti mente و obstinata mente و Liquida mente (كاتول

لكريس (sagaci mente؛ ٦٣و٤٦)؛ ١١/٨؛ ٢٣٩ و٢١٠/٦٤ Catulle، Lucrèce ١/١٠٢٢). ولا شيء فى ذلك مما يدهش: ففى الإغريقية [1] عبارات من مثل εὐδόξῳ φρενί (اسخيل Eschyle : Choeph بيت ٣٠٣) أو γηθούσῃ φρενί (نفس المرجع، بيت ٧٩٢) وهما تقابلان بالضبط العبارتين اللاتينيتين gloriosa mente (بالفرنسية glorieuse ment «بفخار») أو leta ment (بالإيطالية : lietamente). هذه العبارات قد بنيت على أنموذج شائع. وكثيراً ما يحدث فى اللاتينية كما فى الإغريقية أن تؤخذ الكلمات ذات المعانى المختلفة بقيمة عامة فتركب مع الصفات لتخرج منها كلمات جديدة أشبه شيء بظروف الحال (مثل χαρδίᾳ χαχῇ Θυμῷ, νηλέι νόῳ, ἀέχοντι وفى اللاتينية studioso animo و trupi corde و ardenti pectore و miris modis و certa lege ... الخ) وقد اختارت اللغات الرومانية العبارة المحتوية على كلمة mente لتجعل منها كلمة فارغة، لقد اختارتها من بين جميع العبارات اللاتينية التى فيها يحتفظ الاسم بقيمته، ولكن بشكل مخفف. وهناك لغات تستعمل كلمات أخرى: فالألمانية تستخدم كلمة weise «طريقة» لتجعل منها نوعاً من اللاحقة الظرفية مثل glück-licherweise «لحسن الحظ». وتستخدم اللغات الاسكندناوية كلمة vis «طريقة» لنفس الغاية: ففى الدنمركية heldigvis «لحسن الحظ» من heldig، وفى السويدية lyckligvis «لحسن الحظ» من lycklig. والأرمينية من جهتها خلقت لها ظروف حال بواسطة كلمة bar «طريقة» وكلمة pês «شكل، منظر»؛ مثل brnabar «بقدرة» (من burn «قدرة») darnapês «بمرارة» (من darn «مر»). وما دام العقل قد اختار كلمة من بين جميع الكلمات اللائقة التى تحت تصرفه، فإنه قد أقصى ما عداها.

فذلك الشيء نفسه قد وقع فى الفرنسية بالنسبة لأداة النفى. ونحن نعرف إلى أى حد تسرى عدوى النفى إلى الكلمات التى تلامسه. فالكلمات aucun «لا أحد» و personne «لا أحد» [وذلك فى صدد النفى ومعناها فى

(١) پول شورى Paul Shorey، رقم ٢٠، جـ ٥ (١٩١٠)، ص ٨٣.

الإثبات : « شخص »] du tout « بالمرة » من خير المثل فى الفرنسية لما حدث فى الإسپانية للـكلمة nada « لا شىء » (من : rem natam) . فنى الفرنسية قيل فى النفى أولا : je ne vois point « لا أرى نقطة » و je ne mange mie « لا آكل كسرة » و je ne marche pas « لا أمشى خطوة » je ne bois goutte « لا أشرب قطرة » ، الخ . فنى كل هذه الجمل يعبر عن النفى بالأداة ne « لا » ، أما الـكلمات المعمولة (الفاعيل : نقطة ، كسرة ... الخ) فإن معنى الجملة نفسه يبرر وجودها . غير أن قيمة النفى سرت فى هذه المعمولات إلى حدّ أن أماتت قيمتها الحقيقية وصارت الـكلمة ، بعد أن أصبحت نفياً ، تستعمل مع أى فعل لنفى أى حدث [أى ولو لم يـكن فعل الرؤية أو الأكل أو . . . الخ] . بقى من هذه الـكلمات كلمة pas (أصل معناها : « خطوة ») وكلمة point (أصل معناها « نقطة ») تستعملان أداتى نفى ؛ ولـكنهما لا يستويان فى الاستعمال ؛ أما goutte (أصل معناها « قطرة ») فقـد بقيت فى عبارات معدودة (je n'entends goutte « لا أسمع مطلقاً (حرفياً : لا أسمع قطرة) » je ce vois goutte « لا أرى مطلقا (حرفيا : لا أرى قطرة) » و mie « فتات ، كسرة » اختفت تماما من لغة الـكلام ، ولـكن الناس استمروا زمنا طويلا يقولون : je ne dors mie « لا أنام مطلقا (حرفيا : لا أنام كسرة) » و je ne souffle mie « لا أتنفس مطلقا (حرفيا : لا أتنفس كسرة) » ؛ وقد كان ذلك يصبح مستحيلا لو أنه بقى فى شعور المتكلم شىء ، مهما كان قليلا ، من المعنى الحقيقى لهذه الـكلمات .

قبل أن تصير الـكلمة مجرد لاحقة ، تتفرغ من معناها الحقيقى شيئا فشيئا وبطريقة غير محسوسة . ويمـكننا أن نلاحظ الطريقة التى يتم بها هذا العمل فى اللغات التى لا زالت تمارس التركيب بصورة عادية . فقد صاغت الألمانية مثلا عدداً كبيراً من الـكلمات المركبة بواسطة كلمة Mann « رجل » مثل : Bergmann « مُعدّن [عامل مناجم] » و Dienstmann « فاعل [العامل الذى يشتغل فى الأعمـال اليدوية] » و Fuhrmann « حوذىّ » و Kaufmann « تاجر »

وكذلك الحـــال مع كلمة Frau « امرأة » فيقال Hausfrau « خادمة » و Waschfrau « غســالة » . فهذه كلمات مركبة تركيباً حقيقياً ونحس على أنها كذلك. غير أن وجود كلمتى Mann « رجل » و Frau « امرأة » منعزلتين يجعل السامع يحس التركيب بعض الشيء . وكون الـكلمات التى يدخلان فى تركيبها تجمع بواسطـة Leute « ناس » فيقال Dienstleute « فَعَلَة » و Kaufleute « تُجَّار » يقوى هــذا الشعور . ومع ذلك فمن المؤكد أن عناصر التركيب تلك ليس لها فى العقل نفس الأهمية ؛ فالنبر الذى يقع على أول العنصرين يقلل من شأن الثانى بالنسبة للأول؛ والنبر هنا يسير مع المعنى أولا وقبل كل شىء . ذلك أن العنصر الأول هو عنصر الـكلمة الدال ؛ وقيمة الثانى قيمة صرفية على وجه الخصوص . فنحن فى الفرنـسية نترجم الـكلمات Bergmann « عامل مناجم » و Fuhrmann « حوذى » و Kaufmann « تاجر » بالـكلمات mineur و voiturier و négociant ، أى بوضع لاحقة بسيطة مكان الطرف الثانى من المركب الألمانى ، لاحقة لها نفس القيمة التعبيرية . أغلب الظن أننا لا نستطيع أن نقول بأن العنصر الألمانى Mann- لاحقة ، ولـكنه صائر إليها ؛ ولعله يصير مع ذلك بكل ما تتميز به اللاحقة . فالعنصر الأول يجذب إليه التفــات العقل كله ؛ والثانى يقنع بدور لا يكاد يزيد عن دور اللاحقة (١) .

نعثر فى الألمانية على لواحق عدة خلقت بهذه الصورة . فقد كان يقال فى الألمانية العليا القديمــة ni scouuous thu heit manno « non respicis per- sonam hominum » (إنجيل متى ٢٢/١٥) ثم أخذت كلمة heit تدخل فى التركيب ، مثــل : man-heit « الإنسانية » vip-heit « النسوية ، النساء » . وأخيراً أصبحت اليوم لاحقة من أشيع اللواحق (Mensch-heit « الإنسانية » ، Schönheit « الجمال » الخ) . ويمـكننا أن نجد نفس الطريقة إذا تتبعنا نشأة اللاحقتين lich- أو tum- . فالأولى اسم قديم معناه « جسم ، شكل » ولا يزال محتفظا به حتى اليوم فى Leichnam « رمّة » و Leichdorn « جسم فى القدم

(١) جانتسمان Ganzmann : رقم ١٦٤ ، ص ٢٦ .

[كالو] » ، ونجده فى gleich « الذى له نفس الشكل ، مشابه » ، وصار لاحقة فى صورة lich فى weiblich « الذى له صـورة المؤنث » و leiblich « ما له صورة محببة » ، الخ . واللاحقة tum- نجدها اسمـا مستقلا فى القرن التاسع فى قصيدة أتفريد Otfrid (فى صيغة duam « حدث ، وظيفـــة ») ؛ ثم قيل rihhiduam « امبراطورية » ، (يعبّر عنها الآن بـ reichtum) ، ثم على سبيل التوسع ، Deutschtum « الألمانية » و Yankeetum « الأمريكانية » الخ . ونعثر على هذا الاتجاه بعينه فى الإنجليزية القديمة حيث نجد wéfhad « النسوية » تقابل vip-heit فى الألمانية القديمة ، و cynedòm (اليوم kingdom) تقابل königtum « الملـكية » و woroldlic (اليوم worldly) تقابل weltlich « دنيوى » .

الـكلمات التى صـارت لواحق بعد أن أفرغت من معانيها الحقيقية ، أخذت قيمة تجريدية جعلتها قابلة للتعبير عن فصيلة صرفية . فبعضها مثلا يعبر عن الصفة ، وبعضها عن الحالة : بعضها يميز أسماء الحدث ، وبعضها أسماء الفاعلين . هذه القيمة التجريدية لا تمنعها بعد أن نشأت من أن تتلون بألوان من العاطفة . فاللاحقة ard - التى أخذتها الفرنسية من الجرمانية حيث تستعمل عنصراً ثانيا فى بعض أسماء الأعلام المركبة (Bernhard ، Eberhard ، Richard) ، هذه اللاحقة اتخذت فى الفرنسية دلالة تهكمية ؛ هذه الدلالة نشأت بعملية القياس ، ولـكن بعض الـكلمات نجت من هذا القياس (مثل buvard « نشّاف » foulard « منديل » فاحتفظت فيها اللاحقة بقيمتها العامة التجريدية التى لا يخالطها أى لون انفعالى . وهذا يدل على أن هذا اللون الانفعالى طارىء .

الميزة الحقيقية للـكلمة الفارغة هى التجريد . فـكلما أوغلت اللاحقة فى صيرورتها كلمة فارغة ، زادت قيمتها التجريدية إلى حدّ أن بعض دوال النسبة تنتهى إلى أن تصير مجرد رموز جبرية لا يمـكن ترجمتها إلى لغة أخرى ، وهذه حال ἄν فى الإغريقية القديمة و iti - فى السنسكريتية (انظر ص ١٠٧) . وليس من شك فى أن دوالّ النسبة هذه مأخوذه فى الأصل من كلمات مليئة كانت

لها فى اللغة دلالة مشخصة كما فى حالة الأداتين θά و ᾶς فى الإغريقية الحديثة بالضبط (أنظر ص ٨٩) . فتطور دوالّ النسبة يحصل إذن بالانتقال من المشخص إلى المجرد بقدر الانتقال من الخاص إلى العام .

عندنا مثال من خير الأمثلة التى تلخص عمليات تكوين دال النسبة ، وذلك فى أداة الاستفهام الفرنسية ti - « تى » .

جاستون پارى jaston Paris أول من لفت الأنظار إلى أهمية هذه الأداة الكثيرة الاستعمال فى اللغة المعاصرة [١] . فعبارة il aime « يحب » (وتنطق إيلَيم) « المسند فيها الفعل إلى ضمير الغائب المفرد إذا جعلت استفهاما كانت تصير فى الفرنسية الوسطى ? aime - il « هل يحب ؟ (وتنطق : إيميل) » . وكانت تستعمل على هذا النحو حتى أوائل القرن السابع عشر . وتحت تأثير جمع الغائب الذى ينتهى فعله بحرف التاء (ils aiment « يحبون » وتنطق إيلزَيم ؛ ? aiment - ils « هل يحبون ؟ » وتنطق إيمتيل) أقحم حرف التاء فى صيغة المفرد عند الاستفهام لحفظها من الفناء الذى ينجم عن عدم التعبيرية . ومن ثم جاءت aime - t - il « ايمتيل » التى هى نتيجة لخطوة أولى فى التوسع . غير أن الغائب مفردا وجمعا قد صار بهذه الوسيلة مميزا فى حالة الاستفهام بالنسبة للشخصين الآخرين . فإن التاء لا توجد إلا فى صيغة الاستفهام — إذ أن النطق فى غيره èm ايم (ils aiment, il aime) دائماً فى كلتا الحالتين — فصارت هذه التاء فى الواقع علامة للاستفهام حرمت منها الأشخاص الأخرى (aimé - je « هل أحب » ، aimons - nous « هل نحب » ، aimes - tu « هل تحب » ، aimez-vous « هل تحبون » . وأصبح المفرد المتكلم (aimé - je) فى حالة نقص بين هذه الأشخاص بسبب ظروف صوتية ، بل أصبح مبعدا فى بعض الأحوال إبعاداً واضحاً ، وذلك فى مثل (cours-je « هل أجرى ؟ » و lis-je « هل أقرأ ؟ » و pars-je « هل أنطلق ؟ » و sers-je « هل أخدم ؟ » ، الخ ؛ وتعرّض شخصان آخران ، هما aimons-nous « هل نحب ؟ » و aimez-vous « هل

---

(١) رقم ١٨ ، مجلد ٦ ، ص ٤٣٨ ؛ وقارن مجلد ٧ ، ص ٥٩٩ .

تحبون » للالتباس بصيغة الأمر من الفعل المطاوع ولذلك فقدا جزءا كبيرا من قيمتهما التعبيرية . وقد كان ذلك ربحاً لصيغة الشخص الثالث الاستفهامية التى أصبحت به واضحة مع قصرها ، ثم صار يستعمل أيضاً مع الفعل مسندا إلى الظاهر مثل : Pierre aime - t - il ? « هل بيير يحب ؟ » ، يزيد على ذلك أن نهاية الجملة il (إيل) صارت تنطق i- (إى) تبعا لعملية صوتية معتادة (قارن coutil « نوع من النسيج » و nombril « سرة » و persil « بقدونس » [وفيها جميعا لا تنطق اللام الأخيرة] ، فانقطعت بذلك الصلة التى تربطه بالضمير il aime) [إيلِم] ، ? aime - ti [إيمتى] أو كان ذلك على الأقل فى حالة ما إذا كان الفعل يبدأ بحرف حركة . وعلى ذلك صـار يأخذ شيئاً فشيئا قيمة عنصر مستقل أصبح خاصاً بمعنى الاستفهام . وأخيراً ساعد على انتشار ti (تى) الاستفهامية وأكد نجاحها الميل الطبيعى فى اللغة الفرنسية لوصل الفعل بضمير الفاعل بعروة وثيقة . لذلك تقل الحالات التى يفصل فيها بينهما شيئا فشيئا : فبدلا من أن يقال je le dis « أقوله » و tu le sais « تعرفه » [بالفصل بين الفعل والفاعل بضمير المفعول] يقال في لغة الكلام je dis ça « أقول ذلك » و tu sais ça « أنت تعرف ذلك » . وهـكذا أصبحنا نتوقع اللحظة التى لا يفصل فيها بين الفعل وبين الضمائر : je « أنا » و tu « أنت » و il « هو » و nous « نحن » و vous « أنتم » و ils « هم » . ومن ثم صارت دلالة القلب [يعنى تقديم الفعل وتأخير المسند إليه] على الاستفهام تتناقص شيئا فشيئا . وأصبح العنصر ti (تى) Pierre, aime-ti ? «بيير ، أيحبّ ؟» من أبسط العبارات وأنسبها فى الدلالة على الاستفهام : فعممت فى il aime-ti? « هل يحب ؟ » ثم فى : j'aime-ti « هل أحب؟ » و tu aime-ti « هل تحب؟ » nous aimons-ti « هل نحب؟ » ces enfants s'aiment-ti « هؤلاء الأطفال ، هل يحب بعضهم بعضا ؟ » دون تغيير فى نظام الفاعل والفعل الذى تتمسك به اللغة تمسكا قويا .

فأداة الاستفهام ti (تى) تدين إذن فى انتشارهـا إلى سلسلة من خطوات التوسع القياسى ، ساعدتها فى كل واحدة منها ظروف خاصـة . فأصبحت اليوم

رمزاً تجريديا ذا صبغة عامة ؛ إذ أنه يطبق على أنواع الجملة الاستفهامية كلها دون تمييز . وذلك هو رمز الاستفهام الوحيد الذى كانت اللغة الفرنسية فى حاجة إليه .

وقد رأينا كيف وصلت إلى خلقه وبأى قدر من المهارة المرنة الملحة قد خلقته .

ولم يكن فى الفرنسية تقاليد كتابية ، ولو لم تكن اللغة تتلقى وتكتب اليوم على نحو ما يفعل بلغة قوم متبربرين ، ما أتيح لنا أن نرى الأداة ti تنفصل عن الفعل الذى يسبقها . ولصرنا نكتب كلا من العبارتين : j'aime - ti « هل أحب » و j'aime - ti pas « ألست أحب » فى كلمة واحدة هكذا Jemti (جِمَتِى) Jemtipa (جِمْتيبا) ولاعتبرت أداة الاستفهام وكذلك أداة النفى عنصرى بناء أى لاحقتين على قدم المساواة مع اللواحق وعلامات الإعراب فى الإغريقية واللاتينية . ولفقدنا كل وسيلة للكشف عن أصل ti (تى) أو pa (پا) ؛ ولاعتبرناها أداتين نحويتين مجردتين من كل معنى ذاتى .

ولعل الإعراب فى الهندية الأوربية والسامية إنما نشأ من إلصاق عناصر مستقلة التكوين إلى الأصل ، وهى عناصر كانت تحوم حوله ثم التحمت به على مرور الزمن(١) . ولكننا نجهل نقطة البدء التى صدرت عنها . ولعله من العبث أن نحاول البحث عن الصيغة والدلالة البدائيتين لعلامة الإسناد فى التكلم الجمع أو مفعول الأداة ، أو عن لاحقة الفعل الدال على الابتداء فالاستمرار أو الاسم المجرد . ولكن يمكن التأكيد بأن هذه العناصر التصريفية نتجت من امتداد قياسى لكلمات قديمة مستقلة ، بعد أن شوهت تشويها قليلا أو كثيراً ، ونزلت إلى حد الاقتصار على أداء دور الأدوات النحوية . فالنظم الصرفية لا تتجدد بغير هذه الوسيلة .

---

(١) أنظر خاصة هرت Hirt ، رقم ٣٠ ، مجلد ١٧ ، ص ٣٦ وما يليها ؛ وكذلك هـ . أورتى H. Oertei ، و ا . ف . موريس E . F . Morris فى :

Am examination of the theories regarding the nature and origin of Indo-European inflexion .

(رقم ٢٢ ، مجلد ١٦ ، ص ٦٣ — ١٢٢) .

الجزء الثالث

المفردات

الفصل الأول

طبيعة المفردات ومداها (١)

لم ندرس فيما تقدم حتى الآن الكلمات من ناحية قيمتها المعنوية ، أى من ناحية المعنى الذى تعبر عنه مستقلة عن الدور الذى تلعبه فى الجملة . ومع أن دوالّ النسبة تكوّن مع دوالّ الماهية فى غالب الأحيان جسما واحداً إلى حد يجعل تحليل الكلمة أمراً مستحيلاً (أنظر ص ١٢٢) ، فإن الصرف مستقل عن قيمة الكلمات المعنوية وقيمتها الصوتية على السواء . وما نسميه بالمفردات هو مجموع الكلمات فى إحدى اللغات باعتبار قيمتها المعنوية . فهذه النظم الثلاثة : نظام النطق ونظام الصيغ النحوية ونظام المفردات تستطيع أن تصوّر منفصلة كل منها عن الآخرين ، تحت تأثير أسباب مختلفة . وبعض اللغات تجدد مفرداتها دون أن تغير شيئاً من صوتياتها أو من نظامها الصرفى . فنجد مثلا فى الأردية الأدبية (وهى فرع من الهندستانية) جملاً بأسرها ليس فيها من الهندية إلا النظام النحوى ، أما الكلمات فكلها فارسية . والغجر الأرمينيون يستعملون لغة أرمينية

---

(١) ك . أ . اردمان K. O. Erdmann ، ١٥٧ ؛ روزفادوفسكى Rozwadowski ، رقم ١٩٣ .

نطقاً ونحواً وإن كانت مفرداتها غريبة عن الأرمينية[١]. ذلك أن القالب النحوى الواحد يمكن أن تصب فيه مفردات مختلفة .

* * *

العلم الذى موضوعه دراسة المفردات يسمى الاشتقاق Etymologie[٢] . وتنحصر فى أخذ ألفاظ القاموس كلمة كلمة ، وتزويد كل واحدة منها بما يشبه أن يكون بطاقة شخصية يذكر فيها من أين جاءت ومتى وكيف صيغت والتقلبات التى مرت بها . فهو إذن علم تاريخى يحدد صيغة كل كلمة فى أقدم عصر تسمح المعلومات التاريخية بالوصول إليه ويدرس الطريق الذى مرت به الكلمة مع التغيرات التى أصابتها من جهة المعنى أو من جهة الاستعمال . ومن ضياع الوقت أن نحاول البرهان على أهمية هذا العلم . فلم يأخذ العلماء فى تأسيس الصوتيات والصرف المقارنين إلا بفضل ماوصل إليه الاشتقاق من نتائج . والاشتقاق والصوتيات والصرف يسند بعضها بعضاً . فما دامت القواعد التى يجرى عليها تتابع الأصوات والصيغ النحوية فى صورة الاشتقاق ، فإن هذا الاشتقاق الذى يطبقها تطبيقاً صحيحاً يقدم لعلم اللغة أجدى المساعدات .

ولكن الاشتقاق يعطى فكرة زائفة عن طبيعة المفردات ؛ لأن كل مايعنى به هو أن يبين كيف تكونت المفردات . والكلمات لا تستعمل فى واقع اللغة تبعاً لقيمتها التاريخية — فالعقل ينسى خطوات التطور المعنوى التى مرت بها ، ونقول ينساها إذا افترضنا أنه عرفها يوماً من الأيام . وللكلمات دائماً قيمة حضورية actuelle ، يعنى أنه محدود باللحظة التى تستعمل فيها ، ومفرد ، يعنى أنه خاص بالاستعمال الوقتى الذى تستعمل إياه[٣] .

وإذا تصفحنا قاموساً اشتقاقياً كان أول مايلفت نظرنا بعد العدد الكبير من الكلمات التى لايذكر لها أى اشتقاق جدير بالاعتبار ، إنما هى وفرة المعانى غير

---

(١) Finck نك : Die Sprache der armenischen Zigeuner ، فى نشرات أكاديمية سانت بيتر سبرج الدورية مجلد ٨ ، رقم ٥ (١٩٠٧) .

(٢) عن الاشتقاق أنظر مؤلفات الأستاذ أ. توماس. وراجع أيضاً تونيسن Thurneysen رقم ٢١٤ .

(٣) بلى Bally ، رقم ٤٥ صفحة ٢١ ، ٤٧ .

المنتظرة التى توالت على الكلمات . فأسماء رتبنا العسكرية مثلا من الكابورال Caporal « الأمباشى » إلى الجنرال général « لواء » مارة بالسرجن Sergent « جاويش » فالأدجودنت adjudant « الصول » فاليتينانت lieutenant « اللازم » فالصاغ « اليوزباشى » Capitaine فالقومندان Commandant « البكباشى » تقدم لنا مجموعة من الأخلاط المتنافرة ؛ وكذلك الحال فى جميع التسميات التى نحار فى تفسيرها على ضوء الاشتقاق وحده . فالاستعمال يخلع على كل كلمة قيمة محدودة دون أن يدخل فى حسابه المعنى الذى كان لها فى الماضى . فالماريشال maréchal لقب أكبر مقام فى نظامنا الحربى ، جاءت من خادم الاسطبل (فى الألمانية القديمة marah — scalc ، ومنها mariscalcus فى لاتينية القرون الوسطى) ، ولذلك يرى العالم الاشتقاق أن ماريشال فرنسا maréchal de France والماريشال فرّان Maréchal ferrant « بيطار » يحملان اسماً واحداً .

من محض المصادفات أن كانت مجموعة واحدة بعينها من الأصوات تدل فى لغة واحدة على العملية الحسابية (calcul) وعلى الحصاة الكلوية (calcul) إذ أنهما يرجعان من ناحية الاشتقاق إلى كلمة واحدة . وعلى العكس من ذلك يرى العالم اشتقاق كلمتين مختلفتين فى الجملتين il loue une maison « يؤجر بيتا » و il loue la vertu « يمتدح الفضيلة » . [مع أن الفعل المستعمل فى الجملة الراهنة فعل واحد يستعمل فى كلا المعنيين louer] ، أو فى il pratique le vol plané و ، «يمارس السرقة بالخطف» le vol à la tire « يمارس الطيران الشراعى » . [الاسم المستعمل فى المعنيين سرقة وطيران واحد هو voler] . ولكنها مصادفة كبيرة أيضاً تلك التى جمعت فى الفرنسية فى مجموعة واحدة بعينها من الأصوات معنى الكلمة اللاتينية locare « يؤجر » والكلمة اللاتينية أيضاً laudare « يمتدح » وفكرة التلصص مع فكرة الجولان فى الهواء أوفكرة التفكير الحسابى وفكرة الأحجار تتكوّن فى داخل الكليتين ، والمتكلم لا يفرق بين هذه الحالات الثلاث المتقدمة بعضها وبعض . فاشتراك اللفظ

فى أكثر من معنى l' homonymie يوجد مستقلا عما كان بين الكلمات من صلات تاريخية .

أكثر من ذلك أننا حينما نقول بأن لإحدى الكلمات أكثر من معنى واحد فى وقت واحد نكون ضحايا الانخداع إلى حد ما . إذ لا يطفو فى الشعور من المعانى المختلفة التى تدل عليها إحدى الكلمات إلا المعنى الذى يعينه سياق النص(١) . أما المعانى الأخرى جميعها فتمحى وتبدد ولا توجد إطلاقاً . فنحن فى الحقيقة نستعمل ثلاثة أفعال مختلفة عندما نقول « الخياط يقص الثوب » أو « الخبر الذى يقصه الغلام صحيح » أو « البدوى خير من يقص الأثر » . وكذلك الحال عندما أقول « لا تصاحب الآنسة س : إنها بنت » أو « السيدة س ولدت مولوداً ، إنه بنت » أو « أقدم لك بنتى » ، فإنى أستعمل فى الواقع ثلاث كلمات لا يربطها بعضها ببعض أى رباط ، لا فى ذهن المتكلم ولا فى ذهن السامع .

فى التسليم بأن للكلمات معنى أساسياً ومعانى ثانوية صادرة عن الأول إثارة لمسألة وجهة النظر التاريخية . ووجهة النظر التاريخية تلك لاقيمة لها هنا . ربما رأى الشخص الذى يشمل اللغة بأسرها فى تطورها واتساعها بنظرة واحدة أن الريشة التى من حديد جاءت من ريشة الأوزة ، فهى عنده كلمة واحدة أخذت دلالتين مختلفتين على مرور الزمن . لذلك يجدر بقاموس يفخر بتتبعه لخط سير المعانى أن يضع تحت كلمة ريشة ، معنى الريشة التى من « حديد » بعد معنى ريشة (الأوزة) . ولكن الفرنسى الذى يتكلم لغته اليوم ، لا يرى فى هذين الاستعمالين فى الواقع إلا كلمتين مختلفتين . ولا يوجد شخص واحد يحاول أن يشكو من الغموض عند سماعه جملتين من قبيل « يعيش من كد ريشته » و « اجتث له ريشة » . وكل واحد يفهم دون تردد أن الكلام فى الجملة الأولى عن أحد الكتاب وفى الثانية عن أحد الطيور . فالكلمتان مختلفتان كجميع المشتركات الأخرى . وفى اللغة كلمتان من « ريشة » تقابلان المعنيين السابقين كما يوجد

---

(١) قارن ما يقول پولان Paulhan فيما يقتبسه عنه ب . لروا B. Leroy ، رقم ٨٧ ، صفحة ٩٧ .

أربع كلمات من « سو so » (وإن اختلفت فى الـكتابة) فى الجمل الأربعة الآتية :
ils ont apposé « لقد حطوا دلاءهم » Ils ont déposé leurs seaux
la nature ne fait pas de sauts « و « وضعوا توقيعاتهم » leurs sceaux
« الطبيعة لاتقوم بوثبات » ces enfants sont des sots « هؤلاء الأطفال بلهاء[1] . »

قد يعترض معترض فيقول بأنه قد مرت لحظة كان يحس خلالها بأن كلمة ريشة استعارة . ولـكن هذه اللاحظة لم تطل ، فأية كلمة فى اللغة الجارية ليس لها إلا معنى واحد فى الوقت الواحد . إذ لما كانت ريشة الأوزة تستعمل فى الـكتابة ، كان الذى قال « آخذ ريشتى لأكتب كلمة » قد استعمل كلمة ريشة بمعنى أداة للـكتابة ، ولم يقصد استعمال استعارة ؛ وسامعه لم يقدر غير هذا التقدير . الاستعارة تشبيه مختزل ؛ تقديرها يحتاج إلى مجهود يستطيع الإنسان أن يسلم به لمؤلف يقرؤه عندما يتوفر له الوقت ، ولـكنه فى المحادثة لايملك الوقت الـكافى لهذا العمـل . فاللغة فى حاجة إلى تحديد ووضوح . وأكثر مايجب تجنبه عند الـكلام إنمـا هو اللّبس . والجناس فى حد ذاته مسلك غير طبيعى ؛ فهـو عمل فنى يتطلب انتباهاً خاصاً كـكل إنتاج فنى . وأولئك الذين يقبلون على هذا النوع من الممارسة يعرفون جيداً ضرورة تحضير الجو وإيقاظ عقل السامع ليكون على بينـة مما يجرى فيقف بالمرصاد لاقتناص النكتة العقلية . فلو كانت الـكلمة تمثل دائماً فى الـكلام بكل معانيها الممكنة — لأحس السامع فى المحادثة على كل حال ذلك الأثر المضايق الذى تحدثه فى نفسه سلسلة من الجناسات .

لاشك أن هذه النتيجة تصدم المتشددين الذين يعلقون أهمية كبيرة على اختيار الاستعارات ، والذين يقولون بإقصاء كل تلك التى لا تأتلف ائتلافاً تاماً مع سياق النص ، وقد يعترضون بأن فن الأسلوب لم يوجد عبثاً : نعم ، نحن نوافق أنه ليس من التجاوز فى العناية بالأسلوب أن تعاب هذه الاستعارات المتنافرة التى كثيراً

---

(١) الـكلمات التى تدل على دلو وتوقيع ووثبة وأبله واحدة فى نطقها ولـكنها مختلفة فى رسمها .

المعربان

ما تثقل الخطب الرسمية والمقالات التى تنشر فى صفار الصحف . فجمل « عربة الدولة تسبح على بركان » أو وصف فنانة مبتدئة بأنها « كوكب من المشب ، يغنى [رغم حداثته] بأنامل فنان ناضج » ليس من العناية بالأسلوب فى شيء . وكل اللغات تحتوى على عبارات عوجاء من هذا القبيل تذكر أحياناً للتفكه وإثارة الضحك . وكلنا يعرف الجملة الألمانية der Zahn der Zeit, der Schon so manche Thräne getrocknet hat, wird auch über diese Wunde Gras wachsen lassen وترجمتها الحرفية « ناب الدهر الذى كثيراً ما جفف من دموع ، سيجعل العشب ينمو على هذا الجرح أيضاً » . لاشك أن مثل هذه الجمل تثير الضحك ؛ ولكنها لاتضحك إلا بعد تفكير ؛ أما فى حرارة الارتجال فإن وجه الإضحاك فيها لايبدو دائماً . وخطؤها أنها تجمع بين كلمات لا تأتلف إذا كانت مستعملة مجازيا . ولكن من يدخلها فى كلامه يستطيع أن يقول فى الدفاع عن نفسه بأنه لم يسع إلى عمل استعارات ، وإنما أراد أن يستعمل عبارات مصنوعة stylisées فى الحال. والواقع أن كلمة واحدة منها تليق بالغرض الذى وضعت له إذا أخذت على حدة . ولكن تراكمها فى مكان واحد هو الذى يدعو إلى الضحك منها(١) .

كل منا معرض للوقوع فى أخطاء من هذا القبيل إذا لم يراقب نفسه . فنجد الكثير منها عند الخطباء الذين يرتجلون . بل إن الكتاب ذوى المواهب ليسوا بمنجى عن الوقوع فيها . فقد أحصى الألمان الكثير منها فى شعر شيلر . ولكنها لا تعاب حقاً إلا عند ما يكرر منها عدد كبير أو عندما تثير صوراً مغرقة فى إثارة الضحك كما فى الأمثلة السالفة . غير أن المتشددين يعيبون على كل العبارات التى فيها استعارة غير مؤتلفة أو مزادة بين كلمات لا تتزاوج . ومع ذلك إذا سمعنا هذه الأشياء من أفواه عامة الشعب ، لا ينبغى لنا أن نعجل بالاحتكام إلى محكمة العقل ضدها على أنها من سوء الاستعمال . فإن عدداً كبيراً من العبارات الجارية التى تجيزها القواميس ويستعملها خير الكتاب قد نتج من استعمالات مجازية ممسوخة . أليس من الخرق أن يقال : يملأ غرضاً (يعنى « يحقق غرضاً » أو

---

(١) إردمان Erdmann ، رقم ١٥٧ ، ص ١٧٢ .

خربت ثوبها بمعنى « abimer ») أو يحتضن صناعة أو يتمتع بصحة سيئة ؛ فالمتشددون على حق حين يرفضون هذه العبارات . ولكن من الخرق أيضاً أن نتكلم عن مرساة سكة الحديد débarcadère de chemin de fer (حيث لاينزل من القطار فى قارب ، والمرساة débarcadeir أصلها للخشبة التى تصل بين السفينة والشاطيء) أو عن الوصول إلى بلدة كذا arriver (حيث لا يوجد شاطىء لعدم وجود نهر ، وأصل معنى arriver الوصول إلى إلا rive أى الشاطىء) أو عن الاستياك بفرشة شعر أو عن اعتناق مبدأ من المبادىء ولا دخل فيه للعنق . ومع ذلك فهذه كلها من خير عبارات اللغة ، لا نحس فيها شيئاً مما يخالف المنطق ؛ وقد يعترينا الدهش حين نعلم أن بعض المتشددين من أعضاء الأكاديمية كانوا فى القرن السابع عشر يخطئون عبارة « أغلق الباب » مدّعين أنه يجب القول « ادفع الباب » أو « اغلق الغرفة » (١).

كذلك لا نحس خبثاً — اللهم إلا إذا قصدنا إلى ذلك قصدا — فى مسميات مثل « راغيت الست » أو « فسية العفريت » أو« حظيرة الحزب » ؛ لأن أصل الاستعارة قد اختفى من الاستعمال الحالى ؛ إذ صارت أسماء تدل على نوع من الحلوى ، أو على ظاهرة جوية أو على مستقر لجماعة ما وبالتالى على مبادئها . كما فى وسعنا أن نقول « نقرن زيداً بعمرو » دون أن نسيء إليهما ؛ لأن قيمة الكلمة الاشتقاقية قد اختفت .

* * *

الذي يعين قيمة الكلمة فى كل الحالات التى ناقشناها إنما هو السياق ، إذ أن الكلمة توجد فى كل مرة تستعمل فيها فى جو يحدد معناها تحديداً مؤقتاً . والسياق هو الذى يفرض قيمة واحدة بعينها على الكلمة بالرغم من المعانى المتنوعة التى فى وسعها أن تدل عليها ؛ والسياق أيضاً هو الذى يخلص الكلمة من الدلالات الماضية التى تدعها الذاكرة تتراكم عليها ، وهو الذي يخلق لها قيمة «حضورية» .

(١) سانت اڤرمن Saint — Evremond : Comédie des Académiciens ، الفصل الثالث المنظر الثالث .

ولكن الكلمة بكل المعانى الكامنة توجد فى الذهن مستقلة عن جميع الاستعمالات التى تستعمل فيها مستعدة للخروج والتشكل بحسب الظروف التى تدعوها .

تنوع الاستعمالات التى تصلح لها الكلمة لا تخلع عليها قيمة عامة . إذ لا يوجد بين القيم المختلفة التى تصلح لها الكلمة قيمة وسطى . بل كل واحدة منها موجودة بأسرها ، لا تنتظر لتعزز وجودها إلا إشارة واحدة . وإذا كان هناك شىء من التردد ، فإن ذلك التردد لا يرجع إلى القيمة نفسها بل إلى الظروف التى تتدخل فيها . فى ذهنى مثلا كلة « بنت » fille . فمانيها التى أشرنا إليها سابقاً لا يختلط بعضها ببعض ؛ بل تبقى كل منها تحت تصرفى ساعة أحتاج إليها . ومع ذلك فليس عندى فى ذهنى إلا كلة واحدة هى fille « بنت » .

هذه الكلمة نفسها ليست منعزلة ، بل مسجلة فى ذهنى مع كل حالات السياق التى سبق أن أدخلتها فيها ، ومع كل الارتباطات التى تصلح للاشتراك فيها : « بنات وبنين » ، « بنت طيبة » ، « بنت أم » ، « بنات الملجأ » ، الخ . فأرانى أربطها فى آن واحد بعدة عائلات من الكلمات . وهى تثير فى نفسى عدداً من التصورات يكبر أو يصغر تبعاً لقوة مخيلتى ، وكل هذه التصورات تشع منها فى جميع الجهات .

ليس فى الذهن كلة واحدة منعزلة . فالذهن يميل دائماً إلى جمع الكلمات ، إلى اكتشاف عرى جديدة تجمع بينها . والكلمات تتشبث دائماً بعائلة لغوية بواسطة دال المعنى أو دوال النسبة التى تميزها ، أو بواسطة الأصوات اللغوية التى تتركب منها لا أكثر من ذلك . فنحن نشعر بأن الكلمات : إعطاء ، عطية ، عطاء ، مُعْطٍ ، مُعْطىً . . . الخ ، تكون عائلة قائمة بذاتها تتميز بعنصر مشترك ، هو الأصل « ع ط ى » مهما تنوعت معانى المشتقات . كذلك الكلمات bonasse « مصطفاوى » و blondasse « شقراوى » و cocasse « مضحكاوى » و jaunasse « أصفراوى » و déguculasse « مِقْرفاوى » (وهذه الأخيرة عريقة فى العامية) نرانا نربطها بعضها ببعض بواسطة اللاحقة asse (آس) التى تدل على السخرية . ولكن من الكلمات إعطاء ، معطٍ ومُعْطىً الخ تكوّن

مجموعات أخرى : فإعطاء ترتبط بإجلال وإعظام ... الخ و مُعطٍ يرتبط بها مُغنٍ ومُزْرٍ ... الخ و مُعطًى ترتبط بها كلمات مثل مُرضيٍّ و مُلقًى ... الخ . فهناك إذن تداخل بين المجموعات .

اجتماع الكلمات تبعاً لأصواتها يؤدى دوراً هاماً فيما يسمى الاشتقاق الشعبي (أنظر ص ٧٩) فالذهن يميل إلى أن يصل بين الكلمات تبعاً لشكلها الخارجي ، وأحياناً على عكس ما يقتضى المعنى ، بل على عكس ما يقتضى العقل السليم . وقد تسوق مشابهة غامضة بين كلمة وكلمة أخرى أشيع استعمالا أو أكثر شهرة إلى التقريب بينهما ، ومن هنا تنشأ بعض التشويهات الغريبة : فالتسمية اللاتينية culcita puncta ومعناها الحرفي « ملحفة ذات غرز » couverture piquée صارت فى الفرنسية courte pointe «الغرزة القصيرة» بدلا من coulte pointe « الغرزة المشكوكة » مع أن فكرة القصر لا صلة بينها وبين تعريف المادة التي نحن بصددها . والرقص الإنجليزى المسمى countrydance « رقص الريف » مع أنه منقول من فرنسا ، دخل اسمه فى اللغة الفرنسية من جديد بصيغة contredanse «عكس الرقص» وهى عبارة لامعنى لها . ونحن نعرف الصيغ الظريفة التي تأخذها أسماء الأمراض والأدواء الفنية فى أفواه العامة ، فهى كنز لا يفنى من التسلية للمشتغلين بتسجيل الطرائف . وإذا كانت عبارة la liqueur à pioncer « خمرة النوم » التي تقال بدلا من liqueur opiacée « خمرة بالأفيون » وهى عبارة لذيذة موفقة المعنى ، فإنه لا يوجد أى مبرر لإطلاق lait d'ânon « ليدانون » « لبن الحمارة » على الدواء المسمى Laudanum .

وقد ذكرت حالة أطلق فيها اسم chantepleure « غناء البكاء» على نوع ما من الأقماع لاعلاقة له مطلقاً بالبكاء ولابالغناء حتى أصبح اسمه فى تغيراته المتتابعة من خير المثل للاشتقاق الشعبي الذى ليس للمعنى فيه أية أهمية . وأسماء الأعلام (ونعتبر أسماء الأعلام هنا بمعناها الأوسع أنظر مايلى فى آخر هذا الفصل) مسرحاً خصيباً لمثل هذه التشويهات . ومن أمتع هذه التشويهات ذلك الذى جعل من pipe de Kummer «غليوم كومير» « اسم صانعه Kummer » pipe d'écume de mer «غليوم

زبد البحر» (ومن تسميته بالألمانية Meerschaum ، وجاء من التسمية الإيطالية pomi dei Mori (mala aethiopica) التعبير الفرنسي pommes d'amour « تفاح الحب » (ومن ثم في الإنجليزية love-apples و Liebesapfel في الألمانية) كما جاء من التسمية الإنجليزية « Aunt sallay العمة سلي ، اسم للعبة) . التسمية الفرنسية âne salé « الحمار المملح » ، وجاء من الطليانية girasole (اسم نوع من الخضروات) الكلمة الإنجليزية Jerusalem اسما لهذا النوع من الخضروات ، وصحّف اسم جبل الهيميت Hymette في اليونان إلى Il Matto (« المجنون في لغة البندقية في القرون الوسطى ») ومنها جاءت التسمية المتداولة الآن في الإيطالية السويسرية Trello-Vouno « جبل المجنون » ! هذه كلها أمثلة بينة من ترابط الكلمات الذى يحصل فى الذهن . فحدوثه بصورة غير شعورية عادة لا يمنع من أنه بالغ الأثر .

وإذا استقصينا نتائج هذه التغيرات خرجنا من الميدان اللغوى إلى ميدان الفلكلوز : فكم من الأساطير ولدت من أحداث لغوية كتلك التى أشرنا إليها هنا (١) ! فبالقرب من جرينوبل قلعة تسمى سان ڤران Saint-Vrain حرّف اسمها إلى سن ڤنان Sans-Venin « دون سمّ » فنسجت حولها أسطورة منشؤها هذا الاشتقاق الشعبي . فالاسم وهو مطية الأفكار ، يؤدى بتلاعب التشابه والجرس إلى مقاربات تغرر بالعقل . هذه أشياء يرفضها العقل السليم ، ينظر فيها الإنسان فيظنها من خيال الأطفال ولكنها تأخذ سنا الحقيقة . لذلك ذهب البعض إلى أن الأساطير إنما نشأت من مرض فى اللغة ، وقد نجح فى البرهان على بعض الحالات (٢) . ولكن لقصص الأولياء أيضاً نصيبها من مسئولية ذلك فى غالب الأحيان : فكثير من القديسين المعروفين بشفاء المرضى فى ريفنا يدينون ببركاتهم إلى أنواع من الجناس ساعدت عليها صيغ أسمائهم . كذلك يطفح الطب الشعبي

---

(١) مكس ملر ، رقم ١٠٤ ، مجلد ٢ ، ص ٩١ — ٩٢ ، ص ٣١٧ ، نيروب Nyrop ، رقم ١٤٦ ، ص ٢٢٢ .

(٢) بريال ، رقم ٥٤ .

بالوصفات الناشئة عن اللعب بالألفاظ ؛ فترابط الأفكار يخلق أدوية من نوع الأمراض homéo-pathiques ؛ ذلك أن الكلمات لها دائماً قيمة رمزية إن قليلا وإن كثيراً [1] .

أشرنا فيما سبق إلى ما بين اللغة الانفعالية واللغة المنطقية من علاقات ؛ فكلتاهما تختلطان فى الاستعمال الذى يستخدم الكلام . ولكن هذا المزج يكون على أثبت حال فى ميدان المفردات منه فى أى ميدان آخر . فالكلمة لا تحدد فقط بالتعريف التجريدي الذى تحددها به القواميس . إذ يتأرجح حول المعنى المنطق لكل كلمة جو عاطفى يحيط بها وينفذ فيها ويعطيها ألواناً مؤقتة على حسب استعمالاتها . بل حتى عند أقل الناس خيالاً وأبعدهم عن التأثر يختلط بالمعنى التجريدى العام الذى تبين عنه الكلمة ، ألوان خاصة هى التى تكوّن قيمتها التعبيرية .

إذا أردنا تحليل هذه القيمة اكتشفنا فيها خصائص متنوعة وأصولا عديدة . فهي تنشأ أولا من اتفاق يتكون بين معنى الكلمة والأصوات التى تتألف منها . نعم أغلب الظن أنه لايوجد اليوم من يرى رأى الرئيس دىبروسى de Brosses أو رأى كوردى جبلان Court de Gébelin من أن الكلمات تكوّنت فى الأصل من أصوات مساوية للأفكار وأن fleuve « النهر » مثلا ريدن باسمه إلى أن الحرفين ف ل fl اللذين يحتويان حرفاً مائعاً يوقظان الإحساس بشيء «يسيل» إذ لا يوجد أى تطابق مبدئى بين الصوت والمعنى ؛ فالمفردات لم تخرج من مجموعة من أسماء الأصوات . ولا نظن أحداً يضم صوته إلى مقولة رجل الكنيسة الذى يزعم أن الأسماء يجب أن تتفق وطبيعة الأشياء ، كما يقول سان توماس الأكوينى:

« ..nomina debent naturis rerum congruere »

ولكن إذا كان هذا الاتفاق فرضاً لا قيمة له فى تفسير بناء المفردات ، فإن هذا الفرض يحتفظ بقيمته كاملة من حيث أنه يقرر الطريقة التى يجرى عليها

---

(١) عن القيمة الرمزية للكلمات أنظر مير Meyer ، رقم ٣٠ ، مجلد ١٢ ، ص ٢٥٦ .

عقلنا[١] . فمن الحق أن نحكم بوجود علاقة ضرورية بين الحرفين ف ل fl مجتمعين وبين فكرة السيلان إذ أن الكلمات ruisseau « مجرى » و rivière « جدول » و torrent « سَيْل » التى تعبر أيضاً عن فكرة السيلان بقدر ما تعبر عنها كلمة fleuve « نهر » لا تحتوى على مثل هذين الصوتين ، وأن كلمة fleur « زهرة » التى لا تكاد تتكون إلا من هذين الحرفين أيضاً لا توقظ فى الذهن إطلاقاً فكرة السيلان . ولكن من الحق أن كلمة fleuve « نهر » معبرة لأن الأصوات التى تكونها صالحة تمام الصلاحية لإثارة الصورة التى تمثلها .

فالواقع أن هناك بين الأصوات ومركبات الأصوات فروقاً فى القدرة التعبيرية. وهذا هو سر الكلمات التى تعبر بأصواتها عن معناها onomatopées ؛ فالكلمة الألمانية Kladderadatsch « كلادراداتش » تمثل جيداً مجموعة من الآنية بعضها فوق بعض وقد سقطت شــــظايا ؛ والكلمة الفرنسية patapouf «پاتاپوف» تمثل كيساً محشواً بالملابس يسقط على درج السلم ، وكلمة pan « پَنْ » تثير الصوت الجاف الذى يصدر من طلقة مسدس ، و poum « پوم » ذلك الصدى الممتد الذى ينبعث من طلقة مدفع . وكل الموسيقيون يعرفون أن النغمات المختلفة تناسب التعبير عن الأحاسيس المختلفة إن قليلاً وإن كثيراً ؛ فهذا السلم أليق من غيره ببساطة الحقول ، وذلك بالعذوبة الرقراقة اللذيذة ، وذاك بجهد الرجولة الصارم . وفطرة المؤلف تجعله يختار فى كل حالة النغمة اللائقة ، لذلك كان من الحق أن الانتقال بالقطعة من نغمة إلى نغـمة يشوّه طابعها فى بعض الأحيان . ولكن لا يستطيع إنسان أن يقرر أن المؤلف العبقرى ليس فى وسعه أن يعبر عن العاطفة التى يحسها بأية نغمة من النغمات . كذلك فن الشاعر يستطيع أن يحمل أصوات الكلمات كل تعبيرية تروقه : « الكلمة الخالقة للفكرة تصير بمناصرها الصوتية خالقة للبيت من الشعر وتخضع الكلمات الثانوية التى

---

(١) جرامون Grammont : Onomatopées et mots expressifs ، فى رقم ١٧ ، مجلد ٤٤ ، ص ٢٧ .

تصححها لتبعية نغمية » (بك دى فوكيير Becq de Fouquières) . فالشاعر فى وسعه أن يحدث تأثيرات غير منتظرة بكلمات يظنها البعيد عن هذا الفن غير جديرة بمثل هذا الاستعمال، وذلك بواسطة ألوان من الإعداد والمقابلة محكمة التنسيق.

كل كلمة أيا كانت توقظ دائماً فى الذهن صورة ما بهيجة أو حزينة ، رضية أو كريهة ، كبيرة أو صغيرة ، معجبة أو مضحكة ، تفعل ذلك مستقلة عن المعنى الذى تعبر عنه ، وقبل أن يعرف هذا المعنى فى غالب الأحيان . اذكر اسم إنسان ما أمام شخص لم يره قط ، فإنه يكوّن عنه فكرة فى الحال ، فكرة زائفة على وجه العموم . فإذا ما قدمت له هذا المجهول ، أجابك على الفور « أهو هذا ! ما كنت أظنه هكذا » مثل هذا الشىء نفسه يحصل بالنسبة لكلمات اللغة . فإدراكنا للأشياء خاضع لانطباعات فجائية منبعثة من الاسم الذى يدل عليها .

إننا عند ما نقيم ائتلافاً بين الاسم والشىء ، نسير على عادة نفسية قديمة قدم العالم نفسه . فقد ظل الاسم زمناً طويلاً يعتبر جزءاً لا يتجزأ من الأشياء ، وليس فقط علامة قد توضع عليها : كان يشترك معها فى خصائصها . فلم تكن العلامة تُميَّز عن الشىء . فعبارة nomen omen تذكرنا بهذا الرأى العتيق ، ونجد منه آثاراً فى تحريم المفردات وفى التشويهات الناجمة من هذا التحريم . فى ذلك الحين كان للاسم أهمية بالغة . فنرى فى سفر التكوين تلك الأهمية البالغة التى تعلق على أسماء إبراهيم وسارة وإسحق . وفى بلاد الإغريق كان أجاكس Ajax المنكود الحظ يحمل فى اسمه رمز مقدوره (سوفوكل ، أجاكس Ajax ، بيت ٤٣٠) .

واسم أوليس Ulysse يحمل فى طياته بعض سمات أخلاق جده (انظر الأودسة ، كتاب ١٩ ، بيت ٤٠٦) . فالكلمات إذن لم تكن مجرد علامات لا خطر لها ؛ بل كانت لها قيمة سحرية ؛ هى التى تفسر قوة الرُّقَى واللعنات . والكلمة المكتوبة كانت بطبيعة الحال أبلغ أثراً من الكلمة الملفوظة ؛ لذلك سنعود إلى الكلام عن قوة الكلمات السحرية فى الفصل الخاص بالكتابة . ولكن الكلمة المجردة كانت كفيلة بإحداث آثار

جسام ولا سيما إذا كانت مسلوكة فى بيت من الشعر ، حيث تثبت الكلمات وتنظم بواسطة الوزن ، أليس ڤرجيل Virgile هو الذى يقول : « إنه يمكن إنزال القمر من السماء بجملة منظومة » Carmina uel cœlo possunt deducere lunam . (٨ ، بيت ٦٩) .

وكانت تنسب إلى الشعراء الأقدمين قوة مخوفة تتلخص فى الاسم la satire « الهجاء » . هذه الكلمة لا تثير فى أذهاننا ، نحن المتحضرين ، غير فكرة تمرين أدبى عدا عليه الزمن بعض الشىء ، ولكنه على كل حال لا يملك خيراً لإنسان . غير أن الهجاء فى وقت ما كان يتقمصه ساحر ، وكان الهجاء لعنة فادحة تصيب من يوجه إليهم . ونحن نعرف ما كان لأهاجى أرشيلوك Archiloque من نتائج . فهذا العاشق المطرود قد استطاع بقصائده الهجائية أن يلقى اليأس فى قلب والد معشوقته وأن يقوده إلى الانتحار ، وأقسى من ذلك أنه استطاع أن يفعل مثل هذا مع الفتاة نفسها . ورواة هذه القصة يحكونها لنا على أنها أسطورة من الأساطير ، تشيد بموهبة أرشيلوك وإن لم تشد بخلقه . ولكن ليس من العدل فى شىء أن نأخذها على أنها أسطورة ، بل يجب أن نأخذها بنصها وحرفها . فالحق أن أرشيلوك قضى بالموت على ليكمبيس Lycambès ونيوبوليه Néobulé ؛ إذ قذفهما بلعنة سحرية لم يستطيعا منها خلاصاً . وإن الشاعر الهجاء لم ينفصل عن الساحر الآثم إلا فى العصور المتأخرة بفضل تقدم المدنية . أما فى الأصل فكانا شيئاً واحداً ، وقد ظل الناس فى كثير من الأقطار حيناً طويلا لا يميزون بينهما . ففى جالية اسكتلندة يطلق على القضاء حتى يومنا هذا كلمة ortha المنقولة عن الكلمة اللاتينية orationem منذ عهد قديم ، ويقال عن الساحرة tha facal aice « لها كلمة » ، وذلك إشارة إلى قوتها(١) .

فالواقع أن معرفة الإنسان للأشياء بأسمائها إمساك لها فى قبضته ؛ وإذن فعلم المفردات علامة القوة . لذلك كان سحرة الأثارداڤيدا المتطببون يقولون فى رقاهم : « أيتها الحمى ! لن تفلتى منى ؛ فإنى أعرفك باسمك ! » والأمر الذى يوجه إلى

(١) ج . هندرسن G. Henderson : بقايا من الاعتقاد عند الكلتيين : (١٩١١) ، ص ١١ ، ١٨ ، ٢٩١ .

الداء ليفارق المريض أبلغ دلالة من ذلك . فى معرفة اسم المرض شفاء من نصفه ، ولاينبغى لنا أن نسخر من هذه المعتقدات البدائية ؛ فإنها لا تزال سارية حتى يومنا هذا ، إذ لازلنا نعتقد فى أهمية الألفاظ التى تمبر عن تشخيص الأمراض . « عندى ألم شديد فى الرأس يادكتور . فيجيب الطبيب : عندك Céphalalgie «صداع» أو إنى سيىء الهضم ياسيدى الطبيب ، فيجيب هذا الأخير : عندك dyspepsie « عسر هضم » . مثل هذه المحاورة الجدرة بإحدى روايات موليير تتكرر كل يوم فى عيادات الأطباء . قد يقال بأن الاسم الفنى يحدّد المرض بأكثر مما يفعله الاسم العادى وأنه يدل على مجموعة أعراض معينة وأن « الصداع » ليس مرادفاً لوجع الرأس وعسر الهضم ليس مرادفاً لسوء فى الهضم .ولكن الواقع أن الطبيب لايفعل أكثر من أن يضع كلة معمية مكان كلة عادية مبتذلة يفهمها هؤلاء المرضى جميعاً ؛ والمرضى يشعرون بالارتياح حينما يعلمون بأن رجل الطب قد عرف الداء الخفى الذى يشكون منه ، عرفه باسمه .

إنها علاقات قياسية ، تلك العلاقات التى تتقابل وتتقاطع حول الكلمات ، وهى التى تقوم بين الأصوات والأفكار والأشياء ؛ هذه هى النتائج التى يتركها فى المفردات عمل العقل . وإذن فالكلمة التى تطفو فى الشعور لا تكون كلة منعزلة . فإنها متى مثلت أمامنا ، ولو فى صفة واحدة منعزلة من صفاتها مع بقاء صفاتها الأخرى فى الظلام ، جرت وراءها جحفلا من المعانى والعواطف التى ترتبط بها بعرى دقيقة على استعداد دائم للكشف عن نفسها . فالكلمات التى نختزنها فى ذهننا تشارك فى حياتنا العقلية والعاطفية كلها .

***

لذلك ربما كان من الممتع معرفة مقدارها[1].

بعض اللغويين طرحوا هذا السؤال ، وحاولوا أن يجيبوا عنه بالأرقام . فزعم مكس ملر مثلا استناداً على شهادة قسيس فى إحدى القرى أن مجموع الكلمات التى يستعملها فلاح إنجليزى أمى لا يتجاوز ثلاثمائة كلة . وآخرون لم يعدموا أن يحتجوا

(١) انظر مكس ملر : رقم ١٠٣ ؛ ص ٢٨٧ وما يليها .

بمفردات شكسبير التى تبلغ ١٥٠٠٠ كلمة عند بعضهم و ٢٤٠٠٠ عند البعض الأخر . ويقال إن الكلمات التى استعملها ملتن Milton تتراوح بين ٧٠٠٠ إلى ٨٠٠٠ كلمة . وأن قصائد هوميروس تحتوى على حوالى ٩٠٠٠ كلمة والعهد القديم على ٥٦٤٢ كلمة والعهد الجديد ٤٨٠٠ كلمة . وهذه أرقام لا تدل على شيء ذى خطر . إذ يجب أولاً وقبل كل شيء أن نقصى المؤلفات الأدبية من حسابنا . طبعاً نستطيع أن نعرف على وجه الدقة عدد الكلمات التى تؤلف الإلياذة والأودسة أو مسرحيات شكسبير أوراسين . ولكن من العبث أن نزعم أننا بذلك نحدد مفردات هومير أو شكسبير أوراسين . فمن الكتاب البرزين من يضيقون دائرة مفرداتهم عن قصد : لذلك كان من غير الحق أن نحكم بمآسى راسين على سعة لغتنا كما يكون من غير الحق أن نحصى عدد سكان فرنسا بعدد النخبة المختارة من رجالها . ولكن لغة الكاتب على وجه العموم تزداد ازدياداً صناعياً بعدد من الكلمات يقتنصها مصادفة من بعض مقابلاته أو من البحث فى الكتب ، وذلك إذ لم يخترعها اختراعاً . فهل لنا أن نعد من مفردات فكتور هوجو كلمة Jérimadeth الشهيرة التى ليست إلا « مسخرة » ، وكثيراً غيرها من أسماء الأعلام التى وإن كانت واقعية فليس لها فى دماغ الشاعر، إلا وجود عرضي زائل . وإذا غضضنا النظر عن أسماء الأعلام ، فكم من كلمات مشتركة استخرجها الشاعر من القاموس ولم تكن بالنسبة إليه إلا نبعاً عرضياً مؤقتاً . فينبغى ألا نخلط بين مفردات الكاتب وبين قاموس الكلمات المستعملة فى مؤلفاته . فمثل هذا القاموس يعد خليطاً دائماً : فيه كلمات السادة تجاورها كلمات السوقة والمصطلحات الفنية تجاور ألفاظ الحياة اليومية . فى كل قاموس أنواع عديدة من المفردات يختلط بعضها ببعض إذ تضاف إلى مفردات الكاتب الخاصة به والتى يستعملها فى كلامه المعتاد ، أنواع أخرى من المفردات منها الحوشي والعلمى والعامى وهى التى تمد أسلوبه بالثراء وتجعل له قيمته فى غالب الأحيان .

لا يعرف إنسان مقدار مفرداته ، ولا توجد أية طريقة لتقديرها . إذ لا يكفى أن نستعرض كلمات القاموس كلمة كلمة لنرى الفكرة التى تثيرها فى ذهننا ،

إذا كانت تثير فكرة ما . إذ أننا فى مثل هذه الحال نضع أنفسنا فى ظروف مخالفة للواقع كل المخالفة . فالكلمات لا تصفّ فى ذهننا كما تصف فى أعمدة الكتاب . ولا يتأتى لنا أن نجيل نظرنا فى تتابعها وأن نستعرضها كما يستعرض القائد الجند فى صفوفهم . ولا نعرف بالضبط من أي مستقر يخرجها نشاطنا العقلى ليسلكها فى الجمل وليصبها كاملة الإعداد فى أعضائه الصوتية . فالكلمة لا توجد منعزلة فى الذهن إطلاقا بل تكوّن جزءاً من مجموعة ذات امتداد ما نستعير منها قيمتها . ولكن تكوّن المجاميع يرجع فى نفس الوقت إلى علل نحوية أو سيكولوجية أو تاريخية أو اجتماعية مما يجعل من العبث كل محاولة لإحصاء المفردات .

إحصاء المفردات ولو من وجهة نحوية خالصة ، يعد أمراً متعذراً . فقد بينا مقدار العسر الذى يعترضنا فى تعريف الكلمة ، ومقدار الصعوبة التى نلاقيها غالب الأحيان فى تحليل عناصرها . بالطبع ينبغى لنا عند تعداد المفردات أن نقصى دوال النسبة ؛ ولكن هناك كلمات كثيرة ليست إلا دوال نسبة ، كما أن من دوال النسبة ما يعتبر كلمات . فالنفى مثلا أكثر من مجرد لاحقة تشير إلى جنس أو إلى وظيفة نحوية ؛ فإذا اعتبرناه من دوال النسبة بخسناه حقه من غير وجه . ومع ذلك فالنفى لا يعبر عنه فى كثير من اللغات بكلمة منعزلة مستقلة : فعندما تقول الإرلندية فى نفى domelim « آكل » nitoimelim « لا آكل » وتقول اللتوانية فى نفى neszù « أحمل » nèneszu « لا أحمل » لا نرى أن ندخل فى اعتبارنا فى كلتا الحالتين إلا كلمة واحدة ، ولكنها كلمة تحتوى على دال نسبة منفى .

عدد الكلمات لا يمكن أن يحدّ نحوياً بفضل فصائل اللواحق . فقد استطعنا فى الفرنسية ، حيث اللاحقة eur — بقيت حية ، أن نأخذ من promener « التنزه » promeneur « متنزّه » ومن marcher « المشى » marcheur « مشّاء » ومن trotter « العدو » trotteur « عدّاء » . ومن ثمّ لا نهتم بأن تكون كلمة galopeur « عدّاء » موجودة أو غير موجودة ؛ لأننا إذا

احتجنا إلى استعمالها فهمنا محدثنا على الفور ، إذ أن العناصر التى تكونها ليست غريبة عليه . فحتى لو لم توجد الكلمة فى القاموس ، وجب عدها بين كلمات اللغة الفرنسية ، إذ أنها توجد بالقوة فى ذهن الفرنسيين جميعاً . إذن فهناك عدد من الكلمات التى لا أشعر بها حالياً والتى لم أستعملها إطلاقاً ، وربما لن أستعملها أبداً ، ولكنها مع ذلك تكون جزءاً من مفرداتى إذ أنها تحضر طبيعياً فى ذهنى إذا احتجت إليها ، وأفهمها على الفور إذا استعملت أمامى . ومع ذلك فهذا المثال الفرنسى أقل حجية مما فى لغات أخرى كاللتوانية ، حيث تؤخذ الأسماء المجردة وأسماء الفاعلين بالمراد من إحدى الصيغ الفعلية كما يؤخذ منها المستقبل أو صيغة التبعية . من هذه الوجهة ، التى هى وجهة نظر النحو ، تعتبر المفردات غير محدودة .

وهى ليست أقل بعداً عن التحديد من وجهة نظر الاستعمال المنوى البحت للكلمات . فقد رأينا فيما سبق أن الكلمة لها على وجه العموم من المعانى بقدر مالها من الاستعمالات . ولكن كل معنى منها مستقل عن المعانى الأخرى ، إذ أنه لا يكون فى ذهننا عند استعمال الكلمة إلا معنى واحد . يمكننا إذن أن نقول بأنه يوجد فى المفردات كلمات مختلفة بقدر ما يوجد من استعمالات لكل كلمة من كلماتها. ولما كان عدد الاستعمالات التى تصلح لها كل كلمة لا يحد ، إذ أن الاستعمال العام يخلق استعمالات جديدة كل يوم ، وجب أن نقرر أن مفردات اللغة تزداد دون حد ما دامت اللغة حية . فكل كلمة فيها ينبغى لها أن تعد مرات عديدة ، مرات يستحيل تحديدها :

إذا اعتبرنا المسألة من وجهة نظر أخرى ، وجدنا كثيراً من الكلمات لا يصح أن تعد بين المفردات .

هناك نظام تصاعدى للكلمات يسمح بتمييز الفعل من الصفة أو من الاسم ، والاسم المشترك من اسم العلم (أنظر الصفحة الأخيرة من الفصل الثالث) . هذا النظام التصاعدى له ما يبرره سيكولوجياً ، ولكنه يخلق فروقاً محسوسة بين الكلمات . فما الذى يصوره لنا اسم من أسماء الأعلام ؟ لا شىء فى أغلب الأحيان . فكم من

شخص بين أكثر الناس ثقافة عنده فكرة صحيحة محدودة عمّن يسمى بركليس أو من يسمى أغسطس ، وعن المدعوّ لويس الرابع عشر أو عن فريدرك الثانى . نحن نسمى علماء أولئك الذين يختزنون فى دماغهم سلاسل من أسماء الأعلام ويستطيعون عند الطلب توزيعها بالتجزئة إزاء إعجاب الجهلة والبلهاء . ولكن كم من هذه الأسماء نفسها توقظ فى أذهانهم أفكاراً واضحة ؟ . ليست تلك الأسماء فى غالب الأمر إلا بمثابة حمل ثقيل يحشون به أدمغتهم . فليس من الحق إذن أن نعدّ فى حساب المفردات مالا يصح أن يعتبر إلا تمريناً للذاكرة .

وكثير مما يقال بأنه من الأسماء المشتركة ليس فى واقع الأمر إلا من أسماء الأعلام[1] . فإنى أعرف أن الكلمات الآتية : étourneau « زرزور » و linotte « عصفور التيل » و émerillon « يؤيؤ » و autour « صقر » كلها أسماء طيور لأنى قابلت هذه الكلمة أو تلك مصادفة فى أوصاف بعض المناظر الخلوية أو عند تصفحى لكتاب من كتب التاريخ الطبيعى ، ولكنى لا أستطيع أن أكوّن لنفسى أية فكرة عن هذه الطيور : فأسماؤها لا توقظ فى ذهنى أية صورة محددة ، إنها طيور؛ وذلك كل ما أستطيع أن أقوله عنها ، وإنه لكثير . فهناك أسماء أخرى كثيرة أحار فيما إذا كانت تدل على حيوانات ثديية أو على زواحف أو أسماك ؛ فيما إذا كانت نباتاً أو معدناً ؛ حتى أصل إلى بعض الكلمات المنسية فى أركان ذاكرتى فأعثر عليها مصادفة ولا أعرف عنها شيئاً مطلقاً ، لا أعرف عنها إلا أنها كلمات فرنسية .

وهكذا إذا تابعنا امتحان المفردات ، وتحليل الكلمات التى تحتوى عليها كلمة كلمة وتصفيتها ، أدركنا أن متاع الرجل المتعلم المثقف منها يحتوى على عدد كبير من الكلمات التى يزدحم بها رأسه دون جدوى . ولكن الكلمات

---

(١) فندريس: Sur qulques difficultés de l' étymologie des noms porpres، فى Mélanges littéraires publiés par la Faculté des Lettres de Clermont — Ferrand عام ١٩١٠ ، ص ٣٢٩ — ٣٣٧ .

تتدرج بصورة غير محسوسة من تلك التى نشعر بهـا شعوراً تاما ونستعملها فى حياتنا اليومية إلى تلك التى دخلت ذاكرتنا عرضاً ولا تؤدى لنا أية خدمة. فإذا أردنا عند إحصائنا للكلمات أن نضحى منها بنصيب، فإلى أى حد يجب أن نقف فى تعيين هذا النصيب؟

أيجب أيضاً أن نضيف إلى كل ذلك ما يثقل مخنا من أحمال من جراء معرفة لغات أجنبية؟ إنّ حاذق اللغات الأجنبية هو الذى يستطيع أن يعبر عن فكرة واحدة بعينها فى عدة لغات. وترجمان فندق من الفنادق المختلطة يعرف أسماء الأشياء المتداولة بثلاثة أوجه مختلفة، أو أربعة أو خمسة. فهـذا عبء للذاكرة تفرضه عليه مهنته: أفنقول إن مفرداته تبلغ ثلاثة أو أربعة أو خمسة أمثال خادم الفندق الذى لايتعامل إلا مع أبناء لغة واحدة؟ نعم إذا أدخلنا فى حسابنا هـذه الحقيقة الواضحة، وهى زيادة الحمل الذى تضطلع به ذاكرته. ولـكن الواقـع أن مفرداته فى هذه الحال ليست أكثر ثراء، بل إنه يملك أنواعاً مختلفة من المفردات تتلاصق بعضها ببعض ويتراصّ بعضها فوق بعض دون أن تندمج عادة، كما أن استعمالها رهن الظروف.

هناك حاجات مشتركة بين جميـع الناس، ولهذه الحاجات مفردات تـكاد تتساوى فى عدد الـكلمات فى كل مكان. يقال بأن الفلاح الأمىّ لا يحتاج فى حياته إلى أكثر من ثلثمائة كلمة؛ فلنسلم بهذا الرقم، وإن كان لا يجادل فى أنه دون الواقع بكثير. وعند ئذ يتحتم علينا أن نقول بأن السـيد لا يكاد يستخدم أكثر من هذا القدر فى حديثه العادى. ولـكنها ليست نفس الـكلمات التى يستعملها الرجل الشعبى؛ وهذا هو كل الفرق. غير أن السيد قد يعرف لغـة الشعب أيضاً وقد تتاح له فرصة استعمالها. وبذلك يكون له نوعان من المفردات، نوع للصالون ونوع للمزرعة[1]. وإذا كان جندياً عرف لغـة الثكنات، وإذا

(١) « رجل البلاط الذى يتكلم لغة السوقة له عندى، فضل العارف باللغات الأجنبية (دكلو Duclos) : Considérations sur les moeurs، الطبعة الخامسـة، باريس (١٧٦٧، ص ٢١٢).

كان يشارك فى علم من العلوم ، عرف مفرداته الفنيـة . وإذا فرضنا أنه يعرف لغة أجنبية أو لغتين ، أضيفت مفرداتها إلى ما فى ذهنه من قبـل : أنواع من المفردات مختلفة ؛ إذ أنها ناتجة عن حاجات مختلفة وتستخدم للتفاهم مع أشخاص مختلفين .

أوضح ما يلاحظه الإنسان عند اختباره للمفردات عن كثب ، هو التعقيـد البالغ للمتاع الذى يحمله الشخص فى دماغه من الـكلمات . فليست العناصر التى تـكونها فى مستوى واحد دائماً ، لا نحوياً ولا سيكولوجياً ، ولا من ناحيـة الاستعمال الذى تستعمل فيه ، ولهذه النقطة الأخيرة أهمية خاصة . ذلك التعقيـد هو الذى يجعل للمفردات أهميتها . وسنتكلم عنه عندما ندرس بنيـة اللغات . أما الآن فسنراه يفسر لنا التغيرات التي تتعرض لها المفردات .

الفصل الثانى

كيف تغير الكلمات معانيها[1] ؟

يوجد فى تطور اللغة فرق بين الصوتيات والصرف والمفردات .

فالنظام الصوتى يستقرّ منذ الطفولة ويستمر طول الحياة ؛ فالإنسان يحتفظ حتى آخر حياته بمجموعة الحركات التى تعودت عليها أعضاؤه الصوتية منذ طفولته اللهم إلا أن يحدث له عارض ناتج من التعليم ، وذلك فى حالة أن يتلقن نطقاً أجنبياً يحل محلّ النطق القوى . النظام الصرفى ثابت أيضاً . نعم إن استقراره يتطلب وقتاً أطول ؛ ولكنه بعد أن يستقر لايعتريه تغير يذكر . ذلك بأن الصرف لايتغير فى أثناء جيل واحد ؛ بل هو كالصوتيات إنما يتغير فى الانتقال من جيل إلى جيل . فالنظام الصوتى والنظام النحوى إذا ما اكتُسبا مرة بقيا طول العمر ، ويدينان باستقرارهما إلى استقرار ذهنية المتكلم .

أما المفردات فعلى العكس من ذلك لاتستقر على حال ، لأنها تتبع الظروف . فكل متكلم يكوّن مفرداته من أول حياته إلى آخرها بمداومته على الاستعارة ممن يحيطون به . فالإنسان يزيد من مفرداته ولكنه ينقص منها أيضاً ويغير الكلمات فى حركة دائمة من الدخول والخروج . ولكن الكلمات الجديدة لا تطرد القديمة دائماً ؛ فالذهن يروّض نفسه على وجود المترادفات والمتماثلات

---

(١) انظر على وجه العموم : بريال Bréal ، رقم ٥٥ ؛ ونيروب ، رقم ١٠٥ ، مجلد ٤ ورقم ١٨٦ ؛ ويابرج Jaberg ، رقم ٣٨ مجلد ٢٥ ، ص ٥٦١ وما يليها (وذلك عن مراجع المسألة وتاريخها) . وانظر خاصة ا . لتريه E. Littré : Comment les mots changent de sens (مع مقدمة وتعليقات لميشيل بريال ، باريس ١٨٨٨) ؛ ا . مييه Comment les mots changent de sens. رقم ٢ ، ١٩٠٥ — ١٩٠٦ ، ص ١ — ٣٨ ؛ وپاول Paul ، رقم ١٨٨ ، فصل ٤ ؛ وپرسون Persson ، رقم ١٩٠ ، مجلد ٢ ، ص ٩٦٨ وما يليها .

ويوزعها على وجه العموم على استعمالات مختلفة . فالـكلمتان الفرنسيتان chaire « كرسى » (ولـكنها تقال لـكرسى الأستاذية أو كرسى الخطيب ... الخ) و chaise « كرسى » ؛ أو sieur « سيد » [للاستعمال العادى] و seigneur « سيد » [تطلق على النبلاء أو على من لهم أتباع ، أو من يعطى لهم لقب السيادة من جهة رسمية] ليس لهما نفس القيمة . ذلك بأن الحياة تشجع على تغير المفردات لأنها تضاعف الأسباب التى تؤثر فى الـكلمات . فالعلاقات الاجتماعية والصناعات والعدد المتنوعة تعمـل على تغير المفردات وتقضى على الـكلمات القديمة أو تحور معناها وتتطلب خلق كلمات جديدة . ونشاط الذهن يستدعى دائماً للعمل فى المفردات . وبالاختصار فإن الأسباب التى تؤدى إلى تغير الظواهر ليست فى أية مادة أكثر تعقيداً ولا عدداً ولا تنوعاً منها هنا .

لانكاد نفكر فى تغير المفردات حتى يتجه ذهننا فى التو إلى حياة الـكلمات « la vie des mots » وإلى الـكتاب الصغير الذى كتبه أرسين درمستتير Arsène Darmsteter بهذا العنوان(١) . ولـكن العنوان ليس أحسن ما فى هذا الـكتاب . فعبارة حياة الـكلمات نفسها عبارة موقعة فى اللبس وكثيراً ما أدت إلى تفسيرات لو سمعها دارمستتير لما فاته أن يحتج عليها . إذ لا يعقل أن نعتبر الـكلمة اعتبار الـكائن الحى . فالشبه بينهما ظاهرى فقط . لأن الـكلمات لا تولد وتموت على الصورة التى بها يولد الإنسان ويموت . فقد نستطيع استثناء أن نعين السنة التى فيها دخلت فى الاستعمال كلمة لم تـكن معروفة حتى هذا العهد ؛ مثلا كلمة chandail يرجع ظهورها إلى عام ١٨٩٤(٢) ؛ ويعزى خلق كلمة pudeur «حياء» إلى الشاعر ديبورت Desportes(٣) ، وكلمة bienfaisance «إحسان» إلى الأب

---

(١) رقم ٦٢ .

(٢) كليدا Clédat، رقم ٥٩ ، الطبعة الرابعة ص ١١٧ .

(٣) ڤوجلا Vaugelas : Remarques sur la langue française ، ملاحظة رقم ٥٢٧ ، طبعة سنة ١٧٣٨ ، مجلد ٣ ، ص ٣٤٨ . ويلاحظ أن كلمة pudeur لما استعمله منتنى Montaigne (Essais ، ١٥/٢ و ٥/٣) .

دى سان بيير de Saint - Pierre[(١)] . وكلمة obscénité وهى من خلق المتحذلقات ، كانت تبدو لمعاصرى موليير Molière كأنها خلق جديد »[(٢)].

وأحدث من كل هذا rescapé « ناج » التى دخلت الفرنسية على أثر نكبة الكوريير Courrières (فى سنة ١٩٠٦) وكلمة indésirable « غير مرغوب فيه » التى دخلت على أثر مغامرة غرامية منع صاحبها من دخول الولايات المتحدة . ولكن الأمر فى الحالة الأولى يتعلق بانتشار كلمة فى الفرنسية المشتركة وكانت مستعملة فقط فى مقاطعة « پا — دى — كاليه » Pas - de - calais ؛ وفى الثانية باستعارة كلمة من اللغة الإنجليزية . فعندنا « إدخال » لكلمتين فى الفرنسية ، ولكن فى ظروف لا تشبه الميلاد فى شىء .

استبدلت الفرنسية كلمة tête « رأس » مكان الكلمة القديمة chef المأخوذة من caput اللاتينية ، وكلمة jument « فرس » مكان كلمة ive المشتقة من equa اللاتينية . فلنفترض ، وإن كان افتراضاً بعيد الاحتمال ، أن كلمة chef عادت إلى الاستعمال بمعنى tête « رأس » ، وأن ive احتلت مكان منافستها الموفقة jument « فرس » ؛ أيمكننا فى هذه الحال أن نتكلم عن عودة كلمة مريضة هى (chef) إلى الحياة ، وعن بعث كلمة بعد موتها وهى كلمة (ive) ؟ ذلك مالا نستطيعه بأية حال ، بل كل ما هناك هو إدخال كلمتين جديدتين فى المفردات ولا يمكن أن يقال بوجود صلة بين كلمة ive التى كانت فى العصور الوسطى وكلمة ive الجديدة التى ابتكرت فى أيامنا هذه بواسطة الهوى أو الحاجة .

وقد تنتقل كلمة من لغتنا إلى الخارج ، وتصير مفقودة بالنسبة لنا ، ثم تعود إلينا بعد قرون . مثال ذلك كلمة flirt « مغازلة » وكلمة budget « ميزانية » اللتان تعتبران عندنا اليوم مستعارتين من الإنجليزية ؛ ولكنا نعلم أن فرنسا موطنهما الأصلى ، وأنهما عبرا البوغاز إلى انجلترا منذ زمن قديم . ومع ذلك فمن غير الحق أن ننظر بعين الجد إلى ذلك المجاز الذى يشبه الكلمات بالمسافرين الذين يعبرون الحدود فى اتجاه ما ثم يعودون إلى عبرها من جديد فى اتجاه مضاد .

---

(١) ڤولتير Voltaire ; Septième discours sur l' homme .
(٢) نقد مدرسة الزوجات .

ذلك بأن الكلمة التي وفدت علينا من انجلترا ليست هي الكلمة الفرنسية القديمة fleurette « زُهيرة » وإنما جاءتنا كلمة إنجليزية flirt « مغازلة » أدخلناها في لغتنا الحديثة . وليست كلمة bogète « كيس صغير » القديمة هي التي استرجمناها في صيغة budget « ميزانية » وإنما جاءتنا كلمة مخالفة ، كلمة أجنبية ، كلمة تدل ، فضلا عن ذلك ، على شيء آخر غير ما تدل عليه الأولى .

ومع ذلك فعلم الاشتقاق الذي يقص أثر الكلمات في خلال العصور والأقطار ذو فائدة عظمى . نعم من المتفق عليه أن الكلمات لا تحيا حياة مستقلة ، ولا وجود لها إلا في ذهن بني الإنسان . ولكن هذا النشاط الذهني الذي لا يكف عن العمل ينعكس في المفردات . فلنعب الغلطة التي تؤدي إلى أخذ الصورة المنعكسة في المرآة على أنها شخص حي ، لأن الصورة لا حياة لها . ولكن هذا لا يطعن في أن المرآة تقدم لنا بأمانة تامة سلسلة الحركات التي نعملها أمامها . ومن المسموح به أن نحكم على هذه الصورة أو أن نفسرها على نحو ما نحكم على الشخص الذي يعكسها تماماً . وهذا التعليل الساذج يكفي لتبرير قيمة النتائج التي يمكن أن ننتظرها من الاشتقاق .

ومع ذلك فهناك شرط لابد منه . ذلك أن الاشتقاق لا يعتبر عمله منتهيا عندما ينجح بقوة الصبر في أن يقرر تاريخ بضع كلمات قد أخذت على انفراد . اشتقاق الألفاظ منفردة لا فائدة منه في حد ذاته ، فالحالة الخاصة ، مهما ثبتت علمياً ليست إلا ملهاة يتسلى بها إذا لم يُستخرج منها مبدأ عام يستطاع تطبيقه على حالات أخرى . ونحن نعلم أنه يوجد من بين الاشتقاقات حالات كثيرة لا تؤدي إلى نتائج عامة . فلا يهمنا كثيراً أن تكون كلمة الـ échalote « نوع من البصل » مأخوذة من اسم مدينة عسقلان Ascalon ، أو أن hussard « جندي من الفرسان » مأخوذة من اسم العدد « عشرين » بالمجرية ، أو أن ليون Lyon معناها مدينة الإله لوج « Lug » : فذلك يمكن أن يفيد منه من يدرس زراعة الخضار أو المؤسسات الحربية أو الأساطير الكلتية ؛ ولكنه لا يفيد العالم اللغوي في شيء . فالعالم اللغوي

لا يهتم بالاشتقاق إلا ليجمع أكبر عدد ممكن من العمليات المنوية المتشابهة بقصد أن يستخرج منها القوانين العامة التى بمقتضاها يتطور معنى الكلمات .

هذه القوانين لا تكون إطلاقا فى الكلمات نفسها . وغلطة درمستير أنه أوهم بوجود نوع من المنطق الداخلى الذى يحكم التغيرات المعنوية للكلمات . فيظهر أن نظر المؤلف لم يمتد إلى أبعد من تلك التجريدات السكولاستية التى تنحصر فى الاستعمالات المجازية أو فى تسمية الأشياء الجديدة بأسماء قديمة : ولم يصل إلى الحقائق الواقعية المشخصة التى تمثلها الكلمات . ،

* * *

الكلمات على ما هى مرتبة فى الذهن ليست منعزلة . وميل الذهن إلى تجميعها إلى عوارض ، كعوارض الاشتقاق الشعبى التى تصب الكلمات فى صيغتها (انظر ص ٢٣٢) . وأثر التجميع على معنى الكلمات أقوى منه على صيغتها .

عرى الأسرة المعنوية تمسك كل كلمة فى معناها التقليدى ؛ أو إذا حدث لكلمة من كلمات الأسرة الرئيسية تحول فى معناها ، جذبت معها الكلمات الأخرى إلى المعنى الجديد . فلما تخصصت كلمة habit ، ومعناها « حالة ، هيئة » فى معنى « اللباس » ، أصاب الفعل habiller « الوضع فى هيئة ما » نفس التخصص ؛ وهاتان الكلمتان جذبتا إليهما مشتقاتهما ومركباتهما habilleur « من يلبس » و habillement « الإلباس » و déshabiller « انتزاع الملابس » الخ ، والكلمتان pondre أو ponte تحولت كلتاهما فى وقت واحد من فكرة « الوضع » عامة إلى فكرة « وضع البيض » فى الكلام عن طائر أنثى . فالإحساس بالأسرة اللغوية أمسك هذه الكلمات مجتمعة .

أما إذا تراخت عرى الأسرة أو انفصمت ، لم يبق شىء لمنع المعنى من أن يضل الطريق : فالكلمة اللاتينية captiuus احتفظت بمعنى « أسير » خلال تاريخ اللغة اللاتينية بأسره ، لأنه كان يوجد إلى جانبها الفعل capio « آخذ » . وفى الفرنسية لم يبق الفعل capio بينما بقيت كلمة captiuus المشتقة منه ، ولكن فى حالة العزلة تلك ؛ فلما لم تبق لها سنادة من الأصل الذى اشتقت منه وأصبحت

غير مرتبطة بعائلة صرفية محـدودة ، تطورت تطوراً سريعاً فأصبحت chétif « بائس ، ضعيف » . هذا التطور فى المعنى الذى ساعد عليه انحلال المجموعة التى كانت تنتسب إليها الـكلمة أصـلا ، يرجع بعض الشىء إلى وجود كلمة petit فـكلمة « صغير » (والتي أدّت إلى خلق مؤنث منها بصيغة chetite فى بعض اللهجات) . فكلمة chétif ، وقد انتزعت من منبتها ، غرست على شكل ما فى مكان آخر ووصلت بمجموعة معنوية أخرى .

ولا تقلّ عن ذلك أهمية التجمع الصرفى . فقد رأينا إلى أى حـد تنضح اللاحقة أحياناً على الـكلمة حتى تحول قيمتها على غرار الـكلمات المجاورة التى تحتوى على نفس اللاحقة . وكثيراً أيضاً ما نرى الصلة الصرفية التى تجمع بين كلمتين ، تمنع هاتين الـكلمتين من أن يتحول معناها إلى معنى جـديد فـكلمة meurtrier « قاتل » بقيت مرتبطة بـ meurtre « قتل » (كارتباط ouvrier « عامل » œuvre « عمل » أو vitrier « زجاج » بـ vitre « لوح زجاج ») فلم تتبع الفعل meurtrir « يصيب بالـكدم » ومنه (meurtrissure « كدم ») فى معناه الجديد . ولـكن تغيّر المعنى يكثر إذا تراخت الصلة الصرفية التى تربط المشتق بالبسيط [يعنى المشتق منه] فـكلمة toga اللاتينية ليس لها معنى اشتقاق غير « ما يغطى ، ملحفة » ؛ وهى الاسم المجرد من فعل tego ، كما هى الحال فى الـكلمات الإغريقية τροφή « طعام » من τρέφω « أطعم » و νομή « رعى » من νέμω « أرعى » و στοργή « حنان » من στέργω « أعز » ، الخ . ولـكن هذه الصياغة نادرة فى اللاتينية بقدر ما هى شائعة فى الإغريقية . فصارت الرابطة التى تصل τροφή بـ τρέφω أقوى من تلك التى تصل toga بـ tego . فلم يكن هناك إذن ما يمنع الـكلمة toga من أن تثبت على اسـتعمال خاص ، وهو الدلالة على نوع من الملابس بعينه .

فى الألمانية العليا القديمة كانت بعض الصفات التى تصاغ بمساعدة اللاحقة -i- تملك إلى جانبهـا ظرفا يحتوى على اللاحقة -o- ؛ مثل festi « ثابت » و fasto « بثبات » ؛ skôni « جميل » و skôno « بجمال » . ولـكن هذه الصياغة

المزدوجة لم تثبت على مرّ الزمن، وصار الظرف يصاغ من الصفة مباشرة . ومن هنا ورثت الألمانية ، بعد سقوط النهايات ، زوجين مختلفين من الكلمات هما : fest « ثابت » و schön « جميل » (وهاصفتان) ، و fast و schon (وهاظرفان) ، فلم تعد الصلة يحس بها بين كل كلمتين . فساعد ذلك على تطور معنى الظرفية : وfast أخذت معنى « تقريباً » و schon أخذت معنى « قد » déjà (قارن فى الفرنسية à la belle heure « لحسن الحظ » و de bonne heure « مبكراً » ؛ أما إذا أرادت الألمانية فى أيامنا هذه أن تقول « بثبات أو بجمال » قالت fest و schön .

ترينا هذه الأمثلة مقدار الأثر الذى تخضع له الكلمات من جراء الكلمات الأخرى التى من نفس الأسرة اللغوية يحدث فى الدماغ عمل غير شعورى يثبّت الكلمات فى بعض المعانى ويعدها للاستعمالات التى توجّه إليها . وفى الاستعمال تتعرض الكلمات إلى تغيرات أخرى فى المعنى ، والتغير فى هذه المرة يأتى من سياق النص .

تزوّد كل كلمة فى لحظة استعمالها تزويداً تاماً بقيمة وقتية تبعد عنها جميع القيم الناتجة من الاستعمالات الأخرى التى تصلح لها الكلمة . ومع ذلك فإن استعمال الكلمات يقوم بواسطة هذا التنوع نفسه ، بتأثير دائم على دلالتها . وهذا يتجلى فى صورتين : الأولى تنحصر فى أن الاستعمال الثابت لكلمة بعينها فى نص واحد بعينه يمكن أن يخدع الذهن ، إذ أنه لما لم يكن لديه الوسيلة لتحديد قيمة الكلمة بالمقارنة ، فإنه يتعرض لتغييرها . ومن جهة أخرى قد يؤدى الاستعمال المتكرر لنفس الكلمة فى نصوص مختلفة إلى إبلاء قيمتها أو إلى تغييرها .

عندما نسمع جملة أو نقرؤها نرى الكلمات التى تشتمل عليها يفسر بعضها بعضاً . فإذا كانت منها واحدة غير مألوفة لنا — والواقع أن هناك دائماً فترة فى حياتنا نسمع فيها الكلمة لأول مرة — حاولنا بطبيعة الحال تفسيرها معتمدين على سياق النص ؛ وهذه هى الخطة التى يتبعها التلاميذ عندما يحاولون ترجمة نص أجنبى ، نص لاتينى أو ألمانى مثلا . هذه الفكرة التى نحصل عليها بالتخمين قد تكون زائفة . ولكنها تصحح فى غالب الأمر ، لأن الكلمة نفسها تقابلنا بعد

ذلك فى جمل أخرى مع كلمات أخرى تحدد لنا معناها . وعلى هذا النحو يثبت فى الذهن معنى كل كلمة .

وهناك كلمات محدودة الاستعمال لا تظهر مطلقاً إلا فى صحبة بعض الكلمات الأخرى . وفرصة الخطأ فى هذه الكلمات أوسع . لأن الاستعمال لا يقدم لنا الوسيلة لتحديد قيمتها . وفى هذه الحال كثيراً ما تبتعد الكلمة عن دلالتها الأصلية بسبب المعنى الزائف الذى يضاف إليها . فكلمة fruste كانت لا تقال فى الأصل إلا وصفاً للعملة التى مُسح رسمها ؛ رصار يفهم من عبارة monnaie fruste عملة خشنة الصنع خالية من الفن والدقة . ثم صارت تطلق بطريق التوسع على الرجل الفظ الغليظ غير المهذب . فهذا الذى تغلب هو معنى زائف ، ولعل الذى ساعد على ذلك شَبَهٌ صوتى غامض بين هذه الكلمة وبين الكلمتين : rustre و rustaud « خشن » [١] .

الواقع أن الذهن يسعى إلى تحديد معنى الكلمات بجميع الوسائل التى فى متناوله . ولكنه يخدع أحياناً إذا وجهته بعض ظروف خاصة فى طريق غير مستقيم . فالصفة émérite كانت تطلق فى الأصل على الموظف الذى يحال إلى المعاش . ثم صاروا يحاكون اللاتينية حذلقة فيطلقون عبارة professeur émérite على ما نسميه الآن « أستاذ شرف » ولكنهم راحوا يفسرونها على أنها تدل على « الجدارة » mérite أو سموّ المقام ؛ فأصبحوا الآن يصفون الأستاذ بأنه émérite إذا أرادوا وصفه بالامتياز . وهذا ضد المعنى الأصلى ، ولكنه استقر إلى حد أننا لن ندهش إذا سمعنا الناس يتكلمون عن فارس émérite أو طيار émérite . والآن بعد أن توسعت هذه الكلمة فى استعمالاتها ودخلت فى نصوص متنوعة ، فقد امتدت أمامها الفرصة للاحتفاظ بالمعنى سليما وإن كان قد أضيف إليها عن طريق الخطأ .

ومع ذلك نلاحظ أن معنى الكلمة يزيد تعرضاً للتغير ، كلما زاد استعمالها

---

(١) كتب حديثا أحد أعضاء الأكاديمية كتاباً نقرأ فيه الجملة الآتية يلخص فيها صورة بطل من أبطال الحرب : « L'ensemble est solide , dominateur et fruste »
« هو على الجملة متين ، متسلط ، خشن . »

وكثر ورودها فى نصوص مختلفة . لأن الذهن فى الواقع يوجه كل مرة فى اتجاهات جديدة ؛ وذلك يوحى إليه بخلق معان جديدة . ومن هنا ينتج ما يسمى بالتأقلم polysémie . يجب أن نفهم من هـذا الاسم قدرة الكلمات على اتخاذ دلالات متنوعة تبعاً للاستعمالات المختلفة التى تستعمل فيها ، وعلى البقاء فى اللغة مع هذه الدلالات . وعندنا مثال جميل عن التأقلم فى كلمة bureau « مكتب » إذ كانت تدل فى الأصل على نوع من نسج الصوف الغليظ المسمى étoffe de bure ثم أطلقت على قطعة الأثاث التى تغطى بهذا النسج ، ثم على قطعة الأثاث التى تستعمل للكتابة أيا كانت ، ثم على الغرفة التى تحتوى على هذه القطعة من الأثاث ، ثم على الأعمال التى تعمل فى هذه الغرفة ، ثم على الأشخاص الذين يقومون بهذه الأعمال ، وأخيراً على أية مجموعة من الأشخاص تقوم بإدارة إحدى الإدارات أو الجمعيات . وخلق معنى جديد لا يقضى بالضرورة على المعانى السابقة ؛ فهنا يمكن لكل المعاني أن تبقى حية فى اللغة إذا استثنينا الأول منها « نوع من النسج » . وحركة التغيرات المعنوية لاتسير دائماً فى خط مستقيم ؛ بل تسير فى كل الاتجاهات حول المعنى الأساسى ، وكل واحد من المعانى الثانوية يمكن أن يصير بدوره مركزاً جديداً للاشعاع المعنوى (١) .

مهما تعددت الاستعمالات التى تصلح لها الكلمة وتنوعت ، فإن أحدها يطغى غالباً على ما عداه ، وهو الذى يعين معنى الكلمة الأساسى على النحو الذى يسجل عليه فى القاموس . فإذا اتفق أن وجد استعمالان غالبان أو أكثر ولم يكن فى الإمكان تداخلهما ، فمعنى ذلك أننا أمام كلمتين مختلفتين ، كما هى الحال فى الأمثلة المذكورة فى الصفحة الثالثة من الفصل الأول بالجزء الثالث . ولكن هذا المعنى الغالب لا يستطيع أن يضمن لنفسه البقاء مطلقاً ، فهو محوط بمعان ثانوية تتحفز دائماً للظهور عليه واحتلال مكانه . المعنى الجديد ينمو شيئاً فشيئاً ، ويحل نفسه محل القديم ، كما يمتص فرع الشجرة العصير إلى أن يذوى الجذع الأساسى . وعندئذ تجد الكلمة نفسها وقد تغير معناها .

---

(١) درمستتير Darmesteler : رقم ٦٢ ، ص ٧٤ .

لبيان أنه يوجد بين معانى الكلمة الواحدة معنى يتحفز دائماً لفرض نفسه على الذهن ، يجدر بنا أن نتأمل المسألة الآتية : الاسم يمكن أن يكون ذا علاقات متنوعة مع الحدث الفعلى ؛ ولكن عندما يؤخذ فعل من هذا الاسم ، فإنه لايعبر به على وجه العموم إلا عن علاقة واحدة من هذه العلاقات . فهناك إذن اختيار غير شعورى من جانب العقل ، إذ أنه يحتجز من بين جميع الأحداث الممكنة الحدث الذى يحتاج إلى التعبير عنه فى وقت ما . ويبقى لاستقرار الكلمة التى تصاغ على هذا النحو فى اللغة ألاّ توجد عقبة فى سبيلها من ناحية أخرى . فالألمانية اشتقت من Herz « قلب » herzen « يضم إلى قلبه » كما اشتقت الإيرلندية من bruinne « صدر » bruinnim « أضم إلى صدرى » ؛ ولكنا نرى الألمانية تشتق من Kopf « رأس » Köpfen الذى يدل على « قطع الرأس » ؛ والغالية تشتق من cefn « ظهر » cefnu ومعناه « يدير ظهره » ؛ والإيرلندية من dorn « قبضة اليد » durnim « ألكُمُ » ؛ والإغريقية من σάρξ « لحم » σαρχίζειν « ينتزع اللحم » ، وفى الفرنسية coiffer أحد الناس أى « وضع غطاء له على رأسه » و fesser أو gifler أحد الناس يعنى « ضربه على الـ fesse « الإلية » أو على الـ gifle (كلمة قديمة معناها خدّ) أى « صفعه » ؛ و plumer طائراً معناه « انتزاع ريشه » (plumes) » ؛ و boucher يعنى « سدّ الـ bouche (الفم) » ؛ و échiner معناه كسر الـ échine (العمود الفقرى) » ؛ و peler معناه « نزع الـ peau (الجلدة) » (للفواكه) ؛ ويقال فى اللغة الشعبية zyeuter ومعناه fixer des yeux « يحدجه بعينيه » ، ومن pilus « شعر » اشتقت اللاتينية فعلين بصيغة واحدة هى : pilare ، « أحدها » فى العصر الأول (Novius Afranius) ومعناه « يكسوه الشعر » والثانى فى عصر الإمبراطورية ، ومعناه « يحلق الشعر » (Martial) . فلا توجد قاعدة لمعنى هذه الصياغات التى ترجع إلى عهود مختلفة ونشأت فى أوساط مختلفة ؛ أو أن القاعدة الوحيدة هى التعبير بالفعل عن الحدث الذى يعدّ أخص من غيره بالكلمة فى اللحظة التى يقرّر فيها المعنى (١) .

---

(١) عن هذه الأمور أنظر : ت . هدسن وليمز T. Hudson Williams رقم ٢١ ، مجلد ٢٦ ، ص ١٢٢ ونلدكه Nöldeke ، رقم ٢٩ ، جـ ٣ ، ص ٢٧٩ .

هناك تقابل شيئاً يمكن أن يقارن فى الصرف بالصيغ القوية والصيغ الضعيفة ؛ فبين الكلمات من حيث المعنى نوع من النظام التصاعدى يحتوى على معان قوية ومعان ضعيفة . فالأولى ، وهى ليست أقدم المعانى بالضرورة ، تفرض نفسها على العقل بمجرد ذكر الكلمة ؛ وتدين بقوتها إلى أهمية استعمالها ؛ أما الثانية فتبقى فى الظل لأنها نادرة الاستعمال أو خاصته ؛ ولا بد ، لإخراجهـا من الظلام ، من مساعدة كلمة أخرى تضيئها وتظهر قيمتها ؛ ولكن نظام المعانى التصاعدى هذا لا شيء فيه من الإطلاق والثبات : فهو خاضع لنزوات الاستعمال جميعها ، تلك التى تولد التأقلم .

* * *

ترجع أحياناً التغيرات المختلفة التى تصيب الكلمات من حيث المعنى إلى ثلاثة أنواع : التضييق والاتساع والانتقال . فهناك تضييق عند الخروج من معنى عام إلى معنى خاص مثل (pondre « يبيض » و sevrer « يفطم » و traire « يحلب ») ؛ وهناك اتساع فى الحالة العكسية أى عند الخروج من معنى خاص إلى معنى عام مثل (chercher « يبحث عن » و gagner « يربح » و triomphér « ينتصر » ؛ وهناك انتقال عندما يتعادل المعنيان أو إذا كانا لا يختلفان من جهة العموم والخصوص (كما فى حالة انتقال الكلمة من المحل إلى الحال أو من السبب إلى المسبب أو من العلامة الدالة إلى الشيء المدلول عليه الخ ، أو العكس) . ولسنا فى حاجة إلى القول بأن الاتساع والتضييق ينشآن من الانتقال فى أغلب الأحيان ؛ وأن انتقال المعنى يتضمن طرائق شتى يطلق عليها النحاة أسماء اصطلاحية (métaphore « الاستعارة » synecdoque « إطلاق البعض على الكل » أو métonymie « المجاز المرسل بوجه عام » أو catachrèse « المجاز المرسل بعلاقة الشبه أو غيره عند عدم وجود اسم للشيء المنقول إليه » الخ) . ونجد أمثلة منها فى جميع الكتب المدرسية[1] ؛ وهذا يغنينا عن بحثها هنا تفصيلا .

---

(١) أنظر خاصة درمستتر : رقم ٦٢ ، وبريال : رقم ٥٥ . وراجع كذلك ل . كليدا : Revue de philologie française et provençale ، مجلد ٩ (١٨٩٥) ص ٤٩ .

ولعل من الأفيد أن نذكر بإيجاز كيف تفسر أنواع التغير الثلاثة بظروف الحياة نفسها .

من حالات التضييق تلك الحالة التي يطلق فيها الاسم العام على طائفة خاصة تمثل نوعها خير تمثيل فى نظر المتكلم . ذلك أن الإنسان إذا وثق من أن محدثه قادر على فهمه أعفى نفسه من استعمال اللفظ الدقيق المحدد واكتفى بالتقريب العام فعندما يطلب من الفتاة الفلاحة أن تدخل « البهائم » لم تتردد لحظة واحدة فى كون المقصود بها البقر الذى لا يزال فى الحقل ، لأن البقر فى نظرها هو البهائم بمعنى الكلمة . وبالطبع لو تكلم الراعى أو الحوذى عن البهائم كان المقصود بها فى الحالة الأولى الأغنام ، وفى الثانية الخيل . وهذا التخصيص كثيراً ما يترك آثاره فى اللغة . فاسم الطائر فى الإغريقية القديمة ὄρνις أخذ معنى « دجاجة » منذ التاريخ المسيحى (نقرأ فى إنجيل لوقا ، إصحاح ١٣ ، آية ٣٤) ὄρνις « دجاجة ») واليوم يطلق على الدجاجة فى الإغريقية الحديثة لفظ ὄρνιθα. وبنفس الطريقة صار اسم الطائر على العموم auca ، يطلق فى الفرنسية على الوزة[١] . وقد ينشأ التخصص أحياناً من مجرد الحذف ؛ وذلك كما تستعمل كلمة τηρός « محروم من » فى الإغريقية الحديثة للدلالة على الأعمى . لقد رأوا أن الحرمان من النظر أشد أنواع الحرمان ، فأعفوا أنفسهم من الإشارة إليه بأوضح من هذا . كذلك فى اللغات الرومية اتخذت الصفة orbus معنى « أعمى » . ولكن لعل الرغبة فى التخفيف لها نصيبها هنا ؛ فاكتفى بالمصطلح العام لتجنب ما فى الكلمة الخاصة من غضاضة .

الكلمات العامة لا تكاد تستخدم فى الاستعمال بقيمتها العامة ، اللهم إلا إذا كان ذلك عند الفلاسفة ؛ فكل واحد من المتكلمين يطلقها على نوع خاص من أنواع النشاط . وقد تكلم علماء اللغة عن المعانى المختلفة لكلمة عملية[٢] . فإن معناها يختلف تبعاً لما إذا كان الكلام فى الجراحة أم فى المالية أم فى الفن الحربى أم فى شئون الغابات

---

(١) نيدرمان Niedermann : رقم ٣٠ (Anzeiger) ، مجلد ١٨ ، ص ٧٥ .
(٢) بريال : رقم ٥٥ ، ص ٢٨٥ .

أم فى الرياضة ؛ وتبعاً لذلك نعرف ما إذا كان يدور حول قطع عضو من أعضاء الجسم أو عقد صفقة من صفقات البورصة أم قيادة كتيبة من الجيش فى ميدان القتال أو تعليم الأشجار التى يجب أن تقطع أو حل مسألة حسابية . وإذا تكلم علماء اللاهوت فى عملية الروح القدس ، أرادوا معنى آخر غير هذه جميعاً . وكلمة « موسم » أيضاً من الكلمات التى تحتمل استعمالات مختلفة كل الاختلاف . فهناك موسم ما عند كل من مدير الفندق وصاحب « الفلا » وتاجر الفاكهة وزارع النبيذ والخياطة ، بل وعند كل تاجر أو صانع ، فلكل واحد من هؤلاء « موسم » وهو الفترة التى يكون فيها نشاط العمل على أشده ، وتختلف هذه الفترة باختلاف أنواع النشاط وباختلاف الأماكن . وفى جزء من پمبروكشير Pembrokeshire من بلاد الغال يطلق الموسم على الفترة التى ترى فيها خيل اللقاح تجوب الإقليم ؛ وهذا وحده كاف للدلالة على إقليم معنى بتربية الخيل خاصة ، فكل شخص فيه يهتم بمسألة اللقاح ، فتشير الكلمة إلى الموسم بمعناه الحق فى نظر المتكلم ، كما رأينا فى كلمة « العملية » حيث يرجعها كل واحد من المتكلمين الذين افترضناهم إلى الموضوع الذى يألفه . ويمكننا أن نسوق أمثلة من هذا القبيل لجميع الكلمات العامة ، بل لجميع كلمات اللغة ؛ لأن معنى الكلمة مهما أوغل فى التخصص ، يمكن دائماً التضييق من سمته أو من تخصيصه كما يقولون .

أندر من ذلك حالة التعميم وإن كانت موجودة أيضاً . وينحصر التعميم فى إطلاق اسم نوع خاص من أنواع الجنس على الجنس كله . وهذه هى حال الأطفال الذين يسمون جميع الأنهار باسم النهر الذى يروى البلدة التى يعيشون فيها : هكذا يفعل الطفل الباريسى عندما يصيح وقد رأى نهراً je vois une Seine « أرى سينا » وتلك غلطة طفل لا يدوم لها أثر . ولكن هناك أخطاء مماثلة قد استمر بقاؤها . ففى السلافية الجنوبية صار اسم الوردة يطلق على الزهرة عموماً[1] : فى الصربية roža ، وفى الكرواتية rožica . امتد أثر هذه الواقعة

(١) شوخارت Schuchardt ، رقم ٢٠٣ ؛ وقارن موركو Murko ، رقم ٣٣ ، مجلد ٢ ص ١٤٧ .

امتداداً جعل كلمة Blume « زهرة » تختفى من اللهجات الألمانية المجاورة ويحل محلها كلمة Rose (أصل معناها « وردة ») فيقال Die Wiese ist voll Rosen بمعنى « الحقل مملوء بالأزهار » . وبطريق العدوى صارت اللهجات الإيطالية فى إقليم فريول Frioul تطلق اسم الوردة على كل زهرة أيا كانت ، واضطرت إلى أن توجد للوردة اسماً جديداً ، هو rosar أو garoful di spine . هذه الحالة التى لها أهميتها فيما يتعلق بانتشار الحالات الخاصة بالمفردات ، تبرهن على وجود بعض الفصائل المنوية التى فيها تختلط بسهولة النسب الكامنة بين الأجناس والأنواع.

هذه المجاميع هى التى يكثر فيها بصفة خاصة انتقال المعنى بسبب التجاور . فكل كلمة من كلماتها لها مضمون خاص بها وتدل على شيء خاص objet . ولكنها أمام العقل تشترك جميعاً فى انتسابها إلى مجموعة عامة ، ولما كانت فكرة العموم تطغى على المعانى الخاصة ، فقد يحدث للعقل أن ينتقل من أحد المعانى إلى الآخر . وهذه الظاهرة تقع بصورة خاصة فى أسماء النبات والحيوان وأسماء أجزاء الجسم والأمراض والألوان .

اختلافات المعنى التى تلاحظ على اسم واحد من أسماء الألوان بين لغة وأخرى ترجع فى غالب الأمر إلى أنواع من التخصص (أنظر الصفحة السابقة) ؛ ولكن الاتجاه الذى ندرسه هنا يستطيع أن يؤدى دوره أيضاً .

انتقال المعنى فى أسماء النباتات كثير الوقوع . فكلمة واحدة بعينها هى التى أمدّت اللاتينية بكلمة quercus (نوع من البلوط) والألمانية بكلمة forha « صنوبر » والكلمة الإغريقية φηγός (تطلق على نوع من البلوط) ، هى بعينها الكلمة اللاتينية fâgus « زان » والكلمة الألمانية Buche لها نفس المعنى . يرجعون إلى أصل واحد الكلمة الإغريقية ἐλάτη « شوح » والكلمة الألمانية Linde « زيزفون » . كذلك من أصل واحد اشتقت الكلتية الاسم الذى تطلقه على البلوط (فى الإيرلندية « dair ») واللاتينية الاسم الذى تطلقه على الشربين (larix) . وكانت كلمة tanna وحدها تدل قديماً فى الألمانية على البلوط والصنوبر فى آن واحد . وهنا أيضا قد يجب علينا أن ندخل التخصص فى

حسابنا ، ولكن بمعنى مختلف . فمن المحتمل مثلا أن الكلمة الجرمانية tanna والأصل المشترك للكلمة الإيرلندية dair واللاتينية larix كانتا تدلان على « الشجرة » أو على « الخشب » بصورة عامة (فى الإغريقية δόρυ) أو على « الغابة » : وبعد ذلك ، إذا صح هذا الفرض ، استعملت كل واحدة من الكلمتين للدلالة على شجرة هامة اختيرت لأسباب تاريخية أو جغرافية . ولكن عندما نرى اسم الزان يتجاوزه إلى الدلالة على البلوط كما فى حالة الكلمة الألمانية Heistér التى تستعمل فى كلا المعنيين ، لم تكن المسألة إلا انتقالا فى الدلالة لا أكثر ولا أقل ؛ ذلك بأن الذهن لم يكن قد استقر بعـــد على حال وكان ينقصه التحديد ، فأطلق اسم نوع من الشجر على نوع آخر يقاربه .

أسماء أجزاء الجسم تعتبر « الميدان التقليدى لانتقالات المعنى[1] » . فنرى عدداً كبيراً منها يتأرجح فى اللغات المختلفة . وينتقل بسهولة من عضو إلى عضو أو من جزء إلى آخر : فكلمة coxa معناها « أعلى الفخذ » فى اللاتينية ، ولكن قرينتها coss تطلق فى الإيرلندية على « القدم » ؛ ونجد الخطوة الوسطى بينهما فى الكلمة الألمانية Hächse (وهى أفضل من Hechse) « أعلى الساق jarret » وفى مشتقات الكلمة اللاتينية (الكلمة الفرنسية cuisse « فخذ » ؛ والكلمة الغالية المستعارة coes « بنفس المعنى ») ؛ فنرى أن الكلمة قد استمرت فى النزول من أعلى العضو إلى أسفله . وأصل واحد هو الذى أعطانا الكلمة اللاتينية mentum « ذقن » والغالية mant « فكّ » والألمانية Mund « فم » ؛ أما الكلمة الفرنسية bouche « فم » فقد جاءت من اللاتينية bucca التى تدل على « الخدّ » ... الخ .

قد يوجد فى بعض هذه الأمثلة استعارة أو بتعبير أفضل ، انتقال شعورى . فالذهن قد يضيف مختاراً اسم أحد الأعضاء إلى العضو الذى يجاوره لقصد المزاح أو لسبب آخر . ويمكننا أن نقطع بوقوع الاستعارة إذا كانت الألفاظ تثير فكرة

(١) ميرنجر Meringer : رقم ٣٣ ، جـ ٣ ، ص ٤٦ ؛ وتسونر Zauner : Romanische Forschungen ، رقم ١٤ (١٩٠٣) ص ٣٣٩ .

جنسية وفى هذه الحالة يمكن تفسيرها إما بوازع من الحياء وإما على العكس بسوء القصد . فقد يطلق الشخص على ثديى المرأة لفظ « النحر » أو « المدتين » حسبما يكون مهذباً أو جلفاً . وأسماء أعضاء الجسم المخزية ، وبصفة عامة الكلمات التى تطلق على أفعال مشهورة بقذارتها أشدّ من غيرها تعرضاً للنقل[1] . ويمكننا أن نقول إن الكلمات القذرة عامة كثيرة التبادل ، اللهم إلا إذا كانت الكلمة المخجلة نفسها قد أطلقت على مدلولها بطريق استعارة معلومة للمتكلم ، إذ فى هذه الحالة لا يوجد سبيل لإطلاقها على عضو آخر . وهى ألفاظ يجمع بينها كونها كلمات قذرة ، وهذا تعريفها ؛ فيمكن أن تستعمل دون قيد للدلالة على أى جزء من الجسم مادام قذراً . إذ قد يكفى وجود شبه بعيد أو جوار تافه لا يحس ليبرر انتقال الكلمة من معنى إلى آخر . وكل اللغات فيها أمثلة من هذه الظاهرة ؛ فنترك للقارئ مهمة البحث عنها بنفسه .

والأسماء الدالة على عمليات الحواس هى بدورها عرضة للتبادل . فكثيراً ما تستعمل الألفاظ الدالة على اللمس والسمع والإحساس والذوق بعضها مكان بعض : وتطلق الثلاثة الأخيرة منها فضلا عن ذلك ، على عمليات العقل ، فالفعل الإغريقى αἰσθάνομαι يستعمل في نفس الوقت للذكاء والسمع والشم . وفى الغالية يستعمل الفعل clybod «يسمع» للشمّ والذوق واللمس؛ وكذلك الفعل الإيرلندى atcluiniur « أسمع» له نفس الدلالة . ومن نتائج ذلك أن يقال الآن فى الإيرلندية عن الأصم cluasdall « أعمى الأذنين » ، وأن الأصل الواحد ورد فى اللغات الجرمانية باسم الأصم (فى القوطية daubs و bauths : (أنظر ص ٢٨٠) وباسم الأبكم (فى القوطية dumbs) وأمدّ الإغريقية باسم الأعمى (τυφλός) الذى يطلق من دلالة أيضاً على الأصم وعلى الشيطان (أوديب الملك ، بيت ٣٧) . ومما ييسّر الانتقال إلى أخرى على وجه التأكيد الروابط الذى يقيمها العقل بطبيعة الحال بين عمليات الحواس المختلفة .

***

(١) مار ستراندر Marstrander : رقم ٣٠ ، مجلد ٢٠ ، ص ٣٥١ .

يمكننا أن نتنبأ بنشوء علم دلالة عام ، وذلك بتركيز المعلومات المستقاة من كل لغة عن تغيرات المعنى ؛ فيسمح لنا هذا العلم بإرجاع تلك التغيرات إلى بضع قواعد — لا من وجهة نظر منطقية كما فعل العلماء حتى الآن — بل من وجهة نظر سيكولوجية. وذلك يتطلب الابتداء من الأفكار التى تعبر عنها الكلمات لا من الكلمات نفسها .

ليس من المصادفة بطبيعة الحال أن كان يعبر عن فكرة « المرّة » فى غالب الأحيان بالكلمة التى تدل على الرحلة : فيقال للعامل الذى ينزل براميل فى كهف المنزل أو يصعد خشباً فى الغرفة العليا منه : كم رحلة قمت بها ؟ بدلا من « كم مرّة نزلت أو صعدت ؟ » . والكلمتان uices ، uicissim فى اللاتينيــة اشتقتا من كلمة تدلّ على الرحلة ، وكلمة رحلة نفسها تستخدم فى صورتها اللهجية yädze للتعبير عن « مرّة » فى مقاطعة الفاليه Valais السفلى « سويسرة » ؛ وفى القوطية تستعمل كلمة sinths التى معناها الحقيق « رحلة » لتكوين الظروف العددية فيقال ainamma sintha « مرة » و thrim sinthams « ثلاث مرات » ؛ وتستعمل فى معنى « مرة » كلمة allvart فى اللتوانيــة و fecht فى الإيرلندية و gwaith فى الغالية وفى الألمانية السفلى Reise والاسكندناوية gang ، وكل هذه الكلمات معناها الحقيق « رحلة » . وواضح أن هــذا يفسر بتطور المعنى الطبيعى تطوراً مستقلا فى كل بلد من البلاد التى وردت فيها هذه الظاهرة على حدة .

ومع ذلك فهناك تسميات من هذا القبيل لا يمكن أن يكون مجرد ورودها فى لغات مختلفة دليلا على أنها نتيجة لاتجاه واحد بعينه ، وإن كان مستقلا فى كل حالة عنــه فى الأخرى . من ذلك اسم الـ belette « ابن عرس » وهو حيوان ثديى صغير من أكلة اللحوم — فإنه فى كثير من اللغــات ، كما فى الفرنسية ، مأخوذ من الصفة « جميل » : فهو فى الألمانية Schöntierle « الدُّوَيبة الجميلة » وفى الدنمركية Kjönne وفى البريتانية Kaerell وفى الاسـبانية « الغاليسية » garridina بل وفى البسكية andereder ، ومعناها الحرفى « السيدة الجميـلة »

(andere « سيدة » و eder « جميلة ») . فليس من المعقول أن تكون هذه الفكرة نفسها قد عرضت فى وقت واحد فى أذهان كل هؤلاء الناس الذين يتكلمون لغات مختلفة [(١)] . بل إننا هنا أمام مثال من خلق الكلمات بالمحاكاة ، وبعبارة أدق من استعارة الكلمات بواسطة الترجمة ، الأمر الكثير الوقوع فى حالة اتصال اللغات بعضها ببعض . (أنظر الفصل الرابع من الجزء الرابع) .

ويحدث أن ترتبط الكلمة بأسطورة فتنتشر معها وتساعدها على البقاء . وفى هذه الحالة تترجم المفردات عن واقعة فلكلورية ، فلا يمكن إذن تتبع الطريق التى مرت به الكلمات إلا بدراسة الفلكلور . كذلك يحدث كثيراً أن تنتشر عبارة تجريدية فى الأقاليم المجاورة بواسطة نوع من النقل يشبه أن يكو نسخا . فالفعل الإنجليزى to become « يصير » مثل الفرنسى devenir تماما ، والفعل الغالى digwyddo « يصل » مثل اللاتينى accidere « (فالصيغة cwyddo «يسقط» مثل cadere) . وسندرس هذه الحالات فيما بعد ، فى الفصل الخاص باحتكاك اللغات . فهى على العموم تختلف كل الاختلاف عن الحالات التى نحن فى صدد دراستها هنا ، وإن لم يكن من السهل تعيين حدّ فاصل بين النوعين . فمثلا عندما نرى الفعل « يقع » يستعمل للتعبير عن فكرة « الإعجاب » فى الألمانية (gefallen) وفى الإيرلندية (dofuit lemm « يعجبنى » حرفياً « يقع لى ») ، وذلك دون وجود صلة تاريخية بين العبارتين ، فى هذه الحال لا يسعنا إلا أن نقول بوجود استعارتين متماثلتين نشأت كل واحدة منهما مستقلة عن الأخرى فى كلتا اللغتين .

فكرة الألم تجتمع بسهولة مع فكرة العِظَم ، كما تجتمع فكرة القسوة بفكرة القوة . فالصفة الألمانية القديمة sêro « أليم ، موجع » التى لا تزال تستعمل فى لهجات الجنوب (صربيا وبفاريا) بمعنى « مجروح ، مكتئب » لم تستبق فى الألمانية الأدبية إلا للتعبير عن التفضيل المطلق . ولعلنا نستطيع بسهولة أن نتصور خط سيرها . فقد قيل فى أول الأمر sehr krank « مريض جداً » sehr betrübt « مكتئب جداً » قبل أن يقال sehr gross « كبير جـــداً » و sehr gut

---

(١) رقم ٣٣ ، مجلد ٢ ، ص ١٩٠ ، هامش رقم ١ .

« حسن جداً » ؛ فلما أفرغت الصفة من قيمتها الخاصة (أنظر ص ٢١٧) بقيت عبارة صرفية فحسب للدلالة على كبر الكمية . ومع ذلك فما تجدر ملاحظته أن الكلمة اللاتينية saeuos « شديد ، حاد ، قاس » ، التى تلتقى بالكلمة الجرمانية التى نحن بصددها فى أصل واحد ، قد استعملت أيضاً فى اللاتينية القديمة بمعنى « كبير » : يقول سرفيوس النحوى saeuam dicebant ueteres magnam (ملاحظات على الإنيادة : ١/٤) . والعلاقة المعنوية بين sehr « جداً » و saeuos « كبير » لا يمكن أن يفسرها التاريخ . فالأمر فى كلتا الحالتين يرجع إلى تطور معنوى واحد مستقل فى كل حالة عنه فى الأخرى ، والإغريقية أيضاً تقدم لنا أمثلة عليه . فالظرف δεινῶς « بشناعة » أو αἰνῶς « بقسوة » يستعمل عند الحاجة للتعبير عن كبر الكمية (أنظر الصفحة الرابعة من الفصل التالى) .

يمكن أيضاً الانتقال دون عناء من فكرة الإشفاق إلى فكرة الحنان . فتأمل البؤس يصحبه دائماً إحساس بالحدب . لأن الإشفاق والود ينبعان من موضعين متجاورين فى القلب الإنسانى . فيقال حدبا : mon pauvre petit « صغيرى المسكين » إذ لما كانت فكرة المسكنة وفكرة الصغر مرادفتان للضعف ، كانتا توحيان بالحنان والإشفاق معاً . وفى كثير من اللغات تستعمل كلمات واحدة للتعبير عن كل هذه العواطف دون تفريق ؛ وتنتقل من أحداها إلى الأخرى . فالصفة bleiths تعنى فى القوطية « مدر للشفقة » ؛ وقرينتها فى الألمانية العليا القديمة blidi معناها « ظريف » ويظهر أن أصلها هو أصل الكلمة السنسكريتية mrityati « يذوب ، يتفكك » ؛ فالفكرة الأساسية هى فكرة الإشفاق التى تندى القلب وتلينه .

لكن الطيبة لا تكون بلا ضعف ، وبالإغراق فى الطيبة يصبح الإنسان «مغفلا» ، كما يقول المثل الفرنسى فى صراحة قاسية . والكلمات التى تمت إلى الطيبة والعذوبة والهدوء فى كثير من اللغات قد استعملت للدلالة على البلاهة . فالبساطة ، وهى فضيلة فى الخلق ، تعد نقصاً فى العقل أيضاً . وقاصر العقل يوصف فى الفرنسية بأنه simple « بسيط » وفى الألمانية بأنه einfältig « بسيط » والكلمات bonasse و débonnaire « مبالغ فى الطيبة » تحملان اليوم محملا سيئاً . وقد ساعد

على انحدار المعنى فى الكلمة الأولى وجود اللاحقة asse- التى تحمل معنى تحقيريا لا شكّ فيه . ولكن ليس هناك أى أثر خارجى ساعد على تطور الكلمات silly فى الإنجليزية و albern فى الألمانية و gwirion فى الغالية (فى الجزء الشمالى) والأولى منها معناها في الأصل « هادىء ، مأمون الجانب » (قارن sœlig في الإنجليزية القديمة و selig فى الألمانية) والثانية « حسن العشرة ، طيب » (فى الألمانية العليا القديمة alawâr) والثالثة « صادق الودّ ، برىء » (وما زالت تستعمل فى جنوب الإقليم) ؛ واليوم تطلق الكلمات الثلاث ويراد بها الغبى أو الأخرق . وقد وقع نفس التحول بالنسبة للكلمة الفرنسية innocent « برىء »، ولكن بواعث دينية زادتها سوءاً على سوء . ذلك أن سخرية مواطنينا دأبت تنصبّ على أولئك الأشخاص الذين وهبوا أنفسهم لله ليمنّ عليهم بشهادة من بساطة العقل ، إن لم تكن من النفاق : وإلى هذا الاتجاه الخالى من التبجيل تدين الكلمتان benêt و crétin بمعناها التحقيرى (فالأولى منهما جاءت من béni « مبارك » والثانية من chrétien « مسيحى ») .

كل التغيرات المعنوية التى أشرنا إليها ليست سيكولوجية إلاّ جزئيا حيث أن المادة التى تدل عليها الكلمة تعين على هذا التغير بطبعها . فالشخص التعس يستدعى الحدب عليه بطبيعة الحال ، والرجل الطيب فيه استعداد لضعف الشكيمة وأحياناً لبساطة العقل ؛ والعنف يفترض القوة والقدرة ، ويبطش بطش الرفيع العظيم ، فيمكننا القول بإن العقل إنما اتبع فى انتقاله من فكرة إلى أخرى السبيل الذى خطته التجربة فى الحياة ، فاختصر فى كلمة واحدة سلسلة بأسرها من الملاحظات ؛ ومع ذلك فإن نصيب العقل يعدّ على جانب من الخطورة بحيث يخول لنا أن نتكلم هنا أيضاً عن تحولات سيكولوجية : إذ لا يكفى للملاحظة أن تموّن بالتجربة ، إذا لم يستطع العقل أن يستخرج منها النتيجة الناسبة . فتفسير صفات المسالمة التى تبدو على رجل طيب تفسيراً سيئاً وتمجيد قسوة الظالم عن أنها من عظائم الأمور والعطف على البائسين ، أليست كلها ميولا يستجيب لها كل إنسان إن قليلا وإن كثيراً ؟ إذا وجدنا اللغة تعبر عنها ، أمكننا أن نقول بأنها تكشف

عن خلق المتكلم : فهى علامة الخلق الساخر أو المتمرد أو الرحيم، وبها نستطيع أن نميز الأشخاص على ما بينهم من اختلاف .

الانحدار الذى يصيب الكلمات « يعكس بطريقة ملموسة إما الاحتقار الذى تكنه الطبقات الاجتماعية بعضها لبعض وإما البغض المتبادل بين الأوطان والأجناس وإما التعصب الأعمى من جانب الجماهير وإما عدم احترام المتعصبين لآراء غيرهم ... فالناس يتباغضون ويتناحرون ويتبادلون الاحتقار ويتنابذون بالألقاب ، واللغة حارس أمين على آثار هذه الحماقات المستمرة »(١). فالكلمات brigand « قاطع طريق » و ribaud « إباحى » و assassin « قاتل » grivois « خليع » التى كانت تطلق فى أول أمرها على بعض الكتائب العسكرية تدين بمعناها الحالى إلى غلظة الأخلاق الحربية واستهتارها ، كما تدين كلمة cuistre (قديماً « طباخ » وكلمة goujat (قديماً « خادم ») إلى احتقار السيد لخادمه ؛ والكلمات bouquin (مستعارة من الفلمنكية boecken « كتاب ») و lippe (مستعارة من الألمانية Lippe « شفة » و rosse من الألمانية Ross « حصان ») و hâbleur (من الأسبانية hablar « يتكلم » تحمل على التهكم الساخر الذى يرتبط بكل ما يأتى من الخارج . ومما تجدر ملاحظته أن كلمة parlar فى الأسبانية (المشتقة من parler الفرنسية بمعنى « يتكلم ») لا تقال إلا لتدل على أمر سيء . وكلمة madame « سيدة » قد بقيت كلمة نبيلة فى الإنجليزية والفرنسية ، أما فى الألمانية التى دخلتها بطريق الاستعارة ، فقد صارت عامية سوقية : فى برلين تعتبر Madamchen من ألفاظ السوقة(٢).

يمكننا أن نتصور علماً لسيكولوجية الشعوب يقوم على اختيار التغييرات المختلفة التى تشاهد فى اللغات التى يتكلمونها خاصة بالمعنى . وقد تكون هذه

---

(١) نيروب Nyrop : رقم ١٠٥ ، مجلد ٤ .

(٢) جوستاف كوهين : « خطاب بمناسبة افتتاح كرسى اللغة الفرنسية وأدبها بجامعة أمستردام . » باريس شامبيون (١٩١٢) ص ١٣ .

الدراسة مضنية ، ولكنها تستحق ما ينفق فيها من عناء . بل من الممكن ألا نخرج منها بنتيجة محددة وأن نصل فى النهاية إلى أن نكشف عند جميع الشعوب اتجاهات سيكولوجية واحدة على وجه التقريب ، هى ميول العقل الإنسانى نفسه . ولكن قد نصل أيضاً إلى إقامة بعض الحدود وتحديد بعض دقيق الفروق. فأغلب الظن مثلا أن تكشف لنا المفردات الإنجليزية عن احترام للأشياء الدينية وللأشخاص الذين كرسوا للدين أنفسهم أكثرمما نجد منها فى مفردات الفرنسية . وقد تطلعنا هذه الدراسة على بعض الفروق بين الألمانيين والفرنسيين . فكلاهما مثلا فى حديثه العائلى يألف إطلاق أسماء بعض الحيوانات على الأشخاص ؛ ولكن الفرنسى يخلط بهذا الاستعمال عاطفة من السخرية والاحتقار أو القذف . أما الألماني — وهو أكثر عاطفية من صاحبه — فيفضل أن يلونها بلون من العطف . فالمحامى هلمر Helmer ، من أبطال رواية لإبسن Ibsen ، يبدو للفرنسى مضحكا ، إذ ينادي امرأته كل حين بالعصفورة أو بالسنجاب . ولكن هذه الألفاظ التى تدل على اللاطفة لا تعد جارحة فى اللغة الإسكنديناوية ولا فى اللغة الألمانية .

وعلى العكس من ذلك ، يميل الفرنسى إلى أن يربط أفكاراً مخزية أو فاحشة بالأسماء التى تدل على أشخاص من الجنس اللطيف : وقد أصيبت برشاش هذا الانحراف أسماء الأعلام Jeanneton, Goton, Catin والأسماء المشتركة garce و gouge و donzelle و fille [تدل فى الأصل على معنى بنت أو امرأة ، والآن أصبحت من الشتائم المقذعة] : ولن تلبث كلمة demoiselle « آنسة » أن تصاب بما أصيبت به سابقاتها .

إن أعنف الكلمات التى يتأتى للغضب أو البغض أن يستخدمها ، قد تستعمل أحياناً فى الملاطفة ؛ فتستخدم استخدام عبارات الداعبة اللطيفة البريئة من كل احتقار أو ملام . فمن المألوف أن يدعى الطفل polisson « فاجر » أو petit coquin « الخبيث الصغير » ويوصف الصديق بأنه bon bougre « المعتوه الطيب » أو vieille canaille « الوغد العجوز » . كذلك الكلمات Luder أو Schelm فى الألمانية و čtverák فى التشيكية يمكن أن تقال على سبيل

الملاطفة ، وهى شتائم فى الأصل . ولـكن الأمّ الفرنسية لاتنادى طفلها : «mon petit pouilleux » « ياصغيرى المقمّل » كما تفعل الألمانية إذ تقول بلا حرج mein Lausbube . فهناك شيء من الفرق ؛ ولـكن هذه الاستعمالات رهن بالعرف بل وقصيرة الأجل . ويمكننا بسهولة أن نستخرج من الألمانية بعض العبارات الأليفة التى تبدو لنا خالية من الروح مثل das ist mir Wurst und egal ! « هـذا لا يمنينى » ؛ و nicht die Bohne بمعنى « كلا ، مطلقاً ! » و kein Bein ! « لا أحد » الخ . ولـكن العبارات الفرنسية مثل «la jambe !» أو « la barbe ! » أو « la ferme ! » ليست أكثر منها تميزاً وذكاء .

وإذا كان فى وسع التغيرات المنوية أن تعرفنا بالسكيولوجية ، فإنها ليست أقل قدرة على تعريفنا بظروف الشعوب الاجتماعية .

إن فكرة « من الخارج » و « من الداخل » يعبر عنها فى معظم اللغـات الهندية الأوربية بمقابلة البيت بالحقـل . و « dehors » (تعنى حرفياً « خلف الباب » أى كل ما يقع فى الجهة الأخرى من الباب : فنى اللاتينية foras ، foris وفى الإغريقية Θύραζε, Θυρασι, Θύρηφι وفى الأرمينية durs وفى الفارسية dar ؛ وما هو فى الحقـول : فنى الإرلندية immaig ، immach (من mag « حقل ») وفى البريتانية ermeas (emeas ، dirveas) ، وفى اللتوانيـة laukan , leuke) laukas «حقل») ، وفى الأرمينية artakhs (art «حقل») والإغريقية تستعمل المقابلة بين Θυραῖος, οἰκεῖος للاشارة إلى ما هو أجنبى عن الأسرة وما هو منزلى ؛ عن الأشياء التى من الخارج وأشياء المنزل . وهذا يكشف عن حالة اجتماعياً كانت فيها الأسرة جميعها تقيم فى المنزل وكان الباب الخارجى يعلم حدود الحى العائلى .

تفسّر الروابط العائلية أيضاً الاستعمال المجازى لبعض أسمـاء القرابة الذى تقابله فى كثير من اللغات . فكون كلمة nepos تطلق في اللاتينية على السفيه وكلمة Schwager تطلق فى الألمانية على سائق عربة البريد يمكن تفسيره على أنه نوع من المزاح ؛ ويطلق اسم « العم » فى الألمانية على شيخ محبوب فعال للخير ،

واسم العمة على الشخص العابس الكثير التقريع (die Tante Voss) . فى كل هذه الاستعارات تبدو بكل بساطة روح الخبث التى هى صورة من صور البصيرة الشعبية . وبالعكس عندما تستعمل الكلمة الدالة على ابن الأخ [أو ابن الأخت] للدلالة على المنافس كما فى السنسكريتية (bhratrivyas)، فإن هذا الاستعمال يكشف لنا عن نظام عائلى كانت فيه العلاقات بين العم وابن أخيه مختلفة اختلافا شاسعاً عما هو سائد فى عائلات اليوم .

تتكون الثروة عند الشعوب الرعاة من القطعان بطبيعه الحال ؛ حيث تقدر الثروة برأس الماشية ، وبذا تصير الماشية عملة نقدية ؛ هكذا كانت الحال عند الهنود الأوربيين ، وقد احتفظت اللغات الهندية الأوربية بآثار عديدة من هذه الحال البدائية . حيث كانت الماشية ، وهى الثروة الوحيدة ، تستعمل استعمال النقود . فهوميروس يتكلم عن بنات ἀλφεσίβοιαι « أحضرن ثيراناً » لوالدهن ، يكنين بذلك أنهن لما كن مرغوبا فيهن ، فسيدفع فيهن الراغبون مبالغ طائلة . والقانون الإرلندى يقدر الغرامات والأثمان عادة برءوس الماشية ؛ فالمرأة المسترقة (cumal) تساوى ثلاث بقرات ، وكلمة cumal نفسها صارت نوعا من النقد[1]. وكانت قيمة جميع المواد التجارية تقدر بهذه الصورة فى القوانين الغالية (القرن العاشر) ؛ ونقرأ فى الـ Mabinogion ، وهى أخبار غالية من العصور الوسطى ، أن زينة هذه الحلة أو تلك تكلفت ثلثمائة بقرة . ولكن لدينا خير من هذا . ففى عدد من اللغات تستعمل كلة واحدة للدلالة على النقود وعلى الماشية فى آن واحد ، وإذا كان من هذه اللغات ما قصر الكلمة على أحد المعنيين ، فإن تأخر الزمن الذى وقع فيه هذا القصر يسمح لنا أن نتتبع أصلها دون عناء وأن نقصر هذا التخصيص . فكلمة pecunia اللاتينية ليست إلا إحدى مشتقات pecus «ماشية» وكلة Vieh أصبحت لا تطلق اليوم فى الألمانية على الماشية ، ولكن قرينتها fee تطلق فى الإنجليزية على نوع من الأجر . وهنا اسم الماشية كان فى المبدأ . وعكس

(١) يذكر فى الوثائق الخاصة بالقديس پتريس Saint Patrice أن حصاناً بيع بـ cumal من النقود . (Codex Ardmachanus, fo 17 ba) .

ذلك قد وقع أيضاً : فـكلمة χτῆνος التى تطلق فى الإغريقية القديمـة على « المملوك » تطلق عند هيردوت على رأس الماشية وتدل فى إنجيل لوقا على دابة الحمل ؛ وكلمة χτῆμα شريكتها فى الأصل والتى لا ترى مستعملة فى الإغريقية الكلاسيكية إلا فى معنى « مِلـكيّة » (فيما عدا فى أنتيجونا لسوفوكل : ٧٨٢) تستعمل فى إقريطش بمعنى « ماشية » فى أيامنا هذه . والـكلمة الأنجلوسكسونية créap (وهى تشترك فى الأصل مع الـكلمة الألمانية kaufen « يشترى ») تعنى « تجارة » أو « ثمن الشراء » ولـكنها تطلق أيضاً على الماشية . والـكلمة السلافية skotŭ (ولعلها مستعارة من الجرمانية : فى القوطية skatts « نقود ») تطلق منذ أقدم النصوص على « الماشية » وعلى « الثروة » معاً .

فنرى هنا أن بعض العوامل الاجتماعية تتدخل فى تطور المفردات ، تلك العوامل التى لم نكن قد قابلناها حتى الآن إلا مصادفة . وستظهر فى صورة أوضح فى الفصل التالى .

الفصل الثالث

كيف تغير الأفكار أسماءها

نشرت دراسات عديدة تبين كيف تغير الألفاظ معانيها . ولكن هذا السؤال يمكن أن يدار على وجهه الآخر . فهناك مجال أيضاً لدراسة كيف تغير المعانى الكلمات ، أو بعبارة أصح كيف تغير الأفكار أسماءها .

إذا قارنا مجموعة المفردات فى عصرين متباعدين من تاريخها ، أدهشنا مقدار الخلافات التى نعثر عليها فى مصير الكلمات . لنقابل مثلا بين المفردات الفرنسية والمفردات اللاتينية أو بين المفردات اللاتينية والمفردات الهندية الأوربية ، وسنجد أن بعض الكلمات التى تدلّ على أشياء واحدة قد استمر بقاؤها باطراد تام ، غير خاضعة إلّا للتغيرات الناجمة من التطور الصوتى ؛ وأن بعضها الآخر قد جدّد مرة أو أكثر من مرة . فقد استعضنا عن كلمة chef القديمة المأخوذة من اللاتينية caput بكلمة جديدة هى tète « رأس » من testa ، وهـــذه بدورها كثيراً مايستبدل بها كلمات أخرى فى اللغة الشعبية ، مثل : caboche و fiole و bobine الخ . والإغريقية الحديثة جددت مفردات قديمة من تلك التى يكثر دورانها على الألسن أى التى يظن أنها أقل تعرضاً للتغير من غيرها : فهى تقول اليوم ψωμί بدلاً من ἄρτος « خبز » و χρασί بدلاً من οἶνος « نبيذ » و νερό بدلاً من ὕδωρ « ماء » و σπίτι بدلاً من οἰχία « بيت » و ματι بدلاً من ὀφθαλμός « عين » و πουλί بدلاً من ὄρνις « طائر » الخ .

وإذا درسنا المفردات فى جميع اللغات التى نعرف تاريخها ، أمكننا بكل يسر أن نكون مجاميع من هذا القبيل ؛ لأن المفردات فى كل اللغات قد خضعت لهذا التجديد إن قليلا وإن كثيراً . وأسباب هذا التجديد معقدة ؛ وأحياناً تندّ عن كل

بحث . ذلك لأن حالات الكلمات جدّ غريبة ، تتوقف على عوارض يستحيل أن نتنبأ بها قبل وقوعها كما يستحيل أن نتخيلها بعد وقوعها إذا لم يمدنا التاريخ بما يدل عليها . ومع ذلك فهناك أسباب عامة لتجديد المفردات ، تستطيع أن تفسر الجزء الأعظم من حالاتها . ويمكننا اعتبار هذه الأسباب من وجهين : من وجهها الفردى فى سيكلوجية المتكلم نفسه ، ومن وجهها الاجتماعى فى الاستعمال اللغوى الذى تقوم به البيئات الاجتماعية .

* * *

يتخلص المتكلم عادة من الكلمات التى لم تعد كافية للتعبير عن المعنى الذى نيط بها التعبير عنه ، لأنها ضعفت وبليت . وهذا البلى نفسه يمكن أن يرجع لأسباب صوتية أو لأسباب معنوية .

الكلمات القصيرة ينقصها التعبير غالباً . وإذن فالتغيرات الصوتية بتقصيرها للكلمات تعرضها للبلى . لذلك لم يعد عندنا فى الفرنسية ولا فى أية لغة رومانية أخرى ، أثر للكلمة اللاتينية os « فم » . واستعضنا عن الكلمة القديمة ive (من equa) بكلمة jument « فرس » التى هى أقوى منها بنية . ونعرف أن اللاتينية العامية اضطرت إلى إطالة بعض الكلمات بواسطة اللواحق لتحفظها من الضياع : فالكلمات opis ، auris و sol صارت apicula و auricula و soliculus ، ومنها جاءت الكلمات الفرنسية abeille « نحلة » و oreille « أذن » و soleil « شمس » . فاللاحقة هنا ليست لها أية قيمة تصغيرية ، كما قيل أحياناً ؛ بل القصد منها إنما هو تزويد الكلمات بالحجم ، أى بالمادة التى كانت تنقصها . ولولا عملية التطعيم اللغوى تلك ، لمات عدد كبير من الكلمات بعد أن لفظها الاستعمال ؛ ومثل ذلك كلمة ains التى يبدو أن لبروير La Bruyère كان يأسف عليها ؛ فإذا كانت هذه الكلمة قد هجرت ، فذلك بسبب صيغتها ؛ فهى وحيدة المقطع ، وتبدأ بحركة وتتكون فقط من حركة أنفية ، فكان مصيرها الهلاك .

هناك أيضاً ميل لطرح الكلمة التى صارت ، بسبب عوارض صوتية ، كبيرة

الشبه بغيرها . فنعالج العقبات الناجة من تشابه الكلمات بواسطة الاستعاضة عن إحدى هذه الكلمات بكلمة جديدة . ومثل ذلك الكلمة التى تمثل صوتياً الكلمة اللاتينية serrare « ينشر » ، فإنها لم تبق حتى اليوم إلا فى أماكن متفرقة من الأقاليم المتكلمة بالفرنسية ،(١) وكانت من قبل ذات ميدان انتشار متراى الأطراف متلاصق متجانس . فإذا كانت قد استعيض عنها فى كثير من الأماكن بكلمات متأخرة عنها فى الاشتقاق ومأخوذة من الأصول اللاتينية secare أو resecare أو sectare فذلك لأنها كانت تشبه الفعل serare « يغلق » شبهاً يكاد يكون تاماً ، وكان هذا الشبه يتقدم شيئاً فشيئاً نحو التماثل الكامل . ونشأ عن ذلك شىء من العسر حاولت اللغة أن تتخلص منه فى كل الأماكن التى كانت تستعمل الفعلين معاً .

يرجع التجديد فى هذه الحالات جميعاً إلى عارض صوتى . ومع ذلك لا ينبغى أن نبالغ فى أهمية الصوتيات . إذ من النادر أن تستطيع وحدها تفسير كل شىء . فالكلمات التى تركها الاستعمال لصيغتها كانت تحتوى أحياناً على دواعى أخرى لهذا الترك . واللغات نفسها كثيراً ما تقاوم . فالسياق يحمى الألفاظ المتماثلة من خطر اللبس؛ وهذا يسمح بالإبقاء عليها دون إضرار . وتستطيع اللغة حماية الكلمات القصيرة وتعضيدها بأن تسندها بكلمات أخرى بصفة دائمة . فالصفتان sain «سليم» و sauf « معافى » ، لا توجد إحداها بمعزل عن الأخرى بل تتحدان معاً ؛ وبهذا تأتى لهاتين العاجزتين أن تقويا على المقاومة : فيقال sain et sauf « سليم معافى » . وليس أعلام الأماكن من الأسماء التى يسهل على الإنسان أن يتركها للضياع : فإذا كانت وحيدة المقطع حاولت اللغة أن تحافظ عليها بأن تضيف إليها أسماء مشتركة تسندها : وبذا صارت الكلمات ain « اسم نهر » و Eu « اسم مدينة » و Batz « اسم قرية » على الصورة الثانية : la rivière d'Ain « نهر الإين » و la ville d'Eu « مدينة أو » و la bourg de Batz « قرية باتز » ، وأحياناً بإضافة عنصر إليها يمد من طولها : فيقال فى Bourg (اسم مدينة

(١) جليرون : رقم ٧٥ .

« بور ») Bourg -en- Bresse (أو أن يقال بكل بساطة Bourk بنطق الكاف المتطرفة : بورك) : هذه كلها أنواع يعالج بها البلى الصوتى .

وليس البلى المنوى أقل خطورة من ذلك . فكثرة الاستعمال تبلى الكلمات فى معناها وفى صيغتها ؛ ولا سيما إذا كانت من الكلمات المعبرة ، لأن قيمتها التعبيرية تتضاءل بسرعة فى الاستعمال . فتصبح الكلمة معتمة بالية . وفى حالة التعبير عن انفعالات النفس مثلا ، نرى أقوى الكلمات تخطو نحو الخمول شيئاً فشيئاً حتى تنتهى بالإهمال ، لأنها لم تعد معبرة . ويمكننا تحقيق هذه الحقيقة فى حالة التعبير عن الكمية ، ولا سيما الكمية الكبيرة ، وبالتالى عن التجاوز والخروج عن الحدّ . فالكلمة الفرنسية beaucoup « كثير » حلّت محل الكلمة القديمة moult (من multum) ؛ ونحن نعرف أن beaucoup نفسها قد استعيض عنها فى اللغة الجارية بعدد كبير من الأبدال : مثل un grand nombre « عـــدد كبير » و une foule « جمهور » و des quantités « كميات » و des tas « أكوام » و des flottes « أساطيل ، الخ ؛ وذلك تبعاً لموضوع الكلام ولدرجة التعليم عند المتكلم أيضاً .

فى كل اللغات التى لا تميز التفضيل المطلق بإضافة لاحقة خاصة ، وإنما بإضافة ظرف إلى الصفة ، نرى هذا الظرف نفسه يتخذ له على العموم صيغاً متنوعة . بل إن استعمال الظرف لم يكن منعدماً فى الإغريقية القديمة نفسها رغم وجود اللاحقة الدالة على التفضيل المطلق فيها : فكان يقال فى الإغريقية : λίαν, πολύ, ἐπιπολύ, σφόδρα, σφόδρως, μάλα, μάλιστα, وغيرذلك، وفىاللاتينية ualde ، magis ، maxime ، الخ (قارن ماتقدم فى ص ٢٦٢) . وفى الفرنسية خلقنا الظرف très « جداً، يتجاوز » وهو عين الكلمة اللاتينية trans «عبّر ، من خلال ، فيما وراء » (لاحظ هذا التطور نفسه فى الإنجليزية thorough, thoroughly « تماماً » وفى الألمانية durch und durch و durchaus « كليةً ») . ولكن très أصبحت اليوم مبتذلة وفقدت كثيراً من قوتها ، فأصبحت لاتكفينا فى إعطاء التفضيل المطلق قيمته اللائقة به . لذلك نرانا نقول عن إنسان مثلا بأنه archifou

« مجنون للغاية » أو ultra - réactionnaire « رجعي فوق الحد » أو تستعمل ظروفاً مثـــل parfaitememl « تماماً » أو complelement « كلية » أو absolument « مطلقاً » أو tout à fait « للغاية » ، الخ . ووفرة ظروف التفضيل تلك في الفرنسية أمر معروف ؛ حتى لقـد يتعذر إحصاؤها ، لأن كل شخص يخترع منها ماشاء له هواه . وبعض هذه الظروف يمكن أن يفسر من تلقاء نفسه ، مثل grandement ، fameusement ، extraordinairement épatamment . ولـكن الصفة التي اشتق منها الظرف كانت تضعف بقـدر ما كانت تقوى القيمة التفضيلية . فكأن العقل قد أهمـل الأصل ليركز انتباهه في اللاحقة ment — التي أصبحت جزء الـكلمة الرئيسي . ويكفي للتعبير عن التفضيل المطلق على وجه العموم أن يدل الأصل على شيء فيه فـكرة القوة والخشونة أو الغلظة ؛ ومن ثم استعملت للتعبير عن التفضيل المطلق هذه الظروف : rudement ، salement ، bonnemet ، terriblement ، furieusement effroyablement الخ .

وهذا غير مقصور على الفرنسية . فالألمانية المتداولة قد تصف امرأة بأنها لطيفة بإزعاج ، بشكل مزعج ، يعني « لطيفة جداً » أو furchtbar nett furch-tbar süss « حلوة بشكل مزعج » ، وتستعمل عبارات مثل hübsch artig « خبيث بشكل جميل ، خبيث جداً » و hübsch gesund « سليم بشكل جميل ، سليم جداً .. » ؛ وذلك كما تقول الإنجليزية pretty dirty (قذر بشكل لطيف « قذر جداً ») . ولما لم يكن في الألمانية والإنجليزية علامة خاصة توصل بالظرف ، كانت قيمة الـكلمات furchtbar و hübsch و pretty متوقفة فقط على مكانها ونبرها وعلى كونها لاتنفصل من الصفة التي تتبعها والتي تكون معها كلمة واحدة بالنسبة للعقل . فنحن في الواقع أمام خلق لدالة نسبة ، ولـكنها دالة نسبية تعبيرية (أنظر ١٨٠ ، ١٨٦) .

كل الكلمات التي لها قوة تعبيرية أيا كانت ، معرضة لضعف قيمتها ، وهذا بدوره يبعث على التجديد . وكم في كل لغة من عبارات تدل على شيء كريه ثقيل ؟

يقال فى الفرنسية وحدها ennyuant ، embêtant ، fatiguant ، crispant، esquintant ، étreintant ، assommant ، tuant ، rasant ، barbant ، canulant ، الخ ، وهى كلمات غير مترادفة وتنتمى إلى لغة أوساط متنوعة ، ولكنها جميعاً تتنافس فى الدلالة على ما تدل عليه ، وستبلى هى الأخرى أيضاً بكثرة الاستعمال حتى يضطر الحال إلى اختراع غيرها .

إذا كانت الفكرة أو الشىء من الأفكار أو الأشياء التى تثير إلى جانب قيمتها الأساسية قيما ثانوية تبعاً للأوساط والظروف ، وجدنا عنها فى اللغة عبارات متنوعة . وتدخل النقود فى هذه الأشياء ، فلها فى كل لغة عبارات عديدة . فيقال عنها فى الفرنسية : de la galette , de la braise, du pognon , de la douille , du beurre , de l'os , du pèze , du plâtre ، الخ ؛ وفى الألمانية تستخدم الكلمات Draht , Kies , Moos مرادفة للكلمة Geld . وبالطبع يعبر عن فعل « نقد » بصور مختلفة تبعاً للأوساط ؛ فيقال فى الفرنسية verser و casquer و cracher و éclairer ، الخ ، وفى الألمانية blechen و bluten و berappen . ونجد فى اللغات المختلفة للتعبير عن فكرة « يخدع » tromper صوراً متنوعة من هذا القبيل . والضوضاء تنجم عن أسباب مختلفة ، ومن ثم تنوعت طرق التعبير عنها : فيقال فى الفرنسية du potin , du barouf , du chahut , du raffut , du pétard , du chambard؛ وفى الألمانية Radau و Randal و Krakehl ، الخ .

قد يحتج بأن الكلمات التى ذكرت هنا ، كلها من العامية الخاصة argot ، والعامية الخاصة تنحصر فى استعمال مفردات خاصة . ولكن هذا احتجاج باطل ، لأن العامية — كما سنرى فى فصل لاحق — تنتج من ظروف طبيعية للغة ؛ واللغة الخاصة ليس معناها لغة اصطناعية بأية حال . فمسالك العامية الخاصة مسالك طبيعية لا غبار عليها . وإذا كانت الحاجة إلى التجديد أظهر فى العامية الخاصة منها فى غيرها ، فرجع ذلك إلى استعمال هذه العامية الخاصة لغة للكلام ، والتعبيرية فى لغة الكلام ضرورة دائمة (أنظر الفصل الثانى من الجزء الرابع) .

على أنه لا يوجد حدّ فاصل بين العامية الخاصة وبين اللغة التي يتكلمها جميع الناس . فكم من ألفاظ ، تعدّ من أنبل الكلمات وأوغلها فى الروح الأدبية ، قد استعيرت من العامية الخاصة ! من ذلك كلمة tête «رأس» بالنسبة لكلمة caput : وإذا انتزعت tête من عرشها يوما لتحل محلها bobine أو fiole ، كان ذلك انتصاراً جديداً تسطّره العامية الخاصة فى قائمة انتصاراتها . فتسمية الرأس باسم إناء من الآنية أمر طبيعى وقع فى لغات أخرى ، ولا سيما فى الجرمانية ، حيث تشترك كلمة Kopf « رأس » مع الكلمة اللاتينية cupa فى أصل واحـــد ، والاسكندناوية اشتقت kollr « رأس » من kolla « إناء » . وأسماء أجزاء الجسم كثيراً ما تبعث على استعمال استعارات من هذا القبيل ؛ وإن لم تكن كلها فى ذلك سواء . فاسم « القـَدَم » مثلا قد بقى واحداً لا يتغير فى كثير من اللغات ، ولـكن اسم السيد تجدّد أكثر من مرة ؛ واستعيض فى الدلالة عليها بأسماء تدلّ على الـكلاّبة واللقط والملعقة ، الخ [١] . ويرجع ذلك إلى أن اليد تستخدم فى أمور أكثر تنوعا من القدم ، وخاصة فى أمور تبعث هى نفسها على التجديد فى التعبيرية . فلفكرة الأخذ مثلا عبارات عديدة فى كل اللغات .

فكرة « التكلم » أيضاً تختلف بدورها باختلاف العواطف التى تثيرها [٢] . والأفعال التى معناها « تـكلم » تبلى بسرعة . فها نحن أولاء فى سبيل إحلال causer محل parler « يتكلم » . والفعل parler نفسه دخيل متأخر على اللاتينية (parabolare) ؛ أما الفعل القديم loqui فقد مات منها ؛ وهذا الفعل loqui نفسه كان تجديداً فى اللاتينية (أو الإيطالية الكلتية) فى معنى « يتكلم » العام . واللغات الكلتية الحديثة الأساسية الثلاث تستعمل للتعبير عن هذه الفكرة ثلاثة أفعال مختلفة هى : labhraim فى الإرلندية و siarad فى الغالية و komps فى البريتانية ؛ ويقال فى الإنجليزية speak وفى الألمانية sprechen وفى القوطية

---

(١) أولسين Uloszyn ، رقم ٣٣ ، مجلد ٢ ، ص ٢٠٠ .

(٢) ميشيل بريال Michel Bréal ، رقم ١٢ ، مجلد ١٤ (١٩٠١) ، ص ١١٣ ؛ وكارل د. بك Karl D. Buck ، رقم ١٩ ، مجلد ٣٤ ، ص ١ — ١٨ و ١٢٥ — ١٥٤ ، ا . مييه : رقم ٦ ، مجلد ٢٠ (١٩١٦) ، ص ٢٨ .

mathljan وفى اللتوانية tarti أو kalbéti وفى السلافية المشتركة glagolat[1] (فى الروسية molvit'، govorit' وفى البولونية moivic' ؛ وكل هذه الأفعال حديثة العهد نسبياً فى اللغات التى تستعملها ، كما كان الفعل ἀγορεύειν فى إغريقية هوميروس على وجه التأكيد . فوجود هذه المجموعة الكبيرة ، التى يمثلها هذا الفعل ، يفسر بالبلى المعنوى الذى يضطر إلى التجديد .

وأحياناً يرجع التجديد إلى الرغبة فى المخالفة . فهناك أشياء تُسلك أزواجا ويصرّ الذهن على التفريق بين أفرادها إلى حدّ أنه إذا تشابه اسما فردَيْن من هذه الأشياء نتيجة مصادفة ما ، اختفى أحدها وحل غيره محله ليبقى التميز بين السميين واضحاً . هذه هى الحال مع التميز بين الجنسين فى بنى الإنسان وفى الحيوان . والزوج الأساسى الذى اتخذ مثالا يحتذى فى كل ما عداه ، هو الأب والأم اللذان لها فى كل الحالات وفى كل الأماكن اسمان مختلفان (من حيث الأصل بالطبع) . ووفقاً لهذا المثال سمّي عدد آخر من الأزواج بأسماء مختلفة : الزوج والزوجة ، الأخ والأخت ، العم والعمة ، الخ . وأغلب الظن أن الاحتفاظ بهذه المخالفة على هذا النحو من العناية يرجع إلى ميل عام فى الذهن . وقد احتفظت الفرنسية بالكلمتين fils « ابن » و fille « بنت » اتباعاً للاتينية ، ولكنها عند مقابلة الجنسين أحدهما بالآخر، لا تستعمل الآن fils «ابن» بل garçon «صبى»، فيقال: filles et garçons « بنات وصبيان » . هذا إلى أن اللاتينيين بخلقهم للزوج filia ، filius ، قد خالفوا الاستعمال الجارى فى الهندية الأوربية ، هذا الاستعمال الذى احتفظت به اللغات الجرمانية والسلافية وكذلك الإغريقية . فالكلتية لم تبق الأسماء القديمة ، ولكنها احتفظت بالمقابلة ؛ فى الإرلندية mac ، وفى البريتانية map « ابن » وفى الإرلندية ingen وفى البريتانية merc'h « ابنة » .

الكلمة اللاتينية dominus « سيد » ومؤنثها domina « سيدة » قد أصبحتا فى الفرنسية صيغة واحدة كان المقصود منها أن تطلق على الجنسين . وقد بقيت لنا ذكرى من dame مذكراً فى صيغة التأفف dame المختصرة من عبارة Dame - Dieu « السيد الإله » وفى اسم vidame « نائب السيد

(وهو لقب لنائب الأسقف فى الأمور الدينة قديماً) » ؛ ولكنها ليست أكثر من ذكرى . فلم يبق إذن فى اللغة إلا الكلمة المؤنثة وخلق لها مذكر جديد هو monsieur«سيد».وقد وقع هذا الشيء بعينه فى الألمانية :فالكلمة الألمانية Frau « سيدة » (frouwa فى الألمانية العليا القديمة) كان لها مذكر إلى جانبها ، وهو frô (فى القوطية frauja) . وقد مات هذا المذكر ضحية أيضاً لشدة شبهه بالمؤنث الذى يقابله . وتستعمل الألمانية اليوم Herr « سيد » فى مقابلة Frau كما تستعمل الفرنسية monsieur فى مقابلة madame والإنجليزية gentleman فى مقابلة lady .

وهذه المقابلة شائعة فى أسماء الحيوانات . فاللاتينية تقول equus، equa ، ولكنها تقول taurus و vacca ، aries (أو uerucx) و ouis ، catus و feles ؛ uerres و scrofa . والفرنسية تقابل cheval « حصان » بـ jument « فرس » ، كما تقابل الألمانية : Pferd بـ Stute والإنجليزية horse بـ mare . ومع ذلك كان فى وسعنا أن نقول chevale « حصانة » كما نقول chatte « قطة » أو chienne « كلبة » . ونحن كذلك الذين خلقنا le mouton « الخروف » و la brebis « النعجة » ، le bouc « الجدى » و la chèvre « العنزة » ، le porc « الخنزير » و la truie « الخنزيرة » ، le cerf « الوعل » و la biche « الوعلة » ، le sanglier « الخنزير البرى » و la laie « الخنزيرة البرية » ، le coq « الديك » و la poule « الدجاجة » ، le lièvre « الأرنب البرى » و la hase « الأرنبة البرية » . فهى صورة خاصة من الإحساس بتقابل النوعين ، تلك التى تلعب فى كثير من اللغات دوراً هاماً .

* * *

لا تستطيع السيكولوجية ، حتى فى الأمثلة السابقة ، أن تفسر لنا كل شيء . فالبلى الذى يصيب الكلمات يرجع دائماً ، ولو بمقدار قليل ، إلى البيئة الاجتماعية التى تستعملها . وإذن يجدر بنا أن نناقش مسأله تجديد المفردات من الوجهة

الاجتماعية . فالأسباب الاجتماعية واضحة جداً فى تغير الـكلمات مراعاة للياقة [1]. إذ ليس من اللائق أن يتكلم فى أحد المجتمعات عن أفعال معروفة بالفظاظة أو بأنها مما يجرح الحياء ، وتستبعد الألفاظ التى تعبر عنها من بين المفردات التى يستعملها الأشخاص المهذبون . فللتعبير عن هذه الأفعال عبارات متنوعة تبقى مستعملة حتى تصير بدورها خشنة وجارحة للأذن . لذلك لم نستبق نحن كلمة واحدة من من مشتقات الفعل اللاتينى mingere « يبول ؛ والفعل pisser الذى استعضنا به عن السابق لم يعد هو الآخر يستعمل فى مجتمع راق ، بل يستعاض عنه بالفعل uriner الذى هو أقل منه خشونة . ولم يُنج الفعل vomir « يقىء » من الضياع إلا ما له من صفة طبية ؛ ولـكنه تعبير خشن ويستعاض عنه بأبدال مثل : rejeter و rendre و s'expliquer الخ . والألمانية أيضاً تستعيض عن ausbrechen بـ sich über- geben .

والذى يقطع بكون الـكلمة لائقة أو غير لائقة إنما هو العرف . واللفظ بذاته يختلف حاله فى إقليم عنه فى الآخر . فـكلمة pissoir « مكان البول » فى الألمانية أقل منها جرحاً للأذن فى الفرنسية : لأن إستعارة كلمة من الخارج تخفف من افتضاح الشيء الذى يعبر بها عنه ؛ فهى تلعب دور الـكناية . وهناك أفكار يعبر عنها غالباً بالـكناية ؛ ومنها فكرة الموت ، فبدلاً من mourir « يموت » تقول الفرنسية périr « يفنى » ، passer « عبر » ، trépasser « يعبر » ، décéder (معناها الأصلى « يذهب ») ، s'endormir « ينام » rendre son âme à Dieu « رد روحه إلى الله » ، الخ ؛ أو تستعمل فقط partir أو s'en aller « ينطلق » ، وكان يقال فى القوطية usqiman ، ويقال فى الألمانية vergehen ، erblassen ، verbleichen . هذه العبارات المخففة تصور شبح الموت فى صورة أقل إيلاما .

عدد الـكلمات الجارحة وطبيعتها يختلفان باختلاف البيئات والعهود . فيزداد عددها بالطبع فى عصر الرقة حيث يصطبغ المجتمع بالصبغة التى تضفيها عليه النساء . ويصل الحال إلى التضييق من دائرة المفردات شيئاً فشيئاً ، حتى لا يتكلم

---

(١) انظر هـ . شلتس H.Schulz ، رقم ٦٠٦ ، مجلد ١٠ ، ص ١٢٩ — ١٧٣ .

الناس إلاّ تلميحاً . ولما كان يتحتم عليهم دائماً أن يجدوا كلمات للأشياء كلما دعت إلى ذلك فرصة ، فإنهم يضطرون إلى تجديد المفردات .

وقد عدل الأطباء منذ حين عن استعمال كلمة « عملية » opération التى صيرها الاستعمال قاسية مخوفة . لا يسمعها المريض حتى يتصور الآلات الرعبة والملابس الملوثة بالدماء والجسم وقد طواه الألم طيا . فكلمة opération « عملية » ضحية الصور التى تثيرها . لذلك يسود الميل إلى الاستعاضة عنها بكلمة intervention «تدخل» لأنها أنضرجدة منها ، وأكثر تحفظاً وأشد غموضاً أيضاً ، لايهلع لسماعها قلب المريض . والكناية euphémisme ليست إلا صورة مهذبة متحضرة مما يسمى تحريم المفردات (انظر ص ٢٣٧) . فكثيراً ما يقع لدى المتوحشين أن يكون لبعض الألفاظ طابع من السرية والخفاء يمنع بعض الأفراد من استعمالها . ولكن ليس فى لغاتنا الأوربية شىء من هذا التحريم . فقد قضت المدنية على تلك البقايا المتبربرة . غير أننا إذا رجعنا إلى تاريخ أكثر اللغات مدنية ، وجدنا حوادث من هذا التحريم لا تقل صراحة عما عند الأمم المتوحشة [1] .

تعد الجهة اليسرى عند كثير من الشعوب جهة السحر ، جهة القوى الخفية التى لا يحسن إيقاظها . لذلك كثيراً ماقضى بالتحريم على اسم اليسار وكانت نتيجة هذا التحريم الاضطرار إلى استعمال العبارات الملفوفة والاستعارات للتعبير عن اليسار . فإن كان العدد الأكبر من اللغات الهندية الأوربية قد احتفظت لذلك بكلمة واحدة للدلالة على اليمين ، فإنها تستعمل للدلالة على اليسار كلمات متنوعة ، لاتستعمل الكلمة منها فى غالب الأحيان فى أكثر من لغة واحدة أو لغتين ، وهى حتى فى هذه اللغات نفسها قد تعرضت بدورها للاقصاء والاستبدال .

آكد علامة للدلالة على التحريم الذى أصاب بعض الأفكار أو بعض الأشياء هو وجود الاستعارات (مثل εὐφρόνη « الناصحة الأمينة » أو ἀβρότη « الذى لا أحد فيه ليلا » . ولكننا قد نجد هذه العلامة أيضاً فى تنوع العبارات

---

(١) ميّه : Qnelques hypothèses sur les interdictions de vocabulaire dans les langues indo - europopéennes (عام ١٩٠٦) .

التي تستخدم للدلالة[1]. ففي الإرلندية اثنا عشر اسماً للدب ومثلها « للسالمون » : ونحن نعرف ، من مصادر أخرى ، أنهما من الحيوانات التي جعل منها الخيال الشعبي تابوهات tabous . وحيوانات الصيد على العموم تحاط بقوى سحرية ، فما أكثر تابوهات الصيادين . كذلك يُدلّ بالمترادفات في غالب الأحيان على الحيوانات البرية .

لا ينحصر الأثر الناجم من تحريم المفردات في استبدال كلمة مكان كلمة فحسب بل يتعداه أيضاً إلى تشويه الكلمات الموجودة . فتغيير حرف من الكلمة أو نقله يخفف ما تنطوى عليه من الخطر أو مما لا يليق دون أن ينقص ذلك من قيمتها الدلالية . وفي استطاعة كل إنسان في هذه الحال أن يفهم المراد على الفور . فالحجاب لايستر إلا الجهات الجارحة والمؤذية للحياء ، ويشفّ عن معالم الكلمة الكبرى ولونها العام . ونرى الشتائم في كثير من اللغات تصاب بشيء من التشويه المقصود الذى يمكّن من إدخالها في أرق الأوساط ؛ مثل bigre أو fichtre ويقال : palsambleu ، parbleu pargnieu ، pardienne ، بدلا من par le sang de Dieu « بدم الإله » أو par Dieu « بالله » .

ولما كانت أسماء المثالب والعاهات معرضة للنهى بشكل خاص ، فلا ينبغي أن ندهش حين نرى الجرمانية تشتق من أصل واحد يدل على عاهة جسمانية ثلاث كلمات مختلفة ، وذلك بتعديل عناصره الصوتية ؛ وقد احتفظت القوطية بهذه الكلمات الثلاث : daufs ، bauths ، dumbs ، وتدل بالترتيب على الصمم والبكم والحماقة (لم يبق منها في الألمانية إلا اثنتان : taub « أصم » و dumm « أبكم ») . والأمر هنا يدور حول أصل واحد بقي منه أحد المشتقات في الكلمة الإغريقية τυφλός « أعمى » (أنظر ص ٢٦٠) .

هناك أصل هندى أوربي بمعنى « قاع أو عمق » ومنه الكلمة الفرنسية monde « عالم » . هذا الأصل يقدم لنا في اللغات الهندية الأوربية المختلفة تشويهات فريدة في بابها . فقد أحصى منها ثماني صور أو تسع ، لا يختلف بعضها

---

(١) رينان Renan ، رقم ١١٠ ، ص ١٤٢ .

عن بعض إلى فى تطبيق قوانين المخالفة أو المماثلة أو النقل المكانى المعروفة أو باستعمال لاصقة داخلية أنفية . ونعنى بذلك الأسرة التى تنتمى إليها الكلمتان الأغريقيتان ἄβυσσος و πυθήν والكلمة اللاتينية mundus والإرلندية domun والغالية - annwfn والسلافية القديمة dŭno ، الخ . وليس من شك فى أن تغيرات هذا الأصل ترجع إلى أسباب دينية . فالكلمة التى تدل على القاع ، وبطريق التوسع على العالم كان مقضياً عليها بالتحريم ، وكان يتجنب النطق بها . فلأجل إمكان سماعها دون خطر أجروا فيها تغييرات تجردها من الأذى دون أن تقضى على إمكان فهمها[١] . ومما تجدر ملاحظته أن هذه التغييرات مما تحدث طبيعية فى اللغة ؛ إذ ترجع كلها إلى تلك التغيرات التى سميناها فيما سبق بالتغيرات التركيبية (أنظر ص ٩٤) . فكأن اللسان قد زلّ وهو ينطق الكلمة التى نحن بصددها ؛ ولكن الخطأ هنا متعمد . وهذا هو استخدام الحذف والنقل المكانى لغايات خفية أو مراعاة اللياقة[٢] .

* * *

يجب ألا نهمل من حسابنا عند دراسة الأسباب الاجتماعية التى تؤدى إلى تجديد المفردات نوع النشاط الذى يمارسه المتكلمون . فالكلمات التى تنتمي إلى نشاط المجموعات الاجتماعية (عقلياً كان أو يدوياً) يطلق عليها كلمات الحضارة.

كلما تحقق أى تقدم فى الصناعة الإنسانية ترجم عن نفسه باستعمال آلات وإجراءات جديدة يقابلها خلق كلمات جديدة بقدرها .

التغيرات التى تطرأ على الآلات تنعكس فى المفردات بطبيعة الحال . فالجرمانية المشتركة كانت فيها كلمة تدل على الخبز ، نعثر عليها فى الفترة القديمة لكل لهجة من لهجاتها ، وهى فى القوطية hlaifs (فى حالة الإضافة hlaibis) . وكان لهذه الكلمة من الأهمية بقدر ما للشيء الذى تدلّ عليه . وقد استعارها اللتوانيون والسلافيون . ويشهد بأهميتها فى الجرمانية نفسها عدد المركبات التى اشتقت منها:

(١) فندريس : رقم ٦ ، مجلد ١٨ ، ص ٣٠٨ .

(٢) نجد أمثلة من هذا التشويه الذى يرجع إلى مراعاة اللياقة أو الآداب فى كاديير Cadière ، رقم ٥٨ ، ص ٣٠ .

فى الإنجليزية القديمة hlâfward « حارس الخبز » (فى أيامنا هذه لورد) و hlœfdige « عاجنة الخبز » (فى أيامنا ليدى lady) وفى النروية القديمة : witandahalaiban « إلى سيد الخبز » (فى نقش مكتوب بالحروف الرونية ، وهى أقدم الكتابات الجرمانية) . ولكن هذه الكلمة كانت تدل على الخبز غير المختمر . فلما اهتدوا إلى تخمير العجينة ، اضطروا إلى استعمال اسم جديد للدلالة على هذا الإجراء الجديد فى صنع الخبز . فكانت كلمة brôt فى الألمانية العليا القديمة ، braudh فى الإسلندية القديمة ، وهى كلمة غير موجودة في القوطية ، ولا يعثر عليها في الإنجليزية القديمة إلا في عناء كبير .

وقد بقيت الكلمتان المتنافستان في اللغات الجرمانية الحديثة ، ولكن أحدثهما هى الأكثر أهمية : فهى الكلمة الألمانية Brot « خبز » والإنجليزية bread ، أما الثانية فبقيت كلمة شبه شعرية أو للاستعمال في معنى خاص ؛ وهى loaf (الجمع loaves فى الإنجليزية و Laib في الألمانية ، ومعناها « رغيف » . فخلق كلمة جديدة لا يتحتم عليه هلاك القديمة ، ولكنه يقذف بها غالباً فى جزء خاص من المفردات .

اسم الحصان يتجدد فى معظم اللغات الهندية الأوربية . فالكلمة القديمة الواردة فى أقدم عهد للسنسكريتية (açvas) والإغريقية (ἵππος) واللاتينية (equus) والكلتية (فى الإرلندية) ech والجرمانية (فى القوطية aihva) لم تبق فى أية لهجة من اللهجات المتفرعة من هذه اللغات . فالسنسكريتية الكلاسيكية تستعمل hayas أو ghotah (ghotakas) والإغريقية الحديثة تقول ἄλογον ؛ والفرنسية قد استعاضت عن equus بـ cheval ؛ وفى اللغات الكلتية نجد marc و gearran و capall (فى الإرلندية) و amws و ceffyl و gorwydd (فى الغالية) marc'h و ronsé والجمع kezek (فى البريتانية) ؛ والألمانية تستعمل Pferd على حين تستعمل الإنجليزية horse ، وهما كلمتان جديدتان فى الجرمانية . واللغات البلطية والسلافية قد خلقت لنفسها كلمات مختلفة خاصة بها : فى اللتوانية orklys أو irgas̆ ، وفى السلافية loshadĭ أو konĭ . وكذلك فعلت الأرمينية ، إذ تقول:

arivar . فنحن أمام تحول عام . لا يمكننا أن نفسّره بأسباب سحرية يمكن أن تكون قد قضت على الكلمة القديمة بالتحريم . فتجديد الكلمة يمكن أن يرجع إلى وجود خيل مختلفة الأجناس ، يهم الشعوب المنية بالتربية أن تميز كل نوع منها . ولكن هذا السبب لا يكفي ؛ لأن اسم الكلب ، وأنواعه عديدة أيضاً ، أكثر ثباتاً من ذلك . فالفرنسية لا تزال تقول chien والألمانية Hund والإنجليزية hound والبريتانية ki واللتوانية szů والأرمينية shun ، وكلها تنتمي إلى أصل واحد . فإذا كان اسم الحصان قد جُدّد في كل مكان تقريباً ، فذلك لأنه يستخدم في مهام كثيرة : فهناك حصان الركوب وحصان الجر وحصان الحرث وحصان الحرب ، فعبّرت الطبقات الاجتماعية المختلفة عن هذه الوظائف المتنوعة بكلمات خاصة . والإغريقية القديمة تستعمل παρήορος للدلالة على cheval de voleé(١) أو cheval de main . وحتى في الاستعمال الحربي يحمل الحصان أسماء مختلفة باختلاف الأعمال التي يؤديها : فحصان القتال destrier غير حصان الاستعراض palefroi . وما أكثر أسماء الحصان في ألمانية العصور الوسطى ، وكلها أسماء مستحدثة : ففيها mòr (من اللاتينية maurus) ، و pâge (من اللاتينية paganus) و burdihhin (من اللاتينية burdus) و soûmâri(من اللاتينية sagmarius) وأخيراً pferid الذي تقدّم ذكره (من اللاتينية paraueredus).

وما أعظم الفرق بين اسم الحصان في طواعيته للتجديد واسمي الثور والبقرة في بقائهما دون تغير في كل مكان تقريباً (في الإغريقية βοῦς وفي اللاتينية bos والألمانية Kuh والإنجليزية cow والإرلندية bó ، الخ) ، وذلك لأن الثور والبقرة مقصوران ، فيما عدا إنتاج اللبن ، على أعمال واحدة ويؤديان وظائف واحدة . ولكن يجدر بنا أن نشير إلى خلق بعض اللغات لأسماء خاصة تدل بها على الحيوان من جهة استعمال لحمه للأكل : ففي الإنجليزية beef ، وفي الألمانية (جزئياً على الأقل) Rind .

---

(١) المقصود به الجواد الذي يعلق في مقدمة العربة فيكون سابقاً غيره من الخيل . المعربان

تعدد الاستعمال يؤدى إلى خلق كلمات مختلفة . فإذا صرفنا النظر عما فى الفرنسية من عبارات العامية الخاصة التى تطلق على النقود (انظر ص ٢٧٤) ، وجدناها تستعمل عدداً كبيراً من الكلمات للدلالة على النقود بالنسبة للطائفة الاجتماعية التى تضاف إليها : ففيها les gages لأجرة الخادم و le traitement لمرتب الموظف و la solde لمرتب الضابط و le prêt لمرتب الجندى و les appointements للموظف فى غير الحكومة و les honoraires لأتعاب الطبيب أو المحامى و les émoluments لأجر صاحب الوظيفة العامة (كالمأذون مثلا) و le salaire للعامل و la paye لأجر المشتغل بانيومية و les rentes لدخل صاحب الدخل الثابت و les dividendes لأرباح الأسهم المالية و l'indemnité للمكافأة البرلمانية و les mensualités لشهرية الصحفى و le casuel لعوائد القسيس و les feux لأتعاب الممثل و le secours لما يعطى للمحتاج ، الخ . هذا فضلا عن الكلمات الناقصة مثل rétribution و subvention و gratification و allocation ، الخ . فى هذه المفردات المتنوعة ينعكس مجتمعنا الحالى فى تعقده . أما كلمة épices (بالنسبة للقاضى) وكلمة bénéfice (بالنسبة لرجل الدين) فقد أصبحتا لا تمثلان شيئاً ، إذ فقدتا المعنى الذى كان لهما فى النظام القديم .

واللتوانية ، وهى لغة شعب زراعى ، فيها خمس كلمات للدلالة على اللون الأشهب . ولكن هذه الكلمات ليست من المترادفات ، لأن كلا منها تقال عن شىء خاص : فيقال pilkas للصوف والأوز و szirmas أو szirvas للخيل و szèmas للبقر و zilas لشعر (الإنسان) والحيوان الداجن بما عدا الأوز والخيل والبقر . أما أسماء الألوان الأخرى ، وإن كانت أقل تنوعا ، ففيها مقابلات مشابهة ؛ فعند الكلام على البقر يقال žalas « أحمر » بدلا من الكلمة المعتادة raudonas ؛ ويقال dwrylas « أسود » بدلا من judas ، الخ . وفيها للدلالة على « المبقع أو الأبلق » عدد من الكلمات بقدر ما يوجد فيها من الفصائل الحيوانية . وهذا يستلزم قوما إخصائيين فى تربية الحيوان للون الوطاب عندهم أهمية كبيرة . فكل طائفة من مربى الحيوانات تميل إلى خلق مفردات خاصه بأسماء ألوان الحيوان الذى

يشتغلون به . وفى النهاية تستفيد اللغة المشتركة من هذا الانفصال الذى خلقته اللغات الخاصة .

فى كل العهود التى كونت فيها الأرستقراطية طبقة مغلقة تحيا حياة الصالونات وتمتز بجمال اللغة ، أدت هذه الحال إلى نشوء مفردات نبيلة أبعدت منها كل كلمة سوقية . يقول Duclos [1] : « وهم وإن استووا فى العقل مع غيرهم ظلت لهم (لطبقة البلاط) على غيرهم من سواد الناس ميزة التعبير بعبارات خير من عباراتهم وجمل أشهى إلى النفس . » . هذه المفردات المختارة التى كانت تسمح بتعيين طبقة المتكلم على الفور تبدو لنا اليوم كأنها كل ثابت وتعطينا فكرة الشيء الكامل المنتهى . والواقع أن هذه المفردات كانت تخلق يوماً بيوم من جمل عابرة تتفتح فى الصباح لتموت فى المساء : كانت تولد من تلميح من التلميحات أو من نكتة أدبية أو من حادثة تافهة اشتبك فيها أهل هذه الطبقة .

ونحن نعرف هذه المفردات اليومية مما كتب الكتاب عنها بقصد التهكم منها على وجه العموم . فوليير في سنة ١٦٥٩ يهجو في روايته les Précieuses-ridicules « المتساميات المضحكات » لغة الصالونات المتكلفة فى عصره . وبورسو Boursault فى Mots à la mode « كلمات موضة » فى سنة ١٦٩٤ ودلانفال d'Allainval فى l'Ecole des bourgeois « مدرسة الأعيان » فى سنة ١٧٢٨ يتهكمان بدورهما بلغة معاصريهما المصطنعة . وهذه الأنواع الثلاثة من المفردات يختلف بعضها عن بعض . وإذا تصفحناها رأينا مقدار السرعة التى بها يعلو نجم بعض الكلمات ثم ينخفض . فمدام جوس دى بورسو Josse de Boursault لا يدع لسانها استعمال كلمة joli « لطيف » ؛ وتستعيض عن كلمة grand « كبير » بكلمة « gros » [2] ؛ إذ يظهر أن هذه الكلمة كان لها حظ عظيم بين تلك الطبقة ، ولكن لمدة قصيرة فقط، لأننا نرى المحامى بريس Brice ، شقيق

---

(١) Considérations sur les mœurs الطبعة الخامسة ، باريس (١٧٦٧) ص ٢١١ .

(٢) برينو Brunot ، رقم ٥٧ مجلد ٤ ، ص ٢٢٢ .

مدام جوس ، وهو يهتم مثلها بلغة القصر ولـكنه أعرف منها بها ، نراه يذكرها بأن هذه الـكلمة قد انقضى عهدها فيقول :

Laissez mourir en paix un mot agonisant ;
Hors chez quelques laquais qu'il est en étalage,
En aucun lieu du monde il n'est plus en usage ....
« Gros » est un mot proscrit, ma soeur ....

« هذه كلمة مختصرة فدعيها تمت فى ســـلام ؛ »
« إذ لم يبق لهـا استعمال فى أى مكان فى العالم »
« إلاّ لدى بعض الخـدم يتحلون بها .... »
« Gros » كلمة مقضي عليها ، يا أختاه .... »

والصعوبة فى هذه الحالة بالنسبة للشخص الذى لايعيش فى تلك المحيطات ، هى فى أن يكون على علم دائم بمـا يقال فيها . فـكم من أشخاص وأشخاص يفتخرون بأنهم يتكلمون لغة (أولاد البلد) وأنهم مشبعون بالروح الباريسى ، ثم ينكشف لهم أن الـكلمات التى يستعملونها قد ماتت من الاستعمال منذ العام الماضى . وها هو ذا السيد هوميه Homais صيدلىّ يونفل [من شخصيات فلوبير فى مدام بوفارى] كان يقول Faire florès أو bazar, turne أو Breda-street أو je me la casse ، بدلا من « je m'en vais في وقت كانت هـذه العبارات قد فقدت جدّتها عند أولاد البلد .

لغة المنازلة أيضاً من أسرع اللغات تجدداً . وليس من العسير أن نجد تطور العادات ينعكس فى الصور المختلفة التى تقدمها لنا هذه اللغة ، ويجب عند تفسيرنا لها ألا نهمل العلاقات الاجتماعيـة بين الجنسين . ففى عهود الثروة والبذخ كانت توجد أرستقراطية أنيقة تخصّ الحب بكل عنايتها وتجعل منه سلوتها المعتادة . فى هذه البيئة تكونت فى داخل اللغة الأرستقراطية مفردات خاصة بمسائل الغزل . هـكذا كان الحال فى فرنسا فى العصور الوسطى ، فى الجنوب أولا ومن بعده فى الشمال . ففى القرن السابع عشر نشأت عدة مفردات غزلية متتابعة تلى بعضها بعضا منذ قصر رمبوييه l'hôtel de Rambouillet بخريطته المسماة « إقليم العاطفة

الناعمة » حتى صالونات سو Sceaux عند دوق المين ، ثم اجتماعات « التمپل Temple » عند آل ڤندوم Vendôme .

وقد دخل الكثير من هذه المفردات فى آداب العصر مثل la gloire et les soins و les appâts et les feux و les cruautés و les rigueurs و les alarmes وغيرها من العبارات التى تبدو للفرنسيين اليوم مضحكة بالية . ونعتبرها فى مجموعها ممثلة للغة الحب التى لم يستطع كاتب فى مقام راسين نفسه أن يتجنبها . ولكن الواقع أنها ليست جميعاً من عصر واحد ، بل لكل منها تاريخها وفترة صعودها وسقوطها . واليوم حيث لا توجد أرستقراطية تكوّن طبقة منعزلة عن الأمة ، وحيث انتشار الطبقة الوسطى جعل الغزل فى متناول جميع الطبقات الاجتماعية ، توجد أيضاً لغة الحب ؛ ولكنها لغة مشتركة تستعير مفرداتها من العاميات الخاصة ومن رطانات جميع الأوساط ؛ فليس هناك إذن لغة للغزل بمعنى الكلمة ، لأن الغزل لم يعد مقصوراً على طبقة من الطبقات .

هكذا نرى أنفسنا مسوقين فى دراستنا لتغير المفردات إلى أن ندخل فى حسابنا تأثير أنواع اللغة المختلفة بعضها على بعض . فهذه الكلمة الفرنسية الشائعة مثلا قد جاءت من ثكنات الجنود ؛ جيء بها منها لأنها أكثر تعبيرية من غيرها وأقوى دلالة على ما يراد أن يقال . وتلك الكلمة الأخرى استعيرت من لغة الصالونات . وهناك أيضاً الحالات التى تفرض فيها لغة أجنبية على جاراتها ، بما لها من سلطان ، نوعاً من التجديد ولو جزئياً . وهذا يفسر وجود عدد ضخم من الكلمات اللاتينية فى لغات كال brittonique أو الألمانية العليا القديمة . فهذه الكلمات لا تدل دائما على فكرة جديدة أو شيء جديد ؛ وإنما هى فى غالب أمرها قد حلت محل كلمات كانت تستعملها لغة متبربرة ؛ ولكن السلطان أتاح النصر للكلمة اللاتينية . فالسلطان آخر الأسباب الاجتماعية فى تجديد المفردات ، ولا ينبغى لنا أن ننساه (أنظر الصفحة الرابعة من الفصل الرابع فى الجزء الرابع) .

***

العمليات اللغوية التى بها تتجدد المفردات يمكن إرجاعها بسهولة إلى بضعة

أنواع عامة . والموارد التي يمكن للغات أن تستنبطها من ذات نفسها محدودة عندما يلجأ الإنسان إلى كلمة عامة فينوط بها ، بواسطة التخصيص ، استعمالا خاصاً ؛ أو إلى كلمة ما فيدير معناها بواسطة الاستعارة أو النقل ، ويكون بذلك قد فعل كل ما في وسعه في حدود المفردات الموجودة في اللغة . وهذا خلق للمعاني لا أكثر من ذلك .

طرائق الاشتقاق والتركيب تزيد إمكانيات التجديد زيادة هامة ، لأنها تتيح خلق الكلمات . فالمشتق بعد أن يخلق يصير كأنه كلمة جديدة وينطبق في الحال على الشيء الذي خلق له . من ذلك كلمة bottine « حذاء طويل » التي اتخذت معنى مخالفاً جداً لمعنى botte « نُزْلُك » . وكذلك الكلمات chausson « شبشب » و chaussette « جَوْرب » و chaussure « حذاء » ليس بين بعضها وبعض ولا بينها وبين أصلها chausse « نوع من السراويل » علاقة من حيث المعنى . وهذا هو شأن الكلمات المركبة التي تتحد عناصرها فجأة فلا توقظ في الذهن إلا تصوراً واحداً .

ومن الطرق الشائعة عند تسمية شيء جديد أن يطلق عليه اسم مخترعه أو مروجه أو بائعه أومن ساعد على نجاحه بأية وسيلة من الوسائل . وإلى هذه الطريقة ندين بكثير من الكلمات الفرنسية : calpin « مفكرة جيب » guillemet « علامة اقتباس » و barème « جدول حسابات » godillot « نوع من الأحذية » و quinquet « نوع من المصابيح » و catogan « شريط لربط الشعر » (وهذه الكلمة مستعارة من الإنجليزية ، ولكنها صنعت بالطريقة التي نتحدث عنها) و bottin « دليل » و poubelle « صندوق القمامة » و gibus « نوع من القبعات » و pépin « مظلة » و riflard « مظلة كبيرة » و silhouette « رسم خطي » و fontange « عقدة من الشريط يزين بها الشعر » ولا يتحتم لاستخدام هذه الطريقة أن يكون الشيء جديداً ؛ بل تطبق أيضاً على شيء معروف من قديم ، ولكن صار اسمه في حاجة إلى تجديد لسبب من الأسباب .

وإذا لم تكف هذه الطرق اتجه الناس إلى الاقتراض ، فيلجأون إلى المفردات

المجاورة التى قد تنتمى إلى لغات مختلفة المشارب : فيستعيرون من الرطانات ومن العاميات الخاصة ومن اللغات الإقليمية ومن اللغات الأجنبية ؛ والأخذ من هذه اللغات يحدّد دائماً بظروف خاصة ، تمين الاختيار أو تنظمه .

كلمات الحضارة بوجه خاص معرضة للاستعارة ؛ حيث تحمل فى نفس الوقت مع الشيء الذى تدل عليه ؛ فالشيء يقوم لها مقام المركبة التى تحملها فى بعض الأحيان إلى آفاق بعيدة rem uerba sequuntur . وإذا أحصينا الكلمات التى استعارتها من اللاتينية شعوب الشمال والبريتانيون والإرلنـديون والإنجليز السكسون والألمان والبلطيون والسلافيون ، وجدناها كلهـا تقريباً واحدة ؛ بل وجدنا أن عدداً كبيراً مما استعاره اللاتينيون أنفسهم من الإغريق (١) ، فيمكننا أن نفترض أن الكلمة إذا ما تجاوزت حدود لغتها ، انفتح أمامها الطريق لطول الطواف ؛ لأنها لم تطلب فى الخارج إلا لأنها تدل على شيء جديد خاص بالبلد الذى جاءت منه ، ومن ثم كان من الطبيعى أن نتوقع رؤيتها فى كل مكان يطلب فيه هذا الشيء .

وإلى جانب المفردات المجاورة تسيطر كثير من اللغات على معين خاص تنهل منه ما شاءت ، وذلك هو معين اللغات العلمية واللغات الميتة . فاللاتينية كانت فى كل العصور مصدراً لتجديد المفردات فى لغات أوربا الغربية ، ومفرداتنا الفرنسية تطفح بالكلمات اللاتينية التى أدخلت فيها شيئاً فشيئاً تبعاً للحاجة المتجددة بعـد أن عدلت صيغتها وفقاً لبعض القواعد التى تنظم النقـل إلى الفرنسية من اللاتينية ، والتى لا تزال كامنة فى إحساسنا اللغوى . كما كانت اللاتينية أيضاً نبعاً فياضاً للغة الإنجليزية ، وللغة الألمانية ولـكن بصورة مصغرة ، لأن الألمانيـة تـكتفى بنفسها ، بفضل ما فيها من لهجات عديدة غنية وبفضل نظام التركيب الذى يسمح لها بزيادة مفرداتها زيادة واسعة .

---

(١) أنظر ج . لوت J. Loth ، رقم ٨٩ ؛ وفندريس ، De Hibernicis vocabulis quae a Latina lingua origenem , duxerunt باريس ١٩٠٢ ؛ ف . كلوجه F. Kluge ، Vorgeschichte der Altgermanischen Dialekte ، الطبعة الثانية ، ستراسبورج ، ١٨٩٧ ، ص ٣٣٣ .

والإغريقية كانت معيناً للغات السلافية ، وخصوصاً الروسية ، التى كان لها معين آخر دائم لتجديد مفرداتها يتمثل فى اللهجات السلافية القديمة التى ظلت متصلة بعضها ببعض تحت تأثير الكنيسة (انظر ما يلى فى الفصل الثالث من الجزء الرابع).

هناك صعوبات جمة تعترض تجديد مفردات أساءت استعمالها بعض اللغات. فقد أخذ على الإنجليزية تضخم مفرداتها وإسرافها فى المترادفات التى لا يلبث الاستعمال أن يطرحها ليطلب غيرها من جديد من اللاتينية التى تعدّ مستودعها المعتاد ، وذلك فضلا عن المستودعات الفرعية التى هى اللغات الأجنبية بالنسبة للانجليزية . والفرنسية أيضاً لا تخلو من ملام التهالك على اتخاذ الكلمات الجديدة ولما تزل الكلمات القديمة فى حيوية تامة وكافية للتعبير . وهذا عيب ينجم دائماً من رخاء الحال الذى يمكن اللغة من استعارة كل ماينقصها كما تشاء ، حتى ما يطلب منه لاستعمال مؤقت .

من النادر فى هذه الحال أن تلجأ اللغة إلى صنع الكلمات من أساسها بتركيب مجاميع من الأصوات اللغوية بعضها مع بعض ؛ لأنه يعتبر عملاً غير مفيد. فكل ماتعمله أنها قد تغير وضع العناصر الصوتية فى هذه الكلمة أو تلك . وهذه طريقة معروفة فى العامية الخاصة ؛ ولكن العامية الخاصة تشوه ولا تخلق . فالخلق أمر فى غاية الندرة[1] . وإذا ذكر منه بعض الأمثلة ، فإنما تذكر على سبيل التندر ، مثل gaz « غاز » التى اخترعت فى القرن الثامن عشر ، و félibre « شاعر يقرض الشعر بلغة الأوك » و rococo « نوع من الزخرفة »[2] ؛ ومن ذلك أسماء بعض المستحضرات والسلع والآلات ، مثل كلمة kodak « كوداك » فقد خرجت كما هى من دماغ مخترعها . ولكننا لانستطيع أن نصنع عدداً من مثل

(١) جسبرسن ، رقم ١٣٣ ، فصل ٥ ، ٦ . وانظر ر . م . مير R. M. Meyer ، رقم ٣٠ ، مجلد ١٢ ، ص ٢٥٧ .

(٢) درمستتر Darmesteter ، رقم ٦٣ ، مجلد ١ ، ص ٢٣ ؛ و ج . باريس G. Paris ' Penseurs et poètes ص ٩٤ ؛ ولكن قارن جنروا Jeanroy ، رقم ١٨ ، مجلد ٣٣ ، ص ٤٦٣ .

هذه الكلمات دون أن نعرض اللغة للخطر . فقيمة هذه الكلمات بالضبط كقيمة اسم العلم الذى لا يوقظ فى ذهن السامع أية فكرة محدَّدة إذا لم يعرف الشخص الذى يحمله . لذلك يجب أن تحاط بسياق يكون لها بمثابة تفسير توضيحى . وإذن لا يمكننا أن نزيد فى عددها دون حذر . ولكنها إلى جانب ذلك صعبة الصنع . فلا شىء أصعب من صنع كلمة دون الاهتداء بوسائل الاشتقاق والتركيب المعتادة فى اللغة التى يتكلمها الصانع[١] ولئن صح ماقيل من أن كلمة gaz فيها صدى كلمة Geist « روح » ؛ كنا فى هذه الحالة أمام تشويه لكلمة موجودة بالفعل . وكذلك الحال بالنسبة لكلمة jingo وهى كلمة انجليزية تطلق على من يظهر بمظهر التطرف فى الوطنية ، يقال إنها جاءت من صيغة سبّ ، هى by jingo التى كانت قد حلت محل by jove ، وهذه بدورها استعيض بها عن صيغة أخرى كان طلبة جامعة أكسفورد يكثرون من استعمالها . أما الكلمات التى من قبيل kodak و rococo فلها قيمة تعبيرية لا تنكر ، ذلك أنها كلمات أشبه بأسماء الأصوات ؛ وتدخل فى فصيلة من الكلمات تعتبر اليوم ثابتة النظام والقواعد[٢] . فكلمة « كوداك » تصور لنا صورة ، هى صورة سمعية : حتى كأننا نسمع صوت المفتاح الذى يفتح الآلة لالتقاط الصورة ويغلقها . فهل أحسّ مخترع الكلمة هذه القيمة وأراد أن يحاكيها ؟ إن هذا لجائز ، ولكنه غير ضرورى . غير أن هناك دائماً اتفاقاً غير شعورى يقوم بين الأصوات والأشياء . فالانطباع الذى تحدثه كلمة غير معروفة يمكن أن يختلف من سامع إلى آخر ؛ ولكن هناك انطباعاً على كل حال ، إن قليلا وإن كثيراً . وإنما يقاس الفرق بدرجة حساسية السامع ، أو خياله ، أو مجرد حالته العصبية . فالذى يطلق اسماً مصنوعاً من أوله إلى آخره على شىء أيا كان قد يكون مستهدياً بتوافق نفسي بين الأصوات والشىء نفسه . هذا إلى أن كلمة « كوداك » متمشية مع قواعد اللغة التصويرية : فالسواكن تحتوى على

---

(١) رينان ، رقم ١١٠ ، ص ١٤٧ .

(٢) جرامون Grammont : Onomatopées et mots expressifs ، فى رقم ١٧ مجلد ٤٤ ، ص ٩ .

نفس الحركة الصوتية ، والحركات فيها نفس الجرْس الذى قرره الأستاذ جرامون وهذه الكلمة تعدّ على درجة من حسن الصياغة تجعلنا نتساءل عما إذا كان فى الإمكان صياغتها على غير ما هى عليه .

ولعل القدرة على خلق الكلمات ليست إلا نوعاً من الخداع . وهذه النتيجة تؤدى بنا إلى القاعدة اللغوية الكبرى التى تقول : إن اللغات تسير على تحوير العناصر الموجودة لا على الخلق .

الجزء الرابع

تكوين اللغـــــات

الفصل الأول

اللغة واللغـات

التحليل الذى قمنا به حتى الآن للأجزاء المختلفة للغة لايستطيع أن يعطينا عنها إلا فكرة جزئية غير كاملة . فتقسيم اللغة إلى عناصر ثلاثة هى الأصوات والصيغ النحوية والكلمات ، تلك العناصر التى خصصنا لدراستها الفصول السابقة ، ماهو إلا تقسيم اصطناعى محض . لأن هذه العناصر ترتبط بعضها ببعض ولا توجد منفصلة إطلاقاً مهما بدا من اختلافها . بل تنصهر كلها فى تلك الوحدة التى هى اللغة نفسها . فالعالم اللغوى إذن لاينتهى من مهمته بمجرد أن يفرغ من تحليل هذه العناصر بل يبقى عليه أن يدرس كيف يكون شأنها عندما تجتمع أو بالاختصار ، كيف تؤدى اللغة وظيفتها .

ولكن على من يتصدى لإقامة نظرية عامة للغة أن يحذر الوقوع فى خطر مزدوج . ذلك أن اللغة ، تبعاً لذلك التناقض اللغوى الذى درسه فكتور هنرى(1)، واحدة وعديدة فى آن واحد ؛ واحدة لدى كل الشعوب ، ولكنها متعددة بتعدّد جميع الأفراد الذين يتكلمونها .

من المسلم به أنه لايتكلم شخصان بصورة واحدة لا تفترق . واللغة محدودة

(١) رقم ٨٣ ، ص ٥ وما يليها

بحدود الفرد عند العالم الصوتي لأنه لايستطيع ملاحظتها إلا في خصائصها الفردية وليس من عيوب علم الأصوات الوصفي أن يقصر البحث اللغوي على دراسة الظواهر الفردية فإن من يسعى أيضاً إلى اكتشاف عواطف النفس وانفعالاتها وأهوائها منعكسة في اللغة ، تبدو هذه الأشياء أمام عينه باعتبارها ظواهر فردية . نعم مادام الرمز قد توضع على التسليم به ، فقد صارذا قيمة عامة . ولكن الأحداث الخاصة التي تتمخض عن الرموز والتي تعلن عن وجود الرموز ولما تزل في حالة يصح أن نسميها حالة الميلاد ، لا يمكن أن تدرك إلا واحدة واحدة في مظاهرها الفردية . ومع أنه من غير الصواب أن يقال بأن التجديد اللغوي يصدر عن الفرد فمن الحق الذي لاريب فيه أن كل فرد يدخل في اللغة جزءاً من التجديد خاصاً به . فليس من الباطل إذن أن يقال بأنه يوجد من اللغات بقدر مايوجد من الأفراد .

ولكن ليس من الباطل أيضاً أن يقال بأنه لا توجد إلا لغة إنسانية ، لغة واحدة في أساسها في جميع الأقطار والأصقاع . وهذه هي الفكرة التي تعرب عنها محاولات علم اللغة العام . ففيه يحاول العلماء وضع مبادئ تنطبق على كل لغة أيا كان نوعها . والواقع أن النظام الصوتي عند كل الشعوب يخضع لقوانين عامة واحدة ؛ والفروق التي تلاحظ بين شعب وشعب ناتجة من ظروف خاصة ، أما العبارة الصرفية ففيها كثير من التنوع ؛ ولكن الأنواع الأساسية الثلاثة أو الأربعة التي ترجع إليها هذه التنوعات ليست على إطلاقها ؛ إذ أننا نراها في مجرى التاريخ تتحول من نوع إلى آخر . لذلك لم يكن واحد منها كافياً لتمييز لغة لكائن إنساني . أما المفردات فإنها ترتكز على القاعدة القائلة بأنه يضاف إلى كل مجموعة ما من الأصوات اللغوية فكرة ما ، وهذه القاعدة واحدة في كل مكان ونافذة المفعول بالنسبة للغة في عمومها .

فوضع نظرية عامة للغة تصطدم إذن منذ البداية بالصعوبة الناتجة من كون العالم اللغوي لايعرف إلى أي مدى يحدد دراسته وإلى أنه يبقى متردداً بين الاعتبار الفردي وبين الاعتبار الجنسي بأسره . ومع ذلك فإن هذه الصعوبة تهون بمجرد أن نحاول تصور اللغة في حقيقتها الواقعية لا في حقيقتها التجريدية . إذ لما كانت

اللغة وسيلة للعمل كانت لها غاية عملية ؛ فيجب إذن أن ندرس الروابط التى تصلها بمجموع النشاط الإنسانى ، بالحياة نفسها لندركها تمام الإدراك .

أشرنا فيما سبق إلى « حياة اللغة » ، وأبنّا ما تحتمل هذه الاستعارة من بعد عن الصواب ومن إيقاع فى اللبس ، ولكن برغم ذلك يمكننا استعمالها على أنها فرض يوجه البحث ويجعل العرض التعليمى سائغاً . ولكن المسائل التى جعلناها موضوع بحثنا حتى الآن ليست إلا تجريدات خلقتها عقول علماء اللغة ، وإنه لمن سوء التعبير ، أو يكاد ، أن نعبّر بحياة اللغة عما هو خال من الحياة ، عن الأصوات والأشكال النحوية والكلمات . فالحياة التى نحن بصددها الآن إن هى إلا مجموعة الظروف التى بين حدودها تموج الإنسانية ، ماهى إلا الحقيقة الواقعية فى تطوراتها التى لا تنتهى . واشتراك اللغة فى الحياة بهذا المعنى أمر بيّن ، بل أكثر من البيّن . ولكن ليس أمامنا فى هذه الحال نظام نظرى يتكون من مبادىء تجريدية . بل نرانا أمام لغات تتكلم على سطح البسيطة بصور متنوعة .

الفرق بين اللغة langage واللغات ، أن اللغة هى مجموعة الإجراءات الفسيولوجية والسيكولوجية التى فى حوزة الإنسان لتمكنه من الكلام . أما اللغات (الألسن) langues فهى استعمال هذه الإجراءات بصورة عملية . فيجب إذن ، للوصول إلى تعريف كلمة لغة (بمعنى اللسان langue) أن نخرج من محيط الفصول السابقة وأن ندرس الدور الذى تقوم به اللغة بمعنى langage فى المجتمعات الإنسانية المنظمة .

أول فكرة تتبادر إلى الذهن هى فكرة الربط بين اللغة والجنس . بل إن المتن الكبير الوحيد الذى أُلّف فى علم اللغة العام ، ونعنى كتاب فريدرش ملر Friedrich Müller (١) ينبنى على هذه الفكرة . ففيه تستعرض لغات الشعوب المجعدة الشعر واحدة فواحدة ثم لغات الشعوب الملساء الشعر ؛ فهو يصنف اللغات وفقاً للمميزات الإتنولوجية . ولا شىء أشد غرابة على القارىء من هذا الترتيب ، ولكن المبدأ الذى يقوم عليه ، وهو أمر أكثر خطورة ، لا يثبت طويلا أمام

(١) رقم ١٨٥ ؛ وانظر أيضاً بيرن Byrne : رقم ١٣١ ، مجلد ١ ، ص ٤٥ .

البحث إذ أن الأحكام التى تطلق على الأجناس يجب أن تؤخذ دائماً بكثير من التحفظ[١] فمهما قيل فى الدور الذى تلعبه التغيرات التى تصيب الجنس فى تلك التى تصيب اللغة، فلا نستطيع أن نقول بوجود روابط ضرورية بين هاتين الفكرتين إذ لا ينبغى الخلط بين المميزات الجنسية المختلفة التى لا يمكن تحصيلها إلا بالدم وبين النظم من لغة ودين وثقافة التى تعد أعياناً قابلة للنقل ، تعار وتتبادل[٢] . ونحن نرى بمجرد إلقاء نظرة على خريطة لأوربا اللغوية فى العصر الحاضر أن وحدة اللغة تظلّ تحتها أخلاطاً من الأجناس . فالزنجى أو اليابانى الذى يربّى فى فرنسا فى ظروف واحدة مع الأطفال الفرنسيين يتكلم الفرنسية كأنه أحد أبنائها . وهذه الحقيقة تكفى لجعل كل محاولة تعمل للتوحيد بين اللغة والجنس عبثاً لا طائل وراءه .

أفنذهب على الأقل إلى القول بأن كل لغة تقابلها عقلية معينة ؟ الواقع أن علم النفس يتكلم عن عقلية فرنسية وعقلية ألمانية ؛ فلابد أن تعبر اللغة عن الفرق الذى يفصل بينهما ، إذا صح أن اللغة ليست فى الواقع إلا التعبير عن العقلية . هـــذا المنطق الذى لا غبار عليه من حيث المبدأ عسير التحقيق لأنه يصطدم باعتراضات عديدة .

أول ما يجب تجنبه الحكم باختلاف العقلية باختلاف الدماغ . لأننا إن فعلنا ذلك أقحمنا من جديد فكرة الجنس فى مسألة سيكلوجية . فحتى فى حالة المقارنة بين الزنجى والأبيض لا نجد أىّ دليل على أنّ لون البشرة أو شكل الشفتين يقابله دماغ خاص ينتج تفكيراً مختلفاً عن تفكيرنا .

هذا المنطق ، على أية حال ، لا يمكن تطبيقه على أفراد كلهم من الجنس الأبيض ليست بينهم اختلافات جنسية أساسية وإننا نعرف أن لون العينين أو البشرة أو شكل الجمجمة كلها لا تقدم لنا مقياساً يصلح للتمييز بين الألمانى والفرنسى من الوجهة الجنسية نفسها ، فمن باب أولى من الوجهة اللغوية . ومع ذلك فليس من شك فى أن كلا من الشعبين له عقلية خاصة ، وأذواق وعادات وأمزجة وطنية ، ولكن

---

(١) ا . رينان : رقم ١١١

(٢) هويتنى Whitney : رقم ١٢٩ ، ص ٢٣١ .

هذه الأمزجة الوطنية ومثلها اللغات عليها طابع النتائج لا طابع الأسباب . كذلك من التحكم أن نعتبر اللغة وليدة العقلية أو العقلية وليدة اللغة ؛ لأن كلتيهما وليدة الظروف ونتاج الثقافة والمدنية .

لم نرد بالوصول إلى تلك النتيجة أن نثبط من همم أولئك الذين يحاولون ربط الفكرتين معا . إذ من الجائز أن تكون اللغة والعقلية نتاجا لأسباب واحدة وأن تكون المميزات التي تميزهما واحدة دون أن يترتب على ذلك صدور إحداهما عن الأخرى . فإذا كانت اللغة علامة مميزة لصورة من صور التفكير ، كان من الممكن أن نصل بتحليل مقارن للغات إلى سيكولوجية للأجناس . وهذه كانت فكرة هردر Herder في مؤلفه عن أصل اللغة ؛ وفكرة غليوم فون همبولت Wilhelm von Humbolt وشتينتال Steintal أيضاً . وفي أيامنا هذه عاد العالم اللغوي الألماني ف . ن . فنك[1] F. N. Finck إلى فكرة هردر محاولا تكميلها وفي رأيه أنه لا يجب علينا أن ننظر إلى اللغات إلا بوصفها آثاراً معبرة عن عقل الشعوب . وأن اللغات ليست إلا تصورات ، لا تقدم أمام عين العالم السيكولوجي أية حقيقة واقعية ملموسة . وأن من الخداع لأنفسنا أن ندرسها على أنها حقائق واقعة فيجب أن نطبق عليها طريقة ذاتية محضة بألا نبدأ من اللغة التي ليست إلا نتيجة ، بل من العقل الذي يخلق اللغة . هذه الطريقة خير الطرق لدراسة بعض نتاج النشاط النفساني psychique كالمعتقدات الشعبية . وهي نفس الطريقة المتبعة في دراسة الخوف أو الحلم أو الإيمان . فها نحن أولاء بهذا الرأي قد ابتعدنا عن علم اللغة .

ويمكننا أن نجيب فنك بأن اللغة حقيقة واقعة مهما كانت الحال[2] . فاللغة بصوتياتها وبكيانها الصرفي لها وجود خاص مستقل عن استعدادات المتكلم النفسية واللغة تفرض نفسها عليه في صورة نظام قد أعد من قبل ، في صورة آلة وضعت في يده . وهو يستخدمها لغايات شتى : فيستعملها في حاجات سوقية أو يستخرج منها آثاراً تدل على الحذق وتدعو إلى الإعجاب . ولكنها في كل الحالات آلة

(١) رقم ١٥٥ .
(٢) ميه : رقم ٢ ، مجلد ١٠ ، ص ٦٦٤ .

واحدة بعينها ، ومهمة العالم اللغوى هى بالضبط أن يدرس ما فى هـذه الآلة من جوهرىّ ومن دائم . ومن ثم كانت الطريقة الموضوعية التى يحاربها فنك صالحة للتطبيق فى علم اللغة تمام الصلاحية ، واللغة فى وسعها أن تدرس مستقلة عن العقلية.

فضلا عن ذلك فليس من المؤكد أن الأسباب التى تؤثر على اللغة تحدث فى العقلية آثاراً مماثلة . فالأجزاء الجوهرية الداخلة فى اللغة تتحول وفقاً لقواعد ليس للعقلية فيها أى نصيب . وهـذا بالذات هو ما أدّى إلى الافتراض بأن للغة حياة مستقلة عن كل حياة نفسية أو فسيولوجية أو اجتماعية . والواقع أن الفروق التى نلاحظها فى فترة ما من التاريخ بين لغتى شعبين ، حتى ولو كانتا من أصل واحد ، يمكن تفسيرها بظواهر لغوية خاصة بتطور كل واحـدة من اللغتين ، وبالتالى لا تسمح لنا بحال أن نصدر حكما ما على عقلية الشعبين .

هـذه الملاحظة تنطبق على أوضح الصفات التى يمكن أن تميز بين لغتين . فترتيب الكلمات فى الجملة مثلا عملية لها دلالتها الفائقة ؛ لأن جذوره ، على ما يظهر ، ناشبة فى أبعد أعماق الشعور اللغوى ؛ إذ أنه هو الأصل فى تحضير الصورة الكلامية . ومع ذلك فنحن على تمام المعرفة من أن بنية الجملة فى الألمانية أو الإرلندية أو الأرمينية الحديثة ناتجة من تطورات صرفية خاصة بهذه اللغات (انظر ص ١٩٠) وكلما أوغل المؤرخ فى الرجوع إلى الماضى ، اكتشف فى بنية التنظيمات الشديدة الاختلاف أثر قوانين داخلية يفسرها تطور كل لغة من هذه اللغات .

كذلك دأب العلماء ، وهم على حق ، على مقابلة اللغات التى تمارس التركيب باللغات التى تلجأ إلى الاشتقاق ، إلى مقابلة الإغريقية باللاتينية أو الألمانية بالفرنسية مثلاً . فالذى يبدو لأول وهلة أن هذين النوعين يمثلان نوعين مختلفين من العقلية ؛ إذ أن العقل فى الحالة الأولى بعد أن يحلل التصور يعبر بالتفصيل عن العناصر التى تنتج من هذا التحليل ، بينما لا تشير الحالة الأخرى إلا إلى مظهر واحد من مظاهر التصور تاركة للسامع البحث عن المظاهر الأخرى . ولكن الواقع أن هذين المسلكين ينتجان من عادات قد تطورت إن قليلاً وإن كثيراً ؛ هذا إلى أنهما لا يتنافيان بل يستعملان معاً فى كل لغة بدرجات مختلفة . إذ يكفى فى إحدى

اللغات أن يتغلب نوع ما على غيره فى فترة من الفترات ، ليتضاعف استعماله بعد ذلك فى العصور التالية . فهذا أثر مباشر لتنافس الطرق الصرفية ، لا يتوقف بأية حال على اختلاف العقلية .

لأن العقلية فى الحالتين واحدة ، وإنما تختلف العبارة فقط . فكون إحدى اللغات تقول liber Petri « كتاب بطرس » والأخرى تقول : Le livre de Pierre « الكتاب [بتاع] پيير » لا يحتم أن يكون الشعبان اللذان يتكلمان هاتين اللغتين يختلفان فى تصور علاقة الملكية ، وإنما يختلفان فقط فى التعبير عنها . ولهذا الاختلاف أسباب تاريخية . فالسعى إلى معرفة عقلية الشعب من خصائص لغته مشروع فاشل إذا راعينا وسائل البحث التى نملكها فى حالاتنا الراهنة . بل إن المفردات نفسها لا تعكس العقلية إلا فى صورة جزئية . فالفرنسية مثلاً ليس فيها إلا كلمة واحدة louer « يؤجر » و « يستأجر » لترجمة الفعلين الألمانيين miethen « يستأجر » و vermiethen « يؤجر » ومعنى كل منهما على عكس معنى الآخر . وفى هذا ما فيه من لبس غير مستحب فى اللغة الفرنسية ؛ ولكن الألمانية بدورها لا تملك غير فعل واحد lehnen للتعبير عن الفعلين الفرنسيين prêter « يُعير » emprunter « يستعير » ونعرف لغات أخرى تعبر بكلمة واحدة عن « البيع » و « الشراء » معاً[1] . فهل فى ذلك ما يشير إلى الصورة التى تدرك عليها هذه الشعوب الإجارة والإعارة والبيع ؟ كلا . فالمفردات فى أية لغة لا تعرض مطلقاً وجوه التفكير كاملة . بل يوجد دائماً من الكلمات أقل مما يوجد من الأفكار ، والاستعمال الجارى يكتفى دائماً بالعبارات التقريبية ، لأن لديه من الوسائل ما يجنبه الوقوع فى اللبس . إذ أن السياق يوضح معنى كل كلمة ؛ وإذا لم يكف السياق ، لم تعدم اللغة أن تجد وسيلة لتجنب هذا النقص . فالفرنسية فى الواقع لا تشكو غموضاً فى كلمة louer ، ولا الألمانية فى

---

(١) تقول الصينية مثلا mài و mâi ، ولا فرق بين هاتين الصيغتين إلا فى التنغيم (جبلنتس Gabelentz : Chinische Grammatik ، ١٨٨٨ ، فقرة ٢٣٠ ، أخذناه عن اقتباس لجسپرسن ، رقم ١٣٤ ، ص ٨٤ — ٨٥) .

كلمة lehnen ، كما لا تشكو البريتانية من كونها لا تملك إلا كلمة واحدة (glas) للتعبير عن « الأخضر والأزرق » وتستعمل نفس الكلمة لتقول « السماء زرقاء » و « الفاصولية خضراء » .

يبدو إذن أننا نخطىء حينما نرى فى أى جزء من أجزاء اللغة صورة لعقلية بعينها . ولا يعنى هذا أنه لا توجد أية رابطة بين العقلية واللغة ، بل إن اللغة تستطيع فى بعض الأحيان أن تعدّل من العقلية وتنظمها . فمادة وضع الفعل فى مكان بعينه دائماً ، يمكن أن تؤدى إلى صورة خاصة فى التفكير وأن يكون لها أثر فى طرق الاستدلال . والتفكير الفرنسى أو الألمانى أو الإنجليزى خاضع للغة إلى حد ما . فإن اللغة إذا كانت مرنة خفيفة مقتصرة على الحدّ الأدنى من القواعد النحوية ، سمحت للفكرة بالظهور فى وضوح تام وأتاحت لها حرية الحركة . وعلى العكس من ذلك تختنق الفكرة من التضييق الذى يصيبها من لغة جامدة ثقيلة . ولكن عقلية المتكلمين تتصرف لتعتاد أى شكل من أشكال اللغة . لذلك كان من المحال تحديد اللغة بمزاج الأمة التى تتكلمها . فدراسة الدور الاجتماعى الذى تقوم به اللغة هى خير ما يعطينا فكرة عن ماهية اللغة .

* * *

أصبح تكرار القول بأن الإنسان كائن اجتماعى أمراً مبتذلاً . لعل من أول السمات على الطبيعة الاجتماعية فى الإنسان تلك الغريزة التى تدفع على الفور الأفراد المقيمين معاً إلى جعل الخصائص التى تجمعهم مشاعة بينهم ، ليتميزوا بها عن أولئك الذين لا توجد لديهم هذه الخصائص بنفس الدرجة .

هذه الغريزة فى غاية القوة ، نعثر عليها فى كل الأقسام التى تنقسم إليها أية هيئة اجتماعية ، وترجع فى أصلها إلى حقيقة التجمع نفسه . فإذا التقى فرنسى وفارسىّ فى جزيرة مهجورة نسى كل منهما الفروق التى تفصل بينهما وسعيا بطبعهما إلى الاتحاد ؛ لأن المساواة فى العزلة تنمى الزمالة بينهما . ولكن لو أن فارسياً جاء إلى فرنسا زائراً ووجد نفسه فى مكان ككور لارين Court la Reine ، ورآه بعض الفرنسيين ، لأوحت إليهم على الفور عاطفة الوطنية — التى من شأنها أن تقوى وجود الجماعة — بهذه الجملة المشهورة : كيف يمكن لإنسان أن يكون فارسياً ؟ وإذا

قابل جندى منعزل من جنود الخيالة جندياً آخر من جنود المشاة تآخى الجنديان دون عناء ؛ مع أننا نعرف أن المدن التى تضم ثكنات لكلا السلاحين كثيراً ما تكون ميداناً لمشاحنات ناجمة من هذا الاختلاط حتى تضطر السلطات أحياناً إلى التدخل لحفظ الأمن . بل لسنا فى حاجة إلى التمثيل بسلاحين مختلفين قد يفترقان أحياناً فى العمل وفى التقاليد وفى الاختيار . فكثيراً ما تشتد المنافسات فى داخل فرقة واحدة بين كتيبة وكتيبة أو جماعة وجماعة أو غرفة وغرفة ، لا لشيء إلا لاختلافهما فى ساعات العمل أو القيادتين أو فى رقم « المنبرين » : فأتفه الفروق تذكى نار المنافسة . فكأن الناس إذا ما تجمعوا بحثوا عن أتفه الأسباب التى تقدمها لهم الظروف لإثبات تجمعهم بمعارضة غيرهم .

فى هذه الحالة لسنا فى حاجة إلى الاحتجاج بوجود باعث من الزهو الذى يبعث عليه الشعور بوجود تفوق ما ؛ وإن كانت روح الجماعة تصطحب غالباً برضاء داخلى : إذ أنها تنطوى على شعور بالعزة يدفعها إلى استثارة الآخرين وإذلالهم . ولكن هذه العواطف تنتج من روح الجماعة ولا تخلقها . والذى يقوى من روح الجماعة هو وجود التجمع ، وهذا التجمع نفسه ليس فيه شيء شخصى ولا تدخل فى حسابه قيمة الأشخاص منفردين . إذ يكفى لأي دخيل أن يحتل مكاناً فى الجماعة لتعترف له بالحقوق التى للآخرين : وكل ما تفعل به لدى دخوله أن تفرض عليه نوعاً من البلاء التأديبى الذى لعله بقية باقية من الرياضة الصوفية القديمة . وأخيراً لا تقوم الجماعة التى من هذا القبيل على نظم شرعية . والرباط الذى يجمع بين أعضائها لا يرجع إلى اتفاق سابق ولا إلى إرادة مقصودة ؛ وإنما ينحصر فى الاتفاق فى العمل والمصالح والحاجات ؛ وتزداد قوة الجماعة إذا وجدت بجانبها جماعات أخرى تختلف عنها فى الأعمال والمصالح والحاجات .

تلعب اللغة دوراً ذا أهمية عظمى فى الجماعة الاجتماعية مهما كانت ومهما كان مقدار امتدادها . فاللغة أوثق العرى التى تجمع بين أعضاء هذه الجماعة . وهى على الدوام رمز ما بينهم من تشارك وحارسه الأمين . وأية آلة أفعل من اللغة فى توطيد وجود الجماعة ؟ فاللغة بمرونتها وتنوع حياتها ولطف سريانها واختلاف

استعمالها وسيلة للاتفاق بين الجماعة وعلامة لأعضاء هذه الجماعة ، بها يعرف بعضهم بعضاً ويهرع بعضهم إلى بعض .

كل عضو فى الجماعة يشعر بأنه يتكلم لغة معينة ليست لغة الجماعات المجاورة . فاللغة إذن وجود مستقل فى الشعور المشترك بين أولئك الذين يتكلمونها جميعاً . وهذا التعريف ، وهو ذاتى محض فى مظهره ، يستند إلى كون هذا الشعور بالاشتراك فى اللغة يضاف إليه شعور آخر فى وجدان المتكلمين بوجود مثل لغوى أعلى يسعى كل منهم من جهته إلى تحقيقه[1] .

فكأن هناك عقداً ضمنياً أقامته الطبيعة بين أفراد الجماعة الواحدة ليحافظوا على اللغة فى الصورة التى توجبها القاعدة . وكثيراً ما ترجع هـــذه القاعدة إلى الاستعمال ، وهذا لايخلو من الصواب . ولكن الاستعمال غير التحكم ، بل هو ضده على خط مستقيم لأن الاستعمال خاضع لمصلحة الجماعة ، وهى هنا حاجتها إلى أن تكون مفهومة . فكل فرد يدأب بغريزته وعن غير شعور منه على الوقوف فى سبيل ما هو تحكمى حتى لايدخل فى الاستعمال . وإذا وقعت مخالفة من جانب فرد منعزل ، أصلحت على الفور ؛ والسخرية اللاذعة كفيلة بإمساك الجانى عن التفكير فى المعاودة . ولا يمكن أن تصير للمخالفة قوة القانون إلا إذا كان أعضاء الجماعة كلهم على استعداد لارتكابها ، أى أن يشعروا بها على أنها قاعدة ، وفى هذه الحالة لاتصبح مخالفة .

والصرامة التى بها تفرض القاعدة نفسها فى غاية القوة ، يستوى فى ذلك كل الجماعات اللغوية وفى كل اللغات . قد نسمع فى بعض الأحيان أشخاصاً ، وأشخاصاً مثقفين ، يظهرون دهشتهم من أن يكون للغة الفلاح قواعد ونحو . فهم يتخيلون أن القواعد لا توجد إلا فى الكتب التى توزع على تلامذة المدارس ؛ وهذا خطأ . لأن الكلام الريفى ، أو اللهجات كما يسمونها ، فيها قواعد أشد صرامة فى غالب الأحيان مما فى اللغات التى تتلقن من كتب النحو . وفى اللغات المكتوبة دون

(١) انظر عن المثل الأعلى للسلامة اللغوية نورن Norren : رقم ٢٣٠ مجلد ١ (١٨٩٢) وسيتالا Setälä : رقم ٢٨ ، مجلد ٤ (١٩٠٤) ص ٢٠ — ٧٩ .

سواها يوجد التردّد ونقاش العلماء ، وكما يقول هوراس Horace « gramma-tici certant » . ولكن الذين يتكلمون اللهجات لا يترددون . انظر إلى فلاح يتكلم عن لهجة القرية المجاورة ، تجده يكتشف فيها فروقاً لا يكاد يحسها الغريب عنها ، وتسمعه يؤكد بخيلاء أنه هو وأهل قريته وحدهم هم الذين يتكلمون صحيحاً ، وأن الصحة تنعدم بمجرد أن تعبر إلى الشاطىء الآخر من النهر أو أن تنتقل إلى سفح الوادى الآخر .

فالطبقات الشعبية على العموم عندها عن لغتها فكرة محددة ، ويحسون فى إرهاف نادر المثال أقل مخالفة للقاعدة . وقد وجد مالرب Malherbe أدق حس لغوى عند طغام البور أو فوان Port-au-Foin ؛ حتى كان يتخذهم أساتذة له[١] . ونحن نعرف أخبار المغامرة التى وقعت فى سوق أثينا لتيوفراست وكان من لسبوس . كان يسأل عن ثمن إحدى السلع ، ففطنت امرأة من الشعب إلى أنه غريب على لغتها[٢] . فالشعب هو الذى يجب أن يستشار عند التردد فى حالة من حالات الاستعمال ، والمجامع اللغوية هى التى تستطيع أن تناقش وأن تقرع الحجة بالحجة لتعرف ما إذا كانت كلمة « أوتوميبل » automobile مذكرة أم مؤنثة ؛ وكل ذلك من الأمور النظرية . أما من الناحية العملية ، فإن الشعب لم يتوان عن الحكم بتأنيث الكلمة . وإذا كانت قد مرّت به فترة من التردّد ، فذلك لأن الجنس لا تبدو آثاره فى كثير من الحالات (انظر ص ١٣١) . ومعنى ذلك أن الكلمة لا جنس لها فى بعض استعمالاتها ؛ ولكن الشعب حدّد جنسها فى كل ما يحس فيها وجود الجنس مثل : une belle, une grande automobile أو « سيارة جميلة ، سيارة كبيرة » l'automobile est vetre ou grise « السيارة خضراء أو رمادية . »

فهذا التوخى للسلامة وتلك الثقة فى تثبيت الاستعمال هما اللذان يقرران اللغة فى مجموعة بعينها من البشر . ومع ذلك فلو بحثنا عن تحقيق كامل للغة لم نجده فى

(١) Mémoires pour la vie de Malherbe تأليف المركيز دى راكان Marquis de Racan : فقرة ٤٧ .

(٢) شيشرون : بروتس ، فصل ٤٦ ، ١٧٢ ؛ كنتليان Quintilien : ٨ ، ١ .

أى مكان (١) . فكثير من الناس يتكلمون الفرنسية . ولكن لا يوجد شخص واحد يتكلم الفرنسية ويصلح أن يكون مثالا ومقياساً للآخرين ، فما نسميه الفرنسية لا يوجد فى لغة الكلام عند أى كائن إنسانى . لذلك كان من اللغو أن نتساءل فى أى مكان تُتكلم الفرنسية فى أسمى صورها . فالفرنسية الحسنى «فكرة» بالمعنى الذى يستعمل فيه لبروبير La Bruyère هذه الكلمة أى أنها خرافة ؛ مثلها مثل حكيم الرواقيين الذى كان كاملا جميلا طيباً سليم العقل والجسم ، إلا إذا انتابته نوبات البلغم . كذلك فرنسيتنا الحسنى نراها تحت رحمة زلة من زلات الذاكرة أو لحن أو خطأ . فهى مثل أعلى يُبحث عنه ولا يمكن العثور عليه ؛ إنها قوة فعالة لا يستطاع تحديدها إلا بالهدف الذى تتجه نحوه ؛ هى حقيقة بالقوة لا تخرج إطلاقا إلى حيز الفعل ؛ وصيرورة لا تصل أبداً إلى الاستقرار .

* * *

يمكننا أن نلخص ما تقدم بأن اللغة هى الصورة اللغوية المثالية التى تفرض نفسها على جميع الأفراد فى مجموعة واحدة .

لكن يبقى علينا فى هذه الحالة أن نعرف المجموعة . والواقع أن الفصول التالية فى جملتها مخصصة لهذا الموضوع ، لأن خصائص اللغة تتوقف على طبيعة المجموعة وعلى مقدار امتدادها . إذ يوجد فى فرنسا إلى جانب اللغة الأدبية التى تكتب فى كل مكان والتى يزعم المثقفون بأنهم يحققونها فى كلامهم ، مجموعة من اللهجات مثل الفرنش كنتيه والليموزنيه اللتين تنقسمان بدورهما إلى لهجات محلية عديدة . وهذه لغات أخرى يقابلها عدد مساو لها من التجمعات . هذا إلى أنه يوجد داخل مدينة واحدة كباريس ، عدد من اللغات المختلفة تسير كلها جنباً إلى جنب . فلغة الصالونات مثلا ليست لغة الثكنات ، ولغة الأعيان ليست لغة العمال ؛ وهناك رطانة المحاكم والعامية الخاصة التى تتكلم فى حواشى المدنية . وهذه اللغات يختلف بعضها عن بعض إلى حد أنه قد يعرف الإنسان إحداها دون أن يفهم الأخرى .

تنوع اللغات يرجع إلى تعقد الروابط الاجتماعية . ولما كان من النادر أن

---

(١) مييه : رقم ٩٣ ، ص ٣٥٧ .

يعيش فرد محصوراً فى مجموعة اجتماعية واحدة ، كان من النادر أيضاً أن تبقى إحدى اللغات دون أن تنفذ إلى مجموعات مختلفة . إذ يحمل كل فرد معه لغة مجموعته ويؤثر بلغته على لغة المجموعة المجاورة التى يدخل فيها .

لا تتكلم أسرتان متجاورتان لغة واحدة إطلاقاً . ولكن هذا الخلاف اللغوى الذى يفرق بينهما حالياً طفيف لا يكاد يحس حتى ولو كان يحمل فى طياته جراثيم انفصال فى المستقبل ، لذلك كان لنا الحق فى ألا ندخله فى حسابنا فى حالته الراهنة . هذا إلى أن اللغة التى تتفاهم بها الأسرتان فيما بينهما تصير إلى الوحدة حتما ، إذ أن الروابط المتبادلة تعمل منذ اليوم الأول على إضعاف الفروق بينهما وتكوين نواة مشتركة . ولنتخيل أخوين يعيشان معاً ولكنهما لا يمارسان مهنة واحدة . فكل منهما يحتك فى مصنعه بمجموعات مختلفة ويأخذ عنهم اللغة بالضرورة مع عادات التفكير والأعمال وآلات المهنة . وبذلك ينشأ فى كل يوم بين الأخوين اختلاف لغوى يؤدى بهما — إذا لم يريا أحدهما الآخر زمناً طويلا — إلى التحقق من أنهما يتكلمان لغتين مختلفتين ، ولكن هذا الاختلاف يزول كل مساء بفضل عودة الصلة بينهما من جديد . وعلى هذا النحو يجدان نفسيهما خاضعين لتيارين متعارضين يتبادلان التأثير عليهما ولا يفصل أحدهما عن الآخر إلا بضع ساعات ، ويجدان أن اللغة التى يتفاهمان بها فى حاجة دائمة إلى التطهير من عناصر التفرقة التى تفد عليها من الخارج .

هذا مثل طيب لصراع التوازن الذى هو قانون تطور اللغات جميعاً . فهذان ميلان متعارضان يوجهان اللغة فى طريقين متباينين [1] . وأحد هذين الميلين يتجه نحو التفريق . فتطور اللغة على نحو ما أجملناه فى الفصول السابقة يؤدى إلى انفصالات تزداد مع الزمن تعدداً : وتكون النتيجة تفتت اللغة تفتتاً يزداد بازدياد استعمالها ؛ إذ تضطرها إلى هذا التفتت مجاميع الأفراد التى تترك وشأنها دون احتكاك بينها . غير أن هذا التفريق لا يصل إطلاقا إلى تمامه ، لأن سبباً حيوياً

(١) مييه : التوحيد والتفريق فى اللغات (رقم ٤٢ ، ١٩١١ ، ص ٤٠٢).

يوقفه فى الطريق ؛ إذ أنه بإمعانه التدريجى فى الحد من امتـداد المجموعات التى تستخدم اللغة وسـيلة للتفاهم بينها ، ينتهى بحرمان اللغة من قيمتها الجوهرية ؛ فتحطم اللغة نفسها وتصير غيرقادرة على إيصال الناس بعضهم ببعض . لذلك يقوم ميل آخر — يعمل دواماً على مناهضة التفريق ، وهو الميل إلى التوحيد الذى يعيد التوازن . ومن صراع هذين الميلين تنتج أنواع اللغات المختلفة ، من لهجات ولغات خاصة ولغات مشتركة ، تلك التى ستكون موضوع دراستنا منذ الآن .

الفصل الثانى

اللهجات واللغات الخاصة(1)

يمكننا دائماً أن نحدد لغة ما من الوجهة المكانية بمقابلتها بلغات من فصيلة مختلفة . فنحن نعرف حدود الفرنسية فى الأماكن التى ترتطم فيها بالألمانية أو بالبسكية أو بالبريتانية ؛ هذه الحدود يمكن رسمها ما بين قرية وقرية ؛ بل فى داخل القرية نفسها ، كثيراً ما يفصل بين اللغتين واد من الوديان أو جدول ماء أو مجرد شارع . فيمكننا إذن أن نتكلم عن لغة فرنسية أو ألمانية أو إيطالية أو مجرية أو صربية . كل هذه اللغات يتعارض بعضها مع بعض وتحدد بعضها بعضاً على وجه الدقة .

ولكنا نعانى بعض الصعوبة إذا حاولنا أن نرسم حدوداً بين الفرنسية والبروفنسالية أو بين الألمانية العليا والألمانيه السفلى أو بين الصربية والبلغارية . لأننا هنا لم نعد أمام لغتين من أصلين مختلفين وصلت بينهما مكانيا مصادفات التاريخ ، بل أمام لغات منبعثة من أصل واحد وقد فرقت بينها ظروف تاريخية . فالانتقال بين إحداها والأخرى انتقال غير محسوس ، وليس هناك بمعارضة جسيمة

---

(1) عن مسألة اللهجات أنظر أسكولى Ascoli : L' Italia dia lettale » اللهجات الإيطالية » ، رقم 41 ، مجلد 8 ، ص 99 — 120 ؛ ل . جوشا L. Gauchat : Gibt es Mundartgrenzen ? « هل توجد حدود لهجية ؟ » ، رقم 25 ، مجلد 111 ص 395 — 403 (1904) ؛ تابولت Tappolet : « فى أهمية الجغرافيا اللغوية » نشر فى Festschrift Morf، ص 385 وما يليها ؛ ى . هوبر J. Huber : « الجغرافيا اللغوية » رقم 3 ، مجلد 1 ، ص 89 وما يليها . وأنظر خاصة مؤلفات الأساتذة جيليرون ويابرج وترنشيه .

أما عن « اللغات الخاصة » عامة فانظر لاش Lasch : نشرات جمعية علم الإنسان بڤينا « Mitteilungen der anthrop. Gesellschaft » ، ڤينا (1907) ؛ فان جنيب Van Gennep رقم 14 (1908) مجلد 1 ، ص 327 ، رقم 74 .

بين لغتين وضعت إحداهما فى مواجهة الأخرى ، وزوّدت كل منهما بوسائل للتعبير مختلفة . والصعوبة تعظم وتعظم إذا أردنا أن نضع حدوداً بين اللهجات التى فى داخل مجال لغوى واحد .

أصبح اليوم من المقرر أن الخصائص اللغوية لاينسجم بعضها مع بعض من حيث التوزيع ، وبعبارة أخرى ، أن الخطوط التى تفصل بين خاصية وأخرى ، ليس هى نفس الخطوط التى تفصل بين خاصيتين أخريين .

ويكفينا للتحقق مما نقول أن نرجع إلى إحدى الخرائط اللغوية لاستيضاحها . فأطلس فرنسا اللغوى[1] يعطينا عن كل حالة بعينها حدوداً مختلفة . ولنتخيل عدداً من القرى ، عشر قرى مثلا ، مفرقة فى إحدى المقاطعات الفرنسية فى رقعة تتكون من بضعة أميال مربعة . فنرى أن سكان هذه القرى يتكلمون لغة واحدة ، بمعنى أن لهجتهم تمثل مظهراً خاصاً من اللغة الفرنسية ، وقد نتجت تاريخياً ، من تطور مستقل لنفس اللغة فى مجال متصل . ولكنا نجد فروقاً ذات بال بين قرية وأخرى ، حتى ليمكننا أن نميز لهجة كل قرية منها بوصف مخالف لغيرها[2] من حيث الصوتيات ومن حيث النحو ومن حيث المفردات . ومن النادر جداً ألا تمتد إلى حد ما خصائص إحدى هذه القرى إلى القرى المجاورة . ولكن الحدود الجغرافية لكل واحدة من هذه الخصائص على حدتها ، لا تكاد تتفق إطلاقاً مع الحدود الجغرافية لأى خاصية أخرى تؤخذ على حدة أيضاً . فنجد مثلا بين هذه القرى خمساً أو ستاً تنطق (a) « فتحة » حيث تنطق القرى الأخرى (e) « فتحة ممالة » ، ثم نجد خمس قرى أو ستاً تنطق o « ضمة مفتوحة » حيث تنطق القرى الأخرى u « ضمة صريحة » . ولكن الخط الذى يفصل بين أولئك الذين ينطقون a والذين ينطقون e ليس هو الخط الذى يفصل بين من ينطقون o وبين من ينطقون u ؛ فالقرى التى تمارس التغيير ليست واحدة ؛ ومعنى ذلك أن التوزيع يختلف .

---

(١) الأطلس اللغوى لفرنسا ؛ وأنظر جيليرون وروك : رقم ٧٦ .

(٢) جوشا : « الوحدة الصوتية فى عامية إحدى القرى » نشرت فى : Festschrift Morf ، ص ١٧٥ — ٢٣٢ .

يوجد مثلا فى مقاطعة اللاند[١] Landes بالنسبة لنطق كلمة joug « نير » أربع مناطق غير متساوية تماماً ، وموزعة على هذا النحو :

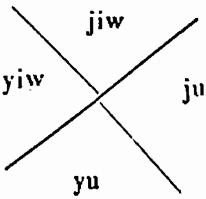

والتقسيم يقوم أولا على نطق j (ج) بدلا من y (ى) التى فى أول الكلمة وثانياً على نطق iw بدلا من u . ومناطق هذه الظواهر الصوتية لا تساير بعضها بعضاً . ولكنها لاتساير ظاهرة أخرى صوتية مثل ظاهرة تبادل d « د » و z « ز » التى تشطر المنطقة إلى شطرين متقاربين[٢] : laide laize ولا تساير ظاهرة صرفية مثل ظاهرة الاقتصار على واحد من الزمنين الماضيين دون الآخر : إما الماضى البسيط (il écrasa) وإما الماضى المركب (il a écrasé) ، تلك الظاهرة التى يكوّن حدها الفاصل خطاً متعرجا يقطع المقاطعة بصورة غريبة[٣] .

وإذا درسنا مفردات المقاطعة نفسها ، وجدنا لاسم المستنقع « étang » أربع كلمات مختلفة (gourgue , pesque , clote , estan)[٤] ، وثلاثاً لاسم الغراب (croque , corbe , courbas)[٥] ؛ ومناطق اسم الغراب لا تساير مناطق اسم المستنقع . وإذن فتوزيع حالات المفردات فيها نفس الشذوذ الذى فى توزيع الحالات الصوتية أو الصرفية .

كانت نتيجة هذه الحال أن كثيراً من علماء اللغة ذهبوا إلى أن اللهجات لاوجود لها . فعند هؤلاء العلماء أن الحالة اللغوية التى تنتج من تطور اللغة لايمكن أن تتصوّر إلا فى مظهرين : مظهر اللغة ، تلك الوحدة الشاسعة التى تئول إليها

---

(١) ميرديه : رقم ١٠٢ ، ص ٢٤٥ .
(٢) المرجع السابق : ص ٢٤٩
(٣) نفس المرجع : ص ١٩٩ .
(٤) نفس المرجع : ص ٢٠٨ .
(٥) نفس المرجع : ص ١٧٥ .

صور التكلم المحلية جميعها ، ومظهر صور التكلم المحلية التى إليها تتفتت اللغة . هذا بصفة عامة رأى علماء اللغات الرومانية الذى قام بعرضه فى صورة فائقة جاستون پاريس وپول مير منذ زمن . يقول الأول : « لايوجد أى حد حقيقى يفصل بين فرنسى الشمال وفرنسى الجنوب ؛ فصور التكلم الشعبية عندنا تمتد على أرض الوطن من طرف إلى آخر كأنها بساط نضحت ألوانه المتنوعة فى كل نقطة منه بعضها على بعض وأصبحت درجات لا يكاد يتميز بعضها من بعض[١] . »

هذا أيضاً هو الرأى الذى تصير إليه « نظرية الأمواج » Wellentheorie ليوهان شمت Johann Schmidt[٢] . فهو يقرر أن كل ظاهرة لغوية تمتد على سطح القطر امتداد الأمواج ، وأن كل موجة فى تقدمها التدريجى غير المحسوس ليس لها حد معين . ويستند فى نظريته على دراسة اللغات الهندية الأوربية حيث الخطوط التى تفصل بين كل خاصية لغوية وأخرى لا تنطبق على الخطوط التى تفصل بين خاصيتين لغويتين أخريين ، وذلك كما هى الحال فى اللغات الرومانية . ولكن الأستاذ مييه قد دافع بحق عن اللهجات الهندية الأوربية[٢] فأبان أنه يمكننا أن نقوم بتقسيم لهجى ، حتى فى زمن الهندية الأوربية . وهذا التقسيم يقوم على المبدأ القائل بأن من حقنا أن نتكلم عن وجود لهجات كلما رأينا عدداً كبيراً من الخطوط التى تفصل بين الخصائص ، ينطبق بعضها على بعض ولو بشكل تقريبى . فهناك لهجة محددة فى كل منطقة يلاحظ فيها وجود خصائص مشتركة . وحتى عندما لايمكن رسم خطوط دقيقة للفصل بين منطقتين متجاورتين فإنه يبقى أن كلا منهما تتميز فى مجموعها ببعض السمات العامة التى لاتوجد فى الأخرى . فالبروفنسالية والفرنسية ليستا فى حقيقة الأمر إلا لهجتين من لغة واحدة . وإذا لم يكن فى وسعنا أن نرسم على الخريطة خطاً محدداً يبين أين تنتهى الفرنسية وتبدأ البروفنسالية ، فإن كلا من اللهجتين فى مجموعها قد اشتملت على خصائص عديدة واضحة إلى حد يجعلنا فى مأمن من الخلط بينهما .

---

(١) دوزا : رقم ٦٥ ، ص ٢١٧ ومايليها ، مع إشارات بالرجوع إلى شوخارت وأسكولى وجاستون پاريس و ب مير : وقارن جاستون پاريس : رقم ١٠٦ ، ص ٣٣٤ .

(٢) رقم ١٩٩ ؛ وقارن برجمان : رقم ٣١ ، مجلد ١ ، ص ٢٢٦ وما يليها .

يمكننا أن نوجد فى داخل المجال الفرنسى نفسه تقسيما لهجيا باختيار بعض السمات الخاصة التى تكفى لتمييز اللهجة . فالفرنسية البيكاردية تمتاز عن فرنسية الإيل دى فرانس باحتفاظها بالـ C الانفجارية (ك) التى صارت صوتا صفيريا (ش) فى المجال الفرنسى . فتقول البيكاردية kar, kamp, keval بدلا من char champ, cheval . نعم إن هذا المقياس النافذ فى التمييز بين البيكاردية والفرنسية ليس صالحا كما أبان پول ميير ، للتمييز بين البيكاردية وبين جارتها الشمالية أعنى الفرنسية البلجيكية (الولونية Wallon) أو بينها وبين النرمندية جارتها الغربية . ولكن يوجد بين البيكاردية والفرنسية البلجيكية أو النرمندية خصائص أخرى مميزة تمكننا من وضع حدود إجمالية بين هذه اللهجات .

لذلك لا يقع المتكلمون فى الخطأ . فالتقسيم اللهجى يرجع إلى إحساس حقيق لدى سكان الإقليم الواحد ، إحساس بأنهم يتكلمون بصورة ما ليست هى الصورة التى يسير عليها سكان الإقليم المجاور . والبيكارديون القدماء كانوا يشعرون بأن فرنسيتهم البيكاردية لهجة تختلف عن فرنسية الإيل دي فرانس بقدر ما تختلف النرمندية عن الولونية (الفرنسية البلجيكية) . وذلك لأن البيكاردية فى مجموعها بالرغم من اختلاف صورها فى المجال الواسع الذى تتكلم فيه ، فيها سمات مميزة غالبة تميزها فى أذهان الذين يتكلمونها بالنسبة للهجات المجاورة . وهذا يفسر لنا وجود مؤلفات أدبية مكتوبة بالبيكاردية .

أغلب الظن أن اللغات الأدبية التى تعتمد على إحدى اللهجات أى التى تقوم على أساس لهجى لا تمثل ، كما سنرى فيما بعد (ص ٣٤٢) ، تمثيلا صادقا صورة التكلم لأى بلدة من بلدان المنطقة . وهذا يصدق على فرنسا فى العصور الوسطى كما يصدق على بلاد الإغريق القديمة . ولكن لا ينبغى أن نستنتج من ذلك عدم وجود اللهجة . بل إنها توجد بقدر ما توجد اللغة المشتركة فلها نوع من الوجود المثالى . ففى الفرنسية لا يكتب سان ألكسس Saint Alexis فى نفس اللهجة التى يكتب فيها سان ليجيه Saint Leger أو ال كانتيلين دى سانت أولالى la Cantilène de Saint Eulalie .

---

(١) رقم ٩٧ .

وفى بلاد الإغريق كانت لهجة الملحمة غير لهجة القصيدة الغنائية ؛ وفى الدرامة كانت تستعمل لهجتان مختلفتان ، واحدة للحوار والأخرى للغناء الجماعى . فأساس هذه اللهجات من حيث الأصل لغة أحد الأقاليم الإغريقية سواء أكان ذلك الإقليم فى الجزر أم فى القارة ، وسواء أكانت هذه اللغة واسعة الانتشار أم محصورته . وكان فى كل منها من السمات الخاصة المميزة ما يكفى لتسميتها لهجة . ولكن استعمال الشعراء لها صيّرها لغات أدبية ؛ واللغات الأدبية التى من هذا النوع لا تختلف عن اللغات الخاصة إلا قليلا .

بعد أن عرّفنا اللهجة على هذا النحو يجدر بنا ، قبل أن ندرسها فى صلاتها باللغة المشتركة ، أن نقول كلمة عن اللغات الخاصة . واللغات الخاصة نتيجة للانفصال الاجتماعى ، مثلها فى ذلك مثل اللهجات ولكن من وجهة نظر أخرى .

* * *

نعنى باللغة الخاصة تلك اللغة التى لا يستعملها إلا جماعات من الأفراد وُجدوا فى ظروف خاصة . ومثال ذلك حالة « المحضر » أو حالة القاضى . فهذان الموظفان يستعملان فى تسبيب حيثياتهما أو فى تحريرها لغة بعيدة جداً عن اللغة الجارية : هى اللغة القانونية . ولدينا مثال آخر فى لغة الطقوس الدينية : فكثيراً ما يستخدم المؤمن فى خطابه لله لغة خاصة ، كالكاثوليك إذ يستعملون اللغة اللاتينية . فيجب أن نسلك اللغات الدينية بين اللغات الخاصة . وأخيراً أنواع الأرجو les argots « اللغات العامية الخاصة » كلها لغات خاصة : فطلبة المدارس والصناع والأشقياء يستعملون فيما بينهم لغة متفقاً عليها . ومن اللغات الخاصة أيضاً تلك اللغات التى تتميز من اللغة الجارية ويستخدمها عدد محصور من الأفراد للتفاهم الذى فيه شىء من السرية . وكل هذه اللغات تشترك فى كونها خاصة بالنسبة للغة مشتركة بعينها ، وباختبار تكونها يتضح لنا أنها تنشأ جميعاً عن ميل واحد ، وهو ترويض اللغة على مشاغل المجموعة التى تستعملها .

تُعتبر بعض هذه اللغات الخاصة لغات مختلفة عن اللغة العادية . ومنها اللاتينية التى ظل العلماء زمناً طويلا يستخدمونها فى علاقاتهم الدولية . فهم قد اختاروا

لغة ميتة للتفاهم مع غيرهم من العلماء ؛ وفعل قسيسونا مثلهم فى مخاطبة الله . وظلت اللغة السنسكريتية فى الهند لغة البنديتيين ؛ أى لغة المثقفين . ويمكننا أن نعدّ من لغات العبادة التى تختلف عن اللغة الحية اللغات الإغريقية والسلافية القديمة والأرمينية ، أو القبطية التى ظلت اللغة الدينية لقوم يتكلمون فى شئونهم العادية اللغة العربية ، وهى لغة من أسرة أخرى . وهذا يفسَّر ببواعث خاصة : بالحاجة إلى إمكان التفاهم مع أناس من أقطار مختلفة فى حالة اتخاذ اللاتينية لغة للعلماء ، أو باتباع التقاليد وأكثر من ذلك بالحاجة إلى تمييز القدسى من الدنيوى ، وذلك كما فى حالة اللغات الدينية (انظر ص ٣٢١) .

وعلى الجملة فإن اللغات الخاصة تقوم على الرصيد المشترك للغة حية . ولكن بعضها لغات ميتة موت اللاتينية ، ومن ذلك لغة المحاكم . فكل مصطلح فيها اتخذ له دلالة نهائية ، على رجال المحاكم أن يحفظوها وأن يتبعوها دون أن يغيروا شيئاً منها . فهي ليست فى نهاية الأمر إلا لغة فنية كلغة الأطباء عندما يحررون نشرة طبية وعلى العموم ، كلغة العلماء من كل نوع عندما يعالجون مادة علمهم . واللغات الفنية تدين بوجودها إلى الحاجة للدلالة على أشياء أو أفكار لا أسماء لها فى الاستعمال الجارى ؛ ولكنها أيضاً ترجع إلى الحاجة للدلالة « بصورة علمية » أى بمصطلح دقيق يرفع كل لبس ، على أشياء مما تعبر عنه اللغة العادية تعبيراً جيداً . لذلك نراها أحياناً تخترع كلمات خاصة وأحياناً تستعمل كلمات اللغة العادية فى معنى خاص ؛ كما يفعل علماء الطبيعة حين يتكلمون عن « الكتلة » أو « السرعة » أو « القوة » . وبهذا تنحو اللغات الفنية نحو اللغات العامية الخاصة [1] .

صارت كلمة « عامية خاصة » (argot) فى الأيام الأخيرة مصطلحاً غامضاً . والواقع أنها ليست إلا اسما آخر للغة الخاصة ، ويوجد من العاميات الخاصة بقدر ما يوجد من جماعات متخصصة . والعامية الخاصة تتميز بتنوعها الذى لا يحدّ ؛ وأنها فى تغيّر دائم تبعاً للظروف والأمكنة . فكل جماعة خاصة وكل هيئة من

---

(١) انظر عن العامية الخاصة ف . ميشل : « دراسات فى الفلولوجيا المقارنة عن العامية الخاصة ٢٢ مارس ١٨٥٦ ؛ ل . سينيان : رقم ١١٩ ومؤلفات مارسل شوب ودوزا .

أرباب المهن لها عاميتها الخاصة . فهناك عامية التلامذة الخاصة ، وهى غير واحدة فى كل المدارس بل وتختلف أحياناً باختلاف الفصول فى المدرسة الواحدة ؛ وهناك عامية الثكنات الخاصة التى تختلف باختلاف الأسلحة بل وباختلاف الثكنات أيضاً ؛ وهناك عامية الخياطات الخاصة وعامية الغسالات وعامية عمال المناجم وعامية البحارين .

وأخيراً هناك عامية الأشقياء الخاصة . وهذه هى التى أطلق عليها كلمة « عامية خاصة » (argot) لأول مرة . فقد كان يوجد عندنا حتى بداية القرن التاسع عشر هيئة منظمة حقة للأشقياء وكانت لها لغتها الخاصة المتفق عليها والتى كان يعمل كل عضو من أعضاء الهيئة على المحافظة عليها . هذه هى العامية الخاصة «argot» ومن قبل كانت تسمى jargon ، لأن الكلمتين كانتا فى الأصل بمعنى واحد . وتسمى بالإنجليزية cant وبالألمانية Rotwelsch أو Gaunersprache وبالإيطالية furbesche وبالإسپانية germania وبالبرتغالية calão وبالرومانية smechereasca ، الخ . والذين يدرسون اللغة الخاصة ما زالوا يتخذون لغة الأشقياء أساساً لدراستهم ؛ ولكنها أرض لا يوجد أقل منها تحديدا . وذلك لأن الأشقياء لا يكونون الآن جماعة مغلقة يستطيع أعضاؤها أن يفرضوا على أنفسهم وحدة لغوية تامة . فالذين يتكلمون العامية الخاصة الآن ينتسبون إلى جميع الآفاق الاجتماعية . وما يسمى عالم الأشقياء يشتمل على ممثلين لكل الأقاليم وكل الطبقات وكل الأوساط . وإذا اجتمع المجرمون ، اجتمعوا فى وحدات منعزلة لحاجات عابرة ، لا يعترفون برئيس يستطيع ، كما استطاع ملك تون roi de Thunes أو كوسر الكبير grand Coesre ، أن يفرض عليهم إرادته . وليس يميزهم أى شىء خارجى ، بل يختلطون بحياة الجميع ، بالرغم من أنهم يعيشون على هامش المجتمع الشرعى . فكيف يوجد فى هذه الظروف لغة للمجرمين محددة تحديداً دقيقاً ؟

تنحصر خصائص العامية الخاصة فى اختلاف مفرداتها بوجه خاص . والواقع أنها تنشأ من تخصص اللغة المشتركة ؛ ولما كانت لا توجد إلا بمعارضتها لهذه اللغة المشتركة ، وجب أن نحس الصلة بين اللغة العامة والعامية الخاصة بصفة

دائمة ما دامت العامية الخاصة مستعملة . والتشويه الصوتى أو الصرفى مهما قلَّ ينتج عنه قطع الرباط الذى يصل العامية الخاصة باللغة المشتركة التى خرجت منها .

هذا إلى أن الصرف والأصوات يكوّنان نظامين لا يستطاع مسّهما بشىء دون تغييرهما من أساسهما . فلا عدوان للعامية الخاصة عليهما . طبعاً قد يقع للعامية الخاصة أن تتبع بعض عادات فى النطق تساعد على تمييزها . فالعامية الخاصة المستعملة فى الأطراف الباريسية تحتوى على بعض الخصائص الصوتية التى تكفى للتعريف بطبقة المتكلم الاجتماعية . ولكننا هنا أمام حقيقتين مختلفتين يجب علينا أن نميز بينهما : إذ أن النطق الطبيعى فى الأحياء الباريسية المتطرفة ليس هو النطق الفرنسى المعتاد . فالأطراف لها أصوات خاصة لا علاقة لها بالمفردات . وقد نسمع بعض العمال يتكلمون فرنسية لا شائبة فيها بتنغيمات أهل الأطراف ، وأناساً من علية القوم يتكلمون كلمات من العامية الخاصة مع نطق لا يعلو عليه نطق . فإذا اجتمع نطق الأطراف ومفردات العامية الخاصة فى متكلم واحد ، فمعنى ذلك اجتماع نوعين مستقلين من الخصائص بطريق الاتفاق .

يمكننا إذن أن نحصر الفوارق التى تميز العامية الخاصة فى المفردات . ولكن يبقى علينا أن نبيّن كيف تنشأ تلك الفروق بين المفردات . فأيسر الوسائل أن تستعمل كلمات اللغة الجارية استعمالاً خاصاً . وقد قلنا سابقاً إن الكلمات العامة التى مثل travail « عمل » و ouvrage « مشغل ، عمل ، صنعة ، تصنيف .. الخ » و opération « عملية » تتخذ بالضرورة معنى خاصاً فى أفواه الذين يستعملونها وفقاً لنوع المهنة التى تستخدم فيها هذه الألفاظ . فظاهرة التخصص المنوى تلك هى أساس العامية الخاصة (انظر ص ٢٥٦) .

الاستعمال الاستعارى من الوسائل المحببة إلى العامية الخاصة ؛ وكذلك استعمال اسم العلم فى وظيفة الاسم المشترك . وهاتان الخطتان معروفتان فى اللغة الجارية (أنظر ص ٢٨٧) ؛ فهما لا يميزان العامية الخاصة من اللغة الجارية فى شىء . ولكن طريقة تطبيقهما قد تسمح بشىء من التمييز : فالواقع أن الاستعارة والنقل يستعملان فى العامية الخاصة بتواتر خاص ؛ إذ أن الاستعارات فيها تبلى بسرعة

وتحتاج إلى كثرة التجديد ، حيث أن الغرض من استعمالها هو توسيع شقة الخلاف التي تفصل بين العامية الخاصة واللغة المشتركة والمحافظة على بقاء هذا الخلاف ؛ فلا يدهشنا إذن أن تستهلك العامية الخاصة من الاستعارات أكثر مما تستهلك أية لغة أخرى . كذلك كثيراً ما تكون هذه المبتكرات شعورية وعرضية . وهنا نلمس عن كثب أكثر الخواص تمييزاً للعامية الخاصة عن اللغة الجارية . إذ أن العامية الخاصة مع كونها لغة طبيعية من حيث مبدؤها ومن حيث تكوينها فإنها تقارب اللغات الاصطناعية وتتزود من المبتكرات الفردية . فتفوق عضو من الجماعة يفرض على الآخرين تسمية ناجمة من ظروف خاصة في حياة الجماعة؛ وهكذا يشاطر الهوى الفردي في خلق كلمات جديدة .

وهذا كله غير كاف . فوسائل اللغة العادية لا تكفي ، مهما شدّ من أزرها فعل الأفراد الخاص ، لتزويد العامية الخاصة بذلك التيار الدائم من الكلمات التي تحتاج إليها . وهنا تتدخل المفردات الأجنبية بمدّ يد المساعدة . ويجب أن نفهم كلمة أجنبية هنا بمعناها الواسع الذي يشمل كل ما ليس من اللغة المشتركة التي ترتكز عليها العامية الخاصة . وهكذا تستطيع المساهمة في تكوين العامية الخاصة وتجديدها صور التكلم المحلية المنتشرة في جميع أرجاء القطر ، وكذلك اللهجات ولهجات اللهجات التي تعتبر بدورها لغات مشتركة صغيرة خاضعة للغة القطر العامية ؛ بل واللغات الأجنبية التي تتكلمها الأقطار المجاورة . « فعامية ألمانيا الخاصة » Rotwelsch مثلاً ملأى بالكلمات اليهودية الألمانية والجرمانيا germania (في أسبانيا) فيها عناصر غجرية هامة جداً ؛ والـ Smechereasca تضيف إلى أساسها الروماني عناصر مجرية وروسية ويهودية ألمانية وغجرية ، ونقابل هنا وهناك في الـ cant كلمات إرلندية ، مثل twig « الفهم » من (الإرلندية twigim « أفهمُ ») . وفي العامية الخاصة بمدرسة البوليتكنيك توجد كلمة ألمانية هي schiksal « مصادفة ، قدر »[1] . والعامية الخاصة الفرنسية على وجه العموم تحتوي على كلمات أجنبية قليلة العدد (عربية ، غجرية ، يهودية ألمانية) ؛

(١) مارسل كوهين : رقم ٦ ، مجلد ١٥ ، ص ١٧٠

أما أساسها فمستعار من عناصر أهلية ، ولكن اللهجات الإقليمية ممثلة فيها بأكثر من الفرنسية المشتركة[1] .

يترتب على هذا التنوع فى تكوين العامية الخاصة ، أننا نجد فيها كثيراً من الكلمات الحوشية ، إذ الواقع أنه إذا دخلت كلمة فى العامية الخاصة بواسطة التخصص المعنوى أو مجرد الاقتباس ، حافظت التقاليد فى غالب الأحيان على بقائها فيها حتى بعد انقراضها من اللغة الجارية . وقد يدهش الإنسان مثلا حين يعلم أن الكلمة الألمانية القديمة lütt « صغير » تستعمل فى عامية الألمانية الخاصة بدلا من كلمة « Klein » أو أن الفعل occire « يقتل » الذى اختفى من الاستعمال منذ قرون ما زال يستعمل فى العامية الخاصة الفرنسية بدلا من الفعل tuer . وهذه حوشية . ومثل هذه الحالات لا تكون فى كثير من الأحيان حوشية إلا فى مظهرها فحسب إذ هى فى حقيقة الأمر مستعارة حديثاً فى نصوص أدبية ، ومن العسير فى بعض الأحيان أن نميز بين الخطتين .

والأخذ عن الكتب أمر فردىّ فى غالب الأحيان ، وهو إحدى الوسائل الاصطناعية التى تدخل فى تكوين العامية الخاصة . وهذه الوسائل على درجة كافية من التنوع . وتنحصر مثلاً فى تشويه مظهر الكلمات الخارجى . وهكذا يستعيضون عن لاحقة من لواحق اللغة الجارية بلاحقة خاصة بالعامية ؛ وذلك كقول العامية الخاصة الفرنسية épismar بدلا من epicier « بدّال » و Auyerpin بدلاً من Auvergnat « أو فرنى » وكقول الألمانية فى عاميتها الخاصة Kofmich بدلاً من Kaufmann « تاجر » . وبعض التشويهات الأخرى ليست إلا توسعاً فى التغيرات الصوتية المطردة . وإن الأسباب المذكورة فى صفحة ٨٩ لتفسير المبالغة فى العوارض الصوتية لتجد مجالا خصباً فى العامية الخاصة . ففيها يستطيع المتكلم بوجه خاص أن يسمح لنفسه بنطق الكلمات فى صورة مختزلة : لأنه يخاطب عدداً محصوراً من المتكلمين ، كلهم ممهّد الذهن لفهمه،

---

(١) انظر الدراسة القيمة التى كتبها الأستاذ إرنو عن العامية الخاصة البريتانية ، رقم ٨ مجلد ١٤ ص ٢٦٧ .

وكلهم متفاهم معه مقدماً . ومن ثم يجيء هذا العدد الضخم من حالات الحذف والإسقاط والتبسيط وحذف النهايات ، هذه العوارض الصوتية التى تجعل العامية الخاصة لا يفهمها إلا العارفون . ومن جهة أخرى تجد ظواهر التشابه والتخالف والنقل المكانى فى العامية الخاصة المتكلمة ميداناً خصيباً لا يعترض انتشارها أية عقبة من القواعد . وأخيراً نعثر فى العامية الخاصة على تشويهات مصطنعة غير مرتبطة بظروف اللغة الطبيعية : ومثال ذلك الجاڤانية le javanais, le loucherbème . فنى الحالة الأولى ينقل الحرف الأول منها إلى آخرها ويستعاض عنه بحرف ل « l » ثم يضاف إلى الكلمة بعد هذا التشوية لاحقة من اللواحق العامية الخاصة ؛ وفى الحالة الثانية يقحم مقطع ما فى داخل الكلمة (ar أو oc أو al أو am الخ) ، ولكن الغالب أن يكون المقطع المقحم av أو va ولعل هذا هو أصل الاسم الجاڤانية « Javanais » .

اللوشيربيم Le loucherbème حديثة العهد نوعاً لأنها ترجع إلى بداية القرن التاسع عشر على الأكثر ، أما الجاڤانية المستعملة بين طغام باريس فيظهر أنها أقدم منها عهداً ، ولكن الطريقة التى تنبنى عليها هاتان العاميتان الخاصتان أقدم منهما بكثير ؛ إذ لا بد أنها قد استخدمت فى كل زمن وفى كل مكان احتاج فيه قوم إلى تغيير لغتهم . ويوجد فى البنجاب اليوم قبيلة من اللصوص خلقت لنفسها لغة خاصة باقحام المقطع ma فى داخل الكلمة المستعملة فى اللغة البنجابية [١] . وهى طريقة من أبسط الطرق وفى متناول كل إنسان . فقد رأينا فى ص ٢٩٣ أن خلق كلمات جديدة أمر فى غاية العسر . فإذا لم يكن لدى القائمين بهذا الأمر منبع من المفردات المجاورة ينهلون منه ما شاءوا من كلمات جديدة ، أمكنهم أن يعدّلوا الكلمات الموجودة بالفعل تبعاً لقاعدة مطردة . وهذه الطريقة التشويهية مستعملة فى عدد كبير من العاميات الخاصة . فتلاميذ المدارس كثيراً مايستعملون الجاڤانيــة ؛ وقد شوهد استخدام هذه الطريقــة فى بعض المؤسسات التعليمية بالأقطار الجرمانية والسلاڤية .

---

(1) T. G. Bailey on the secret words of the çûlûâs (proceedings of the Asiatic Society of Bengab, 1902).

هناك شخصية محوطة بالألغاز لا نعرفها إلا باسم مستعار ضخم الدلالة ، هو اسم فرجيليوس مارو Virgilius Maro النحوى الذى عاش على ما يظهر فى القرن الخامس بعد الميلاد . يقال إن هذا الرجل اخترع لغة خاصة ظلت شائعة الاستعمال زمناً طويلاً بين تلامذة المدارس الإيرلندية . وكانت تقوم هذه اللغة على تشويه الكلمات الجارية بأنواع من تضعيف المقاطع أو بترها أو نقلها . وبمضى الزمن تحورت وتمخضت عن لغة أخرى أمشاج سميت « لغة الشعراء » ، berla na filed بالإيرلندية . وهى عامية خاصة اختلطت فيها على غير قاعدة كلمات مستعارة من اللاتينية والإغريقية والعبرية وكلمات أهلية أهملها الاستعمال أو استمدت من النصوص العتيقة ، وكلمات مأخوذة من الاستعمال الجارى بعد قلبها أو تشويهها . هذه اللغة ، التى لا زالت تحت يدنا منها عينات عسيرة التفسير فى غالب الأحيان ، بقيت بقوة التقاليد زمناً طويلا تستخدم فى المدارس الإيرلندية كلغة سرية . ولكنا نجهل إلى أى حد كانت تتكلم ؛ ولعلها لم تكن إلا نظاماً من نظم الرسم ، كلغة السَّحرة وكتّاب التعويذات .

الرق السحرية التى نعثر عليها فى قبور اليونان وإيطاليا وإفريقية مكتوبة على ألواح من الرصاص ، تطبق فى غالب الأحيان هذه الخطط نفسها : استعمال الكلمات الأجنبية أو تشويه الكلمات الأهلية(١) . ولكن الباعث هنا يختلف : إذ يبغون من وراء ذلك الاتصال بالعالم الآخر ، ومن ثم يدخلون فى تحرير النص اعتبارات لا صلة لها باللغة .

هذه الملاحظة تؤدى بنا إلى أن نقول كلمة عن اللغات الخاصة التى تنشأ عن بواعث خفية . السياح الذين طافوا بالأقطار البدائية وعلماء الأجناس الذين ينسقون أخبار السائحين يحدثوننا عن أهمية اللغات الخاصة بين الجماعات غير المتحضرة . إذ يوجد فى داخل اللغة الواحدة لأسباب دينية أنواع مختلفة من المفردات ، ووجهة الخلاف فيها تنحصر فى طريقة استعمالها وفى الأغراض التى تستعمل فيها ؛ والواقع

---

(١) أودولن Audollent : Defixionum tabellae ، باريس ١٩٠٤ .

« أن مجال التقديس عند هؤلاء المتوحشين أوسع منه عندنا . إذ لا يوجد نشاط اجتماعى أيا كان دون أن يساهم وقتاً ما فى طقس من الطقوس السحرية الدينية ؛ ويجب — من الوجهة النظرية — استعمال لغة خاصة كلما جدّت مناسبة من هذه المناسبات ... هذه اللغات الخاصة التى لا تستعمل إلا لوقت محدود ، ذات طابع انفصالى فى غالب الأحيان ؛ أو على الأقل إنما تتكوّن (إلا فى الحالات النادرة) من عدد يقل أو يكثر من العبارات المحرمة الاستعمال ، أى من تابوهات tabous لغوية[١] » . فكل ما كان ذا صفة قدسية ، وبالطبع كل ما مثل الألوهية فى جميع صورها ، وأيضاً كل مادلّ على الرؤساء والموتى والأشياء المخصصة لهم والحيوانات التى تمثلهم ، الخ ، كل هذا يدعو إلى استعمال لغة خاصة . وتستعمل أيضاً فى الأفعال التى تحمل طابع التقديس عامة كالصيد البحرى والبرى والملاحة والحرب ، وفى بعض الأفعال الخاصة التى تدين بطابعها التقديسى إلى أهمية مكانية أو زمنيــة . فيوجد فى أندونوسيا لغات خاصة بالباحثين عن الكافور وبالباحثين عن الذهب .

من أكثر أنواع التخصيص شيوعاً ، ذلك التخصيص الناجم من اختلاف الجنسين . فالنساء لايستعملن اللغة التى يستعملها الرجال ؛ وحتى عندما يفهمن الكلمات التى يستعملها الرجال لا يكون لهن الحق فى النطق بها . فلا بد إذن من وجود نوعين من المفردات متوازيين تماماً حتى يصير لكل شىء اسمان تبعاً لجنس المتكلم . فعند الكاريبيين مثلا يتكلم الرجال اللغة الكاريبية caraïbe والنساء الأرواكية arowak [٢] . وأحياناً يتعدد الاختلاف فى الطبقة الاجتماعية . فعند سكان جاوا الأصليين يتكلم الرئيس إلى مرؤوسيه باللغة النجوكية ngoka ، ويجيبه المرؤوس باللغة الكرومية kromo[٣] .

---

(١) ڤان جنب Van Gennp ، رقم ١٤ ، ١٩٠٨ ، ص ٣٢٧ وما يليها ؛ و ر. لاش R. Lasch — Mitterl. der anthropol Gesellsch ڤينا (١٩٠٧) .

(٢) ل . آدم . L. Adam : Du parler des hommes et du parler des femmes dans la langue Caraïbe .

(٣) فون در كابلنتس Von der Cabelentz ، رقم ١٦٣ ، ص ٢٤٤ .

وفى بعض الأحيان تختلف اللغات أيضاً باختلاف الأعمار . فعند الماسين Masaï فى إفريقية الشرقية يقسم السكان الذكور بحسب أعمارهم إلى طبقتين ، لكل طبقة منهما تقاليدها الصارمة التى تحرم عليها بعض الأطعمة وبالتالى استعمال بعض الكلمات(١) . ولا يجوز لمن هم أكبر سناً أن يمسوا ذيل حيوان مقتول أو رأسه ، ويجب أن يستعملوا ألفاظاً خاصة للدلالة على هذا الذيل أو هذا الرأس . كما لا يباح لمن هم أصغر سناً أن يأكلوا من قرع الكوسة أو من القرع الأحمر . ومن أشنع الأخطاء أن ينسى أحدهم فيسمى أمام الآخر أحد الأفعال المحرمة على الأخير . وهذه التقاليد ناشئة من اعتبارات دينية : إذ ينظر إلى المجموعتين على أنهما شطرا وحدة سرية ، هى مجموع أفراد القبيلة الذكور . فيبين الفرق بين الشطرين بالاختلاف فى الأفعال ، وهذا يؤدى بالضرورة إلى الاختلاف فى المفردات .

هذه الظاهرة تدخل مباشرة فى دائرة الأعمال الترويضية ، التى لها أهميتها عند المتوحشين . وهناك طقوس خاصة تصحب الانتقال من مرتبة من مراتب السن أو من المراتب الدينية إلى مرتبة أخرى . يقصد بها فصل المبتدئ من وسطه السابق لإدماجه فى الوسط الجديد ؛ ومن ثم يجئ استعمال اللغات الخاصة التى تبقى كاملة أو غير كاملة حتى بعد اندماج المريد فى الوسط العام .

تعارض العالمين عالم الحقيقة وعالم الغيب ، أو عالم الخير وعالم الشر يعد أساساً لعدد كبير من الأديان . وهذه الثنوية كثيراً ما تخلق انفصالاً فى اللغة . فيوجد فى الأفستا عشرون كلمة بصورة مزدوجة ، تستعمل واحدة من كل زوج عند الكلام على هرمزد ، إله الخير والأخرى عند الكلام على أهريمان ، إله الشر(٢) . وقد يكون للفعل الواحد — فى عالم الحقيقة أو فى عالم الغيب — وجهان ؛ فإذا دخل فى عالم السحر دل عليه بكلمة متميزة وجديدة . وموضوع التضحية التى

---

(١) الكابتن مركر Capit. Merker ، Die Masaï, Ethnogrphische Monographie eines östafrikaneschen Semitenvolkes (١٩١٠) ، ص ٧١ ، ينقل عنه س . فايست S. Feist : رقم ٢٤ ؛ مجلد ٣٧ ص ١١٣ .

(٢) انظر درمستتير ، رقم ٦٤ .

يقوم القسيس بتنفيذها هو المساعدة على العبور من عالم إلى عالم[1] . لذلك كانت تقتضي التضحية فى كل الأقطار استعمال لغة خاصة ، وهى التى نسميها اللغة الدينية. وإذن فاللغات الدينية فى أوربا الحديثة تقوم فى أصلها على أسباب سحرية ، ترجع بنا إلى رياضات البدائيين وعقائدهم .

هذا إلى أنه يجب ألا نبالغ هنا فى الفرق بين المتوحشين وبين المتحضرين . فالأسباب التى تدفع بهؤلاء وأولئك إلى خلق اللغات الخاصة ، أسباب واحدة . وفى أعرق لغاتنا مدنية حالات من التخصيص لو وجدناها فى إقليم الزمبيزى أو فى سومطرة لما ترددنا فى إرجاعها إلى العقلية الغيبية . وتحريم المفردات على ماله من أهمية فى تكوين جميع المفردات الأوربية القائمة ، خطة غيبيــة خالصة ؛ وكم من أناس حولنا يتجنبون نطق هذه الـكلمة أو تلك مخافة أن يحل بهم العارض الذى تدل عليه الـكلمة ، كما أن عبارة absit omen عبارة وحشية ، وما القدرة التى تضاف للاسم إلا بقية من تلك العقلية الغيبية . بل لانعدم أن نجد بيننا تلك اللغات الخاصة بالنساء . إذ يوجد فى بعض الأحيان عند يهود ألمانيـا الذين يستعملون اللغة اليهودية الألمانية ، نوعان من المفردات لتميز ماهو يهودى مما هو غير يهودى[2]. ولـكن هناك أيضاً فروقاً فى استعمال اللغة تبعاً لاختلاف الجنسين ، فالرجل يلقى التحية أو يرد عليها بالعبرية ، أما المرأة فتستعمل فى ذلك الألمانية دائماً .

من جهة أخرى يمكننا أن نتساءل عما إذا كانت اللغات الخاصة التى لا يزال يستعملها أرباب بعض المهن المعينة فى الأقطار المتوحشة برهاناً على عقلية غيبية . وكما أن سكان اللايو عندهم لغة الباحثين عن الذهب أو الباحثين عن الـكافور ، فعندنا أيضاً تلك العامية المهنيَّة الخاصة التى تستعمل فى صناعاتنا على اختلافها . وفى بريتانيا تنوولت لغــة الخياطين[3] (langaje kéméner) بالدرس ، كما

---

(١) هوبرت وموس Hubert et Maus : Essai sur la nature et la fonction du sacrifice فى رقم ٨٥ ، ص ١ — ١٣٠ .

(٢) إرنــست ليفى Ernest Levy : رقم ٦ ، مجلد ١٨ ، ص ٣٣٣ .

(٣) إرنو، رقم٨ ، مجلد ٢٤ ، ص٢٧ .

تنوولت فى إيرلندة واسكتلندة لغة صانعى الصهاريج (shelta) ولغة غيرهم من أبناء المهن الأخرى [1] . فلعل هـذه اللغات لغات غيبية قديمة مثـــل le berla na filed ؛ ولـكن بقاءها يفسر بتقاليد هـذه الطوائف الخاصة وحاجاتها ، وهى طوائف تعزلها أعمالها عن بقية الناس .

اللغات الخاصة تنشأ من الانفصال الاجتماعى؛ لذلك كانت — من حيث المبدأ — لغات طبيعية كاللهجات تماماً . ولـكنها تقوم دائماً على مادة لغة مشتركة ، وتظل عادة تستمد منها غذاءها .

(١) انظر ر. ل. بست : R. L. Best : Bibliography of Irish Philology and Literature

الفصل الثالث

اللغات المشتركة

أشرنا فى آخر الفصل الأول (ص ٣٠٧ و ٣٠٨) إلى أى حد يعتبر توحيد اللغة ضرورة اجتماعية . ولولا مقاومة المجتمع للتفكك اللغوى لأصبح العالم أمام حشد من صور التكلم التى لا تزيدها الأيام إلا تفرقاً . ولكن الذين يتكلمون إحدى اللغات يميلون دائماً إلى المحافظة عليها كما هى ؛ وكذلك التبادل الكلامى الذى يحدث باستمرار بين أعضاء مجموعة اجتماعية واحدة يؤدى إلى توحيد اللغة . ومن هنا تنشأ اللهجات ، وكذلك اللغات المشتركة التى تسير مع اللهجات جنباً لجنب .

ومع ذلك فهناك خلاف بين تكوّن اللغات المشتركة واللهجات . اللهجات تنشأ فجاءة من التعاون الطبيعى للأحداث اللغوية . إذ توجد اللهجة فى كل مكان توجد فيه صور تكلم متجاورة ذات خصائص مشتركة وتشابه محسوس فى المظهر العام لدى المتكلمين . فاللهجات لا يمكن تحديدها إلا على وجه التقريب . وقد قلنا إننا إذا جمعنا كل المعايير اللغوية ، لم نستطع بها أن نخط حدوداً للهجة من اللهجات . فالعالم اللغوى لا يسير على قاعدة حين يختار الظواهر التى بمساعدتها يقسم الخريطة إلى أقسام لهجية . وشأن اللهجات كشأن الأقاليم الطبيعية التى ينقسم إليها قطر من الأقطار[1] . فإذا لم تستخدم هذه الأقاليم أساساً لتقسيم سياسى ، بقيت حدودها دائماً غير ثابتة . فسكان مقاطعة السين والمارن لا يزالون يتكلمون عن البرى Brie والجاتينية Gatinais والمنتوا Montois . ولكن هذه الأسماء المختلفة لا تمثل اليوم أى إقليم محدد تحديداً دقيقاً ، وإن دلت على بعض الخصائص

(١) قارن جلوا Gallois : Régions naturelles et noms de pays ، باريس ، كولان ١٩٠٨ .

الجغرافية ؛ ولكن كان يمكن الكلام فيما مضى عن حدود كنتية ألبرى Comté de Brie ، أما المنتوا — على الأقل — فلم تكن فى يوم من الأيام أكثر من عبارة جغرافية .

كذلك اللهجة تتضح حدودها إذا كانت تطابق تقسيما سياسيا ، وتبقى هذه الحدود فى غالب الأحيان زمنا طويلا بعد زوال الظروف التى أدت إلى تحديدها[1] . لذلك يلاحظ فى بعض أقاليم ألمانيا الحالية ، أن حدود الخصائص اللغوية تتطابق فى بعض النقط التى تتفق فيها هذه الحدود مع الحدود السياسية السابقة لسنة ١٧٨٩ . وهذه الحدود ترجع فى عمومها إلى القرن السادس عشر ، بل إلى القرن الخامس عشر ؛ وقد كانت حدودا دينية فى نفس الوقت ، حتى أن الأثر الدينى يتعاون مع الأثر السياسى فى تعيين حدود اللهجة . وكذلك الحال فى بريتانيا الفرنسية ، حيث تتفق حدود لهجات ليون Léon وكرنواى Cornouailles وترجييه Tréguier التى لا تزال واضحة فى كثير من النقط ، مع تقسيمات الإقليم الدينية والسياسية القديمة . ومما يلفت النظر أن نهر مرليه Morlaix الذى يفصل بين لهجة ليون ولهجة ترجييه هو الذى كان يفصل بين الإبرشيتين فيما مضى ، وأن مدينة مرليه التى تقع على ضفتى النهر المسمى بهذا الاسم تنقسم لغويا إلى قسمين لهذا السبب . وهذا لايعنى أن سكان الضفتين لا يفهم بعضهم بعضا ؛ ولكن هناك عدداً من الخصائص المشتركة مجتمعة فى منطقة تنتهى فى تلك النقطة ؛ والخطوط اللغوية التى تتطابق بعضها مع بعض تتطابق أيضاً هنا مع تقسيم إدارى قديم ، كما هى الحال فى اللهجات الألمانية .

ومع ذلك فمهما كانت أهمية العوامل السياسية والاقتصادية فإن اللهجة أولا وقبل كل شىء كيان لغوى . وحتى عندما نحسب حساب الظروف الخارجية فى تكوين اللهجات ، يبقى أن هذه الظروف تستند جوهريا إلى التطور الطبيعى لعناصر اللغة .

---

(١) ل . فيفر : Histoire et dialectologie فى مجلة Revue de la Synthèse historique مجلد ١٢ ، ص ٢٤٩ .

وهذا غير الحال فى اللغة المشتركة . لأن الظروف الخارجية هى التى تحددها وتدين بوجودها إلى انتشار قوة سياسية منظمة ، أو إلى تأثير طبقة اجتماعية غالبة أو إلى تفوق أحد الآداب ؛ ومهما كان الأصل الذى تعزى إليه نشأتها ، فهناك دائماً أسباب سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية تبعث على استبقائها . « المدنية وحدها هى التى تستطيع أن تنشر اللغة بين كتل عظيمة من البشر » (١) . ولا تتفكك اللغة المشتركة وتتفتت إلا إذا تراخت العرى الاجتماعية التى كانت تمسكها . وإذن فمن الممكن أن ندرس على انفراد تكوّن اللغات المشتركة وأن نبيّن بأمثلة من التاريخ الأسباب التى تبعث على نشوئها وازدهارها وذبولها .

* * *

تقوم اللغات المشتركة دائماً على أساس لغة موجودة ، حيث تُتخذ هذه اللغة الموجودة لغة مشتركة من جانب أفراد مختلفى التكلم . وتفسر الظروف التاريخية تغلب هذه اللغة التى اتخذت أساساً وتعلل انتشارها فى جميع مناطق التكلم المحلىّ المختلفة . ولكن على العالم اللغوى أن يبدأ بالعمل لتحديد هذه اللغة .

ظروف خاصة هى التى ترشحها فى كل قطر على حدته ؛ فكل واحدة من اللغات المشتركة الكبيرة — حديثة كانت أو قديمة — نشأت بطريقة خاصة . وأحياناً نرانا أمام إحدى اللهجات ، أى أمام لغة إقليم معين انتشرت فى الأقاليم المجاورة وصارت لغتها المشتركة . وهذا ما حدث فى بلاد الإغريق القديمة حين تكوّنت لغة κοινή الهلّينستية ابتداء من عهد الإسكندر . إذ أن هذه اللغة ليست فى جوهرها إلا اللهجة الأتيكية Attique . وكانت هذه اللهجة قد ظلت حتى القرن الخامس « لغة محلية لإقليم منعزل لا يكاد يرحل إليه أحد من الأجانب ؛ وكان سكانه — وهم فى عمومهم من الزراع — من عنصر نقى نسبياً لا يشوبه اختلاط » (٢) . ومن قبل ذلك كان يوجد فى بلاد الإغريق لغات مشتركة ، ولاسيما فى المستعمرات .

---

(١) ا . رينان : رقم ١١١ ، ص ١٠١ .

(٢) مييه : رقم ٩٣ ، ص ٢٤٣ — ٢٤٤ . وقارن كرتشمر Kretschmer رقم ١٧٧ ؛ و Thumb رقم ٢١٣ ؛ وهفمان : رقم ١٦٨ .

فقد كانت اليونية منذ انتشارها على شواطىء آسيا الصغرى قد صارت لغة مشتركة ؛ وهذه اللغة نعرفها من هيرودوت الذى يمثلهـا لنا خير تمثيل . فمع كوننا نعرف بشهادة هذا المؤرخ أنه كان يوجد فى الدوديكاپول Dodécapole عدد من اللهجات المحلية التى يختلف بعضها عن بعض ، فقد كان فيها أيضاً لغة مشتركة تظلُّ اللهجات المحلية . ولـكن الظروف السياسية لم تمـكن هذه اللغة اليونية المشتركة من الوصول إلى الأهمية التى وصلت إليها اللغة الأتيكية فيما بعد . فقد صارت الأتيكية فى الفترة التى بين الحروب الميدية وقيام الإمبراطورية المقدونية فى حالة تسمح لهـا بأن تمدَّ العالم الهلينى جميعه بلغة مشتركة ، وذلك بفضل هذا التعاون الفائق الذى أنتجته عدة أسباب معقدة . ويجب أن نذكر بين الأسباب التى ساعدت لهجة الأتيكيّين على هذا التغلب ، ذلك الدور الأساسى الذى آل إلى أثينا بعد سقوط الإمبراطورية الفارسية . ولـكن زاد من قوة الأتيكية وإشعاعها شهرة شعرائها وفنانيها ؛ فكان لأثينا — بوصفها مركزاً سياسياً وأدبياً وفنياً على السواء — شرف تأسيس اللغة المشتركة التى ظلت منذ القرن الرابع قبل الميلاد حتى القرن التاسع بعد الميلاد ، أداة للتفكير عند جميع الإغريقيين . هـذه اللغة خرجت من اللهجة الأتيكية كما كانت تتكلم فى حدود الإقليم ؛ فهى لا شىء أكثر من تهيئة اللهجة الأتيكية لاستعمال سكانٍ ذوى لهجات بل ولغات مختلفة .

فى إيطاليا القديمة تختلف الظروف بعض الشىء (١) . فاللاتينية التى صارت لغة إيطاليا المشتركة وأخيراً لغة العالم الغربى بأسره ، كانت لغة روما أولا وقبل كل شىء ، أى لغة المدينة فى مقابلة لغة الريف المجاور واللهجات القاصية على السواء . وقد بدأت لغة المدينة Le sermo urbanus بالتضييق على اللغـــة الريفية Le sermo rusticus قبل أن تحل محل اللهجات المجاورة بعد أن غزتها فى عقر دارها ، مثل السابينّة le sabin والمرسية le marse ، ثم محل لغات إيطاليـا الأخرى من أسكية l'osque وأمـبرية l'ombrien وأترسكية l'étrusque

---

(١) شتلتس Stolz ، رقم ٢٠٨ .

وكلتية le celtique وإغريقية . وهنا أيضاً نقابل أهمية المدينة بوصفها عاصمة سياسية .

من العاصمة أيضاً خرجت الفرنسية المشتركة . فأهمية باريس السياسية والمنطقة الباريسية تفسر لنا بدرجة كبيرة انتشار لهجة الإيل دى فرانس l'Ile de France أى « الفرنسية » فى الأقاليم المجاورة وذلك بانضمام هذه الأقاليم إلى المملكة ، وصيرورتها فى نهاية الأمر أداة للتبادل الذهنى من دنكرك إلى بربنيان ومن برست إلى شامونكس . وفرنسية الإيل دى فرانس لم تمتد فحسب على اللهجات التى تشترك معها فى أسرة واحدة ، أى اللهجات المشتقة مثلها من اللاتينية ، بل اتخذت أيضاً لغة مشتركة لدى الفلمنكيين والبريتانيين ؛ مع أن لغتيهما الطبيعيتين من أصل جرمانى أو كلتى ؛ كما نفذت بوصفها لغة مشتركة فى إقليم الباسك فى الجنوب الغربي من فرنسا ، على أنها لم تقتصر على حدود فرنسا السياسية ، إذ أن بعض الأجزاء البلجيكية والسويسرية يدخل فى المجال الفرنسى من الوجهة اللغوية ؛ وذلك دون أن نتكلم عن الجاليات القديمة أو الحديثة التى تعمل على انتشار الفرنسية فيما وراء البحار[1] . وتاريخ هذه الفرنسية المشتركة وتاريخ تكونها وانتشارها الجغرافى يتصل اتصالا وثيقاً بتاريخ فرنسا السياسى والاقتصادى والاجتماعى : فلا يستطاع فهم أحدهما دون معرفة الآخر . ولكن الفرنسية إنما خرجت من العاصمة ، ومن طبقة اجتماعية بعينها من طبقات العاصمة ، وهى البرجوازية . وهذه حقيقة أبان عنها برينو Brunot فى وضوح بالغ[2] : إن لغتنا المشتركة على النحو الذى استقرت عليه فى القرن السابع عشر ، هى لغة البرجوازية الباريسية ، برجوازية « المدينة » ؛ وقد سلم بها القصر ثم الأقاليم ، والكتاب الكبار باستعمالهم إياها زودوها بالقدرة على فرض نفسها نهائياً وعلى استمرارها . لذلك لا نكاد نحس فيها أثراً للهجات . الأسبانية المشتركة نشأت واستقرت قبل الفرنسية بزمن طويل . إذ كانت

(١) أنظر La langue française dans le monde (نشر الأليانس فرنسيز) باريس ١٩٠٠ .

(٢) رقم ٥٧ ، مجلد ٣ (La formation de la langue française) . انظر أيضاً روسيه Rosset ، رقم ١١٢ .

شبه الجزيرة عند الفتح العربى (عام ٧١١) ميداناً لثلاث مجاميع من اللهجات يختلف بعضها عن بعض اختلافا كبيراً : الغاليسية فى الغرب والقسطلانية فى الشرق ومجموعة وسطى تشغل منطقة شاسعة . والأسپانية المشتركة خرجت من لهجة من من لهجات الشمال ، لهجة قسطلة القديمة La Vieille- Castille القريبة من الأقاليم البسكية . اتجه انتشار القسطلانية نحو الجنوب ، لأسباب يبررها التاريخ السياسى ، وكان انتشارها فى شكل هلال أخذ يزحف على لهجات المجموعة الوسطى شيئا فشيئاً . ومع ذلك فقد بقيت عن يسار القسطلانية بمعناها الضيق وعن يمينها بقايا من هذه المجموعة تتمثل حتى أيامنا هذه فى لهجتى الليون Le Léon والأرجون l'Aragon ، اللتين تتشابهان تشابهاً غريباً . وقد صارت القسطلانية لغة أدبية فى القرن الثالث عشر بفضل الملك ألفونس العاشر (١٢٥٢ — ١٢٨٤) الذى كان يحتل بالنسبة لأسبانيا المكان الذى يحتله دانتى بالنسبة لإيطاليا . فالأسبانية المشتركة إذن نتيجة لتفوق قسطلة فى السياسة والآداب . وهذا التفوق لم يمتد إلى البرتغال التى صارت دولة مستقلة منذ نهاية القرن الحادى عشر . واللهجات البرتغالية كانت تنتمى دائماً إلى المجموعة الغربية . ومن ثم كانت البرتغالية القديمة تختلط بالغاليسية . ولكن الأهمية التى وصلت إليها لشبونة فى القرن السادس عشر بوصفها العاصمة ، وتأثير الشاعر الكبير كامونس Camoens (١٥٢٥ — ١٥٨٠) جعلا الغلبة للهجة المنطقة الوسطى فى القطر الذى صارت فيه لغة البرتغال الأدبية المشتركة . أما اللهجة التى تتكلم اليوم فى غاليسيا ، فعليها سيما البرتغالية القديمة وقد توقفت عن التطور : ومع ذلك فهى مملوءة بالآثار اللغوية الأسبانية (١) .

إذا قارنا الإنجليزية المشتركة بالفرنسية أو الأسبانية ، وجدناها تحمل منذ بدايتها آثار اللهجات المختلفة (٢) . وهذا ناتج من موقع مدينة لندن التى نشأت فيها الإنجليزية المشتركة فى نقطة تجعلها ملتقى لمختلف اللهجات .هذا إلى أن تكوّن اللغة

(١) ندين بالمعلومات التى نوردها فى هذه الفقرة إلى الأستاذ أمريجو كاسترو Amerigo Castro الذى تفضل فبعث بها إلينا ، وانظر ليتى دى فاسكنسلوس Leite de Vasconcellos رقم ١٢٧ .

(٢) و. هورن W. Horn ، رقم ١٦٩ ، ١٧٠ ؛ مرسباخ Morsbach رقم ١٨٣ .

المشتركة صادف وقوعه فترة نمو لندن المفاجىء حيث أخذت تتلقى بين أحضانها طوائف المهاجرين على اختلافهم ، يفدون عليها من كل الأقاليم ويمتزجون بالسكان السابقين . هذه الهجرة أدت إلى شحن اللغة المشتركة بآثار اللهجات ، حتى لنجد نطق الإنجليزية فى القرن السابع عشر لم يثبت بعد ، وأنه يشتمل على كثير من وجوه الخلاف . ولا تزال بقايا منه موجودة حتى اليوم . ولكن هذه الهجرة الإقليمية أنمشت تبادل السكان بين العاصمة والأقاليم ، ذلك التبادل المفيد الذى أدى أجل خدمة لانتشار اللغة المشتركة . وإذن فانجلترا تدين أيضا بتوحيد لغتها توحيدا نسبيا إلى أهمية عاصمتها ، ولكن ذلك كان فى ظروف تختلف اختلافا محسوسا عن الظروف التى تكونت فيها الفرنسية . فهذه الأخيرة أقوى توحيدا .

نشأت فى أيامنا هذه لغات مشتركة فى شبه جزيرة البلقان ، والمستقبل وحده كفيل بتعديل حدودها أو بتوسيعها ، ولكنها أيضا نشأت من وجود عاصمة . فاللهجات الصربية الجنوبية كثيرة الاختلاف عن الصربية التى تكتب وتتكلم فى بلغراد [١] . فالنبر فيها فى غير موضعه فى الأولى ، والكم غير مرعى والإعراب مبسط للغاية . وتعتبر هذه اللهجات من وجهات شتى خطوات وسطى بين الصربية والبلغارية ؛ إذ من المستحيل عملياً أن نخط حداً لهجيا بين اللغتين . ولكن توجد — منذ نهاية الحروب البلقانية — لغة صربية مشتركة تغير على اللهجات الجنوبية وتبتلعها داخل الحدود السياسية لمملكة الصرب . ونحن مثلا على علم تام بالطريقة التى بها تحل اللغة الأدبية المشتركة محل اللهجة المساة بالإيكافية l'ikavien [٢] . وينحصر التغير الأساسى فى إحلال المجموعة الصوتية iye (إيي) محل i (— ى) . وييسر هذا الإحلال فى بلاد الصرب وجود الوحدة

(١) ا . بروخ O. Broch : Die Dialekte des südlichsten Serbiens فينا Linguist - Abteilung. (Schriften der Balkan — Commission) (١٩٠٣) مجلد ٣ .

(٢) هـ. هرت H. Hirt : Der ikavische Dialeket im Königreiche Serbien (رقم ٣٩ ، Phil . hist . Klasse ، مجلد ١٤٦ ، ١٩٠٣) .

العائلية ، ألا وهى الزدروجا la Zadruga [١] . إذ يجب ألا يكون فى داخل الزدروجا إلا لغة واحدة ، ولكن التزاوج يدخل فى الزدروجا باستمرار نساء أجنبيات عن الإقليم ، يتكلمن لغات مختلفة ؛ وبهذا تضعف مقاومة اللغة المحلية ، وبمقدار ضعفها يزداد أثر اللغة المشتركة . وعلى هذا ، تصير اللغة الأدبية لغة الكلام بين جميع الصربيين القيمين بالمملكة .

وفى ألمانيا — حيث العاصمة حديثة العهد وليس لها أثر غير منازع على مجموع الأقاليم الألمانية — قام انتشار اللغة المشتركة على أسباب مستقلة عن كل وحدة سياسية . فالألمانية المشتركة أولا وقبل كل شىء لغة كتابة ، تدين بنجاحها إلى أسباب دينية ، كما تدين بأصلها إلى الرغبة فى الاستعمار [٢] . فبحركة الإصلاح انتشرت ألمانية لوثر فى المنطقة الألمانية السفلى بأسرها ؛ وفى نهاية القرن السادس عشر كان لا يستعمل فى هذا المجال لغة مكتوبة أخرى غير اللغة الأدبية المشتركة . وكان الانتشار بطيئا فى أقاليم جنوب ألمانية الكاثوليكية وفى سويسرة البروتستنتية . غير أن لوثر نفسه إنما استخدم آلة قد مهدت منذ زمن طويل . إذ كان يوجد منذ القرن الرابع عشر فى مستشاريات المدن أو مستشاريات الإمارات الألمانية ، ميل لاتخاذ لغة مشتركة تختلف عن اللهجات الإقليمية . والمستشارية الإمبراطورية هى الأولى التى سنت هذه السنة [٣] . إذ أخذت على عاتقها أن تتجنب الخصائص اللهجية وأن تستعمل لغة واحدة فى جميع الأقاليم التى تحت سلطانها . وهذا واضح فى عهد الإمبراطور شارل الرابع فى صميم القرن الرابع عشر . وقد استمدت لغة المستشارية قوة عظيمة من كونها لغة استعمار أولا وقبل كل شىء . إذ الواقع أن الألمانية كانت تحتل الأراضى السلافية قدما بقدم وتحل محل اللغات السلافية . فتكونت الألمانية المشتركة فى مدن الاستعمار فى ألمانيا

---

(١) « الزواج إحدى الوسائط الإنسانية الدائمة بين اللغة والتاريخ المحلى » . تراشيه Terracher ، رقم ١٢٤ ، ص ١٠ من التمهيد ؛ و ص ٢٢٨ .

(٢) كلوجه Kluge : رقم ١٧٥ ، ١٧٦ ؛ وجتياهر Gutjahr : Die Anfänge der neuhochdeutschen schriftsprache vor Luther ، هال (١٩١٠) .

(٣) سوسن Socin : رقم ٢٠٦ ، ص ١٦٤ و ٢٠٣ .

الشرقية ، تلك اللغة التي وصلت بفضل الإصلاح الديني إلى أهميتها الأدبية ، واستقرت بفضل اكتشاف المطبعة وصارت لغة الكتابة فى ألمانيا المثقفة بأسرها .

وتاريخ الروسية يختلف عن ذلك اختلافا محسوسا (١) . فقد ظلت اللغة السلافونية — وهى التى استعملها مترجمو الكتاب المقدس الأقدمون — لغة الكتابة فى روسيا طوال العصور الوسطى . هذه السلافونية وهى تقوم على أساس اللهجات السلافية الجنوبية (فى إقليم سالونيك) قد أصابها فى روسيا شيء من التأقلم ، ولكنها لم تتحد إطلاقا مع الروسية نفسها . وإذا كان أناس من أنصاف المثقفين قد كتبوا بلغة أقرب إلى لغة الكلام ، فإن اللغة الأدبية بقيت دائما لغة الكنيسة . ولم تأخذ اللغة فى التخلص من هذا الأثر السلوفانى إلا منذ بطرس الأكبر ، حيث حذت حذو لغات أوربا الغربية ولاسيما الفرنسية والألمانية ، وسايرت الاستعمال السائد فى روسيا الوسطى على النحو الذى كانت توجد عليه فى العاصمة القديمة موسكو . فتكونت فى غضون القرن التاسع عشر لغة أدبية فيها آثار سلافونية ولكنها تستند فى جوهرها على لغة الكلام المستعملة .

اتخذت البولونية لغة أدبية منذ القرن الرابع عشر ، ولكنها لم تزدهر بهذه الصفة إلا فى القرن السادس عشر ، فى إقليم كراكوفيا (بولونيا الصغري) . ومع ذلك فإن البولونية الأدبية والمشتركة ليست لغة هذا الإقليم ؛ وإنما خرجت من إقليم بوسن Posen ومن جنيسن Gnesen (بولونيا الكبرى) التى تعد مهد البولونيين الجنسى فى القرن العاشر . فمن بين مجاميع اللهجات الكبرى الأربع ، المازوفية mazovien والبسنانية pasnanien والكراكوفية cracovien ولهجة بولونيي روثينيا Ruthénie (٢) . اتخذت البسنانية وحدها أساساً للغة الأدبية

(١) ا . بده E. Budde . تاريخ مجمل للروسية الأدبية المعاصرة من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر (بالروسية) ، وهو ما تحتوى عليه الكراسة الثانية عشرة من Enciklopedija slavjonskoj filologij ، بطرسبرج ، ١٩٠٨ .

(٢) انظر كازمير نتش Mowa ludu polskiego: Casimir Nitsch كراكوفيا (١٩١١) .

المشتركة ؛ ولكن هذه اللغة تطورت فى بولونيا الصغرى ، وتم تكوينها فى الجزء الشرقى من المنطقة ، فى روتينيا ، أى فى أرض مستعمرة لم تكن تنتمى فى الأصل إلى بولونيا الجنسية .

وأخيراً توجد لغات مشتركة من أصل أدبى محض . مثل الإيطالية[١] التى استقرت لغة مشتركة ابتداء من القرن الرابع عشر بفضل هيبة الكتاب العظام وتأثيرهم ، مثل دانتى وبترارك وبوكاشيو ، وذلك فى وقت لم يكن لإيطاليا فيه أية وحدة سياسية . وأغلب الظن أن هؤلاء الكتاب استعملوا اللغة التى كانت تتكلم حولهم ؛ ومن ثم أطلق اسم اللغة التسكانية Lingua toscana على اللغة الأدبية الإيطالية . ولكن هذه التسمية لاتفرض أن تكون إيطالية الكتب قد أتت من انتشار لهجة إقليمية : فاللغة التى رفعها دانتى إلى مرتبة اللغة الأدبية ، والتى صارت لغة إيطاليا المشتركة ، كانت أولا وقبل كل شىء لغة مدينة هى فلورنسا ، ولغة المجتمع الراقى فى هذه المدينة . واللغة التسكانية بنفسها فيها خصائص لم تدخل فى اللغة الأدبية ، فهى مثلا تقلب الـ c (ك) إلى spirante إذا وقعت بين حركتين فتقول fuoho بدلاً من fuoco و la hasa بدلا من la casa . ومع ذلك فمن الحق أن نلاحظ أن أسباباً عديدة مختلفة النواحى جعلت من فلورنسا la terra promessa (أرض الميعاد) للغة الإيطالية المشتركة . فهذه المدينة فضلا عن نبوغ كتابها وأهميتها كمركز أدبى واقعة بين بولنى Bologne وروما ، مما رشحها لتكون همزة الوصل بين المدن الثقافية فى إيطاليا . ولغة فلورنسا من جهة أخرى كانت مزاياها الذاتية ترشحها أكثر من غيرها للقيام بدور اللغة المشتركة : إذ كانت أقرب من غيرها إلى اللاتينية ، وبذلك كانت تيسر لكل متعلم الانتقال من لهجته إلى اللغة المشتركة . وهذا كله مهد لانتصار التسكانية lingua toscana

---

(١) دوفديو D'ovidio : Lingua e dialetto (رقم ٤١ ، مجلد ١ ، ص٥٦٤ — ٥٨٣) ؛ و ج. اسكولى G. Askoli : Il toscano e il linguaggio letterario degli italiani (رقم ٤١ مجلد ٨ ، ص ١٢١ — ١٢٨) ؛ وبيو راجنا Pio Rajna : Origine della lingua italiana (Manuale della letteratura italiana ، تأليف دنكونا D'Ancona ، وبتشى Bacci ، مجلد ١ ، الطبعة الثانية (١٩٠٨) ، ص ١٥ — ٢٤).

هذا الانتصار الذى تم حين راح Bembo البندقى نفسه يستعملها فى مؤلفاته فى القرن الرابع عشر .

* * *

طريقة تكون اللغات التى قدمنا منها عدة صور تؤثر على العلاقة التى تكون بين هذه اللغات وبين اللهجات . فإذا لم تكن اللغة المشتركة نفسها إلا لهجة أظهرتها الظروف على اللهجات المجاورة ، سهل عليها ابتلاع هذه اللهجات فى وقت وجيز لأن اللهجة التى اتخذت أساسا ، لها من السلطان ما يفرضها على اللهجات الأخرى . وأغلب الظن أنها تفقد على وجه العموم ما فيها من صفات موغلة فى الخصوصية ، فقد تخلصت الأتيكية مثلا من بعض خصائصها البينة عندما صارت اللغة الهلينستية . ولكن اللهجات الأخرى من جانبها تبلى سريعا باحتكاكها باللغة المشتركة . فاللهجات تمحى حدودها شيئاً فشيئاً إلى أن تنتهى بالاندماج فى اللغة العامة ، اللهم إلا إذا أمدتها ظروف خاصة بحيوية تطيل فى عمرها فى صورة لغات خاصة أو لغات أدبية . فلم يبق عندنا فى فرنسا الشمالية لهجات بمعنى الكلمة ؛ لم يبق هناك من وسيط بين اللغة المشتركة والتكلم المحلى الذى يسمى رطانة patois ، والبيكاردى لم يعد فى وسعه أن يتصور غير نوعين من اللغات : رطانته الخاصة واللغة الفرنسية المشتركة ، وقد تعلم هذه الأخيرة فى المدرسة وتطلع عليه كل صباح فى صحيفته اليومية . هذا إلى أن طريقة التكلم المحلية تمتلىء يوما بعد يوم بالعناصر التى تستعيرها من اللغة المشتركة . ولكن إذا اتفق لبعض العناصر المحلية أن تدلف إلى اللغة المشتركة ، فليس معنى هذا أننا نواجه بقايا لهجية أو أمام لهجة جديدة فى سبيل التكوين ، بل نواجه اللغة المشتركة نفسها فى مظهر محلى ؛ ويجب أن نرجع قرونا إلى الوراء لنعثر على نصوص مكتوبة بالبيكاردية . فاللهجة البيكاردية قد انقرضت من يوم أن فقد المتكلمون بها الأحساس باستقلال اللهجة وهيبتها .

معلوماتنا عما حدث فى اليونان القديمة أو فى إيطاليا القديمة غير وافية ، ولكننا نتوقع أن تكون اليونانية المشتركة أو اللاتينية المشتركة قد ابتلعتا بدورها اللهجات إن قليلا وإن كثيرا . فاللغة الهلينستية κοινή أساس اللهجات

الحديثة جميعها . إذ بعد أن تم التوحيد حدث انفصال جديد تبعا لقوانين التاريخ ، ولكنه قام على أساس مختلف ؛ لذلك لم نستطع أن نكتشف فى لهجات الإغريق الحديثة شيئا يرجع إلى اللهجات السابقة لتكوين اللغة المشتركة κοινή . فلابد أن اللهجات المحلية قد تشربت خصائص اللغة المشتركة إلى حد جعل السامع لا يميزها إلا ببعض تفاصيل فى النطق أو ببعض سمات فى المفردات ، لأن النقوش — بل أقرب النقوش إلى لغة الكلام — لا تسمح لنا بالحكم بوجود بقايا من اللهجات [١] .

وتشربت اللاتينية فى إيطاليا عددا من اللغات التى لا نعرف عنها اليوم شيئاً يذكر ، كما تشربت اللهجات المجاورة للهجة روما . وقد نجحت بعض الجهود التى بذلها فريق من علماء اللغة فى أن يستخرجوا من مفردات اللاتينية ومن نظامها الصوتى والصرفى بعض سمات لهجية ، ولعل لهجات إيطاليا الحديثة تحتفظ ببعضها حتى الآن [٢] .

توجد إذن بين اللهجات التى تدخل فى إعداد اللغة العامة درجات يجب التمييز بينها . فأكثرها مبادرة بالاختفاء أقربها إلى اللغة التى اتخذت أساساً للغة المشتركة . هذه الملاحظة التى تبدو مبتذلة ، لها أهميتها فى دراسة احتكاك اللغات (انظر أواخر الفصل الرابع) . ومن ثم كان هناك فرق محسوس بين الأثرين اللذين وقعا من الدنمركية ومن الفرنسية النرمندية على اللغة الإنجليزية [٣] . فبنية الإنجليزية لم تتأثر بهذه الأخيرة إلا قليلاً ، أما الدنمركية فقد تركت فيها أثراً عميقاً : فتمزيق النظام النحوى وتبسيطه قد وقعا فى الأقاليم التى كان يقيم فيها الدنمركيون قبل وقوعهما فى الأجزاء الجنوبية وهى الأجزاء التى نزل فيها النرمنديون قبل ذلك بقرنين من الزمان . نعم يجب أن نلاحظ أن عدد النرمنديين فى إنجلترا كان قليلا

---

(١) ثمب Thumb ، رقم ٢١٣ .

(٢) أنظر دراسات ج . مول Chronologie du latin vulgaire : G. Mohl ، وأرنو Ernout رقم ٧٠ ؛ ودى ريبزو Reliquie italiche mei dialetti : de Ribezzo dell Italia meridionale فى (Atti accad. Arch. Lett. Bell. Arti, Napoli 1. 1908)

(٣) جسبرسن ١٣٤ ، ص ١٧٠ — ١٧٣ .

نسبياً ، وأنهم كانوا يكوّنون فيها طبقة خاصة ، ولكن إذا صرفنا النظر عن هذه الظروف الاجتماعية والسياسية ، وجدنا أن الاختلاف الذى أشرنا إليه آت من درجة القرابة بين اللغات التى نحن بصددها . فقد كان بين الإنجليزية والدنمركية من جهة النظام النحوى وجوه شبه لم تكن بين الإنجليزية والفرنسية النرمندية . واللغات المشتركة التى هى لغات كتابة قبل كل شىء كالألمانية والإيطالية تختلف فى وضعها عن اللهجات اختلافا كافياً . فالقاعدة التى تقوم عليها اللغة المشتركة لاتتعارض مع اللهجات ، إذ أنه لا تميل لهجة أيا كانت إلى الاعتداء على اللهجات الأخرى . وذلك لأنهما لغتان مختلفتان تسيران جنباً إلى جنب . والشعور بوجود وحدة لغوية أوسع من اللهجة المحلية وأضيق من وحدة اللغة المشتركة ، يوجد فى البلاد كلها دون أن يصاب بضعف يذكر . فى پيمنت وفى اللمبارديا لاتتفق لغة الحديث ولغة الكتابة ؛ وهذه الأخيرة تتسم بطابع الاصطناعية والحوشية ، فهى حقاً لغة ميتة لا تلقائية فيها ، ولا securezza كما يقول اسكولى[1] . كذلك فى ألمانيا يمكننا حتى اليوم أن نتكلم عن اللهجات . وهى فيها تشغل مكاناً وسطا بين الرطانة المحلية واللغة المشتركة ؛ وتتمثل فى الشعور الشعبى على أنها لغة مناطق على جانب من الاتساع وإن كانت حدودها غير بيّنة. ولهذه اللهجات مكانها فى الآداب وفى الصحافة . واللغة المشتركة تتأثر بها لأن نطقها غير موحد فى كل مكان وتختلف صورة التكلم بها باختلاف الأقاليم . وإذا استثنينا أفراد الطبقة البرجوازية العالية الذين هم على جانب عظيم من الثقافة ، وجدنا أن كل ألمانى يتأثر فى نطقه للغة المشتركة باللهجات إن قليلا وإن كثيراً . فالألمانية المشتركة تكتب بصورة واحدة فى كل مكان ، ولكنها تنطق بصور مختلفة إلى حد يسمح للسامع بتعيين أصل المتكلم من نطقه . أما الاختلافات التى تلاحظ فى نطق الفرنسيين من أهل الأقاليم ، فتعتبر تافهة إذا قورنت بآثار اللهجات فى الألمانية .

ومع ذلك فقد سبق أن قلنا إنه لا يوجد فاصل مطلق بين الألمانية المشتركة ، وهى لغة كتابة ، وبين اللهجات الإقليمية . والواقع أنه يوجد ، كما يتوقع ، تبادل

(١) اسكولى Ascoli ، رقم ٤١ ، مجلد ٨ ، ص ١٢٦ .

دائم بين هذه وتلك ؛ فهناك تداخل من كلا الجانبين فى الجانب الآخر . ومن نتائج هذا التداخل أنه يقلل من حدة الخصائص اللهجية ؛ حتى ليحق لنا أن تتنبأ هنا ، كما فى الحالة السابقة باختفاء اللهجات بعد زمن ما قد يطول وقد يقصر . ولكن يجب علينا عند الكلام على تنافس اللهجات واللغات المشتركة ألا نسقط من حسابنا حقيقة جوهرية لم نقل عنها شيئاً حتى الآن ، وهى الثبات النسبى لكل منهما .

يمكننا أن نطبق على كل لغة مشتركة ما قاله مييه عن الـ κοινή « اللغة المشتركة » الإغريقية : « هى نواة مثالية لا تزيدها الزمن إلا حوشية وبعداً عما فى صورة التكلم الجارية من اتجاهات ، وهى مجهود متجدد دائم للتوفيق بين اتجاهات التطور اللغوى الطبيعية وبين هذه النواة » . اللغة المشتركة « ليست لغة ثابتة ؛ كما أنها ليست لغة تتطور تطوراً مطرداً ؛ بل هى لغة فيها نوع من التوازن دائم التغير بين الثبات والتطور » . والمحافظة على هذا التوازن أمر عسير . فيتحتم أن تصاب اللغة العامة إصابات شديدة وأن تضطر إلى التغيير ، إذا انتشرت فى إقليم واسع الأرجاء تقوم بين سكانه حركات وانتقالات مستمرة ، وتكون فيه الطبقات الاجتماعية فى تداخل واختلاط لا ينقطعان . وإذا استسلمت اللغة للضربات وتغيرت ، حانت نهايتها ، لأنه ليس فى مقدور قوة فى العالم أن تضمن لها التغير على وتيرة واحدة فى كل الأماكن التى تتكلم فيها . وهذا هو التصدع الذى يقدم لنا التاريخ أمثلة كثيرة منه . ولكن اللغات المشتركة تقاوم التغير أزماناً طويلة قبل أن تصل إلى هذه الحال . ويساعدها فى ذلك ظروف السياسة وقوة المدرسة والإدارة . ولكن لعل الكتابة خير حارس لها .

* * *

لما كنا سنفرد للغة المكتوبة فصلا خاصاً فيما بعد ، لم يكن لنا أن نتكلم عنها هنا إلا بمقدار اتصالها بتطور اللغات المشتركة . واللغة المكتوبة تمثل دائماً تقاليد وقواعد محافظة . بالطبع قد توجد التقاليد دون الكتابة . فقد كان عند الجوليين ، كما روى قيصر ، رسوم يفضى بها القسس شفويا إلى ذاكرة تلاميذهم ، وعلى هذا

النحو كانت تنتقل من جيل إلى جيل . وفى الهند كانت النصوص الدينية ، قبل وجود الكتابة ، تنتقل بالطريق الشفوى دون أن تصاب بأدنى تغيير .

ولكن من البدهى أن التقاليد ، إذا اعتمدت على الكتابة ، ازدادت قوة وقدرة على المقاومة .

ينبغي ألا نخلط بين « لغة مكتوبة » و « لغة أدبية » . فقد يجتمع المعنيان أحياناً فى لغة واحدة ، ولكنهما قد يتعارضان ويتضاربان . اللغة المكتوبة فى غالب الأمر عبارة عن اللغة المشتركة ، أما اللغات الأدبية فتتميز عن هذه الأخيرة فى غالب الأحيان . لأن رجال الأدب فى كثير من الأقطار ، من شعراء وقصاص يكوّنون طبقة منعزلة لها تقاليدها وعوائدها وامتيازاتها . وفى هذه الحال كانت للغتهم كل خصائص اللغة الخاصة ، وكانت تتطلب تهيئة وترويضاً وتثقيفاً مهنياً بل كان يتفق أن يكون الدور الذى يقوم به الشاعر دوراً شبه دينى ، وأن تكون بعض اللغات الأدبية لغات دينية فى نفس الوقت : وقد حفظت السنسكريتية مثلا هذا الطابع زمناً طويلا . ولعل الخصائص التى نعثر عليها فى القصائد الغنائية الكبرى فى بلاد اليونان ترجع إلى كونها تقوم على لغات دينية خاصة . بل لقد وجد فى كثير من الأقطار لغات أدبية مقصورة على استعمالات معينة مع بعدها عن كل تأثر دينى . ولغة الملحمة اليونانية صورة من هذه اللغات الأدبية الخاصة التى تكونت بفعل الشعراء وانتهت بالاستقرار الدائم . فكان كل من يضع بين شفتيه بوق الفروسية فى بلاد الإغريق ينفخ فيه لغة لا تتصل بأية واحدة من اللغات المتكلمة ، وقد سار أبلون الرودسى وكونتوس الأزميرى على تقاليد هوميروس . كذلك كان من المتواضع عليه فى أثينا أن تستعمل لأجزاء الغناء الجماعى فى التراجيدية لغة معينة مصبوغة بالأصباغ الدورية وإن لم تمثل فى جوهرها لهجة دورية معينة . وفى الهند وجدت لغات أدبية على أساس ما من اللهجات ، وكانت لا تستعمل إلا فى أنواع أدبية معينة . ولا يستعملها من الشعراء إلا طوائف خاصة . وكانت تتميز عن اللغة المشتركة باختلافها عنها . وسكان الملايو الذين لا يتكلمون

لغة هندية أوربية عندهم لغة أدبية خاصة تسمى الكاوية Kawi ، وهى مفعمة بالعناصر السنسكريتية (١).

ولكنا نستطيع — حتى بغض النظر عن الحالات التى تستمد فيها اللغة الأدبية أصلها من اللغة الخاصة — أن نفهم بسهولة الفرق الذى يفصل بين اللغة الأدبية واللغة المشتركة . والواقع أن خاصية اللغة المشتركة الأساسية تنحصر فى أنها لغة وسطى تقوم بين لغات أولئك الذين يتكلمونها جميعاً . وإذا انتشرت اللغة المشتركة فى قطر بأسره ، أخذت العناصر المشتركة الداخلة فى تكوينها فى الازدياد ، وأدى ذلك بالضرورة إلى النزول بمستواها ؛ فبالرغم من الأثر البالغ الذى تقوم به النخبة العقلية ، فإن العناصر التى تستعيرها اللغة من الطبقات السفلى من السكان تزداد بانتشار اللغة . وتصير بالتدريج كثيفة رتيبة لا لون لها . وعندئذ تتميز بالخصائص السلبية ، أى بالضعف والسوقية .

ولكن الأديب فى حاجة إلى أداة شخصية يعبر بها عما يوجد فى ذكائه وحساسيته من عناصر خاصة ، يقول موريس بريس M. Barrès : « اللغة وقد قدت للاستعمال الشائع لا تستطيع التعبير إلا عن الحالات الخشنة » . وكان لفلوبير فى الكتابة طريقتان ، تبعاً لما إذا كان يحرر كتاباً لصديق أو يكتب عملا أدبياً بأسلوبه المتوتر . « فالكتابة الفنية » رد فعل دائم ضد اللغة المشتركة ؛ وهى إلى حد ما نوع مما يسمى بالأرجو (argot) ، اللغة الخاصة الأدبية ، وهى فى كل حالاتها مغايرة للغة الكلام رغم تنوعها العديد ورغم اختلافها عند البرناسيين عنها عند الرمزيين وعنها عند كتاب عصور الانحلال . هذه اللغات الخاصة المنزوية فى صوامعها المقصورة على عدد قليل من المريدين لا تعنينا هنا . وكل ما نستطيع أن نقوله عنها إنها فى بعض الأحيان تغذى اللغة المشتركة ببعض التراكيب أو ببعض الكلمات . ولكن علينا هنا أن نبحث الحالة التى تكون فيها اللغة الأدبية واللغة المكتوبة شيئاً واحداً ، والتى فيها تعتبر اللغتان معاً نواة للغة المشتركة .

---

(١) أنظر الكتاب الشهير تأليف و. فون همبولت V. von Humboldt : Uber die Kawisprache auf der Insel Java ، برلين ١٨٣٦ — ١٨٣٩

النصيب الذى ساهم به الكتاب الفرنسيون فى تكوين اللغة المشتركة عندنا كبير جداً . فاللغة التى نتعلمها فى المدرسة ندين بها إلى المجهود المزدوج الذى قام به الأدباء والنحاة [١] . فهم الذين خلقوا لنا هذه الأداة الجميلة ، وسهروا عليها بحدب شديد عاملين على ألا يعلوها الصدأ ، فيغير معالمها . وقد يبدو لنا أن تطهير اللغة الذى دام قروناً عديدة عمل جدلىّ رخيص ؛ مغرق فى الادعاء والتظاهر ؛ ولكن الفوائد التى نجنيها من هذا العمل تحملنا على الاعتراف بالجميل لمن قاموا به . فأصبح لدينا بفضل أساتذة المدارس الذين درجوا على دراسة الكتّاب ، خير قالب نصوغ فيه أفكارنا ، وصارت لنا لغة كل كلمة من كلماتها لها معناها اللائق ، وكل تركيب من تراكيبها قد انفرد بدقائق ولطائف لا تبارى . إذ أنهم أقصوا عن اللغة كل ما يجرح الطبع السليم والذوق الحسن ، ودأبوا على إخضاعها لقواعد العقل واللياقة فجعلوا منها ، على حد قول بوهور Bouhours ، أداة قادرة « على إمساك أشد المواد قوة ورفع أشدها ضعفاً » ؛ وبالاختصار جعلوها منذ البداية قديرة على الاستجابة لكل مطالب العقل . وقد استفادت اللغة المشتركة أجل فائدة من الأعمال التى قاموا بها . استفادت الوضوح والأناقة والدقة مع التنوع ؛ وكما قال ريفارول Rivarol « لقد استفادت تلك الأمانة المتصلة بعبقريتها » .

كبار الكتاب يصنعون بالكلمات ما كان يصنعه الملوك القدماء بالنقود ؛ يفرضون القيمة التى يريدونها ويحددون لها السعر الذى على كل فرد أن يقبله . وبذلك ينفذ فينا شىء من عقليتهم ، وإذا تكلمنا الفرنسية فإن بسكال ولارو شفوكو ولا برويير وبوسويه ، ومنتسكيو وفولتير هم الذين يملون علينا الكلمات التى نستعملها . وكل منا حين يكتب يغترف على غير شعور منه من ذكرياته المدرسية ، مهما قلّ تعليمه . وهذا الكاتب المعاصر الذى نعرفه مثالاً ليست لغته إلا نسخة من كتابنا الكلاسيكيين ، فهو يصلح أن يتخذ مثلا يحتذى من كل من يحاول الكتابة بالفرنسية ، لأنه يحقق على وجه الكمال المثل الأعلى للفرنسية

---

(١) أنظر برينو Brunot ، رقم ٥٧ ، مجلد ٤ ، ص ٢١٩ وما يليها ؛ وراجع أيضاً الكسيس فرنسوا Alexis François ، La grammaire du purisme et l'Académie française au 18e siècle باريس (١٩٠٥) .

الأدبية ، فى صورتها العامة و « المشتركة » . والواقع أننا نتبين طابع أساتذتنا العظام بكل حذافيره فى جميع مؤلفاته من طريقة استعماله للكلمات وكيفية وصلها بعضها ببعض وفى تركيب الجملة ووزنها . نعم يجب على من يتصدى لتقدير هذا الفن الخفى أن يكون ذا ذوق مدرب . ولكنها لذة كبرى تلك التى يشعر بها حين ينظر فى هذا النسج الجيل اللامع فيستطيع أن يتبين كل خيط من خيوطه ويميز مصدره ، ومن المؤلم حقاً أن نفكر فى أنه قد يأتى يوم لا يوجد فيه من يستطيع تذوق هذه اللذة ، وذلك إذا تخلى التعليم ، فى تغيره طبيعة وغرضاً ، عن العناية بالنخبة المختارة : عندئذ تقصر الخلافة الشعبية عن فهم قيمة هذا النسج فتطأ بأقدامها مخملا دقيق الصنع تناسقت ألوانه حتى كأنه لوحة رسمت « بالباستيل » .

ذلك بالطبع لأن كل صورة فنية فيها شىء من الشخصية بعيد عن إدراك الجماهير ، هذا إلى أن خلق صورة « مشتركة » مهما كانت درجة كمالها ، ليس إلا فترة فى تاريخ اللغة . وأن اللغة المكتوبة أيضاً فى تأخر دائم بالنسبة للغة المتكلمة.

تكوين اللغات المشتركة معناه فترة من التوقف فى تطور اللغة . إذ تتبلور الصيغ والتراكيب وتتحجر ، وتفقد طواعية الحياة الطبيعية ، ولكننا نخدع أنفسنا إذ افترضنا أن اللغة تستطيع التوقف . والذى يحملنا على هذا الظن أنها لغة اصطناعية توضع بجانب اللغة الطبيعية ؛ والبون بين اللغتين يكون ضئيلا فى بادئ الأمر ، ثم يعظم مع الزمن ، حتى يأتى يوم يصير فيه هذا البون صدعاً عميقاً . ويمكننا أن نقارن خلق اللغات المكتوبة بتكون طبقة من الجليد على سطح نهر . فالجليد يستعير مادته من النهر ، بل بعبارة أوضح ليس الجليد إلا ماء النهر نفسه ، ومع ذلك فليس هو النهر . وإذا رأى الجليد أحد الأطفال ظن أن النهر غير موجود وأن تياره قد توقف عن السير . وهذا خداع ! فالماء تحت طبقة الجليد لا يزال يجرى منحدراً فى طريقه نحو السهل ، وإذا تكسر الجليد رأينا الماء ينبثق فجأة ويتلاطم مزمجراً . هذه صورة من تيار اللغة : فاللغة المكتوبة هى طبقة الجليد التى فوق النهر ، والماء الذى يتابع جريانه تحت الجليد الذى يحبسه هو اللغة الشعبية والطبيعية . والبرودة التى تنتج الجليد وتبغى احتجاز النهر ، هى مجهود النحويين

والمربين ؛ وأشعة الشمس التى تعيد إلى اللغة حريتها هى قوة الحياة التى لا تقهر ، تتغلب على القواعد وتحطم قيود التقاليد .

الفرنسية الحالية تبرز التشبيه السابق بصورة مرضية . فالبون الذى بين لغـة الـكتابة ولغة الـكلام لا تزيده الأيام إلا اتساعاً . فالتنظيم والمفردات ليست واحدة فى كلتا الحالتين.. بل إن الصرف نفسه يحتوى على بعض الفروق : فالماضى المحدّد (أو البسيط) . passé défini والماضى غير التام من صيغة التبعية imparfait du subjonctif لم يعد لهما استعمال فى لغة الـكلام . ولـكن اختلاف المفردات بوجه خاص هو الذى يكاد وضوحه يُعشى العيون . فنحن نكتب لغة ميتـة ، تلك اللغة ترجع إلى كتاب القرن السابع عشر ويمثلها اليوم فى أتم صورها ذلك الـكاتب المعاصر الذى أشرنا إليه . ولـكننا نتكلم لغة غير ذلك . ومفرداتنا الجارية قد تغيّرت منذ القرن السابع عشر[1] . والفرق بين الـكلمات التى تتكلم والـكلمات التى تكتب يذكرنا بالفرق بين الـكلمات السوقية وكلمات النبلاء ؛ فنحن نأنف من كتابة معظم الـكلمات التي نستعملها فى المحادثة . والشخص الذى يتكلم كما يكتب يبدو لنا كأنه كائن متكلف ؛ والأشخاص الذين من هذا القبيل فى تناقص مستمر .

ظلت الطبقات العليا وقتاً طويلا محتفظة بحوشية اللغة التى توحى بها استعمالات اللغة المـكتوبة ، وكانت الطبقات السفلى وحدها هى التى يشاهد فيها نشوء لغة تجائية تعمل على تحديد عناصر اللغة التعبيرية . واليوم نرى لغة الطبقات العالية التي كان وجودها غير طبيعى تختفى لتحلّ محلها اللغة الشعبية . والمتشددون جميعاً ينعون هذا « السقوط » ؛ ولـكنها شكوى عقيمة[2] . لأن اللغـة المـكتوبة نفسها لم تصبح فى مأمن من الإصابة : فالصحف اليومية التى يحررها على عجل أناس غير مثقفين فى غالب الأحوال ، أخذت تكثر شيئاً فشيئاً من استعمال عبارات اللغـة

---

(١) أنظر ف. كوهين F. Cohen : Les transformations de la langue fran- çaise pendant la deuxieme moitié du 18 e siècle (1740 — 1789) ، باريس (١٩٠٣) .

(٢) أنظر خاصة E. Deschanel ، رقم ٦٧ ، ب. ستايفر P. Stapfer رقم ١٢٣ .

المتكلمة ، بل وصيغها : فالعبارة الخاطئة je m'en rapplle « استحضر منه فى ذاكرتى » والتركيب المتبرر de façon à ce que « بضورة إلى أنّ » ، قد أصبحا فيها من الاستعمالات الجارية . وفى كل يوم تطالعنا فيها « أخطاء أخرى » ليست أقل خشونة من تلك . وقد أمكن لبعضهم أن يستخرج من إحدى الصحف الباريسية الواسعة الانتشار تراكيب مثل : « avec cette brusquerie dont « cette affaire ressort de la Prefec- و il ne se dépurt pas » « au point de و « il demanda à ce que » و ture de police .» الخ . ونلاحظ أننا نجد فى هذا « alors il s'enfuya » ، vue pécunier » الخليط المتبرر آثاراً عديدة من اللغة المكتوبة : فمثلا عبارتا ressortir و se départir ليستا من استعمالات لغة الكلام ، واستعمال الماضى البسيط ، إحدى خصائص اللغة المكتوبة . فقد كان فى عزم هذا الصحفى الذى ارتكب هذه الأخطاء وفى شعوره أن يكتب بلغة الكتابة ؛ ولكن نقص ثقافته جعله يبنى لغته المكتوبة من عناصر اصطناعية وزائفة فى غالب أمرها . وعلى هذا النحو كان جرجوار دى تور Grégoire de Tours — الذى كانت لاتينيته مشحونة بالأخطاء التى ترجع إلى اللغة المتكلمة حوله — لايزال يستعمل الفعل اللاتينى المسمى deponert على الرغم من أنه كان قد اختفى من اللغة المتكلمة منذ زمن طويل : إذ أن الكثير من أفعال هذه الفصيلة لايوجد فى اللاتينية الكلاسيكية[1] .

ولكن يجب علينا ، إنصافاً للصحافة الفرنسية ، أن نعترف بأن بعض الصحف الكبرى قد احتفظت باللغة الأدبية ، حيث يتبع محرروها قواعد اللغة المكتوبة دون أن يحيدوا عنها قيد شعرة . وإذا كان عدد هذه الصحف فى هبوط فإن تمسكها بالسلامة اللغوية لا يزداد إلا صرامة ؛ وذلك رد فعل منها ضد تيار العامية الجارف ؛ ومن ثم تزداد عنايتها بنقاء اللغة قوة على قوة . ولذلك السبب كانت الصحف الباريسية لاتكتب لغة واحدة بمعنى الكلمة . فالصحف الشعبية لا تكاد تكتب غير اللغة المتكلمة مصبوغة بالصبغة الأدبية إن قليلا وإن كثيراً . وعلى العكس من ذلك لا تستعمل الصحف الكبرى إلا اللغة التى كان

(١) بونيه Bonnet ، رقم ٥٠ ، ص ٤٠٢ .

يستعملها خير كتابنا فى مؤلفاتهم : « اللغة الفرنسية الأدبية » النقية .

ولكن هذه الفرنسية الأدبية لغة تتعلم . فشدة اختلافها عن اللغة المتكلمة يتطلب مراناً كثيراً ما يطول زمنه ، وممارسة على أكبر جانب من الحذر . وليس فى مقدور أحد أن يقرر إلى متى ستظل المحافظة قائمة ، وأعنى بذلك المحافظة على تعلمها . وعلى كل حال يمكننا أن نتكهن للفرنسية الأدبية بمصير كمصير اللاتينية ، أى أنها ستبقى ولكن بصفتها لغة ميتة ، قد جمدت قواعدها ومفرداتها إلى الأبد . أما اللغة الحية فستتطور مستقلة عنها كما فعلت اللغات الرومانية . وكل ما يبقى للغة المكتوبة من عمل هو أن تصير مستودعاً يزود اللغة المتكلمة بالمفردات (قارن ص ٢٩١) . وفى هذه الحالة تنشأ لغة أدبية تخالف اللغة العامية كما هى الحال فى اللغة العربية حيث يوجد نوعان من اللغة يخالف أحدهما الآخر ، وفى الصين حيث تخالف لغة المندرين mandarins اللغات المتكلمة[1] . ولو تحقق إصلاح الرسم عندنا لتجلى أمام أعيننا الفرق بين هاتين اللغتين الفرنسيتين جلاء تاماً . فوجود الفرنسية الأدبية لا يمنع من أن تتكون تحت سطحها لغة مشتركة : فاللاتينية العامية التى منها خرجت اللغات الرومانية كانت تختلف عن اللاتينية الكلاسيكية التى كانت لا تزال تكتب فى زمن أوزون Ausones وكلوديان Claudien . وكان إلى جانب الإغريقية المشتركة فى العصر الهلينستى لغة أدبية اصطناعية ، يختلف نظامها الصرفى عن النظام الصرفى للأولى فضلا عن اختلاف المفردات بينهما.

الواقع أنه يمكن أن توجد عدة لغات مشتركة بعضها فوق بعض .

ففى الهند القديمة صارت السنسكريتية التى كانت فى الأصل لغة دينية ، لغة أدبية مشتركة فى اليوم الذى جاءت فيه دولة دخيلة فأباحت استعمالها فى الأمور الدنيوية . وهى اليوم لغة العلم ، لغة الثقافة العالية والدين على السواء . فما زالت تقرأ فى المعابد وتلقى نصوص بها مثل المهاراتا le Mahâbhârata والپورانا les Purânas ، كما لا يزال الكاثوليك يتمسكون بالنصوص اللاتينية فى الكنيسة. ولكن لا حاجة بنا إلى القول بأن السنسكريتية تمتد إلى ماوراء منطقة اللغات

(١) شتينتال Steinthal ، رقم ٢٠٧ ، ص ٥٣ .

الهندية ، إذ أنها لاتضم شبه الجزيرة الهندية فحسب حيث يستعملها أناس مختلفو الأجناس واللغات ، بل لقد حملها المبشرون البراهمة والبوذيون إلى جميع الأماكن التى وصلوا إليها فى أداء رسالتهم .

وجود السنسكريتية لم يمنع من وجود لغات مشتركة أخرى . فقبل أن تتطور السنسكريتية إلى لغة أدبية بزمن طويل — وهى لم تصبح كذلك إلى حوالى ميلاد المسيح — وجدت لغات أحدث منها استعملت استعمال لغات مكتوبة مشتركة وكان الملك أسوكا Açoka قبل الميلاد بمائتين وخمسين عاما يستخدم هذه اللغات فى كتاباته على أنها لغات رسمية ، كما كانت تستخدم مع السنسكريتية نفسها لغات أخرى فى كتابة النصوص البوذية على أنها لغات دينية ، وذلك كاللغة البالية مثلا ؛ وأخيراً كانت تستعمل فى الدراسة بصورة عادية مع السنسكريتية بعض لغات أدبية (les prokrits) تذكرنا بما كانت عليه لغة الشعر الغنائى ولغة الملحمة فى بلاد الإغريق[١] .

ولكن كان يوجد تحت سطح اللغات البركريتية[٢] منذ عهد سحيق ، ولا يزال يوجد حتى الآن لهجات ورطانات محلية . وقد وصل بعضها إلى درجة من الأهمية جعلتها تستخدم فى الحاجات الأدبية ، وذلك مثل الهندية والبنغالية والماراتية . بل يوجد اليوم فى الهند لغة مشتركة ، وهى الهندستانية التى لا تمثل فى حقيقة الأمر أية لهجة حقيقية .

يمكننا أن نختتم هذا الفصل بذلك المثال من لغات الهند . فهو يوضح خير توضيح صلات اللغات المشتركة بعضها ببعض وباللهجات المحلية ، وترينا مقدار الصعوبة التى يلاقيها من يحاول رسم حدود بين العناصر التى تكونها ، وإلى أى حد يتداخل بعضها فى بعض دون توقف . ذلك لأن تكون اللغات المشتركة وتطورها وتحللها تتوقف على أسباب تاريخية غريبة عن اللغة ، أى على حركات المدنية نفسها .

(١) ف. لكوت Essai sur Gunadhdya et la Brhatkatha: F. Lacôte ، ص ٤٠ — ٥٩ .

(٢) أنظر جون بلك ، Jules Bloch ، رقم ٤٩ :

الفصل الرابع

احتكاك اللغات واختلاطها (١)

تطور اللغة المستمر فى معزل عن كل تأثير خارجى ، يعدّ أمراً مثالياً لا يكاد يتحقق فى أية لغة . بل على العكس من ذلك فإن الأثر الذى يقع على لغة ما من لغات مجاورة لها كثيراً ما يلعب دوراً هاماً فى التطور اللغوى .

ذلك لأن احتكاك اللغات ضرورة تاريخية ، واحتكاك اللغات يؤدى حتما إلى تداخلها . وها نحن أولاء نرى تحت أعيننا وبالقرب منا أقاليم جمع فيها التاريخ على هويته شعوبا تتكلم لغات مختلفة ؛ وفى الأقاليم التى من هذا القبيل يقتضى التوسع فى التبادل التجارى وضرورة الاتصال معرفة لغات عدة معرفة جيدة . وكانت شبه جزيرة البلقان فى كل عصورها ولا تزال حتى الآن ملتقى لكثير من اللغات ، ومن الأجناس والجنسيات والأديان . ففيها اليوم أجناس مختلفة من سلافيين وإغريقيين وألبانيين ورومانيين وأتراك ويهود وأرمنيين ، وكلهم يكوّنون جماعات كبيرة أو صغيرة . وهناك إغريق فى تراقيا ورومانيون فى مقدونيا وألبانيون فى اليونان . والحدود السياسية لا تنطبق فى أى مكان على الحدود الجنسية ولا على الحدود الدينية : فكل من الديانات الكاثوليكية والأرثوذكسية والإسلامية واليهودية تضم سكاناً ينتسبون إلى أجناس مختلفة وجنسيات متباينة . واللغات التى

---

(١) هـ . شوخارت : رقم ٢٠٣ و ١ . وندش : Zur Theorie der Mischsprachen und Lehn wörter ، رقم ٤٠ ، ليبزج ١٨٩٧ ، ص ١٠١ — ١٢٦ . وانظر عن المسائل النظرية : شوخارت : Kreolische Studien (رقم ٣٠ ١٨٨٢ — ١٨٩٠ ، مجلد ١٠١ ، ١٠٥ و ١١٦ و ١٢٢) ؛ ورقم ٣٨ ، مجلد ١٢ و ١٣ (ص ٤٧٦ و ٥٠٨) ومجلد ١٥ ، مجلد ٦ (١٩١٢) . وساينس : رقم ١٣٨ ، مجلد ١، ص ٢١٩ ، حيث توجد به أمثلة للغات المختلطة .

تساهم بنصيبها فى تماسك الجنسية تضيف إلى كل هـذا عنصراً آخر من عناصر التعقيد : فالصربية والبلغارية والإغريقية والألبانية والرومانية والتركية والأرمينية والأسبانية التى يتكلمها اليهود ، تعيش كلها جنباً إلى جنب . ولـكنا لا نشير هنا إلا إلى اللغات التى لا تتكلمها إلا المجاميع الـكبيرة بصرف النظر عن اللهجات .

لا بد أن هذه الحالة التى تعتبر استثنائية فى أوربا الحديثة كانت قاعدة يسير عليها التاريخ فى غالب الأحيان . والنتائج اللغوية التى تنجم عنها كبيرة الخطر لأنه إذا احتكت لغتان إحداها بالأخرى ، أثرت كل منهما على صاحبتها . حتى ذهب بعض علماء اللغة ، بناء على هذه الحقيقة ، إلى أنه لا توجد لغة غير مختلطة ولو إلى حد ما . فعلينا إذن أن نناقش الظروف التى يمكن فيها اختلاط اللغات والنتائج اللغوية التى تنجم عن هذا الاحتكاك .

***

من الخطأ أن نتصور كون المنافسة بين لغتين متماستين تحدث دائماً على وتيرة واحدة فى كل الحالات ؛ لأن قوة اللغات ليست واحدة ، ومن ثم كانت تختلف قدرتها على المقاومة .

لنفرض أننا بصدر لغتين من ذوات المدنية العظيمة كالألمانية والفرنسية . فاللغتان كلتاهما قويتان ، تستويان فى القوة . وبينهما اختلافات فى البنية على جانب من الأهمية . فإذا ما تعرضتا للمنافسة ، لم يكن لهذه المنافسة آثار لغوية ، وإنما تكاد تنحصر آثارها فى الميدان الاقتصادى . والمدرسة هى المكان الذى يهيأ فيها الكفاح بينهما ؛ ولـكن الانتصار فى هذا الـكفاح ينال فى ميدان المعاملة ، أى فى صميم الحياة . لذلك نسمع أن الألمانية قد طردت الفرنسية من هذه القرية ، أو تلك المدينة من المدن السويسرية أو أن العكس قد حدث فى قرية كذا أو كذا (١) . وليس هنا موضع بحث مزايا اللغتين فى ذاتهما فسكان هـذه القرى كان فى متناول

(١) تسمرلى Zimmerli : Die deutsch-französische Sprachgrenze in der Schweiz (الجزء الأول رسالة فى جوتنجن ، ١٨٩١ ؛ والجزء الثانى ، جنيف وبال ١٨٩٥ و ١٨٩٩) .

أيديهم أداتان متساويتان فى المتانة والصلاحية ، فاختاروا من بينهما أصلحهما لحاجات أعمالهم . ذلك بأنه ينشأ هناك ميل إلى نقل الحدود اللغوية بحسب الجهة التى ترد منها العلاقات الاقتصادية . فالمصلحة العملية هى وحدها الحكم فى مثل هذه الحالة ، وهى التى تحكم لهذه اللغة أو لتلك ، وقد تبقى اللغتان زمنا طويلا فى حالة تعادل .

فضلا عن الظروف الاقتصادية يجب أن ندخل فى حسابنا الموقف السياسى . فبعض الشعوب تتمسك بهذه اللغة دون تلك ويرخى لها عمداً عنان التفشى مدفوعا فى ذلك بعاطفة وطنية أو بقصد إظهار إستقلاله أو بنفوره من دولة مجاورة . ومن المؤكد مثلا أن مركز كل من الفلمنكية والفرنسية فى بلجيكا لا يتوقف على الظروف الاقتصادية فحسب ، بل تضاف إليها بواعث سياسية ينبغى للعالم اللغوى ألا يسقطها من حسابه . ومنذ عشرين سنة تتمشى فى إيرلندا حركة تتجه إلى إحياء اللغة الوطنية القديمة يقوم أصلها على بواعث سياسية ، وهى التخلص من لغة الإنجليز ، أعدائهم التقليديين ؛ والفرنسية لم تتكلم يوما فى الألزاس بقدر ما كانت تتكلم فى فترة انضمامها إلى الأمبراطورية الألمانية . أما حينما كانت مقاطعة الألزاس جزءاً من فرنسا قبل سنة ١٨٧١ ، ولم تكن مضطرة إلى اتخاذ لغة بعينها ، فلم يكن لدى الألزاسيين باعث قوى على ترك لهجاتهم المحلية الجرمانية .

كذلك تخضع المنافسة اللغوية فى الأقطار البلقانية لأسباب سياسية إلى حد كبير ، ولكن الدين بدوره يقوم فيها بدور هام . واللغة الأرمينية تدين بقسط كبير فى حيويتها إلى وجود كنيسة أرمينية مستقلة . فالشعور المنبعث من وجود جماعة دينية يزيد مقاومة اللغة قدرة . وفى مستعمرة الكاب ، كان المهاجرون الفرنسيون من البروتستانت فى سنة ١٦٨٨ يكوّنون ربع سكان المستعمرة ؛ ولما كانت الهولندية وحدها هى اللغة المسموح بها فى الأمور العامة والسياسية والدينية ، فقد اختفت الفرنسية بعد مضى قرن واحد .

هناك أيضاً عامل عاطفى آخر له قوته العظيمة فى المحافظة على سلامة الكثير من اللغات وبقائها : هو عامل الهيبة . فما كان للاتينى أن يرضى بتعلم إحدى اللغات

«Quorum nomina uix est eloqui ore Romano» (Pompon.التبربرة
Mela III.3) . لذلك قضت اللاتينية فى إيطاليا نفسها على الأترسكية والأسكية والأمبرية . وقد وصلت هيبة اللاتينية إلى حد جعل بلاد الجول بعد فتحها بقرن على الأكثر ترسل من لدنها أساتذة للخطابة إلى روما .

وإرادة الإغريق فى ألا يضحوا لغتهم أمام لغة فاتح يحتقرونه ، هى التى حفظت الإغريقية خلال العصور ؛ فلم تستطع التركية يوما أن تحل محلها ، أو حتى أن تنال منها . كان الإغريق يتكلمون لغة الفاتح فى حاجاتهم الإدارية ، ولكن لم يحدث إطلاقا أن la lingua del cuore سلمت ل la lingua del pane كما يقول الإيطاليون .

كثيراً ما يكون لهيبة اللغة ما يبررها من قيمتها الذاتية . وهذه القيمة فى حالة اللغة الإغريقية تعتبر شيئاً كبيراً لأنهـا تفوق بكثير كل ما يمكن أن يضاف للغة التركية من فضل. فالتركية ، وهى لغة الفاتحين ، ليست بأية حالة من لغات الحضارة ، وما كانت تستطيع الكفاح ضد اللغة الإغريقية التى تمثل ثقافة من أعرق الثقافات.

نستبين ما لقيمة لغة فى ذاتها من أهمية فى كثير من المواضع . ويمكننا على وجه التقريب أن نقدر لكل لغة درجتها فى هذا الصدد . فالأرمينية تتقهقر أمام الروسية فى أوربا . ولكن البولونية صمدت للروسية فى غرب الإمبراطورية القيصرية : فهما لغتان متساويتان فى القوة وليس فى وسع إحداهما أن تتغلب على الأخرى . والقدرة على الانتشار التى نشاهدها فى بعض اللغات الهندية الأوربية أو السامية كاللغة العربية مثلا ترجع بلا شك إلى أسباب معقدة ، ولكن القيمة الذاتية للغة لهـا فى ذلك نصيب .

إذا بذرت بذور لغوية منعزلة بطريق المصادفة فى بيئة تتكلم لغة مختلفة ، لم يكن لهذه البذور حظ كبير فى أن تبقى سليمة وربما عاجلتها اللغة المحلية فامتصتها ، إذا كانت هذه الأخيرة لغة ثقافة. فنحن نعرف مقدار الصعوبة التى تلاقيها بعض الطوائف الجنسية فى الولايات المتحدة للاحتفاظ بسلامة لغاتها أمام اللغة الإنجليزية ، وحتى الألمانية المتكلمة هناك قد سارع إليها العطب ، إذ أصبح المتكلمون بها يقولون مثلا

Milch gleicht der Onkelnit وهى ترجمة حرفية للعبارة الإنجليزية Uncle does not like milk « العم لا يحب اللبن » (١) . وحوالى منتصف القرن الثامن عشر نزلت بأسبانيا جالية شوابية واستقرت فى سفح السيراموربنا Sierra Morena . واليوم لا نجد فى هذه البقاع أثراً للألمانية اللهم إلا فى بعض أعلام الأسر (٢) . كذلك لم تستطع الفرنسية التى كان يتكلمها الفرنسيون الذين نزحوا إلى ألمانيا أو إلى الأقاليم المنخفضة بعد العدول عن مرسوم نانت أن تقاوم تأثير اللغة المحيطة بها زمناً طويلاً . وفى شمال فرنكفورت توجد بضع قرى — كان سكانها من الفرنسيين ولا يزالون — ولكنهم يتكلمون اليوم لغة القرى المجاورة ، أعنى الألمانية . وعلى العكس من ذلك لا تزال الألمانية صامدة منذ القرن الرابع عشر فى وادى الجتشية Gottschee أى فى قلب المجال السلوفانى (٣) ؛ وليس من شك فى أن الظروف الاقتصادية قد ساعدت على بقاء الألمانية ، هذا فضلاً عن تلك الهيبة التى شدّ من أزرها العصبية الوطنية للألمان أمام التيار السلافى . غير أنه يضاف إلى كل هذا أن الألمانية من حيث الحضارة أقدر على الإشعاع من السلوفانية . فاللغتان لا تستويان فى القدرة على الكفاح : نعم يمكننا أن نفهم بسهولة كون السلوفانية التى تملك جميع الأراضى المحيطة لم تتأثر بألمانية الجتشية ؛ ولكن احتفاظ الألمانية بمراكزها لا يمكن أن يفسر إلا بضعف السلوفانية من وجهة النظر التى نحن بصددها.

لنتجه الآن إلى بحث الأثر الذى يمكن أن تحدثه لغة مشتركة تمثل مدنية منظمة تنظيماً قويا على مجموعة من اللهجات المحلية لا وحدة لها ولا تماسك بينها . وتتمثل لنا هذه الحالة فى مركز البريتانية والفرنسية فى مقاطعة بريتانيا . فالمنافسة بين البريتانية والفرنسية لا تشبه بحال منافسة الفرنسية والألمانية في سويسرا .

(١) بومجرتنر Baumgartener : Die deutsche sprache in Amerika نقله عنه ميبه فى رقم ٤ ، مجلد ١٨ ، ص١١٦ .

(٢) س. فيست S. Feist : رقم ٢٦ ، مجلد ٣٦ ، ص ٣٤٤ هامش .

(٣) اد . هوفن AD. Haußen : Die deutsche Sprachinsel Grammatik der Gottscheer : H. Tschinkel : Gottschee, graz (1875) Mundart, Halle (1908) .

إذ فى هـذه الحالة الأخيرة يتقدم اللغتان وتتقهقران على نحو ما يفعـل جيشان متجابهان فتأخر إحداها أو تقدمها معناه انتقال فى الحدود : ذلك أن الناس إما أن يتكلموا الفرنسية أو الألمانية . أما الحدود اللغوية بين البريتانية والفرنسية فلم تـكن تتغير منذ قرون ، رغم التقدم الأكيد الذى ربحته الفرنسية فى بريتانيا[1] . وقد لوحظ أن البريتانية فى القرن الحادى عشر الميلادى لم تـكن تتعدى الحدود الجغرافية التى تحدّها فى يومنا هـذا . وهى تتكون من خط يكاد يكون مستقيما يتجه من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى ويبدأ من بلوها Plouha على الشاطئ بين بمبول Paimpol وسان بريـه Saint-Brieuc ويسير حتى مصب الفيلين ماراً بـكنتان من أسفل وبالقن من أعلى . وعن يمين هذا الخط لا تـكاد تتكلم إلا اللهجات الفرنسية المسماة « gallots » وحدها منذ تسعة قرون أو عشرة . ولنرجع الآن إلى تشبيه الجيشين المتجابهين الذى أشرنا إليه . فليس أمامنا هنـا معركة منظمة ولا أرض يـكسبها الغالبون باضطرارهم المغلوبين إلى التقهقر . وإنما يوجد فقط انضمام دائم لعدد كبير من عناصر إحدى اللغتين إلى الأخرى ؛ حتى ينتهي الحال بأن تفقد إحداها كل جنـودها الوطنيين . وهذا توغل سلمى ، لا حرب فيه ولا غزو .

ولنحاول لبيان ذلك أن نبحث الموقف فى غرب الخط الذى رسمناه منذ قليل . فهناك قد توغلت الفرنسية فى كل اللهجات البريتانية دون استثناء . ولغة المدينـة تحمل معها تياراً جارفاً من الـكلمات الجديدة التى تمثل أشياء وأفـكاراً وعادات جديدة . كما أن الآداب والدين قد ملآ البريتانية بالـكلمات الفرنسية ، وذلك منذ نهاية القرن الخامس عشر : وهذا آت من أن الفرنسية هى التى تقـدم للبريتانيين بالطبع نماذج لـكتب العبادة والتهذيب . فظلت البريتانية تنحصر شيئاً فشيئاً فى الاستعمالات الزراعية والخاصة . وأخذت الخدمة العسكرية وتعليم الفرنسية فى المدارس يعجلان هذه الحركة منذ نصف قرن . وفى نفس الوقت حصل شئ من التطور فى ظروف المنافسة بين اللغتين .

---

(١) انظر پول سـبيلو Revue d' Enthnographie : Paul Sébillot يناير عام ١٨٨٦ ، ج . لوث : رقم ٨ ، مجلد ٢٤ ، ص٢٩٥ ومجلد ٢٨ ص ٣٧٤ .

ظل التوغل زمناً طويلا يقوم على نوع من التسرب غير المحسوس ، إذ كانت البريتانية تتلق على غير شعور منها عددا من الكلمات الفرنسية تزداد يوما بعد يوم . ولكن البريتانيين كانوا يوالون الكلام بالبريتانية ، ولو طُعِّمت بالكلمات الفرنسية . أما اليوم فقد أصبحت غالبية البريتانيين العظمى تتكلم اللغتين ، ومن ثم انتقل ميدان المنافسة بين اللغتين إلى أذهان المتكلمين أنفسهم على شكل ما . وفى هذه المنافسة خطر على البريتانية . إذ أن الفوائد التى يمكن الحصول عليها من معرفة الفرنسية تفوق كثيراً تلك التى يمكن الحصول عليها من معرفة البريتانية وحدها. ولكون الفرنسية لغة برجوازية وتستعمل دون سواها فى مجتمعات المدن فإنها تغرى بنات الحقول بالتكلم بها ، كما تغريهم ثياب الطبقة الراقية بلبسها . ولكن يضاف إلى ذلك أن روابط السكان البريتانيين بالمجتمع البرجوازى تزداد يوماً بعد يوم . فهم الموظفون فى كثير من الأعمال وخدم المنازل الذين يتكلمون الفرنسية مع مخدوميهم . واتساع السياحة قد جعل من الأجنبي ومن البرجوازى مورد رزق للمواطنين ، وهذا يجعل التكلم بالفرنسية ميزة وضرورة فى آن واحد . ونوع الحياة يؤثر كذلك على اللغة . فيلاحظ أن البريتانية على الشواطئ أقل منها ثباتاً فى الداخل ؛ وذلك لأن البحارين يشتغلون بالطبع بعيدين عن محل إقامتهم ، ولأنهم يجدون أنفسهم كل يوم فى علاقات مع أفراد يتكلمون إما لغات أخرى وإما لهجات مخالفة بعض الشيء : فكان من مصلحتهم أن يستعملوا فى هذه العلاقات لغة مشتركة كالفرنسية . وأخيراً لأن الجزء الساحلى من بريتانيا هو الجزء الذى تمر به طرق المواصلات الكبري وتقع عليه المدن الرئيسية ، وبالتالى هو الجزء الذى يقوم فيه التبادل التجارى ويرتاده السائحون بصورة دائمة[١] . وهكذا صارت الفرنسية لغة مشتركة بالنسبة لمقاطعة بريتانيا فى حين أن البريتانية بلهجاتها المتعددة لم تصل يوماً إلى هذا المركز . فالتناحر بين البريتانية والفرنسية يرجع إذن فى نهاية الأمر إلى فعل الأسباب الاقتصادية ؛ ولكن قوة كل من اللغتين هى التى تحدد ظروف التناحر الخاصة .

---

(١) Camille Vallaux : La Basse - Bretagne ، باريس ١٩٠٧ .

يمكن أن نتنبأ باندثار البريتانية . ولكن يجب ألا نتعجل القول به . لأن البريتانية ما زالت متماسكة وازدياد السكان — وهو كثير فى بريتانيا المتكلمة بالبريتانية — له أثره القوى فى بقاء اللغة ، هذا فضلا عن تمسك البريتانيين بتقاليدهم القومية . كما أن ميزة التكلم بلغتين قد تشجع البريتانيين على استعمال البريتانية فيما بينهم . فهى لغة خاصة جاهزة تصلح ضماناً للاستقلال . وبوصفها لغة خاصة يمكنها أن تعيش زمناً طويلا للاستعمال بين طوائف معينة مثل صيادى « السردين » أو عمال الملاحات البحرية أو قاطعى الأردواز أو تجار الخيل ؛ وفى هذه الصورة لا يستطيع إنسان أن يتنبأ لها بمقدار الزمن الذى يمكن أن تعمّره ؛ لأنها تستطيع حينئذ أن تتجدد وأن تقوى ، على شرط أن تكون هناك جماعة عديدة من الناس تعمل على الاحتفاظ بسلامة اللغة الخاصة .

ومع ذلك فهناك بعض الأركان التى اندثرت منها البريتانية . فجماعات العمال فى إنبون Hennebont لا تتكلم اليوم غير الفرنسية . وأكثر دلالة من ذلك حالة شبه جزيرة Guérande التى لا نرى فيها اليوم من يتكلم البريتانية من البريتانيين إلا تلك القرى الأربع التى تكون بلدة باتز Batz ، وسكانها عامة من عمال الملاحات . وحتى فى هذه القرى نرى أن حالة البريتانية قد أصبحت فى سوء . لأن محيط هذه الدائرة اللغوية يضيق شيئاً فشيئا من جهة ، ومن جهة أخرى نرى عدد الأفراد الذين يتكلمون البريتانية فى داخلها فى قلة مستمرة : حتى أنها صارت لا تستعمل الآن بين الأفراد الذين تقل سنهم عن خمسين عاماً ، وأصبح الأطفال لا يفهمون والديهم . فنستطيع أن نتبأ باللحظة التى تختفى فيها البريتانية نهائياً من هذا الركن من الأرض .

ونحن نعرف لغات أخرى انتهت إلى هذا المصير . فالصربية أو الفندية وهى لهجة سلافية ، تتكلم اليوم فى شبريفالد Spreewald (Lusace) ؛ فى حين أن أختها البولابية Polabe التى كانت تتكلم فى وادى الألب الأسفل قد ماتت منذ القرن الثامن عشر . واليوم لا نرى أى أثر للبروسية ، وهى لهجة بلطية كانت تحيا على الشاطئ بين دانتسج وكينجز برج فى نهاية القرن السادس عشر .

واختفت عملياً فى إنجلترا الكرنوالية ، وهى لهجة كلتية ، كانت تحتل فى العصور الوسطى شبه جزيرة كرنوول Cornwall كلها بما فيها ديفون Devon المعروفة الآن ، وتصل حتى مجال اللغة الغالية عبر قناة برستول . إذ أن السيدة التى قيل إنها آخر من تكلم الكرنوالية ، واسمها دللى پنتريث Dally Pentreath ، قد توفيت فى السادس والشرين من شهر ديسمبر سنة ١٧٧٧ فى سان پول بالقرب من پنزانس Pensance فى سن الثانية بعد المائة . ولكنه قد أمكن للباحثين فى قلب القرن التاسع عشر أن يتلقفوا من أفواه الفلاحين بقايا أدعية وشتائم وأطرافاً من جمل بالكرنوالية ؛ وفى سنة ١٨٧٥ كان يوجد من بين الشيوخ من يستطيع أن يعدّ حتى العشرين بالكرنوالية[1] .

وهنا نتساءل عما يقصد بموت لغة من اللغات وإلى أى درجة يسمح لنا بتحديده .

ذابت البولابية فى الألمانية ، كما ذابت الكرنوالية فى الإنجليزية ، وفى عهدنا الحاضر تذوب البريتانية شيئاً فشيئاً فى الفرنسية . وقد بقيت فى إنجليزية كرنوول آثار كثيرة من لغة الإقليم القديمة ، وذلك بغض النظر عن الكلمات الكرنوالية القديمة ومجاميع الكلمات التى أبقت عليها التقاليد .

كذلك نجد أثر البريتانية فى الفرنسية المتكلمة فى بريتانيا وأثر الإرلندية فى الإنجليزية المتكلمة فى إرلندة[2] ، ففضلا عن كون المفردات مشربة بكلمات وتراكيب مأخوذة من اللغة المحلية ، نجد هذه اللغة تفعل فعلها فى النظام الصوتى بل فى بعض تفاصيل النظام الصرفى أيضا ، كترتيب الكلمات واستعمال حروف الجر مثلا . وهكذا نرى النبر فى كثير من الأحيان يوضع فى الفرنسية المستعملة فى المدن البريتانية على الطريقة البريتانية ويحتفظ بالشدة التى يتميز بها فى البريتانية . فعندما يتكلم الفرنسية أهل كيمپر Qumper ينبرون المقطع السابق للأخير نبراً قوياً ، ويقلبون الحروف المجهورة فى آخر الكلمة ولا سيما الرخوة منها إلى مهموسة

---

(١) رقم ٨ ، مجلد ٣ ، ص ٢٨٩ .

(٢) Joyce : الإنجليزية كما نتكلمها فى إرلندة ، لندن ، الطبعة الثانية (١٩١٠) .

فيقال « une chemisse, neuf un fromache, » (حيث قلبت الزاى والقاء والـ ج إلى س ، وف ، ش على التوالى) ؛ ويستعملون الفعل faire « يعمل » فعلا مساعداً حقيقياً على نحو ما يستعمل ober فى البريتانية فيقال : pour que le diable s'irrite بدلا من faire le diable s'irriter ، ويدخلون على معمول الفعل المبنى للمجهول الحرف avec (بالبريتانية gant) فيقال tué avec son voisin (بدلا من : par) ، الخ . كذلك يقال فى إنجليزية إرلنده اتباعا للاستعمال الإرلندى « I will take it of you » بدلا من « from you » أو « he went against his father » بمعنى « to meet his father » أو « what way are you ? » بمعنى (كيف حالك ؟) أو « on the head of it » (بمناسبة ذلك) ، وهما ترجمة للعبارتين الإرلندتين ann a cheaun و cad chaoi bh-fialu tu ? . وهكذا نرى البريتانية والإرلندية مع تشربهما للعناصر الفرنسية والإنجليزية ، تؤثر كل منهما فى اللغة التى تغير عليها .

هل يأتى يوم تتوغل فيه الفرنسية فى البريتانية حتى تصير الأخيرة كأنها لهجة متأخرة لا تكاد تبدو أكثر تخصصاً من غيرها وإن احتفظت بخصائص مختلفة ؟ لو صح هذا لكان من المستحيل تحديد تاريخ لموت لغة : لأنه فى هذه الحال يبقى دائماً من اللغة المندثرة أشياء من النطق وتراكيب نحوية ، وعلى الأخص تبقى كلمات منعزلة تبدو كأنها استعارات أخذتها الفرنسية من البريتانية ، وهى فى الحقيقة بقايا من اللغة البريتانية تحيط بها عناصر فرنسية مستعارة ؛ حتى يأتى حين لا يعرف المتكلم ما إذا كان يتكلم البريتانية وقد أشبعت بالفرنسية أو الفرنسية وقد بقيت فيها آثار من البريتانية . ولو أن البريتانية قد ذابت فى الفرنسية كما تذوب قطعة السكر فى مقدار من الماء ، لربما جاز لنا أن نقول إن البريتانية لم تعد توجد . ولكن ألا يكون ذلك حكما على ظاهر الحال فحسب ؟ إذ الواقع أن البريتانية قد تعتبر موجودة ما دامت بعض العناصر المستعارة منها باقية فى الاستعمال . ولكن لا يصح فى هذه الحال أن تعتبر اللغة الجولية لغة ميتة لأن الفرنسية فيها قليل من

الـكلمات الآتية منها ، ويجب أن نقول إننا نتكلم إلى جانب اللاتينية عدداً من اللغات الأخرى ، معروفة أو غير معروفة ، وهى اللغات التى اختلطت باللاتينية أو الفرنسية .

تفسير الوقائع على هذا النحو يتفق مع النظرية القائلة إن كل اللغات تعتبر لغات مختلطة ولو إلى حد ما . ولـكن هناك نظرية أخرى[1] تذهب إلى أن الإنسان لا يتكلم مطلقاً فى الوقت الواحد إلا لغة واحدة . وأن وحدة اللغة المتكلمة تستقر بكل بساطة فى شعور المتكلم ، ولا عبرة بعد ذلك لما يكتشفه التحليل فى هذه اللغة من عناصر أجنبية . نعم ؛ من الممكن أن تذوب لغة فى أخرى ، ولـكن هذا لا يمنع من أن المتكلم إذا أراد الانتقال من هذه إلى تلك وجد أمامه خطوة يجب عليه أن يخطوها ؛ ولا بد من أن تقابله لحظة يشعر فيها بأنه يترك اللغة الأولى ليتخذ الثانية . فالفرنسية لغة لاتينية والإنجليزية لغة جرمانية ، مهما كانت التأثيرات الخارجية التى أثرت عليهما ، لأننا نشعر بأننا نتكلم لغة أسلافنا ، ولأننا إذا رجعنا بالتاريخ إلى الوراء حتى نصل إلى اللاتينية المشتركة أو الجرمانية المشتركة ، وجدنا سلسلة متصلة الحلقات من الناس كان فى عزمهم وشعورهم أنهم يتوارثون لغة واحدة بعينها .

هاتان نظريتان متعارضتان . فإذا أردنا أن نوفق بينهما ، وجب علينا أن نبحث إلى أى حد تستطيع العناصر الأجنبية أن تفسد وحدة اللغة التى تضاف إليها .

* * *

لندع جانباً استعارة المفردات التى تتبادلها اللغات فيما بينها . فمن خصائص هذه المستعارات أنها لا تحتم كون المتكلم يتكلم اللغة التى استعيرت منها أو حتى معرفته بها . وشباننا الرياضيون الذين تمتلىء لغتهم بالـكلمات الإنجليزية لا يعرفون اللغة الإنجليزية حتما حتى ولو كانوا ينطقون هذه الـكلمات الإنجليزية نطقاً صحيحاً . فاستعارة المفردات ، مهما اشتد أمرها ، يمكن إذن أن تظل مسألة خارجة عن اللغة .

(١) انظر ميه : رقم ٤٢ ، مجلد ١٥ ، ص ٤٠٣ .

ولكن هناك أنواع من الاستعارة تستلزم وجود توغل داخلى بين النظامين اللغويين وهى حالات النسخ التى قدمنا لها بعض الأمثلة (انظر ص ٢٦٣) . ينتج النسخ عادة من اختلاط صورتين كلاميتين تنتمي كل واحدة منهما إلى لغة مختلفة ، وقد اختلطتا على المتكلم . وقد يقع هذا الاختلاط فى كلمات أو فى تراكيب ؛ ولكن السبب فيها جميعاً واحد . فالتلميذ الصغير الذى يخطىء فيترجم donne-moi ma vache (أعطنى بقرتى) « بقوله da mihi mia vacca (وذلك برفع بقرة) أو Peirre est le roi « بيير هو الملك» Petrus est regem ، فإنه يكون متأثراً بكون كلمة ma vache « بقرتى » أو le roi « الملك » يستعملان فى الفرنسية بصورة واحدة فى حالتى المسند إليه والمسند أيا كان . وهذا عين مايحدث عند مايترجم السلوڤانى الجملة الإيطالية dammi la mia vacca بقوله dajmi moja krava (باستعمال الرفع بدلا من النصب) . وليس هذا ما يصح أن نسميه بالخلط بين الحالات ، ذلك الخلط الذى تبقى فيه حالة الفاعل وحالة المفعول متميزتين مهما كان تركيب الجملة ، بل هو خلط الصور الكلامية حيث نرى المتكلم يتكلم الإيطالية بالسلوڤانية [١] . وهذا ما حصل ، مع اختلاف طفيف ، للكاتب السويسرى ك . ف . مير K. F. Meyer حين كتب Er ist kränker als du nicht denkst (حرفياً : « إنه أكثر مرضاً مما لا تتصور ») . فهذه الغلطة ترجع إلى أن الكاتب يتصور التفضيل فى صورة سلبية على نحو ما يفعل الفرنسيون والإيطاليون عادة ؛ فهو قد جمع بين تفكير رومانى وتعبير جرمانى .

هذا النوع من الخطأ واسع الانتشار . فقد ينسخ نظام الجمل ، وبذلك ينتقل ترتيب الكلمات أحياناً من بعض اللغات إلى لغات مجاورة لها . فالألمانية النمساوية مثلا تسير على حرية كبيرة فى ترتيب الكلمات ، وذلك تحت تأثير اللغات السلافية إذ نراها لا تحجم عن وضع المسند أو المفعول فى رأس الجملة فتقول Guten Morgen wüsch'ich Ihnen « نهاراً سعيداً أتمنى لك » أو Recht hat Er «حق عنده» و Gut ist's gegangen « بخير لقد مرَّ ذلك » ، الخ ، وذلك وفقاً لما يقال فى

(١) نقلنا هذا المثال والأمثلة التالية عن شوخارت رقم : ٢٠٣ ، ص ٩٠ .

السلافية . وقد نسمع فى بوهيميا من يقول : Schwester haben wir ganz kleine « أخوات لنا صغيرات جداً » وذلك على حدّ قول التشيكية sestru máme malickou . وفى جنوب النمسا يتجلى تأثير السلافية فى موضع النفى بوجه خاص مثل : nicht scheut er sich ihn zu verleumden « لا يستحى من أن يغتابه » ؛ وهذه ترجمة عن السلوفانية ne se sramuje gaobrekovati .

إذا تعود إنسان على الكلام بلغتين مختلفتين تعرض عن غير شعور منه لاستعمال طرق التعبير الخاصة بإحداها عند الكلام بالأخرى . فى الغالية يعبر عن التفضيل المطلق فى الصفات باستعمال iawn « حقيق » التى تقابل الكلمة الإنجليزية very ؛ ومن ثم كانت عبارة da iawn « حسن جداً » صورة من العبارة الإنجليزية very good . واستعمال الظروف التى تضاف للفعل لتعديل معناه تعد صفة تتميز بها اللغات الجرمانية . ولكنا نجدها فى الأقاليم المجاورة للانجليزية والألمانية حيث ترجع إلى تأثير هاتين اللغتين . فى الغالية نجد عبارة cael allan صورة من to find out وعبارة dy fodi fyny صورة من to come up وعبارة torri i lawr صورة من to break down وعبارة rhoddi i fyny صورة من to give up . وفى جائيلية اسكتلندة cuir as ترجمة حرفية لعبارة to put out وعبارة cuir air ترجمة للتركيب (to put on) ، الخ . واللادينية Ladin وهى لهجة رومانية تتكلم فى إقليم الجريزون بسويسرا ، تقول متأثرة بالألمانية drizzer our « ينفذ » (من الألمانية : aus-richten) أو gnir avaunt « ينتج » (من الألمانية vor-kommen) أو vain aint « يختبر » (من الألمانية : ein-sehen) . وهنا نجد أنفسنا قد وصلنا إلى الحدود بين المفردات والنظام الصرفى .

تبدو بعض حالات من النسخ أقرب إلى النظام الصرفى من تلك الحالات المتقدمة ، بل منها مايؤثر فى هذا النظام . فقد نشأ فى بعض اللهجات المحلية البولونية المعرضة للاحتكاك بالألمانية ، نوع من الماضى غير المحدد يصاغ بمساعدة فعل الملك

حيث يقال : ja to mom sprzedané (بالفرنسية j'ai vendu « بعت ») من الألمانية : ich habe verkauft وذلك بدلا من الصيغة البولونية الصحيحة sprzedatem (١) .

يوجد فى إقليم كمبوبسُّو Campobasso مستعمرة صربية كرواتية أقبلت من إليريا حوالى القرن الخامس عشر ، ولا تزال حتى اليوم تتكلم لهجة من نوع الاستكافيه stokavien ؛ وقد لوحظ عليهم استعمال الأداة الإيطالية فى جملة سلافية كلها : da mi kaze le pute « كى يرينى الطرق » .

والسلوفانية لم تستعر من الألمانية أفعالا وظروفاً وأدوات وأسماء أعلام فحسب . بل لقد خلقت لها أداة تعريف ، وكثيراً ما تستعمل المبنى للمجهول على مثال الألمانية (٢) .

ويبدو فى برتغالية منيجالور Mangalore فى الهند ميل إلى الدلالة على الملكية باستعمال S متأثرة فى هذا باللغة الإنجليزية . حيث بدأوا بقولهم governor's casa على مثال governor's house ثم قالوا governador's casa ، وهكذا أصبح فى حوزة البرتغالية دالّة نسبة إنجليزية .

ونحن نعرف أنه كثيراً ما لوحظ فى لغات مختلفة أصلا ومتجاورة جغرافيا ، وجود خصائص صوتية مشتركة (انظر ص ٨١ر٨٢) . وكذلك الحال بالنسبة للنظام الصرفى . فاستعمال مفعول الآلة استعمال المسند الذى يوجد فى الفنلندية ، قد انتشر فى اللغات الهندية الأوربية (السلافية والبلطية) التى احتكت باللغات الفنلندية(٣) . وهذا لا يمنع من اختلاف اللغات السلافية عن اللغات الفنلندية من جهة النظام الصرفى . ومع ذلك فمثل هذا النوع من الاستعارة يمس سلامة هذا النظام وما دامت الاستعارة مقصورة على عدد قليل من التراكيب أمكن اعتبارها من استعارة المفردات ؛ أما إذا صار التركيب المستعار مثالا يحتذى وفرض على

---

(١) كازمير نيتش Casmir Nitsch : Mova ludu polskiego كراكوفيا (١٩١١) ص ١٣٦ .

(٢) فيست Feist : رقم ٢٦ ، مجلد ٣٦ ، ص ٣٢٣ .

(٣) ميه : رقم ٤ ، مجلد ١٢ ، ص ٧٦ .

العقل صورة كلامية معينة ، كانت اللغة فى هذه الحال قد أدخلت فى نظامها وسيلة صرفية جديدة .

وقد يصل الأمر باللغة إلى إقصاء وسيلة سابقة إقصاء تاماً . لنفرض مثلا أن البرتغالية اتخذت التركيب homem's casa على طول الخط بدلا من a casa do homem فلن يغير هذا بطبيعة الحال من النظام الصرفى العام للغة ، لأنه لم يتغير فيه إلا عجلة واحدة ، إلا قطعة واحدة دخلت عرضا فى آليته . ولكن إذا أصيب النظام الصرفى البرتغالى بعدد من هذه التغيرات ، أفلا يمكن أن يأتى وقت لا يستطيع فيه المتكلم أن يحس تماماً ما إذا كان يتكلم الإنجليزية أم البرتغالية ، ولا يستطيع العالم اللغوى فى هذه الحالة أن يحكم بهذا أو بذلك ؟

كان يمكننا أن نستمد من دراسة بعض اللغات المختلطة معلومات قيمة تساعدنا فى الإجابة عن هذا السؤال . ومثل هذه اللغات موجودة بالفعل ، ولكنها بكل أسف توجد فى ظروف تقلل من قيمة الاستشهاد بها . فقد ذكرنا مثل اللغة الغجرية الأرمينية التى اتخذت نظام الأرمينية الصرفى بأكمله مع استبقائها لمفرداتها ، أى أنها الآن ليست إلا الأرمينية بمفردات غجرية . وهذا المثل يجد له ما يعضده فى غجرية إنجلترا . ففى التاريخ القديم كان الغجر فى انجلترا يتكلمون لغة غجرية محضة ؛ وبعد ذلك احتفظوا بمفرداتهم الغجرية وأخذوا يركبونها فى الجمل مستعملين دوال النسبة الإنجليزية . فمثل هذه الجملة kowova te jal adré mi Duvelésko kèri kana meróva « أتمنى أن أذهب إلى بيت الله عندما أموت» صارت فى الغجرية الحديثة [1] l'dkom to jal adre mi Duvel's ker when manbi mer's هاتان الحالتان تتطابقان ويجب أن يفسر بطريقة واحدة . ولكن غرابتهما تجعل الناظر يرتاب فى كونهما اصطناعيتين ولو جزئياً على الأقل . وقد تظننا أمام تعمية يراد بها جعل الإنجليزية والأرمينية غير مفهومتين وذلك بالاستعاضة عن الكلمات الإنجليزية والأرمينية بكلمات غجرية وإذا صح ذلك لم يجز لنا أن نقول إن الغجر قد اتخذوا النظام الصرفى للغة

(١) بيشل Pischel وينقله عنه شوخارت : رقم ٢٠٣ ، ص ٨ — ٩ .

غير لغتهم ، بل إنهم شوهوا الإنجليزية أو الأرمينية . وعندئذ يكون من المجازفة أن نخرج من هذه الحالة بنتيجة نهائية .

ولكن من خصائص اللغات المختلطة أن تكون أيضاً لغات بالية على وجه العموم وهذه الحقيقة تساعدنا على أن نفهم تكوينها فهماً دقيقاً .

تبادل التأثير الذى تخضع له اللغات المحتكة بعضها ببعض ينشأ عنه تبادل البلى . لأن حاجة الأفراد إلى إيجاد وسيلة عاجلة للتفاهم تدفعهم إلى القيام بتضحية مشتركة ، وذلك بأن يبعد كل فريق من لغته ما هو خاص بها وحدها وألا يبقى إلا السمات العامة التى تشاركها فيها اللغات المجاورة .

بلاد القوقاز فى وقتنا الحاضر كجزيرة البلقان ميدان لاختلاط اللغات فالتترية والأرمينية والجرجية والشركسية تغمرها باللهجات المتنوعة ، تلك اللهجات التى يختلف بعضها عن بعض إلى حد يعجز اللغويين أحياناً عن تحديد ما بينها من قرابة . والسبب الأساسى فى التغير السريع الذى يطرأ على هذه اللغات يقوم على تأثير اللغات المجاورة فيها . وهذه الحال تقدم لنا خير المثل على البلى الذى يحدثه الاحتكاك فنقابل فى الجزء الجنوبى الشرقى من الداغستان ، على ضفتى نهر السامور ، سلسلة من اللهجات التى تنتمى إلى مجموعة اللغات الكورينية . وتغمر هذه اللهجات اللغتان الأرمينية والتترية شيئاً فشيئاً ، فتضيقان من مجالها تدريجياً ، وحتى فى داخل الدائرة الضيقة التى تتكلم فيها هذه اللهجات ، نرى هاتين اللغتين المتجاورتين قد نالتا من سلامتها ؛ وليس البلى على درجة واحدة فى كل مكان ولكنه محسوس على كل حال ، ويذكر ا . دِر A. Dirr — وهو خير من درس هذه المسألة(١) — أن تبسيط النظام الصرفى أظهر نتائج هذا العمل .

أكد جريم Grimm منذ ١٨١٩ أن فقدان النحو(٢) نتيجة حتمية لصراع اللغات . والواقع أن هذه النتيجة ليست حتمية . ولكنا نشاهد وقوعها فى كثير

---

(١) Mitteilungen der Anthropol . Gesellschaft in Wien, مجلد ٣٩ ، ص ٣٠١ ، ومجلد ٤٠ ، ص ٢٢ .

(٢) Deutsche Grammatik ص ٣٢ من المقدمة ، ص ١٧٧ .

من الأحيان . فاللغات التى تنتقل تفقد على وجه العموم خصائصها الفردية بأسرع من غيرها وذلك لأنها معرضة لتأثيرات متعددة ومتنوعة تقع عليها من لغات تختلف عنها كثيراً فى غالب الأحيان . والانتقال فى غالب أمره سبب فى التحلل اللغوى . وهذا يفسر لنا الاختلاف المشاهد بين اللهجات الإغريقية فى المستعمرات واللهجات الإغريقية فى بلاد الإغريق نفسها . إذ يجب أن نضيف إلى الأسباب الوجيهة حقا التى ذكرت لتفسير هـذا الاختلاف (انظر الصفحات الأخيرة من الخاتمة) تأثير اللغات غير الإغريقية التى كانت مستعملة فى الأقطار التى مد الإغريق إليها نشاطهم . فيمكننا أن نسلم بأن تبسيط النظام الصرفى نسبياً وتحطيم بعض السمات الصوتية فى لهجات هذه المستعمرات يرجعان إلى مجاورة تلك اللهجات للغات مختلفة ، حتى ولو لم نسلم بأن تلك اللغات قد أثرت فى بنية اللهجات نفسها . ذلك أن الناس الذين كانوا يتكلمون هذه اللغات قد أخذوا يتكلمون الإغريقية ، ففرضوا على الإغريق عادات جديدة اطمأن إليها الإغريق أنفسهم بمضى الزمن ، ولا سيما وقد كانوا قليلى العدد.

هذه الحالة اللغوية ساهمت بقسط وافر ، كما هو المتوقع ، فى قيام لغة مشتركة . ففى اليوم الذى تمكنت فيـه اللهجات الإغريقية من أن تتخلص من بعض خصائصها الفردية المحضة تحت التأثير الخارجى ، أصبحت قادرة أن تنصهر كلها فى وحدة اللغة المشتركة « κοινή » . ولـكن ما يصح فى لهجات لغة واحدة ، يصح أيضاً فى تاريخ لغات مختلفة : لأن الأحداث الواحدة ورد فعلها تؤدى إلى نتائج واحدة . فإذا تنافست لغتان أو أكثر ، قام بينهما فى غالب الأمر نوع من من التوازن الذى ينتهى بتكوين لغة مختلطة ، فتتخذ لغة مشتركة . وتوجد فى فى العادة لغة غالبة تتخذ قاعدة لهذا المزج[1]. ومع ذلك فقد يحدث أن تنشأ لغة مشتركة من مزج لغات مختلفة بنسب تـكاد تـكون متساوية . وهذا هو ما حدث للسبيرية sabir فى موانى البحر الأبيض المتوسط . فهى مزيج من الفرنسية والأسبانية والعربية . كل هذه اللغات ساهمت فى تـكوين السبيرية وخاصة بمزج مفرداتها . أما الخصائص لـكل منها فقد زال أثرها تماماً .

(١) ا . فنديش E. Windisch : المرجع السالف الذكر ، ص ١٠٤ و ص ١١٣ .

اللغة المسماة pidgin-english التى تعد لغة مشتركة فى موانى الشرق الأقصى واللهجة التى يطلق عليها broken-english « الإنجليزية المكسرة » التى يتكلمها سكان سيراليون الأصليون ، تعد كل منهما أيضاً لغة مختلطة كالسبيرية [١] . وأساس البدجن إنجلش ، اللغة الصينية التى تتميز بضآلة نحوها . وما هى فى حقيقة أمرها إلا اللغة الصينية بمفردات إنجليزية . فقد تمكن القائمون بهذا الأمر أن يكوّنوا من المفردات الإنجليزية — وهى خير ما يصلح لهذا الغرض — جملا تسير فى ترتيب الكلمات على مثال الجمل الصينية . وينتج من ذلك فى غالب الأمر مركّب عجيب يبرهن على وجود تشابه محسوس بين اللغتين . فمندنا فى هذه الحالة لغة تقوم على أساس المزج ؛ ولكن خلو هذه اللغة من النحو خلواً يكاد يكون تاماً قد رشحها بصورة عجيبة للقيام بالدور الذى ألقى على عاتقها .

ولغات المولّدين أيضاً يمكن أن تعدّ أمثلة للغات المختلطة . وهى تستند على لغة أوربية إما الفرنسية أو الأسبانية أو الإنجليزية ؛ ولكن هذه اللغات قد تجردت من خصائصها الصرفية فأصبحت فى حالة تشبه حالة الغبار . فهى رمال ذهبت عنها المادة الجيرية ، وأحجار لا ملاط بينها ، ومادة متحللة لا قوام لها . ذلك لأن حاجة السكان الأصليين فى معاملتهم التجارية إلى التكلم مع التجار الأجانب قد دفعتهم إلى تعلم اللغة الأجنبية التى حلّت بمضى الزمن محل لغتهم الأصلية . ولكن هذا التعلم لم يكن كاملا على الإطلاق : بل كان يقتصر على السمات السطحية للغة ، وعلى العبارات التى تدل على الأشياء الشائعة الاستعمال والأفعال الضرورية للحياة : أما عنصر اللغة الداخلى بما فيه من تعقيدات دقيقة ، فلم يهضمه إطلاقا المواطن الأصلى .

يمكننا أن نقول إن لهذه الظاهرة عللاً اجتماعية . فكلام المولّدين كلام قوم منحطين ومرءوسين، لم يعمل رؤساؤهم يوماً على جعلهم يتكلمون لغة صحيحة ولم يريدوا

---

(١) هناك مثل من لهجة أل . pidgin - eng فى Leland : (C . G.) ، Pidgin - english, singsong in the China — english dialect. ، الطبعة الخامسة (١٩٠٠) . وعن « الإنجليزية المكسرة » انظر : F. W. H. Higeod : رقم ١٣٦ ، وعن عربية مدغشقر انظر G. Ferrand رقم ٦ ، مجلد ١٣ ، ص ٤١٣ .

أن يعملوا ذلك إطلاقاً . فتعتبر لغاتهم من اللغات الخاصة إلى حد ما ، على النحو الذى كانت عليه اللغات الغجرية الآنفة الذكر ، ولكن مع اختلاف الأسباب . ولكن يبقى أن لغات المولدين تعتبر لغات مختلطة كالسبيرية والپدجن انجلش والإنجليزية « المكسرة » ، وقد نتجت من اختلاط لغتين أو أكثر ، ولما كانت خالية من نظام صرفى مميز لها ، لم يكن فى وسع واحدة من اللغات الداخلة فى تكوينها أن تدعيها لنفسها . فهذا مثل حقيقى من الخلاسية اللغوية . وسنرى النتائج التى تنجم عنها فى الفصل التالى .

الفصل الخامس

القرابة اللغوية

والمنهج المقارن [1]

استعمال عبارة « القرابة » فى مسائل اللغة يؤدى إلى لبس كبير ، وكثيراً ما أوقع فى الخطأ أشخاصاً من غير العارفين بالأمور اللغوية . بل أخطر من ذلك أن بعض علماء اللغات أنفسهم قد أخذوا أحياناً هذا التعبير المجازى على علاته وراحوا يضعون القوائم بأنساب اللغات على طريقة أوزييه Hozier . وظن بعضهم منذ ذلك الحين أنه فى حل من القول بأن اللاتينية قد ولدت الفرنسية أو الإيطالية ، ومن الكلام عن اللغات الأمهات واللغات البنات واللغات الأخوات . وكلها مصطلحات سيئة لأنها تعطى فكرة زائفة عن علاقة اللغات بعضها ببعض . إذ لا شيء من الشبه بين قرابة اللغات وبين التتابع أو التوالد بالمعنى الفسيولوجى لهذه المصطلحات .

لا يتأتى لإحدى اللغات أن تلد لغة أخرى ؛ وليس فى وسع أى عالم لغوى أن يحدد الساعة التى وقع فيها هذا الميلاد . فإذا قلنا إن الفرنسية قد خرجت من اللاتينية ، فمعنى ذلك أن الفرنسية هى الصورة التى صارت إليها اللاتينية خلال العصور فى إقليم من الأقاليم . وإذن فليست الفرنسية فى كثير من الوجوه إلا اللاتينية نفسها . وكلما أوغلنا فى تاريخ اللغة الفرنسية ، وجدنا حالات متنوعة يتلو بعضها بعضها وتقربنا شيئاً فشيئاً من اللغة اللاتينية . ومع ذلك فمن المحال أن نعين الحد الذى تنتهى عنده اللاتينية وتبدأ الفرنسية . وتاريخ اللغة الفرنسية

---

(١) انظر مييه : Le problème de la parenté des langues (رقم ٤٢ ، مجلد ١٥ (١٩١٤) ص ٤٠٣ ؛ ومؤلفات شوخارت المذكورة فى الفصل السابق .

مشحون بالثغرات ؛ فهناك فترات لا نعرف عنها إلا القليل ، وكانت ذات أثر حاسم فى تكوين هذه اللغة . ومن جهة أخرى لم تكن الحركة التى ابتعدت بالفرنسية عن اللاتينية متماثلة الأجزاء ، ومع ذلك فبين اللاتينية والفرنسية ، رغم تنوع الأحوال التى تقلبت على الفرنسية ، استمرار تاريخى هو الذى يكوّن القرابة بين اللغتين . وهذا هو الوجه الأول من وجهى المسألة ، ويمكننا أن نسميه بالتتابع .

وهناك وجه آخر يجب أن يُحسب حسابه ، وهو الوجه الوضعى synchronisme . يمكننا بسهولة بناء على ما قلناه فى الانفصال الطبيعى لإحدى اللغات ، أن نطلق مصطلح القرابة اللغوية أيضاً على لهجتين خارجتين من لغة واحدة . فقد يحدث فى بعض المناطق أن تنقسم لغة من اللغات ، التى يتكلمها أصحابها فى صورة واحدة لا اختلاف فيها ، إلى عدد من مجاميع اللهجات تتميز كل منها ببعض الخصائص التى تمتد إلى عدد ما من المجاميع المجاورة . عندئذ يقال بأن هذه المجاميع ترتبط بصلة القرابة ، وتظل كذلك مهما كانت التغيرات التى تصيب كل واحدة منها . ومهما عظم البون بين اللغة المشتركة البدئية وبين اللهجات التى خلقها الانقسام ، فإنه يجب التسليم بوجود القرابة ما دامت ثابتة تاريخيا .

ولا ينبغى لنا أن ندخل فى حسابنا هنا تلك الفوارق التى تفرضها الحالة السياسية أو الاجتماعية على اللغة : فالقرابة اللغوية تضم دون أى تمييز اللهجات التى نزلت إلى طبقة اللغات المحلية أو الرطانات أو العاميات الخاصة بأرباب الصناعات وتلك اللهجات التى ارتفعت إلى مصاف اللغات المشتركة . فالبيكاردية والبواتية والنورماندية كلها قريبة بعضها من بعض ، وقريبة أيضاً للفرنسية ، لهجة الإيل دى فرانس التى صارت لغة مشتركة لأقاليم مترامية الأطراف . وإذا كان من يتصدى لتاريخ اللغة الفرنسية يهتم بتمييز جميع الفروع التى تنطوى عليها هذه اللغة ، فإن من حق من يريد أن يشمل تطور اللغة بنظرة عامة أن يعتبرها وحدة متحركة خلال العصور التى مرت بها . والواقع أن التغيرات التى أصابت اللغة

ترجع فى معظمها إلى تطورها الذاتي . أما تفتت اللهجات وتكوين اللغة المشتركة وامتدادها إلى اللغات المحلية حتى تتوغل فيها شيئاً فشيئاً ، ذلك العمل الواسع الذى أجملنا تاريخه فيما تقدم ، فكل هذا قد وقع داخل اللغة الفرنسية نفسها دون أن يقلق إطلاقاً صلات القرابة التى بين لهجاتها[1] .

ومع ذلك فالقرابة درجات . فالبروفنسية le provençal مثلا لغة مشتركة تضم عدداً كبيراً من اللهجات المحلية التى تسير معها جنباً إلى جنب . ونحن نعرف أن هذه البروفنسية نشأت من توحد لهجات محلية ، وهذه اللهجات نفسها خارجة من المصدر نفسه الذى خرجت منه لهجات شمال فرنسا ، أى أنها هى الأخرى من اللاتينية . فما لا يحتاج إلى بيان إذن أن تكون صلة القرابة بين اللهجات البروفنسية المحلية بعضها وبعض أوثق من القرابة التى تجمع بين أية واحدة من هذه اللهجات نفسها وبين إحدى اللهجات الفرنسية المحلية . ذلك لأن الفرنسية والبروفنسية تجتمعان فى طور بعينه من أطوار اللغة يعد سابقاً عليهما . فهما حالتان مختلفتان من لغة واحدة ، وقد ظلتا على اختلافهما فى خلال العصور ، وهذه اللغة الواحدة يمكننا أن نسميها لاتينية الجول العامية . وإن كانت التسمية لا تعنينا كثيراً . ومعنى ذلك أننا إذا أردنا تحقيق القرابة بين اللغتين ، اضطررنا إلى أن نؤلف بين الوجهين اللذين أشرنا إليهما فيما تقدم : الوجه التتابعى والوجه الوضعى .

ولكن هذا التأليف قد يمتد بنا إلى ما وراء ذلك ؛ قد يتسع فى الزمان والمكان حتى يشمل جميع اللغات الرومانية الصادرة عن اللاتينية أيضاً . فاللغة التى سميناها لاتينية الجول العامية ليست إلا صورة خاصة قد لا تختلف إلا قليلا عن اللاتينية العامية العامة التى أخرجت الإيطالية فى إيطاليا والإسبانية فى أسبانيا والبرتغالية فى البرتغال والرومانية فى رومانيا ولغات أخرى أقل أهمية من هذه اللغات . كل هذه اللغات تعتبر لغات مشتركة صقلتها التقاليد الأدبية ، وعملت

(١) انظر مير لوبك Meyer Lübke رقم ١٨١ ؛ وبورسيه Bourciez رقم ٥١ وتسونر Zauner : رقم ٢٢٤ .

الظروف السياسية على بقائها وتعميمها وكل منها تضم عدداً كبيراً من اللهجات وفروعها . وقرابة هذه اللهجات جميعاً بعضها ببعض (بغض النظر عن اختلاف اللغات المشتركة) وقرابة اللهجات المحلية كلتاها على درجات كثيرة . إذ أن بعضها لا يزال أكثر اقتراباً من البعض الآخر ، لأن اختلاف كل منها عن صواحبها لم يتحقق إلا منذ عهد قريب . ولكن فريقاً منها ، قد انفصلت لهجاته منذ عهد بعيد ، فلم يبق بينها تشابه كبير : وذلك كما لو قارنا رطانة برتغالية برطانة رومانية مثلا . ويقوم التباعد على وقوع تطورات مستقلة ، وذلك بغض النظر عن التأثيرات الخارجية التي لا نتكلم عنها الآن ؛ ومع ذلك فليست البرتغالية والرومانية فى نظر العالم اللغوى إلا صورتين من لغة واحدة هى اللاتينية .

ونحن نعرف هذه اللاتينية . فيجوز لنا إذن أن نقدر الطريق التى قطعته حتى وصلت إلى اللغات الرومانية المستعملة اليوم ، وأن نحدد درجات القرابة على ضوء التغيرات التى وقعت وعلى أهمية كل منها . ولسنا فى حاجة إلى بيان المعونة الهامة التى تقدمها للباحثين فى هذه اللغات معرفتهم بالتاريخ السياسى والاجتماعى . فهى رقابة دائمة ووسيلة قيمة لتحديد التاريخ الدقيق لكل تقلب من التقلبات التى مرت بها الشعوب واللغات فى آن واحد . ولكن الوثائق التى فى متناول يدنا تقف عند اللاتينية : فلسنا نعرف شيئاً عن حالات اللاتينية السابقة للقرن الثالث قبل الميلاد أو حوالى ذلك التاريخ . وبهذا نفقد خير وسيلة للتحديد وخير ضمان نستند عليه فى تحقيق قرابات تقوم على ظروف اللغة والتاريخ معاً .

ومع ذلك فنى وسعنا أن نرقى فى بحثنا إلى ما قبل اللاتينية بفضل المنهج القارن الذى يجب علينا الآن أن نحدد مداه[1] .

* * *

ليس المنهج القارن إلا امتداداً للمنهج التاريخى فى أعماق الماضى السحيق .

---

(١) انظر مييه Sur la méthode de la grammaire Comparée رقم ١ ، ١٩١٣ ص ١ — ١٥ . والنتائج الأساسية يعرضها بوضوح برتستنكى Porzezinski رقم ١٩٢ ص ٣٩ — ٨٠ .

وينحصر فى نقل منهج التفكير الذى يطلق على العهود التاريخية إلى عهود لانملك عنها أية وثيقة .

رأينا أن اللغات الرومانية الحالية إنما نتجت من تطور اللهجات الخارجة من اللاتينيــة تطوراً مستقلا وإن كان متوازياً . وتقوم وحدة اللغات الرومانية على مجموعة من السمات المشتركة بين كل هذه اللغات ؛ ومن هذه السمات نعرف قرابتها . ومعظم هــذه السمات كانت توجد فى اللاتينية نفسها على اختلاف بينها فى درجة الظهور ؛ وبعضها ناتج من حالات تجديد مشتركة ، ولــكن هــذه السمات التى نعثر عليها فى كل اللغات الرومانية يمكن إذا لم يوجد لها نظائر فى اللاتينية نفسها — أن تعتبر بقايا من تلك الحالة اللغوية غير المعروفة لنا تماماً والتى تسمى باللاتينية العامية ، وهى الواسطة بين اللاتينية الكلاسية واللهجات الرومانية . فهناك إذن نحوٌ مقارن للغات الرومانية . وهذا النحو لا يمكننا من إقامة صلات مباشرة من التتابع بين هذه اللغات وبين اللاتينية فحسب ، بل يسمح لنا أيضاً بإقامة البنية النحوية لحالة لغوية تقل الوثائق التى لدينا عنها أو تنعدم تماماً .

ولــكن اللاتينية نفسها ليست لغة منعزلة لا رابطة بينها وبين لغات أخرى . بل يحتوى نحوها على سمات مشتركة بينها وبين الإغريقيــة ، سمات لفتت أنظار القدامى أنفسهم . وأدرك المحدثون أن الإغريقية واللاتينية تتصل بمجاميع أخرى من اللغات تشمل أراضى واسعة وتمتد من السنسكريتية فى الهند إلى أقصى طرف فى أوربا الغربية . وأطلقوا على هذه اللغات اسم اللغات الهندية الأوربيــة لما لم يجدوا لها اسماً آخر . وبالطبع يجب أن تفهم هذه « اللغات » بالمعنى الذى أعطيناه لهذه الكلمة فيما سبق : فهى مجموعات لغوية أمكن لـكل منها أن تصل فى فترة من فترات التاريخ إلى نوع من الوحدة ، ولـكنها جميعاً قد انقسمت وتباينت خلال العصور على النحو الذى أشرنا إليه .

تمكن العلماء بجمعهم للسمات المشتركة بين هذه اللغات أن يكوّنوا ما يسمى

بالنحو المقارن للغات الهندية الأوربية[1] . ذلك النحو الذى يُضم إلى سلسلة طويلة من أنحاء مقارنة أضيق منــه دائرة ، ونعنى نحو اللغات الرومانية المقارن ، ونحو اللغات السلافية المقارن ونحو اللغات الجرمانية المقارن ، الخ . وينتهى كل واحد من هذه الأنحاء المقارنة إلى إعادة تكوين حالة لغوية فى صورة إجماليــة غالباً . وهذه الحالات اللغوية المبعوثة التى تسمى بالجرمانية المشتركة[2] والسلافية المشتركة مثلا ، وكل منها تعتبر فى منطقتها نظيرة اللاتينية العامية (أو الرومانية المشتركة) التى انتهى إليها نحو اللغات الرومانية المقارن . وعلماء اللغات الرومانية يجدون فى بقاء اللاتينية سنادة قوية يعتمدون عليها فى استنباط نتائجهم ؛ لذلك يحق لعلماء اللغات الجرمانية والسلافية أن يندبوا سوء حظهم لعدم وجود وثائق من الجرمانية المشتركة أو السلافية المشتركة يقابلون بها نتائج بحثهم . ولـكن ينبغى لنا ألا نبالغ فى فقر العالم اللغوى الجرمانى أو السلافى بالنسبة للعالم الرومانى . فهـذا الأخير لا يرجع إلى اللاتينية إلا للتثبت من نتيجة وصل إليها ؛ ولـكنه يقيم فروضه دون رجوع إليهـا ، وأحياناً يسره أن يبين بالبرهان أنه على حق فى استنتاجه رغم معارضة اللاتينيــة الـكلاسية الموجودة فى النصوص . أما اللاتينية نفسها فلا يستعملها علماء اللغات الرومانية إلا للاستعانة بها على إعادة بنـاء هذه اللاتينية العامية التى تعدّ نقطة البدء فى عملهم ونقطة الانتهاء أيضاً .

ولـما كان علماء اللغة الذين يعيدون بناء الهندية الأوربية لا يشتغلون بوجه عام إلا فى لغات مشتركة أعيد بناؤها بطريق الفرض أيضا ، كانوا مضطرين إلى إبراز عمل أكثر إجمالا من عمل سابقيهم . فالهندية الأوربية التى عملها علماء اللغات ليست لها حقيقة واقعية : بل ليست كما قيل فيها إلا « نظاماً من المقابلات » .

---

(١) انظر خاصة برجمان Brugmann ودلبروك Delbrück ، رقم ١٥٠ ، ومييه رقم ٩٤ . ومؤسس النحو المقارن فى اللغات الهندية الأوربية العالم الألمانى فرنستس بوب Franz Bopp ، رقم ١٤٥ . ومن بعده شليشر رقم ١٩٥ . وانظر أيضاف . دى سوسير F. de Saussure ، رقم ١٢١ ؛ وهيرت Hirt ، رقم ١٦٦ ، ١٦٧ ؛ وبشتل Bechtel رقم ١٤٣ ؛ وهبشمان Hübschmann ، رقم ١٧١ ، وشريدر Schrader ، رقم ٢٠٠ ، ٢٠١ ، وفيست رقم ١٥٨ و ١٥٩ .

(٢) ف . كلوجه F. Kluge : رقم ١٧٤ .

ويترتب على ذلك أن أعلم العلماء بالهندية الأوربية لا يستطيع أن يعبر بها عن جملة بسيطة من قبيل « الحصان يجري » أو « البيت كبير » . وأقصى ما يصل إليه فى الحذق بها ينحصر فى قواعد البنية النحوية : فلا يوجد إذن من يستطيع أن يتكلم الهندية الأوربية . ولكن على العالم اللغوى أن يعرف ما هى فصائل هذه اللغة وكيف كانت تعبر عنها ، وماذا كانت قيمة اللواحق والخواتم فيها .

وهذا هو المهم لأنه يسمح لنا بإقامة الروابط التاريخية التى تجمع هذه اللغات بعضها ببعض على وسائل لغوية . فمع أن المنهج المقارن يولى وجهه شطر الماضى السحيق ، فإنه فى الواقع لا يؤتى ثمرته إلا فى اتجاه عكسىّ ، لأنه يوضح تفاصيل اللغات الثابتة بالوثائق . وأظهر نتيجة لنحو اللغات الهندية الأوربية المقارن تنحصر فى تحديد صلات القرابة بين هذه اللغات[1] . فكل اللغات الفارسية واللغات السلافية والجرمانية والرومانية والكلتية ، إذا اعتبرت من الوجهة الزمنية ، تبدو للعالم اللغوى نتيجة لسلسلة متتابعة من التباين لحالة لغوية واحدة سابقة عليها جميعا ، وتسمى بالهندية الأوربية .

هل يمكننا أن نرجع بالتاريخ إلى أبعد من هذا ؟ لا شىء يمنع من الاعتقاد فى إمكان ذلك . بل إن بعض علماء اللغة المحدثين مقتنع به تمام الاقتناع . ونحن نعرف كيف تكوّن نحو اللغات الهندية الأوربية المقارن بضمه إلى عدة أنحاء مقارنة أخرى . وإذن فإننا إذا ثابرنا على تفتيش تاريخ اللغات واستخراج القواعد العامة التى تبنى عليها ، فقد نصل إلى أن نعيد بناء لغات مشتركة أخرى تكون بالنسبة للهندية الأوربية كالسلافية المشتركة بالنسبة للجرمانية المشتركة أو اللاتينية بالنسبة للاغريقية ، أو كالفرنسية بالنسبة للايطالية إذا لم نرد التوغل فى الماضى .

لوحظ منذ زمن طويل وجود بعض مواضع من الشبه بين الهندية الأوربية والفينية الأجرية . وقد وجدت فى ميدان السامية — حيث قطع البحث المقارن

---

(١) عن اللغات الهندية الأوربية الجديدة التى اكتشفت بعض وثائقها فى أوائل القرن الحالى فى آسيا الوسطى ، انظر خاصة : مييه وسيلفان ليفى ، رقم ٥ ، (١٩١٠ — ١٩١٣) ورقم ٦ مجلد ١٧ و ١٨ ؛ وجوتيو : رقم ٥ (١٩١١) . ورقم ٧٢ مكرر . وترى عرضا لمجموع النتائج كتبه مييه فى مجلة : Revue du Mois ، أغسطس عام ١٩١٢ .

مرحلة لا بأس بها — بعض سمات خاصة فيها وجوه شبه غريبة بالهندية الأوربية ؛ حتى استنتج بعض اللغويين من ذلك إمكان وجود أسرة لغوية تضم اللغات السامية واللغات الهندية الأوربية[1]. فتكون كل منهما تمثل مجموعة لغوية واحدة ؛ وتكون الفرنسية فى حقيقة أمرها هى العربية أو الحبشية كما ثبت بالبرهان أنها هى نفس الروسية والفارسية والإرلندية . ولا ينبغى أن تثنينا عن هذه المحاولة تلك الخلافات الصارخة الموجودة بين هذه اللغات ؛ لأنه إن كان فى افتراض أسرة هندية أوربية سامية شىء من الجرأة ، فليس مبعث هذه الجرأة أن ذلك الفرض يرجع إلى أصل واحد لغات مختلفة تمام الاختلاف . فالحقيقة الواقعة أن السامية تظهر منذ الآن أقرب إلى الهندية الأوربية من سائر المجاميع اللغوية التى حددت معالمها حتى الآن . أفيمكن لهذه بدورها أن تتداخل شيئاً فشيئاً حتى تصهر فى وحدات واسعة يضاف بعضها إلى بعض[2] ؟ إن هذا السر فى ضمير المستقبل ؛ إذ أن هناك عدداً كبيراً من اللغات التى لم يطبق عليها المنهج المقارن بعد أو التى لم يقل فيها كلمته الأخيرة .

* * *

من ذلك نرى مقدار المدى الذى يستطيع المنهج المقارن أن يصل إليه ، ولكنا نرى أيضاً مقدار النقص الذى ينطوى عليه . فهو يستند على مبادىء لغوية فحسب ، ولا يستطيع أن ينتظر من العلوم المجاورة إلا معونة ضئيلة . إذ يجب علينا أن نحذر الخلط بين القرابة اللغوية كما نستخرجها من المنهج المقارن ، وبين القرابة الجنسية وقرابة المدنية . فهذه ثلاثة مذاهب من الدراسة مختلفة .

يشتغل فى ميدان ما قبل التاريخ ثلاث طوائف من العلماء ، وكل طائفة منها تعمل مستقلة عن الأخريين . وهؤلاء هم : علماء الأنتروبولوجيا وعلماء الآثار وعلماء اللغة . فالأولون تحت يدهم الهياكل العظمية والجماجم ؛ وأصحاب الطائفة

---

(١) هرمان مولر : رقم ١٨٤ وكتابه Indo - europaeisk - semitisk Sammenlignende Glossarium ، كوبنهاجن (١٩٠٩) ؛ وبدرسن : رقم ٣٠ ، مجلد ٢٢ ص ٣٤١ ؛ كونى : رقم ١٣ .

(٢) ترومبتى Trombetti رقم ٢٢٨ .

الثانية أمامهم أدوات الحضارة من حلى وأسلحة وآنية وآلات متنوعة فى أشكالها ومواد صنعها ، وبالاختصار كل ما بقى من عدد ما قبل التاريخ وعتاده ؛ أما اللغويون فيشتغلون بمقارنة الأصوات والكلمات . والطوائف الثلاث جميعاً يعنون بجمع الأشياء التى يشتغلون فيها جمعاً منهجياً . وترتب كل طائفة أشياءها فى سلاسل تحاول إن استطاعت أن تقيم بينها روابط تاريخية أو نسبية . ولكنهم لم يصلوا حتى الآن إلى شىء يذكر فى التنسيق بين سلاسلهم وسلاسل أصحابهم . فليس هناك مقياس مشترك .

يقدم لنا النحو المقارن نظاماً تصنف فيه اللغات فى أسرات تبعاً لخصائصها . فبمقارنة الأصوات والصيغ تتجلى ضروب التجديد الخاصة بكل لغة فى مقابلة البقايا الباقية من حالة قديمة . وقد نجح اللغويون فى أن يحددوا ما قبل تاريخ اللغات الهندية الأوربية ، ولكنهم لم يصلوا إلى معرفة من كانوا يتكلمونها . ولم يستطيعوا أن يحددوا أسلاف الإغريق أو الجرمان أو اللاتينيين أو الكلتيين . وإنما يعرفون فقط التغيرات التى مرت بها الجرمانية والإغريقية واللاتينية والكلتية حتى وصلت إلى الحالة التى تكشف عنها النصوص . أما الأسماء التى أطلقوها على اللغات التى أعادوا بناءها فتحكمية ، قد اتفقوا عليها بمجرد اتفاق . فكلمة « الهندية الأوربية » إذا خرجت من الاستعمال اللغوى لم يبق لها أى معنى ، ومثلها الكلمات « إيطالية مشتركة » و « كلتية مشتركة » « وجرمانية مشتركة » . فهذه الكلمات إنما تمثل دلالات لغوية ، ولا معنى لها إلا فى ذهن العالم اللغوى .

كذلك المصطلحات التى يستعملها علماء الآثار لا يصح لها أن تخرج من ميدان علم الآثار . فالعالم الأثرى الذى يكون مجموعة من الزهريات أو من الحراب ذات الطابع المعين ويحدد منطقتها الجغرافية ، يحار كيف يجيب إذا ما سئل عن اسم المدنية التى تنتسب إليها . فالعدد أشياء عديمة النسب ، عديمة النسب إلى حد اضطر العلماء إلى الاصطلاح على تسميتها باسم المكان الذى يكشف عنها فيه . وعلماء الآثار يتكلمون عن دلاء هلشتات أو عن حراب التين أو عن الزخارف الفلانوفية أو عن أثاث أونيتس . كذلك يتكلم علماء الأنتروبولوجيا عن الإنسان النياندرتالى

أو جمجمة الشاپل — أو — سان . ويقارنون فى شوب الأرض المختلفة بين ذوى الجاجم المستطيلة وذى الجاجم المستديرة دون أن يستطيعوا تعيين اللغة التى تقابل كل قسم من أقسامهم الأنتروپولوجية .

ذلك لأن وجود الجمجمة بين يدينا لا يستطيع بحال أن يعرفنا شيئاً عما كانت تحتويه فى صندوقها العظمى ولا عن أنواع الترابط بين الكلمات والأفكار التى كانت تتكون فيها ، ولا عن الصور الكلامية التى كانت تنشأ فى مراكزها المخية . وقد قلنا فيما تقدم (ص ٢٩٧) أن تحقيق الرابطة بين اللغة والجنس أمر مستحيل . كذلك لا يمكننا أن نعرف أى الأدوات كانت تستخدم لدى الشعوب التى نعرف لغتها ، ولا إلى أى حد توجد صلة بين مختلف اللغات ومختلف المدنيات . فالذى نعلمه علم اليقين وقامت على صحته البراهين شىء واحد فقط : هو أن اللغة الواحدة قد تتكلمها أجناس متباينة ، وأن من الأقوام من يتكلمون لغات مختلفة ويستعملون جميعاً أدوات واحدة . كما أن أى تقدم يحصل فى ميدان المدد لا يبقى مقصوراً على شعب واحد ؛ حتى ليستحيل علينا حساب الحركات الجنسية بأوربا فيما قبل التاريخ وفقاً لتتابع العصور الأثرية (العصر الحجرى وعصر البرنز وعصر الحديد) . فلم تكد الطبعة تخرج من يد المخترع حتى انتشرت فى أقطار مختلفة الأجناس واللغات كألمانيا وإيطاليا وفرنسا . وإذن فليس التوفيق بين النتائج التى تقدمها فروع العلم الثلاثة التى تكلمنا عليها أمراً عسيراً من الوجهة العملية فحسب ، بل يعد أمراً مستحيلا من الوجهة النظرية أيضاً . فالقرابة اللغوية لا تستطيع أن تعوّل على عون يذكر من قبل علم الآثار أو علم الأنتروپولوجيا . وكل ما يستطيع أن يعلقه العالم اللغوى على فروع العلم المجاورة من أمل هو أن تمده بفرض يسير على هديه أو بوسيلة للتأكد من صحة بحوثه . وليس أمامه للبرهان على القرابة إلا الوسائل اللغوية .

ولكن المنهج المقارن إذا ترك لوسائله الخاصة ، صار أحياناً عديم الجدوى . لأنه يفترض أن تطور اللغات قد وقع بصورة مطردة متصلة لم يصبها عارض خارجى . ومع أنه امتداد للتاريخ ، فإنه يتحدى التاريخ ، إذ لا يستخدم إلا مقررات نظرية

ويتخذ من التاريخ صورة مبسطة تنحصر فى سلسلة متتابعة مطردة من الأسباب والمسببات عاطلة من كل ما يخلع على التاريخ طابعه الحقيقى ، وهو التعقد والتنوع . وقد يكون هذا المنهج مدفوعاً إلى ذلك بضرورة حتمية ، لأنه فى جهله بالظروف السياسية والاجتماعية التى فيها تطورت اللغة ، يبنى ما قبل تاريخها بوسائل لغوية . وهو فى هذا الميدان يشعر بقوته ، لأن التجربة قد دلت على اتصال الرواية اللغوية . ولكن عدم وجود مقررات محددة عن ظروف التطور التاريخى يضعف كثيراً من النتائج التى نحصل عليها بوساطة المنهج المقارن والخاصة بتحديد القرابة اللغوية . وهذا هو مااضطرنا إلى تحديد هذه القرابة بواسطة وجوه الشبه الموجودة فى اللغات. وتلك طريقة خطرة . فقد يوجد فى الطبيعة أحياناً أقرباء يشبه بعضهم بعضاً إلى حد يعجزنا عن التفريق بين الواحد منهم والآخر . ولكن المتماثلين ليسوا جميعاً من الأقرباء ، وكذلك الحال فى المسائل اللغوية ؛ فكثيراً ما تكون وجوه الشبه من عوامل الخداع .

وهى كذلك بنوع خاص فى ميدان المفردات . فعلم الاشتقاق يعلمنا أننا قد نجد فى اللغات التى نعرف تاريخها كلمات متقاربة الصيغة أو متحدتها وتدل على معنى واحد دون أن يكون بينها أية صلة من الوجهة التاريخية . ومن الأمثلة التى تذكر عادة فى التمثيل لهذه الظاهرة كلمة bad (باد) التى معناها « ردىء » فى الإنجليزية وفى الفارسية ، دون أن يكون بين الكلمتين أية صلة تاريخية . ويمكننا أن نضيف إلى هذا المثال الكلمة الألمانية Feuer « نار » التى لا شىء يربطها ، من حيث الأصل ، بالكلمة الفرنسية feu التى لها نفس المعنى . كذلك لا يوجد إلا شبه خارجى عارض بين الكلمة الإنجليزية whole والكلمة الإغريقية ὅλος « كلّ ، جميع » ؛ وكذلك الحال بين الكلمة اللاتينية femina والسكسونية القديمة fêmea, fêmia بنفس المعنى ؛ وبين اللاتينية locus والسنسكريتية lokas « عالم » ؛ وبين الكلمة الإغريقية الحديثة μάτι « عين » والكلمة البولنزية (mata) « يرى » ، الخ . والأمثلة على ذلك كثيرة لا تحصر .

يمكن للمفردات بتمامها أن تتغير ، دون أن يغير ذلك من بنية اللغة الصوتية أو

النحوية تغييراً محسوساً . ومن المهم جداً أن نعرف مفردات اللغة التي نريد دراسة المدينة التي تمثلها وبذلك تكون المفردات جسراً بين اللغة وعلم الآثار . ولكن هذا الجسر يؤدى من كلتا ناحيتيه إلى طريق مغلق . لأننا لا نستطيع أن نستدل من المفردات على طابع اللغة ، حتى ولا على الطابع الذى تنضوى تحته أدوات المدنية . ولنذكر المثل التالى من اللغات الهندية الأوربية التي نحن بصددها : نحن نعرف فى فى غرب أوربا وجنوبها نوعين كبيرين من المفردات يرجعان إلى ما قبل التاريخ ، لكن الخطوط التي تفصل بينهما لا تطابق الخطوط التي تفصل بين اللهجات . وأحد هذين النوعين — ويسمى بالمفردات الغربية — يمتد فى الميدان الإيطالى والكلتى والجرمانى ويختلط فى الميدان البلطى السلافى ، ولا سيما فى بلاد البلطيق ، بمفردات شرقية بحتة ؛ والثانى — ويسمى بمفردات البحر المتوسط — يمكن العثور عليه فى الإغريقية على وجه الخصوص ، ولكنه اصطدم بالمفردات الغربية وحل محلها جزئياً فى أهم لهجة من اللهجات الإيطالية ، وهى اللاتينية . لذلك نجد فى الكلتية والجرمانية وفى الإيطالية إلى حد ما عدداً كبيراً من الكلمات المشتركة . ولكن هذه اللغات الثلاث تختلف فى درجة القرابة بينها من وجهة البنية النحوية . فالصلة الصرفية [1] وثيقة بين الكلتية والإيطالية ، وثيقة إلى حد دفع بعض اللغويين إلى القول بوحدة إيطالية كلتية . أما الجرمانية فتختلف بنيتها النحوية عما فى الكلتية اختلافاً شديداً ؛ وإذا كانت تقرب من الإيطالية فى بعض الوجوه ، فإنها أيضاً تقرب من السلافية البلطية فى وجوه أخرى . وقصارى القول أن الروابط الصرفية بين هذه اللغات لا تتفق مع الروابط التي بين مفرداتها .

وهذا القول يسرى أيضاً على الروابط الصوتية ، بل قد يبدو غريباً أن ندخل الصوتيات فى هذا المضمار . لأن التغيرات الصوتية تقع ، على ما يبدو ، بطريقة آلية مستقلة عن إرادة المتكلم ، بل وعلى غير شعور منه ، ولكنها أيضاً تقع باضطراد محدود من حيث المبدأ وتنوع محير فى نتائجه ، إلى حد يجعل من العسير علينا أن نجد فيها خصائص لنوع معين من اللغات . يضاف إلى ذلك أنه لما كان الإطلاق

---

(١) انظر دوتان Dottin : رقم ٦٨ ، وهرت : رقم ١٦٧ ، وفيست : رقم ١٥٩ .

من أظهر خصائص التغيرات الصوتية ، لم يكن فى إمكاننا نحن أن نقسم الصيغ إلى ضعيفة وقوية كما هى الحال فى النظام الصرفى ؛ والصيغ القوية كما نعلم شهود عدول على حالات قديمة قد تغيرت . فهذه البقايا هى التى تعلن عن أصول النظام الصرفى وتسمح لنا بمعرفة روابط القربى . ولكن النظام الصوتى لا يدع بقايا ، ولذا لا يعرفنا بشىء من هذا القبيل .

* * *

ولا يكون الدارس فى منأى من المصاعب حتى عند ما يقصر دراسته على الظواهر الصرفية . لأن النظام الصرفى أيضاً ينطوى على حالات من اللبس . لأن الدارس عندما يقيم القرابة على وجوه الشبه فى البنية النحوية ، يفترض أن هذه البنية تتغير بصورة مطردة مستمرة . ولكن ما الذى يضمن لنا هذا الاستمرار ؟ نحن نعرف مقدار المؤثرات الخارجية التى يتعرض لها النظام الصرفى . فإذا لم تصب هذه المؤثرات إلا الأجزاء الثانوية والسطحية من النظام ، بقى لنا عدد كاف من السمات المميزة التى تسمح لنا بتحديد القرابة . ولكن يمكننا أن نتصور حالة قصوى تصل فيها اللغة بعد أن يتكرر التأثير عليها ، إلى أن يتركب فيها بدرجة متساوية مزيج صرفى من أسرتين متقاربتين . وهذه هى نفس الحالة التى تخيلناها من قبل وأطلقنا عليها اسم الخلاسية ، وهى حالة شديدة الندرة . ونحن نعرف من ميدان التاريخ الطبيعى ، وإن كانت ظروفه مختلفة جداً عن ظروفنا ، مقدار الصعوبة التى يلاقيها العالم فى تصنيف مادته إلى أسرات بسبب الخلاسية التى تعمل دون توقف على كسر النظام والوحدة . ففى حالة الخلاسية اللغوية يصير النظام الصرفى مقياساً غير ذى جدوى .

كذلك يصبح هذا القياس غير ناجع إذا كانت التغيرات الصرفية قد وقعت بسرعة خاطفة ، أو إذا كانت الحالات التى نعرفها منها يفصل بعضها عن بعض آماد بعيدة حتى أصبحت اللغتان اللتان تنتسب إليهما هذه الحالات لا تشتركان فى شىء من الوجهة الصرفية وإن كانتا ترجعان إلى أصل واحد . فلو أننا لا نعرف من الفرنسية إلا الحالة التى عليها اللغة المتكلمة فى صورتها الحاضرة ، وكنا فضلا

عن ذلك نجهل اللغات الرومانية الأخرى واللاتينية ، لـكان من الصعب علينا أن ندلل على أن الفرنسية لغة هندية أوربية : لأنه لم يبق فى الفرنسـية من الهندية الأوربية إلا بعض تفاصيل من البنية مثل المقابلة il est « هو يكون » Ils sont « هم يكونون » (فى النطق ison, ilé) أو مثل — ولعل ذلك أدلّ — صيغ أسماء العدد أو الضمائر الشخصية ، مع بعض المفردات كأسماء القرابة . هذا كل ما بقى فى الفرنسية من الهندية الأوربية . ومن يدرى لعلنا نجد فيهـا أدلة أقوى من تلك تبعث على وصلها بالسامية أو الفينية الأجرية .

وقد يوجد فوق سطح المعمورة لغات هندية أوربية لا نعرفها ، إذ أنها فقدت كل قرينة تشير إلى أصلها ، وذلك لأنها لا تاريخ لها ، ولأن استعمالها مقصور على أقوام أميين . فإذا ما طبقنا عليها الطريقة الصحيحة لم نستطع الاستدلال على قرابتها للاغريقية أو اللاتينية أو السنسكريتية . ولـكن هذه الطريقة تفرض علينا أيضاً أن نقول باستحالة البرهان على عدم وجود قرابة ما بين لغتين من اللغات .

ويمـكننا أن نذهب إلى أبعد من ذلك . وذلك أننا إذا أردنا استخدام النظام الصرفى فى الاستدلال على القرابة اللهجية ، وجب أن يـكون هذا النظام متميزاً قاطعاً فى الدلالة وإلا فقد يستحيل الاستدلال . ومن ثم كان لابد من تحديد القرابة اللغوية على درجات ، وهذه الدرجات لا ترجع إلى الصلات التاريخية التى بين اللغات ، وإنما ترجع فقط إلى درجة تميز البنية الصرفية . فهناك لغات معقدة النحو ، فيها متاع عديد من دوال النسبة المتنوعة ومميزات الفصائل واللواحق التى ترتبط كل واحدة منها بمكان معين والتى تطبع الجملة بسلسلة من الخصائص المميزة ؛ ومن هذا القبيل لغات المجموعة البنطية . ومثل هذه اللغات تتطلب مجهوداً شـاقاً ممن يبغى إجادتها ؛ ولـكنها تمتاز بخصائص صرفية واضحة المعالم . فإذا صادفنا فى كل مكان على وجه البسيطة لغة تحتوى بنيتها على نفس الخصائص الصرفية وتستخدم وسائل الإلصاق والتصنيف بعينها أو وسـائل أخرى يرجع اختلافها عنها إلى تغيرات صوتية طبيعية ، كان لنا الحق فى أن نقرر انتساب هذه اللغة إلى العـائلة البنطية وأن نستخدمها فى النحو المقارن لهذه المجموعة اللغوية .

غير أنه توجد من جهة أخرى ، لغات لا نحو لها ، ينحصر نظامها الصرفى فى وسائل غير ملموسة ، من تركيب كلمات منعزلة . وقد ذكرنا من أمثلة هـذا القبيل لغات السودان ولغات الشرق الأقصى . فالخصائص الفردية تكون فى هذه الحال أقل وضوحاً ؛ لأن الوسائل التى تقوم على ترتيب الكلمات فضلا عن كونها أقل تنوعاً من دالّ النسبة الصوتية فإن قيمتها فى الدلالة أقل من قيمة هذه الأخيرة . لأنه إذا كان الأمر إنما يدور حول وضع هـذه الكلمة أو تلك فى مكان ما من الجملة ، كما هى الحال فى الإيرلندية التى تضع الفعل على رأس الجملة أو التركية التى تضمه فى نهايتها ، فقد يمكن اعتبار هذا الترتيب بصفة عامة نتيجة لتأثيرات آلية بعضها صرفى ، ومن ثم يمكن تفسيرها بحالة اللغة العامة . أما إذا كان الأمر يتعلق باتجاه عام يخضع مكان الكلمات إلى الروابط التى توجد بين الأفكار المراد التعبير عنها ، كما هى الحال فى الصينية ، كان هذا الاتجاه موسوماً بشىء من العقلية والإطلاق يجعله ممتعاً جداً فى نظر من يسعى إلى تكوين نظرية عامة وإنسانية عن كليات العقل . ولكنه لا يساعد العالم اللغوى المؤرخ الذى يحاول أن يستخلص من لغة ما التفاصيل الخاصة التى تفصلها عن غيرها . وفى الوقت نفسه يستحيل تحديد القرابة اللغوية فى مثل هذه الحالة المتطرفة ؛ إذ يرى الباحث نفسه مضطراً فى تحديدها إلى التعويل على المفردات ، وهى كما رأينا خطة محفوفة بالأخطار. فالصينية تقول مثلا wôo pu pha tha وترجمته الحرفية بالفرنسية هى : moi pas craindre lui (بالعربية : أنا لا خوف هو) ؛ وهى فرنسية من نوع خاص تسمى فرنسية « الزنجى الصغير » le français petit — nègre . ولكنا نعرف من سكان إفريقية الغربية الأصليين من يتكلمون الفرنسية دائماً على هذه الصورة . فلو أنهم تكلموا الصينية لتكلموها بهذه الطريقة عينها ، دون اختلاف اللهم فى إلا فى استعمالهم لكلمات أخرى ، أى فى حالتنا تلك فى استعمالهم لأصوات أخرى . فنى « لغة الزنجى الصغير » قد تختلف المفردات فتكون فرنسية أو صينية مثلا ، ولكن الصورة الكلامية فيها واحدة دائماً لا تختلف ، ولذلك

لا نستطيع أن نميز فيها طريقة التفكير الفرنسية عن طريقة التفكير العينية .

كيف نعمل إذن عندما نريد أن نصنف فى عائلات بعض اللغات التى تكاد تخلو من النحو كاللغات التى أشرنا إليها ، ولا سيما إذا كانت مفرداتها قد تغيرت بفعل الأحداث الخارجية ؟ وهذه هى الحال مثلا فى لغات إفريقية الغربية المشار إليها التى تتنوع مفرداتها إلى أقصى حد بفعل الظروف التاريخية والتى تتفق كلها من حيث الفقر النحوى أو تكاد[1] . فلما كنا لا نعرف الحالات السابقة لهذه اللغات ولا نعلم من تاريخها ما يتجاوز خمسين عاماً ، لم يكن فى وسعنا تحديد أصل مفرداتها ولا تكوينها . إذ لا يوجد لدينا فى هذه الحال أية وسيلة لتصنيف هذه اللغات فى أسرات ؛ أو إذا أقدمنا على تصنيفها كان عملنا ينقصه كثير من التحقيق والتدقيق . فنحن هنا ضحايا لانعدام الوثائق ، وضحايا أيضاً لطريقتنا التى تحرم علينا أن نطلب إلى فروع المعرفة الأخرى ما نستعيض به عن نقص الوسائل اللغوية .

* * *

يجب أن نستخلص من هذه الاعتبارات أن التدليل على القرابة اللغوية شىء نسبى . ويتوقف أولا وقبل كل شىء على وفرة الأدلة اللغوية التى تكوّن ، بعد أن يشهد لها التاريخ السياسى أو الاجتماعى ، مجموعة لها قيمتها من البراهين ، ولكن هذا الاستدلال فى حالة اللغات المجهولة التاريخ يتوقف أيضاً على ثراء القواعد النحوية وتنوعها ؛ وأخيراً كثيراً ما تضطرب القرابة فى داخل الأسرة الواحدة من جراء تأثير اللهجات بعضها على بعض .

قد يجيب بعض النظريين من علماء اللغة بأن هذا أمر ضئيل الأهمية . لأن القرابة اللغوية فى نظرهم موجودة بصفة مطلقة ، بغض النظر عن كل استدلال . ويرجعون ذلك إلى شعور الأفراد وإرادتهم فى أن يتكلموا لغة آبائهم . والواقع أن مبدأ الشعور بالاستمرار اللغوى هذا يكفى فى معظم الحالات فى تقرير وجود القرابة اللغوية فى حد ذاتها . ولكن لا يمكننا أن نقطع باستحالة وقوع خطأما من جانب المتكلمين : لأننا إذا سلمنا بقيام الخلاسية التى تدمج خصائص لغتين مختلفتين

(١) دلفوس : رقم ٤ ، مجلد ١٦ ، ص ٣٨٦ .

لتخرج منهما لغة واحدة ، فقد يصادف أن ينتقل المتكلمون من نظام لغوى إلى آخر بصورة غير محسوسة . وبذلك يغير الجيل الجديد لغته دون إدراك منه . وهذه بالطبع حالة قصوى لا يمكن عادة أن تقع بين أمم متحضرة ، ولكنها غير مستحيلة الوقوع فى بعض الظروف اللغوية والاجتماعية . فلا يمكننا هنا أن نغض النظر عنها . ويجب أن نعترف بسوء أثرها على القرابة اللغوية . إذ أنها لا تعمل على جعل الاستدلال على القرابة مستحيلا فحسب ، بل أيضاً تؤدى إلى طمس معالم هذه القرابة واختفائها .

من حسن الحظ أن معظم لغات الأرض ، ولا سيما اللغات الثابتة التاريخ ، قد أمكن تحديد قرابتها بدقة مدهشة ؛ حيث نجح العلماء فى تكوين عائلات لغوية كبيرة ، كالهندية الأوربية [١] والسامية [٢] والفينية الأجرية [٣] والبنطية [٤] والملايوية اليولينزية [٥] ، الخ . نعم قد تكون صلات القرابة داخل كل أسرة موضعاً للجدل من جهة التفاصيل فى بعض الأحيان ، ولكن المبدأ الذى تقوم عليه لا يقبل الريب . وليس من شك فى أن تقدم الفيلولوجيا المقارنة سيؤدى إلى ازدياد عدد الأسر اللغوية الصحيحة التكوين .

---

(١) برجمان Brugmann ودلبروك Delbrück رقم ١٥٠ ؛ مييه : رقم ٩٤ .

(٢) بروكلمان : رقم ١٤٨ .

(٣) شينييه Szinnyei : رقم ٢١٢ .

(٤) مينهوف Meinhof : رقم ١٧٩ .

(٥) برندشتتر Brandstetter : Monographien zur indonesischen Sprachforschung ، لوسرن ١٩٠٦ وما يليها . قارن أيضاً ج. فران G. Ferrand رقم ٧١ .

الجزء الخامس

الكتابة

الفصل الأول

أصل الكتابة وتطورها [1]

إذا كانت مسألة أصل اللغة لا تنطوى على حل مرض ، فإن الأمر على خلاف ذلك فى مسألة أصل الكتابة . لأن هذه الأخيرة يمكن مواجهتها بطريق مباشر وفى وسع الباحث أن يحيط ويلم بها فى مجموعها . وذلك لأن أصل الكتابة قريب منا نسبيا . ولم تعرف لنا اللغات القديمة إلا منذ سجلتها الكتابة ؛ ولكنا نعرف الكثير منها منذ تلك اللحظة عينها ؛ وكثيراً ما يكون أول نص منها يقع تحت أيدينا هو أول النصوص التى سجلته الكتابة . ولدينا من جهة أخرى لغات لم تكتب إلا فى أيامنا هذه ، بل وتحت أبصارنا . ومن ثم كان فى وسعنا أن نضع يدنا على الوسائل التى بواسطتها تصير اللغة المتكلمة لغة مكتوبة ؛ وهى فى عنفوان حياتها ، وأن نقدر نتائج عملها .

ومع ذلك يجب علينا لفهم مسألة أصل الكتابة ، أن نتخلص من عوائدنا العقلية بوصفنا قوماً متحضرين . فالذى فى ذهننا هو أن القيمة الرمزية للكتابة

---

(١) راجع عامة ف . برجيه Ph.Berger : رقم ٤٨ ؛ ودنتزل Dantzel : رقم ١٥١ ؛ وليڤى بريل : رقم ٨٨ ؛ والفصل الأخير من كتاب : تاريخ شعوب الشرق لمسپيرو . وعن الوسائل المادية التى أدت إلى خلق الكتابة واستكمالها ، انظر الفصل الخامس بتصوير الفكر فى كتاب دى مورجان De Morgan : البشرية قبل التاريخ ، ص ٢٧١ وما يليها ، الذى يكمل بنصه وصوره التوضيحية محتويات فصل الكتابة الذى نحن بصدده .

أمر طبيعى . إذ لا يلزم لأطفالنا إلا بعض المران وشىء من التفكير ليفهموا أن ما يرونه مكتوبا بالمداد الأسود على الورق الأبيض ليس إلا صورة الكلمات التى تسمعها آذانهم . ولا يمر بهم وقت طويل حتى يتعودوا هذه الرياضة النفسية التى تنحصر فى التوفيق بين الرسم والصوت وفى الجمع فى دائرة الإدراك بين التصورات البصرية والتصورات السمعية . والزمن الذى قضيناه فى طفولتنا لإخضاع عقلنا لهذه الرياضة كان من القصر بحيث لم يبق منه شىء فى ذاكرتنا . فالفكرة التى فى أذهاننا عن اللغة المكتوبة ، قد حصلناها دون مجهود ، وبصورة قريبة من الطبيعة .

ومع ذلك فمن المؤكد أن هذه الفكرة ليست طبيعية بالنسبة للانسان : فنحن نجنى ثمار التحسسات العقلية التى قام بها أسلافنا الغابرون ؛ فهم الذين سهلوا مهمتنا بتحضيرهم لعقليتنا . فما أكثر ما بذلوا من وقت ومن مجهود فى تمرين الدماغ الذى ورثونا إياه ، تمريناً جعلنا لا نشعر حتى بوقوع هذا التمرين !

* * *

نحن نعرف أن بنى الإنسان بدءوا بكتابة الأفكار قبل أن يكتبوا الكلمات . لأن الصورة استعملت فى أول الأمر علامة للأشياء . ولكنهم لم يعثروا على هذا الاستعمال نفسه من أول لفتة : لأنه يستلزم كون الإنسان قد أدرك القيمة العقلية للعلامة الكتابية . ولكنا نعرف أن بعض المتوحشين لا يزالون حتى يومنا هذا يوحدون توحيداً تاماً بين الصورة والشىء . وهذا التوحيد الذى يبدو لنا غريباً لا يرجع إلى خداع أو إلى خلط فاحش ، بل يرجع إلى أن المتوحش يدرك جميع الأشياء ، سواء فى ذلك المواد وصورها ، بصورة غيبية . فى غيبيته يتكون العالم الخارجى من سلسلة من الظواهر مزودة بصفات خفية ، وليست الصفات المتبادلة بينها مما يخضع للتناقض . وكأن نشاطه هو مشتبك بسدى العالم الخارجى . فلا يقوم بفعل دون أن يكون له أثره فى الكون المرئى وغير المرئى . وما نسميه بالخرافة — وهى تنحصر فى إعطاء أتفه الأحداث معنى غيبياً وفى إيجاد صلة خفية

بين أشد الحوادث اختلافاً — هى الحالة العادية لعقل المتوحش . وذلك على أعظم جانب من الأهمية بالنسبة لاستعمال العلامات .

لنفترض أن متحضراً علّم طريقه بغصن شجرة أو خطّ صليباً على الرمال أو فوق صخرة ما . فإنه فى هذه الحالة يكون مسوقاً بباعث عقلى محض ، كأنه يقصد إلى العثور على طريقه عند العودة أو إلى إعطاء إشارة ما إلى زملاء له يتبعونه . أما فى ذهن المتوحش فإن مجرد رسم علامة ما يؤدى إلى تعقيدات غيبية ويوحى ببواعث مختلفة كل الاختلاف . فإذا ترك غصناً فى طريقه مثلا ، فذلك لتملّك الأرض التى يطؤها أو لإفساد سحر ومنع تأثيره أو لاجتذاب روح أو إقصائها أو لتضليل عدو خفى بسدّ طريقــــه عليه ، أو لإعطائه وسيلة يستفيد منها فى الإضرار بك ؛ وبالاختصار يرى فى هذا العمل حدثاً كبيراً يؤدى إلى نتائج حسنة أو سيئة ذات أصداء واسعة فى هذا الكون الفسيح .

كذلك صورة الحمار أو صورة الكلب لاتوقظ فى أذهاننا بوصفنا متحضرين إلا فكرة الحمار أو الكلب دون شىء سواها . ولكنها بالنسبة للمتوحشين هى الحمار بعينه أو الكلب بعينه . فإذا كانت الصورة تمثل حيواناً ضاراً أو عدواً عادياً بدل أن تمثل كائناً لاضرر منه فما أثقل النتائج التى تؤدى إليها ! عندئذ يجرى على لغة العلامات جميع الأحداث السحرية التى للغة المتكلمة ، من تحريم ومن كنايات مثلا . فيصير من الخطر أن يرسم نمر أو فرس من أفراس البحر بقدر ما يكون من الخطر فى تسميتها ، لأن الصورة كالاسم تكوّن جزءاً من ميدان الوجود الغيبى[1] . وقد تدفعهم عاطفة مضادة لتلك ، ولكنها من أصل غيبى أيضاً ، إلى أن يعنوا بمعرفة تصوير العدو أو الحيوان المخوف لا ستمالته والتلطيف منه أو لاتخاذه حليفاً ثميناً . فترى بعض المتوحشين يرسمون على أسلحتهم ثعباناً أو ببرا معتقدين أن هذا الحيوان أو ذاك يخلع على المادة التى يرسم عليها جزءاً من قدرته . فما دام الرمح أوالطرس قد زُينا على هذا النحوفقد اكتسبا قوة سحرية : فالببر مثلا يهبهما القوة والثعبان يمنحهما المكر الذى يفسد حيل الأعداء . وبهذه

(١) دانتزل : رقم ١٥١ ، ص ٦٧ و ص ٧٢ — ٧٣ .

الطريقة تتكون مجموعة كاملة من الأحجبة والتمائم التى تترجم بواسطة الصور الرمزية عن إدراكات المتوحشين الغيبية .

من المبالغة الواضحة أن نحصر نشاط البدائيين العقلى فى مثل هذه الحدود الضيقة . فلنترك له إذن شيئاً من السعة ولنسلم بأنه فى بعض الأحيان ينفض عن نفسه نير الشاغل الغيبية . فقد تكون العلامة عندهم أيضاً نوعاً من الانعكاس الخارجى تشهد بحاجتهم اللاشعورية إلى إظهار ما فى باطنهم ، إلى إبراز نفسيتهم . ومن هذا القبيل مثلا ذلك العبث التافه الذى يقوم به العابر عندما يحفر اسمه على الجدران بسن مبراته ، أو تلك الحركة التى يقوم بها المتنزه ، وقد أعلته الشمس والهواء الطلق ، عند ما يقرع جزوع الأشجار بطرف هراوته فيسقط براعمها . بل لنسلم للبدائى بقابليته للمتع الفنية . ولم لا ؟ فالرسوم التى خطتها على عظام الرنة أيدى أناس من عصر المغارات يذكرنا كمالها التام بفنانى اليابان . فلنا أن نفخر بعمل هؤلاء الأسلاف الغابرين الذين سبقوا أوتامارو Outamaro وهكساى Hoksai بآماد وآماد ؛ فلماذا ننفى عنهم إحساسهم باللذة عند ما قاموا بهذا العمل لا لشىء إلا لشعورهم بالارتياح لما هو جميل ؟ فعندما نريد أن نحلل بدقة منابع النشاط العقلى عند البدائيين ، يجب علينا بلا ريب ألا نسقط من حسابنا الأفعال التفكيرية والبواعث الفنية . ولكن هذا لا يمنع من وجود اختلاف جوهرى بين البدائى والمتحضر . فقد يجوز لهذا الأخير أن يحيد عن القواعد التى يفرضها العقل ، ولكنه عند ما يثوب إلى نفسه ويعود إليه توازنه ، فإن عقله يرجع بطبيعة الحال إلى الإدراك المعقول للأشياء ؛ بل إنه لا يدرك حماقته إلا باستعمال عقله . أما البدائى فحالة عقليته الطبيعية هى الحالة الغيبية . فالغيبية تحيط بها من كل جانب وتغذيها وتسندها . وحتى عند ما يبدو أنها قد خرجت منها لحظة ما ، فإنها تبقى غائرة فيها بجذور عميقة .

فكرة البدائى عن العلامة تستبعد كل إمكان لكتابة ككتابتنا ، لأن كتابتنا تقوم على مبدأ عقلى . فتاريخ نشوء الكتابة يفترض إذن كون العقلية المعقولة قد تخلصت من العقلية الغيبية . وهذا لا يقع دفعة واحدة . ولعل نقطة البدء تنحصر

فى كون العلامة تحتمل فى نفس الوقت تفسيرات عدة وتصلح لغايات كثيرة[٢].
فكون العلامة تميمة محملة بالقوى السحرية لا يمنع من كونها صورة مادية لأحد الأشياء وأنها تظهر أمام العقل على هذا النحو . فى هذه الحال يمكن أن تستبعد عن العلامة الخصائص السحرية شيئاً فشيئاً ، وفى هذا إخضاع للتصورات الذاتية والغيبية للتصورات الموضوعية والمعقولة ، وأخيراً الاستعاضة بهذه عن تلك .

فرأس البير المحفور على خشب الرمح قد وضع عليه حقاً ليزوده بقوة سحرية ؛ ولكنه فى الوقت نفسه يتيح لصاحب السلاح أن يتعرف سلاحه ، إذا كانت أسلحة الجيران لا تحمل هذه العلامة ؛ وبذلك يصبح الرأس علامة الملكية . وغصن الشجرة الملقى فى الطريق لغاية سحرية يمكن أن يكون مفيداً فى تعليم الطريق ، فيصير عند اللزوم علامة للتذكرة . من ذلك نرى أن الحدث الغيبي يدخل فيه عنصر معقول يتدرج فيه نحو الغلبة شيئاً فشيئاً حتى ينتهى بالسيادة . ومن ثم كان أولئك الذين يرون فى علامات الملكية وإشارات التذكرة مبدأ الكتابة على حق فى رأيهم[٢] .

ولكنا فى حالة العلامات التذكارية لسنا من الكتابة إلا فى منتصف الطريق لأنها إذا كانت تستخدم لتمثيل بعض صور الفكر ، فإنها لا تعبر عن الفكر نفسه مطلقاً . ولدينا مثل شهير على ذلك فى عصى الرسل « stick messages » المستعملة عند الاستراليين . فهذه العصى المغطاة بالحزوز تستخدم فى إبلاغ تعاليم وأوامر ، وأحياناً فى إبلاغ سلاسل من الأوامر على جانب كبير من التعقيد . ولكن لا يستطيع تفسيرها إلا العارفون . فعصا الرسول لا يمكن فهمها دون الرسول نفسه . وهى أولاً وقبل كل شىء وسيلة يتخذها الرسل لمنع الخطأ والخيانة . فهى بمثابة مرشد ومعين للذاكرة . إذ أن تركيب هذه الحزوز يقدم خطة رياضية مصورة للرسالة التى يجب أن تؤدى ، وهيكلا عظمياً للحديث . فهى تشير إلى

---

(١) دنتزل : رقم ١٥١ ، ص ٤٨ .

(٢) ا . فان جنب : مجلة التقاليد الشعبية (١٩٠٦) ، ص ٧٣ — ٧٨ ؛ ورقم ٧٤ السلسلة الثانية ، پارس ١٩٠٩ .

عدد الأفكار وإلى تسلسلها بعضها من بعض ؛ ولكن الأفكار نفسها غير موجودة فيها .

الأفكار غير موجودة فيها بالنسبة لكثيرين من الناس على الأقل ؛ إذ يمكننا أن نتصور دون عناء أن يقوم بين المتراسلين اتفاق سرى لا يعلم به حتى الرسول نفسه ، وبمقتضاه يمثل كل حزّ فكرة معينة . وفى هذه الحال نكون أمام كتابة حقة ، كتابة بدائية محدودة الوسائل ، ولكنها تسمح بإيصال فكرة بين شخصين فى صورة مادية ، وهذا على وجه التقريب هو تعريف الكتابة .

ومن هذه الفصيلة ، فصيلة « عصى الرسل » ما يسمى بالكيبوات البيروية quippos des Pruviens والومبومات الإيروكوية Wampums des Iroquois . والقراء يعرفون ما يراد بهذين المصطلحين . فالكيبوات حبال مصنوعة من خيوط الصوف المختلف الألوان تعقد عليها فى أبعاد مختلفة عقد على جانب كبير من التعقيد . فإذا ما رُكبت ألوان هذه الحبال مع سُمك العُقد ومواضعها وجمعت كل الحبال بعضها مع بعض بطريقة متفق عليها ، أمكن الحصول على وسيلة لتمثيل الأفكار تمثيلاً رمزياً ، ولبيان تسلسلها بعضها من بعض . هذه الكيبوات قد لعبت دوراً هاماً فى « خطابات إحدى البيرويات » لمدام دى جرافينى ؛ لذلك كان لها الحق فى أن تحتل مكانها بين الآداب الفرنسية . أما الومبومات فهى عقود القواقع المرصوصة بعضها فوق بعض ، وتركيبها يكوّن أشكالاً هندسية . ويقال إن بعضها يشتمل على ما لا يقل عن ٦٠٠٠ إلى ٧٠٠٠ حبة ، وأطول واحدة عرفت منها تتكون من ٤٩ صفاً من القواقع . ونلاحظ أن الكيبوات والومبومات تستخدم عنصراً جديداً ، وهو اللون الذى يزيد الوسائل تنوعاً ومن ثمّ يساعد على سهولة التعبير .

ومع ذلك فإن الكيبوات والومبومات ، مهما بلغت من درجات الكمال ، لم تكن إلا وسائل للتذكرة . وحتى لو ثبت أنها كانت تستطيع الإيحاء ببعض الأفكار ، فمن غير الممكن تشبيه تراكيبها بتراكيب أى نظام من نظم الكتابة ؛ لأن هذه النظم تهدف إلى التعبير عن جميع الأفكار . والذى منع من تطور كتابة مشتقة من الكيبوات والومبومات إنما هى المادة التى تكوّنهما . فهى لا تحتمل

أى استكمال من الوجهة العملية . ويؤكد بعض المؤلفين أن الكيبوات على الأقل، تستطيع أن تنجح فى تكوين مركبات أبجدية ؛ ولكن من المحقق أنهم يقصدون محاولات متأخرة عملت قياساً على الأبجدية الأوربية . وعلى هذا النحو أنشئت فى إرلندة الأبجدية الأوجامية على نسق الأبجدية اللاتينية وذلك بواسطة حزوز تحفر على حواف أحجار مرفوعة . ولكن مثل هذه المحاولات كان نصيبها الفشل المحقق.

أما الكتابة فقد تدرجت فى طريق آخر . وابتدأت من الصورة التى تجعل العين تحس بفكرة الشيء ، ولا سيما الصورة المرسومة على الحجر أو الصلصال أو على لحاء السحر أو الرق .

اليوم الذي فيه اعتبرت العلامة تمثيلا موضوعياً هو يوم ميلاد الكتابة . فيمكننا أن نقول بأن أول نقش إغريقى هو الجذاف الذى نصبه أوليس على قبر الپينور Elpénor (الأودسة ٨١ / ٧٧ و ١٢ / ٢٥) فهذا الجذاف قد نصب لتعريف المارة بمهنة المتوفى ، على نحو ماتشير لافتات الحوانيت عندنا وما هو من قبيلها إلى نوع التجارة وصفة السلع ، وكما تشير لوحات النذور التى تعلق فى الكنائس على بواعث عرفان أصحابها ؛ فهذا الجذاف كان شعاراً . وقد استخدمت الإنسانية زمناً طلايلا هذا النوع من اللغة الشعارية حتى فى العهود التاريخية إلى أن صرنا لا نرى فيها إلا نوعاً من الدلالة الرمزية . تشهد بذلك تلك الرسالة التى يقول هيرودوت (ج ٤ ص ١٣١) بأن السيتيين بعثوا بها إلى دارا والتى كانت تتكون من طائر وفأر وضفدعة وخمسة سهام . فقد كان ذلك إعلاناً مصوراً أمكن للحكيم جبرياس Gabryas أن يفسر معناه .

وقد خطا الإنسان خطوة شاسعة نحو الأمام عندما عرف برسم ويتخذ من الصورة شعاراً للشيء فقد استطاع بتركيبه لسلسلة من الصور أن يصور حديثاً متماسكا متتابعاً . ولدينا بعض هذه الصور المتكلمة فى النقوش المصورة التى اكتشفت على صخور اسكنديناوة والتى ترجع إلى عهد ما قبل التاريخ ، ونجد منها أيضاً ما يزال مستعملا حتى يومنا هذا بين سكان أمريكا البدائيين[1] . ويشبه

(١) دى مورجان : المؤلف سالف الذكر ، ص ٢٧٢ — ٢٧٣ .

هذا بعض سور مقاطعة الإيبنال Epinal ؛ ويمكننا أن نأخذ عن هذا النوع من الكتابة فكرة خيراً من كل ماتقدم إذا تصورنا حادثة يومية نراها تعرض فى السينما بدلاً من أن نقرأها فى صحيفة .

من هذا كله نشأت الكتابة التصويرية idéographique ، وهى أول كتابة نعرفها وإليها ترجع جميع نظم الكتابة المستعملة بين بنى الإنسان . وتنحصر فى تمثيل كل فكرة أو كل شىء بعلامة مساوية . ويمكننا أن نكوّن فكرة عما كانت عليه فى بدايتها بفضل ثلاث كتابات نعرفها الآن معرفة تامة ، وهى الكتابة الصينية والكتابة المسارية والكتابة الهيروغليفية . ولكن ينبغى لنا أن ننبه إلى أن هذه الكتابات الثلاث جميعها لم تبق تصويرية محضة ، وأن تصوير الفكرة أو الشىء لا يلعب فى أقدم ما نعرفه فيها إلا دوراً محصوراً ، ذلك بأن التصوير فيه وجوه كثيرة من القصور ويترك للعقل مجالا شاسعاً للتكميل . .

ولو فرضنا أن جميع الأفكار فى لغة ما قد زودت اليوم بعلامات مساوية متميزة وهو ما لا يمكن تحقيقه عملياً فإن هذا النظام المعقد يصبح قاصراً فى الغد ، لأنه يتعذر عليه أن يصور جميع ألوان الفكر الدقيقة التى لاتحدّد وأن يتبع تطورها الدائم . فالكتابة التصويرية عندما تستقر وتثبت نهائياً تصير ثوباً جامداً يسجن الفكر بين جوانبه ، فلا يتوانى الفكر عن تحطيم العقبة وجعل حطامها غير صالحة للاستعمال . مثل هذه الكتابة لا تصلح على أحسن الحالات إلا لعلم من علوم الباطنية قد حدّد على صورة لايراد له التحول عنها قيد أنملة ؛ لهذه الكتابة أن تكون نوعاً من الرموز الجبرية لأعمال المعامل ، ولكنها لا تستطيع بأية حال أن تكون أداة لتبسيط المعرفة وتعميمها ولا للتربية الشعبية ولا للتقدم الاجتماعى . والكتابة الصينية أو الهيروغليفية من خير الأمثلة على ما نقول ، فنحن نعرف مقدار مايوجه إليهما من نقد على الرغم مما تناولهما من إصلاح .

لعل المزية الوحيدة التى تستطيع الكتابة التصويرية أن تفخر بها ، هى أن قراءتها فى متناول أناس يتكلمون لغات مختلفة . فقانون الإشارات الملاحية يقرؤه جميع الملاحين بطريقة واحدة وإن فهموه بلغات مختلفة . والكتابة

التصورية ، وهى تمثل الأفكار لا الأصوات ، لها نفس المميزات التى لقانون الإشارات . وذلك أنها تسقط وساطة الكلام وتصور لغة التفكير لا لغة الكلام . ومن اليسير أن نبين تفاهة هذه الميزة . فقانون الإشارات لا يطبق بطبيعة وضعه إلا على عدد محصور من المعانى المهنية المحددة ، أى التى لا يعتريها التغيير ، ويمكن لعدد من الناس ذوى المهنة الواحدة أن يصطلحوا عليها بسهولة . ولكن هذا القانون لا يمكن تعميمه بحال . ولأجل أن يكون للكتابة التصورية قيمة عامة ، يجب ألا تتكون إلا من علامات يمكن لكل إنسان قادر على التفكير أن يدركها على الفور . وهذا سراب خداع لأنه لا يمكن تحقيقه إلا بالنسبة للمعاني المشخصة ، كمعانى الطائر والقلم والثور والعين والشمس . ولكن صعوبته تبدأ عندما يدور الأمر حول المعانى المجردة . لأننا إذا رمزنا لهذه المعانى بصور تحكمية ، رأينا أنفسنا نبتعد عن مبدأ الكتابة التصورية ؛ وإذا استخدمنا فى ذلك صور الأشياء المشخصة ، بأن نتخذ مثلا من القلم رمزاً للعدالة ومن الثور رمزاً للغنى ومن العين رمزاً لسلطة الملكية ، كنا قد أوجدنا على الفور ما يوقع القارئ فى اللبس .

وماذا يكون الحال بالنسبة للمعانى النحوية ، والكتابة التصورية لا تملك وسيلة التعبير عنها ؟ نعم ، قد يمكن لبعض اللغات ألا تتأثر بهذا النقص الخطير ، وهى اللغات عديمة التصريف . فإذا كانت الروابط النحوية تنحصر فى ترتيب الكلمات ، أمكن للكتابة التصورية أن تعبر عن النحو . إذ يمكننا أن نتصور بسهولة وجود علامة لكل من فكرة أنا ، وإرادة ، وأكل ، ولحم ؛ وفى هذه الحال يمكن للكتابة التصورية أن تصور بسهولة جملة قصيرة مما يسمى لغة الزنجى الصغير على هذا النحو : أنا إرادة أكل لحم «moi vouloir manger viande». إذ لا يلزم حينئذ إلا تحديد الترتيب الذى يجب أن تقرأ عليه علامات هذه الكتابة ، لأن النظام الصرفى فى هذه الحال ينحصر كما قلنا فى ترتيب الكلمات . ولكن ذلك لا يذهب بنا بعيداً ، لأن اللغة مهما تجردت من النحو ، فإنها تحتوى على معان نحوية أولية لا يمكن للكتابة التصورية أن تعبر عنها بصورة طبيعية ؛ مثل التمييز بين الفرد والجنس وبين الاسم والفعل والدلالة على زمن الفعل وصفته وعلى النفى ،

الخ . فإذا صورنا هذه المعانى بعلامة خاصة تضاف إلى علامة الفكرة ، كالأس يضاف إلى الحرف الجبرى ، كنا قد أدخلنا فى هذه الكتابة مبدأ جديداً ، هو مبدأ التفريق بين العلامات الفارغة والعلامات المليئة . وبذلك تتعقد الكتابة التصورية باتباعها نظامين مختلفين ، لأننا إما أن نضيف إلى العلامة الدالة على الفكرة معالم خاصة تشير إلى القيمة الصرفية ؛ وفى هذه الحال يكون عندنا نوع من الصور تتغير أشكالها تبعاً للاستعمال الذى تتخذه فى الجملة الكلمة التى تشير إليها هذه الصور والتى يضاف إليها عناصر جديدة ، وهذا يعقد الصور ويجعلها لا تنتهى عدداً فتصير الكتابة غير قابلة للاستعمال . وإما أن تتبع الصورة الأساسية بعلامة أو ببضع علامات يشار بها إلى القيمة النحوية . ووجه الصعوبة فى ذلك يرجع إلى وجوب استعمال علامات عديدة يضاف بعضها إلى بعض للتعبير عن معنى واحد . والطريقة الأولى أنسب للغات ذات المقطع الواحد ، والواقع أنها تستعمل بالفعل فى كتابة لغات الشرق الأقصى كالصينية . ولكن الحقيقة أنها حتى فى الصينية تمزج بالطريقة الثانية . وذلك لأنه من العسير حقاً أن نكتب لغة لا نراعى فيها إلا مبدأ التصوير .

* * *

لا توجد كتابة تصورية واحدة قد بقيت على ما هى عليه . ولعل ذلك يرجع إلى قصور هذه الكتابة قصوراً بيناً ؛ ولكنه يرجع كذلك إلى ذلك التطور الضرورى الذى جعل من اللغة المكتوبة وسيطاً طبيعياً بين لغة التفكير ولغة الكلام .

العقل فى متناوله وسائل متنوعة للترجمة عن التفكير ؛ فكان لديه الإشارة والصوت ؛ ثم خلق الصورة بعد ذلك . سمحت له هذه الوسائل باستعمال العلامات الاصطلاحية التى كانت تطبق من قبل — بشىء من التحوير — على حالات مختلفة ، ولكنها كانت تتداخل فى غالب الأحيان . ولعل مرجع ذلك إلى أنه كانت توجد حالات تستطيع الإشارة فيها أن تعبر عن الفكرة خيراً من الصوت ، وعن الصوت خيراً من الصورة . ومع ذلك فلم تلبث القيمة الرمزية للصوت أن تنجح فى أن تصحب القيمة الرمزية للصورة على وجه العموم وأن تحل محلها عند الحاجة ؛

حتى أصبحت الصورة والصوت بديلين متبادلين . وعندما وصلا إلى درجة التعادل ، أمكن للعقل أن ينظر إلى الصورة على أنها شعار الصوت ، ثم على أنها أداة لتثبيته بالكتابة . وعندما صار اسم الشيء يدوره مرتبطاً بالشيء ، انتهى أيضاً بأن صار مرتبطاً بالصورة التي أيقظت فكرة هذا الشيء . فالعلامة التي كانت تمثل الشيء صارت أيضاً علامة الصوت الذى يعبر عن هذا الشيء . وبهذا نشأت الكتابة الصوتية .

لنفرض أن لدينا علامة كتابية ، وأن هذه العلامة الكتابية صورة خنزير ، وأنها لم تكن تدل فى الأصل إلا على « الخنزير » (بالفرنسية porc پُور) . فلما كانت هذه العلامة تقرأ (پُور) ، فإنها قد تنتهى بتمثيل الاسم الذى يحمله هذا الحيوان فى الفرنسية (پور) لا تمثيل الحيوان نفسه ، وبالتالى بتمثيل الصوت الذى يكوّن هذا الاسم . ومن ثمّ فقد تستعمل فى الكتابة الصوتية لكل كلمة تتكون من هذا الصوت ، فتستعمل لكتابة الصوت « پور por » دون أى اعتبار آخر ، سواء أكان ذلك للدلالة على الخنزير porc أم على الميناء port أم على ثقوب البشرة pores ؛ بل أكثر من ذلك قد تستعمل فى الكلمات التى تتكون من عدة مقاطع للدلالة على هذا المقطع por (پُور) بصفة عامة ودون اعتبار للمعنى ؛ فنراها تدخل فى كتابة «trans (por) ter» (ينقل) و «col (por) teur» (بائع متجول) و « (por) nographe » (صورة مخلة بالآداب) ، الخ . وهذه هى الطريقة التى تستخدم فى المجتمعات التى تعقد للتسلية ؛ فإذا أريد مثلا الدلالة على معنى كلمة « مألوف » رسمت صورة للماء وصورة لكوز من اللوف .

ولكن هذا الذى يعتبر تسلية وهوى تحكمياً فى هذا النوع من اللعب ، ليس فى الكتابة التصويرية إلا اصطلاحا محدداً بقواعد صارمة . ومع ذلك فإن فى هذه الكتابة وجهين من النقص خطيرين . وذلك أن عدد العلامات فى مثل هذه الكتابة لا يمكن إلا أن يكون محدوداً للأسباب التى ذكرناها آنفاً ، فى حين أن عدد الأفكار لا يمكن أن يحدّ . فعدد الأفكار يتجاوز بالضرورة عدد العلامات ، لذلك يجب أن يصطلح على الدلالة بالعلامة الواحدة على أفكار عديدة . والمعتاد فى هذه

الحالة ألا يجمع تحت العلامة الواحدة إلا الأفكار المتجاورة ، مجازية كانت أو حقيقية . لذلك نرى الكتابة المسمارية لا تشير بالقرص إلى الشمس فحسب ، بل أيضاً إلى النور والبريق والبياض والنهار ؛ وفي الكتابة الهيروغليفية تشير العين أيضاً إلى النظر والسهر والعلم . ولما كان يُدل على كل واحدة من هذه الأفكار في الكلام بصوت يخالف الصوت الذي يدل به على الأخرى ، أصبح للعلامة من القيم الصوتية الجديدة بقدر ما تدل عليه من أفكار . فقد تمثل العلامة الواحدة في الكتابة المسمارية خمسة عشر صوتاً أو عشرين صوتاً مختلفاً ؛ وهذا ما يعبر عنه العلماء بقولهم إن العلامة الواحدة متعددة الأصوات Polyphone .

وعلى العكس من ذلك قد يقع في كل اللغات أن يعبر بصوت واحد عن أشياء مختلفة كل الاختلاف . ومن هذا القبيل في الفرنسية الصوت پور porc الذي تكلمنا عنه (por ,pore ,port) ، وكذلك الصوت vin (vainc , vint , vingt , vin) والصوت sin (sein , saint , seing , ceint , cinq) الخ . فالكتابة التصويرية تدل بطبيعة الحال على كل واحدة من هذه الكلمات بعلامة مختلفة . أي أنها تدل على الصوت por بثلاث علامات وعلى الصوت vin بخمس علامات وعلى الصوت sin بست علامات . وقد عد العلماء ست عشرة علامة في الكتابة المسمارية للدلالة على المقطع تو tou . وهذا ما يعبرون عنه بقولهم ، إن العلامات المتعددة تشترك في التعبير عن صوت واحد , homophones .

فاشتراك عدة علامات في التعبير عن صوت واحد ودلالة العلامة الواحدة على أصوات عدة عيبان متضادان كان يمكن لنتائجهما أن تتعادل فيمحو بعضها بعضاً . وهذا ما يقع في بعض الأحيان . ولكن الأمثلة التي ذكرناها تكفي للدلالة على الصعوبات المستعصية التي اعترضت سبيل القائمين بفك طلاسم هذه الكتابات.(١)

---

(١) عن تاريخ فك طلاسم الكتابة المزمارية ، انظر مينان : الكتابات المسمارية ، باريس ١٨٦٤ ، وأشهر الأسماء التي تذكر في هذا الصدد هي : جروتفند وبيرنوف ولاسن وهـ . رولينسن وأوبرت . أما فك طلاسم اللغة الهيروغليفية فيرجع الفضل فيه أولا وقبل كل شيء إلى شامپليون المعروف بالصغير ؛ ويأتي بعده ش . لينرمان ، دي روجيه ، سلڤوليني ، ليپسيوس ، بيرسن ، بروجسن ومسپيرو .

لما اتخذ الأشوريون الكتابة المسمارية أصلحوا عيوب الدلالة على أصوات عديدة بعلاقة واحدة وذلك باستعمال مكملات صوتية : فنراهم بعد أن يكتبوا الكلمة كتابة تصويرية يعينون نطقها بكتابة القطع الأخير منها كتابة صوتية ، وهذا المزج بين الكتابة التصويرية والكتابة الصوتية من خصائص الكتابة الأشورية ومن أسباب التعقيد فيها ؛ وقد استلزمه ذلك النقص الأساسي الذى يرجع إلى التعبير عن أصوات مختلفة بعلامة واحدة Polyphonie (١) .

واشتراك علامات عدة فى التعبير عن صوت واحد يؤدى أيضاً إلى عيب لا يقل خطورة عن العيب السابق . وذلك أنه يوقع فى حيرة الاختيار بين عدة أفكار يعبّر عنها بصوت واحد . وقد ابتكروا نظام المفاتيح لتلافى هذا العيب . والمفاتيح هى العلامات التكميلية التى تضاف إلى الصور الصوتية لتعيين معناها . فبدلاً من أن يدل على النطق الحقيقى للصورة بتكملة صوتية ، يستعمل المفتاح للاشارة إلى المرادف المطلوب من بين جميع المترادفات التى قد يتجه إليها الذهن . ولنرجع إلى المثل السابق لتوضيح ما نقول ، فنفترض أن هناك صورة كتابية تدل على هذا الصوت por (پور) كما هو فى الفرنسية : فلكى يؤمن اللبس ، تضاف إلى الصورة علامة خاصة يدل بها على أن المقصود هو الحيوان porc أو الميناء البحرى port أو حمل شىء ما port أو انتصاب القامة port أو ثقب من ثقوب البشرة pore . فهذه العلامة هى مفتاح اللغز .

والصينية هى التى طبقت هذه الطريقة تطبيقاً منهجياً كاملا . وقد قلنا بأن الصينية ، وهى لغة لا تصريف فيها ، أكثر اللغات قبولا للكتابة التصويرية . ولتلافى اللبس الناجم من التعبير بصور مختلفة عن الصوت الواحد ، اخترعت الكتابة الصينية أنواعا من الأسس تركبها مع الصورة الصوتية لتعين بها معنى الكلمة ؛ هذه الأسس كانت فيا مضى غير محدودة العدد ؛ فقصر عددها فى سنة ١٦١٦ على ٢١٤ أس ، واستقر عددها على هذا الوضع منذ ذلك الحين ، ويطلق عليها فى الصينية اسم pou أى « أقسام » أو « طبقات » . والواقع أنها مميزات

(١) انظر فوسى Fossey : رقم ٧٢ ، المجلد الأول .

تعبر على نحو ما عن الأفكار العامة والطبقات الاجتماعية والطبيعية والكليات العقلية . فعلى هذا النحو تتكون الحروف الصينية من عنصرين : الأولى صورة الفكرة idéogramme التي صارت صورة صوتية phonogramme ، وتعبر عن الصوت المقطعي الذي يكوّن الكلمة ؛ والثاني بمثابة مفتاح المشكلة ويعين معنى الكلمة .

اللغات التي من أجلها اخترعت الكتابة المسمارية والهيروغليفية أول ما اخترعت ، كانت لغات تصريفية ؛ لذلك لم تنجح فيها إلا بقدر ضئيل تلك الطريقة التي استعملت في تكميل الكتابة الصينية . ومع ذلك فإن المصريين باختراعهم للمميزات ، قد أوجدوا ما يعادل الأقسام عند الصينيين . فالصورة الهيروغليفية التي تقرأ ankh تدل إما على « الحياة ، وإما على « الأذن» ، فإذا ما أريد بها أن تدل على هذا المعنى الأخير بالذات صحبت بصورة الأذن التي تؤدي وظيفة المميز . ومن ثم نعثر في الكتابة المصرية — حتى بعد أن صارت كتابة صوتية محضة — على بعض المميزات المتفرقة التي أبقت التقاليد على استعمالها . أما الكتابة المسمارية فلم تخل يوما — حتى في أوج انتشارها — من بعض حالات اللبس . ولتسهيلها من الوجهة العملية اضطر أهلها إلى جعلها مقطعية ؛ وعلى هذه الصورة نراها تستعمل في تسجيل إحدى اللغات الهندية الأوربية ، وهي الفارسية القديمة وذلك في نقوش دارا . ولكنها على وجه العموم كانت أقصر الكتابات التصويرية عمراً ، وسمارية الأشمينين كانت آخر مثال منها . إذ لم تلبث أن استعيض عنها في كل مكان بكتابات صوتية ، ولا سيما بالكتابة الآرامية المشتقة من الأبجدية الفينيقية .

* * *

أما الأبجدية الفينيقية — نحو ما نراها على شاهد ميسا Mesa القبري (وهو اليوم في متحف اللوفر) ذلك الشاهد الذي يرجع إلى ما قبل المسيح بتسعمائة سنة — فإن البعض يعدها صورة مشوهة من الكتابة الهيروغليفية . ولكن هذا التشويه قد وقع بالتدريج على خطوات عدة . وقد بينا فيما سبق كيف يصل التطور الطبيعي بالصورة الفكرية إلى أن تصير صورة صوتية . وقد استقرت بعض الكتابات كالصينية في منتصف الطريق بين الخطتين بفضل نظام من التراكيب العلمية ؛

ولكن الكتابة الهيروغليفية كان حتما عليها أن تصير كتابة صوتية بعد حين ، وخاصة لأنها كانت تستعمل فى تسجيل لغة ذات تصاريف .

وأول مرحلة أمكن الوصول إليها فى هذا السبيل هى مرحلة المقطعية . وهى مرحلة على جانب من الأهمية لأنها تبرز لنا أهمية المقطع (انظر ص ٨٥) . ولكن لا ينبغى أن يغرب عن بالنا أن المقطعية كانت من مستلزمات تطور الكتابة التصورية نفسه . فهذا الأمر يوجد بطبيعته فى اللغة الوحيدة المقطع ، إذ أن كل كلمة من كلماتها تتكون من مقطع واحد . أما فى اللغات الأخرى فإن الأمر ينتهى إلى نفس النتيجة بسبب أن كل صورة كتابية كانت تستعمل للدلالة على مقطع واحد (هو المقطع الأول على وجه العموم) من الكلمة التى تمثلها تلك الصورة . وهذا هو السبب فى أن أسماء الحروف فى الأبجدية السامية مثلا هى بعض أسماء الأشياء المختلفة التى يبدأ إسمها بالحرف المقابل ، وكذلك الحال فى الأبجدية الأجامية عند الإرلنديين . وفضلا عن ذلك تمتاز المقطعية بالاختصار : لأنها تسجل السواكن المبدئية للمقاطع بدقة ويمكن أن يكتفى بها على وجه الإجمال بالنسبة للغات التى ليس فيها مجاميع من السواكن والتى يمكن فيها تعيين نغمة الحركة بواسطة اعتبارات صرفية كما هى الحال فى اللغات السامية . ومن ثم أمكن لهذه المرحلة الوسطى أن تكون مرحلة نهائية فى كثير من الحالات . فلم تلجأ السامية إلى الإشارة إلى الحركات إلا فى عصر متأخر ، عندما بدأ يستعمل اللغة أناس لا يعرفونها معرفة تامة .

وجدت المقطعية مكاناً لها فى الشرق الأقصى أيضاً . فقد استخرج اليابانيون من الكتابة الصينية الجارية ، بعد محاولات كثيرة لا يعنينا أن نتكلم عنها فى هذا المقام ، أبجدية تتكون من سبع وأربعين علامة ويطلقون عليها اسم « كاتا ــ كانا » (kata — kana) ؛ ولكنهم لا يستعملونها بصفة مطردة ؛ لأن نظام الكتابة الجارية عندهم مرحلة وسطى بين الكتابة الصينية والكتابة المقطعية . أما أهل كوريا فقد اتخذوا كتابة مقطعية من أصل آرامى وجعلوا منها كتابتهم الوطنية (انظر أواخر هذا الفصل) .

تعتبر الكتابة القبرصية أيضاً من الكتابات المقطعية ؛ وقد نجح العلماء فى فك طلاسمها بفضل استعمالها فى تسجيل اللغة الإغريقية [١]؛ لذلك كان ما لدينا مسجلا بهذه الكتابة نصوصاً إغريقية على وجه الخصوص . وأصل هذه الكتابة غير معروف ؛ ولكن من المحقق أنها ابتكرت لتسجيل الإغريقية ، وإن كانت لا تسجلها إلى بصورة ناقصة . وقد استعيض عنها فى قبرص نفسها بالإنجليزية الإغريقية .

الأبجدية الحرفية آخر مرحلة فى سبيل استكمال الكتابة . وقد أدت إليها الحاجة إلى رقم الحركات دون اضطرار إلى زيادة العلامات التى كانت تكون الأبجدية المقطعية . إذ أخذت الأبجدية القطانية السامية فى وقت من الأوقات تزود برموز لرسم الحركات نسميها matres lectionis « علامات الضبط » وذلك لتيسير القراءة . وقد أحسنت الأبجدية الإغريقية استغلال هذه الرموز حتى خلقت منها علامة لكل حركة . وقد كتب رينان أن « الإبجدية الحرفية من خلق الساميين »[٢]. وهذا محتمل ، ولكن الرأى القديم الذى يؤكد أن الأبجدية الإغريقية من أصل فينيق قد فترت قوته اليوم عن ذى قبل . فيميل الأستاذ دوسو [٣] إلى أن يعزو شرف الأبجدية إلى حضارة بحر إيجه ، تلك الحضارة التى تمثلها لنا آثار جزيرة كريت ، وإن كان تمثيلا سيئاً . فمنده أن الإغريق والفينيقيين على السواء قد أخذوا حضارتهم عن الإيجيين . ولكن الأبجدية الفينيقية على كل حال قد أثرت على الأبجدية الإغريقية كما تبين لنا من اسم الحروف الإغريقة (هذا ، وانظر هيرودوت ٥/٥٨ الذى يسمى الحروف « γράμματα φοινιχήια ») .

ولم تلبث الأبجدية الإغريقية ، بعد استكمالها على أيدى اليونيين ، أن انتشرت فى كل بلاد الإغريق على وتيرة واحدة . وقد نقل الإغريق الأبجدية إلى جهة الغرب .

---

(١) عن فك طلاسم النقوش القبرصية انظر بريال ، Journal des savants أغسطس وسبتمبر ١٨٧٧ .

(٢) رقم ١١١ ، ص ١١٤ .

(٣) Dussaud : Les civilisations préhelléniques dans le bassin de la mer Egée. الطبعة الثانية ، ص ٤٣٤ .

ففى إيطاليا انتقلت الأبجدية إلى اللاتينيين وإلى الأترسكتين من كوميس Cumes، وهى مستعمرة من مستعمرات أوبين دى شالسيس Eubéens de Chalcis . ودخلت الأبجدية وادى الرون على أثر تأسيس مرسيليا ؛ ولا زلنا نعثر فيه على نقوش جولية مكتوبة بالحروف الإغريقية وترجع إلى بدء التاريخ الميلادى .

أما من الناحية الشرقية فإن الآرامية هى التى قامت بدور نشر الأبجدية ؛ وهو دور عظيم تبرره ظروف التاريخ . ولكن التغير الذى طرأ على الكتابة هو الذي ساعد على القيام بهذا الدور . فكما أن استعمال الأوراق البردية والحاجة إلى الإسراع فى الكتابة قد أديا إلى تحول الكتابة الهيروغليفية فى مصر إلى كتابة هيراطيقية ثم إلى كتابة ديموطيقية ، فإن الكتابة الفينيقية قد أخذت عندما استعملت فى الآرامية صورة جارية وعملية ؛ إذ استدارت الزوايا وانمحت رءوس الحروف ، وصارت الشرط المتطرفة تنتهي بنوع من الذيل يدور حول نفسه . وقد امتدت الأبجدية الآرامية إلى الهند . إذ أن معظم النظم الكتابية المستعملة فى آسيا الوسطى مشتقة منها . هذا وقد أمكن لها أن تصل إلى الشرق الأقصى ، فهى التى تكون الكتابة الكورية التى تستعمل حتى اليوم .

الكتابة الحرفية ، وهى آخر مراحل التطور الكتابى ، انتشرت فى أوربا ابتداء من التاريخ المسيحى بفضل الإغريق والرومان . والذى يفسر هذا الحادث سبب تاريخي ، وهو انتشار المسيحية . فإن الحواريين الذين لقنوا المسيحية للشعوب الوثنية علموهم أيضاً قراءة النصوص المقدسة ، واضطرهم ذلك إلى تكوين أبجديات على نسق الأبجدية التى كانوا هم أنفسهم يقرءون بها هذه النصوص . ومن ثم اتخذت الأبجدية الإغريقية مثالا للأبجدية القوطية بفضل ڤلفيلا Wulfila. وللأبجدية السلاڤية بفضل سيريل Cyrille وميتود Méthode . أما الألمانية القديمة والإنجليزية القديمة والإرلندية القديمة فقد اشتقت كتابتها من الأبجدية اللاتينية.

نحن نعرف على وجه العموم الصورة التى تكونت بها هذه الأبجديات المختلفة . فڤلفيلا مثلا بدأ بأن أخذ من الأبجدية الإغريقية جميع الحروف التى تعبر عن أصوات موجودة فى لغته ، واحتفظ لها بقيمتها . وبالنسبة للأصوات الأخرى

استغل على نحو ما ، الحروف التى بقيت غير مستعملة . فاستعمل الحرف الإغريقى (ψ) لكتابة الاحتكاكى الأسنانى المهموس ، والحرف Θ لكتابة الصوت hw . وفى بعض الأحيان اضطر إلى الاستعانة بأبجدية لغات أخرى . إذ لا شك أن حرف F القوطي مستعار من الأبجدية اللاتينية ، وأن العلامتين الدالتين على Y قد استبقيتا من الأبجدية الرونية runique القديمة . ويمكننا أن نجد مثل هذه الحالات فى تاريخ كثير من الأبجديات . فالأبجدية الإغريقية تعرفنا أن الإغريق قد استعملوا مثل هذه الحرية عندما طبقوا على لغتهم الكتابة المعروفة بالكتابة الفينيقية .

ومهما يكن من شىء ، فهناك خلاف جوهرى بين الأبجديات المشتقة من الإغريقية والأبجديات المشتقة من اللاتينية . فالأولى قد وضعت بدقة تامة وقام بها أشخاص ذوو حس مرهف بالروابط الصوتية فأظهروا فى تسجيلهم لفروق النطق الدقيقة مهارة فائقة . ومن ثم كانت الأبجدية القوطية التى قام بها فلفيلا Wulfila أداة لائقة وعلى جانب كبير من الدقة ؛ والأبجدية السلافيــة التى وضعها سيريل وميتود تعتبر تحفة حقيقية . فما أوسع الفرق بينها وبين أبجدية الإنجليزية السكسونية أو الأيرلندية ! فهؤلاء قد ظلوا قروناً طويلة يفتشون عن وسيلة يطبقون بها الأبجدية اللاتينية على لغتهم ، ولكنهم لم ينجحوا قط فى مسعاهم .

والحقيقة أن وسائل الأبجدية اللاتينية كانت تقصر على الغرض الذى هدفوا إليه . فالنظام الصوتي لكل من هاتين اللغتين يختلف عنه فى اللاتينية أشد اختلاف إذ تحتوى اللاتينيــة على عدد هام من الأصوات الانفجارية ، مجهورة كانت أو مهموسة ؛ أما الإيرلندية فتمتاز بالأصوات الاحتكاكية ؛ هذا إلى أنها أكثر تنوعاً فى الأصوات من اللاتينية . والكتابة الإيرلندية قامت شيئاً فشيئاً ممزقة وعلى فترات ، تكونت بعد تحسسات طويلة وبعد سلسلة طويلة متتابعة من الإجراءات الناقصة غير المتصلة : لذلك كان تفسيرها يتطلب دائماً مجهوداً من القارئ . فهى عكس الكتابة القوطية على خط مستقيم ، تلك الكتابة التى نشأت دفعة واحدة وبطريقة منهجية فى ذهن مبتكرها . ولكن لا ينبغى لنا من ذلك أن نضيف إلى

هذا المبتكر فضل هذا النجاح كاملا . إذ أن المادة التي كانت موضع دراسته كانت أكثر قبولا للنجاح . فالقوطية كما عرفنا إياها ڤولفيلا ، ذات اطراد نحوى جميل ، يكشف عن لغة مشتركة قد سوّيت واستقرت ؛ أما الإيرلندية فكانت على جانب لا يوصف من الفوضى فى اللحظة التى حاول فيها أهلها أن يثبتوها بالكتابه . ويمكننا أن نقرر نفس الشىء بالنسبة للسلافية القديمة فى مقابلة الألمانية القديمة أو الإنجليزية القديمة .

الفصل الثانى

اللغة المكتوبة والرسم

أحس بنو الإنسان فى كل العصور أهمية اللغة المكتوبة. فأرجعوا أصل الكتابة إلى الوحى الإلهى. إذ اعتقد العبريون أن موسى تلقاها من ذات الإله؛ وعزاها المصريون إلى الإله توت (أفلاطون، فيدروس: ٢٧٤)؛ ووضع الإغريقيون اختراع الكتابة فى نسق مع ممارسة الزراعة واكتشاف النار، فرفعوا كدموس Cadmus إلى مرتبة تريبتوليم Triptolème أو برومثيه Promethée.

ولكن ليس معنى هذا أن الأولين من بنى الإنسان قد صدمتهم فائدة هذا الابتكار، أو أنهم أحسوا الخدمات التى يمكن أن يؤديها إلى سلالتهم؛ بل لقد رأوا فى الكتابة إجراء غيبياً أثار انتباههم بخصائصه المخوفة. فالكتابة بالنسبة إليهم كانت علماً. والعلم قد أثار دائماً خوف البشر؛ وهم على حق فى ذلك لأنه يسمح لمن يستحوذ عليه بفعل الشر والخير على السواء.

أولئك الذين بدءوا باستعمال الكتابة كانوا يستعملونها فى عمليات شبه سحرية. فالكتابة فى أصلها كانت طريقة من طرق السحر. وقد احتفظت اللغة المكتوبة بهذه الصفة زمناً طويلا. فكتابة اسم على قطعة من اللحاء أو من إهاب حيوان، كان معناها إمساك الكاتب لصاحب الاسم تحت تصرفه، معناها قسره وتقييده، معناها القدرة على رفعه أو خفضه، على نجاته أو إهلاكه تبعاً لإرادته. وأول ماخط من سطور تحتوى على اسم أحد الأشخاص، كان ضربا من الرق: تماويذ يقصد بها النجاح أو الشفاء، الإخضاع أو الإضرار. وإذا كانت الكلمة الملفوظة لها قوة سحرية (انظر ص ٢٣٨) فالكلمة المكتوبة من باب أولى. ومن ثم كان الكتاب الأولون من السحرة.

الكتابة والقدر sort لاينفصلان عند كثير من الشعوب . فالكتابة عند الكلتيين والجرمانيين من عالم « الغيب » (بالقوطية runa) ، وهى ضرب من ممارسة السحر[١] . وقطعة الخشب التى تحفر عليها الحروف كانت تستخدم فى نفس الوقت للأذى السحرى . وظل المنيان مختلطين حتى أيامنا هذه فى مفردات الأرلنديين والبريتانيين . وكما أن كلمة Buchstabe (ومعناها الحرفى : عصا من الزان) تدل على «الحرف» فى الألمانية ، فإن كلمة crann - chur (قذف الخشب) معناها « القدر » فى الإيرلندية ، وكذلك كلمة coel - bren (حرفياً : خشب النبوءة) فى الغالية[٢] .

وحتى بعد أن تجردت الكتابة من كل صفة سحرية ، ظلت محاطة بهالة من الخوف والاحترام . ذلك أن الناس قد احتفظوا بما للنص المكتوب من خرافة . وقد استغل الدين والقانون هذه العاطفة ليفرضا على أذهاننا النص المكتوب الذى لايعتريه تحويل أو تبديل والحرف الذى يتحدى مايقتضيه العقل . ونرانا لا نزال نكرر : « هذا مكتوب » أو « لقد كان ذلك مكتوباً » كما لو كنا نشاطر الشرقيين عقليتهم التى تتصور القدور مسجلا فى كتاب كبير تطوى منه فى كل يوم صفحة ، هذا على أن أهمية النص المكتوب شىء طبيعى . إذ أن المكتوب يبقى ، على حين تتبدد الألفاظ . والكلمة إذا سجلت عندما تخرج من بين حواجز الأسنان ، استقرت إلى الأبد كأنها وثيقة إثبات ؛ وبعد كل هذا فإن الانسان يؤخذ « بما كتب » . فالكتابة بعد أن لم تصبح رباطاً سحريا ، قد بقيت رباطاً على كل حال .

وهكذا نرى أن الاستعمال يتفق مع التقاليد فى تأكيد اختلاف اللغة المكتوبة عن اللغة المتكلمة . والواقع أنهما لا يختلطان أبدا . ومن الخطأ أن نظن أن النص المكتوب يعتبر تمثيلا دقيقاً للكلام . فلسنا ، على عكس ما يتصور كثير

---

(١) نكل Neckel : Zur Einführung in die Runenforschung Germ. Rom. ، Monatschrift ، مجلد ١ ، ١٩٠٩ .

(٢) ج . لوث J. Loth : Le sort et l'écriture chez les Anciens Celtes (مجلة العلماء ، سبتمبر ١٩١١ ، ص ٤٠٣ وما يليها) .

من الناس ، نكتب كما نتكلم ؛ بل إننا نكتب (أو نحاول أن نكتب) كما يكتب غيرنا . وإن أقل الناس ثقافة يشعرون ، بمجرد وضع أيديهم على القلم ، بأنهم يستعملون لغة خاصة غير اللغة المتكلمة ، لها قواعدها واستعمالاتها كما أن لها ميدانها وأهميتها الخاصين بها (انظر ص ٣٤٠) . وهذا الشعور له مايبرره .

اللغة المكتوبة هي الطابع المميز للغات المشتركة . واللغة المشتركة بطبعها في نزاع دائم مع اللغة المتكلمة ؛ لأن هذه الأخيرة ، في خضوعها للتأثيرات الفردية ، تميل دائماً إلى الابتعاد عن المثل الأعلى الذي تحتذيه اللغة المشتركة . واللغة المكتوبة معرضة بدورها لضربات اللغة المتكلمة ، لأن اللغة المشتركة تعتمد في مقاومتها على الكتابة أولا وقبل كل شيء . ومن جهة أخرى تستعمل الكتابة في التعبير عن كثير من اللغات الخاصة ، بل لا وجود لبعض هذه اللغات الخاصة إلا في صورة مكتوبة . ولهذا الاعتبار أيضاً كان الخلاف بين الكلام والكتابة أمراً مقرراً ثابتاً.

* * *

هذا الخلاف يتجلى في أوضح صوره في مسألة الرسم . فلا يوجد شعب لا يشكو منه إن قليلا وإن كثيراً . غير أن ما تعانية الفرنسية والإنجليزية من جرائه قد يفوق ما في غيرها . حتى أن بعضهم يعد مصيبة الرسم عندنا كارثة وطنية [1] . لذلك يهمنا أن نعرف مدى هذا الشر والأسباب التي أدت إليه وأنواع الدواء التي يمكن أن يعالج بها .

لعرض هذه المسألة على خير وجوهها ، يجدر بنا أولا أن نتساءل إلى أي حد يمكن للرسم أن يخفف من وطأة الخلاف القائم بين الكلام والكتابة ، وإلى أي

---

(١) انظر خاصة ارسن در مستتير : مسألة إصلاح الرسم ، في Mémoires et documents scol. الكراسة رقم ٧٣ ، باريس ١٨٨٨) وفرديناند برينو : إصلاح الرسم باريس ١٩٠٥ ؛ ل . هافيه : تبسيط الرسم (Revue bleue ١١ مارس سنة ١٩٠٥) ؛ م . بريال : كلمة أخيرة في الرسم (قص المرجع) ؛ موريس جرامون . تيسير الرسم الفرنسي ، رقم ١٧ ، نوفبر وديسمبر ١٩٠٦ ، ص ٥٣٧ وما يليها . وترى عرضا كاملا للمسألة في دوتنس Dutens ، رقم ٦٩ .

درجة تستطيع الكتابة أن تمثل النطق . فبعض أنواع الرسم تدين بتعقيداتها إلى الرغبة فى تعليم القارىء نطق الكلمات على أدق صورة ممكنة . وتنشأ هذه التعقيدات فى غالب أمرها فى الخارج . فالعناية التى تبذلها اللغة فى تسجيل الأصوات ترجع إذن إلى انتشار اللغة بين أقوام لم يكونوا يتكلمونها بسليقتهم . وهكذا تطور استعمال النبرات على الكلمات الإغريقية فى مصر ، حيث كان يتكلم الإغريقية أناس من غير الإغريق ، فكانوا فى حاجة إلى العناية بمعرفة الموضع الذى ينبر فى الكلمة . وكذلك كان بدء تعليم الكتابة السامية بالحركات فى بلاد الحبشة لما دخلت فيها اللغة العربية . إذن أن النصوص الحبشية الأولى مكتوبة بخط سبئى خال من الحركات ؛ فالكتابة الحبشية أول كتابة سامية اتجهت إلى تعليم الحركات ، وهذا شىء لا بد منه بالنسبة لقوم لم يتعودوا بعد النظام الصرفى السامى المعقد . وكان ذلك تقدماً لاريب فيه ، جعل من الكتابة صورة من الكلام أقرب إلى الحقيقة .

ومع ذلك فلا يوجد رسم واحد يمثل اللغة المتكلمة كما هى . فإننا إذا تصورنا رسماً مما يسمى بالرسم الصوتى ، وقد زوّد بحروف متنوعة وبعلامات للتشكيل ، فإن هذا الرسم لا يتيح معرفة النطق الحقيقى معرفة تامة لشخص لم يسمع الكلام باللغة التى يقرؤها . ومن ثم كان من المعتاد فى كتب الأصوات أن تصور الأصوات اعتماداً على لغة معروفة للقارىء لا على الجهاز الصوتى للانسان . وهذه الطريقة أبسط وأدق من غيرها . فيقال إن هذه العلامة أو تلك تمثل الـ th (ث) الإنجليزية الرخوة ، أو الراء البارسية أو الـ ch الألمانية الصلبة (خ) ، وأفضل من ذلك أن يقال مثلا إن الحركة الفلانية هي الـ a (الفتحة) الفرنسية فى كلمة كذا إذا نطقت على الطريقة الباريسية . وإن كان لا يستفيد من هذا التحديد من لم يسمع كلام إنجليزى أو ألمانى أو باريسى .

ولكن هذه الوسيلة أيضاً غير كافية . لأن القارىء ، مهما سوعد بمقابلات دقيقة فى اللغات التى يعرفها ، لا يستطيع إدراك أصوات لغة جديدة وأن يقوم بتحقيقها دون أن يسمع نطقها بنفسه . ذلك لأن اللغة المتكلمة من التعقيد بحيث

تشتمل على أكداس من تفاصيل الشدة والتنغيم والنطق الفجائى ، مما لا يستطيع رسم تصويرها مهما بلغ من درجات الكمال .

ففكرة عمل رسم صوتى يطبق على جميع اللغات سراب خداع ، لأن تنوعات النطق من الكثرة بدرجة يستحيل معها أن يكون الرسم غير تقريبى . وهذا ما نراه فى المحاولات التى عملت لإيجاد رسم واحد منسجم لكتابة الأعلام الجغرافية . فقد اصطدم القائمون بهذا الأمر بتلك الصعوبة الدائمة ، وهى أن الرسم لا يخلو أبداً من الإيقاع فى اللبس[١] . بل إن علماء اللغة يلاقون أشد العناء فى وضع نظام ينطبق على اللغات التى يدرسونها[٢] .

أما إذا أردنا أن نصل بمبدأ الرسم الصوتى إلى غايته الحتمية ، فإن ذلك يؤدى بنا تقريباً إلى عمل نظم من العلامات المختلفة لكل لغة على حدتها . لأنه لا يوجد إلا القليل من اللغات التى تتفق فى نظامها الصوتى وفى نظام حركات جهازها النطقى . فلا يكاد يوجد صوت واحد مشترك بين الإنجليزية والفرنسية : وإذن يجب وضع علامات مختلفة لرسم الإنجليزية . وهذا يؤدى بنا إلى أن نجعل عدد علامات الرسم غير محدود . لكل ذلك كان من الخير أن ندع الأمور على ما هى عليه ، إذ أنه يتحتم على من يريد معرفة قيمة العلامة أن يكون قد سمع الكلام باللغة التى هو بصددها كما بينا سابقاً .

نضيف إلى ذلك أن أتم نظم الرسم لا تستطيع مطلقاً أن تصور الخصائص اللهجية ، وأنه لا يمكننا أن نشير فى الكتابة مثلا إلى خصائص النطق التى يتميز بها أهل البيكاردى أو الفرنش كنتيه ، بله أهل مرسيليا أوجسكونيا .

وهذه صعوبة أولى .

وهناك صعوبة ثانية ترجع إلى أن الرسم الصوتى يصاب بالقصور على مرور

---

(١) انظر كرسنيان جرنييه : طريقة عقلية عامة لرسم الأسماء الجغرافية ، يمكن أن تطبق على جميع الكتابات المستعملة فى العالم ، باريس ١٨٩٩ .

(٢) برجمان Brugmann ، رقم ٣٠ ، مجلد ٧ ، ص ١٦٧ ؛ هـ . هرت H. Hirt : فى صعوبة الرسم، رقم ٣٠ ، مجلد ٢١ ، ص١٤٥ ؛ وكرسنيان برتولومار Chr. Barthalomar رقم ٣٠ مجلد ٢١ ، ص ٣٦٦ ؛ ى . فكرناجل ، رقم ٣٠ ، مجلد ٢٢ ، ص ٣١٠ .

الزمن وبسرعة تختلف باختلاف اللغات . إذ أن السبب الأساسي لأزمات الرسم ينحصر فى استحالة مسايرة الرسم لحركة اللغة ، وذلك فى نفس الوقت خير شهادة على اختلاف اللغة المكتوبة عن اللغة المتكلمة . فاللغة المكتوبة تتطور دون توقف[1]. أما اللغة المكتوبة فمحافظة بطبعها ، لا لأنها تعبير مشخص للغة المشتركة وقد قننها النحاة فحسب ، بل أيضاً لأنها لا تستطيع التغير بنفس السرعة التى تتغير بها اللغة الكلامية . نعم إن قوة التقاليد تصير أمراً خطيراً عندما تحميها المدرسة والآداب وإجماع المثقفين . ولكن التقاليد هنا ليست العقبة الوحيدة فى سبيل تطور الكتابة . فالثبات ضرورى للغة المكتوبة ، لأنها تعتبر لغة مثالية حددت معالمها نهائياً ، ولا يمكن المساس بها إلا بعد فوات الأوان . فمهما عنينا بجعل هذا الكساء مرناً مطابقاً لحنايا الجسم الذى يكسوه ، فلن نستطيع مطلقاً أن نخضعه لنزوات الطبيعة وأن نجعله ينمو بنمو الجسم لأنه شىء ميت يغطى كائناً حيا .

يدهش الإنسان أحياناً من إبطاء اللغة النقية فى مسايرتها للتقدم الذى تقوم به اللغة الكلامية فى ميدان الصرف والمفردات . فالأكاديمية لم تجز حتى الآن عبارات من قبيل « je m'en rappelle » أو « de façan ā ce que » ، مع جريانها فى الاستعمال منذ قرن . ولكن لا أهمية لذلك ، ما دامت هذه العبارات قد أصبحت اليوم من المقررات . وكثير من الاتجاهات المتنوعة التى تبدو فى اللغة يكون مصيرها الإخفاق . وإذا كان الاتجاه جديراً بالبقاء فإنه يتطلب وقتاً طويلا للوصول إلى غرضه ؛ فإذا فرضنا أنه سُجّل فى نفس اليوم الذى وصل فيه إلى غايته ، كان القيام بهذا العمل متأخراً عن أوانه ، مادام هذا الاتجاه قائماً مؤثراً منذ زمن طويل . وكذلك الحال بالنسبة للرسم . فإنه لا يعتمد بطبيعة الحال إلا الصور التى محصت وثبتت بالاستعمال مهما كانت دقته ومسارعته نحو التقدم .

ولكن من العسير أن يكون الرسم دائماً دقيقاً سباقاً إلى التقدم . إذ يجب

---

(١) عن تاريخ النطق فى الفرنسية انظر تورو Thurot ، رقم ١٢٦ ، وروسيه : رقم ١١٢ ؛ وعن النطق فى الإنجليزية : انظر اليس Ellis ، رقم ٢٣ ، ١٨٧٣ — ١٨٧٤ .

التفريق بين اللغات بالنسبة لهذا الاعتبار . ويدهش الإنسان أحياناً بحق عند ما يرى اختلاف لغات مثل الإنجليزية والألمانية والفرنسية والأسبانية من حيث قيمة الرسم . فرسم الألمانية لا يعدّ رديئاً ورسم الأسبانية جيد جداً ، أما رسم الإنجليزية أو الفرنسية فسيء . ولا يمكن أن يسبقهما فى هذا المضمار إلا رسم لغة التبت أو اللغة الإرلندية . وقد ذكر بعض علماء اللغات الكلتية على سبيل التسلية رسم بعض الكلمات الإرلندية من قبيل saoghal و lanamhain و oidhche و cathughadh التي تنطق على وجه التقريب sil و lànun و i و cahu . وبهذا تستطيع الإرلندية أن تستثير غيرة الفرنسية التى تكتب oiseau ما تنطقه wazo والإنجليزية التى تكتب enough و knight و wrought وتنطق enaf و naït و rôt . ولكنا لا ينبغى لنا أن ننسى الظروف المخففة فى حكمنا على هذه اللغات، فالاختلافات التى نلاحظها بين الرسوم المختلفة ترجع إلى أسباب تاريخية .

لنلاحظ أولا وقبل كل شيء أن اللغات المشتركة التي تعبر عنها هذه الرسوم قد تكونت فى عهود على جانب من القدم . ثم لنلاحظ بعد ذلك أن التطور الصوتى فى بعض اللغات أسرع منه فى غيرها وأنه يغير نطق الكلمات تغييراً تاماً : فالإيطالية والأسبانية قد بقيتا أقرب إلى اللاتينية من الفرنسية بكثير . والإنجليزية قلبت النظام الصوتى الذى ورثته عن الجرمانية . ولنلاحظ على وجه الخصوص أن الظروف التى نشأت فيها الرسوم كانت تختلف فى كل قطر عنها فى الآخر . وقد أثر على الرسم كثير من الأسباب الخارجية بل والفردية . مثل ذلك تأثير المصلح الديني الغالى سالسبورى Salisbury الذى صارت ترجمته للكتاب المقدس فى سنة ١٥٦٧ حجة ؛ فالعادة التى أدخلها فى كتابة الضمير الذى لا ينطق إلا i (إى) على هذا النحو ei ظلت متبعة حتى أيامنا هذه . وفى روسيا أثر تقاليد اللغة السلافية القديمة ، وهى لغة دينية كانت من القوة بحيث جعلت الروسية الحديثة تكتب حالة من حالات الإضافة togo فى حين تنطقها tavo . وتأثر الرسم عندنا فى نهاية القرن السادس عشر بأثر العلماء المشربين بالروح الكلاسيكية ومسائل علم الاشتقاق . فهم أول المسئولين عن المتاعب التى نعانى اليوم نتائجها ، ولكنهم كانوا على اتفاق

مع روح العصر الذى عاشوا فيه . وهذه الحالة النفسية بذاتها قد وقعت فى أرلندة حيث وضع الرسم بعد محاولات عديدة قام بها قوم من المتحذلقين المفتونين بحب التقاليد . فى غضون القرن السادس عشر قامت محاولات لاصلاح رسم اللغة الفايلية فى المخطوطة الشهيرة التى قام بنسخها السير جيمس مكجريجور Sir James Macgregor ، عميد لسمور Lismore (فى أرجيلشير Argyllshire ؛ وبفضل هذا الكتاب يمكننا أن نحكم بمقدار اختلاف اللغة المكتوبة عن اللغة المتكلمة فى ذلك الحين . ولكن لا ينبغى لنا أن نبالغ فى تقدير ما فى الرسم الأيرلندى من تعقيدات فجزء كبير منها يرجع إلى غلطة مبدئية تنحصر فى اتخاذ الحروف علامات لتحديد نطق الحروف الأخرى : وهذا قد طبع الكتابة بطابع ممل ، ولكن يمكن التعود عليه بعد قليل من الممارسة . والدليل على جودة الرسم التقليدى فى بعض الأحيان أننا نستطيع بشىء كثير من الدقة أن نقرأ النصوص الأيرلندية المعقدة التى ترجع إلى عهد مخطوطة عميد لسمور ، بينما نعجز عن تحديد ما لبعض رسوم هذه المخطوطة نفسها من قيمة .

وهذا لا يعنى أننا نرى حتما علينا أن ندافع عن الرسم الأيرلندى ، ومعه الرسم الفرنسى ، ذلك الرسم المحشو بحروف لا فائدة فيها . فقد عانت لغتنا أكثر من من غيرها من آثر المتحذلقين الضار . ألم يجنح بها الخيال إلى كتابة كلمة sire « سيد » فى صورة syre زعماً منهم أنها مشتقة من الكلمة الإغريقية κυριος ، وهو زعم زائف ؟ نعم إننا لم نتبعهم فى هذه النقطة ، ولكننا نتبعهم فى كتابة كلمة poids « وزن » بحرف d « د » وكلمة vingt « عشرون » بحرف t «ت» ، مع أن هذين الحرفين لم يلفظ بهما فى أية فترة من تاريخ اللغة ، كما أن إضافة الدال فى الحالة الأولى تتنافى تماماً مع الاشتقاق : لأن كلمة poids مشتقة من كلمة pensum وليست من pondus . وهم الذين أدخلوا فى الرسم حروفاً لا تلفظ فى اللغة منذ عهد سحيق . وقد أدى الحظ العاثر أحياناً إلى نطق هذه الحروف من جديد ، فنرانا نلفظ الـ s « س » من الفعل festoyer « يحتفل بالعيد » رغم أننا نقول fête « عيد » دون (س) ؛ ونسمع أناساً ممن يفاخرون بإجادة اللغة

ينطقون الكلمات chaptel « سلالة » و dompter « روض » و sculpter « ينحت » و promptement « على الفور » بالمجموعة الصوتية pt (پت) ، وهو نطق غير سليم . وهناك ما هو أنكى من ذلك : فإن كلمة lais القديمة — وهى من فعل laisser « يدع » — قد كسيت رداء جديداً لم يكن من حقها أن تلبسه ، فصارت تكتب legs بحرف g ، وذلك تحت تأثير الفعل léguer « يودع » . واليوم ينطقها الكثيرون بهذا الحرف كما ينطقون اسم العلم Leygues . ومن ثم نرى أن الرسم من العوامل التى تؤدى إلى تغيير المفردات [١] : فنراه يفصل بين festoyer و fête وبين legs و laisser بينما نراه يصل forsené (« متهور غضباً ») بكلمة force « قوة » وذلك بكتابتها forcené . كما أنه يحرف الاشتقاق بعض الأحيان : فإن الاستعمال السيء ل«ge» بدلا من « j » قد أوجد كلمة gageure التى ينطق بها سواد الناس فى عصرنا هذا على وزن beurre ، مع أنها مشتقة من gager « راهن » بواسطة اللاحقة ure- مثل picûre « لدغة » من piquer « لدغ » و mouillure « تبلل » من mouiller « بلل » . وإذا أردنا أن نعدد هنا آثام الرسم فى الفرنسية فلن نستطيع الانتهاء منها [٢] . وإن المناقشات التى دارت حديثاً حول هذا الموضوع قد سمحت بتسجيل قوائم بهذه الآثام وإن فى مادتها من الغزارة ومن الشهرة ما يعفينا من محاولة ذكرها فى هذا المكان .

وهى دائماً فى سبيل الزيادة ، لأن أزمة الرسم تتوقف على الظروف الاجتماعية التى تتطور فيها اللغة ، فبمقدار اتساع الخلاف بين الفرنسية الأدبية والفرنسية الكلامية (انظر ص ٣٤٣ — ٣٤٤) تزداد حدة الشر . لأن عدداً من الكلمات التى تستعمل الآن فى الحادثة سيترك نهائياً اللغة المكتوبة وعندئذ لا يحفظ إلا من الكتب ولا تعمل على الاحتفاظ بسلامة نطقها أية رواية شفهية ، فتصبح هذه

---

(١) عن وجود حالات من هذا القبيل فى الألمانية انظر Behaghel : تأثير الكتابة فى مفردات اللغة ،مجلة اتحاد اللغة الألمانية ، مجلد ١٨ ، ص ٣٥ — ٤٠ وص ٦٨ — ٧٦ .

(٢) ١ . جازيه A. Gazier : الرسم عند آبائنا وعند أطفالنا فى Mélanges de littérature et d' hsitoire ، باريس (١٩٠٤) ص ٣٢١ .

الكلمات بمثابة الكلمات الأجنبية التى تدخل فى اللغة بواسطة الكتب : فنحن نقول rail (شريط السكة الحديد) أو wagon (عربة القطار) متأثرين بالصورة المطبوعة فنطبق النطق الفرنسى على الرسم الإنجليزى ؛ ولكنا نقول Bifteck ، على النطق الإنجليزى ، لأننا أخذنا هذه الكلمة عن الرواية الشفهية . وكلمة gageure كلمة صحفية مثل كلمة rail وكلمة wagon ؛ وهذا يفسر لنا ماطرأ عليها . فالكتاب يعكس دائما فى اللغة رد فعل الصورة المكتوبة على الصورة الشفوية .

وفى انجلترا أيضاً يعلن تباين اللغتين عن نفسه منذ زمن طويل. فرطانات الأقاليم الإنجليزية مشربة جميعها باللغة الأدبية من تأثير الكتب والصحف بوجه خاص. وهذه اللهجات ليست فى غالب أمرها إلا اللغة الأدبية بعد أن صبغت بالصبغة اللهجية كما هى الحال فى فرنسا (انظر ص ٣٣٦و٣٣٧) . غير أن صبغ اللغة الأدبية بالصبغة اللهجية يعرض صاحبها للوقوع فى الأخطاء . وهذا مثل نموذجى من تلك الأخطاء : كلمة light التى تنطق lait فى اللغة المشتركة لاتزال تنطق lixt فى شمال القطر. وبالقياس على ذلك راح أهل الأقليم ينطقون كلمة delight كأنها dilixt بدلا من dilait ، مع أنها من أصل آخر غير الكلمة الأولى ؛ وقد يجمعون بين الخطتين فيقولون فى light ، laixt ، وهى طريقة أخرى لصبغ اللغة بالصبغة اللهجية على نحو خاطىء[1] .

تأثير الرسم على النطق فى الألمانية أشد منه فى الفرنسية أو الإنجليزية ، وهذا يرجع إلى أن الألمانية المشتركة لغة كتابية أولا وقبل كل شىء (أنظر ص ٣٣٢) فنى إبان تكوين اللغة المشتركة سوى النطق على الرسم فى غالب الحالات . لأن الرغبة كانت تتجه فى ذلك الحين إلى إقامة نطق عام ، لاهو نطق إقليم معين ولا نطق مجموعة إجتماعية بعينها ؛ فالاستعمال كان يتجه ولازال يتجه إلى تطبيق الألمانية الكلامية على رسم الألمانية الأدبية . فمن ذلك مثلا ، أن الحركة المركبة ie فى الألمانية العليا الوسطى صارت i طويلة (ى) دون أن يتغير الرسم لهذا السبب ، ولكن لما كانت المستشارية السكسونية تكتب je بدلا من ie عندما تكون

---

(١) و . هورن : رقم ١٦٩ ، ص ٥٥ .

فى مبدأ الكلمة ، فقد أدخل هذا الاختلاف فى النطق أيضاً ، ومن ثم نرى jemand (بعض الناس) و je فى مقابلة niemand (لا أحد) و nie (لا)[1] . ومع ذلك فإن الألمانية تمتاز عن الفرنسية والإنجليزية بأن الرسم بعد أن استقر فيها بقى ثابتاً . أما فى الفرنسية فإن التباين الذى بين الفرنسية الكتابية والفرنسية الكلامية لا يزداد مع الأيام إلا اتساعاً .

* * *

لا يمكننا إلا أن نمتدح المجهودات التى تبذل لإصلاح عيوب الرسم . وحجة القائمين بها تتلخص فيما يلى : الرسم الفرنسي عبارة عن نظام توافقى قام بوضعه جملة وتفصيلاً طائفة من متحذلقى العلماء . وما وضعه التوافق يستطيع التوافق أن يلغيه . وليس فى إصلاح رسم اللغة إضرار باللغة نفسها . بل إن فى ذلك تخليصاً لها من داء ينخر فى جسمها وتوفيراً لوقت ثمين يضيع على أولادنا هباء منثوراً وتسهيلاً للأجانب الذين يتعلمون لغتنا .

وكلها أسباب وجيهة وكنا نتمنى لو أنصت لها الناس فى كل مكان . ولعله كان يلزم لذلك أن تكلف لجنة من العلماء المختصين بالبحث عن الوسائل الناجعة فى إصلاح الرسم فى الفرنسية ، وأن يكون ذلك بصفة دائمة . كما يفعل الأطباء إذ يسهرون المريض حتى شفائه التام . وهذا العمل يستلزم وقتاً طويلاً ، إذ لا ينبغى أن يسار فيه إلا ببطء شديد . إذ أن هناك أسباباً كثيرة تبعث على التبصر فى هذا الأمر . وسنشير فيما يلى إلى بعضها .

فإذا قمنا بإصلاح شامل دفعة واحدة كنا قد استبدلنا مكان اللغة المكتوبة التى تعودنا عليها لغة كتابية أخرى جديدة . ويترتب على هذا أن نطرح وراء ظهورنا دفعة واحدة جميع المطبوعات التى نشرت بالفرنسية منذ قرون ، وهو أمر مستحيل ؛ هذا إلى أن مثل ذلك العمل يوجب على جيل أو جيلين من الفرنسيين أن يتعلموا لغتين بدلاً من لغة واحدة ، وإن هناك من العادات والتقاليد الأدبية ما لا يستطيع المرء أن يغيره بجرة قلم واحدة . وطبعاً من الواجب جعل الفرنسية

---

(١) و. برونه : فى توحيد اللغة الألمانية . فى Akademische Festrede ، هال (١٩٠٥) .

أسهل تحصيلا وأقرب منالا بالنسبة للأجانب . وعلى الفرنسيين الذين يرجون لقطرهم مستقبلا استعماريا ناجحاً ، أن يفكروا فى صعوبة كتابتهم الكفيلة بأن ينفر منها من يريد تعلمها من سكان إفريقية الوسطى أو الشرق الأقصى . ولكن يبدو أن صعوبات الكتابة الإنجليزية لم تعرقل نجاح الامبراطورية الإنجليزية . وإنه ينبغى بذر الاضطراب فى العادات التى درج عليها مواطنونا فى سبيل إرضاء بعض الأجانب . والواقع أن أقل تغيير فى قواعد الرسم كفيل بزعزعة العادات المكتسبة زعزعة ضارة . لأننا إذا طبقنا الحد الأدنى من الإصطلاحات التى يقترحها المصلحون ، لم تبق صفحة واحدة مكتوبة بالفرنسية دون أن تتغير تغيراً تاماً . ويتحتم على العين والفكر أن يظلا ساهرين على تصحيح ما يقع من أخطاء حتى يصابا فى نهاية الأمر بالملل . ولكن يمكن الإجابة على تلك الاعتراضات بأن الصعوبات الناشئة لا يمكن أن تؤثر على أكثر من جيل أو جيلين ، وأن ما نعمل نحن على نسيانه من العادات القائمة يوفر على أحفادنا مؤونة حفظه . وهذه إجابة وجيهة . ومع ذلك فإن الاعتراض ينبهنا إلى مقدار التبصر الذى يجب أن نراعيه فى كل إصلاح للرسم .

فإذا ما اقتصرنا على التبسيط التدريجى حسب خطة موضوعة ، فإننا نكون قد احترمنا حقوق اللغة الكتابية التى لا ينبغى لنا أن نهدرها .

يميل بعض العلماء إلى اعتبار اللغة المكتوبة خادماً مطيعاً للغة الكلام . وهذا رأى طائفة من علماء الأصوات وأساتذة اللغات الحية الذين يهتمون بالحد من تطرف أساتذة المدارس ، أولئك الذين يحصرون اللغة كلها فى اللغة الكتابية . ولكن ، هل يجوز لنا حقاً أن نقول بأن تلك الكلمة المكتوبة تنطق على هذا النحو وأن تلك الكلمة الملفوظة تكتب على ذاك ؟ وهل توجد الكلمة فى الصوت المنبعث من الفم أم فى الكتابة التى تسوّد وجه الصحيفة ؟ الواقع أنها بالنسبة لكل شخص متحضر توجد فى هذه وفى تلك على السواء . فكثير من المتحضرين يتفاهمون فيما بينهم بالكتابة أكثر مما يتفاهمون بالكلام . وأغلب الظن أننا إذا رجعنا إلى أصول الكتابة وجدنا أن اللغة المتكلمة هى المنبع الذى استمدت منه اللغة الكتابية. فعندما اعتزم ثلفيلا

Wulfila أن يسجل لغة القوطيين اجتهد فى أن يوجد لكل صوت من أصوات اللغة صورة كتابية مناسبة . وبهذا المعنى يصح لنا أن نقول إن الكتابة قد اقتفت أثر النطق . ويسير الحال على هذا المنوال فى أيامنا عندما يعمد أحد الجوابين إلى تسجيل لغة من لغات البدائيين لم تكن قد كتبت من قبل . طبعاً لا يدرك الأمى من الكلمة إلا صورتها السمعية ، ولكن عندما تنتشر الكتابة ويفرض تعلم القراءة على جميع أبناء القطر تزداد أهمية الكلمة المكتوبة شيئاً فشيئا .

واليوم لا نستطيع أن نتصور اللغة دون صورتها الكتابية . ولا تظهر الكلمات أمام أذهاننا إلا فى الثوب الذى يخلعه عليها الرسم . فيمكننا أن نقول هنا إن العضو قد خلق الوظيفة ؛ وأية وظيفة ؟ وظيفة بلغت من الطغيان حداً جعل اللغة المكتوبة تفوق اللغة الكلامية وضوحاً عند بعض الناس ، وهم أولئك الذين نطلق عليهم اسم البصريين . فنسمع بطلا من أبطال دى موسيه يقول بأنه لا يستطيع أن يفهم بوضوح إلا ما كان مكتوباً بالخط المستدير الجسم . هذه الفكاهة المسلية يمكن أن تنطبق على كثير من الناس . فهذا مثلا لا يفهم صفحة يسمعها ولا يحسن فهمها إلا إذا قرأها . وذلك لا يستفيد من درس يلقى عليه إلا إذا هىء له بعد ذلك أن يرى فحواه مطبوعة أمام عينيه . إن هذه حالة قصوى تلفت النظر بندرتها . ولكن إذا راقب كل منا نفسه بعض الشىء ، تحقق من قربه منها إن قليلا وإن كثيرا .

عند ما نسمع حديثاً ما نلاحظ فى أغلب الأحيان أن الكلمات تقرع فى نفس اللحظة جهازنا البصرى بقدر ما تقرع جهازنا السمعى ، بمعنى أن الأثر الواقع على المراكز السمعية ينتقل بدوره إلى المراكز البصرية . وحينئذ نبصر الكلمات التى تسمعها أذننا . بل نحن أيضاً عندما نتكلم نرى الكلمات التى نلفظها ، فتمر أمام عقلنا كأنها مسطورة فى كتاب مفتوح . والصورة التى تتخذها على شفتينا محددة غالباً بالمنظر الذى تظهر فيه أمام عقولنا . لذلك كان من خير الوسائل لتجنب أخطاء النطق أن نرجع إلى صورة الكلمة البصرية التى تصحب دائما صورتها السمعية فى ذهننا . وكذلك صورة الكلمة البصرية يصحبها عند القراءة إحساس سمعى ،

فنرانا نغنى لأنفسنا جمل الكتاب الذى نقرؤه ، وعندما نكتب ، نرى قلمنا يتبع الإشارات التى يمليها عليه الصوت الداخلى . فيمكننا أن نقول بأنه فى أثناء النشاط اللغوى لدى الشخص المتحضر العادى ، تشترك صور اللغة جميعها فى العمل .

اللغة الكتابية إذن ذات أهميــة عظيمة فى سيكولوجية اللغة ، فما دمنا نعلم القراءة والكتابة للاطفال ، يجب ألا نسقط من حسابنا حقوق اللغة الكتابية وإن تعارضت أحيانا مع حقوق اللغة الكلامية ، ولكن هذه الحقيقة لاتستبعد إمكان إصلاح الرسم . إذ من الطبيعى أن نعمل على تضييق الشقة بين اللغة الكتابية واللغة الكلامية . ولكن لاينبغى لنا أن ننسى أن الحصول على تعادل تام بين اللغتين أمر مستحيل ؛ وإذا كانت الكلمة توجد فى الصورة الكتابية وفى الصورة الكلامية على السواء ، فلعله ليس من الشر أن يوجد فى الرسم بعض وجوه من الشذوذ والنفور والعيوب. فبذلك تحفر صورة الكلمات فى الذاكرة بطابع أعمق. وإن غرابة اللباس تعبر بشكل أوضح عن الفكرة التى ترتديه .

يقول ڤولتير « الكتابة صورة الصوت ، فكلما قربت منه فى سيماها ، كانت خيراً » وهذا القول لايصدق إلا من الناحية النظرية ، ولا يمكن أن يتخذ مبدأ وطريقة إلا عندما يحتاج الأمر إلى وضع كتابة للغة جديدة . أما فى لغة كاللغة الفرنسية ، فإننا نحد من نطاق الكتابة دون مبرر ، إذا أردنا أن نجعل منها صورة للكلام. نعم أغلب الظن أن اللغة المكتوبة قد ولدت من اتفاق قام بين بضعة أفراد . ولكن هذا الاتفاق قد امتد حتى شمل المجتمع بأسره وفرض نفسه عليه بقوة صارمة. وليس العقل هو الذى ينظم حياتنا الاجتماعية ، بل العادة ؛ وحجج الفلسفة كلها عبث فى عبث أمام قدرة العادة . فعندما أريد الاستفادة فى العمل من نور النهار أطول مدة ممكنة ، كان المعقول أن تُغير مواعيد العمل ، لا أن تغير الساعة ؛ ومع ذلك فإن الساعة هى التى غيرت ، لأننا لم نقبل أن نتناول طعام الغداء فى الساعة الحادية عشرة إلا إذا أطلق على هـذه الساعة اسم الظهر . فنحن عبيد العادات الاجتماعية إلى هذا الحد ! والرسم هو إحدى هـذه العادات بالنسبة لكل شخص متحضر . فلا يمكن إصلاحه إلا بأشد الحذر وباستيحاء العادة نفسها.

خاتمـــــة

تقدم اللغـة

تقدم لنا الـكتابة مثالاً قائماً على تلك الأدوات التي يخلقها الإنسان والتي تستكمل مع الزمن جميع وجوه الـكمال التي يستلزمها الاستعمال أو يوحى بها . فبين العلامات التي كانت تحفر بالأمس على الأحجار وبين الحروف التي تطبع اليوم على الورق تقدم شاسع لا ينحصر في الناحية المادية وحدها .

يتوقع الإنسان أن يصل إلى مثل هذه الخاتمة في دراسة اللغة باعتبارها نتيجة عمل عقلي قامت به الأجيال المتوالية . أليست أداتنا اللغوية أيضاً تسير في طريق الإصلاح المستمر ؟ والتراكيب المتنوعة التي يصب فيها العقل الأصوات لـكي تترجم عن الأفـكار ، ألم تحقق هي أيضاً شيئاً من التقدم في خلال الأجيال ؟ واللغة تبدو لنـا في حركة دائمة ؛ أهي حركة خادعة تبلى مكانها في مجهودات عقيمة ؟ أم أن اللغة تهدف نحو غاية مثالية لا تني تقترب منها في كل خطوة من خطوات تطورها ؟ نحن نعرف تاريخ بعض اللغات في خلال فترات واسعة ممتـدة . ونراها في غالب الأجيال تتغير بسرعة عظيمة . فنحن إذن على حق أن نتساءل عن معنى هـذه التغيرات ، أو بعبارة أخرى أن نعرض على بساط البحث مسألة تقدم اللغة .

* * *

ولـكن من المناسب أولا وقبل كل شيء أن نحدد ماذا نعني بكلمة « تقـدم اللغة » . فأولئك الذين يستعملونها لا يفعلون أكثر من إدخالهم في علم اللغـة مصطلحاً من تاريخ الأدب . إذ أن العادة قد جرت وقتاً طويلا على اعتبار معنى التقدم في الأدب ديناً ومذهباً ؛ فـكان الناس لا يرون في تطور الأنواع الأدبيـة genres littérraires إلا صعوداً نحو الـكمال أو انحدارا إلى الانحلال . وهذا هو الرأي الـكلاسيكي الذي يذهب إلى أن الفن والذوق بعـد أن يصلا إلى درجة

كالها لا يسعهما إلا الانحدار والفساد . وعلماء الفيلولوجيا الكلاسيون قد نقلوا هذه الفكرة إلى الدراسة اللغوية متخيلين أنه يوجد فى تاريخ الإغريقية واللاتينية نقطة كمال وصلت إليها هاتان اللغتان بعد مجهودات طويلة ، ومن بعدها سارتا فى طريق الاضمحلال .

ففى اللاتينيــة كان شيشيرون هو المقياس ؛ ومع ذلك كان يروق لهؤلاء الباحثين أن يفتشوا فى كتاباته عن مواضع النقص ؛ فأبعدوا من آثاره الخطابات التى كان يكتبها لأصدقائه على أنها كم مهمل لا يليق بقــدره . واللاتينية الحقة عنــدهم تتلخص فى طائفة من الخطب والدراسات الفلسفية التى تركها الخطيب الكبير ، وقد يضيفون إليها شروح قيصر وتراجم كرنليوس نيپوس Cornelius Nepos . أما بقية الكتاب اللاتينيين فكانوا موضــع ريب أو رفض صريح . فلكريس Lucrèce كان خشناً قليــل العناية ؛ وپلوت Plaute متبربر لم يُصقل بعــد ؛ وسلوست Salluste موبوء بالحوشية ، وتيت ليف Tite - live يفوح بالريفية و Tacite غريب الأطوار مشتت الذهن ، كأنه يجد لذة فى الإكثار من الأخطاء اللغوية . وكانوا لايقدرون مؤلفى العصر الإمبراطورى إلا بمقدار اقترابهم ، بواسطة التقليد الأعمى ، من لغة شيشيرون التى قرروا أنها مقياس اللغة اللاتينية .

ويمكننا أن نقول هذا القول بعينه فى اللغة الإغريقية . وهذه الطريقة فى معالجة اللغات القديمة تقوم على الخلط الكريه بين اللغة الأدبية واللغة بوجه عام ، اللغة التى يتكلمها جميع الناس فى القطر كله والتى تتغير مع الزمن . نعم ، لعلماء اللاتينية أن يقرروا مثالا أعلى للغة اللاتينية وأن يفرضوه على طلاب هذه اللغة فى موضوعاتهم الإنشائية . فهذه خطة النحو المذهبى الذى يتلخص فى هــذه العبارة التقليدية : قل كذا ، ولا تقل كذا . واتباعها يتفق مع تقاليد الكتاب اللاتينيين الذين كانوا يرون فى شيشيرون أستاذاً ومثالا يحتذى . ولــكن هذه الخطة الصناعية لا ينبغى أن تطبق على دراسة اللغة .

ومع ذلك فهذا ما كان يعمله لغويو القرن المنصرم[1] الذين كانوا يقررون

(١) ولا سيما شليتشر : رقم ١٩٧ ، ص ٣٤ ؛ ورقم ١٩٨ ، مجلد ١ ، ص ١٣ — ١٧ .

لكل لغة مثلا أعلى من الكمال . وكانوا يجعلون هذا المثل الأعلى فى العهد الماضى ، وفى الماضى السحيق بطبيعة الحال . ويزعمون أنه كانت توجد فى العصر « البدائى » لغة كاملة ذات اطراد مطلق . وأنه لما كان التغير من قوانين اللغة ، كان من المحتوم أن يسير تطور اللغة بها إلى الا بتعاد عن مثلها الأعلى البدائى . لذلك يتكلمون عن هذا التطور اللغوى فى عبارات غريبة ، فهو عندهم تشويه أو تحريف أو فساد ! وليست لغاتنا الحديثة ، هذه المواليد المتأخرة الأوان التى رمى بها حظها العاثر فى شيخوخة الزمان ، إلا بقايا مزدراة ، أو على حد تعبير شليشر الألمانى ، إلا « فتاتاً تخرته العثة[1] » . فكلما تقادم عهد اللغة ، عظم جانبها من الاحترام . ويحكى أن عالماً شيخاً من علماء اليونانية القديمة سئل فى مسألة ما من مسائل الإغريقية الحديثة فرفض الإجابة بازدراء ، قائلا بأنه لا يقبل إطلاقاً أن يتعلم لغة تستعمل ἀπό فى موضع المنصوب[2] . فلعل هذا العالم كان يصفق إعجاباً بشليشر[3] المتقدم ذكره لو سمعه يقول بأن « التاريخ عدو اللغة » (die Geschichte, jene Feindin der Sprache) وهى كلمات حمقاء تجعل اللغة نفسها عدواً للحياة التى تغذيها .

من العبث أن نؤكد أن الفرض القائل بأن هناك لغة كاملة قدمت فى عهد سحيق مما قبل التاريخ فرض خيالى محض ، شأنه شأن الفكرة القائلة بأنه يمكن أن توجد لغة لا تتغير وتبقى جامدة فى سكونها أبد الآبدين . يجب أن نسلم بالتغير لأنه أمر حتمى ، وألا نستسلم للبكاء على العصر الذهبى ، لأنه عبث فى عبث سواء أكان ذلك فى اللغة أم فى غيرها . ثم أو ليس للتغيير مزاياه العديدة ؟ ذلك ما تقول به مدرسة أخرى أخذت وجهة النظر المخالفة للمدرسة السابقة على خط مستقيم وذلك بنقلها للمثل الأعلى للغة من الماضى إلى المستقبل[4] . أخذت هذه المدرسة

---

(١) رقم ١٩٦ ، ص ٢٧ .

(٢) يقال فى الإغريقية الحديثة : ἔλαβα γράμμα ἀπ' τὸν πατέρα μου « تلقيت خطابا من والدى » ، بيرنو : رقم ١٠٩ ، ص ١٨٠ و ص ٤٤٤ .

(٣) ١٩٨ ، مجلد ٢ ، ص ١٤٤ ، وقارن جسبرسن : ١٣٤ ، ص ٨ .

(٤) هذه المدرسة يمثلها جسبرسن خير تمثيل ، رقم ١٣٤ .

على عاتقها أن تردّ إلى اللغات الحديثة اعتبارها . وترى أن أكمل اللغات هي تلك التي قطعت في التطور أطول شوط وهي بذلك لا تؤدي إلا إلى إيقاظ تلك المعركة الخالدة ، معركة القديم والجديد ، بتطبيقها على المسائل اللغوية . وتتجدد هذه المعركة ، كل خمسين عاماً ، فتكشف لنا عن ميل الناس إلى الأشياء المتناقضة وعن الإغراء الذي توجهه إليهم الأشياء القديمة والأشياء الحديثة كل بدورها .

ولا شك أن بعض اللغات الحديثة كالفرنسية والإنجليزية تتمتع بأوفى قسط من المرونة واليسر والطواعية . فالفرنسية تمتاز خاصة بدقتها ووضوحها ، لا تطيق التبذل ولا الإغراق في المبالغة ولا ذلك البريق الذي تجيزه لغات مجاورة ، وإنما مسعاها الأول إلى الدقة الذي لا تحتاج إلى مزيد من شرح ولا تدعو حالتها إلى اعتذار عن تقصير على حد تعبير ڤولتير . ولكن هل يستطيع إنسان أن يدعى أن اللغات القديمة كالإغريقية أو اللاتينية تقلّ عنها شأناً ؟ وإذا كان علينا أن نختار من بين سائر اللغات تلك اللغة التي تستحق أن تكلل بالغار ، فمن يجرؤ على تضحية اللغة الإغريقية ؟ ومن ذاق مرة حلاوة هذه اللغة ذات الجوهر الرباني ، وجد كل لغة عداها ، إما تافهة وإما مرّة . ولسنا نتكلم عن الأفكار التي جعلت تلك اللغة وعاء لها ، ولا تلك الآداب التي تعتبر بحق مدرسة للحكمة والجمال . و « كنزاً من ذواء الروح » كما كان يتكلم المصريون عن كتبهم . فاللغة الإغريقية في شكلها الخارجي، دون أي اعتبار آخر ، تعدّ متعة عقلية معدومة النظير . وليس ائتلاف النغم ورقة الأصوات وثراء المفردات كل مزاياها ، بل ليست أقوم مافيها من مزايا . ففي ميدان النحو تمتاز الإغريقية من بين سائر اللغات بدقة دوالّ النسبة فيها التي ترهف تركيب الكلمات ، وبالمرونة الخفيفة التي تميز تنظيمها وتعمل على إظهار التفكير في كل قيمته وتحيط بكل حناياه ومنعرجاته ، وتكشف بشفافيتها عن كل دقائقه. ولا نعلم أن الوجود قد رأى أداة أكمل منها في التعبير عن الفكر الإنساني .

ولكن إذا علمنا أنه قد أمكن للغات أخرى من نوع آخر أن توفي بالحاجات المتنوعة التي تطلبتها أفكار لا تقل عن الأفكار الإغريقية ثراء وتعقيداً ، رأينا أنه من العبث أن نبحث عن المثل الأعلى للكمال اللغوي في نوع من اللغات دون سواه .

وقد يكون من المسلى أن يقوم إنسان بالبرهان على أن اللغة التى كتب بها هومير وأفلاطون وأرشميد تفوق لغة شكسبير و نيوتن ودارون أو تتخلف عنها . فقد أمكن لكل هؤلاء أن يعبروا تعبيراً تاماً عما أرادوا التعبير عنه ، ولكن بوسائل مختلفة . وكلهم يتساوون فى الفضل لأن كلا منهم أمكنه أن يجد فى لغته العبارة المساوية لفكرته . والواقع أننا لا نعلم إطلاقاً لغة قد قصرت عن خدمة إنسان عنده فكرة يريد التعبير عنها . فلا ننصت إذن إلى أولئك المؤلفين العاجزين الذين يحملون لغاتهم مسئولية النقص الذى فى مؤلفاتهم ؛ لأنهم هم المسئولون على وجه العموم عن هذا النقص .

نعم ، إن من حسن طالع الكاتب أن يجد أمامه تقاليد يسير عليها وأن يستعمل لغة قامت بتحضيرها وصقلها سلسلة طويلة من الكتاب . ولكن الأمر هنا لا يعدو الاختلاف فى درجة الصعوبة . يقول ديكارت Descartes فى « حديث المنهج » : « أولئك الذين يفكرون خير تفكير ويهضمون أفكارهم خير هضم ليجعلوها واضحة مفهومة ، يستطيعون دائماً أكثر ممن عداهم أن يفهموا الآخرين آراءهم ولو لم يتكلموا غير البريتانية السفلى » .

ومع ذلك فإن المسئولية لا تقع كلها على موهبة الكاتب وحدها . إذ يجب أن نعمل حساباً للوسط الذى يعيش فيه أيضاً . إذ لما كان المتكلم لا يتكلم إلا ليسمع والكاتب لا يكتب إلا ليقرأ ، كان من الضرورى للكاتب أن يجد له جمهوراً على درجة من الثقافة تسمح له بفهمه . لقد قال بوفون Buffon فى مثل ذلك : « لم نصل إلى الكلام الجدى والكتابة الجدية إلا فى العصور المستنيرة » . ولو أن بريتانياً أراد أن يكتب مؤلفاً فلسفياً بلغته ، لتيسر له ذلك على أرجح الفروض ؛ ولكن البريتانيين ، أوالذين يتكلمون منهم البريتانية على الأقل ، لايحفلون بالفلسفة لسوء الحظ؛ كما أن الفلاسفة لايفهمون شيئاً فى البريتانية على وجه العموم . ولذلك يخشى على صاحبنا ألا يقرأه إنسان ولا يفهمه إنسان . فطاقة اللغة تتوقف على عدد الذين يمارسونها ودرجة تعلمهم . وهذا هوالسبب فى أن اللغات الكلتية أقل قيمة من اللغات الرومانية أوالجرمانية . ومع ذلك فقد استطاعت الإرلندية والغالية طوال عصور

عديدة أن تعبّرا عن أفكار شعرية فائقة الجمال ، لعلها أصل ما خلّفته العصور الوسطى من هذا القبيل . وقد نأسف على أن دافيد أب جويليم Dafydd ab Gwilym لم يكتب بالإيطالية كما كتب دانتى أوبا لألمانية كما كتب فلفرم فون إيشنباخ Wolfram von Eschenbach : فكان يستطيع اليوم أن يتذوق شعره عدد كبير من الناس . ولكن ما معنى ذلك ؟ أين يذهب مجد هومير أو أفلاطون فى اليوم الذى يزول فيه تعلم الإغريقية من المدارس ؟ لا شك أن نعيق الغراب وتغريد العندليب يستويان تماماً يوم لا يجدان أحداً يصغى إليهما .

* * *

إذا تابعنا المناقشة المتقدمة ، أقحمنا أنفسنا فى طريق لايؤدى إلى غاية . فقيمة اللغات من الناحية الجمالية أو النفعية لا يصح أن يكون لها حساب فى الكلام على تقدم اللغة . فوهبة الكتاب تستطيع فى فترة من النشاط الأدبى القوى والرخاء الوطنى والسيادة السياسية ، أن تخلع على اللغة درجة من الكمال تكاد تكون مطلقة وبالتالى حالا من الهيبة تفرضها على الكون بأسره . وهذا ما تيسر للاغريقية فى العهد الأتيكى وللاتينيه فى عهد أغسطس وللفرنسية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . ولكن ينبغى فى الكلام على مسألة تقدم اللغة أن نغض النظر عن مثل هذا الكمال المؤقت الذى قد تصادفه هذه اللغة أو تلك . بل إن فكرة الكمال بعيدة عن تقدير التقدم إلى حد أننا لا نستطيع تبريرها إذا أردنا تطبيقها على جزء واحد من أجزاء اللغة ، كالأصوات مثلا أو الصور النحوية .

تمتاز بعض اللغات على بعضها الآخر بالانسجام والعذوبة ، ويمتاز بعضها على غيره بسهولة النطق . ومع ذلك فليس القصد إلى تزويد النطق ببعض المزايا التى تنقصه هو الذى يتحكم فى مصير التغيرات الصوتية . هذا إلى أن تقدير هذه المزايا يرجع إلى حد كبير إلى الذوق الشخصى ، ومن ثم يدخل فى المناقشة عنصر ذاتى من شأنه أن يزيفها من أساسها .

كذلك ليس من اليسير أن نبرر فكرة التقدم فى ميدان النظام الصرفى ، إذا اقتصرنا فى ذلك على البنية النحوية .

كان ميدان البحث اللغوى منذ أربعين عاماً يخضع للنظرية القائلة بأن اللغات تمر بحالات ثلاث على التتابع : حالة العزل وحالة الإلصاق وحالة الإعراب . وكان من المسلم به أن كل لغة من اللغات المعروفة كانت على إحدى هذه الحالا الثلاث وفقاً لمرحلة التطور التى عرفناها فيها . ومعنى ذلك أن هـذه النظرية كانت تسمى إلى حصر التقدم اللغوى فى النظام الصرفى[١] .

ما سبق أن قلناه عن تغيرات النظام الصرفى والروابط التى بين دوال النسبة والكلمات ، يكفى للحكم على ما فى تصور تاريخ اللغات على هذا النحو من زيف . لسنا ننكر أن العناصر النحوية آتية فى غالب الأحيان من بلى كلمات قديمة كانت قائمة بذاتها . وأننا قد نجد فى المفردات أصل اللواحق ، بل والزوائد التى عمل الزمان على إلصاقها بالكلمات المنتهية بها ؛ ومن ثم كان إلصاق العناصر التى كانت منعزلة فى بادىء أمرها يسمح للغات بأن تجدد نظامها الصرفى . ومن جهة أخرى ، كثيراً ما يعمل البلى الصوتى على اختزال طول الكلمات وهدم الإعراب وإرجاع الكلمات التى كانت قد صارت متعددة المقاطع إلى حالة وحدة المقطع ، أى إلى إحياء حالة الإلصاق من جديد .

ولـكن هذه الحالات المختلفة تنشأ عن أسباب تعمل جميعها فى وقت واحد فى كل اللغات : أسباب تؤثر على كل نقطة فى النظام الصرفى ويتوقف إخفاقها أو نجاحها المؤقتان على ظروف خاصة بكل لغة . هذا إلى أنّ التغير لا يكون تاماً إطلاقاً فـكثيراً ما تبقى الصيغ القديمة إلى جانب الصيغ المستحدثة ، حتى لنلاحظ فى النظام العام للغات التى لها تاريخ طويل والتى عانت تطوراً ضخماً كالفرنسية أو الإنجليزية مزيجاً من النظم التى تضم حالات مختلفة .

وهكذا كانت وحدة المقطع تعتبر فى يوم من الأيام من مميزات اللغة الإنجليزية . والواقع أن الإنجليزية تمتاز بصيغها القصيرة التى قد تصل إلى وحـدة المقطع ، بخلاف صيغ الإنجليزية القديمة المـكدسة بالمقاطع والمثقلة باللواحق والزوائد . وهذه نتيجة البلى الصوتى الذى كان بعيد المدى فى الإنجليزية . وكان يمكن للغة

---

(١) انظر خاصة هو فلاك : رقم ٨٤ ، مستيلى : رقم ١٨٢ ، وسيس : رقم ١٣٨ .

أن تقاوم هذا البلى كما فعلت لغات أخرى . فاللغات الرومانية مثلا تتجنب وحدة المقطع بإضافة اللواحق . إذ نقول فى الفرنسية soleil (شمس) حيث كان يقول اللاتينيون sol ، واستعضنا بالفعل gémir (il gémit : يئن) عن الفعل القديم geindre « il geint : يئن » (مقطع واحد) . وقد لوحظ أن اللغة الأسبانية لا تكاد تحتوى على كلمة واحدة تتكون من مقطع واحد .

ومع ذلك فلا ينبغي لنا أن نبالغ فى وحدة القطع الإنجليزية التى ليست فى غالب أمرها إلا مسألة ظاهرية محضة[1]. ولنحاذر أن نخدع هنا بالكتابة أو بالعادات التى يفرضها علينا استعمال كتب النحو والمعاجم : فكثير من بين الكلمات الإنجليزية التى يمكن تمييزها بالتحليل النحوى ، ليس لها وجود مستقل ، وكثير منها ليست إلا دوال نسبة أولا توجد إلا فى تراكيب ثابتة متصلة بدوال نسبة لا تستطيع الانفصال عنها . فجملة I do'nt know لا تحتوى على كلمات أكثر مما فى اللاتينية nescio . إذ أن العنصر know — وهو أكثر عناصرها دلالة — لا يستعمل منفرداً .

وكذلك العناصر الأخرى ليس لها وجود مستقل . وإنما هى أدوات نحوية غير قائمة بذاتها ؛ ولا توجد إلا بوصفها عناصر من مجاميع قائمة بذاتها . هذا إلى أن وحدة القطع فى الكلمات الإنجليزية الأصل قد تضاءلت فى وسط الكلمات التى استعارتها اللغة من اللاتينية والفرنسية . ونحن نعرف مقدار ترحيب الإنجليزية باستقبال الكلمات الأجنبية التى تراها مفيدة أو صالحة .

هذه العادة تسمح لها بألا تستعمل الاشتقاق فى مفرداتها إلا لماما . فبينما تراها تترك جانباً كبيراً من الكلمات الوحيدة القطع الموروثة من المتاع القديم على ما هى عليه دون أن تضيف إليها لواحق أو مزيداً من العناصر العرضية ، تراها فى الوقت نفسه تستقبل بين مفرداتها عدداً كبيراً من الكلمات الفرنسية أو اللاتينية المتعددة المقاطع عن طريق الاستعارة .

كما أن معارضة حالة التصريف بحالة العزل أو الإلصاق تبدو وهماً من الأوهام إذا رجعنا إلى الصورة الكلامية التى فيها تختلط هذه الحالات المختلفة فى تأليف

---

(١) جسبرسن : رقم ١٣٣ ، ص ١٠ .

يوفق بينها . فالمتكلم إنما يتكلم بجمل لا بكلمات منعزلة . والفرق الوحيد الذى يوجد بين اللغات ينحصر فى مكان دوال النسبة ، وفى طبيعة الرباط الذى يربط هذه الدوال بالكلمات . وهو اختلاف عرضي لا جوهرى . فلا نستطيع أن نستخلص منه قاعدة لتصنيف اللغات ، ومن باب أولى لا يمكننا أن نرى فيه عنصراً نقيس به مسألة التقدم اللغوى .

ولا ينبغى أن ننسى أن كل تجديد لغوى لا يمكن أن يكون إلا ضئيلا . إذ لا يوجد فى الميدان اللغوى كسب دائم يوفر للغة التى تحصل عليه ثراء نهائياً .

فالربح المكتسب عرض زائل فى كل الأحوال وكثيراً ما تقابله خسائر من ناحية أخرى . لقد رأينا كيف تمكنت الفرنسية من خلق أداة استفهام لها . ولزم لهذه الأداة ، كى تحيا وتشتد وتنمو ، تعاون ظروف عدة كلها عرضية . ويمكننا أن نتنبأ ، دون أن نتعرض لخطأ كبير ، بأن هذه الأداة بدورها ستفقد عن طريق التطور الطبيعى هذه التعبيرية التى تملكها الآن وتصير عديمة القيمة ثم تخرج من الاستعمال . هذا هو تاريخ كل ما تكونه اللغة . ونحن نعرف كيف نشأت أدوات الاستفهام اللاتينية ، على مالها من صلاحية وقوة فى التعبير؛ وكما أننا نعرف أيضاً كيف بادت . فعبارة Num uides « لعلك ترى؟ » ، إذا نطقت بنغمة الاستفهام صارت عبارة استفهامية فى حالة توقع جواب منفى « كلا » وعبارة videsne « لا ترى ؟ » ، إذا نطقت بنغمة الاستفهام صارت استفهامية كأنها « ألست ترى ؟ » وذلك فى حالة ما يكون الجواب المتوقع بالإيجاب : « بلى » . وكان ذلك ربحاً قيما للغة اللاتينية ولكنه لم يدم ؛ إذ لم يلبث أن تلاشى بفعل البلى الصوتى الذى حرم ne, num من قوتهما التعبيرية . فالتقدم ، إذا صح لنا أن نستعمل هذه الكلمة ، لم يكن إلا عابرا .

الخسائر أيضاً لا يمكن أن تفسر بافتراض التقدم . فما يؤسف له أن الفرنسية الحديثة قد صيّرت الزمنين الماضيين اللذين كانت تملكها وهما الماضى المحدد والماضى غير المحدد ، زمناً واحداً : مع أن الخلاف الذى كان يفرق بينهما كان خلافا حقيقياً ، وكان استعمالها يمكن القارىء من البيان عن معان دقيقة ، اختفت اليوم من الوجود

لاختفاء ما يُعبّر به عنها . ونحن نعرف السبب الذى أدّى بأحد هذين الزمنين (وهو الماضى المحدد على وجه العموم) إلى الضياع : وذلك أن الزمنين قد تكافآ وتعادلا ، لأن الماضى غير المحدد (من قبيل j'ai fait) ، كان فى بادىء أمره زمناً مركبا ثم اتحد جزآه وفقد القيمة الحرفية التى كانت لا تزال تُحس فى فعله المساعد . ومن الممكن أن تشعر اللغة ، بعد أن تمالى أثر هذا النقص ، بالحاجة إلى التعويض عنه ؛ فتصل يوماً بوسيلة ، إلى التمييز بين القصص البسيط الذى كان يعبّر عنه فيما مضى بالماضى المحدد (il fit) وبين الحدث الذى كان يعبر عنه بالماضى غير المحدد (il a fait) . ولكن سنظل حتى هذه اللحظة نتكلم لغة جرّدت من أحد عناصرها المفيدة . أما عن الماضى التابع غير التام L'imparfait du subjunctif فلا يمكن لأحد أن يشعر بمثل هذا الأسف على فقدانه ؛ ومع ذلك فقد كان هذا الزمن يقوم بكثير من الخدمات الجليلة ، إذ كان يسدّ فراغا كبيراً فى نظامنا الفعلى بتكميله لسلسلة الأزمان . ومع ذلك فلا معنى للأسف عليه . لقد اختفى بالرغم من جهود المدرسة لحفظه من الضياع ، إذ راح هو أيضاً ضحية لاتجاهات لا تستطيع الإرادة الإنسانية لها دفعا .

وإذا كانت قائمة الأرباح والخسائر على هذا النحو فى كل تطور صرفى ، فلن تستطيع الوصول إلى تحرير معنى التقدم. فكل تغير يقع على اللغة لا يصيب إلا جزئية خاصة من جزئياتها ، وليس له فى ذاته أثر عام . نعم ، لا شك أننا إذا نظرنا إلى لغة واحدة فى فترتين من تاريخها ، وجدنا أنفسنا أمام حالتين مختلفتين : فنلاحظ أن العناصر التى تكوّنها قد تغيرت وتبدّل مكانها وانقلبت ، ولكن الأرباح والخسائر تكاد تتعادل فى مجموعها . وقد بينا فيما سبق لماذا لا تستطيع اللغة مطلقا أن تصل بتطورها الطبيعى إلى الكمال المنطقى الذى يمنح منحاً إرادياً للغات قد وضعت وضعاً صناعياً من أولها إلى آخرها (انظر ص ٢١٣) . فالحالات المختلفة لكل تطور صرفى تذكرنا بالصور المختلفة التى نراها فى الكاليدوسكوب Kaléidoscope الذى يمكن للانسان أن يحركه دون خطة مرسومة فيتغير

ترتيب العناصر التى تكوّنه دون أن نحصل من هذا التغيير على شىء آخر غير ترتيب جديد .

ومع ذلك فإن كل شىء يتوقف على اليد التى تحرك الآلة .

والتطور اللغوى يعتمد اعتمادا وثيقاً على الظروف التاريخية ؛ فبين التطور اللغوى والظروف الاجتماعية التى تتطور فيها اللغة صلة وثيقة . إذ أن تطور المجتمع يستتبع تطور اللغة فى طريق معينة . لذلك يحق لنا أن نتساءل عما إذا كان تاريخ اللغة يمثل مرآة ينعكس فيها تاريخ الحضارات ، وإذا نظرنا إلى مسألة تقدم اللغة هذه النظرة ، رأيناها تبدو أمام أعيننا فى وضع جديد ، يجدر بنا الآن أن نناقشه .

***

كثيراً ما لوحظ أن تطور اللغات يزداد سرعة بازدياد انتشارها فى الخارج وبازدياد عدد الناس الذين يتكلمونها وتنوعهم . إذ أن انتشارها فى أقاليم تحتك فيها بلغات أخرى يعرضها لأن تفقد خصائصها الموغلة فى الذاتية ؛ والتأثير الذى يقع عليها من الخارج يؤدى بها إلى التغير السريع . فإذا ما قارنا لهجة موطن أصلى بلهجة مستعمراته ، تبين لنا أن هذه الأخيرة قد فقدت بعض القواعد النحوية الخفية الدقيقة : ذلك لأن التقاليد قد أبقت عليها فى مهبط رأسها ؛ ثم تلاشت بهجرتها بعيداً عن موطنها . من ذلك أن الاختلاف بين I shall و I will لم يعد له وجود فى الإنجليزية المتكلمة فى أمريكا : فلا يقال الآن إلا I will .

ومن جهة أخرى نرى أن حمل اللغة بعيداً عن موطنها يساعد الاتجاهات الكامنة فيها على التفتح بصورة أسرع وأكمل مما لو بقيت فى مكانها . ومن ثم ظهرت بعض المستحدثات فى الفرنسية المتكلمة فى كندا قبل أن تظهر فى غرب فرنسا الذى هاجرت منه الفرنسية إلى أمريكا فى القرن السابع عشر ؛ فالفرنسية الكندية تبدو فرنسية حوشية فى بعض نواحيها ، ولكنها فى البعض الآخر تسبق فرنسية فرنسا نفسها ، إذ أنها تخلصت قبل هذه الأخيرة من بعض السمات الميتة

التي عملت التقاليد على إبقائها [١] . كذلك الهولندية التي يتكلمها البور قد سبقت هولندية هولندا في طريق التطور [٢] .

اللغات التي لا تتنقل تعدّ لغات محافظة على وجه العموم . إذ أن اللغات التي لا تتكلم إلا في مساحة محكمة الحدود بعيدة عن ملتقى طرق المواصلات الكبرى — التي تختلط فيها الأجناس — ذات طابع حوشي بيّن في غالب الأحيان . فاللتوانية أكثر اللغات الهندية الأوربية حوشية ، لأنها لغة قوم زراعيين يقطنون إقليم غابات فقير ، في معزل عن الأقطار الأوربية الكبيرة . وأصلح الأماكن للمحافظة على سلامة اللغة هي الأقاليم الجبلية وأطراف أشباه الجزر حيث يضؤل التأثير الخارجي . ومن ثم احتفظت البسكية بطابعها لانحصارها بين وديان البرينيه ، وكذلك البريتانية لتحصنها وراء المحيط .

يؤثر السكن أيضاً على تطور اللغات . فإذا كان السكان مخلخلين متفرقين ، فإن هذا التبدد يساعد على الانقسام إلى لهجات . وإذا كان السكان يعيشون متجمعين في محلات ومدن ، فإن هذا النوع من الحياة يساعد على خلق اللغات المشتركة التي ليست في واقع الأمر إلا منزلة وسطى بين لغات الطبقات الاجتماعية المختلفة التي تضمها المحلة أو المدينة . ومن ذلك نرى أن التأثير الاجتماعي لا يعوق تطور اللغة أو يعجل به فحسب ، بل أيضاً يعين اتجاه هذا التطور ومداه . وكل ما قلناه فيما سبق عن أحوال اللغات المشتركة واللهجات واللغات الخاصة يصلح تمثيلا لهذا المبدأ العام .

وتوجه العوامل الاجتماعية نشاطنا العقلي أيضاً . فتاريخ اللغات حين يشمل فترة طويلة من الزمن ، يسمح لنا بأن نتبين بعض تأثير التطور الاجتماعي على عقلية البشر . وقد لاحظنا مثلا اتجاه اللغات العام نحو التخلص من الخصائص الغيبية لتسير في سبيل العقلية ونحو نبذ التعبير عن الأفكار المشخصة لترقى صعداً في معارج التجريد . ونحو اللغات الهندية الأوربية في أقدم صورها أكثر ذاتية

(١) جدس Geddes : Study of a Canadian French dialect, ونقل عنه Meyer Lübke في Monatschrift — Germ- Rom مجلد ١ ، ص ١٣٣ .

(٢) هـ . مير H. Meyer : Die Sprache der Buren ، جوتنجن (١٩٠١) .

وتشخيصاً مما صار إليه فيما بعد ، ففكرة الزمن فى الهندية الأوربية تكاد تنحصر فى التعبير عن الناحية الذاتية ، أى فى الدلالة على زمن الاستغراق ؛ وبمرور العصور اتجهت إلى التعبير عن فكرة الزمن بمعناه الحقيقى ، أى فكرة اللحظة .

وبحث لغات البدائيين يعضد هذه الملاحظة المستخرجة من التاريخ . فهذه اللغات تقدم لنا حالة لغوية ليس فيها نصيب أولا يكاد يكون فيها نصيب لما نسميه بالمدنية . فهى مفعمة بالفصائل المشخصة والخاصة وبذلك تختلف عن لغات المتحضرين ، التى تسير فيها الفصائل دائماً نحو التدريج والتعميم . ذلك أن البدائى يعبر بدقة نادرة عن جحفل من التفاصيل المادية التى تغيب عنا . ويوجه إلى الاعتبارات المكانية مثلا نصيباً من الالتفات يفوق النصيب الذى نوجهه نحن إلى الاعتبارات الزمنية . إذ أن الحدث يمثل فى ذهنه محصوراً بحيز . والروابط المكانية التى بين الأشخاص والأشياء يعبر عنها فى لغته بفصائل خاصة كالروابط الزمنية أو أكثر منها(١) . ونحن نعرف أن الزمن أرفع من المكان فى مرتبة التجريد . ومن ثم نرانا نحن المتحضرين نسقط من نظامنا الصرفى فكرة الحيز المشخصة ونقبل بارتياح على التعبير عن فكرة الزمن المجردة . وهذه نتيجة للمدنية .

لذلك نرى الطريقة التى تتلاشى بها الفصائل التشخيصية من اللغات تعضد أهمية الدور الذى تلعبه المدنية هنا . ومن أوضح الحالات التى من هذا القبيل حالة المثنى فى الإغريقية (انظر ص ١٣٤) . فاستعمال المثنى فى اللهجات مرتبط بدرجة المدنية : واللهجات التى فقدت هذا العدد منذ فترة ما قبل التاريخ هى نفس اللهجات التى كان يتكلمها أكثر الناس ثقافة . فلهجات المستعمرات سبقت فى ذلك لهجة الوطن الأصلى ؛ ونجد اللهجة الواحدة تحتفظ بالمثنى فى القارة وتفقده عندما تستعمل فى آسيا الصغرى أو فى الجزر . هذه القاعدة عامة وتخلو من الاستثناء إذا غضضنا النظر عن بعض اللهجات كالأتيكية حيث تتدخل تأثيرات خاصة وثانوية ، وإن كان تعرّف هذه التأثيرات تعرفاً جيداً يعضد القاعدة . ولهجات العواصم ، كما قلنا من قبل ، أشد محافظة من لهجات المستعمرات : لأن الأخيرة تمثل لغة صفوة سكان

---

(١) رقم ٨٨ ص ١٥٨ .

المدن الإغريقية ، لغة العنصر الذى يعد أكثر العناصر نشاطاً وذكاء وحيوية . ففى المستعمرات بدأت عوامل الحضارة فى الازدهار ، وكان الأدب فى مقدمة هذه العوامل . وعلى هذا ، فالاحتفاظ بالمثنى يبدو كما لو كان دليلا على حضارة متأخرة ، واختفاؤه على العكس من ذلك يدل على تقدم الحضارة .

ولكن ينبغى لنا ألا نبالغ فى أهمية المثل الذى استعرناه من اللغة الإغريقية ، لأن هناك أسباباً أخرى ، لغوية خالصة ، تفسر بدورها أن المثنى قد اختفى فى المستعمرات قبل أن يختفى فى العواصم (انظر ص٣٦٤) . ولكن المثل الذى ضربناه باللغة الإغريقية ليس مقصوراً عليها ؛ إن تاريخ معظم اللغات ليؤيده ، وحتى تلك اللغات التى لا تنضوى تحت لواء المجموعة الهندية الأوربية . ونفس بدعة حذف المثنى تراعى أيضاً فى اللغات السامية والفينية الأجرية . فاللغات التى تعد من أقدم اللغات السامية تقدماً ، لغات الحضارة القديمة كالأشورية والعبرية والآرامية والحبشية ، لم تعد تستعمل المثنى إلا فى بعض كلمات ذات دلالة مزدوجة ؛ أما اللغة العربية — التى كانت حتى القرن السابع الميلادى لغة بدو ذوى حظ يسير من الحضارة — فقد احتفظت بالمثنى فى الاسم والضمير والفعل ؛ ويمكننا أن نقول أيضاً إن درجة الحضارة تحدد درجة الاحتفاظ بالمثنى فى تاريخ اللغة العربية . وفى المجموعة الفينية الأجرية ، نرى أن اللهجتين اللتين احتفظتا بالمثنى هما أقل اللهجات تطوراً وهما اللهجتان القوجولية والأستياكية ، ولم نعد نعثر للمثنى على أثر لا فى الهنغارية ولا فى الفنلندية . وإذا هبطنا درجات فى سلم الحضارات ، وجدنا لغات تستعمل المثلث ، كما هو الحال فى لغات بعض الشعوب الأمريكية أو الاسترالية (١) .

ومما لا يحتاج إلى تنبيه أننا حين ندرس هنا العمليات النفسية التى تعد العدة للغة ، فإننا نغض النظر عن الظروف النحوية التى تتكون فيها اللغة لأنهما شيئان تجب العناية بالتفرقة بينهما . إن ضعف التشخيص لا يحول دون التعقيد النحوى . وليست هناك أية صلة تقام بين طبيعة أطوار النفس وبين العدد أو بين ما فى الفصائل النحوية من تعقيد . فالفصائل النحوية تعتمد قبل كل شيء على

---

(١) رقم ٨٨ ، ص ١٥٧

الذاكرة . والذاكرة عند البدائيين نامية عادة نمواً كبيراً . لقد فرضتها عليهم حاجيات كبيرة الأهمية وضرورات حيوية بالنسبة لهم . فنشاطهم العقلى لا تعاونه تلك الطرق العديدة التى تحل فى سهولة ويسر عند المتحضرين محل الذاكرة وتورثها الكسل دون أى ضرر فى ذلك . ويخيل إلىّ أنه لم يُهتم بعد بدراسة أثر الذاكرة فى تطور اللغات . مع أننا نشاهد بعض لغات غير المتحضرين قد ملئت بالصيغ المتنوعة وظلت بهذا الوضع زمناً طويلا جداً ، فنظمها الصرفية شديدة التعقيد أو أن مفرداتها كثيرة الثراء ، ومثل هذه اللغات مرتبطة دون شك بتطور عجيب للذاكرة . ومن الطبيعى أن تكون الذاكرة محافظة . وعلى هذا فليس البناء النحوى هو الذى يكشف عن آثار اختلافات الحضارة ، وإنما يكون ذلك فى العناية التى يعبر بها عن التفصيلات المشخصة . فهناك رابطة بين درجة الحضارة والطابع المشخص إلى حد ما لأطوار النفس .

وبما أن ظاهرة سير اللغة نحو التجريد مرتبطة بتطور الحضارة ، فإنها ترينا كيف يجب علينا أن نفسر الأمثلة السابقة . إننا نعلم تماماً أن اللغة تعدّ بمثابة انعكاس للضمير البشرى ، وأنها تعرفنا صورة النفس التى تحملها . ونفس الإنسان المتحضر أكثر قابلية للتجريد من نفس الإنسان البدائي لأن ظروف حياة المتحضر توجه العقل إلى الاعتبارات المجردة على حساب كل ما هو مشخص . فالتجارة تستلزم الحساب وبعبارة أخرى التفكير ؛ وتطور الحياة السياسية تحبذ عادة ذوق الآراء العامة ؛ وتمرين الفكر ينتقل بطبيعة الحال من الأمور المشخصة إلى الأمور المجردة . ونستطيع أن نحكم على ذلك بأنفسنا ، فلو أننا وازنا بيننا وبين أناس قريبى الجوار منا فأية فروق تتضح لنا ، من وجهة نظر التجريد ، بين العقليتين . والفلاح الأمى الذى يتكلم الفرنسية مثله تقريباً مثل غير المتحضر الذى ليس فى متناول يده للتعبير عن آرائه غير اللغة الفرنسية . وإن عقليته لتتصورها أداة ناقصة . وعلى هذا فهو لا يعجز عن أن يستكمل ما فيها من نقص ليجعلها صالحة لاستعماله . فهو يحيد بها عن المجردات ليسلكها فى المشخصات التى يهتم بها دون سواها . إنه ليدخل فيها مثلا أسماء الأصوات وصيغ التعجب ؛ وإنه ليحل المفردات محل

الفصائل المشخصة إذا غابت ؛ وهو يقضى على كل ما هو قطعى ومنطقى فى جملنا بإساءة نطقها وتفكيك أوصالها .

لا ينبغى لنا أن نعجب حين نرى لغة غير المتحضرين تفيض بالمصطلحات المشخصة التى يذهلنا ما فيها من تنوع وتحديد . وهى حالة نجدها فى كل اللغات الريفية . لقد شوهد ذلك فى اللغة الليتوانية ، حيث ألفت قصة بأسماء أصوات متتابعة(١) . ونستطيع أن نجد ذلك أيضاً فى رطانات الريف الفرنسى . فلنوازن بين قصة تؤلف بالرطانة الريفية الخالصة وبين خطاب يلقيه فى مدرسة المناطقة أحد كتابنا السياسيين ممن عاشوا فى القرن الثامن عشر . فالقصة تفيض بالمشخصات ؛ وهى مفككة ، ممجوجة ، لامنطق فيها إلا أنها رغم هذا كله جد معبرة . أما الخطاب فينطوى على تتابع عبارات مجردة وعامة ، متسلسلة كما لو كانت قضية منطقية . هذان ضربان من اللغة يمثلان ضربين من التفكير . ويجب ألا نطرب من فكرة أن لغاتنا الكبرى ذات الحضارة قد خلت تماماً من كل تصوف . إذ ليس هذا إلا فى الظاهر بحسب . لأن عنصر التصوف ليس فى اللغة وإنما فى الفكر . أو على الأصح فإنه إذا وجد فى اللغة فقد وجد من قبل فى الفكر . ومع ذلك ، فلسنا فى حاجة كبيرة إلى البحث طويلا فى لغة الأميين من عشيرتنا لنرى عنصر التصوف يظهر أمامنا فى خير مستقر له . فسلطان الاسم وخلق قصص أسماء الأعلام واستعمال الصيغ والرقى السحرية ، ومنع استعمال المفردات فى « فلكلور » ريفنا ، أيعد هذا كله شيئاً آخر غير عقلية المتخلفين عن الحضارة وقد تفتحت فى لغة المتحضرين ؟ .

ولكن بعد هذا كله ، لو أننا تصورنا طوفاناً سياسياً أو اجتماعياً قد اكتسح الحواجز الموجودة اليوم بين المجموعات البشرية وخلط ممثلى الطبقات والجنسيات والأجناس المختلفة بعضهم ببعض ، وقضى على حضارتنا القديمة واستبدل بها حضارة جديدة تقوم على أسس أخرى ، لو صح هذا كله ألن تكون اللغة أول

---

(١) Leskien : Schallnachahmungen und Schallverba im Litauischen ، رقم ٣٠ ، مجلد ١٣ ، ص ١٦٧ .

ما يصاب بهذا التغيير ؟ وهذه العقلية الصوفية والمشخصة التي كاد يقضى عليها فى لغاتنا الكبرى المشتركة ، ألن تعود لها قوتها لتشكل لغاتنا من جديد وفقاً لها وتفرض عليها عاداتها ؟ وماذا تصبح إذن اللغة الفرنسية ؟ لا أكثر ولا أقل من لغة قوم تخلفوا عن الحضارة . ستسلك طريقاً مضاداً للطريق الذى سلكته من قبل والذى أدى بها إلى حالتها الراهنة . ستنتقل من التجريد إلى التعبير بالمشخصات ، وستمتلىء بالفصائل الصوفية والذاتية . هل سيكون هناك ما يدعو إلى تقدم اللغة أو أنها تدور حول نفسها وتتأخر عما هى عليه ؟ لا هذا ولا ذاك ، على الأقل وفقاً لوجهة النظر اللغوية . وليس لنا أن نقيم وزناً للمزايا أو الأضرار ، التى تعد نسبية ، لتغير حضارة من الحضارات ، حتى ولا للعودة إلى مايسمى التبربر . وليس لنا الحق فى أن نعد لغةمن اللغات عقلية ومجردة ، فى مرتبة أعلى من لغة مشخصة وصوفية ، لا لشىء إلا أنها لغتنا . إننا فى مثل هذه الحالة نواجه عقليتين مختلفتين لا تعدم كل منها أن تكون لها مزاياها . ولا شىء يدل على أن أهل سريوس لا ينظرون إلى عقلية التحضر كما لو كانت مرادفة لفساد النوع .

ومن هذا ، نرى كيف ينبغى لنا أن ندرك افتراض التقدم اللغوى . التقدم بالمعنى المطلق لا سبيل إليه ؛ كما لا سبيل إلى التقدم المطلق فى الأخلاق أو فى السياسة . هناك أوضاع مختلفة يتلو بعضها بعضا ، وفى كل وضع منها تسيطر بعض قوانين عامة يفرضها توازن القوى الموجودة . وهذا ما يصيب اللغة . نستطيع أن نرى فى تاريخ اللغات بعض تقدمات نسبية . فهناك لغات تتلاءم مع بعض حالات الحضارة إن قليلا وإن كثيراً . فالتقدم يتكون من أن اللغة تتلاءم وحاجات المتكلمين بها على خير وجه . ومهما يكن هذا التقدم حقيقياً ، فإنه لن يكون نهائياً إطلاقاً . إن صفات لغة من اللغات تظل قائمة طالما احتفظ أهلها بنفس عاداتهم فى التفكير ؛ وإلا فهذه الصفات قابلة للفساد والاندثار والضياع . ومن الخطأ أن نعد اللغة كائناً مثالياً ، تتطور مستقلة عن البشر ، وتتبع أغراضها الخاصة بها .

إن اللغة لا توجد خارج أولئك الذين يفكرون ويتكلمون . إنها تمد جذورها فى أعماق الضمير الفردى ؛ ومن هنا تستمد قوتها لتتفتح على شفاه الناس . غير أن الضمير الفردى ليس إلا عنصراً من عناصر الضمير الجمعى الذى يفرض قوانينه على كل فرد من الأفراد . وعلى هذا فتطور اللغات ليس إلا مظهراً من مظاهر تطور الجماعات . فليس لنا أن نرى فيه سيراً فى طريق متصل نحو غاية محددة . وإن دور اللغوى لينتهى حينما يعلم أن اللغة لعبة تتقاذفها القوى الاجتماعية وردود أفعال التاريخ .

المراجع

ملاحظة : القائمة التالية لاتسمو إطلاقا إلى أن تعد ثبتاً كاملا للمسائل التى تتصل باللغة بل لاتزعم أنها تستوعب مراجع المسائل التى تعرضنا لها فى هذا الكتاب . وهى لا تضم إلا أهم المؤلفات التى تعد بتنوعها خير ما يعبر عن فكرة الظواهر المتباينة لعلم اللغة . لقد أفردنا للمؤلفات الفرنسية مكاناً يعتبر كبيراً نسبياً لنبين الدور الذى قامت به فرنسا فى تطور الدراسات اللغوية .

أولا : المجلات

١ — باللغة الفرنسية

Annales de Bretagne, Rennes, 1886 et suiv. ١

Année sociologique, Paris 1898 et suiv. ٢

Bulletin de dialectologie romane, Bruxelles 1909 et suiv. ٣

Bulletin de la Société de linguistique, Paris. ٤

Journal asiatique, Paris, 1822 et suiv. ٥

Mémoires de la Société de linguistique, Paris. ٦

La Parole, Paris. ٧

Revue Celtique, Paris, 1870 st. suiv. ٨

Revue internationale de Sociologie, Paris. ٩

Revue de métaphysique et de morale, Paris 1893 et suiv. ١٠

Revue de philologie, de littérature et d'histoire ancienne Paris, 1877 et suiv. ١١

Revue de phonétique, Paris, 1911 et suiv. ١٢

Revue des études anciennes, Bordeaux, 1897 et suiv. ١٣

Revue des études ethnographiques et sociologiques, Paris, 1908 et suiv. ١٤

Revue des études basques. ١٥

Revue des études grecques, Paris, 1888 et suiv. ١٦

Revue des langues romanes, Montpellier, 1870 et suiv. ١٧

٢ — باللغة الإنجليزية

American Journal of Philology, Baltimore. ١٩

Classical Philology, Chicago, 1906 et suiv. ٢٠

Classical Review (The), London, 1887 et suiv. ٢١

Harvard Studies in classical philology, Boston 1890 et suiv. ٢٢

Transactions of the Philological Society, London. ٢٣

٣ — باللغة الألمانية

Annalen der Naturphilosophie (Ostwald's Annalen). ٢٤

Archiv für das Studium der neueren Sprachen und Litteraturen,
Braunschweig, 1846 et suiv. ٢٥

Beiträge zur Geschichte der deutschen Sprache und Literatur
(Paul und Braune's Beiträge), Halle, 1874 et suiv. ٢٦

Beiträge zur Kunde der indogermanischen Sprachen
(Bezzenberger's Beiträge) Göttingen, 1877 et suiv. ٢٧

Finnisch-Ugrische Forschungen, Helsingfors, 1891 et suiv. ٢٨

Glotta, Göttingen, 1907 et suiv. ٢٩

Indogermanische Forschungen. Strassbourg, 1891 et suiv. ٣٠

Internationale Zeitschrift für allgemeine Sprachwissenschaft
Leipzig, 1884 et suiv. ٣١

Neue Jahrbücher für das Klassische Altertum, Leipzig 1898
et suiv. ٣٢

Wörter und Sachen, Heidelberg, 1909 et suiv. ٣٣

Zeitschrift der deutschen morgenländischen Gesellschaft,
Leipzig 1847 et suiv. ٣٤

Zeitschrift für deutsches Altertum (Haupt's Zeitschrift), Leipzig. 1841 et suiv. ٣٥

Zeitschrift für deutsche Wortforschung, Strassburg, 1900 et suiv. ٣٦

Zeitschrift für vergleichende Sprachforschung (Kuhn's Zeitschrift), Berlin, 1852 et suiv. ٣٧

Zeitschrift für romanische Philologie (Gröber's Zeitschrift), Halle, 1877 et suiv. ٣٨

Sitzungsberichte der kais. akademie des Wissenschaften. Wien 1848 et suiv. ٣٩

Berichte über die Verhandlungen des kön. sächs. Gesellschaft der Wissenschaften, Leipzig, 1848 et suiv. ٤٠

٣ — باللغة الإيطالية :

Archivio glottologico Italiano, Roma - Torino - Firenze 1873 et suiv. ٤١

Scientia, Bologna, 1907 et suiv. ٤٢

وتحتوى هذه المجلة أيضا على مقالات باللغات الفرنسية والإنجليزية والألمانية .

ثانياً : الكتب

١ — باللغة الفرنسية

L. Adam, Le genre dans les diverses langues, Paris 1883. ٤٣

Ch. Bally, Le langage et la vie, Genève 1913. ٤٤

Ch. Bally, Précis de stylistique, Genève 1905. ٤٥

Ch. Bally, Traité de stylistique francaise, Paris-Heidelberg 1909, 2 Vol. ٤٦

D. Barbelenet, De l'aspect verbal en latin, Paris 1913. ٤٧

PH. Berger, Histoire de l'écriture dans l'antiquité. Paris 1891. ٤٨

J. Bloch, La formation de la langue marathe, Paris 1914. ٤٩

M. Bonnet, Le latin de Grégoire de Tours, Paris 1890. ٥٠

E. Bourciez, Éléments de linguistique romane, Paris 1910. ٥١

Bourdon, L'expression des émotions et des tendances dans
le langage, Paris 1892. ٥٢

P. Boyer et N. Spéranski, Manuel de langue russe, Paris 1905. ٥٣

M. Bréal, Mélanges de mythologie et de linguistique, Paris 1878. ٥٤

M. Bréal, Essai de sémantique 3e édit. Paris 1904. ٥٥

F. Brunot, Grammaire historique de la langue française, Paris. ٥٦

F. Brunot, Histoire de la langue française, Paris, 5 vol. ٥٧

P. Cadière, Phonétique annamite, Paris 1901. ٥٨

L. Clédat, Dictionnoire étymologique de la langue française. ٥٩

L. Couturat et Leau, Histoire de la langue universelle, Paris 1903. ٦٠

A. Cuny, Le nombre duel en grec, Paris 1906. ٦١

A. Darmesteter, La vie des mots étudiée dans leur signification,
Paris 1887. ٦٢

A. Darmesteter, Cours de grammaire historique de la lan-
gue française. ٦٣

J. Darmesteter, Ormazd et Ahriman, Paris 1877. ٦٤

A. Dauzat, Essai de méthodologie linguistique, Paris 1906. ٦٥

Densusianu, Histoire de la langue roumaine, Paris 1901. ٦٦

E. Deschanel, Les déformations de la langue française, Paris 1898. ٦٧

G. Dottin, Manuel pour servir à l'etude de l'antiquité
celtique, 2e edit. Paris 1915. ٦٨

A. Dutens, Etude sur la simplification de l'orthographe Paris 1906. ٦٩

A. Ernout, Les éléments dialectaux du vocabulaire latin,
Paris 1909. ٧٠

G. Ferrand. Essai de phonétique comparée du malais et •
des dialectes malgaches, Paris 1909. ٧١

C. Fossey, Manuel d'assyriologie, t.I, Paris 1904. ٧٢

R. Gauthiot, Essai sur le vocalisme du sogdien, Paris 1913. ٧٢م

R. Gauthiot, La fin de mot en indo-européen, Paris, 1913. ٧٣

A. Van Gennep, Religions, moeurs et légendes, Paris 1908-1909 ٧٤

Gilliéron et Mongin, Etude de geographie linguistique
(Scier dans la Gaule romane) Paris 1905. ٧٥

Gilliéron et M. Roques, Étude de geographie linguistique, Paris 1912. ٧٦

J. Van Ginneken, Principes de linguistique psychologique
(traduit du hollandais) Paris-Amsterdam-Leipzig 1907 ٧٧

M. Grammont, Traité pratique de Prononciation française,
Paris 1914. ٨٧

M. Grammont, La dissimilation consonantique. Dijon 1895 ٧٩

L. Havet, Métrique grecque et latine 3e édit. Paris 1893. ٨٠

V. Henry, Précis de grammaire comparée du grec et du
latin 6e édit. Paris 1918 ٨١

V. Henry, Essai sur l'analogie, Paris, 1883. ٨٢

V. Henry, Antinomies linguistiques, Paris 1896 ٨٣

A. Hovelacque, La linguistique, 4e edit. Paris 1888. ٨٤

H. Hubert et M. Mauss, Melanges d'histoire des religions,
Paris 1909. ٨٥

C. Juret, Dominance et resistance dans la phonetique latine,
Paris 1913 ٨٦

B. Leroy, Le langage, Paris, 1905. ٨٧

L. Levy - Bruhl, Les fonctions mentales dans les sociétés
inférieures, Paris 1910. ٨٨

T. Loth, Les mots latins dans les langues brittoniques, Paris, 1892. ٨٩

V. Magnien, Le futur grec, Paris 1913. ٩٠

J. Marouzeau, la phrase à verbe être en latin, Paris 1910. ٩١

A. Mazon, Emploi des aspects du verbe russe, Paris 1914. ٩٢

A. Meillet, Aperçu d'une histoire de la langue grecque, 2e édit. Paris 1920. ٩٣

A. Meillet, Introduction à l'étude comparative des langues indo-européennes, 4e édit. Paris. ٩٤

A. Meillet, Caractères généraux des langues germaniques. ٩٥

A. Meillet, Recherches sur l'emploi du génitif-accusatif en vieux-slave, Paris 1897 ٩٦

A. Meillet, Les dialectes indo-européens. Paris 1908. ٩٧

Mélanges de linguistiques offerts à F. De Saussure, Paris 1908. ٩٨

Mélanges linguistiques offerts à A. Meillet, Paris 1902. ٩٩

Mélanges d'indianisme offerts a Sylvain Levi, Paris 1911. ١٠٠

Mélanges Louis Havet, Philologie et Linguistique, Paris 1909. ١٠١

G. Millardet, Étude de dialectologie landaise, Toulouse 1910. ١٠٢

Max Muller, La science du langage, trad. Harris et Perrot, Paris 1867. ١٠٣

Max Muller, Nouvelles leçons sur la science du langage, trad. Harris et Perrot, 1867—1868. ١٠٤

K. Nyrop, Grammaire historique de la langue française, 4. vol. Paris 1913. ١٠٥

G. Paris, Mélanges Linguistiques, Paris, 1906 ١٠٦

P. Passy, Étude sur les changements phonetiques, et leurs caractères généraux, Paris 1890. ١٠٧

H. Pernot, Étude de linguistique néo — hellénique, I, Paris 1907. ١٠٨

H. Pernot, Grammaire du grec moderne, Paris. ١٠٩

E. Renan, Essai sur l'origine du langage, 3e édit, Paris 1862. ١١٠

E. Renan, Grammaire générale et comparée des langues sémitiques, I. ١١١

T. Rosset, Les origines de la prononciation moderne étudiées au XVIIe siècle, Paris, 1911. ١١٢

L. Rousset, Eléments de Phonétique. générale, Paris 1911. ١١٣

P. Rousselot et F. Laclotte, Prècis de prononciation française, Paris. ١١٤

P. Rousselot, Principes de phonétique expérimentale, Paris 1897—1909 ١١٥

P. Rousselot, Les modifications phonétiques du langage étudiées dans le patois d'une famille de Cellefrouin, Paris 1892. ١١٦

Ch. Sacleux, Grammaire des dialectes swahilis, Paris 1909. ١١٧

Ch. Sacleux, Essai de phonétique avec son application à l'étude des idiomes africains, Paris 1905. ١١٨

L. Sainéan, L'argot ancien, Paris 1896. ١١٩

F. De Saussure, Mémoire sur le système primitif des voyelles dans les langues indo-européennes, Leipzig 1879. ١٢٠

F. De Saussure, Cours de linguistique generale, Paris-Lausanne, 1916. ١٢١

Ch-A. Séchehaye, Programme et méthodes de la linguistique théorique, Genéve- Paris- Leipzig, 1908. ١٢٢

P. Stapfer, Récréations grammaticales et littéraire, Paris, 1900. ١٢٣

A. Terracher, Les aires morphologiques dans les parlers populaires du nord-ouest de l'Angoumois, Paris 1914 ١٢٤

A. Thomas, Mélanges d'étymologie française, Paris 1902.
Essais de philologie française, Paris 1898. Nouveaux essais de philologie française. Paris 1905. ١٢٥

Ch. Thurot, La prononciation française depuis le commencement

du XVIe siècle d'après les témoignages de grammairiens, Paris 1881-1883, 2 vol. ١٢٦

Leite de Vasconcellos, Esquisse d'une dialectologie portugaise, Paris 1901. ١٢٧

H. Weil, L'ordre des mots, 3e édit. Paris, 1879. ١٢٨

D. Whitney, La vie du langage (trad. de l'anglais), 3e édit, Paris 1880. ١٢٩

٢ — باللغة الإنجليزية

Fr. Boas, Handbook of American Indian Languages (Smithsonian Lnstitution Bureau of American Ethnology, Bulletin 40), Washington 1911. ١٣٠

J. Byrne, General principles of the structure of language, London 1885 ١٣١

P. Giles, A short manual of Comparative Philology, 2e edit. London 1901. ١٣٢

O. Jespersen, on Growth and Structure of the English Language 2e edit. Leipzig 1912. ١٣٣

O. Jespersen, Progress in Language, 2e edit. London. ١٣٤

J. Morris-Jones, A Welsh Grammar, Oxford, 1913. ١٣٥

F.-W.-H. Migeod, The languages of West Africa, London, 1911—1913, 2 vol. ١٣٦

H. Oertel, Lectures on the Study of Language, New York and London, 1902. ١٣٧

A.-H. Sayce, Introduction to the Science of Languge, 2 vol, 3e édit. London, 1890. ١٣٨

Wheeler Scripture, The elements of experimental Phonetics, New York and London, 1902. ١٣٩

H. Sweet, Primer of Phonetics, 2e edit. Oxford, 1902.

D. Whitney, Language and the Study of Language. New York and London. ١٤١

٣ — باللغة الألمانية

Baudouin De. Courtenay, Versuch einer Theorie phonetischer Alternationen, Strassburg, 1895. ١٤٢

F. Bechtel, Die Hauptprobleme der indogermanischen Lautlehre seit Schleicher, Göttingen, 1892. ١٤٣

O. Behaghel, Geschischte der deutschen Sprache, Strassburg 1911. ١٤٤

F. Bopp, Vergleichende Grammatik des Sanskrit, Zend, Griechischen, Lateinischen, Letthauischen, Gothischen und Deutschen, Berlin, 1833. ١٤٥

K. Borinski, Der Ursprung der Sprache, Halle, 1911. ١٤٦

O. Bremer, Deutsche Phonetik, Leipzg 1893. ١٤٧

C. Brockelmann, Grundriss der vergleichenden Grammatik der semitischen Sprachen, Berlin, 1907—1908 2 vol. ١٤٨

O. Broch, Slavische Phonetik, Heidelberg, 1911. ١٤٩

K. Brugmann und B. Delbrück, Grundriss der vergleichenden Grammatik der indogermanischen Sprachen, 2e édit. Strassburg ١٥٠

Th-W. Danzel, Die Anfänge der Schrift, Leipzig, 1912. ١٥١

B. Delbrück, Grundfragen des Sprachforschung, 1901. ١٥٢

B. Delbrück, Einleitung in das Sprachstudium, 5e édit. Leipzig, 1908 ١٥٣

B. Delbrück, Zur Stellung des Verbums, Leipzig, 1911. ١٥٤

O. Dittrich, Grundzüge der Sprachpsychologie, I, Halle, 1904. ١٥٥

O. Dittrich, Die Probleme der Sprachpsychologie, Leipzig, 1914. ١٥٦

K.-O. Erdmann, Die Bedeutung des Wortes, 2e édit. Leipzig, 1910. ١٥٧

S. Feist, Europa im Lichte der Vorgeschichte, Berlin, 1910. ١٥٨

S. Feist, Kultur, Ausbreitung und Herkunft der Indogermanen, Berlin, 1913. ١٥٩

F.-N. Finck, Die Aufgabe und Gliederung der Sprachwissenschaft Halle, 1905. ١٦٠

F.-N, Finck, Die Haupttypen des Sprachbaus, Leipzig, 1910. ١٦١

F.-N. Finck, Die Sprachstämme des Erdkreises, Leipzig, 1909. ١٦٢

G. von der Gabelentz, Die Sprachwissenschaft, 2e édit, Leipzig, 1901. ١٦٣

O. Ganzmann, Ueber Sprach und Sachvorstellungen, Berlin 1902. ١٦٤

H. Gutzmann, Physiologie der Stimme und Sprache, Braunschweig 1909. ١٦٥

H. Hirt, Der indogermanische Ablaut, Strassburg, 1900. ١٦٦

H. Hirt, Die Indogermanen, ihre Verbreitung, ihre Urheimat und ihre Kultur, 2 vol., Strassburg, 1905—1907. ١٦٧

O. Hoffmann, Geschichte der griechischen Sprache, Leipzig 1911. ١٦٨

W. Horn, Untersuchungen zur neuenglischen Lautgeschichte, Strassburg, 1905. ١٦٩

W. Horn, Historische neuenglische Grammatik, I, Strassburg 1908 ١٧٠

H. Hübschmann, Das indogermanische Vocalsystem, Strassburg, 1885. ١٧١

K. Jaberg, Sprachgeographie, Aarau, 1908. ١٧٢

O. Jespersen, Lehrbuch der Phonetik, 2e édit, Leipzig, 1913 ١٧٣

F. Kluge, Urgermanisch, Strassburg, 1913. ١٧٤

F. Kluge, Von Luther bis Lessing, 4e édit. Strassburg, 1904 ١٧٥

F. Kluge, Unser Deutsch, 2e édit. Leipzig, 1910 ١٧٦

P. Kretschmer, Einleitung in die Geschichte der griechischen Sprache, Göttingen, 1896. ١٧٧

F. Mauthner, Beiträge zu einer Kritik der Sprache, 3 vol., Stuttgart, 1900—1902. ١٧٨

C. Meinhof, Grundriss einer Lautlehre der Bantusprachen 2e édit. Berlin, 1910. ١٧٩

R. Meringer und Mayer, Versprechen und Verlesen, Stuttgart, 1895. ١٨٠

W. Meyer—Lubke, Einführung in das Studium der romanischen Sprachwissenschaft, Heidelberg, 1901. ١٨١

F. Misteli, Charakteristik der Hauptsächlichsten Typen des Sprachbaus, Berlin, 1893. ١٨٢

L. Morsbach, Ueber den Ursprung der neuenglischen Schriftsprache, Heilbronn, 1888. ١٨٣

H. Möller, Semitisch und Indogermanisch, Kjöbenhavn, 1906. ١٨٤

F. Müller, Grundriss der Sprachwissenschaft, Wien, 1876—1888. ١٨٥

K. Nyrop, Das Leben der Wörter (trad. du danois par Vogt), Leipzig, 1903 ١٨٦

H. Osthoff, Das Verbum in der Nominalkomposition, Iena. 1877. ١٨٧

H. Paul. Prinzipien der Sprachgeschichte, 4e édit. Halle, 1909 ١٨٨

H. Pedersen, Vergleichende Grammatik der keltischen Sprachen 2 vol., Göttingen, 1909—1913 ١٨٩

P. Persson, Beiträge zur indogermanischen Wortforschung, 2 vol, Uppsala und Leipzig, 1912 ١٩٠

J. Poirot, Phonetik (aus dem Handbuch der physiologischen Methodik, hsggb. von R. Tigerstedt), Leipzig 1911 ١٩١

V. Porzezinski, Einleitung in die Sprachwissenschaft (trad. du russe par E. Böhme), Leipzig, 1910. ١٩٢

J. Von Rozwadowski, Wortbildung und Wortbedeutung, Heidelberg, 1904. ١٩٣

W. Scherer, Zur Geschichte der deutschen Sprache, 2e édit. Leipzig, 1878 ١٩٤

A. Schleicher, Compendium der vergleichenden Grammatik der indogermanischen Sprachen 1861 (4e édit., 1874). ١٩٥

A. Schleicher, Ueber die Bedeutung der Sprache für die Naturgeschichte der Menschen 1865. ١٩٦

A. Schleicher, Die deutsche Sprache, 2e édit, 1869 ١٩٧

A Schleicher, Sprachvergleichende Untersuchungen, 2 vol. 1848—1850 ١٩٨

J. Schmidt, Die Verwandtschaftsverhältnisse der indogermanischen Sprachen, Weimar, 1872 ١٩٩

O. Schrader, Sprachvergleichung und Urgeschichte, Iena, 1890. ٢٠٠

O. Schrader, Die Indogermanen, Leipzig 1911. ٢٠١

O. Schrader, Reallexikon der indogermanischen Altertumskunde, Strassburg, 1901 ٢٠٢

H. Schuchardt, Slawodeutsches und Slawoitalienisches. ٢٠٣

H. Schuchardt, Ueber die Lautgesetze gegen die Junggram--matiker, Berlin, 1885. ٢٠٤

E. Sievers, Grundzüge der Phonetik, 5e édit, Leipzig, 1901 ٢٠٥

H. Socin, Schriftsprache und Dialekte im deutschen, Heilbronn, 1888. ٢٠٦

H. Steinthal, Abriss der Sprachwissenscaft, 2e édit, Berlin, 1881 ٢٠٧

F. Stolz, Geschichte der lateinischen Sprache, Leipzig, 1911 ٢٠٨

J. Storm, Englische Philologie, 2e édit., 1892. ٢٠٩

W. Streitberg, Urgermanische Grammatik, Heidelberg 1894 ٢١٠

S. Szimonyi, Die ungarische Sprache, Strassburg, 1907 ٢١١

J. Szinnyei, Finnisch—ugrishe Sprachwissenschaft, Leipzig 1910 ٢١٢

A. Thumb, Die griechische Sprache im Zeitalter des Hellenismus,
Strassburg, 1901 ٢١٣

R. Thurneysen, Die Etymologie, Frieburg-i.-B, 1904. ٢١٤

M. Trautmann, Die Sprachlaute im allgemeinen und die Laute
des englischen, französichen und deutschen im besonderen
Leipzig, 1884—1886 ٢١٥

W. Viëtor, Elemente der Phonetik, 5e édit. Leipzig 1904. ٢١٦

W. Vondrak, Vergleichende slavische Grammatik, 2 vol.,
Göttingen, 1906—1908. ٢١٧

K. Vossler, Sprache als Schöpfung und Entwickelung,
Heidelberg, 1905. ٢١٨

K. Vossler, Frankreich's Kultur im Spiegel seiner Sprachen-
twickelung, Heidelberg, 1913. ٢١٩

J. Wackernagel, Studien zum griechischen Perfektum, Göttingen,
1904. ٢٢٠

D. Westermann, Grammatik der Ewe—Sprachen, Berlin 1907 ٢٢١

H. Winkler, Der grammatische Geschlecht, Berlin 1889. ٢٢٢

W. Wundt, Völkerpsychologie, Bd. I, Die Sprache, 3e éd.
Strassburg, 1911—1912 ٢٢٣

A. Zauner, Romanische Sprachwissenschaft, Leipzig. ٢٢٤

٤ — باللغة الإيطالية

M. Barone, Sui verbi perfettivi in Plauto e in Terenzio, Roma, 1908 ٢٢٥

M. Barone, Sull' origine del genere grammaticale nell'
indoeuropeo, Roma, 1909 ٢٢٦

F. Ribezzo, I deverbativi sigmatici e la formazione del futuro
indoeuropeo, Napoli, 1907 ٢٢٧

Trombetti, L'unita d'origine del linguaggio, Bologna, 1905. ٢٢٨

٥ — باللغة الدنمركية

O. Jespersen, Sprogets logik. Köbenhavn, 1913 ٢٢٩

H. Pedersen, Et Blik pa Sprogvidenskabens Historie, Köbenhavn, 1916 ٢٣٠

V. Thomsen, Sprogvidenskabens historie, Köbenhavn, 1902. ٢٣١

الملحق الأول

إن كتاباً فى علم اللغة فرغ من تأليفه عام ١٩١٤ يستدعى عدة تصحيحات ليجارى حالة العلم عام ١٩٢٤ . فقد حدث فى السنوات الأخيرة ، ولم يكن ذلك مجرد مصادفة ، أن كان علم اللغويات العام موضوع مؤلفات متنوعة ، لم ر من قبل ما يماثلها عدداً أو قيمة .

فكتاب « دراسة فى اللغويات العامة » تأليف الأستاذ فرديناند دى سوسير ، الذى نشر عام ١٩١٦ (الطبعة الثانية عام ١٩٢٢) لم يمكن الانتفاع به إلا بعد أن تم تأليف هذا الكتاب ، اللهم إلا بذكره مرجعاً مرة أومرتين فى ذيل الصفحات؛ وهو ينطوى على نظرات مبتكرة عميقه ، كان من المفيد أن توضح بها عدة فصول من كتابنا هذا .

وحينما قارب هذا المؤلف نهاية طبعه ، نشر الأستاذ م . مييه « علم اللغة التاريخى وعلم اللغة العام » وهو مجموعة مقالات ، يكوّن مجرد إلحاقها بعضها ببعض عنصر مذهب فيه سمة وانسجام . وبما أن معظم هذه القالات قد ظهرت من قبل فى مجموعات مختلفة ، فقد أفدنا منها وأشرنا إليها مع ذكر مواضع النشر الأصلية . وظهر فى نفس الوقت كتاب صغير يسمى « اللغويات أو علم اللغة » جعل فيه مؤلفه الأستاذ مروزو بصورة يسيرة واضحة المشاكل التى درسها اللغويون فى متناول الجمهور.

وظهر بعد طبع مؤلفنا هذا ، كتابان فى الطبقة الأولى يحمل كل منهما نفس العنوان « اللغة » : أحدهما تأليف الأستاذ سبير[١] والآخر تأليف الأستاذ جسبرسن[٢] . وكم كان المؤلف يود لو أنه استطاع الرجوع إليهما ليغذى ويزين بهما الكثير من المسائل التى عرض لها ، وكان يود لو انتفع بكتاب الأستاذ

---

(١) Language, An Introduction to the study of speech . — نيويورك عام ١٩٢١ .

(٢) Language : its nature , development and origin . لندن عام ١٩٢٢

ترومبتى (Elementi di glottologia في مجلدين ، بولونيا ١٩٢٢) حيث تدعم معلومات لغوية ، تكاد تكون مطلقة ، نظرية شخصية لتطور اللغة .

وقد كوّن بعض تلاميذ الأستاذ شوخارت Schuchardt ، بجمع منتخبات اختيرت في ذوق سليم من مؤلفات أستاذهم الواسعة ، كتاباً صغيراً لعلم اللغة العام يفيض بمعلومات قيمة ومفيدة . وهذا المؤلف — Hugo-Schuchardt Brevier (هال ١٩٢٢) هو حقاً كما يدل عليه عنوانه الثاني « ein Vademekun der allgemeinen sprchwissenschaft . »

ويتناول الأستاذ فرديناند برينو علم اللغة العام في كتابه « الفكر واللغة » (باريس ١٩٢٢) دون أن يخرج من النطاق الفرنسي ؛ وهو يطبق منهجاً جديداً لدراسة العوامل اللغوية بترتيبها وفقاً للأفكار التي يراد التعبير عنها . والنقد الذي يوجهه إلى التبويب التقليدي القديم يتفق مع بعض الملاحظات الواردة في باب الفصائل النحوية .

وهناك توجيهات كثيرة ومفيدة تؤخذ من كتاب الأستاذ ميّارديه Millardet « علم اللغة واللهجات الرومانية » (مونبليه وباريس ١٩٢٣) ؛ فقد تعرض فيه لمسائل أساسية تتناول المنهج اللغوي تعرضاً صريحاً وناقشها في حماس .

وأخيراً يقدم Festschrift Wilhelm Streitberg الذي ظهر حديثاً (هيدلبرج ١٩٢٤) كما يتبين من عنوانه الثاني عرضاً لحالة علم اللغة في أيامنا هذه ، وللواجبات التي تعرض للعاملين في هذا الميدان . ويلخص الأستاذ يونكر تلخيصاً وافياً الآراء السائدة في ألمانيا عن علم اللغه العام .

لا نريد أن ندعو القارىء للرجوع إلى هذه المؤلفات المختلفة ، فهي — حتى حين تعرض آراء تشبه ما بسط هنا — تتناولها من وجهة نظر مختلفة مع فهم القيم والنسب فهماً يختلف كل الاختلاف ؛ فكل منها يحتوي على أمثلة جديدة كان يمكن الاستفادة منها بإدخالها في هذا الكتاب أو استعمالها بدلا من الأمثلة الواردة فيه . إلا أنه ليس من بين هذه المؤلفات ما يبدو بطبيعته متطلباً تغييراً للطريقة العامة التي اتبعناها في مؤلفنا هذا ؛ وفي ذلك دليل على أن علم اللغة قد بلغ

درجة لا يمكن معها أن يتصور له كل إجمالى إلا فى صورة واحدة . ولعل جزءاً واحداً فقط يتطلب بعض التعديل ؛ وهو الجزء الأول الذى خصص للأصوات ، وذلك لأنه رتب فعلا وفقاً لنظام قد يبدو الآن قديماً . فبعد مؤلف الأستاذ جرامون المسمى « المماثلة » (باريس شامپيون ١٩٢٤) — ذلك الكتاب الذى يمهد به لمؤلفه فى « علم الأصوات العام » الذى نترقب صدوره — نرى طريقة أيسر وأقرب أيضاً إلى المنهج العلمى فى جمع الأحداث .

وقد كان ترتيب هذا الكتاب يحتمل فصلا سادساً فى آخر الجزء الرابع يخصص لتوزيع الأسر اللغوية على أرجاء العالم ، إلا أننا استبعدناه لأسباب عملية . غير أن الفكرة التى لم تكن ليشار إليها هنا إلا إشارة يسيرة ، قد تحققت اليوم بكل ما تتطلبه من إطناب بفضل كتاب « اللغات فى العالم » الذى نشرته جماعة من اللغويين (عند الناشر شامپيون) تحت إشراف الأستاذين مييه وكوهين . والحجم الذى اقتضاه هذا المرجع الكبير يبرر القرار الذى اتخذناه فى عدم معالجة المسألة فى كتابنا هذا .

وقد كان على المؤلف أن يبرز فى صورة أوضح وأن يزيد مذهبه ثباتاً ، وأن يجعل هذا المذهب على الأخص أكثر ملاءمة لتقدم علم النفس ، نظراً لما أبداه كثير من الفلاسفة من الاهتمام بهذا الكتاب . والكتاب الذى ينشره الآن الأستاذ دى لاكروا ويصدر فى نفس الوقت مع هذه الطبعة « الفكر واللغة » (باريس ، ألكان ١٩٢٤) ، يجعل هذه الرغبة عديمة الجدوى : لأن اللغويين جميعاً سيسرون بالعون الذى يمدهم به إخصائى مذهب قريب من مذهبنا . ومن جهة أخرى ، نرى فيلسوفاً ألمانياً هو الأستاذ ا . كسرر قد نشر حديثاً (عام ١٩٢٣) كتاباً عنوانه : , Philosophie der symbolischen Formen Ite Teil , die Sprache ، يمس فيه نقطاً جوهرية من علم اللغة العام .

***

ولو أن الظروف قد أتاحت طبعة جديدة لهذا الكتاب ، لا مجرد نشر جديد كما هى الحال هنا ، لاضطر المؤلف إلى أن يدخل عليه عدة تصحيحات وإضافات .

وقد وجد فى اللاحظات المنطوية على كثير من اللطف والتى وجهها إليه الأساتذة جرامون ، نييدرمان ، ل . كليدا ، ڤيجو بروندال ، ا . دوزا و ج . اسنو اقتراحات مفيدة كل الفائدة . وقد وجه إلى المؤلف كثير من الأصدقاء والزملاء — أمثال الأساتذة لالاند ، مركو ، مايرطبير ، ا م كسترو ، ى . يود — بيانات وملاحظات يشكرهم عليها كل الشكر . ومن جهة أخرى فإن قائمة المراجع قد زاد فى السنوات العشر الأخيرة زيادة كبيرة جداً ، وسنقتصر فيما يلى على ذكر أهم التعديلات التى يجب أن ندخلها على نص هذا الكتاب مصحوبة بذكر أهم المراجع .

ص ٢٩ ، يضاف إلى الهامش رقم ١ : V . Henry ، رقم ٨٣ : F. Ribezzo ، Eco della Cultura ، نابولى ، ك : ١٥ (١٩١٦) .

ص ٣٦ ، ه ٢ ، يضاف : G. Ballet , Le langage intérieur et les diverses formes de l'aphasie ، باريس ١٨٨٨ ؛ فى Le Traité, de Foix : Déjerine ؛ ٥ مجلد ، pathologie mentale de Sergent ، مجلد ٣١ Traité de médecine : Gilbert et Thoinot ؛ Sémiologie Sémiologie nerveuse , le chapitre sur l' aphasie .

ص ٣٨ ، فيما يتعلق بالأنتروبولوجيا قبل التاريخ ، انظر الآن الكتاب المفيد من تأليف الأستاذ : Boule L'homme fossile , éléments de paléontologie humaine ، باريس ، ماسون ١٩٢٠ .

ص ٣٩ يضاف إلى هامش ١ : « the genesis of speech : Fred Newton scott (publications of the Modern Language Association of America مجلد ٢٣ ، ٤ ، ١٩٠٨ ، ص ١ — ٢٩) .

ص ٥٠ ، سطر ٩ ، اقرأ : أسنانية (السين S الفرنسية والثاء الإنجليزية th فى thank أو thick ، فى وضع مخالف لطرف اللسان) .

ص ٦٦ ، س ١١ ، أضف بعد الأوسية : وقد لوحظت أيضاً فى مجموعة لغات البنتو . ص ٧٨ ، س ٢٢ ، أضف إلى آخر السطر : وفى مقاطعة Aberdeen (فى اسكتلندة) تنطق ال wh : f (W. Grant et I. M. Dixon

Manual of Modern Scots ، كبردج ، ١٩٢١ ، ص ٣٢) .

ص ٨١ ، س ٥ ، أضف : انظر Vesp. : Suétone ، ٨ ، ٢٢ .

ص ٨٨ ، هـ ١ ، يضاف : وص ١٧٢ ، ٥ ؛ قارن Vondrak رقم ٢١٧ ، ج ١ ، ص ٢٤٣ .

ص ٨٩ ، هـ ٢ ، يضاف Psichari ، رقم ٦ ، مجلد ٥ ، ص ٣٤٩ .

ص ١٠٤ : فى كل ما يتعلق بالمسائل التى يتناولها الجزء الثانى انظر الآن : « فلسفة النحو » تأليف جسبرسن The Philosophy of Grammar (لندن ١٩٢٤) .

ص ١٢٥ ، هـ ١ ، يضاف : Zur Logik der Sprachwissenschaft. H. J. Pos هيدلبرج عام ١٩٢٢ .

ص ١٣١ ، هـ ١ ، يضاف : مييه : « اللغويات التاريخية واللغويات العامة » ص ٢١١ .

ص ١٣٢ ، س ٤ : للتفرقة بين المادة الحية والمادة غير الحية فى الأسبانية والرومانية .

انظر Bourciez: Eléments de linguistique romane الطبعة الثانية الفقرات ٢٣٦ ، ٣٨١ ، ٤٩٩ ، ٥٣١ ؛ وانظر Millardet : Linguistique et dialectologie romane ، ص ٤٥١ .

ص ١٤٨ ، س ٥ : قارن Kr. Sandfeld — Jensen : der Schwund des infinitivs im rumänischen und den Balkansprachen (Rumänske Studier ، مجلد ١ عام ١٩٠٢) .

ص ١٦٤ ، س ١ : ومن هنا يأتى ما وقع فيه پسكال من خطأ ، إذ يعترض على إمكان وجود تعريف للكائن بحجة أن كل تعريف لهذه الكلمة يجب أن يبدأ بـ « أنه C'est » وفى هذا افتراض لا يطلب إثباته (de l'Esprit géomet-rique)

ص ١٧٦ ، س ١ : لأحداث مشابهة فى اللغة الروسية ، يرجع إلى Boyer Spéranski ، رقم ٥٣ ، ص ١٦ ، هـ ٥ .

ص ١٨٢ ، فيما يختص باللغة الفاعلة ، يرجع إلى Der Wor- : Wegner tsatz رقم ٣٠ ، مجلد ٣٩ ، ص ١ — ٢٥ .

ص ١٨٢ ، ﻫ ١ : يضاف Aufsätze zur romanis- : Leo Spitzer chen Syntax und stylistik ، هال عام ١٩١٨ .

ص ١٨٨ ، ﻫ ٢ : يضاف L'ordre des mots en : J. Marouzeau latin ، رقم ١ Les formes nominales باريس ١٩٢٢ .

ص ١٩٧ ، س ١٠ : قارن ﻫ. پول ، رقم ١٨٨ ، ص ٢٨٥ وما بعدها .

ص ٢٠٥ : فيما يختص بالقياس ، كمبدأ للمحافظة ، يرجع إلى فرديناند دى سوسير ، رقم ١٢١ ، ص ٢٤٢ .

ص ٢٠٨ : فى المقابلة بين النحو وحصر المفردات أى بين القعّد وغيره ، انظر فرديناند دى سوسير ، رقم ١٢١ ، ص ١٨٧ .

ص ٢٣٤ ، ﻫ ٢ : الكلمة لمكس مولر . ﻫ ٣ ، يضاف إردمان ، رقم ١٥٧ ص ١٠٧ .

ص ٢٣٥ ، س ١٥ : انظر Court de Gébelin : « العالم البدائى ، تحليله ومقارنته بالعالم الحديث ، منظوراً إليه من ناحية التاريخ الطبيعى للكلام ، أو أصل اللغة والكتابة مع ردّ على نقد مجهول » . باريس ١٧٧٥ .

ص ٢٥٧ ، ﻫ ٢ يضاف : مييه « لغويات تاريخية ولغويات عامة » ص ٢٤٤.

ص ٢٦٣ — ٢٦٤ : توجد أمثلة أخرى فى Dottin : «Quelques faits de sémantique dans les parlers du Bas-Maine . » (Mélanges Wilmotte) ، باريس ، شامپيون ١٩٠٩ .

ص ٢٦٦ : فيما يختص بما بين اللغتين الألمانية والفرنسية من فرق فى علاقات كل منهما بروح المحافظة ، انظر الملاحظات الدقيقة التى أبدتها مدام دى ستايل Mme de Staël فى كتابها : De l'Allemagne ، الجزء الأول ، الفصل ١٢

ص ٢٧٢ : يضاف هامش ما يلى : فرديناند برينو : رقم ٥٧ ، مجلد ١ ، ص ١٣١ ؛ مييه : « لغويات تاريخية ولغويات عامة » ص ٢٦٤ . كل الفصل يتطلب مراجعة على ضوء الآراء التى أوردها الأستاذ جيليرون Gilliéron فى كتبه:

«Généalogie des mots qui ont désigné l'abeille. » باريس ١٩١٨
« La faillite de l'étymologie phonétique . » نيفقيل ١٩١٩ ؛
« Les étymologies des étymologistes et celles du peuple. »
باريس ١٩٢٢ .

ص ٢٨٠ ، س ١٠ و ١١ : يقرأ sich erbrechen بدلا من ausbrechen

ص ٢٨٠ ، س ٢٠ : usqiman « يقتل » ويضاف Verbleichen و dahingehen و dahinscheiden « يموت » .

ص ٢٨٢ ، فقرة : « لا ينحصر الأثر الناجم ..... » فيما يختص بهذه الفقرة راجع إردمان : رقم ١٥٧ ، ص ١١٤ .

ص ٢٨٨ ، الفقرة الأخيرة : قارن Leo Spitzer : Uber einige Wör- ter der Liebessprache ، ليبزج ١٩١٨ .

ص ٢٨٩ : يمكن أن تشير أيضاً إلى تأثير لغة الصيادين، قارن Nicolas Edgar « Les expressions figurées d'origine cynégétique en français » أبسالا ، عام ١٩٠٦ .

ص ٣٠٧ : فى الشروط التى يجب أن تتوافر للغة مشتركة عالمية ، انظر خاصة مييه : « اللغات فى أوربا الحديثة » ، باريس ١٩١٨ .

ص ٣١٠ : فى الجغرافيا اللغوية ، يرجع إلى كتاب صغير قيم للأستاذ دوزا « الجغرافيا اللغوية » (باريس ، فلامريون ١٩٢٢) .

ص ٣١٤ : عن لغة الشعر فى العصور الوسطى ، يرجع إلى Gertrud Wac- ker : Dialekt und Schriftsprache im Altfranzosischen (Beiträge zur Geschichte der romanischen Sprach und Litteraturen ، رقم ٢ ، هال عام ١٩١٦) .

ص ٣١٥ : عن العامية الخاصة ، انظر الأستاذ G. Esnault : « مجلة الفيلولوجيا الفرنسية والأدب » مجلدات ٢٧ و ٢٨ و ٣٥ ، وكتابه : Le poilu tel qu'il se parle ، باريس ١٩١٩ .

ص ٣١٨ : يدخل فى رطانات الطلبة الألمانيين عدد كبير من كلمات اللهجات (قارن Kluge : Studentensprache ، ص ٦٥) .

ص ٣٢٠ : الأستاذ شيرون فى مجلة (المدرسة الفرنسية فى الشرق الأقصى ، رقم ٥ و ٤٧) ذكر وجود لغات خاصة يستعملها فى التوشكان باعة الخنازير والحبوب والنوتية والمغنيات ، وكل هذه اللغات مشوهة من الأنامية .

ص ٣٣١ ، هـ ١ يضاف Navarro Tomas : Manual de pronunciación española ، مــدريد ١٩١٨ ، J. J. Nunes : Compendio de grammatica historica portuguesa ، لشبونه ١٩١٩ .

ص ٣٣٣ ، هـ ٣ : يضــــاف F. Kluge : « Deutsche Sprachgeschichte, Werden und Wachsen unserer Muttersprache von ihren Anfängen bis zur gegenwart.

ليبزج عام ١٩٢٠ .

ص ٣٣٦ : أما فيما يختص بالعلاقات بين إنجليزية اسكتلندة والانجليزية العادية فيرجع إلى W. Graut et J. M. Dixon : Manual of Modern Scots (كمبردج ١٩٢١) . أما فيما يتصـــــل بمسألة اللغات فى النرويج ، فيرجع إلى Ragnual dlversen : Bakmal og Talemaal i Norge (١٥٦٠ — ١٦٣٠) كريستيان ١٩٢١ ، وخاصة يرجع إلى A. Burgun « التطور اللغوى فى النرويج منذ عام ١٨١٤ » كريستيان ١٩١٩ — ١٩٢١ .

ص ٣٣٧ ، هـ ٢ : يضاف M. G. Bartoli : Alle fonti del Neolatino estratto dalla Miscellanea di studi in onore di Attilio Hortis تريستا ١٩١٠ .

ص ٣٤٨ ، هـ ١ : يضاف G. Hempl : « Language Rivalry and speech differenciation in the case of Race - mixture. » (من دراسات الرابطة الأمريكية للفيلولوجيا ، مجلد ٢٩ ، ١٨٩٨) ؛ وارجع الآن إلى دراسات الأستاذ مار Marr ونظريته عن « اليافثية » التي تقول بوجود عدة لغات

مختلطة (Recueil Japhétique بترغراد ١٩٢٢ — ١٩٢٣ ؛ Japhetitische Studieu zur Sprache und Kultur Eurasiens ، ليبزج — برلين) .

ص ٣٥٢ : توجد اليوم جماعة من السكان تتكلم اللغة البروفنسية فى ڤرتمبرج بيورست (فى نيوهنجستت) وفى پنـاشى — سرّ ، قارن Morosi ، رقم ٤١ مجـلد ١١ ، ص ٣٩٣ و A. Rosoger : Neu Hengstett (Bursel), Ges-chichte und sprache einer Waldenserkolonie in Württemberg Greifswald 1883.

ص ٣٦٥ : فيما يختص باللغة الأسپانية التى يتكلمها سكان جزائر ماريان ، انظر مقال العالم الدنمركى K. Wulff فى Festschrift V̄ تومسن ١٩١٢ .

ص ٣٩٣ ، الفقرة الثانية : انظر التطور الذى يعد شديد الغرابة لنظام الـكتابة الذى اخترع فى أيامنا هذه فى الـكمرون بواسطة نجويا ، ملك الـكمرون (دلافوس مجلة علم الأجناس والتقاليد الشعبية ، ١٩٢٢ رقم ٩) .

ص ٣٩٥ ، هـ ١ ، يضاف : أدولف قطاوى بك : شامپليون وفك رموز الهيروغليفية ، القاهرة ١٩٢٢ ؛ وخاصة Sottas و Driotton ، مقدمة فى دراسة الهيروغليفية ، باريس ١٩٢٢ .

ص ٤١١ هـ ٢ : G. Paris : Mélanges linguistiques ، باريس ، شامپيون ١٩٠٦ — ١٩٠٩ (ملحق : تاريخ الرسم فى اللغة الفرنسية) .

ص ٤٢٧ ، يضاف : لبيـان المستقبل (H. L. Hencken : « اللغة الأمريكية » ، الطبعة الثانية ، نيويورك ١٩٢١ ، ص ١٧٨ — ١٧٩) . ويضاف إلى الهامش : Louvigny de Montigny : اللغة الفرنسية فى كندا ، أتاوا عام ١٩١٦ .

ص ٤٢٩ ، هـ ١ ، يضاف : ليڤى بريل : العقلية البدائية ، باريس ١٩٢٢ .

ص ٤٣٨ : E. Bourciez : Eléments de linguistique romane الطبعة الثانية ، ١٩٢٣ . Densusianu. ؛ « تاريخ اللغة الرومانية » المجلد الأول، باريس ١٩٠١ ، المجلد الثانى ، الجزء الأول ، باريس ١٩١٤ .

ص ٤٤٣ ، Die Bedeutung des wortes : K. O. Erdmann ،
الطبعة الثالثة ، ليبزج ١٩٢٢ Geschichte der Griechis- : O. Hoffmann.
chen Sprache ، الطبعة الثانية ، عام ١٩١٦ .

ص ٤٤٥ ، Einführung, etc. : W. Meyer-Lübke ، الطبعة الثالثة ،
هيدلبرج ١٩٢٠ .

ص ٤٤٦ ، Sprachvergleichung und Urges- . O. Schrader
chichte ، الطبعة الثالثة ، ١٩٠٧ وص ٤٤٧ Romanische Spra- : A. Zauner
chwissenechaft المجلد الثانى الجزء الأول، الطبعة الرابعة ، ١٩٢١ ؛ المجلد الثانى
الطبعة الثالثة عام ١٩١٤ .

ص ٤٤٨ يضـــاف Nutidssprog hos boern : O. Jespersen
voxne. og ، كوبنهاجن ١٩١٦ .

الملحق الثانى

لقد انقضى على تأليف هذا الكتاب عشرون عاماً ظهر خلالها فى جميع البلاد عدد من النظريات أو الاكتشافات الجديدة التى غيرت علم اللغة . وعليه يجب إدخال زيادة محسوسة على الملحق القصير المكون جزئياً من قائمة مراجع ، والذى أضيف إلى الطبعة الثانية ، ليتعرف القارىء كل التقدم الذى تم فى هذا الميدان . وإن أردنا أن نجعل الكتاب مجارياً للحالة الحاضرة وجب مراجعة جميع الفصول مراجعة دقيقة ، وإعادة كتابة بعضها ، وسنقتصر هنا على بعض البيانات الأساسية.

أما فيما يختص بعلم اللغة فهناك كتابان على درجة من الأهمية ييسران مايتعلق به تيسيراً كبيراً : أحدهما هو الكتاب السنوى للجرمانية الهندية الأوربية Indogermanisches Jahrbich ، وهو يفسح حالياً مع المجلة التى يصدر عنها Indogermanische Farschungen مكاناً لعلم اللغة العام يتسع يوماً بعد يوم . والآخر هو نشرة الجماعة اللغوية Bulletin de le societé , de linguistique التى يقوم الأستاذ مييه بتحرير الجزء الأكبر منها ، وحيث يبين كل سنة فى عناية كبيرة قيمة المؤلفات التى تظهر حديثاً . ومجموعة بياناته التى بلغت حداً كبيراً من التنويع والثراء تمدنا بتاريخ حقيق للاتجاهات ، كما أنها تعرض الآراء عرضاً نقدياً فى نفس الوقت .

وقد وفق لغويون من جميع البلاد إلى تنظيم أول مؤتمر دولى لهم عقد فى لاهاى عام ١٩٢٨ ، فعاد ذلك على دراستهم بأجل الفوائد . وعقد مؤتمر ثان فى جنيف عام١٩٣١ ثم ثالث فى روما عام ١٩٣٣ ، وينشر دائماً لهذه المؤتمرات تقريرات مفصلة . والتقرير الخاص بثالثها لا يزال تحت الطبع . وتقدم هذه المؤتمرات بفضل برامجها التى توضع فى حكمة نتائج ذلك العلم الذى قد أصبح علما بالفعل مع بيانات مفيدة لهذا العلم الذى لا يزال فى دور التكوين . وهذه المؤتمرات تساعد فى نفس الوقت على تنظيم بعض المسائل العملية كمسألة المصطلحات التى عينت لها

لجنة . وقد أقدم المسيو ماروزو فى شجاعة على القيام بأول محاولة لهذا العمل فى معجمه للمصطلحات اللغوية (باريس عام ١٩٣٣) .

وقد تكوّن خلال السنوات الأخيرة مركزان للدراسات اللغوية أولهما مفتوح على مصراعيه للمسائل التى تتعلق بالنظريات وبالطريقة العلمية ؛ أحدهما فى أوسلو وهو يصدر مجلة Sprogvidensk Norsk Tidskeift for والآخر ببراج ؛ وأعمال المركز اللغوى ببراج قد فتحت الطريق لمنهج جديد سنتحدث عنه فيما بعد . وأخيراً تكونت فى أمريكا جماعة لغوية وهى تنشر فضلا عن نشرة لغوية دورية خاصة عنوانها « اللغة » مجموعات من الدراسات فى موضوعات معينة . وهذه المراكز الجديدة تظهر حيوية الدراسات اللغوية فى العالم ، أما وجد قبل الآن من هذه المراكز اللغوية فلم تنقطع عن العمل والإنتاج .

وبعد ما نُشر فى علم اللغة العام مما سبق ذكره فقد شاهدنا أيضاً فى السنوات الأخيرة ظهور المبادئ فى النحو العام principes de grammaire générale كوبنهاجن عام ١٩٢٩ للأستاذ Lovis Hjelmslev ومؤلف الأستاذ (cenni sloricie summario di bnguistia arcoeuropea, A. pagliaro questioni teoriche (روما عام ١٩٣٠) ومؤلف الأستاذ بالى Bally « اللغويات العامة واللغويات الفرنسية » باريس عام ١٩٣٢ ومؤلف الأستاذ بلومفيلد Bloomfield « اللغة » نيويورك عام ١٩٣٣ . وهذه المؤلفات وبينها اختلافات واضحة من عمل لغويين إخصائيين ، ولكن المشكلات اللغوية ما زالت موضع اهتمام الفلاسفة وخاصة علماء النفس الذين يدين لهم اللغويون بمعلومات قيمة . وإذا لم نتكلم عن كتاب الآنسة دى لاجونا Mlle de Laguna : الكلام ، وظيفته وتطوره Speech , its function and development نيوهيفن عام ١٩٢٧ ، فقد ظهر فى السنوات الأخيرة مجلد ثالث للأستاذ كاسيرر Philosophie der symbolischen ormen (Phenomenologie der Erkenntnis برلين عام ١٩٢٩ ، وظهرت طبعة جديدة تنطوى على زيادة كثيرة للكتاب القيم تأليف الأستاذ دى لاكروا « اللغة والفكر » باريس عام ١٩٣٠ . ويحتل علم النفس أيضاً

مكاناً واسعاً فى مؤلف عالم لغوى هو Weisgerber عنوانه Muttersprache und Geistesbildung جوتيجن عام ١٩٢٩ . ومما يظهر إظهاراً أوضح ما بين علماء النفس واللغة من اتفاق نجد هو نشر مجلد من مجلة علم النفس عام ١٩٣٣ ، خصص للغة . وقد عرض فيه مساعدون أتوا من كل البلاد آراء مبتكرة تتعلق بعدة مسائل أساسية فى علم اللغة .

ويبدو أن علم الأصوات هو الذى طرأ عليه أعمق التجديدات . لقد أنشأ جماعة من اللغويين ينتمون إلى هيئة براج ، منهجاً جديداً هو « الصوتيات » (La phonologie) مستوحين فى ذلك الآراء التى ذكرها من قبل بودوان دى كورتنيه وفرديناند دى سوسور . فالصوتيات تتميز عن علم الأصوات (la phonétique) بأنها ترجع دراسة الأصوات إلى حيز الأحداث اللغوية . والصوتيات تنظر إلى الأصوات لا كوحدة قائمة بذاتها ولكن وفقاً للدور الذى تؤدية كعوامل لها دلالتها فى النظام اللغوى . وقد حفز تطبيق هذا المبدأ على القيام بعدة بحوث نشرت خاصة فى أعمال المركز اللغوى ببراج فأظهرت إنتاجه الخصب . وفى نفس الوقت كان الأستاذ أدوارد هرمان يناقش من جديد مسألة القوانين الصوتية فى: Lautgesetz und Analogie (Abhanblungen der Gesellschaft der wissenschaften) ، جوتنجن ١٩٣١ ؛ بينما كان فان جنكن يعمل على إبراز أهمية الوراثة فى التغيرات الصوتية وخاصة فى (تقرير مقدم إلى المؤتمر الدولى الثالث للغويين) . وتتصل بالأصوات دراسه وزن الشعر التى تناولها من جديد فيما يختص بالفرنسية الأستاذ بول ڤربيه (الشعر الفرنسى ، مجلدان ، باريس ٩٣١ — ١٩٣٢) . وتناولها من وجهة نظر عامة الأستاذ ا . دى جروت فى « العروض العام والوزن » « la métrique générale et le rythme » (نشرة الجمعية اللغوية مجلد ٣٠ ، ص ٢٠٢) وفى كتاب « الوزن » der Rythmus (نيوفيلوجوس عام ١٩٣٤). وقد نشر الأستاذ ب . فوشيه (عام ١٩٢٧ ، ستراسبورج) « دراسات فى علم الأصوات العام » حيث يتناول بنوع خاص اتحاد حروف اللين بعضها مع بعض وتداخل الحروف الساكنة . غير أن أهم كتاب خصص لعلم الأصوات هو بلا ريب

كتاب الأستاذ موريس جرامون Traité de phonétique « دراسة فى علم الأصوات » باريس ، ١٩٣٣ ، الذى كان ينتظر صدوره بفارغ الصبر ؛ وقد عرض فيه المؤلف بصورة كاملة نظريته الخاصة التى تسود جميع أعماله العلمية مدعماً ذلك بالأمثلة . وهذه النظرية قد تعدل أو تناقض أيضاً بعض النقط فى المعلومات التى بسطناها هنا فى الفصول المخصصة لعلم الأصوات .

ومراجع الفصول الأخرى تتطلب إضافات جديدة ، نورد فيما يلى أهمها :

ص ١٢٥ ، Albert Sechehaye : « محاولة فى دراسة التكوين المنطقى للجملة » باريس عام ١٩٢٦ ، ف . روندال : Ordklassernes, Studier over de sproglige Kategorier ، كوبنهاجن ١٩٢٨ .

ص ١٣٥ ، G. Guillaume : Temps et mode, théorie des aspects, des modes et des temps ، باريس ١٩٢٩ .

ص ١١٨ ، F. Boillot : Psychologie de la construction dans la phrase française moderne. باريس ، عام ١٩٣٠ ؛ W. Havers : Handbuch der erklärenden Syntax ، هيدلبرج ١٩٣١ .

ص ٢٤٦ ، ظهر الجزء الخامس والأخير من كتاب نيروب : Ordenes liv, عام ١٩٣٢ .

ص ٢٩٥ ، أتو جسبرسن : « النوع البشرى ، الأمة والفرد من وجهة نظر لغوية » أوسلو ١٩٢٥ .

ص ٣٠٨ ، فيما يتعلق بمسألة لغة دولية مساعدة ، انظر أعمال المؤتمر الثانى للغويين ، ص ٧٢ وما يليها .

ص ٣٣٠ ، ا. دوزا : تاريخ اللغة الفرنسية ، باريس ١٩٣٠ ؛ و. فون وتربرج « تطور وتركيب اللغة الفرنسية » ليبزج — برلين ١٩٣٤ ؛ ويوالى الأستاذ فرديناند برينو نشر كتابه العظيم (رقم ٥٧) وقد ظهر الجزء الأول من المجلد الثامن عام ١٩٣٤ .

ص ٣٣٣ ، S. Feist : Die deutsche Sprache ، الطبعة الثانية ،

ميونخ ١٩٣٣ ؛ Alois Bernt : Die Entstehung unserer Schrifts-prache. برلين ، عام ١٩٣٤ .

ص ٣٦٧ ، ا. مييه : « الطريقة المقارنة فى اللغويات التـاريخية » ، أوسلو ١٩٢٥ . والمسائل الخـاصة بالقرابة اللغوية وبالجوهر قد تجددت بدراسة الأستاذ كر . سندرفيلد : « لغويات بلقانية ، مسائل ونتائج » باريس ١٩٣٠ . ويرجع أيضاً إلى دراسة الأستاذ جكبسون فى أعمال الهيئة اللغوية ببراج ، المجلد الرابع ، ص ٢٣٤ عن خطوط الحدود الصوتية .

ص ٣٧٣ ، Herman Jacobsohn : Arier und Ugrofinnen ، جوتنجن ١٩٢٢ ؛ Albert Cuny : Etudes prégrammaticales sur le domaine des langues indo-européennes et chamito-sémitiques باريس ١٩٢٤

ص ٣٨٣ ، فيما يتعلق بالنحو المقارن للغات القوقازية ، نشر الأسـتاذ ديمزيل مجموعة من الدراسات (باريس ، شامپيون ، ١٩٣٢ و ١٩٣٣) تواجه وتنـاقش عدداً من المسـائل الجديدة .

ص ٤٠٥ ، فيما يختص بالرسم نرى أن كتاب ڤان جنكن : Grondbeginse-len Van de schrijfwijze der nederlandsche taal (هيلفرسـوم ١٩٣١) وإن كان قد كرس خاصـة للغة الهولندية إلا أنه يقدم آراء شخصية ذات طابع عام .

ويجدر بنا أخيراً أن نذكر كتاب الأستاذ هـ. بدرسن : « علم اللغة فى القرن التاسع عشر » (مطبعة جامعة هرڤارد ١٩٣١) ؛ وهو مترجم عن اللغة الدنمركية ، ويعرض فيه الأستاذ القدير ما قام به لغويو القرن الماضى من أعمال مقدراً لهم ما بذلوا من جهود علمية .

الملحق الثالث

لقد بدا لنا من المفيد أن نقدم فى ملحق ثالث بعض البيـانات المتعلقة بأهم المطبوعات التى ظهرت فى السنوات الأخيرة ، وذلك ربما يتيسر لنا أن نقوم بمراجعة دقيقة على الأقل لمختلف فصول هذا الـكتاب إن لم يكن بصياغتها من جديد ؛ وهو أمر نرجو أن يتم تحقيقه بعد أن مضى خمسة وعشرون عاما على صدوره . فالفترة الحالية هى بالفعل من أخصب الفترات ، ونشاط العلماء — فى جميع أنحاء ميدان علم اللغة الفسـيح — بعيد كل البعد عن التوانى ، بل هو يبعث كل يوم على ابتكارات جديدة تمحص الطرق القديمة أو تبتكر طرقاً جديدة بدلا منها .

وكان بعض تلاميذ وأصدقاء الأستـاذ أنطوان مييه قد عزموا على أن يظهروا بالاتفاق معه ، ملحقاً لـكتابه « اللغويات التاريخية واللغويات العامة » الذى يرجع صدوره إلى عام ١٩٢١ ، وذلك بمناسبة الاحتفال بعيد ميلاده السبعين . وقد ظهر فى أواخر عام ١٩٣٧ مجلد ثان يضم المقالات ذات الطابع اللغوى العام التى نشرت بين عامى ١٩٢١ و ١٩٣٦ . ولـكن لم يتيسر للأستاذ مييه أن تقر عينه بتمام هذا العمـل ، لأن الموت فاجأه فى ٢١ من سبتمبر عام ١٩٣٦ ، بعد أن قاسى المرض شهوراً طويلة ، فترك فقده فراغاً كبيراً فى الدراسـات اللغوية أحست به جميع الأقطار . فهو لم يـكف حتى اليوم الأخير من حيـاته ، لا عن الاطلاع على أقل الأعمال التى يقوم بها غيره فحسب ، بل كان يساهم بدراساته الخاصة فى تقدم هذا العـلم . وقد خصصت له « جماعة علم اللغة » كتيـباً يقع فى ثمان وستين صفحة ، ويشمل فضلا عن ترجمة حياته ، بياناً كاملا لمؤلفاته قد رتب وفقاً للتواريخ والمواد (باريس ، كلينكسك ١٩٣٧) . ويظهر لنا هذا الـكتيب فى نفس الوقت قيمة الرجل وأهمية أعماله العلمية .

ولقد تابعت المؤتمرات الدولية ، التى كان مييه أول العاملين على عقدها والذى ظل يحبذها فى حماس ، جلساتها الدورية فى توفيق كبير . فقد عقد المؤتمر الرابع

للغويين اجتماعاته فى كوبنهاجن عام ١٩٣٦ ؛ وتمدّ العدة الآن لعقد مؤتمر خامس فى صيف عام ١٩٣٩ فى بروكسل . وفى نفس الوقت تتابعت المؤتمرات الدولية لعلم النفس وعلم الأجناس ، وقد نال علم اللغـــة فيها مكاناً له أهميته ، كل ذلك عدا المؤتمرات التى خصصت لدراسات معينة مثل الشرقيات والرومانيات والسلافيات. وتعقد لعلم الأصوات مؤتمرات خاصة منذ عام ١٩٣٢ ، (عقد ثالثها بمـدينة جاند « بيلجيكا » عام ١٩٣٨) . وقد نالت للمرة الأولى دراسات أسماء الأعلام وأسماء الأجناس والأماكن شرف مؤتمر دولى عقد بباريس عام ١٩٣٨ . وهذه المؤتمرات المختلفة يتبعها نشر أعمالها العلمية مثل : — (أعمال المؤتمر الدولى الثالث للغويين ، فلورنسا ١٩٣٥) ، وهى تطلع الناس على الآراء والاتجاهات الجديدة والمناقشات التى دارت حولها .

يمكن أن نجد أيضاً فائدة كبيرة فى كتب « المنتخبات » التى يزداد عددها يوماً بعد يوم ، تلك الـكتب التى تقدم هدايا لعلماء بارزين فى الاحتفالات اليوبيلية. وقد كُرِّم فى السنوات الأخيرة الأساتذة : ا. بوازاك ، ا. كوك ، يابرج ، تاپوليه جريرسون ، ماثيسيوس ، ميسكولا ، سلڤيردا دى جراف ، وديروسو وغيرهم من العلماء ، لقد كرموا بمختارات يستطيع اللغويون أن يستمدوا منها الشيء الـكثير من المعلومات . والمختارات التى قدمت أخيراً للأساتذة هرمان هيرت وپ . كرتشمير وپدرسن وڤان جنيكن وبالى ، لها أهمية كبيرة من جهة العدد وتنوع المواد التى تناولتها . وهناك نوع من المختارات يتكوّن من جمع أعمال مختلفة يوزعها المهدى فى كتب يصعب فى الغالب الحصول عليهـا ، ونحن نوصى بها خاصة ، لـكبير فائدتهـا . وقد كُوِّن على هذا النمط « لينجويستيكا » للأستاذ أتو جسپرسن و Kleine Schriften للأستاذ Wilhelm Schulze (عام ١٩٣٣).

وقد ازدادت المجلات اللغوية فى السنوات الأخـيرة ازدياداً كبيراً . ويحسن أن نذكر كثيراً l'Archivio glottologico Italiano ، وظهـور Studi Baltici ومجلة المركز اللغوى بـكوبنهاجن ، والمجلة اللغوية ببوخارست ، ومجلة الدراسات الهندية الأوربية ببوخارست أيضاً . وقد تابع المركز اللغوى ببراغ نشر

أعماله ، فقد ظهر مجلد سادس بمناسبة المؤتمر الدولى الرابع للغويين وقد أهدى إلى هذا المؤتمر . ومحاضرات المعهد اللغوى بباريس ، الذى يعقد جلسات سنوية ، تظهر بانتظام فى مطبوعات منفصلة (ظهر الجزء الخامس منها عام ١٩٣٨) .

أشرنا فيما سبق إلى تقدم علم الصوتيات ، وهذا المذهب الجديد الذى أصبح ينتمى إليه المركز اللغوى ببراج ، قد بعث على وضع كتاب جامع فى الموضوع هو الصوتيات للأستاذ Van Wijk (عام ١٩٣٩) ، فضلا عن عدد وفير من الدراسات التى تناولت جزئيات الموضوع . أما النحو المقارن بالمعنى الصحيح ، الذى يعدّ فى غنى عن تجديد طرقه ، فقد ضمّ إلى ثروته عام ١٩٣٥ كتابين مبتكرين لها فيه أثر بعيد ، وضع أولها الأستاذ بنفينست : « أصول تكوين الأسماء الهندية الأوربية » ، وألف الثانى الأستاذ Kurylowicz « دراسات هندية أوربية » . وهذان المؤلفان يدينان بما ورد فيهما من آراء جديدة إلى اكتشاف وتفسير النصوص الحديثة التى فك رموزها الأساتذة هروزنى وسومير وفردريك وغيرهم ، والتى وضع لها كتاباً فى النحو كل من الأستاذين سترتفان ودلابورت . ومما يجدر الإشارة إليه بين الكتب العامة التى ظهرت أخيراً علاوة على الفراغ من « نحو الهندية الجرمانية » لهيرمان هيرت ، كتابى الأستاذين Bühler : Sprach-theo-rie, die Darstellungsfunktion der Sprache (عام ١٩٣٤) ، و Hjelmslev : La Catégorie des Cas (عام ١٩٣٥) . ودراسة عوامل تركيب الجمل ولا سيما فى علاقاتها بالأسلوب فقد تناولها الأستاذ ماروزو فى كتابه : Traité de stylistique appliqueé au latin (عام ١٩٣٥) وفى كتابه : « ترتيب الكلمات فى الجملة اللاتينية ، الجزء الثانى ، الفصل (عام ١٩٣٨) . ولم يكن عدم ذكرنا لكتابا الأستاذ W.Schmidt : Die sprachfamilien und sprachenkreise der Erde . (عام ١٩٢٦) إلا مجرد النسيان .

وقد كانت « اللغة » الفرنسية فى المدة الأخيرة موضوع مؤلفات مختلفة ذات طابع عام ، قام بها لغويون ممن عرفت مقدرتهم العلمية . ويؤسفنا حقاً أن يبقى « تاريخ اللغة الفرنسية » غير كامل ، وهو ذلك المؤلف الجليل الذى وضعه المرحوم

الأستاذ فرديناند برينو ، الذي وافاه أجله فى أوائل عام ١٩٣٨ ، ولم يظهر من كتابه هذا شىء بعد المجلد السادس عشر . ويحتل الصدارة ، من بين الأعمال الشاملة ، تلك الدراسة الواسعة التى قام بها الأستاذان داموريت وپيشون : « من الكلمات إلى الفكر ، بحث فى نحو اللغة الفرنسية » وهو كتاب ينطوى على عدد وفير من الملاحظات العميقة التى تتعلق بتركيب اللغة الفرنسية للتخاطب فى أيامنا هذه وعن اتجاهات اللغة ؛ وقد ظهر الجزء الخامس عام ١٩٣٦ . ومن المؤلفات ذات الموضوعات المعينة ، يجب علينا أن نذكر أعمال الأستاذ بلنكنبرج : « نظام الكلمات فى اللغة الفرنسية الحديثة » والأستاذ س . دى بور : « مقدمة لدراسة تركيب الكلام فى اللغة الفرنسية » و ك . ساندفيلد : « تركيب الكلام فى الفرنسية الحديثة » وهى مؤلفات ظهرت من بضع سنوات ، وهناك مؤلف حديث وضعه الأستاذ جوجنهايم : « نظام نحوى للغة الفرنسية » . وقد نشرت الآنسة دوران نتائج بحث بعد شديد الابتكار هو : « النوع النحوى فى الفرنسية »

وندين للأستاذ أنطوان جريجوار بدراسة هامة عن « التدريب اللغوى » ظهر عام ١٩٣٦ . وقد ازدادت قائمة المراجع الخاصة بلهجات فرنسيى المستعمرات بكتاب ألفته الآنسة سلفان : « لهجة فرنسيى هايتى » عام ١٩٣٦ ، وهو مؤلف يقوم على أسس لغوية متينة .

ويجدر بنا أن نشير أخيراً إلى نشاط إليالا (IALA) International Auxiliary Language Association « الرابطة الدولية للغة المساعدة » ؛ وهى بجانب عنايتها بإيجاد واختيار أفضل لغة مساعدة للتخاطب الدولى ، تعنى عناية شديدة بمقترحات اللغويين المتخصصين . وهى حين تحقق الأغراض التى تسعى إليها تفيد اللغويين المختصين بالدراسات التى تقوم بها . وقد أصبحت بعض مطبوعاتها تقدم نتائج مفيدة للغويات عامة وخاصة ما كان يتصف من هذه المطبوعات بطابع إحصائى .

ج . فندريس

الفهرس

صفحة

تقديم : كلمة للمعربين — حـ — هـ

تصدير : اللغة وأداة التفكير للأستاذ هنرى ر — ١ — ٢١

مقدمة : للأستاذ ج. فندريس — ٢٤ — ٢٨

تمهيد : أصل اللغة — ٢٩ — ٤٢

مشكلة أصل اللغة تتجاوز الطرق التى فى حوزة علم اللغة ؛ وهى تدخل فى دائرة التاريخ البدائى للبشرية . اللغة — وهى نظام من العلامات يستخدم فى التخاطب بين الناس — تعدّ نظاماً يتطلب وجوده تحقيق ظروف معينة سيكلوجية واجتماعية .

الجزء الأول : الأصوات

الفصل الأول : المادة الصوتية — ٤٣ — ٦١

الترتيب الفسيولوجى للأصوات التى يمكن أن يحدثها الجهاز البشرى والإشارة إلى التغيرات الأساسية التى تقبلها الأصوات .

الفصل الثانى : النظام الصوتى وتغيراته . — ٦٢ — ٨٢

الأصوات التى يصدرها كل شخص يتكلم تكوّن نظاماً صوتياً ، تتغير عناصره بطريقة غير محسوسة ، مطلقة ومنظمة . قوانين واتجاهات صوتية . التفرقة بين التغيرات بالتطور والتغيرات بالإبدال .

الفصل الثالث : الكلمة الصوتية والصورة اللفظية . — ٨٣ — ١٠٣

تنوع العناصر التى تكوّن الكلمة الصوتية ؛ أثر بعضها فى البعض الآخر . الصورة اللفظية والجملة . العوارض التى تنتج فى تحقيق الصورة اللفظية .

الجزء الثانى : النحو

صفحة

الفصل الأول : الكلمات والأصوات . ١٠٤ — ١٢٤

التفرقة بين دوال النسبة ودوال الماهية . الفروق بين دوال النسبة فيما يختص بطبيعتها ومكانها وبالرابط الذى يربطها بدوال الماهية . لا يمكن تعريف الكلمة إلا إذا انتبهنا إلى التغيرات الصرفية

الفصل الثانى : الفصائل النحوية . ١٢٥ — ١٥٤

دراسة الفصائل النحوية الأساسية من حيث (النوع والعدد والزمن والحالة الفعلية) ؛ العلاقة بين الفصائل النحوية وصعوبة التوفيق بين النحو والمنطق .

الفصل الثالث : الأنواع المختلفة للكلمات : ١٥٥ — ١٨١

نقد التصنيف الجارى لأجزاء الكلام . المقابلة بين الاسم والفعل. محاولة تصنيف منطقى يقوم على تحليل للجملة الاسمية والجملة الفعلية . بيان تصنيف سيكلوجى .

الفصل الرابع : اللغة الانفعالية : ١٨٢ — ٢٠٢

أهمية التأثير فى اللغة . الطرق اللغوية التى يعبّر بها عن التأثير . نظام الكلمات . العلاقات بين اللغة الانفعالية واللغة النحوية .

الفصل الخامس: التغيرات الصرفية : ٢٠٣ — ٢٢٤

الظواهر العامة للتطور الصرفى . الاتجاه إلى التوحيد وطريقة القياس . الاتجاه إلى التعبيرية وتحول الكلمات المستقلة إلى أدوات نحويه .

الجزء الثالث : المفردات

الفصل الأول : طبيعة المفردات ومداها : ٢٢٥ — ٢٤٥

علم الاشتقاق . القيمة الحالية الغريبة للكلمات التى نستعملها حين نتكلم . كيف تتجمع الكلمات فى الذهن . رمزية الكلمات . تعذر إحصاء المفردات .

صفحة

الفصل الثانى : كيف تتغير الكلمات معانيها ؟ ٢٤٦ — ٢٧٠

حياة الكلمات والتأقلم . تغير المعانى بالتخصيص وبالتعميم . شروط إيجاد دلالة عامة .

الفصل الثالث : كيف تتغير الأفكار أسماءها ؟ ٢٧١ — ٢٩٤

البلى الصوتى والبلى المعنوى للكلمات . التحريم والتورية . الأسباب الاجتماعية لتغير المفردات . كيف تخلق كلمات جديدة ؟

الجزء الرابع : تكون اللغات

الفصل الأول : اللغة واللغات : ٢٩٥ — ٣٠٨

اللغة يجب أن تعرّف مستقلة عن الجنس وعن عقلية المتكلمين بها على أنها الصورة اللغوية المثالية التى تفرض على جميع الأفراد الذين ينتمون إلى مجموعة واحدة . تنوع اللغات يعكس تعقد العلاقات الاجتماعية .

الفصل الثانى : لهجات ولغات خاصة : ٣٠٩ — ٣٢٥

تعريف اللهجات . توزيع اللهجات وحدودها . تعريف اللغات الخاصة : اللهجات العامية واللغات الدينية .

الفصل الثالث : اللغات المشتركة : ٣٢٦ — ٣٤٧

توجد اللغات المشتركة من الاتجاه إلى التوحيد اللغوى . الأنواع المختلفة لتكوّن اللغات المشتركة . العلاقة بين اللغات المشتركة وبين هذه اللغات واللهجات .

الفصل الرابع : احتكاك اللغات واختلاطها . ٣٤٨ — ٣٦٦

النتائج المختلفة لصراع اللغات وفقاً لقيمتها الذاتية . كيف تموت اللغات ؟ شروط تكوين لغات مختلطة .

الفصل الخامس: القرابة اللغوية والمنهج المقارن : ٣٦٧ — ٣٨٣

كيف يجب علينا فهم القرابة بين اللغات ؟ مظهر التتابع ومظهر الوضع . قيمة المنهج المقارن فى تكوين الأسر اللغوية .

الجزء الخامس : الكتابة

صفحة

الفصل الأول : أصل الكتابة وتطورها : ٣٨٤ — ٤٠٢

تفترض الكتابة إدراكاً عقلياً للعلامة الكتابية . الكتابة المرسومة والكتابة التصويرية والكتابة الصوتية . المقطعية والأبجدية .

الفصل الثانى : اللغة المكتوبة والرسم : ٤٠٣

المظاهر العامة للغة المكتوبة ؛ علاقاتها بلغة الكلام . الفقر فى الرسم ؛ إلى أى حد يمكن إصلاح الرسم ؟

الخاتمة . تقدم اللغة ٤١٧

ضرر إدخال فكرة الكمال بمعناها الأدبى فى علم اللغة . تغير العناصر المختلفة للغة لا يؤدى إطلاقا إلى كمال دائم فى اللغة . تطور اللغات ما هو إلا انعكاس لتطور المجتمعات ، فبأية حيطة يجب علينا أن نقبل الافتراض القائل بتقدم اللغة ؟

المراجع : ٤٣٥

الملاحق : الأول والثانى والثالث ٤٤٩

فهرس : المواد ٤٦٨

التصويب : ٤٧٢

تصـــويب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢	٦	مشرع	مشروع
١٠	٢٧	ولا تول	ولا تقول
١٠	١٩	مؤسساته	ظلمه
١٠	٢٠	المؤسسات	التعلم
١١	٩	تعرف	تقف
٣٠	٢	ندلنا	تدلنا
٣٨	٣	اا لغة	اللغة
٤٣	٥	الإذن	الأذن
٥١	١	احتكاية	احتكاكية
٦٠	٢٠	لجج	لجج
٨٧	١٠	النبر	النبر
١٠٢	٢	نار عادية	نار عاتية
١٢٠	١٠	دو	دون
١٢٥	١٠	مهما	ومهما
١٢٥	١٠	إلى	فإن
١٢٥	١١	الاغريقية	الإغريقية القديمة
١٣٧	٢٢	لحطة	لحظة
١٣٧	٢٣	vois	vais
١٣٩	٢٦	إذ	إذا
[illegible]	[illegible]	pere	père
[illegible]	٢٢	اذ يرى	إذ يرى نفسه
١٤٥	٢٠	la mison ou	a maison où
[illegible]	٥	الصوف	الصرف
٢٣٢	٦	aston	Gaston
٢٣٥	١٤	دى بروسى	دى بروس
٢٤١	٢٣	مر	من
٢٤١	١٤	أ إلى	أو إلى
٢٦٤	١٤	مراد فتان	مرادفتين
٢٩٦	٥	قد نوضع	قد توضع
٣١٠	٥	ليس	ليست
٣١٥	٢ هامش	الخاصة ٣٢	الخاصة . ٥
٣٥٦	٥	والشرن	والعشرن
٣٨٥	٣	الرياضة النفسية	الرياضة الذهنية
٣٩٠	١٥	طلايلا	طويلا
٣٩١	١٢	مساوية	متساوية
٤٠٩	٤	فسيء	فسيءُ
٤١٥	١٤	هيء	هيءُ
٤١٥	١٥	مطبوعة	مطبوعا
٤٣٢	٢٣	ألن تكون	ألا تكون

الإشراف اللغوى: عزة شبل

الإشراف الفني: محسن مصطفى

تصميم أساسى للغلاف: أسامة العبد

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوع

يمثل كتاب "اللغة" للعلامة جوزيف ڤندريس - رئيس الجمعية اللغوية الفرنسية - علامة فارقة فى نقل المعارف الإنسانية من اللغات الأجنبية إلى لغتنا العربية؛ فهو بمثابة الدراسة المرجعية المتخصصة فى البحث اللغوى؛ إذ يتناول: الأصوات، والنحو والصرف، وتكوين اللغات، ثم أصل الكتابة وتطورها، وتقدم اللغة من خلال النظر فى تاريخ الإغريقية واللاتينية، وفى متابعة دءوبة لما طرأ من تطورات حادثة فى مجال البحث اللغوى.

تصميم الغلاف: نسرين كشك